الرافدين على الجلالين

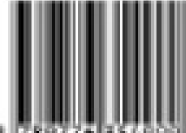
بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٨٣٤٠/ ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨



الدار العلمية للنشر والتجليد

العالمية للثقافة الدولية

 002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء الواحد والثلاثون





بسم الله الرحمن الرحيم

لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤).

{لهم ما يشائون عِنْد رَبّهمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ} لِأَنْفُسِهِمْ بِإِيمَانِهِمْ[(١)].

لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا

---

(١) قوله تعالى: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [الزمّر: ٣٤].

قال الطبري: يقول:"لهم عند ربهم يوم القيامة، ما تشتهيه أنفسهم، وتلذّه أعينهم".

قال السمعاني:"أي: ما يختارون".

قال ابن كثير:"يعني: في الجنة، مهما طلبوا وجدوا".

قوله تعالى: {ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ} [الزمّر: ٣٤]، أي:"ذلك جزاء مَن أطاع ربه حق الطاعة، وعبده حق العبادة".

قال مقاتل:"يعني: الموحدين".

قال الطبري: يقول:"هذا الذي لهم عند ربهم، جزاء من أحسن في الدنيا فأطاع الله فيها، وائتمر لأمره، وانتهى عما نهاه فيها عنه".

قال العثيمين: قوله تعالى: {لَهُمْ} أي: لهؤلاء المُتَّقين {مَا يَشَاءُونَ} أيِ: الذي يَشاؤُونه {عِنْدَ رَبِّهِمْ} وهو الله سبحانه وتعالى، وأَضاف الربوبية إليهم على وجه الخُصوص؛ لأن الرُّبوبية إلى المُتَّقين رُبوبيةٌ خاصَّة ليست كالربوبية العامة التي تَشمَل الكافِر والمُؤمِن والبَرَّ والفاجِر، وإنما هي رُبوبية خاصَّة.

وقوله تعالى: {ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ}: {ذَلِكَ} أي: كون جزائِهم ما يَشاؤون.

وقوله تعالى: {جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ} أيِ: المُحسِنين الذين أَحسَنوا في عِبادة الله تعالى وأَحسَنوا إلى عِباد الله تعالى، فالإحسان في عِبادة الله تعالى يُفسَّر بما فسَّره به النبيُّ ﷺ بأن تَعبُد الله كأنَّك تَراه، فإن لم تَكُن تَراه فإنه يَراك، والإحسان في مُعامَلة الخَلْق أن تَأتِيَ إليهم ما تُحِبُّ أن يُؤتَى إليك، وتُحِبَّ لهم ما تُحِبُّ لنَفْسك.

يَعْمَلُونَ (٣٥).

{لِيُكَفِّر الله عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرهمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} أَسْوَأ وَأَحْسَن بمعنى السيء والحسن(١).

---

(١) قوله تعالى: {لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا} [الزمّر: ٣٥].

قال مقاتل:"يعني: يمحوها بالتوحيد".

قال البغوي:"يسترها عليهم بالمغفرة".

قال الطبري: يقول:"وجزى هؤلاء المحسنين ربهم بإحسانهم، كي يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا في الدنيا من الأعمال، فيما بينهم وبين ربهم، بما كان منهم فيها من توبة وإنابة مما اجترحوا من السيئات فيها".

قال الزمخشري:"فإن قلت: ما معنى إضافة: «الأسوأ» و «الأحسن» إلى الذي عملوا، وما معنى التفضيل فيهما؟

قلت: أما الإضافة فما هي من إضافة أفعل إلى الجملة التي يفضل عليها، ولكن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل، كقولك: الأشج أعدل بنى مروان. وأما التفضيل فإيذان بأن السيء الذي يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة، هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية، والحسن الذي يعملونه هو عند الله الأحسن، لحسن إخلاصهم فيه، فلذلك ذكر سيئهم بالأسوإ وحسنهم بالأحسن".

قال القشيري:"من لا يكون مؤمنا فليس من أهل هذه الجملة. ومن كان معه إيمان: فإذا كفّر عنه أسوأ ما عمله فأسوأ أعماله كبائره فإن غفرت يجزهم بأحسن أعمالهم".

وقرئ: «أسواء الذي عملوا» جمع: «سوء».

قوله تعالى: {وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الزمّر: ٣٥]، =

=

أي:"ويثيبهم الله على طاعتهم في الدنيا بأحسن ما كانوا يعملون، وهو الجنة".

قال الطبري:"يقول: ويثيبهم ثوابهم {بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا} في الدنيا {يَعْمَلُونَ} مما يرضى الله عنهم دون أسوئها".

قال مقاتل:"{ويجزيهم} بالتوحيد {أجرهم}، يعني: جزاءهم {بأحسن الذي كانوا يعملون}".

قال العثيمين: قوله تعالى: {لِيُكَفِّرَ} اللَّام هنا للعاقِبة فيما يَظهَر؛ لأن لام التَّعليل تَأتِي أحيانًا للتَّعليل وأحيانًا لبَيان العاقِبة؛ فإن كان ما قَبلَها سببًا لما بَعدَها فهي للعاقِبة، وإن كان ما بعدَها عاقِبةً لما قَبْلها ولا يُراد به وليس مُرادًا فهي للعاقِبة، هذا هو الفَرْق بينهم.

فإذا قلت: جِئْت لأَقرَأ فاللَّام هنا للتعليل، وإذا قال قائِل: سافَرْت ليَحصُل لي الحادِث. فاللَّام هنا للعاقِبة؛ وفي قوله تعالى: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} للعاقِبة، فالفَرْق بينهما:

١ - إن كان ما قَبْلها سببًا لما بعدَها فهي للتَّعليل.

٢ - إذا كان ما بعدَها عاقِبةً لما قبلها غير مَقصود فهي للعاقِبة.

وقوله ﷻ: {لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا} يَعنِي: عاقِبة التَّقوى أن يُكفِّر الله تعالى عنهم أَسوَأَ الذي عمِلوا، ويُحتَمَل أن تَكون للتَّعليل بمَعنَى: أنهم اتَّقَوا الله من أَجْل التكفير.

وقال تعالى: {لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا} وذلك بأن يُنعِم عليهم بالعَفْو عنه، والغالِب أن التَّكفير يَأتِي مُكفِّرًا بأعمال مُقابِلة؛ فالسَّيِّئات تُكفَّر بالحسَنات، وانظُرْ إلى الظِّهار، فإذا ظاهَر الإنسان كفَّر بما ذكَر الله ﷻ، يَعنِي: أَتَى بحسَنات تُغطِّي ما فعَل من الذُّنوب، واليَمين إذا حنِثَ كفَّر، فالغالِب أن التَّكفير يَكون في مُقابَلة حسَناتٍ تُغطِّي السَّيِّئاتِ، ويَجوز أن يَكون التَّكفير مُجرَّد فَضْلٍ من الله ﷻ

=

=

يَستُر الله تعالى على عبده الذَّنْب تَفضُّلًا منه.

وقوله تعالى: {أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا}: {أَسْوَأَ} اسمُ تَفضيل، وهو على بابه، فإذا كان الله تعالى يُكفِّر عنهم أسوَأ ما عمِلوا فما دونه من بابِ أَوْلى، ويَكون التعبير بالأَسوَأ من باب البِشارة لهم.

وقوله تعالى: {وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ} أي: ثوابهم على ما عمِلوا من الحسَنات {بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي: بأَحسَن الجَزاء.

فقوله تعالى: {بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي: بأَحسَن جَزاء الذي كانوا يَعمَلون، وذلك أن الحسَنَة بعَشْر أَمثالها إلى سَبعِ مِئة ضِعْف إلى أضعافٍ كثيرة، و (أَحسَن) هنا على بابها؛ أي: أنها اسم تَفضيل، فلا يُجازيهم الحَسَنة بحَسَنة، بل بأَحسَن منها، فالحسَنة بعشَرة أمثالها إلى سَبْعِ مئة ضِعْف إلى أضعافٍ كثيرة.

وقوله تعالى: {بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} لا يَخفَى أن قوله: {كَانُوا يَعْمَلُونَ} صِلةٌ للمَوْصول {الَّذِي}، وصِلة المَوْصول تَحتاج إلى عائِد يَعود على المَوْصول؛ ليَربِط الصِّلة به، والعائِد هنا مَحذوف، والتَّقدير: يَعمَلونه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [(أَسوَأ) و (أَحسَن) بمَعنَى السَّيِّئ والحَسَن]، لكنه قولٌ غير صَحيح؛ لأنه يُعتبَر تحريفًا للقُرآن؛ لأن كلَّ واحِدٍ يَعرِف أن (أَسوَأ) اسمُ تَفضيل، وسَيِّئ وَصْفٌ ليس فيه تَفضيل، وكذلك (أَحسَنُ) اسمُ تَفضيل وحَسَن وَصْفٌ ليس فيه تفضيل، فما بالُنا نَنزِل مَرتَبة من التَّفضيل إلى ما هو أَدْنى؟! فهذا يُعتبَر خطَأً وتَحريفًا.

فالصوابُ ما قُلناه أوَّلًا: أن اسم التَّفضيل هنا على بابه، وأن الله تعالى بشَّرَهم بأنه يُكفِّر الأَسْوَأ، ومَن كفَّر الأسوَأَ كفَّر ما دونَه، وبشَّرهم بأنه يَجزيهم أَحسَن ما كانوا يَعمَلون، لا أنه يَجزيهم الحسَنة بمِثْلها، بل أَحسَنَ، وهذا فرقٌ عظيم بين الحسَن والأحسَن والسَّيِّئ والأَسوَأ.

أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦).

{أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْده} أَيْ النَّبِيّ بَلَى {وَيُخَوِّفُونَك} الْخِطَاب لَهُ {بِالَّذِينَ مِنْ دُونه} أَيْ الأصنام أن تقتله أو تخبله {ومن يضلل الله فما له من هاد}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن قتادة؛ قال: قال لي رجل: قالوا للنبي ﷺ: لتكفن عن شتم آلهتنا أو لتأمرنها فلنغالبك؛ فنزلت: {وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢٢٩) ونسبه لعبد الرزاق وابن المنذر.

الذي في "تفسير عبد الرزاق" (٢/ ١٧٣) عن معمر به دون ذكر قتادة؛ يعني: معضلًا، وكذا ذكره السيوطي على الجادة في "لباب النقول" (ص ١٨٥) مقطوعًا على معمر. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

* قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمّر: ٣٦].

قال السعدي:"أي: أليس من كرمه وجوده، وعنايته بعبده، الذي قام بعبوديته، وامتثل أمره واجتنب نهيه، خصوصا أكمل الخلق عبودية لربه، وهو محمد ﷺ، فإن الله تعالى سيكفيه في أمر دينه ودنياه، ويدفع عنه من ناوأه بسوء".

قال مقاتل:"يعني النبي ﷺ يكفيه عدوه".

قال البيضاوي:"استفهام إنكار للنفي مبالغة في الإثبات، والعبد رسول الله ﷺ ويحتمل الجنس ويؤيده قراءة حمزة والكسائي «عباده» ، وفسر بالأنبياء صلوات الله عليهم".

قال الزمخشري:"أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي، فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها".

قال الزجاج:"معنى: {بكاف عبده} يدل على النصر، وعلى أنه كقوله: {لِيُظْهِرَهُ =

=

عَلَى الدِّينِ كُلِّه} [التوبة: ٣٣/ الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، وهو مثل: {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} [الحجر: ٩٥]".

قال الفراء:"والذين قالوا «عباده» قالوا: قد همت أمم الأنبياء بهم، ووعدوهم مثل هذا، فقالوا الشعيب {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ} [هود: ٥٤]، فقال الله: «أليس الله بكاف عباده»، أي: محمدا عليه السلام والأنبياء قبله، وكل صواب".

عن السدي:"{أليس الله بكاف عبده}، يقول: محمد ﷺ".

قال ابن زيد، في قوله: " {أليس الله بكاف عبده}، قال: بلى، والله ليكفينه الله ويعزه وينصره كما وعده".

عن فضالة بن عبيد الأنصاري؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:"طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به".

قوله تعالى: {وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} [الزمّر: ٣٦]، أي:"ويخوِّفونك -أيها الرسول- بآلهتهم التي زعموا أنها ستؤذيك".

قال مقاتل:"وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: إنا نخاف أن يصيبك من آلهتنا اللات والعزى ومناة جنون أو خبل".

قال السعدي: أي: " من الأصنام والأنداد أن تنالك بسوء، وهذا من غيهم وضلالهم".

عن السديّ: " {وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ}، يقول: بآلهتهم التي كانوا يعبدون".

قال ابن زيد:"يخوّفونك بآلهتهم التي من دونه".

قال مجاهد:"يعني: يخوفونك بالأوثان التي يعبدون من دون الله عز وجل".

قال قتادة:"بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى شعب بسُقام ليكسر العزّى، فقال سادنها، وهو قيمها: يا خالد أنا أحذّركها، إن لها شدّة لا يقوم إليها شيء،

=

فمشى إليها خالد بالفأس فهشّم أنفها".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمّر: ٣٦]، أي:"ومن يخذله الله فيضله عن طريق الحق، فما له مِن هاد يهديه إليه".

قال الطبري: يقول:"ومن يخذله الله فيضلَّه عن طريق الحق وسبيل الرشد، فما له سواه من مرشد ومسدّد إلى طريق الحقّ، ومُوفِّق للإيمان بالله، وتصديق رسوله، والعمل بطاعته".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} الاستِفْهام هنا للتقرير بِناءً على القاعِدة التي ذكَرْناها من قبلُ، وهي: أن هَمزة الاستِفْهام إذا دخَلَت على ما يُفيد النفيَ أَفادَتِ التقرير مثل قوله تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: ١]، يَعنِي: قد شَرَحْنا لك صدرَك، وقوله تعالى: {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} [المؤمنون: ١٠٥]، يَعنِي: قد كانَت وهكذا قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} يَعنِي: قد كفَى اللهُ تعالى عبدَه.

وقوله تعالى: {بِكَافٍ عَبْدَهُ} الذي نَصَب (عبدَه) قوله تعالى: (كافٍ)؛ لأن (كافٍ) اسم فاعِل وفاعِله مُستَتِر، و (عبد) مَفعولٌ به.

و(عَبْد) مُفرَد مُضاف فيَكون عامًّا لجَميع مَنِ اتَّصَف بهذا الوَصْفِ، فكُل مَن كان عبدًا لله تعالى حقًّا فإن الله تعالى كافيه، ومثل هذا قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق: ٣]، ومثله قوله تعالى: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٣٧]، فالعَبْد هنا وَصْفٌ شامِل لا يَختَصُّ بأحَد دون الآخَرِ، فكُلُّ مَن انطَبَقت عليه العُبودية حَقًّا فالله تعالى كافيه: {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ}، والجَوابُ على هذه الجُملةِ أن يقال: بَلَى.

ثُمَّ قال تعالى: {وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ: هنا الخِطاب [للنبيِّ]ﷺ {وَيُخَوِّفُونَكَ} وعَطَف (يُخوِّفونك) الخاصَّ بالرسول ﷺ لا يَقتَضي

=
تَخصيص اللَّفْظ العامِّ قبلَه، وقد تَقدَّم مثلُ هذا كثيرًا؛ يُذكَر لفظٌ عامٌّ، ثُمَّ يُذكَر حُكْم يَختَصُّ ببعض أفراده.

قُلنا: إن هذا لا يَقتَضي التخصيص، ومن ذلك حديث: "قضَى النبيُّ ﷺ بالشُّفْعةِ في كُلِّ ما لَمْ يُقسَمْ" ، فكونه قَضَى في كُلِّ ما لم يُقسَم، في كل الذي لم يُقسَم عامٌّ، (فإذا وقَعَتِ الحُدودُ وصُرِفت الطُّرُق فلا شُفعةَ)، هذا حُكْم يَختَصُّ ببعض أحكام العامِّ بالأراضي، فهنا نَقول: إن الأوَّل عامٌّ، وذِكْر بعض أفراد العامِّ وذِكْر حُكمٍ يَختَصُّ ببعض أفراد العامِّ لا يَقتَضي التخصيص.

ومثله أيضًا في القُرآن: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} إلى أن قال تعالى: {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ} فالمُطلَّقات عامٌّ، وبُعولتُهن حُكْمٌ يَختَصُّ ببعض أفراد هذا العامِّ، أمَّا الفَرْد الذي يَختَصُّ به فإنه (الرَّجعية)؛ ونَقول: إن قوله سبحانه وتعالى: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} هذا عامٌّ، فالمَعروف عند أهل العِلْم رحمهم الله أنه عامٌّ، المُطلَّقات اللاتي طُلِّقن بطلاقٍ بائِن أو بطلاقٍ رَجْعيٍّ.

وهنا هذا المِثالُ في القُرآن هل يَنطَبِق عليه أو لا؛ أي: قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} ؟

الجَوابُ: يَنطَبِق عليه، فقوله تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} عامٌّ، ولم يَقُل: أَليْس اللهُ بكافِيكَ ويُخوِّفونك.

وقوله تعالى: {وَيُخَوِّفُونَكَ} هذا خاصٌّ بالنبيِّ ﷺ؛ على أن لواحِدٍ أن يَقول: لماذا لا يَصِحُّ أن يَكون الخِطاب مُوجَّهًا لكل مَن يَصِحُّ خِطابه، أي: يُخوِّفونك أيُّها المُخاطَب، كما جرَت به العادة في كثيرٍ من النُّصوص؟

فالجَوابُ على هذا أن نَقول: إنه لا يَصِحُّ أن يَكون مُوجَّهًا لكل مُخاطَب؛ لأن كل مُخاطَب لا يَتَأَتَّى عليه هذا الوصفُ، فليس كلُّ مُخاطَب خُوِّف بالذين من دون الله
=

=

تعالى، وإنما الذي خوف من دون الله تعالى هو النبيُّ ﷺ الذي خُوِّف بالذي من دون الله تعالى؛ لأنهم كانوا يَتوعَّدونه بآلهتهم.

فهذا المِثالُ يَنطَبِق على ما ذكَرْناه من القاعِدة أنه إذا ورَد لفظٌ عامٌّ ثُم أُتِيَ بعده بحُكْمٍ يَختَصُّ ببعض أفراده فإن ذلك لا يَقتَضي التَّخصيص، بل يَبقَى العامُّ على عُمومه، ويَثبُت الحُكْم لهذا الفَردِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وَيُخَوِّفُونَكَ} الخِطاب له] أي: للنبيِّ ﷺ [{بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} أيِ: الأصنام، أي: تَقتُله أو تُخبِله] وهذا كقوله تعالى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٧٥].

فهم يُخوِّفون النبيَّ ﷺ بالذين مِن دون الله تعالى، وتَخصيص هذا بالأَصنام كما خصَّصه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه نظَر، بل يُخوِّفونه بالذين من دونه من الأصنام وغير الأصنام حتى من ذَوِي السُّلْطان، فتقولون مثَلًا: يَفعَل بك فُلان، أو تَفعَل بك الجِنُّ، أو يُفعَل بك كذا أو كذا، فيَنبَغي أن نَحمِل {بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} على العُموم لا على خُصوص الأصنام؛ لأن التَّخويف أعَمُّ من ذلك.

والآن مثَلًا في وَقْتنا هذا لو قال قائِل لشَخْص: أنت إن نَهَيْت عن هذا المُنكَرِ سأَرفَع بك إلى فُلان. ممَّن يُخشَى شَرُّه، هل هذا مُخوَّف بالذين من دون الله تعالى؟

الجَوابُ: نعَمْ هذا مُخوَّف بالذين من دون الله تعالى، فالآية عامَّة ولا يَنبَغي أن نُخصِّصها، كما ذهَب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}: (مَن) شَرْطية فتُفيد العُموم؛ فمَن يُضلِل اللهُ تعالى فما له مِن هادٍ يَهديه.

وقوله تعالى: {فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} الجُمْلة هذه اسمِيَّة مُكوَّنة من مُبتَدَأ وخبَر؛ فإن قال قائِل: عجَبًا أن نَقول: إنها مُكوَّنة من مُبتَدَأ وخبَر، ونحن لا نَجِد فيها لا مُبتَدَأ ولا خبَرًا، أين الاسمُ المرفوعُ والمَعروف أن المُبتَدَأ والخبَر يَكونان مَرفوعَيْن، وهنا

=

=

ليس هناك شيءٌ مَرفوع؟

فالجَوابُ: أن نَقول: (ما) نافية، و {لَهُ} جارٌّ ومَجرور خبَر مُقدَّم و {مِنْ هَادٍ} مُبتَدَأ مُؤخَّر، ونُعرِب {مِنْ هَادٍ} فنَقول: {مِنْ} حرف جَرٍّ زائِدٌ، و {هَادٍ} اسمٌ مَجرور بـ {مِنْ} لَفظًا، وهو مُبتَدَأ مَرفوع بضَمَّة مُقدَّرة على الياء المحذوفة منَعَ من ظُهورها التِقاء الساكِنين، وهُما سكون الياء المَحذوفة، ونون التَّنوين؛ لأنه ليس هناك حرَكة على الياء هنا، بل على الياء المحذوفة؛ لالتقاء الساكِنَيْن، والتي قُدِّرت عليها الكَسْرة لمُناسَبة حَرْف الجرِّ الزائِد؛ وإلَّا يَكفي أن نَقول: {مِنْ} حَرْف جَرٍّ زائِدٌ، و {هَادٍ} مُبتَدَأ مَرفوع بضَمَّة مُقدَّرة على الياء المَحذوفة لالتِقاء الساكِنَيْن، ونَنْتَهي لأن حَرْف الجَرِّ الزائِدَ في مثل هذه الكلِمةِ لا يَظهَر.

وقوله تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} يَعنِي: مَن يُقدِّر الله تعالى ضلالَه فإنه لا أحَدَ يَهديه مَهما اجتَمَعَتْ عليه الأُمَّة، وها هو أَعظَمُ الخَلْق في الهِداية والدَّلالة مُحمَّدٌ ﷺ حرَص غاية الحِرْص لهِداية عمِّه أبي طالِب إلى آخِر أَنْفاسه، ولكن لم يَهتدِ؛ لأن الله ﷻ كتَبَ عليه الضَّلالة فكان آخِرُ ما قال أَنْ شهِد شهادة الكُفْر، فقال: هو على مِلَّة عبد المُطلِّب. ولكن النبيَّ ﷺ لحُسْن أَخلاقه؛ ولأن عمَّه قام قِيامًا نصَر به الإسلام شفَع له عند الله تعالى، فكان في ضَحضاحٍ من نارٍ، وعليه نَعْلان من نارٍ يَغلِي منهما دِماغه أعلى ما فيه، والنِّعال في أسفَل ما فيه والدِّماغ يَغلِي؛ فما بالُك بما دونَه من الجِسْم فإنه أَشَدُّ غليانًا، وإنه لأَهوَن أهل النار عذابًا، ويُرَى أنه أَشَدُّهم عَذابًا ، ولماذا يُريه الله تعالى أنه أَشَدُّهم عذابًا؟ لئِلَّا يَتَسلَّى بغيره؛ لأن صاحِب النار لو عَلِم أن غيرَه أَشَدُّ منه أو مثلُه لتَسلَّى وهانَ عليه الأمرُ، وقد أَشار الله تعالى إلى ذلك في قوله تعالى: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} [الزخرف: ٣٩]، مع أنكم لو اشترَكْتم في العذاب في الدنيا لهان عليكم.

=

وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧).

{وَمَنْ يَهْدِ الله فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلّ أَلَيْسَ الله بِعَزِيزٍ} غَالِب عَلَى أَمْره {ذِي انْتِقَام} مِنْ أَعْدَائِهِ بَلَى[1].

=

فإن قال قائِل: إن أبا طالِب يَرَى نَفْسه أنه أَشَدُّ الناس عذابًا؛ لأنه لو رأَى أنه أَقلُّهم يَعنِي: يَتَسلَّى به، فهل هذا يَعنِي أنه ما عَلِم بشَفاعة النبيِّ ﷺ له أنه في هذا الضَّحضاح أم علِم، ولكنه يَرَى أنه أَشَدُّ الناس.

قُلْنا: الظاهِر سواء أن علِم أو ما علِم هو يَرَى أنه أَشَدُّ الناس، وكونه اللهُ تعالى أَعلَمه أنه كان يَستَحِقُّ الدَّرْك الأَسْفل من النار، ولكن له شَفاعة الرسول ﷺ قد يَكون اللهُ تعالى أَعلَمه بهذا؛ ليُعلِمه أن الله تعالى قد جازاه وكافَأَه على ما صنَع بالرسول عليه الصلاة والسلام وقد لا يَكون، والله تعالى أَعلَمُ.

وانظُرْ إلى كعبِ بنِ مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا قيل: إنه تَخلَّف عن غَزوة تَبوكَ فُلان وفُلان هان عليه الأمر، وهذا شيءٌ مُسلَّم، والخَنْساء تَرثِي أخاها صَخرًا وتَقول:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

إِذَنْ نَقول: مَن قدَّر الله تعالى ضلالَه فلن يَهديَه أحَدٌ مهما أُوتِيَ من الآيات، فإنها لا تُغنِي الآياتُ والنُّذُرُ عن قوم لا يُؤمِنون.

(١) قوله تعالى: {وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ} [الزمّر: ٣٧].

قال الطبري:"يقول: ومن يوفِّقه الله للإيمان به، والعمل بكتابه، فما له من مضلّ، يقول: فما له من مزيغ يزيغه عن الحق الذي هو عليه إلى الارتداد إلى الكفر".

قال الواحدي:"من تولى الله هدايته لم يضله أحد".

قال السعدي:"لأنه تعالى الذي بيده الهداية والإضلال، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن".

=

قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ} [الزمّر: ٣٧]، أي:"أليس الله بعزيز في انتقامه مِن كفرة خلقه، وممن عصاه؟".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: أليس الله يا محمد بعزيز في انتقامه من كفرة خلقه، ذي انتقام من أعدائه الجاحدين وحدانيته".

قال الواحدي:"{عزيز}: غالب لا يمتنع عليه شيء، {ذي انتقام}: ممن عصاه وكفر به".

قال السعدي:"له العزة الكاملة التي قهر بها كل شيء، وبعزته يكفي عبده ويدفع عنه مكرهم. {ذِي انْتِقَامٍ} ممن عصاه، فاحذروا موجبات نقمته".

قال الزمخشري:"{بِعَزِيزٍ} بغالب منيع، {ذِي انْتِقَامٍ} ينتقم من أعدائه، وفيه وعيد لقريش ووعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم منهم، وينصرهم عليهم".

قال محمد بن إسحاق: "العزيز في نصرته ممن كفر إذا شاء".

قال أبو العالية:"{عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ} أي: مَن يُقدِّر اللهُّ تعالى هِدايته فما له من مُضِلٍّ، ولا أَحَدَ يَستَطيع أن يُضِلَّه مهما كثُرَتِ الشُّبُهاتُ وكثُرَتِ الشَّهَواتُ، فإذا قدَّر الله تعالى على العَبْد الهِداية فلن يُضِلَّه لا شهوةٌ ولا شُبهةٌ؛ لأنه عند الشَّهوة يُغلِّب العَقل فيَمتَنِع منها، وعند الشُّبهة يُغلِّب العِلْم فيَهتَدِي به منها، فمَن يَهدِه الله تعالى فما له من مُضِلٍّ.

وفي هذه الجُملةِ من تَشجيع الإنسان على الاستِمرار في الهِداية ما هو ظاهِر؛ لأن الله تعالى هو الذي هَداه ولا أحدَ يَستَطيع أن يُضِلَّه؛ وفيها اللُّجوء لله ﷻ في طلَب الهِداية منه والاستِمرار عليها.

ثُمَّ قال تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ} الجَوابُ: بلَى، وقوله تعالى: {بِعَزِيزٍ}

=

هذه خبَر (ليس) دخَلَت عليها الباء الزائِدةُ لَفْظًا الزائِدةُ مَعنًى؛ لأنها تُفيد تَوكيد العُموم في النَّفي إذ إن النفيَ يُفيد العُموم إذا أَتى بعده اسمٌ نكِرة، لكن إذا دخَلَتِ الباء فإن حُروف الزيادة من أَحرُف التَّوْكيد، كما ذكَر ذلك عُلماء البلاغة.

وقوله تعالى: {بِعَزِيزٍ} قال المُفسِّرون لأَسماء الله تعالى الحُسنى: (العَزيز) له ثلاثة مَعانٍ:

المَعنَى الأوَّل: عِزَّة القَدْر.

والمَعنَى الثاني: عِزَّة القَهْر.

والمَعنَى الثالِث: عِزَّة الامتِناع.

أمَّا عِزَّة القَدْر فمَعناها: أن الله ذو قَدْرٍ عظيم وشرَفٍ كبير، لا أحَدَ يُماثِله، ولا أحَدَ يُساوِيه أو يُقارِبه.

وأمَّا عِزَّة القَهْر فمَعناها: أن الله تعالى قاهِرٌ لكل شيء، غالِبٌ لكل شيء.

وأمَّا عِزَّة الامتِناع فمَعناها: أن الله تعالى يَمتَنِع عليه كلُّ عَيْبٍ ونَقْص.

وهذا معروفٌ في اللُّغة العربية، فالمَعنَى الثاني الذي هو الغلَبة قال فيه الشاعِر:

أَيْنَ المَفَرُّ وَالْإِلَهُ الطَّالِبُ ... وَالْأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ

وأمَّا الأوَّل الذي هو عِزَّة القَدْر فيُقال: هذا عزيزٌ أي: نادِر لا يُوجَد؛ لشرَفه وكرَمه.

وأمَّا الثالِث فقولهم: أرضٌ عَزاز. أي: قوِيةٌ صُلْبة يَمتَنِع، أو تَمتَنِع أن تَحفُرها المَعاوِل.

فالله ﷻ عزيزٌ بهذه المَعاني الثلاثة.

وقوله تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ}: {ذِي} بمَعنَى: صاحِب، وانتِقام نكِرة، والنَّكِرة في سِياق الإثبات لا تُفيد العُموم، ولكنها هنا في سِياق {أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ} أي: صاحِب انتِقام، فكلَّما كانت الحِكْمة في الانتِقام انتَقَمَ.

وتَأمَّل قوله تعالى: {ذِي انْتِقَامٍ} ولم يَقُل: مُنتَقِم؛ لأنه ليس من أَسماء الله تعالى

=

المُنتَقِم ولم تَأتِ المُنتَقِم في أسماء الله تعالى في حديثٍ صحيح، وإنما جاءَت باسْمِ الفاعِل مُقيَّدًا، كقوله تعالى: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} [السجدة: ٢٢]، ولم يَقُل: إنا مُنتَقِمون. وقال: {ذِي انْتِقَامٍ} أي: صاحِب انتِقام في مَوضِعه، فالمُنتَقِم ليس من أسماء الله تعالى حتى وإن قُرِنت بالعَفوِ خِلافًا لما ذهَب إليه بعض العُلَماء رحمهم الله من أنه إذا قُرِنت بالعَفو فلا بأسَ، بل نَقول: المُنتَقِم ليس من أسماء الله تعالى لا مَقرونًا بالعَفوِ ولا مُنفرِدًا عنه، لكنه يُوصَف بالانتِقام مُقيَّدًا {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}، ويُوصَف بأن الانتِقام يَصدُر مِنه لا أنه مُنتَقِم؛ لقوله تعالى: {بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ}.

فإن قال قائِل: هل يَجوز أن يَكون المُنتَقِم من أسماء الله تعالى المُقيَّدة؟

قُلنا: لا، لأن الله تعالى قيَّد الانتِقام لمَّا وصَف نفسَه باسمِ الفاعِل قيَّده، وهنا نَقول:

أوَّلًا: إن أسماء الله تعالى كلُّها مُتَضمِّنة لصِفات، فكلُّ اسمٍ فهو مُتضَمِّن لصِفة، أو أكثَرَ من صِفة، وليس كلُّ صِفة تَتَضمَّن اسمًا.

إِذَنِ: الصِّفات صارت أَوسَعَ من الأسماء.

ثانيًا: الصِّفاتُ منها ما وصَفَ الله تعالى بها نَفْسه فهذا لا شَكَّ في أنه جائِز، ولكننا نَصِفُ الله تعالى به على حسَب ما وصَفَ به نَفْسه؛ فقال الله ﷻ: {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [إبراهيم: ٤٧] هنا لا نَقول: إن الله تعالى مُنتَقِم، بل نَقول: ذو انتِقامٍ أَيْ: لَه انتِقامٌ، وفَرْقٌ بين أن أُسمِّيَ الرجُل بالنَّجَّار؛ لأن مِهْنته النِّجارة، أو أَقول: له نِجَارةٌ. يَعنِي: يَنجُر إن دعَتِ الحاجة إلى ذلك؛ فيُوصَف الله تعالى بما وصَفَ الله تعالى به نَفْسه من الصِّفات؛ على حسَب ما يَصِف به نَفْسه، وما لم يَصِف به نفسه إن كان دالًّا على مَعنًى يَليق بالله جاز أن يُخبَر به عن الله تعالى، وإن كان دالًّا على مَعنًى لا يَليق بالله تعالى حرُم أن يُوصَف به الله تعالى لا خبَرًا ولا وَصْفًا لازِمًا.

وهذه مَسأَلة مُهِمَّة، يَعنِي: ما لا يَليق بالله تعالى لا يَجوز أن نَصِفه به لا على سَبيل

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨).

{ولئن} لام قسم {سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم مَا تَدْعُونَ} تَعْبُدُونَ {مِنْ دُون الله} أَيْ الْأَصْنَام {إِنْ أَرَادَنِي الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَات ضُرّه ؟} لَا {أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَات رَحْمَته} لَا وَفِي قِرَاءَة بِالْإِضَافَةِ فِيهِمَا {قُلْ حَسْبِيَ الله عَلَيْهِ يَتَوَكَّل الْمُتَوَكِّلُونَ} يثق الواثقون[1].

=

الفِعْل ولا على سَبيل الوَصْف اللازِم، وما كان لا يُخالِف ما يَليق بالله تعالى جاز أن نُخبر به عنه، وقد ذكَرَ شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ هذا التَّقسيمَ في كِتاب (الفتاوى) في قِسْمَ التَّوْحيد.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ} غالِب على أَمْره].

وتَفسيره العَزيزَ بالغالِب على الأَمْر يُعتبَر قاصِرًا؛ لأن العِزَّة لها ثَلاثة مَعانٍ كما شرَحْنا، قال رَحِمَهُ اللهُ: [{ذِي انْتِقَامٍ} من أعدائه؟ بلَى] والانتِقام أَخْذ المُجرِم بجَريمته، وقوله تعالى: (بلَى) هذا جَواب الاستِفْهام في قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ}.

(١) قوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ} [الزمّر: ٣٨].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين العادلين بالله الأوثان والأصنام: مَنْ خلق السموات والأرض؟ ليقولن: الذي خلقه الله".

=

=

قال عكرمة:"فإذا سئلوا عن الله وعن صفته، وصفوه بغير صفته، وجعلوا له ولدًا، وأشركوا به".

قوله تعالى: {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} [الزمّر: ٣٨]، أي:"قل لهم يا محمد توبيخًا وتبكيتًا: أخبروني بعد أن تحققتم أن خالق العالم هو الله عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله".

قال الطبري:"فقل: أفرأيتم أيها القوم هذا الذي تعبدون من دون الله من الأصنام والآلهة".

قوله تعالى: {إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ} [الزمّر: ٣٨]، أي:"أخبروني هل تستطيع هذه الآلهة التي تشركونها مع الله أن تُبْعِدَ عني أذى قدَّره الله عليَّ، أو تزيلَ مكروهًا لَحِق بي؟".

قال الطبري: أي " {إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ} بشدة في معيشتي، هل هن كاشفات عني ما يصيبني به ربي من الضر؟".

عن قتادة، قوله: " {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ} حتى بلغ {كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ}، يعني: الأصنام".

قوله تعالى: {أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ} [الزمّر: ٣٨]، أي:"ولو أراد الله لي نفعًا من نعمة ورخاء، هل تستطيع هذه الآلهة أن تحبس رحمة الله عني؟".

قال الطبري:"يقول: إن أرادني برحمة أن يصيبني سعة في معيشتي، وكثرة مالي، ورخاء وعافية في بدني، هل هن ممسكات عني ما أراد أن يصيبني به من تلك الرحمة؟ وترك الجواب لاستغناء السامع بمعرفة ذلك، ودلالة ما ظهر من الكلام عليه. والمعنى: فإنهم سيقولون لا".

قال الزمخشري:"فإن قلت. لم قيل: {كاشفات}، و {ممسكات} - على

=

=

التأنيث- بعد قوله تعالى: {ويخوفونك بالذين من دونه}؟

قلت: أنثهن وكن إناثا وهن اللات والعزى ومناة. قال الله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى} [النجم: ١٩- ٢١] ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف وتعجيز عما طالبهم به من كشف الضر وإمساك الرحمة، لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة، كما أن الذكورة من باب الشدة والصلابة، كأنه قال: الإناث اللاتي هن اللات والعزى ومناة أضعف مما تدعون لهن وأعجز. وفيه تهكم أيضا".

قوله تعالى: {قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} [الزمّر: ٣٨]، أي:"قل لهم: حسبي الله وكافِيَّ، عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي بيده وحده الكفاية هو حسبي، وسيكفيني كل ما أهمني".

قال الطبري:"فقل: حسبي الله مما سواه من الأشياء كلها، إياه أعبد، وإليه أفزع في أموري دون كلّ شيء سواه، فإنه الكافي، وبيده الضر والنفع، لا إلى الأصنام والأوثان التي لا تضر ولا تنفع، على الله يتوكل من هو متوكل، وبه فليثق لا بغيره".

قال ابن كثير:"أي: الله كافيّ، عليه توكلت وعليه يتوكل المتوكلون، كما قال هود، عليه السلام، حين قال له قومه: {إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِي إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: ٥٤- ٥٦]".

قال الزمخشري:"فإن قلت: لم فرض المسألة في نفسه دونهم؟

قلت: لأنهم خوّفوه معرّة الأوثان وتخبيلها، فأمر بأن يقرّرهم أوّلا بأنّ خالق العالم هو الله وحده، ثم يقول لهم بعد التقرير: فإذا أرادنى خالق العالم الذي أقررتم به

=

{بضرّ} من مرض أو فقر أو غير ذلك من النوازل. أو {برحمة} من صحة أو غنى أو نحوهما، هل هؤلاء اللاتي خوّفتموني إياهن {كاشفات} عنى {ضره} أو {ممسكات رحمته}، حتى إذا ألقمهم الحجر وقطعهم حتى لا يحيروا ببنت شفة، قال {حَسْبِيَ اللَّهُ} كافيا لمعرّة أوثانكم {عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}، وفيه تهكم".

عن ابن عباس، قال:"كنت رديف رسول الله ﷺ، فقال: «يا غلام، أو يا غليم، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟» فقلت: بلى. فقال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء، يعرفك في الشدة، وإذا سألت، فاسأل الله، وإذا استعنت، فاستعن بالله، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»".

عن ابن عباس- رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ- قال: "من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ} الخِطاب إمَّا للرسول ﷺ، أو لكل مَن يَتوجَّه إليه الخِطاب، واللَّام في قوله تعالى: {وَلَئِنْ} مُوطِّئةٌ للقسَم، و (إِنْ) شَرْطية، والجَواب في قوله تعالى: {لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} جواب القسَم؛ لأنه قُرِن باللَّام، والذي يُجاب باللَّام هو القسَم وليس الشَّرط، والقاعِدة: أنه إذا اجتَمَع شَرْط وقسَم فالجَواب للسابِق منهما؛ قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ اللَّهُ في الأَلْفية:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

والمُؤخَّر هنا الشرط فيُحذَف جوابه ويَكون جوابه مَعلومًا من جواب القسَم.

=

قوله سبحانه وتعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ} سُؤال استِفْهام {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} يَعنِي: مَن أَوْجَدهما على هذه الصَّنْعة البَديعة، والسمواتُ مَأخوذة من السُّموِّ وهو العُلو؛ لعُلوِّها وارتِفاعها؛ وجمَعَها لأنها سَبْع سمَواتٍ وطباقًا، أي: مُتَطابِقة، فكل واحِدة فَوْق الأخرى، وعلى هذا فتكون الثانية أَوْسَعَ من الأُولى، والثالثة أَوسَعَ من الثانية، والرابعة أَوسَعَ من الثالِثة ... وهلُمَّ جَرًّا، وإذا كان بينهما مَسيرة خمسِ مِئة عام عرَفت سَعة كل سماءٍ بالنسبة لما تَحتَها، وأن سَعَتها عظيمة، ومع هذا فهذه السَّمواتُ التي بهذه السَّعة العظيمة هي بالنِّسبة للكُرسيِّ كحلَقةٍ أُلقِيَت في فَلاةٍ من الأرض كحَلقة المِغفَر صغيرة أُلقِيَت في فَلاةٍ من الأرض، وفَضْل العَرْش على الكُرسيِّ كفَضْل الفَلاة على هذه الحَلقةِ، والرَّبُّ ﷻ لا يَقدُر قَدْره إلَّا الله ﷻ.

إِذَنِ: السمواتُ سبع مُتَطابِقة، والأرض واحِدة؛ لأنه قال: {وَالْأَرْضَ}، ولم يَقُل: والأَرَضين؛ نَقول: المُراد بالأرض هنا الجِنْس، فلا يُنافِي أن تَكون سبعًا، وقد أَشار الله تعالى في القُرآن إلى أنها سَبْع في قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [الطلاق: ١٢]، وجاءَت السُّنَّة صريحةً في ذلك في مثل قول النبيِّ ﷺ: "مَن اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْض ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ".

وقوله تعالى: {لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} هذا جَواب سُؤال؛ فيَقولون: الله تعالى هو الذي خلَق السَّمواتِ والأرضَ، ولم يدَّعِ المُشرِكون أن السَّمواتِ والأرضَ كانت قَديمةً غير مُحدَثة، ولم يَدَّعوا أن أحدًا خلَقها سِوى الله تعالى، بل أَقَرُّوا بأن الخالِق هو الله تعالى وحدَه، كما أنهم إذا سُئِلوا: مَن خلَقهم ليَقُولُنَّ: الله. فكلَّما سُئِلوا عن شيء يَتعلَّق بالربوبية نسَبوه إلى الله ﷻ من غير شَريك، فَهُمْ مُقِرُّون بتَوحيد الرُّبوبية غاية الإقرار، يَعلَمون أن الله تعالى هو الخالِق.

=

=

وقوله تعالى: {لَيَقُولُنَّ اللهُ} في ضَمِّ هذا الفِعلِ مع اتِّصال نون التَّوْكيد به إشكال، والمَعروف أن المُضارع يُبْنَى في مَوْضِعين: إذا اتَّصَلت به نون التَّوْكيد يُبنَى على الفَتْح، أو نون النِّسوة يُبنَى على السُّكون فلماذا هنا صار مَضمومًا؟ لأن نون التَّوْكيد هنا غير مُباشِرة للفِعْل، وعلى هذا التَّقديرِ يَكون بينها وبين الفِعْل واوُ الجماعة ونون الرَّفْع، فهي غير مُباشِرة حقيقةً مُباشِرة لفظًا، والفِعْل يُبنَى مع نون التوكيد المُباشِرة لفظًا وتَقديرًا، أمَّا هذه فهي في التَّقدير غير مُباشِرة؛ ولهذا بقِيَ الفِعْل مُعرَبًا، فيُقال: إنه مَرفوعٌ بالنون المَحذوفة لتَوالي الأَمثال، والواو المَحذوفة لالتِقاء الساكنين فاعِل.

وقوله تعالى: {لَيَقُولُنَّ اللهُ}: {اللهُ} بالرفع خبَر مُبتَدأ محَذوف، أي: هو الله، ويَجوز أن تَكون فاعِلًا لِفعْلٍ محذوف أي: خلَقهما الله، ويَجوز أن تَكون مُبتَدأ، والخبَرُ مَحذوف، والتقدير: الله خالِقُهما، والأمر في هذا واسِع، بابُ الإعراب له وُجوهٌ.

وقوله تعالى: {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ} يَعنِي: اسأَلْهم سُؤالًا آخَرَ إذا أَقرُّوا بأن الخالِق هو الله تعالى فقُلْ لهم: أَخبِروني ما تَدعون من دون الله تعالى.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{تَدْعُونَ} تَعبُدون]، ويُحتَمَل أن يَكون المُرادُ به دُعاءَ المسألة؛ لأن الدعاء يُطلَق على مَعنيَيْن: الأوَّل: دُعاء المَسأَلة، والثاني: دُعاء العِبادة.

فمِن الأوَّل قوله تعالى: "هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ"، وقوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}[البقرة: ١٨٦] هذا دُعاءُ مَسأَلة.

=

=

ومن الثاني- وهو دُعاء العِبادة- قولُه تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠]

فهؤلاء القومُ يَدْعون من دون اللهِ تعالى دُعاءَ مَسأَلة ودُعاء عِبادة؛ لأن اللَّفْظ عامٌّ، والمَعنَى: أَخبِرونا عن هذه الأَصنامِ التي تَدعونها من دون الله تعالى هل يَنفَعْنَ مَن دعاهُنَّ؟ هل يَجلِبن النفع أو يَدفَعْن الضُّرَّ: {إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ}؟

الجَوابُ: لا، لا يَدفَعْن الضَّرَر.

وإذا: {أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ}؟

والجَوابُ: لا، إِذَنْ كيف تُعبَد من دون الله تعالى؟! وكيف تُدعَى من دون الله تعالى؟! والله ﷻ إذا أَراد بي شيئًا ضَرًّا لم يَملِكن دَفْعه، وإذا أَرادني برحمة لم يَملِكْن إمساكَ هذه الرحمةِ.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [لا] {قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} يَعنِي: لا يُهِمُّني أن تُهدِّدوني بهذه الأصنامِ، فإن حَسْبي اللهُ، أي: كافِيني عمَّن سِواه، والجملة في {حَسْبِيَ اللهُ} يَجوز أن يَكون فيها تَقديمٌ وتأخير، فنُعرب {حَسْبِيَ} خبرًا مُقدَّمًا، و {اللهُ} مُبتَدَأً مُؤخَّرًا، ويَجوز أن نَقول: {حَسْبِيَ} مُبتَدَأ و {اللهُ} خبر، ويَختَلِف هذا الإعرابُ باختِلاف المَعنَى، فإن أَرَدْت أن تُخبِر عن الحَسْب بأنه اللهُ فاجعَلِ الحَسْب مُبتَدَأً، وإن أَرَدْت أن تُخبِر عن الله بأنه الحَسْب فاجعَلْ {حَسْبِيَ} خبرًا مُقدَّمًا.

والآية من حيثُ المَعنَى صالِحةٌ لهذا وهذا، فالله تعالى هو الحَسْب، والحَسْب هو الله تعالى، وليس لنا حَسْبٌ سِوى الله تعالى، والله سبحانه وتعالى حَسْبنا وكافينا.

وقوله تعالى: {عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} التَّوكُّل هو الاعتِماد على الله ﷻ اعتِمادًا حَقيقيًّا صادِقًا في جَلْب المَنافِع ودَفْع المَضارِّ مع الثِّقة به، هذا هو التَّوكُّل، وهو من

=

=

العِبادة الخاصَّة بالله تعالى كما قال الله تعالى: {وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران: ١٢٢]، أي: على الله تعالى وحدَه.

وأمَّا تَوكُّل غير العِبادة فإنه يَجوز للإنسان أن يَتوكَّل على غيرِه فيما وكَّله فيه، كما لو قُلْت لفُلان: وكَّلْتُك أن تَشتَرِيَ لي كذا وكذا. فاعتَمَدْت عليه في الشراء، وهذا ليس تَوكُّلَ عِبادة؛ لأن المُتوكِّل في هذه الصورةِ لا يَشعُر بأنه أَدنى مَرتَبةً من الوكيل، بل قد يَشعُر بأنه أَعلى مَرتَبة؛ لأنه جعَل ذلك خادِمًا له مُنفِّذًا لما يَقول، أمَّا التَّوكُّل على الله تعالى فإنك تَتَوكَّل على الله تعالى مُعتَقِدًا في نَفْسك أنك مُضْطَرٌّ إليه، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي بيده تَصريف أُمورك فتَتَوكَّل عليه رغبةً ورَهبةً وتَقرُّبًا إليه.

ولهذا نَقول: هل يَجوز أن أَقول: تَوكَّلت على فُلان؟

الجَوابُ: إن كان ذلك على وجه العِبادة فهذا حَرام وشِرْك، وإن كان على وجه الإنابة أي: أَنَبْته مَنابي فيما أَوْكَلته فيه فهذا لا بأسَ به ولا حرَجَ، وكان النبيُّ ﷺ يُوكِّل أصحابه في قَبْض الزَّكَوات وتَصريفها وغير ذلك.

يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ} لام قَسَم {سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ}] يَعنِي: إذا أَقرُّوا بهذا الإقرارِ [{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ} تَعبُدون {مِنْ دُونِ اللهِ} أي: الأصنام] يَعنِي: أَخبِرونا عنها [{إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ} ؟] الجَوابُ: يَقول: [لا] {أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ} ؟ لا، وفي قِراءة: بالإضافة فيهما]، أي: في قوله سبحانه وتعالى: {كَاشِفَاتُ}، وفي قوله تعالى: {مُمْسِكَاتُ} فنَقرَأ على هذه القِراءةِ: (هَلْ هُنَّ كاشِفاتٌ ضُرَّه هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتٌ رَحْمَتَهُ)، والقِراءتان سَبْعيتان.

ومن قاعِدة المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الكِتابِ: أنه إذا قال: (وقُرِئَ) فهي شاذَّة، وإذا قال: وفي قِراءة. فهي سَبْعية.

=

قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩).

{قُلْ يَا قَوْم اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتكُمْ} حَالَتكُمْ {إِنِّي عَامِل} على حالتي {فسوف تعلمون.

مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٤٠).

{مَن} موصول مَفْعُول الْعِلْم {يَأْتِيه عَذَاب يُخْزِيه وَيَحِلّ} يَنْزِل {عَلَيْهِ عَذَاب مُقِيم} دَائِم هُوَ عَذَاب النَّار وَقَدْ أَخْزَاهُمْ الله بِبَدْرٍ[1].

=

ثُمَّ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} يَثِق الواثِقون].

(١) قوله تعالى: {قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ} [الزمّر: ٣٩].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك، الذي اتخذوا الأوثان والأصنام آلهة يعبدونها من دون الله اعملوا أيها القوم على تمكنكم من العمل الذي تعملون ومنازلكم".

عن مجاهد، قوله: " {عَلَى مَكَانَتِكُمْ}، قال: على ناحيتكم".

قال أبو عبيدة:"أي: على حيالكم وناحيتكم".

قال مقاتل:"يعني على جديلتكم التي أنتم عليها".

قال ابن كثير:"أي: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد".

قال ابن قتيبة:"أي: على موضعكم. يقال: مكان ومكانة. ومنزل ومنزلة. وتسع وتسعة. ومتن ومتنة. وعماد وعمادة".

قال الزمخشري: أي:"على حالكم التي أنتم عليها وجهتكم من العداوة التي تمكنتم منها. والمكانة بمعنى المكان، فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا. وحيث للزمان، وهما للمكان".

قال الزجاج:"{على مكاناتكم} هذا اللفظ أمر على معنى الوعيد والتهدد، بعد أن

=

=

أعلموا ما يجب أن يعملوا به، ثم قيل لهم: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف: ٢٩]، وهذا كلام يستعمله الناس في التهدد والوعيد. تقول: متى أسأت إلى فلان انتقمت منك، ومتى أحسنت إليه أحسنت إليك فاعمل ما شئت واختر لنفسك، فخوطب العباد على قدر مخاطباتهم وعلمهم، وقوله على «مكاناتكم» و «مكانتكم» معناه: على ناحيتكم التي اخترتموها، وجهتكم التي تمكنتم- عند أنفسكم- في العلم بها".

قوله تعالى: {إِنِّي عَامِلٌ} [الزمّر: ٣٩]، أي:"إني عامل على ما أُمرت به من التوجه لله وحده في أقوالي وأفعالي".

قال مقاتل:"على جديلتي التي أمرت بها".

قال الطبري: أي:"{إِنِّي عَامِلٌ} كذلك على تؤدة على عمل من سلف من أنبياء الله قبلي".

قال ابن كثير:"أي: على طريقتي ومنهجي".

قال الزجاج:"ولم يقل على جهتي، لأن في الكلام دليلا على ذلك".

قال الزمخشري:"فإن قلت: حق الكلام: فإنى عامل على مكانتى. فلم حذف؟ قلت: للاختصار، ولما فيه من زيادة الوعيد، والإيذان بأنّ حاله لا تقف، وتزداد كل يوم قوّة وشدّة، لأنّ الله ناصره ومعينه ومظهره على الدين كله".

عن مجاهد: " {إِنِّي عَامِلٌ} كذلك على تؤدة على عمل من سلف من أنبياء الله قبلي".

قوله تعالى: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ} [الزمّر: ٣٩- ٤٠]، أي:"فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يهينه في الحياة الدنيا".

قال ابن كثير:"أي: ستعلمون غب ذلك ووباله {مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ} أي: في الدنيا".

=

=

قال الطبري: {يُخْزِيهِ}، "يعني: يذله ويهينه".

عن مجاهد: " {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} إذا جاءكم بأس الله، من المحقّ منا من المبطل، والرشيد من الغويّ".

قال الزمخشري:"أي: عذاب مخز له، وهو يوم بدر".

قوله تعالى: {وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [الزمّر: ٤٠]، أي:"ويحل عليه في الآخرة عذاب دائم، لا يحول عنه ولا يزول".

قال الطبري: "يقول: وينزل عليه عذاب دائم لا يفارقه".

قال الزمخشري: أي: " وعذاب دائم وهو عذاب النار".

قال ابن كثير:"أي: دائم مستمر، لا محيد له عنه. وذلك يوم القيامة".

عن أبي مالك، قوله: " {عذاب مقيم}، يعني: دائما لا ينقطع".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ} الخِطاب هنا للنبيِّ ﷺ، وقوله تعالى: {قُلْ يَاقَوْمِ} المُراد بهم مَن كذَّبوه وعانَدوه.

وقوله تعالى: {يَاقَوْمِ} هذه مُنادى، وأَصلُها: يا قَوْمي، ولكنها حُذِفت الياء للتخفيف، وبَقِيَت الكَسْرة دَليلًا عليها، وعليه فنَقول في إعرابها: (قَومِ) مُنادى مَنصوب بفَتْحة مُقدَّرة على ما قَبْل ياء المُتكلِّم المحذوفة للتَّخفيف.

وقوله تعالى: {اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ} يَعنِي: على ما أنتم عليه من الكُفْر والعَداوة والإيذاء، فإن ذلك لا يُهِمُّني، ولن يَمنَعَني من أن أَستَمِرَّ في عمَلي؛ ولهذا أَكَّد قوله تعالى: {إِنِّي عَامِلٌ} يَعنِي: عامِلٌ على ما أنا عليه، فأنتمُ اعمَلوا ونحن سنَعمَل، وهذا كقوله تعالى: {وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ} [هود: ١٢٢].

قال المُفَسِّر رَحَمَهُ اللَّهُ: [{قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ} على حالتكم]، فالمَكانة بمَعنَى الحالِ، وكما ذكَرْنا في التفسير: المكانة أي: ما كُنْتم عليه، وهي بمَعنى الحال في كلام المُفسِّر رَحَمَهُ اللَّهُ: [إني عامِلٌ على حالَتي]، وفَهِم أن التَّقدير (على

=

حالَتي)؛ لأنها مُقابِلٌ إلى قوله تعالى: {اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ} يَعنِي: إني عامِلٌ على مَكانتي، يَعنِي: (على حالَتي)، والتَّقدير على مَكانَتي.

وقوله سبحانه وتعالى: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ}: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} هذه جُملة مُحقَّقة؛ لدُخول {سَوْفَ} عليها، فإن {سَوْفَ} تُحقِّق الجُملة كما تُحقِّقها السِّين، لكن الفَرْق: أن السِّين تُفيد ذلك عن قُرْب، و {سَوْفَ} تُفيده عن مُهْلة؛ ولهذا يُقال: السِّين للتَّنْفيس، و {سَوْفَ} للتَّسويف، أي: التأخير والتَّنفيس القُرْب.

وقوله سبحانه وتعالى: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ}: {مَنْ} هذه مَفعول {تَعْلَمُونَ}، والعِلْم هنا بمَعنى المَعرِفة؛ ولهذا لا تَنصِب إلَّا مفعولًا واحدًا كما قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ اللَّهُ:

لِعِلْمِ عِرْفَانٍ وَظَنٍّ تُهْمَهْ ... تَعْدِيَةٌ لِوَاحِدٍ مُلْتَزَمَهْ

وقوله سبحانه وتعالى: {تَعْلَمُونَ} أي: تَعرِفون {مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ} أي: ستَعلَمون الذي يَأتيه عذابٌ يُخزيه، والعَذاب هو العُقوبة، والخِزيُ مَعناه: الذُّلُّ والعار، وقوله تعالى: {وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ} أي: يَنزِل عليه عذابٌ مُقيم لا يُفارِقه، والمَعنَى العامُّ: (سوف تَعلَمون هذا: هل هُو لَنا نَحن أم لكُم؟) ولكِنَّهم سوف يَعلَمون ذلك في وقتٍ لا يَتمكَّنون فيه من الخَلاص، وإنما يُنادون بالوَيْل والثُّبور- والعِياذُ بالله تعالى -.

فقوله تبارك وتعالى: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ} يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مَنْ} مَوصولة مَفعول للعِلْم] فلو قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: مَفعول {تَعْلَمُونَ} لكان أَوضَحَ؛ لأن الذي في الآية ليس المَصدَر، ولكنه الفِعْل، وكان عليه أن يَقول: مَفعول {تَعْلَمُونَ}، لكن الكِتاب في الحَقيقة مُؤلَّف لطلَبة عِلْم؛ ولهذا نحن لا نَنْصَح بقِراءة هذا الكِتابِ للمُبتَدِئ؛ لأن هذا الكِتاب وإن كان صغيرًا أكبَرُ من فَهْم

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا

=

المُبْتَدِئ.

إِذَنْ: {مَنْ} مَوْصولة مَفعول للعِلْم، وجُملة: {يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ} إذا كانت {مَنْ} مَوصولة فجُملةُ {يَأْتِيهِ} لا محَلَّ لها من الإعراب صِلةُ المَوْصول، وقوله: {عَذَابٌ يُخْزِيهِ} العَذاب عُقوبة وجُملة: {يُخْزِيهِ} صِفة لـ {عَذَابٌ}، وليست جوابًا لـ {مَنْ}؛ لأن {مَنْ} اسمٌ مَوْصول لا تَحتاج إلى جواب.

ثُمَّ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {وَيَحِلُّ} [يَنزِل {عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ} دائِم، وهو عذاب النار وقد أَخزاهم الله ببَدْرٍ]، يَعنِي أن أكبَرَ ذُلٍّ حصَل لقُرَيْش ما حصَل في بَدْر؛ لأن الله سبحانه وتعالى جمَع زُعَماءهم وكُبَراءهم وأَشرافهم حتى خرَجوا في ذلك اليومِ، وقُتِل هؤلاءِ الأشرافُ والكُبَراءُ، وسُحِبوا وأُلقوا في قَليبٍ من قُلُب بَدْر، وهي قَليبٌ خَبيثة مُنتِنة، فكان جَزاؤُهم- والعِياذُ بالله تعالى- هذا الجزاءَ، وهذا من أعظَمِ الخِزْي، حتى وقَف النبيُّ ﷺ عليهم يُوبِّخهم ويُندِّمهم؛ يَقول: "يا فُلانُ بنَ فُلانٍ". بأَسمائهم وأَسماء آبائهم، "يا فُلانُ بنَ فُلانٍ، هل وجَدْتُم ما وعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا، فإنِّي وَجَدْتُ ما وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا". فقالوا: يا رسول الله: تُكلِّم أُناسًا قد جَيَّفوا! كيف تُكلِّم جِيفًا؟ فقال ﷺ: "مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ"، ولكنهم لا يَستَطيعون الجوابَ .

وصَدَق الرسول ﷺ، فهُمْ يَسمَعون كلام الرسول ﷺ ولا يَزيدهم هذا الكلامُ إلَّا حَسْرةً ونَدامة؛ ولهذا قال أَبو جَهْل حينما جاء إليه عبد الله بنُ مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وفيه رمَقٌ من حياة قال له: مَن أنتَ؟ قال: ابنُ مَسعودٍ. قال: لقَدْ ارتَقَيْتَ مُرتَقًى صعبًا يا رُويعيَّ الغَنَم! يَعنِي: كيف تَطَأ على رأس شَريف من أشراف قُريشٍ، ثُمَّ قال: لِمن الدائِرةُ اليومَ؟ قال: لله ورسولِه.

المُهِمُّ: أن الرسول ﷺ وبَّخَهم على هذا الذي حصَل.

يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١).

{إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْك الْكِتَاب لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ} مُتَعَلِّق بِأَنْزَلَ {فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ} اهْتِدَاؤُهُ {وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} فتجبرهم على الهدى[1].

(١) قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ} [الزمّر: ٤١].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إنا أنزلنا عليك يا محمد الكتاب تبيانا للناس بالحقّ".

قال سهل:"يعني: أنزله لهم ليهتدوا بالحق إلى الحق، ويستضيؤوا بأنواره".

قال ابن كثير:"يعني: القرآن، لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به".

قال الزمخشري:"{لِلنَّاسِ}: لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه، ليبشروا وينذروا، فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية. ولا حاجة لي إلى ذلك فأنا الغني".

قوله تعالى: {فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ} [الزمّر: ٤١]، أي:"فمن اهتدى بنوره، وعمل بما فيه، واستقام على منهجه، فنفعُ ذلك يعود على نفسه".

قال الطبري:"يقول: فمن عمل بما في الكتاب الذي أنزلناه إليه واتبعه فلنفسه، فإنما عمل بذلك لنفسه، وإياها بغى الخير لا غيرها، لأنه أكسبها رضا الله والفوز بالجنة، والنجاة من النار".

قال الزمخشري:"فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه".

قوله تعالى: {وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} [الزمّر: ٤١]، أي:"ومَن ضلَّ بعد ما تبين له الهدى، فإنما يعود ضرره على نفسه، ولن يضرَّ الله شيئا".

قال الطبري:"يقول: ومن جار عن الكتاب الذي أنزلناه إليك، والبيان الذي بيَّناه لك، فضل عن قصد المحجة، وزال عن سواء السبيل، فإنما يجور على نفسه، =

=

وإليها يسوق العطب والهلاك، لأنه يكسبها سخط الله، وأليم عقابه، والخزي الدائم".

قال الزمخشري:"ومن اختار الضلالة فقد ضرها".

قال القشيري:"من أحسن فإحسانه إلى نفسه اكتسبه، ومن أساء فبلاؤه على نفسه جلبه- والحقّ غنيّ عن التجمّل بطاعة من أقبل والتنقّص بزلّة من أعرض".

قوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} [الزمّر: ٤١]، أي:"وما أنت -أيها الرسول- عليهم بوكيل تحفظ أعمالهم، وتحاسبهم عليها، وتجبرهم على ما تشاء، ما عليك إلا البلاغ".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وما أنت يا محمد على من أرسلتك إليه من الناس برقيب ترقب أعمالهم، وتحفظ عليهم أفعالهم، إنما أنت رسول، وإنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب".

قال ابن كثير:"أي: بموكل أن يهتدوا، {إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [هود: ١٢]، {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرعد: ٤٠]".

عن قتادة، قوله: " {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} ، أي: بحفيظ". وروي عن السدي مثله.

قال الزمخشري: أي: "وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى، فإنّ التكليف مبنى على الاختيار دون الإجبار".

قال الزجاج:"أي: ما أنت عليهم بحفيظ، ثم أخبر بأنه الحفيظ عليهم القدير، فقال: {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الزمّر: ٤٢]".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ} تَأَمَّل {إِنَّا أَنْزَلْنَا

=

عَلَيْكَ}، وفي بعض الآيات: {أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ} فهَلِ الحَرْفان بمَعنًى واحِد أو هُما يَختَلِفان؟

الجَوابُ: الأصل فيما اختَلَف لَفظُه أن يَختَلِف مَعناه هذا الأصلُ؛ لأن اللَّفْظ للمَعاني بمَنزِلة الثَّوْب للأجسام، فإذا وجَدْنا لَفْظين تَعدِيَتُهما واحِدة، لكنَّهما مُختَلِفان لفظًا، فالأصل اختِلافهما معنًى، فقوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ} يُفيد أن غاية الإنزال إلى رسول الله ﷺ لا يَتَجاوَزه إلى غيره.

وقوله تعالى: {عَلَيْكَ} تُفيد أن الإنزال على النبيِّ ﷺ حتى تَشَرَّبه كأنه نزَل في نَفْس الرسول عليه الصلاة والسلام؛ ألم تَقرَأ قول الله تبارك وتعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ} [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، ولم يَقُل: إلى قَلْبك هذا هو الفَرْق.

وقوله تعالى: {عَلَيْكَ الْكِتَابَ} الكتاب هنا هو القُرآن الكريم، وسُمِّي كِتابًا؛ لأنه مَكتوب في اللَّوْح المَحفوظ، وفي الصُّحُف التي بأَيْدي الملائِكة، وفي الصُّحُف التي بأَيْدينا، وعلى هذا فيَكون فِعَال بمَعنَى: مَفعول، وهذا الوزنُ أَعنِي: فِعالًا بمَعنى: مَفعول يَأتي كثيرًا في اللغة العربية، ومنه فِراش بمَعنى مَفروش، وكِساء بمَعنَى: مَكْسِيٌّ، وبِناء بمَعنَى: مَبنِيٌّ، وغِراس بمَعنَى: مَغروس، وله أمثِلة كثيرة.

يَقول تعالى: {الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ} اللَّام هنا للاختِصاص أو للتَّعدِية؟ جائِز هذا وهذا، والمَعنَى: أن الله تعالى أَنزَل الكِتاب على مُحمَّدٍ ﷺ ليَهتَدِيَ به الناس ويَنتَفِعوا به، والأمر كذلك، فإن الناس انتَفَعوا بهذا القُرآنِ انتِفاعًا لا يُماثِله انتِفاع، فالأُمَّة القُرَشية كانت لا تُساوِي شيئًا عند الأُمَم، وكانوا أذِلَّة وكانوا فُقَراءَ، لهم رِحلة إلى الشام في الصَّيْف وإلى اليَمَن في الشِّتاء؛ لأنه ليس عندهم حرَكة ولا تِجارة ولا أموال، وببعثة النبيِّ ﷺ وبهذا القرآنِ صاروا سادةَ الأُمَم كما قال تعالى: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى}، وقوله: (آوَى) يَعنِي: آواكَ، وأَوَى بك فكُنْت أبًا للناس

بعد أن لم تَكُن، وبعد أن كنتَ يَتيمًا لا أبَ لك؛ ولهذا نَقول: (آوَى) حُذِف المَفعول به من أجل العُموم، يَعنِي: آواك وآوَى بك، وقوله تعالى: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى}: {فَهَدَى} أي: هداك وهَدَى بك، وقوله تعالى: {وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى} يَعنِي: أَغناك وأَغنَى بك؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ للأنصار: "وَكُنْتُمْ عَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي" فالنَّبيُّ ﷺ جاء بالبَرَكة لأُمَّته؛ ولهذا قال تعالى: {أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ}.

وقوله تعالى: {بِالْحَقِّ} لها مَعنَيان:

الأوَّل: {بِالْحَقِّ} يَعنِي: أن ما جاء به هذا القُرآنُ هو الحقُّ، والحقُّ هو الصِّدْق في الأَخبار، والعَدْل في الأَحْكام، كما قال الله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [الأنعام: ١١٥] يَعنِي أن هذا القُرآنَ نزَل بالحَقِّ أي: أتَى بالحَقِّ وهو صِدْق الأَخْبار وعَدْل الأحكام.

والمَعنَى الثاني: {بِالْحَقِّ} يَعنِي أنه مَصحوبٌ بالحَقِّ، أي: أنه نزولٌ حقٌّ، ليس فيه باطِل كقوله تعالى: {وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ} [الشعراء: ٢١٠- ٢١٢]، فهذا يَعنِي أن نُزوله حقٌّ، ليس بباطِل، فإنه لا يَعتَريه الباطِل، قال تبارك وتعالى: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} [فصلت: ٤٢].

وهذا بخِلاف أَخْبار الكُهَّان فكلُّها من الشياطين، كما قال سبحانه وتعالى: {وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ} [الشعراء: ٢١٠- ٢١٢].

قوله تعالى: {فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ} الفاء هذه مُفرَّعة على ما سبَق، يَعنِي: بعد نزول هذا القُرآنِ انقَسَم الناس فيه إلى قِسْمين: قِسْمٌ اهتَدَى به فانتَفَع، وقِسْمٌ ضلَّ عنه فهلَكَ.

وقوله تعالى: {فَمَنِ اهْتَدَى}: (مَنْ) هذه شَرْطية، وفِعْل الشرط فيها: {اهْتَدَى}، وجَوابه: جُملة: {فَلِنَفْسِهِ}؛ لأن الجُملة هنا اسمِيَّة؛ ولهذا اقترَنَت بالفاء كما قال تعالى: {فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ}.

وقوله تعالى: {اهْتَدَى} أي: هِدايةً عِلْمية وهِدايةً عمَلية، فهِداية عِلْمية بأن حرَص على هذا القُرآنِ فحفِظه وتَدبَّره وتَأمَّله، وهِداية عمَلية بأن طبَّق هذا القُرآنَ وعمِل به عَقيدةً وقولًا وفِعْلًا.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ} اهتِداؤه] أي: فلنَفْسه اهتِداؤه، أو فهو لنَفْسه.

المُهِمُّ: أن المحذوف المُبتَدأ ولا بُدَّ؛ لأن المَذكور جارٌّ ومجرور، والجارُّ والمجرور لا يُمكِن أبَدًا أن يَكون مُبتَدأ، فإن شِئْت قدَّرْت: (فلنَفْسه اهتِداؤه)، وإن شِئْت قدَّرْت (فهو لنَفْسه).

واقترَنت جُملة الجَواب بالفاء؛ لأنها جُمْلة اسمِيَّة، والقاعِدة أنه إذا وقَعَت جملة الجَواب اسمِيَّة وجَب اقتِرانها بالفاء، وربما تُحذَف الفاء، لكن قليلًا، ومنه قول الشاعِر:

مَنْ يَفْعَلِ الحَسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا ...

ولم يقل: فالله يَشكُرها. لكن هذا قليل.

ولنَتعَرَّضِ الآنَ لما يَجِب قَرْنه بالفاء من الجُمَل إذا وقَع جوابًا، وهي مَذكورة في قول الشاعِر:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدٍ وَبِـ (مَا) ... وَ (قَدْ) وَبِـ (لَنْ) وَبِالتَّنْفِيسِ

وقوله تعالى: {وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} أي: ومَن ضَلَّ فلم يَهتدِ لا عِلْمًا ولا عمَلًا {فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} أي: على نَفْسه ولا يَضُرُّ الله تعالى شيئًا، ولا يَضُرُّ غيرَه شيئًا أيضًا.

وقوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ}: (ما) هذه حِجازية، أي: لا يَنطِق بها إلَّا

=
أهل الحِجاز؛ وهي لا تَعمَل عمَل (ليس) إلَّا عند أهل الحِجاز، فلذلك سُمِّيَت حِجازية فهي عند أهل الحِجاز تَعمَل عمَل (ليس)، أي: تَرفَع المُبتَدَأ وتَنصِب الخبَر، ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: {مَا هَذَا بَشَرًا} [يوسف: ٣١]، وعند بني تَميمٍ لا تَعمَل عمَل (ليس)، بل هي مُهمَلة، فيَقولون في قوله تعالى: {مَا هَذَا بَشَرًا} يَعنِي: في غير القرآن: (ما هذا بشَرٌ)، فمِن لغة تَميم: (ما زيدٌ قائِمٌ)، ومِن الحِجازية (ما زيدٌ قائمًا)، فتَحصَّل لنا الآنَ أن لُغة قُريشٍ وهم أهل الحِجاز يَقولون: (ما هذا بشَرًا)، وبنو تَميم يَقولون: (ما هذا بشَرٌ)، وكانوا يَقرَؤُون القُرآن: (ما هذا بشَرٌ) قبل أن يُوحَّد على لغة قُريش؛ لأن القرآن أُنزِل على سبعة أَحرُف.

وفي ذلك بيت طريف قال فيه الشاعِر:

وَمُهَفْهَفِ الْأَعْطَافِ قُلْتُ لَهُ انْتَسِبْ ... فَأَجَابَ مَا قَتْلُ المُحِبِّ حَرَامُ

يَعنِي: قلت له: من أين أنتَ؟ فما قال: أنا من فُلان من آل فُلان؟ فأَجاب: (ما قَتْل المُحِبِّ حَرامُ) فتكون هذه المرأةُ تَميميةً؛ لأنها قالت: (ما قَتْلُ المُحِبِّ حَرَامُ)، أمَّا في وقتنا الآنَ فلا نَعرِف التَّميميَّ من القُرَشيِّ؛ لأنه قدِ اندَمَج الآنَ، فكلُّ تَميميَّ وكلُّ قُرَشيٍّ تَجِده يَقول: (ما هذا بَشَرٌ)، وهذا يَقول: (ما هذا بَشَرًا) فكلُّهم قدِ اختَلَطوا.

وقوله ﷺ: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} إِذَنْ: نُعرِب الآنَ (ما) على لُغة قُرَيْش مع أن اللَّفْظ لا يَختَلِف في هذا التَّرْكيبِ؛ لأن بني تميم يَقولون: ما أنت عليهم بوَكيل. وكذلك قُرَيْش.

لكن لعِلْمنا أن القُرآن على لُغَة قُريش نَقول: إن (ما) هنا حِجازية، و (أن) اسمُها، والتاء للخِطاب، والباء حَرْف جرٍّ زائِدٌ، و (وكيل) خبَرُها مَنصوب بفَتْحة مُقدَّرة على آخِره منَع من ظُهورها اشتِغال المَحلِّ بحرَكة حَرْف الجرَّ الزائِد.

فإن قال قائل: قُلْتم: (إن الباء حَرْفُ جرٍّ زائِدٌ) ونحن نَعلَم أن القُرآن الكريم ليس
=

=

فيه لَغْو، والزيادة لَغْو؟

فالجَواب على هذا أن نَقول: الزيادة لَغْوٌ إذا لم تُفِدْ مَعنًى، فإن أَفادَت مَعنًى فليسَت لَغْوًا، والمَعنى الذي تُفيده هنا تَوكيد النفيِ، وعلى هذا فليسَت لَغْوًا، بل هي زائِدةٌ لكنا نَقول: (زائِدة لَفْظًا زائِدة مَعنًى)، يَعنِي: تَزيد في المعنَى.

لكن قد يَقول قائِل: كيف (زائِدة زائِدة)؟

نَقول: (زائِدة) الأُولى من (زاد) اللازِم، و (زائِدة) الثانية من (زاد) المُتعَدِّي؛ لأن (زاد) مثل (نقَص) تُستَعمَل لازِمة لا تَتَعدَّى للمَفعول، وتُستَعمَل مُتَعدِّية للمَفعول؛ فالمُتعَدِّية كما قال الله تعالى: {فَزَادَهُمْ إِيمَانًا} [آل عمران: ١٧٣]، وقوله تعالى: {ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا} [التوبة: ٤]، واللازِمة كما تَقول: زاد إيمان الرجُل، وتَقول: نقَص الماء.

وقوله تبارك وتعالى: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} [الزمر: ٤١]، يَعنِي: لستَ عليهم بمُراقِب تُراقِبهم وتُحافِظ عليهم، وإنما ذلك إلى الله تعالى فانت عليك البلاغُ، والحِسابُ على ربِّ العِباد ﷻ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ} مُتعلِّق بـ (أَنزَل)]، ولم يَقُل: بـ (أَنزَلْنا)؛ لأن العامِل هو الفِعْل، و (نا) اسمٌ بتَقدير الانفِصال عن الفِعْل، وهذا تعليمٌ من المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، فإذا أَرَدْتم أن تَقولوا: هذا مُتعلِّق فلا تَذكُروا إلَّا العامِل فقط، لا تَذكُروا الفاعِل معه ولا المَفعول إن كان المَفعول مُتَّصِلًا به، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: مُتَعلِّق بـ (أَنزَل)، ونحن في الحقيقة في إعرابنا للقُرآن نَتَجاوَز، ونَقول: في مثل هذا مُتَعَلِّق بـ (أَنزَلنا)، وهذا غير مُحرَّر، والصواب: أن تَقول: "مُتعلِّق بـ (أَنزَل) " الذي هو العامِل فقَطْ، دون ما اتَّصَل به من فاعِل أو مَفعول.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ} اهتِداؤه {وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} فتُجبِرهم على الهُدى]، وهذا كقوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ

=

اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢).

{الله يتوفى الأنفس حين موتها و} يَتَوَفَّى {الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامهَا} أَيْ يَتَوَفَّاهَا وَقْت النَّوْم {فَيُمْسِك الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْت وَيُرْسِل الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} أَيْ وَقْت مَوْتهَا وَالْمُرْسَلَة نَفْس التَّمْيِيز تَبْقَى بِدُونِهَا نَفْس الْحَيَاة بِخِلَافِ الْعَكْس {إِنَّ فِي ذَلِكَ} الْمَذْكُور {لَآيَات} دَلَالَات {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} فَيَعْلَمُونَ أَنَّ الْقَادِر عَلَى ذَلِكَ قَادِر عَلَى الْبَعْث وَقُرَيْش لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي ذَلِكَ(١).

=

عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} [ق: ٤٥]، فالرسول عليه الصلاة والسلام ليس بجابرٍ لهم على الاهتِداء، وليس بمُوكَّل بهم يُحافِظهم ويُحافِظ عليهم.

(١) قوله تعالى: {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} [الزمّر: ٤٢].

قال القشيري: أي:"يقبض الأرواح حين موتها".

قال مقاتل:"يقول: عند أجلها، يعني: التي قضى الله عليها الموت فيمسكها على الجسد".

قال الطبري: يقول:"ومن الدلالة على أن الألوهة لله الواحد القهار خالصة دون كلّ ما سواه، أنه يميت ويحيي، ويفعل ما يشاء، ولا يقدر على ذلك شيء سواه، فجعل ذلك خبرا نبههم به على عظيم قُدرته، فقال: {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} فيقبضها عند فناء أجلها، وانقضاء مدة حياتها".

قال الزمخشري:"توفيها: إماتتها، وهو أن يسلب ما هي به حية حساسة درّاكة: من صحة أجزائها وسلامتها، لأنها عند سلب الصحة كأن ذاتها قد سلبت".

قال أبو عبيدة:"فجعل النائم متوفى أيضا إلا أنه يرده إلى الدنيا".

=

=

قال أبو إسحاق إبراهيم بن السري: "لكل إنسان نفسان:

أحدهما: نفس التمييز: وهي التي تفارقه إذا نام فيزايله عقله، يتوفاها الله تعالى كما قال: {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا}.

والأخرى: نفس الحياة: وهي التي إذا نام الإنسان تنفس بها وتحرك بقوتها.

وإذا توفى الله تعالى نفس الحياة توفى معها نفس التمييز، وإذا توفى نفس التمييز لم يتوفَ معها نفس الحياة، وهو الفرق بين توفي أنفس النائم، وتوفي أنفس الحي".

قوله تعالى: {وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} [الزمّر: ٤٢]، أي:"ويقبض التي لم تمت في منامها".

قال الطبري: يقول:"ويتوفى أيضا التي لم تمت في منامها، كما التي ماتت عند مماتها".

قال الزمخشري:"يريد ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، أى: يتوفاها حين تنام، تشبيها للنائمين بالموتى، ومنه قوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ} [الأنعام: ٦٠]، حيث لا يميزون ولا يتصرفون، كما أنّ الموتى كذلك".

قال الزجاج:"أي: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، فالميتة المتوفاة وفاة الموت التي قد فارقتها النفس التي يكون بها الحياة، والحركة، والنفس التي تميز بها. والتي تتوفى في النوم نفس التمييز لا نفس الحياة، لأن نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس، والنائم يتنفس. فهذا الفرق بين توفي نفس النائم في النوم ونفس الحي".

قال القشيري:"وقبض الله الأرواح في حال النوم وردت به الأخبار، وذلك على مراتب فإنّ روحا تقبض على الطهارة ترفع إلى العرش وتسجد لله تعالى، وتكون لها تعريفات، ومعها مخاطبات. والله أعلم".

قوله تعالى: {فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ} [الزمّر: ٤٢]، أي:"فيحبس من

=

=

هاتين النفسين النفس التي قضى عليها الموت، وهي نفس مَن مات".

قال الزمخشري:"أي: لا يردّها في وقتها حية".

وقرئ: «قضى عليها الموت»، على البناء للمفعول.

قوله تعالى: {وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [الزمّر: ٤٢]، أي:"ويرسل النفس الأخرى إلى استكمال أجلها ورزقها، وذلك بإعادتها إلى جسم صاحبها".

قال الطبري:"ذكر أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فيتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى أجسادها أمسك الله أرواح الأموات عنده وحبسها، وأرسل أرواح الأحياء حتى ترجع إلى أجسادها إلى أجل مسمى وذلك إلى انقضاء مدة حياتها".

قال سعيد بن جبير:"يجمع بين أرواح الأحياء، وأرواح الأموات، فيتعارف منها ما شاء الله أن يتعارف، فيمسك التي قضى عليها الموت، ويُرسل الأخرى إلى أجسادها".

قال السدي:"تقبض الأرواح عند نيام النائم، فتقبض روحه في منامه، فتلقى الأرواح بعضها بعضا: أرواح الموتى وأرواح النيام، فتلتقي فتساءل، قال: فيخلي عن أرواح الأحياء، فترجع إلى أجسادها، وتريد الأخرى أن ترجع، فيحبس التي قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، قال: إلى بقية آجالها".

قال ابن زيد:"فالنوم وفاة".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الزمّر: ٤٢]، أي:"إن في قبض الله نفس الميت والنائم وإرساله نفس النائم، وحبسه نفس الميت لَدلائل واضحة على قدرة الله لمن تفكر وتدبر".

قال الطبري: يقول:"إن في قبض الله نفس النائم والميت وإرساله بعدُ نَفس هذا ترجع إلى جسمها، وحبسه لغيرها عن جسمها لعبرة وعظة لمن تفكر وتدبر، وبيانا

=

=

له أن الله يحيي من يشاء من خلقه إذا شاء، ويميت من شاء إذا شاء".

قال البغوي: أي:"لدلالات على قدرته حيث لم يغلط في إمساك ما يمسك من الأرواح، وإرسال ما يرسل منها".

قال الزمخشري:"إِنَّ فِي ذَٰلِكَ إن في توفى الأنفس مائتة ونائمة وإمساكها وإرسالها إلى أجل لآيات على قدرة الله وعلمه، لقوم يجيلون فيه أفكارهم ويعتبرون".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {إن في ذلك لآيات}، قال: هو الرجل يبعث بخاتمه إلى أهله".

عن سعيد بن جبير، في قوله: " {إن في ذلك لآية}، قال:"هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا".

قال السمعاني:"هذه الآية تدل على النائم قد خرجت الروح من جسده، ونحن نعلم قطعا أن الروح في جسده، ألا ترى أنه يتنفس ويرى الرؤيا، وذلك لا يكون إلا مع قيام الروح؟

والجواب عنه: أن النفس على وجهين:

أحدهما: النفس المميزة التي تكون لها إدراك الأشياء.

والآخر: هي النفس التي بها الحياة، وفي الخبر: «أن النبي قال: "كما تنامون تموتون، وكما تستيقظون تبعثون»".

ويقال: للإنسان نفس وروح، فعند النوم تخرج النفس وتبقى الروح، وهذا القول قريب من القول الأول".

قال البغوي:"ويقال: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله، فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء حتى ترجع إلى أجسادها إلى انقضاء مدة حياتها".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض

=

=

فراشه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين".

قال ابن كثير:"فيه دلالة على أنها تجتمع في الملأ الأعلى".

عن فرقد، قال: "ما مِن ليلة من ليالي الدنيا إلا والرّب -تبارك وتعالى- يقبض الأرواح كلها؛ مؤمنها وكافرها، فيسأل كلَّ نفس ما عمل صاحبُها من النهار -وهو أعلم-، ثم يدعو ملك الموت فيقول: اقبض هذا، واقبض هذا. مَن قضى عليه الموت، {ويُرْسِلُ الأُخْرى إلى أجَلٍ مُسَمًّى}".

عن عمر بن الخطاب -من طريق سُليم بن عامر- قال: "العَجَب مِن رُؤيا الرجل؛ إنه يبيت فيرى الشيءَ لم يخطر له على بالٍ، فتكون رؤياه كأخْذٍ باليد، ويرى الرجل الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئًا! فقال علي بن أبي طالب: أفلا أخبرك بذلك، يا أمير المؤمنين؟ إنّ الله يقول: {اللهُ يَتَوَفّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها والَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْها المَوْتَ ويُرْسِلُ الأُخْرى إلى أجَلٍ مُسَمًّى}. فالله يتوفى الأنفس كلها؛ فما رأت وهي عنده في السماء فهي الرؤيا الصادقة، وما رأت إذا أُرسلت إلى أجسادها تلقّتها الشياطين في الهواء فكَذَبَتها، وأخبرتها بالأباطيل فكذبَت فيها. فعجب عمر من قوله".

عن ابن عباس، قال:"تلتقي أرواحُ الأحياء وأرواحُ الأموات في المنام، فيتساءلون بينهم ما شاء الله، ثم يُمسك الله أرواحَ الأموات، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها {إلى أجَلٍ مُسَمًّى} لا يَغْلَط بشيء منها، فذلك قوله: {إنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}".

قال العثيمين: قوله تعالى: {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا}: {اللهُ} مُبتَدَأ، وجُملة {يَتَوَفَّى} خبَرُه.

=

=

والتَّوفِّي بمَعنى القَبْض كما يُقال: تَوفَّى الرجُل حقَّه من قَرينه. أي: قبَضَه منه.

و {الْأَنْفُسَ} جَمْع نَفْس، وهي الأَرْواح: الأَرْواح التي بها تَحيا الأجساد، والنَّفْس تُطلَق في القُرآن على مَعانٍ مُتَعدِّدة؛ منها هذا: أنها الرُّوح التي بها حياة الإنسان، فهو يَقبِض الأرواح حين موتها، أي: حين الموت، وهي مُفارَقة الروح للحياة مُفارَقة الروح للبدَن المُفارَقة التي تَزول بها الحياة.

وقوله تعالى: {وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا}: {وَالَّتِي} الواو حرف عَطْف و (التي) مَعطوفة على {الْأَنْفُسَ} يَعنِي: ويَتَوفَّى التي لم تَمُتْ، ولك الخِيار في مثل هذا التَّركيب أن تَقول: الواو حَرْف عَطْف، و (الَّتِي) صِفة لمَعطوفٍ على ما سبَق، وتَقديرُه: والأنفس التي لم تَمُتْ، ولك أن تَعطِف الصفة رأسًا على ما سبَق فتَقول: {وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} عطفٌ على الأَنْفس حين موتها والتي لم تَمُتْ يَتَوفَّاها في مَنامها، أي: يَقبِضها، لكنه ليس قَبْضًا تامًّا، بل قَبضٌ مُقيَّد.

ولهذا تَجِد النائِمَ له إحساسٌ من وجهٍ، وليس له إحساس من وجهٍ آخَرَ، فباعتِبار القُوَّة الظاهِرة لا إحساسَ له، لا يَرَى ولا يَسمَع، وباعتِبار القوَّة الباطِنة، وأنه لو نُبِّه وانتبَه يَكون حيًّا، فصِلَة الرُّوح بالنائِم غير صِلَتها بالحَيِّ باليَقظان، وغير صِلَتها بالميت، فهي وسَط بين الحيِّ اليَقْظان وبين الميت.

وقوله تعالى: {وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا}، وقد سمَّى الله تعالى النومَ وَفاةً، فقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى} [الأنعام: ٦٠].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا}، ويَتوَفَّى {وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا}] فهو هنا قَدَّر الفِعْل بعد حَرْف العَطْف إشارةً إلى أنه مَعطوف على ما كان هذا عامِله؛ والذي هذا عامِله هو: {الْأَنْفُسَ}، ويَتوَفَّى الأَنفُس التي لم تَمُتْ في مَنامها، أي: يَتوفَّاها وقتَ النوم، فيَتبيَّن بهذا أن النومَ وَفاة.

=

=

وقوله تعالى: {فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} يُمسِك التي قَضَى عليها الموت فلا تَرجِع إلى جسَدها يُمسِكها إلى أنْ يَأتِيَ البَعْث.

وقوله تعالى: {قَضَى} أي: حكَم كقوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [الإسراء: ٢٣]، أي: حَكَم ألَّا تَعبُدوا إلَّا إيَّاه؛ والقضاء هنا قَضاءٌ كَوْنيٌّ، وأَقول: قَضاءٌ كونيٌّ؛ لأن قَضاء الله تعالى يَنقَسِم إلى قِسْمَيْن: شَرْعي وكَوْني.

فالشَّرْعيُّ ما أَمَر به مثل قوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، ومثل قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ} [غافر: ٢٠]، أي: يَحكُم به.

والقَضاء الكَونيُّ مثل قوله تعالى: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ} [الإسراء: ٤]، فإن الله تبارك وتعالى لا يَقضِي بالفَساد في الأرض قضاءً شرعيًّا، إنما هو قَضاءٌ كونيٌّ، وهنا يَقول تعالى: {قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ}، أي: قضاءً كونِيًّا.

ثُمَّ قال تعالى: {فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى} وهي التي تَوفَّاها في مَنامها يُرسِلها إلى أجلٍ مُسمًّى، أي: إلى أجَلٍ مُعيَّن وهو الموت، يَعنِي: يُرسِلها تَذهَب إلى جسَدها وتَبقَى فيه إلى أجَلٍ مُسمًّى، أي: مُعيَّنٍ مُحدَّد.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} وقت مَوْتها] هذا الأجَلُ المُسمَّى، [والمُرسَلة: نفس التَّمييز تَبقَى بدونها نَفْس الحياة، بخِلاف العَكْس]، كأن المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يَقول: إن الأنفس نَوْعان: نَفْس تَمييز، ونَفْس حَياة؛ فنَفْس التَّمييز هي المُرسَلة: {وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} وتَبقَى بدونها الحياة، فالنائِم في حياةٍ لا شَكَّ، فنَفْس التَّمييز تَبقَى بعدَها الحياة، والعَكْس لا؛ ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [بخِلافِ العَكْس]، فإن نَفْس الحياة إذا قُبِضت لا تَبقَى بعدها نَفْس التَّمييز، فأَفادَنا رَحِمَهُ اللَّهُ أن الأَنْفسَ في قوله تعالى:

=

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ

=

{الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} أَنفُسُ الحياة ويَتبَعها أنفُس تَمييز، قال تعالى: {وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} أي: أَنفُس التَّمييز.

وقوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}: {إِنَّ فِي ذَلِكَ} يَعنِي: الوفاة للنَّفْسين، والإِرْسال لإحداهما وإِمْساك الأخرى فيه آيات، والآيات التي معَنا واضِحة جِدًّا، وهي أربعة: وَفاة الموت، ووفاة النَّوْم، وإمساك المَيْتة، وإرسال النائِمة؛ وكلها من آيات الله ﷻ، وإنك لتَأتي إلى القوم جماعةً نائِمين فتَقول: سُبحان الله {وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} قوم كأنهم جُثَث لا يَسمَعون، اللهُمَّ إلَّا مَن كان خفيفَ النَّوْم، لكن الأَصْل أنهم في النَّوْم جُثَث فتَقول: سُبحان الذي أَماتَهم، ثُم أَحياهم بعد أن كانوا شِبهَ أموات، فهي آيات، وهي آيةٌ أيضًا على البَعْث، فإن النوم وفاةٌ صُغرى يَبعَث الله تعالى فيه النائِم حتى يَحيا يَستَيْقِظ تمامًا، كذلك الإحياء بعد الموت يَقيه الله ﷻ وهو قادِرٌ عليه، والعاقِل يَقيس الغائِب على الشاهِد والمُستَقبَل على الحاضِر ويَتبيَّن له الأَمْر.

وقوله تعالى: {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} التَّفكُّر إِعْمال الفِكْر بحيث يَدور كارًّا وراجِعًا، يمينًا وشِمالًا حتى يَتبيَّن له ما يَتَبيَّن بتَفكُّر، وضِدُّ التَّفكُّر الغَفْلة، وأن يَكون القَلْب حجَرًا أملَسَ لا يَقَرُّ عليه شيء، فلو قَرَّ عليه حَبَّةٌ من تُراب أَطارَتْها الرياح وجرَت بها المياهُ، فالإنسان المُتفكِّر هو الذي ليس بغافِل، بل يُدير فِكْره يَمينًا وشِمالًا، ذاهِبًا وراجِعًا حتى يَتبيَّن له الأمر.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إِنَّ فِي ذَلِكَ} المَذكور {لَآيَاتٍ} دَلالات {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} فيَعلَمون أن القادِر على ذلك قادِرٌ على البَعْث، وقُرَيْشٌ لم يَتفكَّروا في ذلك] نعَمْ، في هذا المَذكورِ آيات، ونحن ذكَرْنا أربَعًا ظاهِرةً، ولو تَأمَّلنا لوجَدْنا أكثَرَ من ذلك بكثير، ولكنها تَحتاج إلى تَفكير وتَدبُّر وتَأمُّل فتَتَّضِح.

(٤٣).

{أَمْ} بَلْ {اتَّخَذُوا مِنْ دُون الله} أَيْ الْأَصْنَام آلِهَة {شُفَعَاء} عِنْد الله بِزَعْمِهِمْ {قُلْ} لهم {أ} يشفعون {ولو كانوا لا يملكون شيئا} مِنْ الشَّفَاعَة وَغَيْرهَا {وَلَا يَعْقِلُونَ} أَنَّكُمْ تَعْبُدُونَهُمْ وَلَا غَيْر ذَلِكَ لَا(١).

---

(١) قوله تعالى: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ} [الزمّر: ٤٣].

قال الطبري: يقول:"أم اتخذ هؤلاء المشركون بالله من دونه آلهتهم التي يعبدونها شفعاء تشفع لهم عند الله في حاجاتهم".

قال الزمخشري:"بل اتخذ قريش، -والهمزة للإنكار- من دون إذنه {شُفَعَاءَ}، حين قالوا: {هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ}، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه".

عن قتادة: " {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ}: الآلهة".

قوله تعالى: {قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ} [الزمّر: ٤٣]، أي:"قل -أيها الرسول- لهم: أتتخذونها شفعاء كما تزعمون، ولو كانت الآلهة لا تملك شيئا، ولا تعقل عبادتكم لها؟".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهم: أتتخذون هذه الآلهة شفعاء كما تزعمون ولو كانوا لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا، ولا يعقلون شيئا، قل لهم: إن تكونوا تعبدونها لذلك، وتشفع لكم عند الله، فأخلصوا عبادتكم لله، وأفردوه بالألوهة".

قال الزمخشري:"معناه: أيشفعون ولو كانوا {لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ}، أى: ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيأ قط، حتى يملكوا الشفاعة ولا عقل لهم".

عن قتادة: " {قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا}: الشفاعة".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ}: {أَمِ} هنا مُنقَطِعة؛ =

=

ولهذا تُقدَّر بـ (بل) والهَمْزة أي: أنها بمَعنَى: (بل) والهَمْزة.

وقولنا: (مُنقَطِعة) يُفيد أن هناك مُقابِلًا لهذا المَعنَى وهو كذلك، والمُقابِل لهذا المَعنَى أن تَكون مُتَّصِلة، وحينئذٍ نَحتاج إلى الفَرْق بين المُنقَطِعة والمُتَّصِلة، والفرق بينهما من وجهين:

الفَرْق الأوَّل: أن (أَمِ) المُنقَطِعة لا مُعادِلَ فيها، بمعنَى أنه لا يُذكَر فيها مُعادِل، بخِلاف (أَم) المُتَّصِلة فإنها تَحتاج إلى مُعادِل، فقوله تعالى: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ} [البقرة: ٦]، هذه مُتَّصِلة لذِكْر المُعادِل {أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ}، وأمَّا قوله تبارك وتعالى: {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الطور: ٣٣]، فهذه مُنقَطِعة؛ لأنها بمَعنَى: بل أيَقولون؛ لأنه لم يُذكَر فيها المُعادِل فتكون مُنقَطِعة.

الفَرْق الثاني بينهما: أن (أَم) المُتَّصِلة بمَعنى (أَوْ)، و (أَم) المُنقَطِعة بمَعنَى (بل) والهَمزة ففي قوله تعالى: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ} لو جعَل بعدَها (أَوْ) لكان المَعنَى: أَنذَرْتهم أو لم تُنذِرْهم، فالمُنقَطِعة أي: بمَعنَى (بل) والهَمزة، وليسَتْ بمعنى (أو).

ونُطبِّق هذا الفَرْقَ على ما معَنا {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ} تَكون مُنقَطِعة؛ أوَّلًا: لأنه لم يُذكَر المُعادِل. وثانيًا: لأنها تُقدَّر بـ (بل) والهمزة، فقوله تعالى: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ} أي: سِواه، (دون) بمَعنَى (سِوى)؛ لا بمَعنَى دون الرُّتبة، بل (مِن دون الله) أي: (مِن سِوى الله).

وقوله تعالى: {اتَّخَذُوا} هنا تَنصِب مَفعولين: الأوَّل: {شُفَعَاءَ}، والثاني: {مِنْ دُونِ اللهِ} يَعنِي: اتَّخَذوا من دون الله تعالى آلهةً شُفَعاءَ، ويَجوز أن نَقول: إن المَفعول الأوَّلَ مَحذوف تَقديرُه: آلهة، والثاني: {شُفَعَاءَ}، يَعنِي: أنهم اتَّخَذوا مَعبوداتٍ يَعبُدونها يَدَّعون أنها شُفعاءُ لهم عند الله تعالى، قال الله تعالى عنهم: {مَا

=

=

نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} [الزمر: ٣]، فصرَّحوا بأنهم يَعبُدون هذه الآلهةَ، ولكنهم يُريدون أن تَكون مُقرِّبةً لهم إلى الله ﷻ.

وسُبحان الله! كيفَ تَتَّخِذ بمَن عصَيْت اللهَ فيهم وَسيلةً ليُقرِّبوك إلى الله! وهذا من سَفَههم؛ قال ﵀: [{اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ} أي: الأصنام آلِهة {شُفَعَاءَ} عند الله بزَعْمهم]، والشُّفَعاء جَمْع شَفيع، والشَّفيع مَن يَتوسَّط لغيره بجَلْب مَنفَعة أو دَفْع مَضرَّة، فالشَّفاعة لأهل المَوقِف إذا أَصابَهم الهمُّ والغَمُّ أن يَقضِيَ الله تعالى بينهم من باب دَفْع المَضرَّة، والشفاعة لأهل الجنَّة أن يَدخُلوها من باب جَلْب المَنفَعة.

فالشفاعة هى أن تَتوسَّط لغيرك بجَلْب مَنفعة أو دَفْع مَضرَّة، وهي لا شَكَّ أنها خير، قال تَعالى: {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا} [النساء: ٨٥] إلَّا في بعض المَواطِن كالشفاعة في الحدِّ بعد أن يَصِل إلى السُّلْطان، فإن مَن حالت شفاعته دون حَدٍّ من حُدود الله فقد ضادَّ الله تعالى في أَمْره، وإذا بلَغتِ الحُدود السُّلْطان فلَعَن الله تعالى الشافِعَ والمُشفوع له، هؤلاء الجماعة الذين يَعبُدون الأصنام يَقولون: إنها شُفَعاءُ.

وقوله تبارك وتعالى: {قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ} يَعنِي: أَتَتَّخِذونهم شُفَعاءَ، وهم لا يَملِكون شيئًا لا شفاعةً ولا غير شفاعة، وهنا قال تعالى: {لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا} و (شيئًا) نَكِرة في سِياق النفي، فتكون للعُموم، وكان مُقتَضى السِّياق أن يَقول: أَوَلَوْ كانوا لا يَملِكون الشفاعة، ولكنه أَتَى بالعُموم ليَدُلَّ على أن هذه الأصنامَ لا تُفيد شيئًا أبَدًا لا تَشفَع ولا تَدفَع، وهي قد سُلِبت الشفاعة لدُخولها في العُموم، يَعنِي: لا يَملِكون الشفاعة ولا غيرها.

قوله تعالى: {أَوَلَوْ كَانُوا} فيها حَرْف عطفٍ بعد الهَمزة وقد ذكَرْنا مِرارًا ما يَقوله عُلماءُ النَّحو رحمهم الله في مثل هذا التركيبِ وهو أنه إذا جاء حرف العَطْف بعد همزة الاستِفْهام يَقول علماءُ النَّحو رحمهم الله: في إعرابه وَجْهان:

=

=

الوَجْه الأَوَّلُ: أن تَكون الجُمْلة مَعطوفة، يَعنِي: الواو عاطِفة على الجُملة وتَكون مُقدَّرة.

الوجه الثاني: أو تَكون الهَمْزة فِي مَكانها، وحَرف العَطْف على شيء مُقدَّر يُناسِب المَقام.

وذكَرْنا أن الثانيَ رَأْي البَصْريِّين، والأَوَّل رأيُ الكوفيين، وذكَرْنا أن القول بأن حَرْف العَطْف عاطِفٌ على ما سبَق أَوْلى؛ لأنه يَكفيك التَّقديرَ؛ ولأنه أحيانًا لا يَستَطيع الإنسان أن يُقدِّر الشيء المُناسِب، فإذا قال: الهَمزة حَرْف عَطْف، الهَمْزة للاستِفهام، والواو حَرْف عَطْف وما بعدها مَعطوفٌ على ما سبَق استَراح.

فقوله هنا: {أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا} على رأيِ مَن يَرَى أن حرف العَطْف على مُقدَّر يَقول: أيَتَّخِذونهم شُفَعاءَ ولو كانوا لا يَملكون؛ وعلى الرأي الثاني يَقول: الواو حَرْف عَطْف والمعطوف عليه ما سبَق من الجُملة {أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ} يَعنِي: لا يَعقِلون أنكم تَعبُدونها، فالأصنام أَحجار لا تَدرِي، ولا يَعقِلون أيضًا شيئًا من الشفاعة يَدخُلون منه، فهُمْ جهَلة في حالِكم، وجهَلة فيما تَستَحِقُّون.

فقوله الله تعالى: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ} قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أَمِ} بل] لكنَّنا لا نَقرَؤُها: (أَتَّخَذُوا) بهَمْزة القَطْع؛ لأن القرآن ليستِ الهَمزة فيه هَمْزة قَطْع، لكن لو كان التَّرْكيب في غير القُرآن لقُلْنا: (بلِ اتَّخذوا من دونه)، وإذا قُلنا: (أَتَّخَذوا) سيَسأَل سائِل: أين ذهَبَت هَمْزة الوَصْل في (اتَّخَذوا)؟ فنَقول: لأنه لمَّا دخَلَت هَمْزة القَطْع على الفِعْل استَغْنَيْنا بها عن هَمْزة الوَصْل؛ لأن هَمزة الوَصْل إنما يُؤتَى بها لسُهولة البَدْء بالساكِن، فإذا لم نَبدَأ به وبدَأْنا بهَمْزة قَطْع استَغْنَيْنا عنها وحذَفناها، قال تعالى: {أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ} [الصافات: ١٥٣]، فكلِمة: {أَصْطَفَى} هذه أَصلُها: (اصطَفَى) دخَلت عليها الهَمزة، فلمَّا دخَلَت عليها

=

=

الهَمزة صِرْنا في غِنًى عن همزة الوَصْل؛ لأن همزة الوَصْل يُؤتَى بها للضَّرورة؛ ولهذا سُمِّيَت: همزة وَصْل يُؤتَى بها للضرورة؛ لئلا نَبتَدِئ بالساكن، فإذا زالَتْ هذه الضرورةُ سقَطَتْ.

ثُم قال المُفَسِّر رَحَمَهُ اللَّهُ: [{أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ} أي: الأصنامَ آلِهةً {شُفَعَاءَ} عند الله بزَعْمهم] يَعنِي: هم صَيَّروا هذه الأصنامَ آلِهة تَشفَع لهم عند الله تعالى.

وقول المُفَسِّر رَحَمَهُ اللَّهُ: [بزَعْمهم] يَعنِي: لا بحسَب الواقِع؛ لأن هذه الأصنامَ لا تَشفَع لهم، بل إنه في يوم القِيامة يَكفُر مَنِ اتَّخَذ إلهًا مع الله تعالى بعِبادة مَن عبَده، وهذا كلام صحيح نَأخُذه من قوله تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف: ٥، ٦]، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} [فاطر: ١٤]، بل حتى الذين اتَّخذوا غير الرُّسُل اتَّخَذوهم مَتبوعين من أهل الضَّلال يَتبَرَّؤُون منهم {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا} [البقرة: ١٦٦].

فانظُرْ في القُرآن كُفْر مَن جعَلوا شُرَكاءَ في الرِّسالة، وكُفْر مَن جعَلوا شُرَكاء في العِبادة، لأن كلًّا منهم لم يُحَقِّق شهادة أن لا إلهَ إلَّا الله، وأن محمدًا رسول الله، فالذين اتَّخَذوا شُرَكاءَ في العبادة قال الله عنهم: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} [فاطر: ١٤]، وقال تعالى: {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف: ٦]، والذين اتَّخَذوا شُرَكاءَ في الرسالة قال الله تعالى عنهم: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا}؛ لأن المُتابَعة لغير الرُّسُل والمُعارَضة لأقوال الرُّسُل شِرْك مع الرُّسُل في الرسالة؛ لأن الذي يَجِب اتِّباعه من البَشَر هم الرُّسُل، فإذا جعَل هذا الرجُلُ مَتبوعه بمَنزِلة الرسول عليه الصلاة والسلام فيَأخُذ بقوله فِعْلًا وتَرْكًا وتَصديقًا، فقد جعَله رَسولًا.

=

قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤).

{قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَة جَمِيعًا} أَيْ هُوَ مُخْتَصّ بها فلا يشفع أحد الا بإذنه {له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون}(١).

=

ولهذا بعضُ العُلَماء رحمهم الله يَقول: إن التوحيد نوعان: تَوْحيد عِبادة، وتَوْحيد رِسالة؛ فتَوْحيد عِبادة فيما يَتَعلَّق بحقِّ الله تعالى، وتَوْحيد رِسالة فيما يَتَعلَّق بحقِّ الرسول ﷺ، والله تعالى يَقرُن بين هذا وهذا في القُرآن، قال تعالى: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ} [المؤمنون: ٦٨، ٦٩].

فالحاصِلُ: أن هؤلاء الذين اتَّخَذوا شُفَعاءَ قد ضَلُّوا ضلالًا مُبينًا؛ لأنها لا تَنفَعهم، قال الله تعالى لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: {قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ}، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيَشْفَعون ولو كانوا] المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ مشَى في هذا التَّفسيرِ على أحَد الرَّأْيَيْن المَشهورَيْن فيما إذا دخَلَت همزة الاستِفهام على حَرْف العَطْف، وهُما وَجْهان:

الوجهُ الأوَّل: أن يَكون العَطْف على ما سبَقَ، وعلى هذا يَكون تَقديرُ الهمزة بعد حَرْف العَطْف.

والوجه الثاني: أن العَطْف على جُمْلة مُقدَّرة يَكون تَقديرُها حسَب السِّياق.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ مشَى على الثاني؛ لأنه قَدَّر المعطوف عليه بين الهَمْزة وحَرْف العَطْف [أَيَشْفَعون ولو كانوا لا يَملِكون شيئًا ولا يَعقِلون] فلا يَملِكون شيئًا من الشَّفاعة وغيرها، ولا يَعقِلون أنكم تَعبُدونهم ولا غير ذلك؟

والجَوابُ: لا، فهذه لا تَشفَع؛ لأنها لا تَعقِل، ولا تَملِك فهي لا تَعقِل عِبادة مَن عبَدها، ولا تَملِك له شيئًا لا شَفاعةَ ولا غيرَها.

(١) قوله تعالى: {قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا} [الزمَر: ٤٤].

=

=

قال الطبري: أي:"فإن الشفاعة جميعا له، لا يشفع عنده إلا من أذن له، ورضي له قولا وأنتم متى أخلصتم له العبادة، فدعوتموه، وشفعكم".

قال الزمخشري:"أى: هو مالكها، فلا يستطيع أحد شفاعة إلا بشرطين: أن يكون المشفوع له مرتضى، وأن يكون الشفيع مأذونا له. وهاهنا الشرطان مفقودان جميعا".

قال مجاهد:"لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه".

قال مقاتل:"فجميع من يشفع إنما هو بإذن الله".

قال السمعاني:"فالشفاعة من عنده؛ لأنها لا تكون إلا بإذنه".

قوله تعالى: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الزمّر: ٤٤]، أي:"له ملك السموات والأرض وما فيهما".

قال الطبري:"يقول: له سلطان السموات والأرض ومُلكها، وما تعبدون أيها المشركون من دونه له، يقول: فاعبدوا الملك لا المملوك الذي لا يملك شيئا".

قال ابن كثير:"أي: هو المتصرف في جميع ذلك".

قال الزمخشري:"تقرير لقوله تعالى: {لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا}، لأنه إذا كان له الملك كله والشفاعة من الملك، كان مالكا لها".

عن ابن عباس:"قال جبريل عليه السلام: يا محمد لله الخلق كله، والسموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم". وروي عن عثمان بن سعيد مثله.

قوله تعالى: {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [الزمّر: ٤٤]، أي:"ثم إليه تُرجَعون بعد مماتكم للحساب والجزاء".

قال أبو العالية:"ترجعون إليه بعد الحياة".

قال الطبري:"يقول: ثم إلى الله مصيركم، وهو معاقبكم على إشراككم به، إن متم

=

=

على شرككم".

قال ابن كثير:"أي: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجزي كلا بعمله".

قال الزمخشري:"فإن قلت: بم يتصل قوله: {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}؟

قلت: بما يليه، معناه: له ملك السماوات والأرض اليوم ثم إليه ترجعون يوم القيامة، فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلا له. فله ملك الدنيا والآخرة".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا}: {قُلْ} الخِطاب للرسول ﷺ، أو لكل مَن يَتأتَّى خِطابه ويَصِحُّ، وهذا الأخيرُ أَعَمُّ من الأوَّل؛ لأنه يَشمَل النبيَّ ﷺ وغيره؛ فقوله تعالى: {قُلْ} أيها المُخاطَبُ- الأهل للخِطاب -: {لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا}، {لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ} جُملة خبَرية تُفيد الحَصْر، وطريقه أن الخبَر تَقدَّم وحقُّه التأخيرُ، وكل تَقديمٍ لما حَقُّه التأخير يُفيد الحَصْر، والمَعنَى: لله الشَّفاعة لا لغيرِه فهو الذي يَملِكها، واللَّام في قوله تعالى: {لِلَّهِ} للمِلْك يَعنِي: هو الذي يَملِك الشفاعة، أي: يَملِك أن يَأذَن فيها.

وقد بيَّنَ الله سبحانه وتعالى أن للشَّفاعة ثلاثةَ شُروط:

الشَّرْط الأوَّل: إِذْنه؛ لقول الله تبارك وتعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [البقرة: ٢٥٥].

الشَّرْط الثاني: رِضاه عن الشافِع؛ لقول الله تبارك وتعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} [النبأ: ٣٨].

الشَّرْط الثالِث: رِضاه عن المَشفوع له؛ لقوله تبارك وتعالى: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [النجم: ٢٦]، وهذه تكون أيضًا دليلًا على أنه يُشترَط رِضا الله تعالى عن الشافِع، ومنه قوله تعالى: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [الأنبياء: ٢٨].

والآنَ لو أَقول: يا رسولَ الله، اشفَعْ لي عند الله. هل يَجوز؟

=

=

والجَوابُ: لا يَجوز؛ لأنه لا يَملِك ذلك، فهو لا يَشفَع لا لك ولا لغَيْرك إلَّا بإِذْن الله تعالى، ومن ذلك ما يَفعَله بعض الإخوان المُجاهِدين يَقول الواحِد منهم للثاني: اشفَعْ لي عند الله؛ لأن المُجاهِد له شفاعة إذا قُتِل شهيدًا، فتَجِد بعض أقاربه أو بعض أصحابه يَقول: اشفَعْ لي عِند الله! وهذا لا يَجوز؛ لأنه سأَله ما لا يَملِكه، فإنه إذا قال: اشفَعْ لي! نَقول: الشفاعة لمَن؟ الجَوابُ: لله تعالى، إِذَنْ قُلْ له: اللهُمَّ شفِّعْه فيَّ. ولا بأسَ في ذلك، فيَنبَغي عليك أن تَحرِص على الشفاعة ممَّن يَملِك الشفاعة، أمَّا ممَّن لا يَملِك لا تَصِحَّ، فهذا سُؤالٌ في غير محَلِّه، فالشَّفاعة إِذَنْ: لله، وإذا كانت لله فلا تَسأَل إلَّا الله.

وقوله سبحانه وتعالى: {قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا} كلمة {جَمِيعًا} إعرابها حال من الشَّفاعة، لكن ما مَعنَى الجَمْع هنا؟ وهل الشَّفاعة مُتعدِّدة؟

الجَوابُ: نَعم، الشفاعة مُتعدِّدة؛ شفاعة في الدنيا، وشفاعة في الآخِرة، وشفاعة في جَلْب نَفْع، وشفاعة في دَفْع ضرَر، فلا شَفاعةَ إلَّا لله ﷻ، فوَكْل الشفاعات تَكون لله تعالى، وهناك شَفاعة في الدنيا كأَنْ يَدعوَ الإنسان لشَخْص إذا دعا الإنسان لشَخْص فهذه شَفاعة قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: "مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ" ، فدُعاء الإنسان لأَخيه شفاعةٌ له عند الله تعالى، وهذه هي الشفاعة في الدُّنيا، والشفاعة في الآخِرة مَعروفة وهي الشَّفاعة العُظمى، وهذه لرسول الله ﷺ ولا تكون لأَحَدٍ سِواهُ.

فما هي الشَّفاعة العُظمى؟

الجَوابُ: هي أن الناس في ذلك المَحشَر؛ كما جاء في النُّصوص: حُفاة عُراة غُرل شاخِصةٌ أبصارهم أَفئِدتُهم هواءٌ، الشمس تَدنو منهم قَدْر مِيل، والعرَق يُلجِم بعضهم، لا يَلوِي أحَدٌ على أحَد، ولا يَستَغيث أحَدٌ بأَحَد، قال الله تعالى: {لِمَنِ

=

=

الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: ١٦]، فيَلحَقهم من الهَمِّ والكَرْب ما لا يُطيقون، فيَقول بعضُهم لبعض: انظُروا مَن يَشفَع لنا عند الله تعالى لنَستَريح من هذا المَوقِفِ راحة، فيَذهَبون إلى آدَمَ، ثُمَّ إلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُم إلى إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ إلى مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ إلى عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا يَحصُلون على شيء، ثُمَّ يَأتون إلى مُحمَّدٍ ﷺ يَطلُبون منه الشفاعة فلا يَشفَع، فيَستَأذِن من الله تعالى أوَّلًا؛ لأن الملك عظيم والسُّلطان تامٌّ، فيَسأَل الله تعالى أن يَأذَن له بالشَّفاعة، فيَأذَن له، ثُمَّ يَسجُد عليه الصلاة والسلام تحت العَرْش سُجودًا طويلًا طويلًا طويلًا؛ يَفتَح الله تعالى عليه فيه من المَحامِد ما لم يَكُن يَعرِفه من قبلُ، ثُمَّ يَشفَع إلى الله تعالى أن يَقضِيَ بين الخَلْق ويُريحَهم من هذا المَوْقفِ، فيَقبَل الله تعالى شَفاعته.

وهذه الشَّفاعةُ تُسمَّى الشفاعة العُظمي؛ لعُمومها وشِدَّة الحاجة إليها، ولا تَكون إلَّا للرسول ﷺ كما قال الله تعالى: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء: ٧٩]، وسُمِّيَت كذلك؛ لأن هذا المَقامَ يَحمَده فيه الأوَّلون والآخِرون الذين من أُمَّته والذين من غير أُمَّته، وفي هذا اليومِ شَفاعة فيمَن دخَل النار أن يَخرُج منها، وفيمَن استَحَقَّها أن لا يَدخُلها.

وهذه الشفاعةُ نَوعان: شَفاعة فيمَن دخَلها أن يَخرُج منها، وفيمَنِ استَحَقَّها أن لا يَدخُلها، وهذه عامَّة للرُّسُل، والصِّدِّيقين، والشُّهَداء، والصالِحين، والمَلائِكة، والبشَر عامة، لكن يُنكِرها طائِفتان من طوائف الضَّلال من هذه الأُمَّةِ وهُما المُعتَزِلة والخَوارِج؛ لأنهم يَقولون: إن فاعِل الكبيرة مُخلَّدٌ في النار، مَحكومٌ عليه بذلك قَضاءً وقدَرًا، وإذا كان كذلك فلن يَتَخلَّف هذا القضاءُ، ولا يُمكِن أن يَخرُجوا من النار.

والشفاعة الرابِعة في دُخول الجَنَّة، إذا عبَر الناس الصِّراط- أَسأَل الله تعالى أن يَجعَلنا وإيَّاكم ممَّن يَعبُره سَليمًا- إذا عبَروا الصِّراط لا يَدخُلون الجَنَّة مُباشَرة، بل

=

=

يُوقَفون عند قَنْطرة وهي طرَف الجِسْر الذي على النار أو غيرها- الله تعالى أَعلَـمُ- فيُقتَصُّ لبعضهم من بعض، وهذا قِصاص تَنْقية، والقِصاص السابِق في عَرَصات القِيامة قِصاص تَخْلية، يَعنِي: في عرَصات القِيامة يُقتَصُّ للمَظلوم من الظالِم، أمَّا هذا فهو قِصاص تَنْقية، يُنقَّوْن حتى يَزول ما في قلوبهم من غِلٍّ وحِقْد؛ لأنه ليس القضاء للشَّخْص بحَقِّه مُزيلًا للحِقد والبَغْضاء.

نعَمْ، ربَّما قد أَقول: أنا اعتُدِيَ عليَّ وأَخَذْت حَقِّي الآنَ منه، لكن بقِيَ أَثَرُ هذا العُدوانِ في قَلْبي، هذا مَوْجود ولا أَحَدَ يُنكِره، لكن المُوفَّق يَسعَى في زواله، وإنما لا بُدَّ أن يَبقَى أَثَرُ الجُرْح حتى ولو بَرِئ، وهل إذا بَرِئ الجُرْح يَعود الشيء كما كان؟ بل يَصير فيه بُقَع، فلا بُدَّ أن يُؤثِّر العُدوان، ولوِ اقتَصَّ الإنسان لنَفْسه من قلب الإنسان، فهُمْ إذا اقتُصَّ لبعضهم من بعض في يوم القيامة في عرَصات القيامة وعبَروا الصِّراط يَحتاجون إلى تَنْقية تُنقَّى وتُصفَّى قلوبهم حتى يَدخُلوا الجَنَّة- وما في قُلوبهم من غِلٍّ- على أكمَل وَجْه.

فإذا اقتُصَّ لبعضهم من بعض أيضًا لا يَدخُلون الجَنَّة مُباشَرة، بل يَجِدون الجَنَّة مُغلَّقة الأبواب، فيَطلُبون مَن يَشفَع لهم، فيُشفَّع النبيُّ ﷺ خاصَّة، وهذه خاصَّة بالرسول ﷺ لكن ليسَتْ عُظمى؛ لأنها لأهل الجَنَّة خاصَّة فيَشفَع أن تَفتَح أبواب الجَنَّة، فيُؤذَن له فتُفتَح أبواب الجَنَّة.

وأوَّل مَن يَدخُلها هو عليه الصلاة والسلام ، وأوَّلُ مَن يَدخُلها من الأُمَم أُمَّته بعد الأنبياءِ عليهم السلام مُباشَرةً، فالنَّبيُّون أوَّلًا، ثُمَّ الأُمَم، يَبدَأ بقائِد النَّبيِّين محمد ﷺ، ثُم قائِد الأُمَم هذه الأُمَّةُ؛ لأن هذه الأُمَّةَ- ولله تعالى الحمد- مُتأخِّرة في الزمن في الدنيا، لكنها سابِقة في كل المَواقِف في الآخِرة، فقد قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: "نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

ففي كل العرَصات- ولله تعالى الحمد- نحن السابِقون في العُبور على الصِّراط في

=

القَضاء بين الناس في عرَصات القِيامة قبل دُخول الجنَّة همُ السابِقون يوم القيامة في كل شيء، فيَدخُلون الجنَّة، وتَأمَّل هذا في كِتاب الله ﷻ قال الله تعالى في أهل النار: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: ٧١]، وهم كارِهون لها من حين أن يَصِلوا إليها تُفتَّح الأبواب؛ أمَّا أهل الجنَّة فلا، قال تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: ٧٣].

فأَفاد قوله تعالى: {وَفُتِحَتْ} أن هناك شَيْئًا بين مَجيئهم وبين الفَتْح، ولقد أَخطَأ من قال من أَهْل العِلْم رحمهم الله: إن الواو هنا زائِدة، وإن التَّقدير: حتى إذا جاؤُوا فُتِّحت أبوابها. نَقول: سُبحانَ الله! أنتُمْ أَعلَمُ بكلام الله تعالى من الله تعالى! الله ﷻ يُفرِّق في النار يَقول: {إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ}، وفي الجَنَّة يَقول تعالى: {إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ}، وأنتم تَقولون: هذه الواوُ زائِدة، وهذا خَطير.

وكذلك أَخطَأ مَن قال: الواو واوُ الثَّمانية، وادَّعى أن في اللغة واوًا تُسمَّى واوَ الثمانية، وهذه الدَّعوى باطِلة، ويَقول المُدَّعي: عندي دَليل، وهو قوله تعالى: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} [التحريم: ٥]، قال: فالواو قبل كلِمة (أَبكارًا) هي واوُ الثَّمانية؛ لأن هذه ثَمانية أشياءَ مَعطوفات.

ونَقول ردًّا على مَن قال هذا: إِذَنْ فقُل: جاء زيدٌ وبَكرٌ. الواو واوُ الاثنَيْن، وخالِد واو الثلاثة ... وامشِ على هذا، والصواب أن الواو هنا عاطِفة، وأن المَعطوف عليه مَحذوف بَيَّنَت السُّنَّة هذا المعطوفَ عليه.

الخُلاصةُ: على هذا فتكون الشفاعة الخاصَّة بالرسول ﷺ ثلاثة أنواع: الشفاعة العُظمى والشَّفاعة في دُخول الجَنَّة وشَفاعته في عمِّه أبي طالِب الذي مات على الكُفْر والشِّرْك- والعِياذُ بالله- وهو في النار، لكن الله تعالى أَذِنَ لنَبيِّه أن يَشفَع فيه، فكان في ضَحضاحٍ من نار وعليه نَعلان يَغْلي منهما دِماغه، وهو أَهوَنُ أهل النار

=

عَذابًا؛ ودَليلنا على أن الشفاعة بعَمِّه خاصَّةً به قول الرسول ﷺ: "لَوْلَا أَنا كانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ" ، لكن الدليلَ على أنه خاصٌّ به: أن هذا مخصوص بقوله تعالى: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى}، والله تعالى لا يرتَضي أن يُشفَع للكافِر، فيُستَثْنى هذا، وقوله تعالى: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} [المدثر: ٤٨]، وهذا مُستَثنًى إِذَنْ فهو خاصٌّ به.

قال الله تعالى: {قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا} أي: هو الذي يُعطيها مَن يَشاء ويَمنَعها ممَّن يَشاء وقد بيَّنَ أن الشروط الإِذْن ورِضاه عن الشافِع ورِضاه عن المَشفوع له.

قوله تعالى: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} هذه الجُملةُ فيها حَصْر، وهو تَقديم ما حقُّه التَّأخير، فهنا قدَّم الخبَر {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ} يَعنِي: لا لغيره.

وقوله تعالى: {مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} يَشمَل مُلْك الذوات، أي: مُلْك ذات السمَوات والأرض، ومُلْك التَّصرُّف فيهما يَتصرَّف فيهما كما يَشاء فهو الذي أَوْجَدهما، وهو الذي يُمسِكهما أن تَزولا، وهو الذي يُدبِّر ما فيهما، وهو الذي يُتلِفهما ويُفنيهما عند قيام الساعة، فللهِ مُلْك السموات والأرض خَلْقًا وتَدبيرًا وتَصرُّفًا، وكل شيء يَؤول إليه سبحانه وتعالى، وهذه الآلِهةُ لا تَملِك شيئًا من ذلك، إِذَنْ {مُلْكُ السَّمَاوَاتِ} أي: مُلك الذوات والتَّصرُّف كما يَشاء.

ثُمَّ نُفصِّل فنَقول: خلَقهما أوَّلًا وَأَمسَكهما أن تَزولا، ويَطوِي السمواتِ كطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُب، ويَقبِض الأَرَضين يوم القِيامة، فكل هذه من جُملة تَصرُّفاته في هذه المَملوكاتِ، وإذا كان له مُلك السموات والأرض فلا أَحَدَ يَشفَع إلَّا بإِذْنه ولا أَحَدَ يَستَحِقُّ العِبادة إلَّا هو.

ثُمَّ قال تعالى: {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} يَعنِي: يوم القِيامة نَرجِع إلى الله ﷻ فيُحاسِبنا على حسَب أعمالنا، والله تعالى قد بيَّن لنا ووضَّح وأَقام الحُجَّة، وبيَّن أن الحسَنة

=

وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥).

{وَإِذَا ذُكِرَ الله وَحْده} أَيْ دُون آلِهَتهمْ {اشْمَأَزَّتْ} نَفَرَتْ وَانْقَبَضَتْ {قُلُوب الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونه} أَيْ الأصنام {إذا هم يستبشرون[1]}.

=

بعَشْر أمثالها إلى سبع مِئة ضِعْف إلى أضعافٍ كثيرة، وأن السيِّئة بمِثْلها وبين الأشياء التي تُعتبَر حَسَناتٍ حتى نَعمَلها، وتُعتبَر سَيِّئاتٍ حتى نَتَجنَّبها، وحينئذٍ يَكون رُجوعنا إليه ﷻ رُجوعًا عن بَصيرة لا حُجَّةَ لنا في مُخالَفته.

فقوله رَحِمَهُ اللهُ: [{قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا} أي: هو مُختَصٌّ بها] أخَذَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ [هو مُختَصٌّ بها] من الحَصْر وهو تَقديم الخبَر [وهو مُختَصٌّ بها فلا يَشفَع أحَدٌ إلَّا بإِذْنه]، وهذا أحَدُ شَرْطَي الشفاعة. والثاني: رِضا الله تعالى عن الشافِع ورِضاه عن المَشفوع، قال تعالى: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، وقد ذكَر عُموم مِلْكه وانفِراده بالمِلْك بعد ذِكْر الشفاعة؛ لأن الشَّفاعة من المِلْك في الواقِع، فهي داخِلة في عُموم مِلْك الله تعالى للسمَوات والأرض {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} ولم يُفسِّرها لوُضوحها.

(١) ذكر سبب النزول.

عن مجاهد: أنها نزلت في قراءة النبي ﷺ النجم عند الكعبة وفرحهم عند ذكر الآلهة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤/ ١٠) عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢٣٣) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر. وهو ضعيف لإرساله.

=

=

* قوله تعالى: {وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} [الزمّر: ٤٥].

قال الطبري: يقول:"وإذا أفرد الله جل ثناؤه بالذكر، فدعي وحده، وقيل: لا إله إلا الله، نفرت من توحيد الله قلوب الذين لا يؤمنون بالمعاد والبعث بعد الممات".

قال الزمخشري:"أى: إذا أفرد الله بالذكر ولم يذكر معه آلهتهم، نفروا وانقبضوا.. و «الاشمئزاز»: أن يمتلئ غما وغيظا حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه".

عن السديّ قوله: " {اشْمَأَزَّتْ}، قال: نفرت".

قال قتادة:"أي: نفرت قلوبهم واستكبرت".

عن مجاهد، قوله:"{اشْمَأَزَّتْ}: انقبضت، قال: وذلك يوم قرأ عليهم"النجم"عند باب الكعبة".

قال الزجاج:"معنى {اشمأزت}: نفرت، وكانوا- أعني المشركين- إذا ذكر الله فقيل: «لا إله إلا الله»، نفروا من هذا، لأنهم كانوا يقولون: اللات والعزى، وهذه الأوثان آلهة".

قوله تعالى: {وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [الزمّر: ٤٥]، أي:"وإذا ذُكِر الذين مِن دونه من الأصنام والأوثان والأولياء إذا هم يفرحون؛ لكون الشرك موافقًا لأهوائهم".

قال الطبري:"يقول: وإذا ذُكر الآلهة التي يدعونها من دون الله مع الله، فقيل: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتها لترتجى، إذ الذين لا يؤمنون بالآخرة يستبشرون بذلك ويفرحون".

قال قتادة:"{وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ}، الآلهة".

عن السديّ:"{وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ}: أوثانهم".

قال الزمخشري:"{وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} وهم آلهتهم ذكر الله معهم أو لم

=

=

يذكر استبشروا، لافتتانهم بها ونسيانهم حق الله إلى هو أهم فيها.. العامل في {إذا}: المفاجأة، تقديره وقت ذكر الذين من دونه، فاجئوا وقت الاستبشار".

قال العثيمين: قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ} أي: دون آلِهَتهم {اشْمَأَزَّتْ} نفَرَت] والمَعنَى: {وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}: (إذا ذُكِر الله) يَعنِي: أُثْنِيَ عليه بالذِّكْر والإخْلاص، وأنه هو الربُّ المَعبود، وأن غيره لا يَستَحِقُّ العِبادة، وإذا ذُكِر على هذا الوجهِ {اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} يَعنِي: نفَرَت من هذا وكرِهته؛ لأنها لا تُريد هذا، تُريد أن تَكون آلِهتها مُساوِيةً لله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: [{اشْمَأَزَّتْ} نَفَرَت وانقَبَضَت] فتَنفِر ولا تَقبَل الحقَّ، وتَنقَبِض ولا تَنشَرِح للحَقِّ {قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} أي: لا يُقِرُّون بها، ولا يَعترِفون بها؛ لأنهم قالوا: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} قال الله تعالى: {وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} [الجاثية: ٢٤]، وهم {الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} ولو أنهم آمَنوا بالآخِرة لعمِلوا لها، ولو كانوا إذا ذُكِر الله تعالى وحدَه استَبْشَروا وفرِحوا.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: [{وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} الأصنام] يَعنِي: إذا ذُكِر الذين من دونه وهي الأصنام، وأُثنِيَ عليها {إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}: {إِذَا} هذه فُجائِيَّة أُجِيب بها الشرط؛ لأن الشَّرْط يُقرَن أحيانًا بالفاء، وأحيانًا بـ(إذا)، كقوله تعالى: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ} [الروم: ٣٦]، أي: فهُمْ، فجواب الشَّرْط هنا قُرِن بـ(إذا) الفُجائية؛ لأنه جُملةٌ اسمِيَّة.

وتَأَمَّل قوله تعالى: {إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} حيث جاءَت بالجُمْلة الاسمِيَّة إشارةً إلى دوام استِبْشارِهم وثُبوته ورُسوخه في أَنفُسهم. وجواب {إِذَا} في قوله تعالى: {وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ}، هو قوله سبحانه وتعالى: {اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

=

=

بِالْآخِرَةِ}.

وجَواب قوله تعالى: {وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} هو قوله تعالى: {إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} وبَيْن الجُمْلتين رابِط؛ لأن القاعِدة هي إذا كانت جُملة الجواب اسمِيَّة لا بُدَّ فيها من رابِط، والرابِط هنا قوله: (إذا)، وهي الفُجائِيَّة.

ولهذا يُروَى عن النبيِّ ﷺ أنه قرَأ {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى} [النجم: ١٩، ٢٠] تِلك الغَرانيقُ العُلا، وإنَّ شَفاعَتَهُنَّ لتُرْتَجَى. ألقاها الشَّيْطان في قِراءة النبيِّ ﷺ، ولم يَتلُها الرسول عليه الصلاة والسلام، لكن الشيطان أَسمَعَ قُرَيْشًا هذا القولَ، يَقولون: إنهم سجَدوا مع النبيِّ ﷺ لما أَنهَى السورة وسجَد؛ لأنهم قالوا: الآنَ رجَع إلينا، أو على الأقَلِّ داهَنَنا؛ لأنه أَثنَى على أصنامنا فسجَدوا معه، وهذه القِصَّةُ مَشهورة.

واختَلَف المُفسِّرون فيها فمِنهم مَن أَنكَرها إنكارًا عظيمًا، ومِنهم مَن حسَّنها وقال: إنها لا تُنافِي العِصْمة؛ لأن الله تعالى قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى} يَعنِي: إذا قرَأ {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [الحج: ٥٢] أَلقَى الشَّيْطان بالقراءة، ليس هو الذي يُلقِي، بل الشيطان هو الذي يُلقِي كما قال الله تبارك وتعالى: {أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} يَنسَخه يَعنِي: بين بُطلانه، وأنه لا حقيقةَ له، ثُمَّ قال مُعلِّلًا ذلك: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الحج: ٥٣، ٥٤].

فعلى كل حال: إن صحَّتِ القِصَّة فإنها لا تُنافِي العِصْمة؛ لأن الذي أَثنَى على هذه الأصنامِ الشَّيْطان، لكن ظنَّ هؤلاء الذين سمِعوه أنها قِراءة النبيِّ ﷺ، وإذا لم تَصِحَّ

=

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦).

{قُلْ اللَّهُمَّ} بِمَعْنَى يَا الله {فَاطِر السَّمَاوَات وَالْأَرْض} مُبْدِعهمَا {عَالِم الْغَيْب وَالشَّهَادَة} مَا غَابَ وَمَا شُوهِدَ {أنت تحكم بين عبادك فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} مِنْ أَمْر الدِّين اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقّ(١).

=

فلا إشكالَ.

لكن إذا قال قائِل: إذا لم تَصِحَّ فكيف سجَد المُشرِكون مع النبيِّ ﷺ حين قال: {فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا}؟

والجَوابُ عن ذلك أن نَقول: إن آخِرَ آيات هذه السورةِ تَأخُذ باللُّبِّ والفُؤاد حتى إن الإنسان لَيَنفَعِل من غير أن يَشعُر فهؤلاءِ المُشرِكون انفَعَلوا من شِدَّة ما سمِعوا حتى لم يَشعُروا بأَنفُسهم إلَّا وهُمْ ساجِدون، هذا هو الجواب إذا لم تَصِحَّ القِصَّة.

(١) قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الزمّر: ٤٦].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد، الله خالق السموات والأرض".

قال ابن كثير:"يقول تعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمة، لهم في حبهم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد {قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} أي: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذي خلق السموات والأرض وفطرها، أي: جعلها على غير مثال سبق".

قال السديّ:"فاطر: قال خالق".

قوله تعالى: {عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [الزمّر: ٤٦]، أي:"عالم السر والعلانية".

قال الطبري:"{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} الذي لا تراه الأبصار، ولا تحسه العيون

=

=

والشهادة الذي تشهده أبصار خلقه، وتراه أعينهم".

قال ابن كثير:"أي: السر والعلانية".

عن السديّ، قوله: " {عَالِمُ الْغَيْبِ}، قال: ما غاب عن العباد فهو يعلمه، {وَالشَّهَادَةِ}: ما عرف العباد وشهدوا، فهو يعلمه".

قال الحسن: "الشهادة: ما قد رأيتم من خلقه، والغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه".

قوله تعالى: {أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [الزمّر: ٤٦]، أي:"أنت تفصل بين عبادك يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون من القول فيك، وفي عظمتك وسلطانك والإيمان بك وبرسولك".

قال الطبري:" {أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ} فتفصل بينهم بالحق يوم تجمعهم لفصل القضاء بينهم {فِيمَا كَانُوا فِيهِ} في الدنيا {يَخْتَلِفُونَ} من القول فيك، وفي عظمتك وسلطانك، وغير ذلك من اختلافهم بينهم، فتقضي يومئذ بيننا وبين هؤلاء المشركين الذين إذا ذكرت وحدك اشمأزّت قلوبهم، إذا ذكر مَنْ دونك استبشروا بالحقّ".

قال ابن كثير:"أي: في دنياهم، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم".

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: "سألت عائشة -رضي الله عنها- بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: "اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم".

عن أبي عبد الرحمن قال: "أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاسا وقال: كان رسول

=

=

الله ﷺ يعلمنا يقول: "اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شيء، وإله كل شيء، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك أن أقترف على نفسي إثما، أو أجره إلى مسلم".

قال أبو عبد الرحمن: "كان رسول الله ﷺ يعلمه عبد الله بن عمرو أن يقول ذلك حين يريد أن ينام".

قال القشيري في الآية:"علّمه ﷺ كيف يثني عليه- سبحانه، وتشتمل الآية على الإشارة إلى بيان ما ينبغي من التنصّل والتذلّل، وابتغاء العفو والتفضّل، وتحقيق الالتجاء بحسن التوكل".

قال العثيمين: قوله تعالى: {اللَّهُمَّ} هذه مُنادى، حُذِفَت منها (يا) النِّداء، وعُوِّضت عنها الميمُ؛ لأنها دالَّةٌ على الجَمْع، كأن الإنسان جمَعَ قَلْبه على ربِّه ﷻ، وأُخِّرَت تَيمُّنًا بالبَداءة بِسْم الله سبحانه وتعالى، وعلى هذا فنَقول: (الله) مُنادى مَبنيٌّ على الضمِّ في محَلِّ نَصْب.

يَقول ﷻ: {قُلِ اللَّهُمَّ} قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بمَعنى: يا اللهُ]، فالميمُ عِوَض عن (يا) النِّداء [{قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} مُبدِعَهما {عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} ما غاب وما شُوهِد].

وقوله تعالى: {فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} فاطِرَ الشيء أي: مُبدِعَه على غير مثال سَبَق، يَعنِي: مُبدِعَه مُنشِئَه أوَّل مرَّة يُسمَّى هذا فَطرًا، ومنه: فطَر البِئْر إذا حفَره لأوَّل مرَّة.

وقوله تعالى: {فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} والسَّموات والأرض هذه تَقدَّمت كثيرًا، وذكَرنا ما يَتَعلَّق بالجمع بالنِّسبة للسمَوات والإفراد بالنِّسبة للأرض.

وقوله تعالى: {فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}: {فَاطِرَ} و

=

=

{عَالِمَ} كلها صِفة للمُنادى في قوله تعالى: {اللَّهُمَّ}، ولكنها نُصِبَت؛ لأنها مُضافة.

وقوله تعالى: {عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} الغيب: ما غاب، والشهادة: ما شُوهِد وحُضِر، فالله سبحانه وتعالى عالم الغَيْب كلِّه، وعالم الشهادة كلِّها؛ فإن الله تعالى لا يَخفَى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

واعلَمْ أن الغَيبوبة تكون كلِّيةً، وتكون نِسبيَّة، فالله تعالى عالِم الغَيْب كلِّيةً ونِسبيةً أيضًا، بخِلاف البشَر، فالبشَر لا يَعلَم الغيب، أي: ما غاب عنه سواءٌ كلِّيًّا أم نِسبيًّا؛ ولذلك لا تَعلَم ما وراء الجِدار، ولا تَعلَم ما في ضمير غيرك، ولا تَعلَم المُستَقبَل، بل وتَنسَى ما مضى، أمَّا الربُّ ﷻ فإنه لا يَعتَريه شيء من هذا النُّقصانِ.

وقوله تعالى: {أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}: {تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ} أي: تَفصِل بينهم في الحُكْم، وذلك يوم القِيامة حين يَتحاجُّ الناس عند ربهم يَختَصِمون، وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى نَتيجةَ هذه الخُصومةِ بأن الخاصِم همُ المُؤمِنون حيث قال تعالى: {فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء: ١٤١].

إِذَنْ: فالخاصِم الغالِب همُ المُؤمِنون، إذ لم يَكُن سبيلٌ للمُشرِكين الكافِرين عليهم فهمُ الخاصِمون بلا شَكٍّ.

وقوله تعالى: {أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} يَشمَل الحُكْم في الدنيا والحُكْم في الآخِرة، أمَّا الحُكْم في الدنيا فإن المَرجِع إلى كِتاب الله تعالى وسُنَّة رسول ﷺ، وأمَّا في الآخِرة فالمَرجِع إلى الله ﷻ يَحكُم بينهم حُكْمًا جَزائيًّا كلٌّ بما يَستَحِقُّ.

وقوله تعالى: {أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ} المُراد بالعُبودية هنا العامة، فيَشمَل العبد المُؤمِن والعَبْد الكافِر، وقد قسَّم العُلَماءُ رحمهم الله العُبودية إلى قِسْمين: عامَّة وخاصَّة.

=

=

فالعُبودية العامة هي التَّعبُّد بالقدَر أي: أنها تَتَعلَّق بالأَمْر القدَريِّ، يَعنِي: التَّذلُّل لقَدَره، فكلُّ مَن في السموات والأرض عبدٌ لله بهذا المَعنَى، ولا يُمكِن أن يَتَخلَّف عمَّا قَضَى الله تعالى عليه، كما في قوله تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم: ٩٣]، فهذه عُبودية تَتَعلَّق كما قُلْت بالقَدَر والقَضاء، فهي كونية في الحقيقة.

والعُبودية الخاصَّة هي التَّعبُّد لله تعالى بشَرْعه، وهذه خاصَّة بالمُؤمِنين الذين يَتَعبَّدون لله تعالى بشَرْعه.

وهذه الخاصَّةُ أيضًا فيها عِبادةٌ أخصُّ وهي عِبادة النُّبوَّة والرِّسالة، مثل قوله تبارك وتعالى: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} [ص: ٤٥]، ومثل قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء: ٣]، ومثل قول الرسول ﷺ: "أفلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا" ، والأمثلة كثيرة.

فمَحطُّ المَدْح من هذه الأنواع والأقسام: العُبودية الخاصَّة، أمَّا العُبودية العامة فلا يُمدَح الإنسان فيها؛ لأنها بغير اختياره، بل هو ذليل لله تعالى مُتعبِّد لله تعالى شاء أم أبَى.

وقوله تعالى: {مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} أي: في الذي يَختَلِفون فيه، وقد جاءت الآية هكذا: {مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}، وقد قال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ} [الشورى: ١٠]، فيَشمَل ما يَختَلِفون فيه من أمور الدِّين وأُمور الدنيا أيضًا، فكل ذلك سَوْف يَحكُم الله تعالى فيه بحُكْمه العَدْل الذي ليس فيه حَيْفٌ على أحَد.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} من أَمْر الدِّين اهدِني لما اختُلِف فيه من الحَقِّ]، ولكنَّ هذا التَّقديرَ فيه نظَر؛ لأن المُراد بالآية: تَفويض الأمر إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وشِكاية هؤلاء إليه: الذين إذا ذُكِر الله تعالى اشمَأزَّت قلوبُهم، وإذا ذُكِر الذين

=

=

من دونه إذا هُمْ يَستَبشِرون. وليس المَقام مَقامَ دُعاء، وإنما كان النبيُّ ﷺ يَقول هذا الدعاءَ في استِفْتاح صلاة الليل.

فائِدةٌ: المُضاف إلى الله تعالى قد يُضاف إلى الله ﷻ إضافةَ خَلْق وتكوين وقد تَكون إضافة تَشريف، فهنا قال تعالى: {أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ} فالعِبادُ عامٌّ، فإذا كان عامًّا صار المُرادُ الخَلْقَ والتَّكوين وإذا كان خاصًّا يَعنِي: أُضيفتِ العُبودية لشخص مُعيَّن أو لجماعة مَوْصوفين بصِفة فهذا للتَّشريف.

وفي قوله تعالى: {أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} عِندي في نُسخَتي (فِي) مَفصولة عن (ما)، وتُرسَم أيضا مُتَّصِلة على القاعِدة، فالقاعِدة أخيرًا: أنها مَفصولة، لكن لعلَّ القاعِدة التي عليها المُفسِّر هي في المُصحَف الأوَّل، يَعنِي: في القاعِدة الأُولى، وقد اختَلَف العُلَماء رحمهم الله: هل تَجوز مُخالَفة القاعِدة العُثْمانية؟

على أقوالٍ ثلاثةٍ: (الجواز، والمَنْع، والتَّفصيل)، التَّفصيل بين أن يُكتَب للصَّبيِّ وأن يُكتَب للبالِغ، فالصبيُّ يُكتَب له على حسَب ما يَعرِفه من القواعِد؛ لأنه لو كُتِب له على القاعِدة العُثمانية لحرَّف، لو كُتِبَتِ الصلاة بالواو والزكاة بالواو، وما كان مَمدودًا، أي: بأَلِف حُذِفت الأَلِف منه، مثل: الرحمن، وما أَشبَهَه لو كُتِبَ له ذلك لحرَّف، لقال: إن الصلَوات، إن الزكوات، وما أَشبَهَه، أمَّا إذا كان لبالِغ عارِف فيُكتَب بالرَّسْم العُثمانيِّ.

والصحيح: أنه لا يَجِب التَّقيُّد بالرَّسْم، وذلك لأن القُرآن لم يَنزِل على هذا الرسمِ، لو نزَلَ بهذا الرسمِ كما كُتِبَت التَّوْراة ونزَلَتْ مَكتوبةً لقلنا: لا يَجوز مُخالَفته، لكنه نزَلَ قولًا وصادَفَ أن القاعِدة في ذلك الوقتِ حين كِتابته كانت على هذا الوجهِ، ولو كانَتِ الكِتابة على غير هذا الوَجهِ لكُتِب بها مُخالفًا لهذا الوَجهِ.

فالمَسأَلة اصطِلاحية، يَعنِي: أن القُرآن لم يَنزِل على هذا، صحيحٌ أننا قد نَقول:

=

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧).

{وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْض جَمِيعًا وَمِثْله مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوء الْعَذَاب يَوْم الْقِيَامَة وَبَدَا} ظَهَرَ {لَهُمْ مِنَ الله مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} يَظُنُّونَ[1].

=

يَنبَغي تَأدُّبًا أن يُكتَب القُرآن بالقاعِدة العثمانية احتِرامًا وتَعظيمًا لما كتبَه الصحابة ﭫ. أمَّا أن نَقول: هذا على سبيل الوجوب والإلزام. ونَقول: إنه لا يَجوز أن تَكتُب على السُّبورة آيةً من كِتاب الله تعالى على القاعِدة المعروفة المألوفة، فهذا فيه نظَر.

(١) قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الزمّر: ٤٧].

قال الطبري: يقول:"ولو أن لهؤلاء المشركين بالله يوم القيامة، وهم الذين ظلموا أنفسهم {مَا فِي الأرْضِ جَمِيعًا} في الدنيا من أموالها وزينتها {وَمِثْلَهُ مَعَهُ} مضاعفا، فقبل ذلك منهم عوضا من أنفسهم، لفدوا بذلك كله أنفسهم عوضا منها، لينجو من سوء عذاب الله، الذي هو معذّبهم به يومئذ".

قال ابن كثير:"أي: ولو أن جميع ملك الأرض وضعفه معه {لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ} أي: الذي أوجبه الله لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يُتقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهبا، كما قال في الآية الأخرى: {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} أي: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم".

قال القشيري:"لا فتدوا به.. ولكن لا يقبل منهم، واليوم لو تصدّقوا بمثقال ذرة لقبل منهم. كما أنهم لو بكوا في الآخرة بالدماء لا يرحم بكاؤهم، ولكنهم بدمعة واحدة- اليوم- يمحى الكثير من دواوينهم".

=

=

قوله تعالى: {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [الزمّر: ٤٧]، أي:"وظهر لهم يومئذٍ من أمر الله وعذابه ما لم يكونوا يحتسبون في الدنيا أنه نازل بهم".

قال الطبري: " يقول: وظهر لهم يومئذ من أمر الله وعذابه، الذي كان أعدّه لهم، ما لم يكونوا قبل ذلك يحتسبون أنه أعدّه لهم".

قال ابن كثير:"أي: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم".

قال ابن قتيبة:"يعيرون أنهم عملوا في الدنيا أعمالا كانوا يظنون أنها تنفعهم، فلم تنفعهم مع شركهم".

قال مجاهد: "عملوا أعمالا توهّموا أنها حسنات فإذا هي سيئات".

قال النحاس:"قيل: عملوا أعمالا سيئة وتوهّموا أنهم يتوبون قبل الموت فأدركهم الموت، وقد كانوا ظنوا أنّهم ينجون بالتوبة فبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون، ويجوز أن يكونوا توهّموا أنهم يغفر لهم من غير توبة فبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون، من دخول النار".

قال الزمخشري:"وعيد لهم لا كنه لفظاعته وشدّته، وهو نظير قوله تعالى في الوعد {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ}، والمعنى: وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن قط في حسابهم ولم يحدءوا به نفوسهم. وقيل: عملوا أعمالا حسبوها حسنات، فإذا هي سيئات".

عن سفيان الثوري أنه قرأ هذه الآية، فقال: "ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء".

وجزع محمد بن المنكدر عند موته فقيل له، فقال: أخشى آية من كتاب الله، وتلاها، فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أحتسبه".

قال القشيري:"في بعض الأخبار أن قوما من المسلمين من أصحاب الذنوب يؤمر بهم إلى النار فإذا وافوها يقول لهم مالك: من أنتم؟ إن الذين جاءوا قبلكم من أهل

=

=

النار وجوهم كانت مسودّة، وعيونهم كانت مزرقّة.. وأنتم لستم بتلك الصفة، فيقولون: ونحن لم نتوقع أن نلقاك، وإنما انتظرنا شيئا آخر! قال تعالى: {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ}".

قال العثيمين: قوله تعالى: (لو) هذه شَرْطية، وقد يَقول قائِل: أين فِعْل الشَّرْط؟ والجَوابُ أن نَقول: هو مُقدَّر، أي: (ولو حصلَ أن) أو: (ولو ثبَتَ أن الذين ظلَموا)، وأمَّا الجواب فقوله تعالى: {لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}.

و (لو) تَأتي شَرْطية وتَأتي مَصْدريَّة مثل قوله تعالى: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم: ٩]، أي: ودُّوا إِدْهانك فيُدهِنون، مثل قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا}.

إذن: (أنَّ) وما دخَلَت عليه في تَأويل المَصدَر، فاعِل لِفِعْل الشَّرْط المحذوف، أي: ولو ثبَتَ أن للذين ظلَموا.

وقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}: {ظَلَمُوا} المُراد بالظُّلْم هنا الكُفْر، والظُّلْم في الأصل هو النَّقْص؛ لقوله تعالى: {كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا} [الكهف: ٣٣]، أي: لم تَنقُص منه شيئًا.

والظُّلْم يَنقَسِم إلى قِسْمَيْن:

١- ظُلْمٌ أكبَرُ، وهو ظُلْم الكُفْر المذكور في قوله تبارك وتعالى: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: ٢٥٤].

٢- ظُلْمٌ أصغَرُ، وهو ما دون ذلك كظُلْم الإنسان لغيره في ماله وأَهْله، وما أَشْبَه ذلك.

والمُراد بالظُّلْم هنا في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا} الظلمُ الأكبَرُ.

مَسأَلةٌ: إن قال قائِل: إن الظُّلْم هو النَّقْص، ومَعروف أن الظُّلْم هو مُجاوَزة الحقِّ، فكيف نَجمَع بينهما؟

=

=

فالجَوابُ: مُجاوَزة الحقِّ نَقْص؛ لأنها نقصٌ في حقِّ الآخَر، إذ إن الواجِب ألَّا أَتعَدَّى عليه، فإذا تَعَدَّيْت عليه صِرْت ناقِصًا في حَقِّه.

وقوله تعالى: {مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}: {مَا} اسمٌ مَوْصول، أيِ: الذي، محَلُّه اسم (إن) مُؤخَّر، وقوله تعالى: {فِي الْأَرْضِ} صِلة المَوْصول، والمَعروف: أن صِلة الموصول لا تَكون إلَّا جُملة، فكَيْف نَجعَل هذا صِلةً للمَوصول، وليس بجُملة؟

الجَوابُ أن نَقول: هذا شِبْه جُمْلة، وهو مُتعَلِّق بفِعْلٍ مَحذوف، تَقديره: ما استَقَرَّ في الأرض.

وقوله تعالى: {جَمِيعًا} جميعًا حالٌ من {مَا} يَعنِي: حال كونه جميعًا مَجموعًا لهم.

وقوله تعالى: {وَمِثْلَهُ مَعَهُ} أي: مِثل ما في الأرض جميعًا من أوَّلها إلى آخِرها؛ أي: ما في الأرض ومثله معه مُضافًا إليه. ونُشير إلى أن قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} لم يُفسِّرها المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ ولم يُبيِّنها، ولكن بيَّنَّا نحن في التَّفسير أنها تَحتَمِل الظُّلْم الأكبَر وهو الشِّرْك، والأَصغَر وهو ما دونَه، ولكن يَظهَر - والله تعالى أَعلَمُ - أن المُراد بها الأكبَرُ.

وقوله تعالى: {لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي: دفَعوه فِداءً يَفْدون به أَنفُسهم من عذاب الله عَزَّ وَجَلَّ، وَيكون هذا يوم القِيامة، وفيه يَتمَنَّى هؤلاء أن يَكون لهم ما في الأرض جميعًا ومِثله معه؛ ليَدفَعوا عنهم العذاب، ولكن لا يَحصُل، وقد طُلِب منهم في الدنيا ما هو أَهوَنُ من ذلك، طُلِب منهم أن يَعبُدوا الله تعالى وحدَه لا شريكَ له، وأن يَقوموا بشريعته، وهو سَهْل، لكنهم - والعِياذُ بالله - استَكْبَروا، فقوله تعالى: {لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي: من العَذاب السيِّئ الذي ليس له نَظيرٌ في الدنيا، ولا يُمكِن أن يَضبِطه الذِّهْن بتَخيُّل؛ لأنهم كما أن في

=

=

الجَنَّة ما لا عَيْنٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سمِعَت ولا خطَر بقَلْب بشَر من النعيم، فكذلك ما في النار من العَذاب.

وقوله تعالى: {يَوْمَ الْقِيَامَةِ} هو اليوم الذي يُبعَث فيه الناس، وسُمِّيَ: يومَ القيامة لأُمورٍ ثلاثة:

أوَّلًا: لأن الناس يَقومون فيه لربِّ العالمِين كما قال تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: ٦].

والثاني: أنه يُقام فيه العَدْل كما قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} [الأنبياء: ٤٧].

والثالِث: لأنه يَقوم فيه الأَشْهاد، كما قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: ٥١].

وقوله تعالى: {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} أي: ظهَر لهم من عند الله ﷻ {مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} أي: ما لم يَكُن في حُسبانهم ولا خطَر على بالهم أنهم يَجِدون هذا العذابَ، فظَنُّوا أن الأمر هيِّن، وظنُّوا أن الأصنام تَشفَع لهم، وظنُّوا ظُنونًا كثيرة، ولكن لم تَنفَعْهم هذه الظُّنونُ، وظهَر لهم شيء لم يَحتَسِبوه أبدًا {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}.

فقوله: (بدا لهم) أي: ظهَر لهم، و {سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} أي: سُوء ما كسَبوا من الأعمال، وهم لم يَكسِبوا إلَّا الشَّرَّ، وقد قال الله تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ} ظهَر {لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} يَظُنُّون]، والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ الشيءُ الواضِح لا يُفسِّره، ويُقال: بدَا. ويُقال: بدَأَ، وبينهما فَرْق، فبَدَا بمَعنَى: ظهَر، وبدَأَ بمَعنَى: ابتَدَأ، ويُقال في الأوَّل في المَصدَر: بُدُوًّا. وفي الثاني: بَدْءًا.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨).

{وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَات مَا كَسَبُوا وَحَاقَ} نَزَلَ {بهم ما كانوا به يستهزءون} أي العذاب[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} [الزمّر: ٤٨].

قال الطبري: يقول:"وظهر لهؤلاء المشركين يوم القيامة {سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} من الأعمال في الدنيا، إذ أعطوا كتبهم بشمائلهم".

قال ابن كثير:"أي: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم".

قال النحاس:"أي: عقاب سيّئات أو ذكر سيئات".

قال الزمخشري:"أي: سيئات أعمالهم التي كسبوها. أو سيئات كسبهم، حين تعرض صحائفهم، وكانت خافية عليهم، كقوله تعالى أَحْصاهُ اللهُ وَنَسُوهُ أو أراد بالسيآت: أنواع العذاب التي يجازون بها على ما كسبوا، فسماها سيئات، كما قال: {وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها}".

قوله تعالى: {وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الزمّر: ٤٨]، أي:"وأحاط بهم من كل جانب عذاب أليم؛ عقابًا لهم على استهزائهم بالإنذار بالعذاب الذي كان الرسول يَعِدُهم به، ولا يأبهون له".

قال الطبري: يقول:"ووجب عليهم حينئذ، فلزمهم عذاب الله الذي كان نبي الله ﷺ في الدنيا يعدهم على كفرهم بربهم، فكانوا به يسخرون، إنكارا أن يصيبهم ذلك، أو ينالهم تكذيبا منهم به، وأحاط ذلك بهم".

قال ابن كثير:"أي: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا".

قال الزمخشري:"أي: " ونزل بهم وأحاط جزاء هزئهم".

=

=

عن مجاهد: {وَحَاقَ بِهِمْ}، قال: " حل بهم".

وروي عن السدي:"وقع بهم".

وقال الربيع: "نزل".

قال الضحاك: {فَحَاقَ}: "أي: أحاط".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ} نزل {بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} أيِ: العَذاب]، يَعنِي: حاق بهم العَذاب، أي نزَل بهم وبدَتْ لهم سَيِّئاتهم وعرَفوها، وكانوا يَقولون: يا لَيْتَنا نُردُّ ولا نُكذِّب بآيات ربِّنا ونكون من المُؤمِنين. قال تعالى: {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} [الأنعام: ٢٨].

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَحَاقَ بِهِمْ} نزَل بهم {مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}] أي: ما كانوا يَستَهزِئون به في الدُّنيا، أمَّا في الآخِرة فإنهم يَقولون: {قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} [الأعراف: ٥٣]، إلَّا أنه في ذلك الوقتِ لا يَنفَعهم، فقَدْ كانوا في الدنيا يَستَهْزِئون ويَسخَرون من الرُّسُل، ويَسخَرون من الذين آمَنوا، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ} [المطففين: ٢٩- ٣٢].

سُبحانَ الله! هذه الآياتُ تَنطَبِق تمامًا على وَقْتنا كما انطَبَقَت على ما قبلُ، وهي قوله تعالى: {كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ}، وهذا هو الواقِع، فتَجِد هؤلاء الفَسَقةَ والمُجرِمين إذا مرَّ بهم المُؤمِن التَّقيُّ جعَلوا يَضحَكون {وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ} أي: إذا مرَّ المُؤمِنون بالمُجرِمين أو المُجرِمون بالمُؤمِنين كِلاهما {يَتَغَامَزُونَ} يَغمِز بعضُهم بعضًا، فانظُرْ إلى هذا المِسكينِ، وانظُرْ إلى ثِيابهم مثَلًا! {وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ} يَعنِي: يَرجِعون إلى أهلهم فكهين، أي: مَرِحين

=

=

مُتفكِّهين بما قالوا في هؤلاء المُؤمِنين.

وقوله سبحانه وتعالى: {وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـؤُلَاءِ لَضَالُّونَ} والفاعِل في الفِعْل {رَأَوْهُمْ} المُجرمون، والمَعنَى: إذا رأَى الذين أَجرَموا هؤلاء المُؤمِنين {قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ} تائِهون، وهذا هو الواقِعُ حتى في الوقت الحاضِر إذا رأَوُا المُتدَيِّن قال: هذا مُتخَلِّف، هذا رَجْعيٌّ، أو هذا أُصوليٌّ، يَعنِي: مُتشَدِّدًا، وما أَشبَه ذلك.

ثُمَّ قال سبحانه وتعالى: {فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ} [المطففين: ٣٤] في يوم القِيامة تَحصُل الضِّحْكة من المُؤمِنين على الكافِرين، وهذه الضِّحكةُ ليس بعدَها بكاءٌ، أَمَّا ضِحكة أُولئِك فبعدَها البُكاء والأَلَمُ والحَسْرة.

وقوله تعالى: {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} [المطففين: ٣٥] يَنظُرون ما أَنعَم الله تعالى به عليهم، ويَنظُرون ما عذَّب الله تعالى به هؤلاء.

ثُمَّ قال الله تعالى: {هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [المطففين: ٣٦]، فهؤلاءِ المُجرِمون يَبدو لهم يوم القِيامة ما كانوا يَستَهزِئون به من شريعة الله تعالى، وجزاء الله تعالى، وما أَشبَه ذلك، وقد كانوا يَسخَرون بالرَّسول عليه الصلاة والسلام وبما وَعَد به من النعيم، وبما وعَدَ به من العذاب، ويَقولون: يا مُحمَّدُ، إن كُنتَ صادِقًا أننا سنَلقَى هذا فلْيَكُن لك أنتَ، ففجِّرِ الأرض يَنابيعَ، واجعَلِ الرِّياض مَزارعَ نَخيلٍ، وما أَشبَه ذلك.

وهل يَرَى المُؤمِنون هؤلاءِ يَوْم القِيامة يُعذَّبون؟

الجَوابُ: نعَمْ، يَرَوْنهم ويَتَخاصَمون معَهم {قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِين (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ} اذهَبوا فانظُروا: {فَاطَّلَعَ فَرَآهُ} أي: قَرينُه {فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ} في عُقْرها في وسَطِها، فقال له: {تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ} [الصافات: ٥١-٥٦] إلخ.

=

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩).

{فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ} الْجِنْس {ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إذا خَوَّلْنَاهُ} أَعْطَيْنَاهُ {نِعْمَة} إنْعَامًا {مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيته عَلَى عِلْم} مِنْ الله بِأَنِّي لَهُ أَهْل {بَلْ هِيَ} أَيْ الْقَوْلَة {فِتْنَة} بَلِيَّة يُبْتَلَى بِهَا الْعَبْد {وَلَكِنَّ أَكْثَرهمْ لَا يَعْلَمُونَ} أَنَّ التَّخْوِيل اسْتِدْرَاج وَامْتِحَان[1].

=

فهم يَرَوْنهم ويَتَحدَّثون معهم؛ لأن في هذا أكبَرَ إغاظةٍ لهم، وهذا أَلَمٌ قَلْبيٌّ أَشَدُّ من الأَلَم البدَني، نَسأَل الله تعالى العافيةَ.

وهل يَشفَعون لهم؟

أَقول: لا؛ لأن الكُفَّار لا يُشفَع لهم؛ لأنه لا شَفاعةَ إلَّا بإِذْن الله تعالى ولا أَذِنَ الله تعالى ولا يَرضَى، أمَّا غير الكُفَّار فيَشفَعون لهم بإِذْن الله تعالى.

(١) قوله تعالى: {فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا} [الزمّر: ٤٩].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فإذا أصاب الإنسان بؤس وشدّة دعانا مستغيثا بنا من جهة ما أصابه من الضرّ".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرا عن الإنسان أنه في حال الضراء يَضْرَع إلى الله، ﷻ، وينيب إليه ويدعوه".

عن قتادة: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ}، قال:"الوجع والبلاء والشدة".

قوله تعالى: {ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} [الزمّر: ٤٩]، أي:"فإذا كشفنا عنه ما أصابه وأعطيناه نعمة منا عاد بربه كافرًا، ولفضله منكرًا، وقال: إن الذي أوتيتُه إنما هو على علم من الله أني له أهل ومستحق".

قال الطبري:"يقول: ثم إذا أعطيناه فرجا مما كان فيه من الضرّ، بأن أبدلناه بالضرّ

=

=

رخاء وسعة، وبالسقم صحة وعافية، فقال: إنما أعطيت الذي أعطيت من الرخاء والسعة في المعيشة، والصحة في البدن والعافية، على

علم من الله بأني له أهل لشرفي ورضاه بعملي {عندي} يعني: فيما عندي، كما يقال: أنت محسن في هذا الأمر عندي: أي فيما أظنّ وأحسب".

قال ابن كثير:"وإذا خوله منه نعمة بغى وطغى، وقال: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} أي: لما يعلم الله من استحقاقي له، ولولا أني عند الله تعالى خصيص لما خَوَّلني هذا!".

عن مجاهد، قوله: " {إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا}، قال: أعطيناه".

عن مجاهد:"{ثُمَّ إذا خَوَّلْناهُ} أعطيناه {نعْمَة منا} أي: عافية".

قال الزجاج: أي:"أعطيناه ذلك تفضلا، {قال إنما} أعطيته على شرف وفضل يجب له به هذا الذي أعطيت، فقد علمت أني ساعطى هدى، وكل من أعطى على غير جزاء فقد خول".

عن قتادة، قوله: {عَلَى عِلْمٍ عندي}، أي: على خير عندي".

قال القشيري:"فى حال الضّرّ يتبرّءون من الاستحقاق والحول والقوة، فإذا كشف عنهم البلاء وقعوا فى مغاليطهم، وقالوا: إنما أوتينا هذا باستحقاق منّا".

قوله تعالى: {بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ} [الزمّر: ٤٩]، أي:"بل ذلك فتنة يبتلي الله بها عباده؛ لينظر مَن يشكره ممن يكفره".

قال مقاتل:"يعني: بل تلك النعمة بلاء ابتلي به".

قال يحيى بن سلام: أي:"بلية".

عن قتادة: " {بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ}، أي: بلاء".

قال الزجاج:"أي: تلك العطية فتنة من الله وبلوى يبتلى بها العبد ليشكر أو يكفر".

قال ابن كثير:"أي: ليس الأمر كما زعموا، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره

=

فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك، فهي فتنة أي: اختبار".

قال الطبري: يقول:"بل عطيتنا إياهم تلك النعمة من بعد الضرّ الذي كانوا فيه فتنة لهم، يعني بلاء ابتليناهم به، واختبارا اختبرناهم به".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمّر: ٤٩]، أي:"ولكن أكثرهم - لجهلهم وسوء ظنهم- لا يعلمون أن ذلك استدراج لهم من الله، وامتحان لهم على شكر النعم".

قال الطبري: " {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ} لجهلهم، وسوء رأيهم {لا يَعْلَمُونَ} لأي سبب أعطوا ذلك".

قال السمعاني:"أي: لا يعلمون أن ما نعطي من النعمة اختبار وبلية".

قال ابن كثير:"فلهذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون".

قال العثيمين: قوله تعالى: {فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ} أي: أَصابه، والمُراد بالإنسان هنا: الجِنْس، وقيل: المُراد به: الكافِر، فأمَّا مَن قال: المُراد به: الجِنْس، وإنه شامِل للمُؤمِن والكافِر قال: إن هذه هي طَبيعة الإنسان، وإن المُؤمِن الذي يَعتَرِف لله تعالى بالنِّعَم وَيشكُرها، وهذا خارِجٌ عن طبيعة الإنسان، يَعنِي: أن الله تعالى مَنَّ عليه، فخرَج عن مُقتَضى طبيعة البَشَر.

وأمَّا مَن قال: إن المُراد به أي: الإنسان الكافِر، فيَكون من باب العامِّ الذي أُريد به الخاص، قال: لأن هذا الوَصفَ المَذكور لا يَكون إلَّا من الكافِر، هو الذي إذا مسَّه الضُّرُّ ابتَغى، يَعنِي: رجَع إلى الله تعالى، وإذا أَعطاه النِّعْمة بطِر بها وقال: ليس لأحَد عليَّ فيها فَضْل، وإنما ذلك على عِلْم، وهذا الأخيرُ أقرَبُ؛ لأن المُؤمِن إذا خوَّله الله تعالى نِعْمة شكَر ولم يَقُل: أُوتيتُه على عِلْم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ} الجِنْس]، يَعنِي: المُراد بالإنسان الجِنْس، فيَشمَل

=

المُؤمِن والكافِر، ولكن تَبيَّن ممَّا تَكلَّمنا فيه أن الظاهِر أن المُراد به: الكافِر فيَكون عامًّا أُريد به الخاصُّ، والعامُّ الذي يُراد به الخاصُّ مَوْجود في اللغة العربية بكَثْرة، مثل قوله سبحانه وتعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ} [آل عمران: ١٧٣]، فنَحْن نَعلَم أنه ليس كل الناس جاؤُوا يَقولون بل القائِل واحِد، وقوله تعالى: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ} أيضًا نَعلَم أنه ليس جميع الناس جمَعوا، وإنما المُراد واحِد أو أُناس مُعيَّنون، أمَّا كل بنو آدَمَ فلا، فالمُراد بالإنسان هنا: [الجِنْس] على قول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، وعلى القول الذي اختَرْناه (الكافِر).

فإذا قال قائِل: يَقول الله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} كيف يَكون المُراد بالإنسان الجِنْس والكُفَّار كلهم لا يَعلَمون؟

فالجَوابُ: هناك بعض الكُفَّار يَعلَم حَقَّ ما هو عليه، لكنه مُعانِد.

وإذا قِيل: في الآية: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} يَقول في الحاشِية: فيه دَلالة على أن المُراد بالإنسان الجِنْس، فكيف استَدَلَّ بهذا؟

الجَوابُ: لمَّا قال: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} فإن هناك مَن يَعلَم وهُمُ المُؤمِنون، فيَكون المرادُ بـ {أَكْثَرَهُمْ} الجِنْس؛ لأن غير المُؤمِن كلهم لا يَعلَمون، والراجِح أنه الكافِر.

والجوابُ عن هذا: أن نَقول: مِن الكُفَّار مَن يَعلَم، لكنه مُستكبِر.

فإذا قال قائِل: هناك بعض المُؤمِنين ناقِصو الإيمان إذا أُوتِي النِّعْمةَ قال: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} أَلَا يُؤيِّد أن الإنسان المَقصود به الجِنْس؟

فالجَوابُ: نعَمْ، لكن هو كافِر بهذه المَقالةِ، ليس كافِرًا كُفرًا مُخرِجًا عن المِلَّة، إنما هو بهذه المَقالةِ كافِر.

وقد يَكون كافِرًا كُفْرًا مُخرِجًا عن المِلَّة، إذا اعتَقَد أن الله تعالى ليس له سبَب في حُصول هذه النِّعمةِ، وأنه هو الذي حصَلت به، لا أنه سبَب فهو كُفْر؛ لأن إضافة

=

=

النِّعَم إلى أسبابها بالإعراض عن المُسبِّب وهو الله تعالى، واعتِقادُ أن هذه النِّعمةَ ليس لله تعالى فيها عَلاقة فهذا كُفْر بالرُّبوبية.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ} أَعطَيْناه {نِعْمَةً} إنعامًا {مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ}] قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: {خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً} أي: إنعامًا] في هذا نظَر؛ لأن الإنعام فِعْل المُنعِم، والنِّعمة عَطاء المُنعِم، يَعنِي: الشيء المُعطَى، فهل الأَليقُ أن نُفسِّر النِّعْمة بالإنعام، أو أن نُفسِّر النِّعمة بما أُعطيَه الإنسان؟

الجَوابُ: الثاني هو الظاهِر وهو الواقِع أيضًا؛ لأن التَّخويل، يَعنِي: أن هناك شيئًا مُخوَّلًا وهو النِّعْمة من أولاد ورِزق وزَوْجات ومَساكِنَ وغير هذا.

فقوله تعالى: {فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا} أي: سأَلنا أن نكشِف ضُرَّه ثُمَّ إذا كشَفْنا الضُّرَّ وخوَّلناه نِعمةً منَّا بزَوال الضَّرَر الذي حصَل له قال: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} يَعنِي: أُوتِيت هذا الشيءَ على عِلْم، وما المُراد بالعِلْم هنا: هلِ المَعنَى أُوتِيته على عِلْمٍ من الله تعالى أني له أَهْل فأنا جَديرٌ به ومُستَحِقٌّ له أو المَعنى: على عِلْم مِنِّي بوجود المَكاسِب.

فهو يَشمَل الأَمْرين فهو يَقول: {أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} بأني أَهْل له وأُوتِيته أيضًا من كَسْبي، فيَكون بذلك مانًّا على الله عَزَّ وَجَلَّ، ويَكون مُستَبِدًّا بنَفْسه يَجمَع بين الأمرين:

الأَوَّل: المِنَّة ويَقول: ليس لله تعالى فَضْل عليَّ، بل هو أَعطاني ذلك لأنه يَعلَم أنني أهلٌ لذلك.

والثاني: الاعتِداد بالنَّفْس وعدَم إرجاع الحَقِّ لله عَزَّ وَجَلَّ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} مِن الله بأَنِّي له أَهْل] وهذا أَحَدُ القَوْلين في الآية، والقول الثاني: {عَلَى عِلْمٍ} أي: على حِذق ومَهارة فيما فعَلت، والضمير يَرجِع إلى ما خُوِّل، أي: أُوتيت الذي خوَّلته، فالهاء في {أُوتِيتُهُ} يَعود على المُخوَّل.

=

=

ثُمَّ قال الله تعالى: {بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ}: {بَلْ هِيَ} هل يَقصِد المَقالة أو الحال؟

الجَوابُ: يُحتَمَل هذا وهذا، ويُحتَمَل أن الله ﷻ إذا أَعطاهم هذه النِّعَم أَعطاه إيَّاها فِتنةً له، ويُحتَمَل أن هذه المَقالةَ فِتنةٌ له؛ ولكن المَعنَى الأوَّل أَقرَبُ: أن الله تعالى يَفتِن العبد بإزالة الضَّرَر عنه وحصول الخير والنِّعْمة، وكم من إنسان افتُتِن بنِعَم الله ﷻ، فكان مُستَقيمًا وبالنِّعْمة يَنحَرِف، وفي الحديث أن الله تعالى قال: "إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنيتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْفَقْرُ"، فالله ﷻ على كل شيء قَدير، وقد يَختار لعَبْده ما هو أَنفَعُ من حيث لا يَشعُر.

فالظاهِر أن المُراد: بقوله تعالى: {بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ} أي: بل هذه الحالُ فِتْنة، وهي تَخويل النِّعَم، وقد قال سُلَيْمانُ عليه الصلاة والسلام: {هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ}.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{بَلْ هِيَ} أي: القَولة {فِتْنَةٌ} بليَّة يُبتَلى بها العَبْد] هذا ما جرَى عليه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أن المُراد بالفِتْنة: القولةُ التي قالها.

ولكن الصحيح: أن الفِتنة هي النِّعْمة التي أَعطاها الله تعالى إيَّاه، أو الحال التي كان عليها حينما كان قد مَسَّه الضُّرُّ، ثُمَّ رفَع الضُّرُّ عنه وأُبدِل بنِعْمة فهذه فِتنة يَفتِن الله تعالى بها العِباد، قال الله تعالى: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء: ٣٥].

وقوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} الاستِدْراك هنا يَعنِي أن هؤلاء الذين غُمِروا بنِعْمة الله تعالى غفَلوا عن المُنعِم بها وعن مُسْديها ومُوليها، فكانوا لا يَعلَمون شُكْر هذا المُنعِم، وكانوا لا يَعلَمون أيضًا أنها فِتْنة، بل يَأخُذ الإنسان النِّعَم على أنها أمرٌ طَبيعيٌّ ويَغفُل عن أن الله تعالى يَمتَحِنه بها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} أن التَّخويل استِدْراجٌ وامتِحان] {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ} أي: أكثَر الناس، وإنما عاد الضمير وهو غائِب على مَرجِعٍ غير مَذكور

=

قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠).

{قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ} مِنْ الْأُمَم كقارون وقومه الراضين بها {فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون}(١).

=

للقَرينة والسِّياق، ويُحتَمل أن المُراد {أَكْثَرَهُمْ} أي: أكثَر بني الإنسان فيَكون الضمير هنا عاد على الإنسان باعتِبار المَعنَى لا باعتِبار اللَّفْظ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [أن التَّخويل استِدْراجٌ وامتِحان] إذا قال قائِل: بماذا نَعلَم أن التَّخويل استِدراجٌ وامتِحان؟

فالجَوابُ: نَعلَم ذلك لكون الإنسان مُصِرًّا على المَعصية ونِعَم الله سبحانه وتعالى تَتْرَى عليه، قال سبحانه وتعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [آل عمران: ١٧٨]، فهذه هي العَلامة.

فإذا رأَيْت الله تعالى يُنعِم عليك وأنت مُقيمٌ على مَعصيته فاعلَمْ أن ذلك استِدراج، أَمَّا إذا رأَيْت الله تعالى يُنعِم عليك وأنت قائِمٌ بطاعته فاعلَمْ أن هذا من زيادة فَضْله ونِعَمه، قال الله تعالى: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم: ٧].

(١) قوله تعالى: {قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [الزمّر: ٥٠].

قال مقاتل:"يقول: قد قالها قارون في القصص قبل أبي حذيفة".

عن السديّ:"{قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، الأمم الماضية".

قال الطبري: يقول:"قد قال هذه المقالة يعني قولهم: لنعمة الله التي خولهم وهم مشركون: أوتيناه على علم عندنا الذين من قبل مشركي قريش من الأمم الخالية لرسلها، تكذيبا منهم لهم، واستهزاء بهم".

قال ابن كثير:"أي: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى، كثير ممن سلف من الأمم".

=

قال السمعاني:"أي: قال هذه الكلمة الذين من قبلهم، وفي التفسير: أن المراد من هذا هو قارون، فإنه قال: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} [القصص: ٧٨]".

قوله تعالى: {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الزمّر: ٥٠]، أي:"فما أغنى عنهم حين جاءهم العذاب ما كانوا يكسبونه من الأموال والأولاد".

قال الطبري: " يقول: فلم يغن عنهم حين أتاهم بأس الله على تكذيبهم رسل الله واستهزائهم بهم ما كانوا يكسبون من الأعمال، وذلك عبادتهم الأوثان. يقول: لم تنفعهم خدمتهم إياها، ولم تشفع آلهتهم لهم عند الله حينئذ، ولكنها أسلمتهم وتبرأت منهم".

قال السمعاني:"أي: لم يغن عنهم ما اكتسبوا شيئا".

قال ابن كثير:"أي: فما صح قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون".

قال الزجاج:"يقول: فأحبطت أعمالهم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}: {قَدْ قَالَهَا} الضمير يَعود على قوله تعالى: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} لكن قد قالها الذين من قَبْلهم مثل قارونَ كما قال الله تعالى: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} ثُمَّ قال الله تعالى بعدها: {أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا}.

قوله تعالى: {قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}: (ما) هذه نافِية و {أَغْنَى} بمَعنَى: دفَع، أي: ما دفَع عنهم ما كانوا يَكسِبون، أي: لم يُغنِ عنهم ما كَسَبوا شيئًا من عَذاب الله، وهكذا النِّعَم لا تُغنِي مَن افتَخَر بها وغفَل بها عن طاعة الله شيئًا، ألم تَرْوا إلى عاد استكْبَروا في الأرض {وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} [فصلت: ١٥]؛ لأن الله تعالى أَعطاهم قوَّة عظيمة، فقال الله تعالى ردًّا على طُغيانهم: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ} وتَأمَّلوا كيف عُذِّب هؤلاء!

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١).

=

بالرِّيح وهي أَلطَف شيء فعُذبِّوا بها انتِقامًا منهم حين قالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} يَعنِي: لم يَهلِكوا بالصواعِق ولا بالحاصِب من السماء، وإنما أُهلِكوا بهذه الريح اللَّطيفة حتى إنهم لمَّا رأَوْا ما جاءت به هذه الريحُ من الرِّمال {قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا} فقال الله تعالى: {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} من الأُمَم كقارونَ وقومه الراضِين بها] أي: بهذه المَقالةِ، فقوله سبحانه وتعالى: {قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} أي: قالوا بعد أن أَعطاهم الله تعالى النِّعَم: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي}.

وهذا قد صرَّح الله تعالى به عن قارونَ في سورة القَصص حين خرَج على قومه في زِينته فنَصَحوه، وقالوا له: {وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} [القصص: ٧٧، ٧٨]، فالمَقالة هي المَقالة، وقد سبَقَ أن الإنسان يُعجَب بعمَله فيَظُنُّ أن ما حصَل له من النِّعَم بسبَب عمَله مع أنه من فَضْل الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله تعالى: {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}: (ما) هذه نافية وقد سبَقَ شَرْحها.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} أي: جَزاؤها] أي: السَّيِّئات، ولكنه عبَّر بالسيِّئات نفسِها؛ لأن الجزاء من جِنْس العمَل وهو مُقابِلٌ لها لا يَزيد.

{فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَات مَا كَسَبُوا} أَيْ جَزَاؤُهَا {وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ} أَيْ قُرَيْش {سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَات مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ} بِفَائِتِينَ عَذَابنَا فَقُحِطُوا سَبْع سِنِينَ ثُمَّ وُسِّعَ عَلَيْهِمْ(١).

---

(١) قوله تعالى: {فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} [الزمّر: ٥١].

قال مقاتل:"يعني: عقوبة ما كسبوا من الشرك".

قال الطبري: " يقول: فأصاب الذين قالوا هذه المقالة من الأمم الخالية، وبال سيئات ما كسبوا من الأعمال، فعوجلوا بالخزي في دار الدنيا، وذلك كقارون الذي قال حين وعظ {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} فخسف الله به وبداره الأرض {فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِين}".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} [الزمّر: ٥١]، أي:"والذين ظلموا أنفسهم من قومك -أيها الرسول-، وقالوا هذه المقالة، سيصيبهم أيضًا وبال سيئات ما كسبوا، كما أصاب الذين من قبلهم".

قال الطبري:"يقول لنبيه محمد ﷺ: والذين كفروا بالله يا محمد من قومك، وظلموا أنفسهم وقالوا هذه المقالة سيصيبهم أيضا وبال {سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} كما أصاب الذين من قبلهم بقيلهموها".

قال السمعاني:"أي: يصيب الكفار من هذه الأمة من البلاء والعقوبة ما أصاب الأمم الماضية".

قال ابن كثير:"{وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ} أي: من المخاطبين {سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} أي: كما أصاب أولئك".

عن السديّ:"{وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ}، قال: من أمة محمد ﷺ".

قوله تعالى: {وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ} [الزمّر: ٥١]، أي:"وما هم بفائتين الله ولا سابقيه".

=

=

قال الطبري:"يقول: وما يفوتون ربهم ولا يسبقونه هربا في الأرض من عذابه إذا نزل بهم، ولكنه يصيبهم {سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا} ففعل ذلك بهم، فأحلّ بهم خزيه في عاجل الدنيا فقتلهم بالسيف يوم بدر".

قال مقاتل:"يعني: وما هم بسابقي الله- ﷻ- بأعمالهم الخبيثة حتى يجزيهم بها".

قال السمعاني:"أي: بفائتين ولا سابقين".

قال الزجاج:"أي: إلى الله مرجعهم فيجازيهم باعمالهم".

قال ابن كثير:"كما قال تعالى مخبرا عن قارون أنه قال له قومه: {لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} [القصص: ٧٦-٧٨]، وقال تعالى: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [سبأ: ٣٥]".

قال العثيمين: قوله تعالى: {فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} يَعنِي: أَصابهم جزاءُ السيِّئات، لكنه سمَّى الجزاء سَيِّئاتٍ؛ لأن السَّيِّئاتِ سببُه، وليَتبَيَّن بذلك أن الجزاء على قَدْر العمَل لا يَختَلِف، فكأنه هو نَفْس العمَل.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} الواو في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ ظَلَمُوا} استِئْنافية، و (الذين) مُبتَدَأ، وجُملة: {سَيُصِيبُهُمْ} خبَر {وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} كما أَصاب مَن قَبْلهم.

وقوله تعالى: {وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ}: (ما) نافِية، وهل هي حِجازيةٌ أو تَميميةٌ؟

الواقِع أنه ليس في اللَّفْظ ما يَدُلُّ على هذا ولا على هذا، ولكن القرآن بلُغة قُرَيْشٍ بدليل قوله تعالى: {مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} [يوسف: ٣١]، وعلى هذا

=

أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢).

{أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الله يَبْسُط الرِّزْق} يُوَسِّعهُ {لِمَنْ يَشَاء} امْتِحَانًا {وَيَقْدِر} يُضَيِّقهُ لِمَنْ يَشَاء ابْتِلَاء {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَات لِقَوْمٍ يؤمنون} به[1].

=

فتُحمَل (ما) كُلَّما جاءَت على أنها حِجازية، ولكن كيف نُعرِبها في مثل هذا التَّركيبِ: {وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ}؟

نَقول: (هُمْ) اسمُها، والباء حرف جَرٍّ زائِدٌ، و (مُعجِزين) خبَرُها مَنصوبٌ بياء مُقدَّرة مَحلَّ الياء المَوجودة؛ لأن الياء الموجودة علامة الجَرِّ وليسَتْ علامة النَّصْب، بل هي علامة الجَرِّ بحرف الجَرِّ الزائِد الباء، فجعَلنا العمَل للظاهِر وهو الباء، أمَّا المَحلُّ فقدَّرْناه تقديرًا، وعلى هذا فيَكون مَنصوبًا بياء مُقدَّرة بدَل الياء التي عمِل فيها حرفُ الجَرِّ الزائِد.

وقوله تعالى: {بِمُعْجِزِينَ} اسمُ فاعِل من الفِعْل (أَعجَز)، يَعنِي: لن يُعجِز الله ﷻ فلا يَستَطيع أن يُعاقِبهم، بل عُقوبتهم أَمْرٌ هيِّن على الله ﷻ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ} أي: قُرَيْش {سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ} بفائِتِين عذابَنا، فقُحِطوا سبع سِنينَ، ثم وُسِّع عليهم]؛ فقُحِطوا سبع سِنينَ بدَعْوة النبيِّ ﷺ حين قال: "اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ"، فقُحِطوا سبع سِنينَ قَحْطًا شديدًا حتى إن الإنسان منهم يَتَراءَى السماء فيَحول بينه وبينها غبَشٌ كأنه دُخَان من شِدَّة الجوع والتَّعَب.

(١) قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} [الزمّر: ٥٢].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: أولم يعلم يا محمد هؤلاء الذين كشفنا عنهم ضرهم، فقالوا: إنما أوتيناه على علم منا، أن الشدة والرخاء والسعة والضيق والبلاء بيد الله، دون كل من سواه، يبسط الرزق لمن يشاء، فيوسعه عليه، ويقدر

=

=

ذلك على من يشاء من عباده، فيضيقه، وأن ذلك من حجج الله على عباده، ليعتبروا به ويتذكروا، ويعلموا أن الرغبة إليه والرهبة دون الآلهة والأنداد".

قال القشيري:"أو لم يروا كيف خالف بين أحوال الناس في الرزق: فمن موسّع عليه رزقه، ومن مضيّق عليه، وليس لواحد منهم شئ ممّا خصّ به من التقليل أو التكثير".

قال ابن كثير:"أي: يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين".

عن الحسن:" {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} ، قال: ينظر له، فإن كان الغنى خيرا له أغناه وان كان الفقر خير له أفقره".

وقال الحسن:"يبسط لهذا مكرا به ويقدر لهذا نظرا له".

وفي بعض الأخبار: "أن الله يخير لعبده، فإن كان الخيرة له في التوسع وسع عليه، وإن كان الخيرة له في التضيق ضيق عليه".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الزمّر: ٥٢]، أي:"إن في ذلك التوسيع والتضييق في الرزق لَدلالات واضحات لقوم يُصدِّقون أمر الله ويعملون به".

قال الطبري:"يقول: إن في بسط الله الرزق لمن يشاء، وتقتيره على من أراد لدلالات وعلامات {لِقَوْمٍ} يصدقون بالحقّ، فيقرّون به إذا تبينوه وعلموا حقيقته أن الذي يفعل ذلك هو الله دون كل ما سواه،".

قال ابن كثير: {لَآيَاتٍ} " أي: لعبرا وحججا".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {إن في ذلك لآيات} ، قال: هو الرجل يبعث بخاتمه إلى أهله".

قال العثيمين: ارتباط هذه الآيةِ بما قبلها ظاهِر؛ لأنه تَكلَّم عن الإنسان إذا أَصابه الضُّرُّ، وإذا أَصابته النِّعْمة، ثُم عقَّب ذلك بأن هذا الأمرَ كلَّه بيَدِ الله تعالى.

=

=

وقوله تعالى: {أَوَلَمْ} الهمزة هنا للاستِفْهام، والواو حرف عَطْف، والمعطوف عليه إمَّا أن يَكون مَحذوفًا ويُقدَّر بما يُناسِب المَقام، وإمَّا أن يَكون على ما سبَق، فإذا قُلْنا: إنه ما سبَق كانت الهَمزةُ في تَقدير التأخير عن حَرْف العَطْف، والتَّقدير: وألَمْ يَعلَموا، وإذا قُلنا بالأوَّل صارَتِ الهَمزةُ داخِلةً على مَحذوف تَقديرُه: أجِهلوا ولم يَعلَموا.

وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ}: {يَبْسُطُ} يَعنِي: يُوسِّع و {الرِّزْقَ} العَطاء.

وقوله تعالى: {لِمَنْ يَشَاءُ} لمَن يَشاء أن يُوسِّعه له امتِحانًا لهذا الشخصِ الذي بَسَط له.

وقوله تعالى: {وَيَقْدِرُ} يَعنِي: يُضيِّق امتِحانًا أيضًا؛ لأن الضِّيق فيه امتِحان، والسَّعة فيها امتِحان، لكن الغالِب عند الناس في العُرْف: أن الضِّيق يُسمَّى ابتِلاءً، أي: بلاء، وأمَّا التَّوْسِعة فهي امتِحان مع أن الابتِلاء بمَعنَى الامتِحان، فإن الإنسان يُبتَلى فيما يُبتَلى به ليَمتَحِنه الله ﷻ هل يَصبِر أو يَتضَجَّر، وأمَّا ما ابتَلَى الله تعالى به من النِّعَم فهو هل يَشكُر أو يَكفُر.

وقوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ} المُشار إليه البَسْط والتَّضييق، و {لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} أي: علامات على أن الله تعالى وحدَه هو المُتصَرِّف؛ ولهذا نَجِد بعض الناس يَكون عنده حِذقٌ في البَيع والشِّراء وتَحصيل المال، وعنده قُدرة، وعنده قُوَّة، ولكن يُضيَّق عليه، ونَجِد بعض الناس دون هذا، يَعنِي: أنه لا يَهتَمُّ بالأمور، وليس عنده ذاك الحِذقُ فيُوسِّع الله تعالى عليه، وهذا يَدُلُّ على أن الله ﷻ هو المُتَصرِّف في عِباده يُوسِّع على هذا ويَقدِر على هذا، ولكن لا يَعنِي هذا أننا لا نَفعَل الأسباب، كما سنَذكُر - إن شاء الله تعالى - في الفوائِد.

=

قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣).

{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسهمْ لَا تَقْنَطُوا} بِكَسْرِ النُّون وَفَتْحهَا وَقُرِئَ بِضَمِّهَا تَيْأَسُوا {مِنْ رَحْمَة الله إِنَّ الله يَغْفِر الذنوب جميعا} لمن تاب من الشرك {إنه هو الغفور الرحيم}[1].

=

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ} يُوسِّعه {لِمَنْ يَشَاءُ} امتِحانًا {وَيَقْدِرُ} يُضيِّقه لمَن يَشاء ابتِلاءً].

والحَقيقة أن التَّوسيع والتَّضييق كِلاهما امتِحان، وكِلاهما ابتِلاء، قال الله تعالى: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء: ٣٥]، لكن مشَى المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا من باب اختِلاف التَّعبير والمَعنَى واحِد.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} به] أي: بهذا البَسطِ والتَّضييق، فمَن آمَن بذلك- أي: بالله عَزَّ وَجَلَّ وببَسْطه وتَضييقه- عرَف بذلك حِكْمة الله سبحانه وتعالى.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: أنزلت هذه الآية في مشركي أهل مكة.

أخرجه ابن أبي حاتم؛ كما في "لباب النقول" (ص ١٨٥)، وصححه السيوطي فيه.

وذكره في "الدر المنثور" (٧/ ٢٣٥) وزاد نسبته للطبري، ولم نجده فيه.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)}، وذلك أن أهل مكة قالوا: يزعم محمد أن من عبد الأوثان، ودعا مع الله إلهًا آخر،
=

=

وقتل النفس التي حرم الله؛ لم يغفر له، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا الآلهة، وقتلنا النفس التي حرم الله، ونحن أهل الشرك؟! فأنزل الله -تعالى-: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)}، يقول: لا تيأسوا من رحمتي {إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}، وقال: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} وإنما يعاتب الله أولي الألباب، وإنما الحلال والحرام لأهل الإيمان، فإياهم عاتب، وإياهم أمر إن أسرف أحدهم على نفسه أن لا يقنط من رحمة الله، وأن ينيب ولا يبطئ بالتوبة؛ من ذلك الإسراف والذنب الذي عمل.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤/ ١٠). وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: لما اجتمعنا للهجرة اتّعدت أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل الميضأة، ميضأة بني غفار فوق سرف، وقلنا: أيكم لم يصبح عندها فقد احتبس، فليمض صاحباه، فحبس عنا هشام بن العاص، فلما قدمنا المدينة؛ نزلنا في بني عمرو بن عوف، وخرج أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام إلى عياش بن ربيعة وكان ابن عمهما، وأخاهما لأمهما حتى قدما علينا المدينة فكلماه، فقالا له: إن أمك نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، فرق لها، فقلت له: يا عياش! والله إن يريدك القوم إلا عن دينك؛ فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة -أحسبه قال:- لاستظلت، قال: أبر قسم أمي، ولي هناك مالًا فآخذه، قال: قلت: والله إنك لتعلم أني من أكثر قريش مالًا، ذلك نصف مالي، ولا تذهب معهما، فأبى إلا أن يخرج معهما، فقلت له لما أبى علي: أما إذ فعلت ما فعلت؛ فخذ ناقتي هذه؛ فإنها ناقة ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب؛ فانج عليها، فخرج معهما

=

=

عليها، حتى إذا كانوا ببعض الطريق؛ قال أبو جهل بن هشام: والله لقد استبطأت بعيري هذا، أفلا تحملني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، فأناخ، وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض؛ عديا عليه وأوثقاه، ثم دخلاه مكة، وفتناه فافتتن، قال: فكنا نقول: والله لا يقبل الله ممن افتتن صرفًا ولا عدلًا، ولا يقبل توبة قوم عرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكفر؛ لبلاء أصابهم، قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة؛ أنزل فيهم وفي قولنا لهم، وقولهم لأنفسهم: {يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}، قال عمر: فكتبتها في صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاص، قال هشام: فلم أزل أقرؤها بذي طوى أصعد بها فيه حتى فهمتها، قال: فألقي في نفسي أنما نزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا، فرجعت فجلست على بعيري، فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة.

أخرجه ابن إسحاق؛ كما في "السيرة" لابن هشام (١/ ٤٧٥) -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٢٤/ ١١)، والحاكم (٢/ ٤٣٥)، والبزار في "مسنده" (٢/ ٣٠٢-٣٠٣ رقم ١٧٤٦- كشف)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٥/ ٤٢٣- ٤٢٤ رقم ٧١٣٨)، و"السنن الكبرى" (٩/ ١٣- ١٤)، و"دلائل النبوة" (٢/ ٤٥٩- ٤٦١)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٤٩)، وأبو بكر النجاد في "مسند عمر" (ص ٩٦- ٩٧ رقم ٧٩)، والهيثم بن كليب في "مسنده" -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١/ ٣١٧-٣١٨ رقم ٢١٢، ٢١٣)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٢٣٥) -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١/ ٣١٩ رقم ٢١٤) -، وأبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (٥/ ٢٧٤١ رقم ٦٥٣٦)، وابن الأثير في "أسد الغابة" (٤/ ٦٢٥- ٦٢٦)، وابن السكن؛ كما في "الإصابة" (٣/ ٦٠٤):

=

=

ثني نافع عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب به.

وهذا سند صحيح، وابن إسحاق صرح بالتحديث، ولما كان هذا الحديث في باب السيرة والمغازي وابن إسحاق عالم حجة فيها؛ فيصحح حديثه فيها، وهو صدوق حسن الحديث كما هو معروف.

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

ومسلم لم يخرج لابن إسحاق إلا متابعة.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٦/ ٦١): "رواه البزار ورجاله ثقات".

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢٣٦)، و"لباب النقول" (ص ١٨٥) وزاد نسبته للطبراني وابن المنذر.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام، فأرسل إليه: يا محمد! كيف تدعوني إلى دينك وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنا يلق آثامًا يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانًا، وأنا قد صنعت ذلك؟ فهل تجد لي رخصة؟ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠)} [الفرقان: ٧٠]، فقال وحشي: يا محمد! أرى بعد مشيئة، فلا أدري يغفر لي أم لا؟ فهل غير هذا؟ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: {يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}؛ قال وحشي: هذا، فجاء فأسلم، فقال الناس: يا رسول الله! إذا أصبنا ما أصاب وحشي، قال: "هي للمسلمين عامة".

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١١/ ١٥٧، ١٥٨ رقم ١١٤٨٠) بسند ضعيف جدًا؛ كما تقدم بيانه في سورة الفرقان آية رقم (٦٨- ٧١).

=

=

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢٣٥) وزاد نسبته لابن مردويه والبيهقي في "شعب الإيمان" وقال: "بسند لين".

وقال في "لباب النقول" (ص ١٨٥): "بسند فيه ضعيف".

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: كنا نقول: ليس لمن افتتن توبة إذا ترك دينه بعد إسلامه ومعرفته؛ فأنزل الله -تعالى- فيهم: {يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤)}؛ فكتبتها بيدي ثم بعثت بها إلى هشام بن العاص بن وائل، قال هشام: فلما جاءتني؛ صعدت بها وأقول: فلا أفهمها، فوقعت في نفسي أنها نزلت فينا وما كنا نقول، فجلست على بعيري ثم لحقت بالمدينة، وأقام رسول الله ﷺ ينتظر أن يؤذن له بالهجرة، وأصحابه من المهاجرين قدموا أرسالًا، وقد كان أبو بكر استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فقال: "لا تعجل؛ لعل الله أن يجعل لك صاحبًا"؛ فطمع أبو بكر أن يكون رسول الله ﷺ؛ يعني: نفسه، وكان أبو بكر قد أعد لذلك راحلتين يعلفهما في داره.

ذكره الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٦/ ٦٢) وقال: "رواه الطبراني وفيه بد الرحمن بن بشير الدمشقي ضعفه أبو حاتم".

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: إنما أنزلت هذه الآيات في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين، كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا؛ فافتتنوا. كنا نقول: لا يقبل الله من هؤلاء صرفًا ولا عدلًا أبدًا؛ قوم أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذبوه؛ فنزلت هؤلاء الآيات. وكان عمر بن الخطاب كاتبًا، قال: فكتبها بيده ثم بعث بها إلى عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وإلى أولئك النفر فأسلموا وهاجروا.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤/ ١١) بسند ضعيف جدًا؛ فيه علتان:
الأولى: ابن إسحاق مدلس وقد عنعن.
الثانيه: شيخ الطبري ابن حميد؛ ضعيف بل اتهمه بعضهم بالكذب.
وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: لما أسلم وحشي؛ أنزل الله: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} [الفرقان: ٦٨]، قال وحشي وأصحابه: فنحن قد ارتكبنا هذا كله؛ فأنزل الله -تعالى-: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤)}.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢٣٥) ونسبه لابن أبي حاتم وابن مردويه.
وعن عطاء بن يسار؛ قال: نزلت هذه الآيات الثلاث بالمدينة في حشي وأصحابه: {يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤)}.
أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤/ ١٠): ثنا محمد بن حميد؛ قال: ثنا سلمة بن الأبرش؛ قال: ثني ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء به.
وهذا سند واه بمرة؛ فيه علل:
الأولى: الإرسال.
الثانية: جهالة الأصحاب، مع التذكر بأن ابن إسحاق مدلس.
الثالثة: ابن حميد، حافظ ضعيف، بل اتهمه بعضهم.
وعن السدي في قوله: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ

=

=
وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤)}؛ قال: هؤلاء المشركون من أهل مكة، قالوا: كيف نجيبك وأنت تزعم أنه من زنا أو قتل أو أشرك بالرحمن كان هالكًا من أهل النار، فكل هذه الأعمال قد عملناها؟! فأنزل فيهم هذه الآية: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤/ ١٠) من طريق أسباط عن السدي به.

وهذا سند ضعيف؛ لإعضاله، وضعف أسباط.

وعن قتادة قوله -تعالى-: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}؛ قال: ذكر لنا أن ناسًا أصابوا ذنوبًا عظامًا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام؛ أشفقوا أن لا يتاب عليهم؛ فدعاهم الله بهذه الآية: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤/ ١٠): ثنا بشر العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد عن قتادة. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

* قوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)} [الزمّر: ٥٣].

عن عبد الله بن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-؛ قال: أنزلت هذه الآية في مشركي أهل مكة.

أخرجه ابن أبي حاتم؛ كما في "لباب النقول" (ص ١٨٥)، وصححه السيوطي فيه.

وعن عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-؛ قال: لما اجتمعنا للهجرة اتعدت أنا وعياش بن
=

=

أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل الميضأة، ميضأة بني غفار فوق سرف، وقلنا: أيكم لم يصبح عندها فقد احتبس، فليمض صاحباه، فحبس عنا هشام بن العاص، فلما قدمنا المدينة؛ نزلنا في بني عمرو بن عوف، وخرج أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام إلى عياش بن ربيعة وكان ابن عمهما، وأخاهما لأمهما حتى قدما علينا المدينة فكلماه، فقالا له: إن أمك نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، فرق لها، فقلت له: يا عياش! والله إن يريدك القوم إلا عن دينك؛ فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة -أحسبه قال:- لاستظلت، قال: أبر قسم أمي، ولي هناك مالا فآخذه، قال: قلت: والله إنك لتعلم أني من أكثر قريش مالا، ذلك نصف مالي، ولا تذهب معهما، فأبى إلا أن يخرج معهما، فقلت له لما أبى علي: أما إذ فعلت ما فعلت؛ فخذ ناقتي هذه؛ فإنها ناقة ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب؛ فانج عليها، فخرج معهما عليها، حتى إذا كانوا ببعض الطريق؛ قال أبو جهل بن هشام: والله لقد استبطأت بعيري هذا، أفلا تحملني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، فأناخ، وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض؛ عديا عليه وأوثقاه، ثم دخلاه مكة، وفتناه فافتتن، قال: فكنا نقول: والله لا يقبل الله ممن افتتن صرفا ولا عدلا، ولا يقبل توبة قوم عرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكفر؛ لبلاء أصابهم، قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قدم رسول الله- ﷺ- المدينة؛ أنزل فيهم وفي قولنا لهم، وقولهم لأنفسهم: {ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم}، قال عمر: فكتبتها في صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاص، قال هشام: فلم أزل أقرؤها بذي طوى أصعد بها فيه حتى فهمتها، قال: فألقي في نفسي أنما نزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا، فرجعت فجلست على بعيري، فلحقت برسول الله- ﷺ - بالمدينة.

=

=

أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (١/ ٤٧٥)، والطبري في تفسيره (٢٤/ ١١)، والبزار (١٧٤٦- كشف)، والحاكم (٢/ ٤٣٥)، والبيهقي في الشعب (٧١٣٨)، وفي الكبرى (٩/ ١٣)، وأبو بكر النجاد في مسند عمر (ص ٩٦ رقم ٧٩)، والضياء في المختارة (٢١٤)، والواحدي في أسباب النزول (ص ٢٤٩) عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، وفيه أنها نزلت في (عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٣/ ١٧٤): سنده صحيح وابن إسحاق صرح بالتحديث، ولما كان هذا الحديث في باب السيرة والمغازي وابن إسحاق عالم حجة فيها، فيصحح حديثه فيها، وهو صدوق حسن الحديث كما هو معروف.

قال الطبري:"عنى تعالى ذكره بذلك جميع من أسرف على نفسه من أهل الإيمان والشرك، لأن الله عم بقوله {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ} جميع المسرفين، فلم يخصص به مسرفا دون مسرف".

قال ابن كثير:"هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه".

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} [الزمّر: ٥٣]، أي:"إن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها مهما كانت".

قال الطبري:"يقول: إن الله يستر على الذنوب كلها بعفوه عن أهلها وتركه عقوبتهم عليها إذا تابوا منها".

قال يحيى بن سلام:: {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} " التي كانت في الجاهلية".

قال مقاتل:"يعني: الشرك والقتل والزنا الذي ذكر في سورة الفرقان".

=

قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمّر: ٥٣]، أي:"إنه هو الغفور لذنوب التائبين من عباده، الرحيم بهم".

قال الطبري:"{إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} بهم، أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها".

قال الحسن: " {إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} التي كانت في الشرك، {إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ}، وأنزل: {والَّذِين َلا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ} أي: بعد إسلامهم، {ولا يَقْتُلُون النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلّا بِالحَق} أي: بعد إسلامهم {ولا يَزْنُونَ} أي: بعد إسلامهم، إلى قوله: {إِلّا مَن تابَ وآمَن َوَعَمِلَ عَمَلًا صالِحًا} الآية [الفرقان: ٦٨- ٧٠]".

قال ابن إسحاق: {والله غفور رحيم}، " أي: يغفر الذنوب، ويرحم العباد، على ما فيهم".

قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:"أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".

قال سهل بن عبد الله:"أمهل الله تعالى عباده تفضلًا منه إلى آخر نفس، فقال لهم: «لا تقنطوا من رحمتي فلو رجعتم إلي في آخر نفسٍ قبلتكم». قال: وهذه أبلغ آية في الإشفاق من الله تعالى إلى عباده، لعلمه بأنه ما حرمهم ما تفضل به على غيرهم، فرحمهم حتى أدخلهم في عين الكرم بالذكر القديم لهم.

وقد حكي عن جبريل عليه الصلاة والسلام أنه سمع إبراهيم عليه الصلاة والسلام يقول: يا كريم العفو. فقال له جبريل عليه السلام: يا إبراهيم، أتدري ما كرم عفوه؟ قال: لا يا جبريل. قال: إذا عفا عن سيئة جعلها حسنة».

ثم قال سهل: اشهدوا علي أني من ديني أن لا أتبرأ من فساق أمة محمد ﷺ وفجارهم وقاتلهم وزانيهم وسارقهم، فإن الله تعالى لا يُدْرَك غاية كرمه وفضله وإحسانه بأمة محمد ﷺ خاصة".

=

قال معمر:"وبلغني أن عمر بن الخطاب مر به ركب فأرسل إليهم يسألهم من هم؟ فقالوا: جئنا من الفج العميق ، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نؤم البيت العتيق ، قال: فرجع إليه الرسول فأخبره فقال عمر: إن لهؤلاء لنبأ ، ثم أرسل إليهم: أي آية في كتاب الله أحكم؟ قالوا: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره} [الزلزلة: ٨] قال: فأي آية أعدل؟ قالوا: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى} [النحل: ٩٠] قال: فأي آية أعظم؟ فقالوا: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} [البقرة: ٢٥٥] قال: فأي آية أرجى؟ قالوا: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله} [الزمر: ٥٣] قال: فأي آية أخوف؟ قالوا: {من يعمل سوءا يجز به} [النساء: ١٢٣] قال: " سلهم أفيهم ابن أم عبد؟ قالوا: نعم".

قال الشعبي:"تجالس شتير بن شكل ومسروق فقال شتير: إما أن تحدث ما سمعت من ابن مسعود فأصدّقك، وإما أن أحدّث فتصدّقني فقال مسروق: لا بل حدث فأصدّقك، فقال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أكبر آية فرجا في القرآن: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ}، فقال مسروق: صدقت".

عن ابن سيرين، قال: "قال عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أي آية في القرآن أوسع؟ فجعلوا يذكرون آيات من القرآن: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا} . ونحوها، فقال علي: ما في القرآن آية أوسع من: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ}... إلى آخر الآية".

قال أبو الكنود: "دخل عبد الله المسجد، فإذا قاصّ يذكر النار والأغلال، قال: فجاء حتى قام على رأسه، فقال ما يذكر أتقنط الناس: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ}... الآية". وهو منقطع.

=

=

عن أبي عبد الرحمن الجلائي، أنه سمع ثوبان مولى رسول الله ﷺ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:"ما أُحِبُّ أَنَّ لِي الدُّنْيَا وَمَا فِيها بهذه الآية: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ}"... الآية، فقال رجل: يا رسول الله، ومن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ، ثم قال:"ألا وَمَنْ أَشْرَكَ، ألا ومَنْ أَشْرَكَ، ثلاث مرات".

عن عمرو بن عَبَسة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، شيخ كبير يدعم على عصا له، فقال: يا رسول الله إن لي غدرات وفجرات، فهل يغفر لي؟ فقال: "ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟ " قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله. فقال: "قد غفر لك غدراتك وفجراتك".

عن أسماء بنت يزيد قالت: "سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: {إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ} [هود: ٤٦] وسمعته يقول: " {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} ولا يبالي {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} " وإسناده ضعيف.

قال ابن كثير:"هذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد: أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطن عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: ١١٠]، وقال تعالى في حق المنافقين: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلا الَّذِينَ تَابُوا} [النساء: ١٤٦، ١٤٥]، وقال {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المائدة: ٧٣]، ثم قال {أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٧٤]، وقال

=

=

{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا} [البروج: ١٠]".

قال الحسن البصري: "انظر إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة!".

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: " كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا، ثم خرج يسأل، فأتى راهبا فسأله فقال له: هل من توبة؟ قال: لا، فقتله، فجعل يسأل، فقال له رجل: ائت قرية كذا وكذا، فأدركه الموت، فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له".

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- في قوله: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيرا ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: {أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٧٤] ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولا من هؤلاء، من قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} [النازعات: ٢٤]، وقال {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: ٣٨]. قال ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه".

عن أخشن السدوسي قال: "دخلت على أنس بن مالك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "والذي نفسي بيده، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله لغفر لكم، والذي نفس محمد بيده، لو لم تخطئوا

=

=

لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون الله فيغفر لهم".

عن أبي صِرْمة، عن أبي أيوب الأنصاري، رضي الله عنه، أنه قال حين حضرته الوفاة: "قد كنت كتمت منكم شيئا سمعته من رسول الله ﷺ يقول: "لولا أنكم تذنبون، لخلق الله قوما يذنبون فيغفر لهم".

عن ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ: "كفارة الذنب الندامة"، وقال رسول الله ﷺ: "لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون، فيغفر لهم"».

علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله يحب العبد المفتَّن التَّوَّاب". قال ابن القيم:"وهو الذي كلَّما فُتِن بالذّنب تاب منه".

قال السمعاني:"فإن قال قائل: قد قال الله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} [النساء: ٤٨/ ١١٦] وقال في موضع آخر: {إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} [الزمر: ٥٣]. فكيف وجه الجمع؟

قيل أراد به: يغفر الذنوب جميعا سوى الشرك".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ}.

قوله تعالى: {قُلْ} الخِطاب للنبيِّ ﷺ؛ لأنه هو الذي أُوحِيَ إليه هذا القرآنُ، واعلَمْ أن القُرآن كلَّه قد قيل للنَّبيِّ ﷺ فيه: {قُلْ}، لكن بعضه يُصرَّح فيه بـ {قُلْ}، وبعضه لا يُصرَّح؛ لأن قوله سبحانه وتعالى: {يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} [المائدة: ٦٧]، يَعُمُّ القُرآن كلَّه، فيَجِب عليه أن يَقول للناس القُرآن كلَّه، لكن بعض الآيات أو بعض الأحكام تُصدَّر بـ {قُلْ} للعِناية بذلك، أي: بذلك الحُكم المُصدَّر بـ {قُلْ}، فهنا يَقول الله تعالى: {قُلْ} أي: قُلْ يا مُحمَّدُ {يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ} أي: قُلْ لهم مُبلِّغًا عن الله تعالى أن الله تعالى قال: {يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ}.

=

=

فقوله تعالى: {قُلْ} يَعنِي: أَبلِغ عِبادي بذلك، أَبلِغْهم بأني أَقول: يا عِبادي، ولا يَصِحُّ أن نَقول: قل أنت يا مُحمَّدُ: يا عِبادي. فتُضيف المَعنَى إلى نَفْسك، بل المَعنَى: أَبلِغْ عِبادي أني أَقول: {يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ}، وقُلْنا بهذا التَّفسيرِ؛ لأن النبيَّ ﷺ لو قال للناس: (يا عِبادي الذين أسرَفوا على أنفُسِهم) فإنه لا يَستَقيم الكلام، ولكن المَعنَى: قل للناس. أي: أَبلِغْهم بأني أَقول: {يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ}، وفي قِراءة أُخرى: (لَا تُقْنِطوا).

فإن قال قائل: كيف يُبلِغ النبيُّ ﷺ قولَه تعالى: {يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ}؟

فالجَوابُ: المَعنَى هنا: قل مُبلِغًا عَنِّي: يا عبادي. فيَقول الرسول ﷺ مثَلًا: قال ربُّكم: {يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا}، فهذا كيفية إبلاغَ هذه الآيةِ.

وقوله تعالى: {يَاعِبَادِيَ} يَشمَل العِباد بالمَعنَى الخاصِّ، والعِباد بالمَعنَى العامِّ، يَعنِي: حتى الكُفَّار، يُقال لهم مثلُ هذا القولِ.

وقوله تعالى: {الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ} أي: جاوَزوا الحدَّ في الرِّعاية على الأنفُس، والواجِب على الإنسان في رِعاية نَفْسه أن يَرعاها حَقَّ رِعايتها بحيث يَقوم بما يُصلِحها ويَتجَنَّب ما يُفسِدها، فإذا لم يَفعَل فقد أَسرَف على نَفْسه.

فالمُراد بالإِسْراف أنهم جاوَزوا الحدَّ في رِعايتها، وذلك بأن أَوْقَعوها في المَعاصِي أو جنَّبوها الطاعاتِ؛ مثال ذلك: رجُل سرَق، والسرِقة إسراف على النَّفْس؛ لأن الواجِب: حِماية النَّفْس من السرِقة، وكذلك رجُل شرِب الخَمْر، هذا إسراف على النَّفْس، وأيضا رجُل سجَد لصَنَم، فهذا إسراف على النَّفْس؛ لأنه مُجاوَزة للحَدِّ.

وقوله تعالى: {لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ} القُنوط واليَأس مَعناهُما مُتَقارِب، لكنهم فرَّقوا بينهما بأن القُنوط أَشَدُّ اليأسِ، وأمَّا اليَأْس فمَعروف أنه عدَم الرجاء وعدَم

=

=

الأمَل في حُصول الشيء؛ فقوله تعالى: {لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ} أي: من رحمة الله لكم؛ فـ (رَحْمة) هنا مُضافة إلى الفاعِل، أي: من رحمة الله تعالى إيَّاكم.

وتَكون الرحمة بأن يَهدِيَ الله ﷻ الرجُل إلى التَّوْبة والاستِغْفار ويَتوب عليه، فأنت لا تَقنَط من رحمة الله تعالى لا بنَفْسك ولا بغَيْرك، ولكنِ افعَلِ السبَب؛ فلو قال قائِلٌ مُسرِفٌ على نَفْسه: أنا لا أَقنَطُ من رحمة الله. ولكنه يَفعَل المَعصية مُستَمِرٌّ عليها، نَقول: هذا غلَط؛ لأنك إذا استَمْرَرْت على المَعصية فأنت آمِنٌ من مَكْر الله تعالى.

وكلا الطَّرَفين ذَميم: القُنوط من رحمة الله تعالى، والأَمْن من مَكْر الله تعالى، لكن نَقول: افعَلِ السبَب ولا تَقنَط من رحمة الله تعالى.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [(لَا تقْنِطُوا) بكَسْر النون وفتحها، وقُرِئَ بضَمِّها] ففيها ثلاث قِراءات: قِراءتان سَبْعيَّتان وقِراءة شاذَّة ليست سَبْعية؛ لأن مُصطَلَح مُؤلِّف الجَلالَيْن رَحِمَهُ اللَّهُ إذا قال: (في قِراءة) فهي سَبْعية، وإذا قال: (قُرِئ) فهي شاذَّة، وإذا قال: بفَتْح وضَمٍّ فهما سَبْعيتان، فهنا الآنَ قوله تعالى: {تَقْنَطُوا} في النون ثلاث حرَكات: (تقنِطوا) {تَقْنَطُوا} وهاتان سَبعيتان، و (تقنُطوا) وهذه شاذَّة، والقِراءة الشاذَّة لا يُقرَأ بها في الصلاة، لكن يُستَدَلُّ بها في الأحكام إذا صحَّتْ؛ وقال شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: بل إذا صحَّتْ، فإنه يُقرَأ بها في الصلاة كما يُستَدَلُّ بها في الأحكام.

والفَرْق بين الشاذَّة والسَّبْعية أن العُلَماء رحمهم الله اصطَلَحوا أن ما جاء عن طريق القُرَّاء السَّبْعة المَشهورين فهي سَبْعية، وما جاء عن طريقٍ آخَرَ، ولو صحَّ فهو عندهم شاذٌّ.

فالشاذُّ إِذَنْ: ما خرَج عن القِراءات السَّبْع، ولكنه يُحتَجُّ به في الأحكام، ولا يُقرَأ به في الصلاة إلَّا في رأْيِ شيخ الإسلام ابنِ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه يَقول: متى صحَّتِ القِراءة

=

=

عن النبيِّ ﷺ فإنها تُقرَأ في الصلاة وإن لم تَكُن من القِراءات السَّبْع.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير (تَقْنِطُوا): [تَيْأَسوا] والصحيح: أن هذا التَّفسيرَ تقريب؛ لأن القُنوط أَشَدُّ اليَأْس، فهو أعلى درَجات اليَأْس فمَعنَى (تَقْنِطُوا) أي: يَبلُغ بكم اليَأْس أَشدَّه.

وقوله تعالى: {مِنْ رَحْمَةِ اللهِ} يَعنِي: من أن يَرحَمكم الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن الإنسان إذا قنَط من رحمة الله تعالى وأَيِس لم يَتعرَّض للرحمة؛ لأنه آيِسٌ؛ ولهذا يُقال: اليَأْس مِفتاح التَّرْك. وأَضرِب لكم مثَلًا: حاوِلْ أن تَحُلَّ عُقدةً من خَيْط، فإذا أَعْيَتْك فإنك تَترُكها، وإذا أَيِسْت منها ترَكْتها، لكن بالنسبة لرحمة الله تعالى لا تَيْأَس مهما عمِلت من الذُّنوب والمَعاصِي فلا تَيْأَس.

وهنا نهيٌ وتَعليل: النهيُ في قوله تعالى: {لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ}، والتَّعليل في قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} لمَن تابَ من الشِّرْك {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}]، قوله تعالى: {يَغْفِرُ} مَأخوذٌ من المَغفِرة، وهي: سَتْر الذَّنْب والتَّجاوُز عنه، وليسَتْ مُجرَّد السَّتْر؛ لأنها مَأخوذة من المِغفَر، وهو ما يُوضَع على الرأس عند الجِهاد للوِقاية، فهو جامِعٌ لأَمْرين: السَّتْر والوِقاية؛ فمثَلًا: الغُتْرة هذه لا نُسمِّيها مِغْفَرًا، وأيضًا الطاقية؛ لأنها مع أنها ساتِرة، لكنها ليسَتْ واقِيةً، لكن بَيْضة الحديد التي تُوضَع على الرأس عند القِتال نُسمِّيها: مِغفَرًا؛ لأنها ساتِرةٌ واقِية، فمَغفِرة الذُّنوب سَتْرها والتَّجاوُز عنها، فأنت إذا قلتَ: (اللهُمَّ اغفِرْ لي) تَسأَل الله تعالى شَيْئين: أن يَستُر ذُنوبك عن غيرك، والثانية أن يَتجاوَز الله تعالى عنها.

وقوله تعالى: {الذُّنُوبَ} هذه صيغة عُموم، وأكَّد هذا العُمومَ بقوله تعالى: {جَمِيعًا}.

=

وهذه المَغفِرةُ التي أَثبَتَها الله ﷻ شامِلةٌ لكل ذَنْب فيمَن تاب، فكُلُّ مَن تاب تابَ الله تعالى عليه، أَلَا تَرَى قوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} [الفرقان: ٦٨- ٧٠]، فهؤلاء جمَعوا بين الشِّرْك وقَتْل النَّفْس، وهو اعتِداءٌ على النُّفوس، والزِّنا وهو اعتِداءٌ على الأعراض والأَخْلاق، ومع ذلك إذا تابوا تابَ الله تعالى عليهم.

وهذه الآيةُ أَجمَعَ العُلَماء رحمهم الله على أنها في التائِبين؛ لأن الله تعالى قال: {إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} ولم يُقيِّد فهي في التائِبين؛ أمَّا غير التائِبين فقد قال الله تعالى فيهم: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨]، فغَيْر التائِبين نَجزِم بأن الله تعالى لا يَغفِر الشِّرْك في حَقِّهم، وما دون الشِّرْك تحت المَشيئة إن شاء عَذَّب وإن شاء غفَرَ.

فلِلإِنْسان حالان:

الحالُ الأُولى: التَّوْبة، فحُكْم ذَنْبه حينئذٍ الغُفران مهما عظُم الذَّنْب.

الحالُ الثانية: عدَم التَّوْبة، يَعنِي: بدون التَّوْبة نَقول: الشِّرْك لا يُغفَر قَطْعًا، وما دون الشِّرْك تحت المَشيئة.

ويُستَدَلُّ بالآية التي ذكَرْناها استِشْهادًا: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} يَستَدِلُّ بها المُسرِفون على أنفسهم بالمَعاصِي، فإذا نَهَيْتهم عن مَعصية قالوا لك: {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}.

ونقول له- بكُلِّ بَساطة -: وهل تَجزِم أنت أنك ممَّن شاء الله تعالى أن يُغفَر له؟

الجَوابُ: لا، إِذَنْ أنت على خطَر، وأنت الآنَ فَعَلْت سبب العُقوبة، وكونُكَ يُغفَر لكَ فهذا أَمْرٌ راجِع إلى مَشيئة الله ﷻ.

وقوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} الجُملة تَعليلٌ للحُكْم الذي قبلها وهو: {إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} والجُملة هنا مُؤكَّدة بمُؤكِّدين، هما: (إن) و (هو) {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}، أمَّا كون (إنَّ) مُؤكَّدة فظاهِر؛ لأن (إِنَّ) من أَدَوات التَّوْكيد.

وقوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} كلِمة {هُوَ} لو حُذِفت لاستَقام الكلام بدونها، ويُسمِّيها النَّحويُّون: ضميرَ فَصْل، وبعضُهم يُسمِّيها: عِمادًا، وليس ضَميرَ الشَّأْن، وضمير الشأن هو الضمير الذي يَدُلُّ على القِصَّة، وليس مَوْجودًا، وإنما يَكون في الغالِب مَحذوفًا.

يَقولون: إن في ضمير الفَصْل ثلاثَ فوائِدَ:

الفائِدةُ الأُولى: التَّوْكيد.

الفائِدةُ الثانيةُ: الحَصْر.

الفائِدةُ الثالِثةُ: التَّمييز بين الخَبر والصِّفة.

مثالُه: إذا قُلتَ: زيدٌ هو الفاضِل؛ فالضَّمير في (هو) ضمير فَصْل، ولو قُلتَ: زيدٌ الفاضِلُ. وحذَفْت الضميرَ لاستَقام الكلامُ، ولكن يُحتَمَل أن يَكون (الفاضِلُ) صِفةً، والخَبَر مُنتَظَرًا، ويُحتَمَل أن يَكون (الفاضِلُ) هو الخبَر، فإذا قلتَ: زيدٌ هو الفاضِل. ارتَفَع الاحتِمال الأوَّلُ، وهو أن يَكون الفاضِل صِفَةً، وتَعيَّن الاحتِمالُ الثاني وهي: أن تَكون خبَرًا.

فاستَفَدْنا إذَنْ من هذا التَّركيبِ: (زَيْدٌ هو الفاضِل) فوائِدَ منها:

أوَّلًا: تَوْكيد الفَضْل في زَيْد.

ثانِيًا: حَصْر الفَضْل في زَيْد.

ثالِثًا: التَّمييز بين الصِّفة والخبَر.

فالآنَ ليس عندنا احتِمال أن تَكون صِفة، هذا من حيثُ المَعنَى في ضمير الفَصْل.

=

فقوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} فيها فائِدتان:

الفائِدةُ الأُولى: التَّوْكيد.

الفائِدة الثانِية: الحَصْر.

أمَّا التَّمييز بين المُبتَدَأ والخبَر فهنا لا حاجةَ له؛ لأن الضميرَ يَقولون: إنه لا يُنعَت ولا يُنعَت به؛ وعليه: فتكون الفائِدة في قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} الحَصْرَ والتَّوْكيد.

أمَّا من حيثُ الإِعْراب فالصحيح: أنه حَرْفٌ لا محَلَّ له من الإعراب، حرفٌ جاء في صورة الاسم، وليس له مَحَلٌّ من الإعراب.

والدليل على أنه لا مَحلَّ له من الإعراب: كثير في القُرآن وغير القُرآن، قال الله تعالى: {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} [الشعراء: ٤٠]؛ لأنه إذا كان له مَحلٌّ من الإعراب صار محَلُّه الرفعَ وما بعده خبَر، ولكنه ليس له مَحَلٌّ من الإعراب، بل جاء عِمادًا أو جاء فَصْلًا.

وقوله تعالى: {الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} سبَقَ أن مَعنَى (المَغفِرة) سَتْر الذَّنْب والتَّجاوُز عنه.

وقوله تعالى: {الرَّحِيمُ} أي: ذو الرحمة التي يَحصُل بها المَطلوب، فالرَّحْمة يَحصُل بها المَطلوب، والمَغفِرة يَزول بها المَرهوب، فالجَمْع بين الاسمَيْن الكريمين يُفيد السَّعادة الكامِلة، فالنَّجاة من المَرهوب في قوله تعالى: {الْغَفُورُ}؛ لأن هذا مَغفِرة للذَّنْب، وحُصول المَطلوب في قوله تعالى: {الرَّحِيمُ}؛ لأن الرحمة يَحصُل بها المَطلوب والخَيْرات والنِّعَم، وبزَوال المَرهوب وحُصول المَطلوب يَتِمُّ الفَوْز، قال الله جَلَّ وَعَلَا: {فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [آل عمران: ١٨٥] فقوله تعالى: {زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ} فيه النَّجاة من المَرهوب؛ وقوله سبحانه وتعالى: {وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ} فيه حُصول المَطلوب {فَقَدْ

=

=

فَازَ}.

وقوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}: {الْغَفُورُ} مَعناه: الذي يَستُر الذَّنْب ويَتَجاوَز عنه، وهو مُشتَقٌّ من المِغفَر وهو الذي يَستُر الرَّأْس ويَقيه.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} لمَن تاب مِن الشِّرْك]، وكذلك مَن تاب مِن غيره ممَّا دونَه، لكن ذَكَر المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ الشِّرْك؛ لأنه أَعظَمُ الذُّنوب؛ ولأنه لا يُغفَر إلَّا بتَوْبة، وإذا تاب الإنسان من الشِّرْك وبَقِيَ على شيء من المَعاصي كان يَقوم بها في حال كُفْره، فهل تُغفَر هذه المَعاصِي أو لا بُدَّ لها من تَوْبة؟

الصحيحُ: أنه لا بُدَّ لها من تَوْبة كما لو كان يَشرَب الخَمْر وهو كافِر، ثُم أَسلَم وبَقِي على شُرْب الخَمْر، فإن إسلامه لا يُوجِب أن يَسقُط عنه إِثْم شُرْب الخَمْر؛ لأنه لم يَتُبْ منها، لكن إذا تاب من الشِّرْك ولم يُصِرَّ على المَعاصي الأُخرى، ولم تَطرَأ له على بالٍ فإن جميعَ ذُنوبه تُغفَر.

فالتائِبُ من الشِّرْك في الحقيقة له ثلاث حالات:

١- إمَّا أن يَستَحضِر أنه تاب من الشِّرْك ومن جميع المَعاصي التي كان يَعلَمها، فهذا لا شكَّ في أن تَوبَتَه تَعُمُّ كلَّ ذَنْب.

٢- وإمَّا أن يَتوب من الشِّرْك مع الإصرار على بعض المَعاصي التي كان يَفعَلها في حال الشِّرْك، فهنا لا تُغفَر له هذه المَعاصي التي أَصَرَّ عليها؛ لأنه استَمَرَّ فيها مثل أن يَكون مُعتادًا لشُرْب الخَمْر في حال كُفْره فيُسلِم وهو مُصِرٌّ على شرب الخَمْر، فإنه لا يُغفَر له ما قد سلَفَ من الذُّنوب؛ قال تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} [الأنفال: ٣٨].

٣- وإمَّا أن يَتوب من الشِّرْك ولم يَطرَأ على باله بَقية المَعاصي، لكنه لم يَفعَلها بعد إسلامه، يُغفَر له جميع الذُّنوب؛ لأنها تَندَمِج الصِّغار بالكِبار فيُغفَر له جميع الذُّنوب.

=

وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤).

=

فإن قال قائِل: هل يَجزِم الإنسان إذا تاب من الذَّنْب أن الله ﷻ تاب عليه؟

فالجَوابُ: نعَمْ، إذا تُبتَ توبةً نَصوحًا، فإن الله تعالى يَقبَلها، لكن مَن الذي يَقول: إن تَوبته نَصوحًا، فالمُشكِل الذي يَكون من فِعْل العَبْد لا من فِعْل الربِّ، فالربُّ إذا وقَع فِعْل العَبْد على ما يَرْضاه حصَل مَوعودُه؛ لأن الله تعالى لا يُخلِف المِيعاد، لكن الذي يَكون محَلَّ إشكال هو فِعْل العَبْد، هل هذه التَّوْبةُ توبة نَصوح على حسَب ما رُسِم في الشَّرْع؟ فنحن نَجزِم، لكن قد يَكون في قلب الإنسان بِلاء، فقد يَكون عنده شيءٌ من الرِّياء، أو يَكون عنده شيءٌ من المَنِّ على الله ﷻ، وغير ذلك من الأسباب، فحينئذ تَكون التَّوْبة غيرَ نَصوح مثل أن يَتوب الإنسان مثَلًا من نظَر المَرأة الأجنبية، لكنه لا يَتوب من غَمْز المَرأة الأجنبية، فالتَّوْبة الأُولى لا تُقبَل؛ لأنه لم يَتُبْ من الذَّنْب الذي هو من جِنْس ذَنْبه، وكذلك إذا تاب الإنسان مثلًا من رِبا النَّسيئة، ولكنه رابَى رِبَا الفَضْل، فهذه توبة غيرُ نَصوحٍ.

ولهذا نَقول: مَن تاب إلى الله تَوْبةً نَصوحًا فإنه مَقبول التوبة، ومَنِ اختَلَّ فيه النُّصْح فليس مَقبولَ التوبة.

وقوله تعالى: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} هذه الجُملةُ مَوْقعها ممَّا قَبْلَها أنها تعليلٌ للنَّهي عن القُنوط، يَعنِي: لا تَقنَطوا فإن الله تعالى يَغفِر الذنوب جميعًا إذا استَغفَرْتُموه، وقوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} تعليلٌ لقوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}، وقوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} تعليل لقوله تعالى: {لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ} فهو تَعليلٌ لتَعليلٍ.

{وَأَنِيبُوا} ارْجِعُوا {إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا} أَخْلِصُوا الْعَمَل {لَهُ مِنْ قَبْل أَنْ يَأْتِيكُمْ الْعَذَاب ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ} بِمَنْعِهِ إنْ لَمْ تَتُوبُوا(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} [الزمّر: ٥٤].
قال مقاتل:"يقول: وارجعوا من الذنوب إلى الله وأخلصوا له بالتوحيد".
قال الطبري:"وأقبلوا أيها الناس إلى ربكم بالتوبة، وارجعوا إليه بالطاعة له، واستجيبوا له إلى ما دعاكم إليه من توحيده، وإفراد الألوهة له، وإخلاص العبادة له، واخضعوا له بالطاعة والإقرار بالدين الحنيفي".
قال ابن كثير:"استحث سبحانه وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} أي: ارجعوا إلى الله واستسلموا له".
قال قتادة: أي: أقبلوا إلى ربكم".
عن السديّ: " {وَأَنِيبُوا}، قال: أجيبوا".
قال ابن زيد:"الإنابة: الرجوع إلى الطاعة، والنزوع عما كانوا عليه، ألا تراه يقول: {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ}".
قوله تعالى: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ} [الزمّر: ٥٤]، أي:"من قبل أن يقع بكم عقابه، ثم لا ينصركم أحد من دون الله".
قال الطبري: أي:"من عنده على كفركم به، ثم لا ينصركم ناصر، فينقذكم من عذابه النازل بكم".
قال ابن كثير:"أي: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة".
قال العثيمين: قوله تعالى: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} الإنابة بمَعنَى: الرجوع التامِّ إلى الله تعالى، ويكون بالإقلاع عن المَعصية والانضِمام في سِلْك الطائِعين. يَعنِي: أن الإنابة لا يَصْدُق الاتِّصاف بها إلَّا بالرُّجوع إلى الله تعالى من المَعصية إلى الطاعة {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ}.
=

=

وفي قوله تعالى: {إِلَى رَبِّكُمْ} هنا الرُّبوبية يُحتَمَل أن تَكون عامَّة، ويُحتَمَل أن تَكون خاصَّةً، فهي بعد الإنابة من الرُّبوبية الخاصَّة.

وقوله تعالى: {وَأَسْلِمُوا لَهُ} أي: انقادُوا له، فالإنابة تَكون بالقَلْب بالرجوع إلى الله تعالى، يُنيب الإنسان أي: يَرجع إلى الله تعالى، {وَأَسْلِمُوا لَهُ} أي: انقادُوا له؛ لأن الإِسلام والاستِسْلام، وهذه المادَّةُ كلُّها تَدُلُّ على الانقياد.

وقوله تعالى: {وَأَسْلِمُوا لَهُ} اللَّام في: {لَهُ} للاختِصاص، وسيَأتي أنها تُفيد وُجوب الإخلاص.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ} ارجعوا {وَأَسْلِمُوا} أَخلِصوا العمَل {لَهُ}] يَعنِي: ارجِعوا إلى ربِّكم من مَعاصيه إلى طاعته، ومن البُعْد عنه إلى القُرْب، وهذه الإنابةُ هي عمَل القَلْب، وهو رُجوع القَلْب إلى الله سبحانه وتعالى.

وفي تَفسيره الإِسلام بالإخلاص نظَر، فالإِسلام هو الانقِياد وهو الاستِسْلام لله تعالى ظاهِرًا وباطِنًا؛ فقوله تعالى: {وَأَسْلِمُوا لَهُ} أي: استَسْلِموا له واخضَعوا لشَرْعه، وهذا عمَل الظاهِر، وهو عمَل الجَوارِح، فالإنابة بالقَلْب والإِسلام بالجَوارِح؛ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَأَسْلِمُوا لَهُ} أَخلِصوا العمَل {لَهُ}]، وأَخَذ المُفَسِّر الإخلاص من قوله تعالى: {لَهُ} أي: لله تعالى كما قال تعالى: {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} [آل عمران: ٢٠]، فهذه الآيةُ فيها الأَمْر بالإنابة وهي في بالقَلْب، والأَمْر بالاستِسْلام له، وهي بالجَوارِح، والإخلاص مُستَفاد من اللَّام المَذكورة في قوله تعالى: {لَهُ}.

وقوله سبحانه وتعالى: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ} مُتعلِّقة بـ {وَأَنِيبُوا} و {وَأَسْلِمُوا} فقد تَنازَعها العامِلان.

وقوله تعالى: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ} يَعنِي: من الله تعالى {ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ} يَعنِي: لا تُمنَعون من عَذاب الله تعالى.

=

وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥).

{وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} هُوَ الْقُرْآن {مِنْ قَبْل أَنْ يَأْتِيكُمْ الْعَذَاب بَغْتَة وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} قَبْل إتْيَانه بِوَقْتِهِ[1].

=

وقوله تعالى: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ}: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ} في الدُّنيا، قبل أن تتوقَّعوا ذلك، ثُمَّ إذا أَتاكم {لَا تُنْصَرُونَ} أي: لا تُمنَعون من هذا العَذابِ؛ لأنَّ الله تعالى إذا أَراد بقومٍ سُوءًا {فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد: ١١] أي: من مُتولٍّ يَنصُرهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ} بمَنْعه إن لم تَتوبوا] قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [إن لم تَتوبوا] راجعٌ إلى قوله تعالى: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ}؛ لأننا إذا تُبْنا رفَعَ الله عَزَّ وَجَلَّ العَذاب عنَّا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [إن لم تَتوبوا] لا حاجةَ إليها؛ لأن الله تعالى قال: {وَأَنِيبُوا} {وَأَسْلِمُوا} مِن قَبْل هذا الشيءِ، وإذا أَناب وأَسلَم قبل هذا الشيءِ فقد تاب وحينئذٍ لا يَنزِل به العذاب.

(١) قوله تعالى: {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} [الزمّر: ٥٥]، أي:"واتبعوا أحسن ما أُنزل إليكم من ربكم، وهو القرآن العظيم، وكله حسن، فامتثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه".

قال الطبري: يقول:"واتبعوا أيها الناس ما أمركم به ربكم في تنزيله، واجتنبوا ما نهاكم فيه عنه، وذلك هو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، والقرآن كله حسن".

قال ابن كثير:"وهو القرآن العظيم".

قال مقاتل:"من القرآن، يعني: ما ذكر من الطاعة من الحلال والحرام".

عن السديّ: " {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}، يقول: ما أمرتم به في

=

=

الكتاب".

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: " {واتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَبِّكُمْ} يعني: المحكمات، وكِلوا علمَ المتشابهات إلى عالمها".

قوله تعالى: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الزمّر: ٥٥]، أي:"من قبل أن يأتيكم العذاب فجأة، وأنتم لا تعلمون به".

قال الطبري:"يقول: من قبل أن يأتيكم عذاب الله فجأة وأنتم لا تعلمون به حتى يغشاكم فجأة".

قال ابن كثير:"أي: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون".

فإن قال قائل : ومن القرآن شيء هو أحسن من شيء ؟ قيل له : القرآن كله حسن ، وليس معنى ذلك ما توهمت ، وإنما معناه : واتبعوا مما أنزل إليكم ربكم من الأمر والنهي والخبر ، والمثل ، والقصص ، والجدل ، والوعد والوعيد ؛ أحسنه أن تأتمروا لأمره ، وتنتهوا عما نهى عنه ؛ لأن النهي مما أنزل في الكتاب ، فلو عملوا بما نهوا عنه كانوا عاملين بأقبحه ، فذلك وجهه انتهى.

وقال البغوي: واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) يعني : القرآن ، والقرآن كله حسن ، ومعنى الآية ما قاله الحسن : التزموا طاعته واجتنبوا معصيته ، فإن القرآن ذكر القبيح لتجتنبه ، وذكر الأدون لئلا ترغب فيه ، وذكر الأحسن لتؤثره. قال السدي : " الأحسن " ما أمر الله به في الكتاب " انتهى.

وقال السعدي: واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) مما أمركم من الأعمال الباطنة ، كمحبة الله ، وخشيته ، وخوفه ، ورجائه ، والنصح لعباده ، ومحبة الخير لهم ، وترك ما يضاد ذلك ، ومن الأعمال الظاهرة ، كالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والصدقة ، وأنواع الإحسان ، ونحو ذلك ، مما أمر الله به ، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا ، فالمتبع لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها هو المنيب المسلم "

=

=

انتهى.

فالحاصل من ذلك : أن اتباع أحسن ما أنزل الله : هو الائتمار بأمره ، والانتهاء بنهيه.

قال الإمام الآجري في أخلاق حملة القرآن: فكل كلام ربنا حسن لمن تلاه ولمن استمع إليه ، وإنما هذا- والله أعلم- صفة قوم إذا سمعوا القرآن تتبعوا من القرآن أحسن ما يتقربون به إلى الله تعالى ، مما دلهم عليه مولاهم الكريم ، يطلبون بذلك رضاه ، ويرجون رحمته.

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَاتَّبِعُوا} أيِ: الزَمُوا العمَل بأَحسَن ما أُنزِل إليكم من ربِّكم، والعملُ يَقتَضي العمَلَ القَلْبيَّ والعمَل اللِّسانيَّ والعمَل الجوارِحيَّ؛ يَعنِي: اتَّبِعوهُ عَقيدةً وقولًا وعمَلًا.

وقوله تعالى: {أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} الأحسن هنا الظاهِر أنه وَصْفٌ للنازِل: {أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ}، ونحن إذا تَأمَّلْنا لم نَجِد أحسَنَ من القُرآن، كما هو ظاهر في قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [المائدة: ٤٨]، أي: مُسيطِرًا، وذا سُلْطان، فعلى هذا تكون الأَحسنِيَّةُ هنا راجِعةً إلى الكتاب المَتبوع، وحينئذٍ لا إشكالَ فيها.

وإذا قُلْنا: {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ} أي: (افعَلوا أحسَنَ ما شُرِع لكم) يَبقَى فيه إشكال، وهو أننا مَأمورون بأَحسَن ما شُرِع لنا، فهل يَعنِي ذلك أننا لو فعَلْنا الحسَنَ دون الأحسَنِ نكون مُقصِّرين؟

نَقول: هذا ظاهِر الآية إذا فسَّرْناها بما ذكَرْنا، ولكن دلَّتِ النُّصوص على أن مَن اقتَصَر على الواجِب فقد قام بالواجِب، وإن لم يَأتِ بالأحسَنِ، بل إن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال للرجُل الأَعْرابيِّ الذي ذكَر له شَرائِعَ الإسلام قال ﷺ: "إِنْ صَدَقَ هَذَا دَخَلَ الجَنَّةَ".

=

=

وعليه- أي: على هذا الاحتِمالِ في الآية الكريمةِ- نَقول: إن النُّصوص دلَّتْ على أن اتِّباع الحسَن مُبرِئ للذِّمَّة، لكن الأكمَل اتِّباع الأحسَن.

وقوله تعالى: {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}: {وَاتَّبِعُوا} أي: كونوا تَبَعًا، وقوله تعالى: {أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}: {أَحْسَنَ} اسمُ تَفْضيل من الحُسْن، ويَشمَل الأَحسَن في ذاته، والأحسَنَ في العمَل.

فالإنسان مَأمور أن يَتَّبع أحسَنَ ما أُنزِل إلينا في ذاتِه، ولو فَتَّشْت الكتُبَ السَّماوِيَّة التي نزَلَتْ لوَجَدْتَ أحسَن ما نَزَل هو القُرآن؛ ولهذا فسَّرَه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: [وهو القُرآن]، وكذلك أَحسَنُ ما أُنزِل إلينا إذا كانت عِبادة قام بها الإنسان على وجهٍ ناقِصٍ وعبادة قام بها على وجهٍ كامِلٍ، فالتي على وجهٍ كامِلٍ هي الأحسَنُ، فإذا وُجِد أعمالٌ تَتَفاضَل فالإنسان مَأمورٌ بأنَّ يَتَّبع الأحسَن منها: {أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}.

فقوله تعالى: {مِنْ رَبِّكُمْ} فيها إشارة إلى وُجوب اتِّباع الأحسَن؛ لأن هذا الأحسَنَ نازِل من الله سبحانه وتعالى ومن الربِّ، والربُّ هو الذي له التَّصرُّف في العِباد تَدبيرًا وتَشريعًا وحُكْمًا.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} وهو القُرآن].

ولم يَذكُر الاحتِمال الذي ذكَرْنا، بل جعَل المُراد بالأحسَن هنا أَحسَنَ ما نزَل لا أحسَنَ ما شُرِع.

وقوله تعالى: {مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً}. قوله: {بَغْتَةً} هنا بمَعنَى: مُفاجِئًا، ويُحتَمَل أن تَكون مَصدَرًا مُبيِّنًا للنوع، أي: أن يَأتِيَكم الإتيان بَغْتةً، ويُحتَمَل أن تكون مَصدَرًا بمَعنَى: في مَوضِع الحال. أي: مُباغِتًا، والمُراد: المُفاجأة، يَأتيكم العَذاب مُفاجَأةً.

في الآية الأولى: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ} أمَّا هنا فقال تعالى:

=

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦).

فَبَادِرُوا قَبْل {أَنْ تَقُول نَفْس يَا حَسْرَتَى} أَصْله يَا حَسْرَتِي أَيْ نَدَامَتِي {عَلَى مَا فرطت في جنب الله} أي طاعته {وَإِنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة أَيْ وَإِنِّي {كُنْت لَمِنَ السَّاخِرِينَ} بِدِينِهِ وَكِتَابه[1].

=

{مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً} أي: مُفاجأة، {وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} أنه يأتيكم العَذاب، وهذا كقوله تعالى: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [الأعراف: ٩٧، ٩٨]، فالنائِم لا يَشعُر بالعَذاب إلَّا بَغْتة، والذي يَلعَب كذلك لا يَشعُر بالعَذاب إلى بَغتة.

وقوله تعالى: {وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} أي: لا تَحتَسِبون أن يَقَع بكمُ العذاب؛ لأنكم غافِلون، وليس عِندكم شُعور، وهذا كقوله تعالى: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٩٧ - ٩٩]، والغالِب أن مَنِ انهَمَك بالمَعاصي نَسِيَ الخالِق ونَسِيَ العَذاب، فيَأتيه العذابُ وهو في أشَدِّ ما يَكون انغِماسًا في المَعاصي والتَّرَف.

(١) قوله تعالى: {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ} [الزمّر: ٥٦].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وأنيبوا إلى ربكم أيها الناس، وأسلموا له، أن لا تقول نفس يوم القيامة: يا حسرتا على ما فرّطت في أمر الله".

قال ابن كثير: "أي: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله ﷻ".

=

قال السمعاني: " معناه: واتبعوا طاعة الله حذرا وحذارا من أن تقول {نفس} يا ندامتا {على ما} ضيعت في ذات الله".

قال سهل بن عبد الله:"يعني" اشتغلت بعاجل الدنيا ولذة الهوى ومتابعة النفس، وضيعت في جنب الله، يعني في ذات الله القصد إليه، والاعتماد عليه بترك مراعاة حقوقه وملازمة خدمته".

قال الزمخشري:"الجنب: الجانب، يقال: أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته، وفلان لين الجنب والجانب، ثم قالوا: فرّط في جنبه وفي جانبه، يريدون في حقه".

قال مجاهد:"يعني: «ما ضيعت من أمر الله»".

قال مقاتل:"يعني: في ذات الله، يعني: من ذكر الله".

قال أبو عبيدة:"{فِي جَنْبِ اللهِ} و «فى ذات الله» واحد".

قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ} [الزمّر: ٥٦]، أي:"وإن كنت في الدنيا لمن المستهزئين بأمر الله وكتابه ورسوله والمؤمنين به".

قال السمعاني: "أي: من المستهزئين".

قال ابن كثير:"أي: إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق".

قال السدي:"يقول: من المستهزئين بالنبيّ ﷺ وبالكتاب، وبما جاء به".

قال قتادة:"فلم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى جعل يسخر بأهل طاعة الله، قال: هذا قول صنف منهم".

عن ابن عباس، قوله: " {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ}، قال: أخبر الله ما العباد قائلوه قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه، قال: {وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أَنْ تَقُولَ} يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ}

=

قبل إِتْيانه بوَقْته]، يَعنِي: لا تَشعُرون بوقته قبل إتيانه، بل قد ضرَبْتمُ الأمَل الطويل والتَّفاؤُل الذي ليس في مَحلِّه حتى أَتاكُمُ العَذاب؛ [فبادِروا قبلَ {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ}] قدَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الذي ذكَر لدَلالة السِّياق عليه.

وهذا الذي قام به المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يُسمَّى عند البَلاغيين: إيجازَ الحَذْف؛ لأن الإيجاز عِندهم نوعان: إيجازُ قَصْر، وإيجازُ حَذْف؛ فإيجازُ القَصْر أن تَكون العِبارة القَصيرة تَتَضمَّن مَعانيَ كثيرةً، وإيجاز الحَذْف أن تَكون العِبارة المَوْجودة قد حُذِف منها ما هو مَعلوم.

مثل قوله تعالى: {فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ} [القصص: ٢٤، ٢٥]، وهذه الآيةُ حُذِف منها شيءٌ كثير؛ لأن تَقديرها أن المَرْأتَيْن ذهَبَتا إلى أبيهما وأَخبَرَتاه بالخبَر، ثُمَّ أَرسَل إحداهما إلى مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فجاءَتْ إحداهما تَمشِي على استِحْياء.

فصار عِندنا الإيجازُ نوعين: إيجاز قَصْر بأن تَكون العِبارة قَصيرة تَتَضمَّن مَعانيَ كثيرةً، وإيجاز حَذْف بأن يُحذَف من الكلام ما يَدُلُّ عليه السِّياقُ، وكلاهما فصيحٌ عرَبيٌّ.

فقوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} [البقرة: ١٧٩] هذا إيجازُ قَصْر، وقوله تعالى: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} [النساء: ١٢٣] هذا إيجازُ قَصْر؛ لأنك لو أَرَدْت أن تَبسُط هذه الجُملةَ {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا} وتَذكُر أنواع السُّوء وتَذكُر أنواع المُجازاة؛ لكان الكلام طويلًا، لكنه اقتَصَر على هاتين الكلِمَتَيْن: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ}، وهُما تَشمَلان كلَّ ما يُمكِن أن يَدخُل في هذه الجُملةِ من التَّفاصيل.

إِذَنْ: على كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فبادِروا قَبْلَ {أَنْ تَقُولَ}]، نَقول: هذا من باب إيجاز الحَذْف؛ لأنه حُذِف من الكلام ما يَدُلُّ عليه السِّياق، ويُمكِن أن نُقدِّر ما هو

=

=

دون ذلك بأن نَقول: خَشية أن تَقول نَفْسٌ، يَعنِي: اتَّبِعوا ما أُنزِل إليكم من ربِّكم خَشيةَ أن تَقول نَفْسٌ يا حَسْرتا على ما فرَّطْتُ في جَنْب الله؛ أو: (قَبْلَ {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ})؛ لأنه أقلُّ تقديرًا، وكلَّما كان أقلَّ تَقديرًا فهو أَوْلى.

وهذا الذي ذكَرْناه أقصَرُ من كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ.

وقوله تعالى: {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا}: {نَفْسٌ} هنا نكرة في سِياق الإثبات، والنكِرة في سِياق الإثبات لا تَدُلُّ على العُموم، وإنما تَدُلُّ على العُموم إذا كانت في سِياق النفي أو الشَّرْط أو الاستِفْهام الإنكارِيِّ أو ما أَشبَه ذلك ممَّا ذكَرَه العُلَماءُ رحمهم الله، لكنهم قالوا: إن {نَفْسٌ} هنا نكِرة يُراد بها العُموم، يَعنِي: أن تَقول كلُّ نَفْس فرَّطَتْ.

قال رَحِمَهُ اللهُ: [{يَاحَسْرَتَا} أَصلُه: يا حَسرَتِي، أي: نَدامَتي، فالحَسْرة هي النَّدامة]، قوله تعالى: {يَاحَسْرَتَا} الألِف هذه مُنقَلِبة عن ياء؛ لأنها للنُّدْبة، وأصلُها ياءُ المُتكلِّم: يا حَسْرتِي، لكن في اللغة العربية يَجوز أن تُقلَب الياء أَلِفًا، فيُقال: (يا حَسْرَتا) بدَل (يا حَسْرَتي).

ومنه قوله سبحانه وتعالى: {قَالَتْ يَاوَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ} [هود: ٧٢]، والتَّقدير: (يا وَيْلَتِي).

وقوله تعالى: {عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ} التَّفريط مَعناه: الإهمال والإضاعة، وعكسُه: الإفراط، وهو التَّجاوُز، والتَّفريط القُصور عن الشيء، فالمُفَرِّط هو المُهمِل المُقصِّر، والمُفْرِط هو المُتجاوِز للحَدِّ، وكِلاهما مَذموم، والخِيار هو الوسَط.

في قول الله تعالى: {في جنب الله} [الزمر:٥٦]، خمسة أقوال:

القول الأول: في ذات الله. قاله أبو عبيدة، والسمعاني، وهذا قول مردود؛ لأن ذات الله لا يقع فيها تفريط من العباد البتة.

=

=

القول الثاني: في حق الله. قاله ابن عقيل، وهو قول سعيد بن جبير، واختيار ابن الجوزي.

القول الثالث: في أمر الله. قاله مجاهد، والزجاج، والأصفهاني.

القول الرابع: في طاعة الله. قاله الحسن، والنحاس.

القول الخامس: في ذكر الله. قاله مقاتل، والضحاك.

قال الطبري في معنى الآية: (على ما ضيعت من العمل بما أمرني الله به، وقصرت في الدنيا في طاعة الله، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل)، ثم ذكر روايات السلف.

وقال الزجاج: (معناه: على ما فرطت في الطريق الذي هو طريق الله الذي دعاني إليه، وهو توحيد الله، والإقرار بنبوة رسوله وهو محمد ﷺ).

وقال النحاس: (المعنى: في جنب أمر الله، على التمثيل، أي: على الطريق الذي يؤدي إلى الحق، وهو الإيمان).

وقال ابن عطية: (وقوله تعالى: {في جنب الله} [الزمر:٥٦] معناه: في مقاصدي إلى الله وفي جهة طاعته، أي: في تضييع شريعته والإيمان به، والجنب يعبر به عن هذا ونحوه).

أما القول الأول: فلا يستقيم مع سياق الآية كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض كلامه على مذاهب نفاة الصفات ومثبتيها حيث قال: (.. بل لما رأوا بعض النصوص تدل على الصفة، جعلوا كل آية فيها ما يتوهمون أنه يضاف إلى الله تعالى- إضافة صفة- من آيات الصفات، كقوله تعالى: {فرطت في جنب الله} [الزمر:٥٦]، وهذا يقع فيه طوائف من المثبتة والنفاة، وهذا من أكبر الغلط، فإن الدلالة في كل موضع بحسب سياقه، وما يحف به من القرائن اللفظية والحالية). والله تعالى أعلم.

=

=

والعثيمين: قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ} أي: طاعَته] ففَسَّر الجَنْب هنا بالطاعة، وذلك لأنه لا يُمكِن أن يُراد به جَنْب الله تعالى الذي هو جَنْب ذاته؛ لأن الإنسان يَشعُر بأنه لن يُفرِّط في نَفْس الجَنْب الذي هو جَنْب ذاته.

لكن بعض العُلماءِ رحمهم الله يَقول: الجَنْب بمَعنَى: الجانب لُغَةً، وإذا كان بمَعنَى: الجانِب لُغَةً فلا حاجةَ إلى التأويل، ويَكون المَعنَى {فِي جَنْبِ اللهِ} أي: في جانِب الله تعالى؛ وجانب الله تعالى يَعنِي: حَقَّه.

وهذا التَّفسيرُ الذي ذكَرْناه هو مُؤدَّاه، كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يَعنِي: طاعته- لكن إذا فسَّرْنا الجَنْب بالطاعة خرَجْنا به عن المعنى المُطابِق للَّفْظ، أمَّا إذا قُلْنا: الجَنْب لُغَةً بمَعنَى الجانِب. فإننا فسَّرْناه بما دلَّتْ عليه الكلِمة لُغَةً، والجانِب من المعلوم أن جانِب الله عَزَّوَجَلَّ هو حَقُّه وشَرْعه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ}: (إِنْ) مخُفَّفة من الثَّقيلة أي: وإنِّي] (إن) في اللغة العربية تَأتِي لمَعانٍ: الأوَّل: شَرْطية. والثاني: نافِية. والثالِث: مُؤكِّدة.

والرابع: زائِدة. فهذه أربعة مَعانٍ، وبعضهم زاد مَعنًى خامِسًا: أن تَكون بمَعنَى: نعَمْ، لكنه قليل.

مثال (إنِ) الشَّرْطية: قوله تبارك وتعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا} [الحجرات: ٦]. هذه (إنْ) شَرْطية.

ومثال النافِية: قول الكافِرين: {إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [المائدة: ١١٠]، و (إن) النافية هي التي يَعقُبها دائِمًا (إلَّا).

ومِثال المُؤكِّدة- وهي المُخفَّفة من الثَّقيلة كما هنا -، وعلامتها أن يَحِلَّ محَلَّها (إنَّ) مثل: {وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ} [الزمر: ٥٦]، فهذه مُخفَّفة من الثَّقيلة، وتُفيد التَّوكيد؛ لأن الثَّقيلة: (إنَّ) مَعروفة أنها للتَّوْكيد فإذا كانت هذه مُخفَّفة منها فهي للتَّوْكيد.

=

=

مثال الزائدة قول الشاعِر:

بَنُو غُدَانَةَ مَا إِنْ أَنْتُمُ ذَهَبُ ... وَلَا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ

الشاهِد قوله: (مَا إِنْ أَنْتُمُ ذَهَبُ)؛ لأن مَعنَى الكلام: ما أَنتُم ذهَب. فهي إِذَنْ زائِدة، والذهَب مَعروف، والصريف: الفِضَّة، وسُمِّيَت: صَريفًا؛ لأنها يُسمَع لها صَريفٌ عند العدَد أو الوَزْن.

(وَلَكِنْ أَنْتُمُ الْخَزَفُ) والخزَفُ هو الطِّين المَشوِيُّ. يَعنِي: أنكم أَصلُكم رَديء، وعلامة (إِنِ) الزائِدة أن يَصِحَّ الكلام مع حَذْفها، فإذا صحَّ الكلام مع حَذْفها فهي زائِدة.

وقوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ} قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فيه: [وإني كُنْتُ لمِنَ الساخِرينَ]، فقدَّرَ اسمَ (إنَّ) ضَميرًا مُطابِقًا للسِّياق، فقال: [إِنِّي كُنتُ] وهذا الذي ذهَب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هو الصحيح، أَمَّا عند جُمهور النَّحويِّين فإنهم يَقولون: إن اسم (إِنَّ) محَذوف ضميرُ الشَّأْن، فيُقدِّرون: إن كُنتُ وإنَّه. أيِ: الشأن، لكن الصحيح: أننا نُقدِّر ضميرًا مُطابقًا للسِّياق، ولا حرَجَ أن نَقول: إنه مَحذوف ولو لم يَكُن ضميرَ الشَّأْن، فعليه نَقول: {وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ} التَّقدير يَكون: وإني كنتُ لمِنَ الساخِرين.

واللام في قوله: {لَمِنَ السَّاخِرِينَ} هذه للتَّوْكيد، وهي أيضًا دليلٌ على أنَّ (إِنْ) مُخفَّفة من الثَّقيلة، ولا تَلزَم لامُ التوكيد مع (إِنِ) المُخفَّفة من الثَّقيلة، إلَّا إذا كان يُخشَى من الالتِباس بالنافِية، فإن كان يُخشَى الالتِباس بالنافية فإنه يَجِب أن تُذكَر اللَّامُ.

والحاصِلُ: أن اللَّام تَأتي كثيرًا في خبَر (إِنِ) المُخفَّفة من الثَّقيلة وقد تُحذَف؛ إلَّا إذا خيف الالتِباس، فإنه يَجِب أن تُذكَر اللَّام إذا خِيف الالتِباس بـ (إِنِ) النافِية؛ لأنه إذا أتَتِ اللَّامُ تَعيَّن أن تكون (إِنْ) مُخفَّفة من الثَّقيلة، ومَحلُّ هذا البحثِ في النَّحْو.

=

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧).

{أَوْ تَقُـول لَـوْ أَنَّ الله هَـدَانِي} بِالطَّاعَـةِ فَاهْتَـدَيْت {لَكُنْـت مِـنَ الْمُتَّقِـينَ} عَذَابه[1].

=

وقوله تبارك وتعالى: {وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ} الساخِر بمَعنَى: المُستَهزِئ، أي: ساخِرين بمَن يَدعو إلى الله تعالى، كما قال تعالى: {أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ} [ص: ٦٣]، ساخِرين بدِين الله تعالى، ساخِرين بكُتُب الله تعالى، ساخِرين برُسُل الله تعالى، {قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} [التوبة: ٦٥].

ولهذا حُذِف المَفعول في قوله سبحانه وتعالى: {السَّاخِرِينَ}؛ لإفادة العُموم؛ أي: الساخِرين بالله تعالى وآياته ورسُلِه وأَوْليائِه، فهو عامٌّ.

(١) قوله تعالى: {أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧)} [الزمّر: ٥٧].

قال الطبري:"وأن لا يقول نفس أخرى: لو أن الله هداني للحق، فوفقني للرشاد لكنت ممن اتقاه بطاعته واتباع رضاه".

قال النحاس:"قيل: معناه لو هداني إلى النجاة من النار، وردّني إلى التكليف. {لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} المعاصي، وقيل: لو أن الله هداني في الدنيا".

قال الزجاج:"أي: وكراهة أن تقول هذا القول الذي يؤدي إلى مثل هذه الحال التي

الإنسان فيها في الدنيا، لأن الله قد بين طرق الهدى، والحي في نيته بمنزلة من قد بعث، لأن الله خلقه من نطفة وبلغه إلى أن ميز، فالحجة عليه".

عن الضحاك:"{الْمُتَّقِينَ}، قال: "الذين يتقون الشرك.

عن السدي: " {المتقين}، قال: هم المؤمنون".

عن البراء بن عازب، قال: رأيت النبي ﷺ يوم الخندق ينقل معنا التراب، وهو

=

=

يقول: «والله لولا الله ما اهتدينا، ولا صمنا ولا صلينا، فأنزلن سكينة علينا، وثبت الأقدام إن لاقينا، والمشركون قد بغوا علينا، إذا أرادوا فتنة أبينا».

قال العثيمين: قوله تعالى: {أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [الزمر: ٥٧].

يَعنِي: أو تَقول نَفْس، وهذه مَعطوفة على قوله تعالى: {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ}.

وقوله تعالى: {أَوْ تَقُولَ} أي: النفسُ [{لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي} بالطاعة فاهتَدَيْت {لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}] {لَوْ} هذه شَرْطية، فِعْل الشرط فيها مَحذوف، وجوابُ الشَّرْط فيها قوله تعالى: {لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}، وتَقديره- أي: تَقدير المَحذوف وهو فِعْل الشَّرْط- لو ثبَت أن الله هَداني لكُنتُ من المُتَّقين.

وهذا احتِجاجٌ بالقدَر، يَعنِي: لو أن الله تعالى هَداني ووفَّقني فاهتَدَيْت لكُنتُ من المُتَّقين، فهي تَنْدَم وتَحْتَجُّ، يَعنِي: جمَعت بين الندَم على عدَم التَّقوى والهِداية، وبين الاحتِجاج كقول القائِل: لو أَعطَيْتني أُجرةً لعمِلْت لكَ، ولو أَطْعَمْتَني لشَبِعت. يَعنِي: فلم تُطعِمْني ولم تُعطِني أُجرة. فهُمْ يَقولون: لو أن الله تعالى هَداني لاهتَدَيْت وكُنتُ من المُتَّقين.

وعلى هذا فالمُرادُ بالهِداية هنا هِدايةُ التَّوْفيق، ويَكون هذا احتِجاجًا من النَّفْس بقَدَر الله تعالى على الضلال- والعِياذُ بالله -.

وقوله تعالى: {لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [عَذابَه] وهذا مَفعول {الْمُتَّقِينَ}، ولكن الصواب: أن نُقدِّر: (لكُنتُ من المُتَّقين الله)؛ لأن الأصل هو تَقوَى الله عَزَّ وَجَلَّ، وتَقوى عذاب الله من تَقوَى الله تعالى، فيَنبَغي أن نُقدِّر الأَصْل، أي: لكُنتُ من المُتَّقين اللهَ تعالى.

وأَصْل التَّقوى مَأخوذة من الوِقاية، فأَصلُها (وَقْوَى) بالواو، لكن قُلِبت الواو تاءً لعِلَّةٍ تَصريفية، فإذا كانت من الوِقاية فسَّرْناها بأنها اتِّخاذُ ما يَقِي من عَذاب الله

=

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨).

{أَوْ تَقُول حِين تَرَى الْعَذَاب لَوْ أَنَّ لِي كَرَّة} رَجْعَة إلَى الدُّنْيَا {فَأَكُون مِنَ الْمُحْسِنِينَ} الْمُؤْمِنِينَ فَيُقَال لَهُ مِنْ قِبَل الله[1].

=

تعالى، ولا يَقِي من عَذاب الله تعالى إلَّا فِعْل أوامِره واجتِناب نواهِيه.

ولهذا نَقول: إنَّ أَجمَعَ ما قيل في التَّقوى أنها فِعْل الأوامِر واجتِناب النواهِي.

وقيل: إن التَّقوى أن تَعمَل بطاعة الله تعالى على نورٍ من الله تعالى تَرجو ثوابَ الله تعالى، وأن تَترُك ما نهى الله تعالى على نورٍ من الله تعالى تَخشَى عِقاب الله تعالى؛ وهذا المَعنَى أَطوَلُ ممَّا قُلْنا، لكن ما قُلْنا مُشتَمِلٌ عليه.

وقيل في التَّقوى:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا ... وَكبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى

وَاعْمَلْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى

لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً ... إِنَّ الجبَالَ مِنَ الحَصَى

وهذا أيضًا تَعريفٌ شيِّق؛ لأنه مَنظوم، فقوله:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا ... وَكبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى

والذُّنوب إمَّا فِعْل مُحرَّم، أو تَرْك واجِب.

وقوله:

وَاعْمَلْ كمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى

فالذي يَمشِي على أرض الشَّوْك يَمشِي ببُطْءٍ.

وقوله:

لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً ... إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

الجِبال العَظيمة الضَّخمة حَصًى مُتجَمِّع، إمَّا كُتَل أو صِغار أو كِبار.

(١) قوله تعالى: {أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

=

=

(٥٨)} [الزمّر: ٥٨].

قال الطبري:"أو أن لا تقول أخرى حين ترى عذاب الله فتعاينه: لو أن لي رجعة إلى الدنيا {فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} الذين أحسنوا في طاعة ربهم، والعمل بما أمرتهم به الرسل".

قال ابن كثير:"أي: تود أن لو أعيدت إلى الدار فتحسن العمل".

عن قتادة: " {يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ}... الآية، قال: هذا قول صنف منهم {أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي}... الآية، قال. هذا قول صنف آخر: {أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ} الآية، يعني بقوله: {لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً} رجعة إلى الدنيا، قال: هذا صنف آخر".

عن ابن عباس:"{فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}، يقول: من المهتدين، فأخبر الله سبحانه أنهم لو ردوا لم يقدروا على الهدى، وقال {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، وقال: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ} كما لم يؤمنوا به أول مرة، قال: ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا".

عن أبي هريرة، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني؟! فتكون عليه حسرة". قال: "وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني! " قال: "فيكون له الشكر".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أَوْ تَقُولَ} هذه مَعطوفة على {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ} يَعنِي: أو تَقول النَّفْس حين تَرى العَذاب بعَيْنه فيَكون المَوعود مَشهودًا تَراه بالعَيْن.

وقوله تعالى: {لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً} والرُّؤية بالعين تُعتبَر عينَ اليَقين، والوعد بالعَذاب عِلْم اليَقين، ومسُّ العذاب حَقُّ اليَقين؛ ولهذا قالوا: اليَقين ثلاثة: عِلْم، وعَيْن، وحَقٌّ؛ وكلُّها في القرآن:

=

=

قال تبارك وتعالى: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ} [التكاثر: ٥ - ٧]، أي: مُشاهَدًا.

وقال تعالى في آخِر سورة الواقِعة: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ} [الواقعة: ٩٥]، فالذي يَكون عند الاحتِضار (حقُّ اليَقين).

وأَعلاها حقُّ اليَقين؛ لأن عين اليَقين قد تُشاهِد الشيء على خِلاف ما هو عليه كما تَرى، ولا سيَّما إن كان نظَرُك ضعيفًا ترَى الشيء الساكِن مُتحرِّكًا، أو المُتحَرِّك ساكِنًا، فعلى كل حال حَقُّ اليَقين أعلاها.

وهنا قال تعالى: {أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ} والمُراد عَينُ اليَقين.

وقوله تعالى: {لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}: {لَوْ} هنا ليست شَرْطيةً، ولكنها للتَّمنِّي، يَعنِي: ليت لي كَرَّةً.

ونَستَطرِد فنَقول: (لَوْ) تَأتِي شَرْطية، وتَأتِي للتَّمنِّي، وتَأتِي مَصدرية؛ ثلاثة مَعانٍ: فتَأتِي شَرْطية فيما إذا قُلت: لو زُرْتَني لأَكرَمْتكَ. وعلامتها: أن يَحِلَّ مَحلَّها (إِنِ) الشَّرْطية: لو زُرْتَني لأَكرَمْتك. اجعَلْ بدَلَها (إِنْ): إن زُرْتَني أَكرَمْتك.

والثانية المَصدَرية وهي التي تَأتِي غالِبًا بعد (وَدَّ) كقوله تعالى: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم: ٩]، وعلامتها: أن يَحِلَّ محَلَّها (أَنِ) المَصدَرية {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ}، ولو وضِعَت بدلها (أَنْ): ودُّوا أَنْ تُدهِن؛ لا يَصِحُّ الكلام، ولا يَصِحُّ أن تَضع بدَلَها (أَنْ) في القُرآن، ويَصِحُّ تَقديرًا {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}، فلو جُعِلَتْ بدَلَها (أَنِ) استَقام الكلام، لكن لا يَجوز في القرآن أن تُجعَل بدلَها (أَنْ).

ولو قُلت: وَدِدْتُ لو زُرْتَني. لكان صحيحًا، لكن هنا إذا حوَّلتها إلى (أَنْ) فحَوِّلِ الفِعْل إلى مُضارِع: وَدِدْت أن تَزورَني.

بقِيَ عندنا التَّمَنِّيَّة التي للتَّمنِّي، وتكون بمعنى: أَتمَنَّى، يَعنِي: يُعيِّن مَعناها السِّياق، فهنا {لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ} لو وُضِعَتْ بدلَها: أَتمَنَّى؛ كان المَعنَى: أَتمنَّى أن يَكون

=

بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩).

{بَلَى قَدْ جَاءَتْك آيَاتِي} الْقُرْآن وَهُوَ سَبَب الْهِدَايَة {فكَذَّبْت بِهَا وَاسْتَكْبَرْت} تَكَبَّرْت عَنْ الْإِيمَان بها {وكنت من الكافرين[1]}.

=

لي كرَّةٌ فأكون من المُؤمِنين؛ ويَدُلُّك لهذا قولُه تعالى في سورة الأنعام: {يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا} [الأنعام: ٢٧].

فصار مَعانِي (لو) ثلاثةً: شَرْطية، ومَصدَرية، وللتَّمنِّي.

وقوله تعالى: {لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [رَجعةً إلى الدُّنيا {فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}]، يَعنِي: يَتمنَّى أن يَكون له رَجعة ليَكون من المُحسِنين.

وقوله تعالى: {فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}، ولم يَقُل: من المُتَّقين؛ لأن الإحسان درَجةٌ فوقَ التَّقوى، فكُلُّ مُحسِنٍ مُتَّقٍ، وليس كُل مُتَّقٍ مُحسِنًا، فالإحسان درجةٌ عاليةٌ قال فيه النبيُّ ﷺ: "أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ". ولكن ليسَتْ هذه النَّفسُ صادِقةً في أنها تَتَمنَّى لتكون من المُحسِنين، قال الله تعالى: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام: ٢٨]، لكن عند العَذاب ليس لها إلَّا أن تَقول هكذا: {لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}.

(١) قوله تعالى: {بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ} [الزمّر: ٥٩].

قال مقاتل:"يعني: آيات القرآن، {فكذبت بها} أنها ليست من الله، {واستكبرت}، يعني: وتكبرت عن إيمان بها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مكذبا للقائل: {لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}، وللقائل: {لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}: ما القول كما تقولون: {بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ} -أيها المتمني على الله الرد إلى الدنيا لتكون فيها من المحسنين- حججي من بين رسول أرسلته إليك، وكتاب أنزلته يتلى عليك ما فيه من الوعد والوعيد والتذكير {فَكَذَبْتْ} بآياتي {وَاسْتَكْبَرْتَ} عن قبولها

=

=

واتباعها".

قال النحاس:"أي: قد هديتك بالبيّنات".

قال الزجاج:"كأنه قيل: ما هديت، فقيل: {بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت}".

قال الزمخشري:"فإن قلت: كيف صح أن تقع بلى جوابا لغير منفي؟ قلت: {لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي} فيه معنى: ما هديت".

قال ابن كثير:"ولما تمنى أهل الجرائم العَودَ إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال الله سبحانه وتعالى: {بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}، أي: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا، وقامت حججي عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها".

قال قتادة:"يقول الله ردًا لقولهم، وتكذيبا لهم، يعني لقول القائلين: {لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي}، والصنف الآخر: {بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي}... الآية".

قوله تعالى: {وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [الزمّر: ٥٩]، أي:"وكنت من الكافرين بالله ورسله".

قال الطبري:"يقول: وكنت ممن يعمل عمل الكافرين، ويستن بسنتهم، ويتبع منهاجهم".

قال ابن كثير:"وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها".

قال العثيمين: قوله تعالى: تعالى: {بَلَى} هذه حَرْف جَواب، يُجاب بها النفيُ لإِثْباته.

فإذا قال قائِل: أينَ النفيُ في هذه الآيةِ؟

قُلْنا: قول هذه المُكذِّبة: {أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} يَتَضمَّن أن الله تعالى لم يَهدِها، فقال الله تعالى: {بَلَى} يَعنِي: بلى قد جاءَك ما فيه الهِداية،

=

=

وهو بَعْث الرُّسُل؛ لأن فيها {لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي} يَتَضمَّن الهِداية العِلْمية؛ هِداية الرُّشْد الذي هو التَّوفيق.

والخُلاصةُ: أن قولها: {لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي} يَتضمَّن نفيَ هِداية الله تعالى لها، لو أن الله تعالى هَداني لكُنْت، ولكنه لم يَهدِنِي، فلم أَكُن من المُتَّقين.

إِذَنْ: هذا الكلامُ يَتَضمَّن نفيَ الهِداية، فقال الله تعالى مُبطِلًا هذا النفيَ: {بَلَى} يَعنِي: بلى قد هَداكِ الله تعالى، هَداها بما جاءَت به، وهذه هِدايةُ الدَّلالة {بَلَى} أي: بلى قد هَداكِ الله تعالى.

قوله تعالى: {قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي} قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [القُرآن وهو سبَب الهِداية] ما سبَق ليس خاصًّا بأُمَّة مُحمَّد ﷺ حتى يُقال: إن الآياتِ هي القُرآنُ، ولكنه عامٌّ لجَميع الأُمَم الذين يَرَوْن العَذاب يوم القِيامة، فإذا كان من هذه الأُمَّةِ فالآياتُ التي جاءَت هي القُرآن، وإذا كان من قوم مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فالآياتُ هي التَّوراةُ، وإذا كان من قوم عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فالآياتُ الإنجيلُ، وهلُمَّ جَرًّا.

والآياتُ جَمْع: آيةٍ، وهي في اللغة: العَلامة المُبيِّنة لمَدلولها، وقد سمَّى الله عَزَّ وَجَلَّ ما جاءَت به الرُّسُل آياتٍ؛ لأنه علامة على الربِّ عَزَّ وَجَلَّ، ممَّا يَتَضمَّنه من الصِّدْق في الأَخْبار، والعَدْل في الأَحْكام، وأنه لو اجتَمَع الخَلْق على أن يَأْتوا بمِثْل ما جاء به الرُّسُل من الشرائِع ما استَطاعوا ذلك، وهذا آيةٌ؛ لأن ما يُقْدَر عليه لا يُعتَبر آيةً.

وقدِ استَمَرَّ المُتأخِّرون على تَسمية الآيات: مُعجِزاتٍ؛ وهذا فيه نظَر، فإن المُعجِزاتِ أعمُّ من الآيات، إذ إن المُعجِزة قد تَكون من الساحِر، وقد تَكون من الكاهِن، وقد تَكون من المُشعوِذ، لكن الآية التي تُبيِّن الشيء وتُوضِّحه لا تَكون من هؤلاء؛ ولهذا يَنبَغي أن نَقول: (آياتُ الأنبياء) بدَلَ (مُعجِزاتُ الأنبياء)؛ لأن هذه:

أَوَّلًا: هي المُوافَقة لما جاء في القرآن، فإن الله لم يُسمِّ آياتِ الأنبياءِ مُعجِزاتٍ.

=

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠).

{وَيَوْم الْقِيَامَة تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى الله} بِنِسْبَةِ الشَّرِيك وَالْوَلَد إلَيْهِ {وُجُوههمْ مُسَوَّدَة أَلَيْسَ فِي جَهَنَّم مَثْوًى} مَأْوًى {لِلْمُتَكَبِّرِينَ} عَنْ الْإِيمَان بلى[1].

=

ثانيًا: لِئَلَّا يَدخُل ما جاء مُعجِزًا من غير الأنبياءِ.

فقوله تعالى: {بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي} أيِ: العَلامات التي تَدُلُّ على أن الله تعالى حقٌّ، أيِ: القُرآن، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهو سبَب الهِداية].

قوله: [هو] أي: ما جاءت به الرُّسُل من الآيات [سبَب الهِداية]، ولكن لمَن: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧].

أمَّا مَن حقَّتْ عليه كلِمة العَذاب وعلِمَ الله تعالى أنه ليس أهلًا لها، فيَقول الله تعالى فيه: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يونس: ٩٦، ٩٧].

قوله تعالى: {فَكَذَّبْتَ بِهَا} باعتِبار الأخبار، {وَاسْتَكْبَرْتَ} باعتِبار الأحكام الأوامِر والنَّواهِي، ففي جانب الخبَر مُكذِّب، وفي جانب الأمر والنَّهي مُستكبِر.

ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ} تكبَّرت عن الإيمان بها] ولو قيل: عن العمَل بها؛ ليَكون التَّكذيب للأخبار، والاستِكبار عن الأَحْكام، ولكن ما ذكَره المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ لا بأسَ به عن الإيمان بها.

قوله سبحانه وتعالى: {وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}: {وَكُنْتَ} أي: بسَبَب التَّكذيب والاستِكبار {مِنَ الْكَافِرِينَ} الذين يَستَحِقُّون دُخول النار؛ لِقيام الحُجَّة عليهم.

(١) قوله تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ} [الزمر:
=

=

٦٠]، أي:"ويوم القيامة ترى هؤلاء المكذبين الذين وصفوا ربهم بما لا يليق به، ونسبوا إليه الشريك والولد وجوههم مسودة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى} يا محمد هؤلاء {الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ} من قومك فزعموا أن له ولدا، وأن له شريكا، وعبدوا آلهة من دونه {وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ}".

قال القرطبي:"أي: مما أحاط بهم من غضب الله ونقمته".

قال ابن قتيبة:"الرؤية-هاهنا-: المعاينة".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه، وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى هاهنا: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ} أي: في دعواهم له شريكا وولدا {وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ} أي: بكذبهم وافترائهم".

قال ابن زيد في قوله: {وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار}، "فرأوا وجوههم مسودّة، وأعينهم مزرقّة، {قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين}".

قال الأخفش:"{وجوههم مسودة} رفع على الابتداء. ونصب بعضهم فجعلها على البدل".

قوله تعالى: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ} [الزمّر: ٦٠]، أي:"أليس في جهنم مأوى ومسكن لمن تكبر على الله، فامتنع من توحيده وطاعته؟".

قال الطبري:"يقول: أليس في جهنم مأوى ومسكن لمن تكبر على الله، فامتنع من توحيده، والانتهاء إلى طاعته فيما أمره ونهاه عنه".

قال ابن كثير:"أي: أليست جهنم كافية لها سجنا وموئلا لهم فيها دار الخزي والهوان، بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق".

عن عمرو بن شعيب عن أبيه جده، أن رسول اللهﷺ قال: «يحشر المتكبرون يوم

=

=

القيامة أمثال الذر فى صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن فى جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال».

عن عقبة بن عامر، قالرسول الله ﷺ: «ما من رجل يموت وفى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر تحل له الجنة أن يريح ريحها أو يراها قال رجل إنى أحب الجَمَال حتى فى علاقة سوطى وشراك نعلى قال ليس ذلك الكبر إن الله جميل يحب الجمال ولكن الكبر من سفه الحق وغمط الناس بعينيه».

وعن أبي ريحانة، قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يدخل شيئا من الكبر الجنة فقال قائل إنى أحب أن أتجمل بجلاز سوطى وشسع نعلى قال إن ذاك ليس من الكبر إن الله جميل يحب الجمال، إنما الكبر من سفه الحق وغمص الناس بعينه».

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ}: (يوم) هذه ظَرْف تَحتاج إلى مُتعلِّق؛ لأن كل ظَرْف أو جارٍّ ومَجرور فلا بُدَّ له من شيء يَتعلَّق به؛ لأن الظرف والجارَّ والمَجرور لا يُمكِن أن يَكون عامِله مَعنويًّا، لا بُدَّ أن يَكون عامِله لفظيًّا، بخِلاف غيرهما، فإنه قد يَكون عامِله مَعنويًّا فيَكون مُبتَدَأ، لكن الظرف لا يَكون مُبتَدَأ، والجارُّ والمجرور لا يَكون مُبتَدَأ، فلا بُدَّ له من عامِل لَفْظيٍّ، والعامِل اللفظيُّ إمَّا فِعْل، وإمَّا ما كان بمَعنَى الفِعْل كاسْمِ الفاعِل واسم المَفعول، وعلى هذا يَقول ناظِمُ الجُمَل:

لَا بُدَّ لِلْجَارِّ مِنَ التَّعَلُّقِ ... بِفِعْلٍ اوْ مَعْنَاهُ نَحْوُ مُرْتَقِ
وَاسْتَثْنِ كُلَّ زائِدٍ لَهُ عَمَلْ ... كَالْبَاءِ وَمِنْ وَالْكَافِ أَيْضًا وَلَعَلّ

إذن: قوله تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ}: {وَيَوْمَ} هذه ظَرْف تَحتاج إلى مُتعلَّق، ومُتعَلَّقها الفِعْل الذي بعدَه {تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا} يَعنِي: وتَرَى الذين كذَبوا على الله يوم القيامة {وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ}، ولكن قدَّم المَعمول للأَهمِّيَّة؛ لأن المُهِمَّ

=

=

التَّحدُّث عن هذا اليوم.

وقوله تعالى: {تَرَى الَّذِينَ} الخِطاب لكل مَن يَصِحُّ خِطابه، فيَعُمُّ الرسول ﷺ، وغيره ممَّن يَصِحُّ توجيه الخِطاب إليهم.

والرُّؤية هنا رُؤيةٌ بصَرية؛ لأن السَّواد لون، والرُّؤية باللَّون هي رُؤيةٌ بصَرية؛ لأن الألوان تُرى ولا تُعقَل؛ يَعنِي: تُدرَك بالرؤية لا بالعَقْل.

قوله تعالى: {كَذَبُوا عَلَى اللهِ} بكل أنواع الكذِب، فكلُّ مَن كذَب على الله تعالى فإن وجهَه سيَكون مُسوَدًّا يوم القيامة، وذلك [بنِسبة الشَّريك له]، كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ [بنِسْبة الولَد له]، كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا، وبنِسبة الجَوْر له، وبنِسْبة الظُّلْم، وبأي شيء يَكذِب على الله تعالى، فإن الذين يَكذِبون على الله تعالى ستَكون وجوهُهم يوم القِيامة مُسوَدَّة، حتى لو كانوا في الدُّنيا بِيضًا فإنهم يَأتون يوم القيامة وجوهُهم مُسوَدَّة- والعِياذُ بالله -.

قال تعالى: {تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ} ولم يَقُل: تَرَى وجوهَ الذين كذَبوا على الله مُسوَدَّة؛ لأن التَّركيب المَذكور في القُرآن أَبلَغُ في الإثبات؛ حيث جعَل هذا الوَصْفَ- أَعنِي: سَواد وجوهِهم- مُكوَّنًا من جُملة واحِدة؛ لأن الجُملة الاسْمِيَّة تُفيد الثُّبوت والاستِمْرار، بخِلاف الجُمْلة الفِعْلية فإنها تُفيد التَّجدُّد والحُدوث.

فـ {تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ} ترَى نفس الإنسان وجهُه مُسوَدٌّ، لكن لو قال: تَرَى وجوه الذين كذَبوا على الله تعالى مُسوَدَّة لم تَحصُل هذه الفائِدة.

إذن: هذا التركيبُ الذي في الآية الكريمة يُفيد مَعنًى أكثَرَ ممَّا لو كان على التَّركيب الذي ذكَرْته؛ لأن هذا التَّركيبَ القرآنيَّ يَدُلُّ على أن هذا الاسوِدادَ في وجوههم ثابِتٌ مُستَقِرٌّ، حيث جاء بالجُملة الاسمِيَّة، والجُملة الاسْمِيَّة تُفيد الثُّبوت والاستِمْرار.

=

=

قوله تعالى: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ}: {أَلَيْسَ} الاستِفهام هنا للتَّقرير، ويَقول العُلماءُ رحمهم الله: كلَّما جاءَت أداة النفيِ بعد الاستِفْهام فإنه للتَّقرير، كقوله تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} [التين: ٨].

وقوله تعالى: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} [القيامة: ٤٠]، وقوله تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمر: ٣٦]، وقوله تعالى: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ} [الزمر: ٦٠]، وقوله تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: ١]، والآيات في هذا كثيرة.

فالاستِفهام إِذَنْ في هذه الآيةِ: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ} - والجَوابُ: بلى - استِفهام تَقرير.

وقوله تعالى: {جَهَنَّمَ} اسمٌ من أسماء النار - أَعاذَني الله تعالى وإيَّاكم منها - وهل هو اسمٌ مُعرَّب، أو هو اسمٌ عرَبيٌّ على وَزْن فَعلَل؟

في ذلك قولان:

منهم مَن قال: إنه اسم مُعرَب وأصلُه في الفارسية: (كهَنّام) فعُرِّب فآلَ إلى جَهنَّمَ.

وقيل: بل هو اسمٌ عرَبيٌّ على وَزْن فَعلَّل، مَأْخُوذ مِنَ الجُهمة وهي الظُّلْمة؛ لأن النار - والعِياذُ بالله - سَوداءُ مُظلِمة.

وإذا دار الأمرُ بين أن تكون الكلِمة أصيلة أو دَخيلة فالأصل أنها أَصيلة؛ لأن القُرآن عرَبيٌّ، فإذا حكَمْنا بأن الأصل عرَبيٌّ جعَلنا اللغة العربية غَنيَّةً عن غيرها، وإذا جعَلْنا أصلَه فارِسيًّا، أو حبَشِيًّا، أو ما أَشبَه ذلك، ولكنه عُرِّب، فهذا يَعنِي أن اللغة العربية افتَقَرت إلى هذه الكلِمةِ فعرَّبتها وأَدخَلَتْها في لسان العرَب.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مَثْوًى} مَأوًى] فالمَثوَى والمَأوَى بمَعنًى واحِد، والمُراد بالمَثْوى والمَأْوَى: المَقَرُّ والمَسكَن.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لِلْمُتَكَبِّرِينَ} عن الإيمان] وعن الأعمال أيضًا، فكُلُّ مُتكبِّر - والعِياذُ

=

وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١).

{وَيُنَجِّي الله} مِنْ جَهَنَّم {الَّذِينَ اتَّقَوْا} الشِّرْك {بِمَفَازَتِهِمْ} أَيْ بِمَكَانِ فَوْزهمْ مِنْ الْجَنَّة بِأَنْ يجعلوا فيه {لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون}[1].

=

بالله- فهو من أصحاب النار.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [بلى] هذا جَوابُ: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ}، وإذا جاءت مثل هذه الصِّيغةِ في القُرآن فجَوابها: (بلى)؛ فإذا قَرَأْت قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} أو قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ} [الزمر: ٣٧]، أو قوله تعالى: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}، أو قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} فالجوابُ: بلى. وهكذا.

(١) قوله تعالى: {وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ} [الزمّر: ٦١].

قال الطبري: يقول:"وينجي الله من جهنم وعذابها، الذين اتقوه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه في الدنيا بفوزهم".

قال ابن كثير:"أي: مما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله".

عن السدي، قوله:"{وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ}، قال: بفضائلهم".

عن ابن زيد قوله: {وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ}، قال: "بأعمالهم، قال: والآخرون يحملون أوزارهم يوم القيامة {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}".

وقرئ: «بمفازاتهم».

قوله تعالى: {لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ} [الزمّر: ٦١]، أي:"لا يمسهم من عذاب جهنم شيء".

قال الطبري: يقول:"لا يمس المتقين من أذى جهنم شيء، وهو السوء الذي أخبر جل ثناؤه أنه لن يمسهم".

=

=

قال ابن كثير:"أي: يوم القيامة".

قوله تعالى: {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الزمّر: ٦١]، أي:"ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا".

قال الطبري: " يقول: ولا هم يحزنون على ما فاتهم من آراب الدنيا، إذ صاروا إلى كرامة الله ونعيم الجنان".

قال ابن كثير:"أي: ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فَزَع، مزحزحون عن كل شر، مُؤمَلون كل خير".

عن البراء بن عازب، قال: «خرجنا مع النبي ﷺ، في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله، كأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت في الأرض، فرفع رأسه، فقال:"استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين، أو ثلاثا"، ثم قال: "إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال فيصعدون بها فلا يمرون يعنى بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة فيقول الله اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم

=

=

ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربى الله فيقولان له ما دينك فيقول دينى الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هو رسول الله- ﷺ- فيقولان له وما علمك فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادى منادٍ فى السماء أن صدق عبدى فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره قال ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له من أنت فوجهك الوجه يجئ بالخير فيقول أنا عملك الصالح فيقول رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى قال وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول يا أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب قال فتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الخبيث فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله- ﷺ- {لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط} [الأعراف: ٤٠] فيقول الله اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ {ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق} [الحج: ٣١] فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما دينك

=

=

فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدرى فينادى منادٍ من السماء أن كذب فافرشوا له من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذى يسوءك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول من أنت فوجهك الوجه يجئ بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة"».

قال العثيمين: لمَّا ذكر الله سبحانه وتعالى عِقاب الذين كذَبوا على الله تعالى بيَّن ثواب الذين اتَّقَوُا الله ﷻ، وهذا دأْبُ القرآن الكريم أنه إذا ذكَر الشيء ذكَر مُقابِله، وهو من مَعنَى قوله تعالى: {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ} [الزمر: ٢٣].

قال العُلَماءُ رحمهم الله: {مَثَانِيَ} أي: تُثنَّى فيه المَعاني، فإذا جاء وَصْف المُؤمِنين جاء وَصْف الكافِرين، وإذا جاء ثواب المُؤمِنين جاء ثواب الكافِرين، وكذلك بالعكس، وذلك من أَجْل أن لا يَستَغرِق الإنسان في جانب الرجاء إذا ذَكَرَ وَصْف المُؤمِنين وثوابهم، وكذلك لا يَيْأَس إذا ذكَر وَصْف الكافِرين وعِقابهم.

وهنا يَقول الله ﷻ: {وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ}: {وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا} من عِقاب الكافِرين، فلا تَكون وجوهُهم مُسوَدَّةً، ولا تَكون مَثواهم جَهنَّمَ، وقد بيَّن الله ﷻ في آيات أخرى أن يوم القِيامة {تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [آل عمران: ١٠٦]، فتَسوَدُّ وجوهُ الكافِرين، وتَبيَضُّ وجوه المُؤمِنين، فيُنجِّي الله تعالى الذين اتَّقَوْا من عِقاب الكافِرين في هذا وفي هذا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَيُنَجِّي اللهُ} من جَهنَّمَ] صحيح، لكن لو قال: من عِقاب الكافِرين. لكان أعمَّ؛ لتَشمَل النَّجاة نجاتَهم من جَهنَّمَ، ومن أن تَكون وجوهُهم مُسوَدَّةً، ومن غير ذلك.

=

=

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{الَّذِينَ اتَّقَوْا} الشِّرْكَ]، والصواب أن يُقال في هذا: اتَّقوا الله؛ لأن التَّقوى عند الإطلاق إنما يُراد بها تَقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، وقد تُذكَر في غير الله تعالى، مثل قوله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ} [البقرة: ٢٨١]، وقوله تعالى: {وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [آل عمران: ١٣١]، وما أَشبَه ذلك، لكن عند الإطلاق لا يُراد بها إلَّا تَقوَى الله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{بِمَفَازَتِهِمْ} أي: بمَكان فَوْزهم من الجنَّة بأن يَجعَلوا فيه].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [بمَكان فَوْزهم من الجَنَّة بأن يَجعَلوا فيه]، فأَفادَنا رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا التَّفسيرِ: أن الباء بمَعنَى (في) أي: يُنجِّي الله الذين اتَّقَوْا من العذاب في مكان فَوْزهم، وهو الجَنَّة.

والباء تَأتي بمَعنَى (في) في اللغة العربية، ومنه قوله تبارك وتعالى: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، {وَبِاللَّيْلِ} يَعنِي في الليل.

وقوله تبارك وتعالى: {لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} هذا من نَجاتهم أنهم لا يَمَسُّهم السوء، أي: لا يَمسُّهم شيء يَسوؤُهم، لا من عِقاب، ولا من تَوبيخ، ولا غير ذلك؛ ولهذا إذا دخَل أهل الجَنَّةِ الجَنَّةَ يُقال: يا أهلَ الجَنَّة، خُلودٌ فلا موت. ويقال: إن لكم أن تَنعَموا، وإن لكم أن تَصِحُّوا، وإن لكم أن تَحيَوْا. يَعنِي: فلا تَموتوا، ولا تَسقَموا، ولا تَبأَسوا. دائِمًا هم في نعيم؛ ولهذا قال تعالى: {لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} أي: لا يَحزَنون على ما سبَقَ؛ لأنَّ الحُزْن يَكون على ما مضَى، والغَمَّ يَكون للمُستَقبَل، أمَّا المُستَقبَل فقال تعالى: {لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ}، وأمَّا الماضي فقال تعالى: {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} أي: لا يَحزَنون على ما مضَى؛ لأنهم لم يُفرِّطوا فيه، بل عرَفوا قَدْر الزمَن، وعمِلوا فيه ما نجَوْا به من عَذاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢).

{الله خَالِقُ كُلّ شَيْء وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْء وَكِيل} مُتَصَرِّف فِيهِ كَيْفَ يَشَاء[(١)].

---

(١) قوله تعالى: {اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الزمّر: ٦٢].

قال الطبري: يقول: " الله الذي له الألوهة من كل خلقه الذي لا تصلح العبادة إلا له، خالق كل شيء، لا ما لا يقدر على خلق شيء".

عن عثمان بن سعيد، قال جبريل: "يا محمد، لله الخلق كله والسموات كلهن ومن فيهن والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم".

قال الإمام أحمد:"فقال لي بعضهم: قال الله ﷻ: {اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الزمر: ٦٢] فالقرآن أليس هو شيئًا؟ فقلت: قال الله ﷻ: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْء} [الأحقاف: ٢٥] فهل دمرت إلا ما أتت عليه؟".

قوله تعالى: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [الزمّر: ٦٢]، أي:"وهو على كل شيء حفيظ يدَبِّر جميع شؤون خلقه".

عن السدي قوله: " {وكيل}، أما «الوكيل»، فالحفيظ".

قال الطبري: "يقول: وهو على كل شيء قيم بالحفظ والكلاءة".

قال القرطبي:"أي: حافظ وقائم به".

قال ابن كثير-في الآية:"يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها، وربها ومليكها والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته".

قال العثيمين: قوله تعالى: {اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} جُملة اسْمِية تُفيد الثُّبوت والاستِمرار، وأن الله تعالى دائِمًا وأبدًا هو الخالِق.

وقوله تعالى: {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} مَعناها: مُوجِده على الصورة التي أَرادَها الله ﷻ.

والخَلْق في الأصل بمَعنَى: التقدير، ولكنه يُطلَق على الإيجاد المَقرون بالتَّقدير والتَّسوِية والإحكام والنِّظام، فهُنا الخَلْق يُراد به الإيجاد على وجهٍ كامِلٍ بتَقديره =

=

وتَسوِيته وتَنظيمه.

وقوله تعالى: {كُلِّ شَيْءٍ} قال بعض الناس: يُستَثْنَى من ذلك نفسُه، ولكن هذا ليس بصواب؛ لأنه من المَعلوم أن الفاعِل ليس المَفعولَ، وحينئذٍ لا يُحتاج إلى استِثناء، والاستِثناء يُحتاج في جُملةٍ يَكون فيها المُستَثْنى داخِلًا فيها لولا الاستِثناء، أَمَّا هنا فلا يُمكِن أن يَكون داخِلًا فيها؛ لأن الفاعِل غير المَفعول، فالخالِق غير المَخلوق، ولا يُمكِن أن يُوجَد مَخلوقٌ ويُوجَد بعده خالِقه مثَلًا حتى نَقول: إن الجُملة تَحتاج إلى استِثناء.

قال تعالى: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}: {وَهُوَ} يَعنِي: الله ﷻ {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُتصرِّفٌ فيه كيف يَشاء]، ولو قال: {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} أي: حفيظًا عليه مُدبِّرٌ له، لكان أَعَمَّ؛ لأن الوكيل في اللغة هو الذي وُكِل إليه الشيء حِفْظًا وتَدبيرًا، والله ﷻ على كل شيء وكيل حِفْظًا وتدبيرًا، وهنا لا يُقال: كيف كان وَكيلًا؟ ومَن الذي وكَّله؟ ونَقول: إذا كان الوكيل بمَعنَى: الحفيظ المُدبِّر فلا حاجةَ إلى استِحْفاظ، بل هو الذي تَولَّى ذلك بنَفْسه.

مسألة: من المعلوم أن مراتب الإيمان بالقدر أربعة، وهي العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، والكلام هنا عن المرتبة الرابعة وهي مرتبة الخلق، وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله بذواتها، وصفاتها، وحركاتها، وبأن كل من سوى الله مخلوق مُوْجَدٌ من العدم، كائن بعد أن لم يكن. وهذه المرتبة دلت عليها الكتب السماوية، وأجمع عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام واتفقت عليها الفطر القويمة، والعقول السليمة، والأدلة على هذه المرتبة لا تكاد تحصر منها:

١- قوله تعالى: (اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) سورة الزمر: ٦٢.

٢- قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ

=

=

وَالنُّورَ) سورة الأنعام:١.

٣- قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) الملك:٢.

٤- قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) سورة النساء: ١.

٥- قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) سورة الأنبياء: ٣٣.

٦- قال سبحانه: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) سورة فاطر: ٣.

ومن الأدلة من السنة ما يلي:

١- أخرج البخاري في خلق أفعال العباد (ص ٢٥) عن حذيفة ﵁ قال: (قال النبي ﷺ: (إن الله يصنع كل صانع وصنعته).

٢- وعن زيد بن أرقم ﵁ قال: (لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول، كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكَّها، أنت وليها ومولاها) رواه مسلم (٢٧٢٢).

والشاهد من ذلك قوله ﷺ (اللهم آت نفسي تقواها، وزكِّها...) فالفاعل هو الله تعالى فهو الذي يطلب منه ذلك.

٣- عن ورَّاد مولى المغيرة بن شعبة قال: كتب معاوية إلى المغيرة: اكتب إلي ما سمعت النبي يقول خلف الصلاة، فأملى عليَّ المغيرة، قال: سمعت النبي ﷺ يقول خلف الصلاة: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد رواه البخاري (٦٦١٥).

=

=

والشاهد من ذلك قوله: اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، فالمعطي والمانع هو الله تعالى فهو الفاعل لذلك، وهذا يدل على أنَّ الخالق هو الله ﷻ.

واعلم أن أفعال العباد داخلة في عموم خلقه تعالى ولا يخرجها شيء من عموم قوله تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ). سورة الزمر: ٦٢، وإنما أفرد بعض العلماء هذه المسألة في مصنفات لوقوع اللبس فيها.

وخلاصة القول في هذه المسألة: أفعال العباد كلَّها من الطاعات، والمعاصي، داخلةٌ في خلق الله، وقضائه، وقدره؛ فقد علم الله ـ ﷻ ـ ما سيخلقه في عباده، وعلم ما هم فاعلون، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، وخلقهم الله كما شاء، ومضى فيهم قدره، فعملوا على النحو الذي شاءه فيهم، وهدى الله من كتب لهم السعادة، وأضل من كتب عليهم الشقاوة، وعلم أهل الجنة وييسرهم لعمل أهلها، وعلم أهل النار وييسرهم لعمل أهلها. فأفعال العباد هي من الله خلقًا وإيجادًا وتقديرًا، وهي من العباد فعلًا وكسبًا، فالله هو الخالق لأفعالهم، وهم الفاعلون لها، فنؤمن بجميع نصوص الكتاب والسنة الدالة على شمول خلق الله، وقدرته على كل شيء من الأعمال والأوصاف، كما نؤمن بنصوص الكتاب والسنة الدالة على أن العباد هم الفاعلون حقيقةً للخير والشر، وعلى هذا اتفق أهل السنة والجماعة.

والنصوص التي مرت بنا في المرتبة الرابعة من مراتب القدر تدل على ذلك، وهناك أدلة أصرح في الدلالة على هذه المسألة كقوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) سورة الصافات: ٩٦. قال المفسرون: في معنى ما في الآية وجهان:

أحدهما: أن تكون بمعنى المصدر؛ فيكون المعنى: والله خلقكم وعملكم.

والثاني: بمعنى الذي؛ فيكون المعنى، والله خلقكم وخلق الذي تعملونه بأيديكم

=

=

من الأصنام. وفي هذه الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله.

(تنبيه): قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٨/ ١١٧): ومما ينبغي أن يعلم أن مذهب سلف الأمة- مع قولهم: الله خالق كل شيء وربه ومليكه وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه على كل شيء قدير وأنه هو الذي خلق العبد هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا ونحو ذلك- إن العبد فاعل حقيقة وله مشيئة وقدرة قال تعالى: {لمن شاء منكم أن يستقيم} {وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين} وقال تعالى {إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} {وما تشاءون إلا أن يشاء الله} وقال تعالى: {كلا إنه تذكرة} {فمن شاء ذكره} {وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة}. وهذا الموضع اضطرب فيه الخائضون في القدر فقالت المعتزلة ونحوهم من النفاة: الكفر والفسوق والعصيان أفعال قبيحة والله منزه عن فعل القبيح باتفاق المسلمين فلا تكون فعلا له. وقال من رد عليهم من المائلين إلى الجبر بل هي فعله وليست أفعالا للعباد بل هي كسب للعبد: وقالوا: إن قدرة العبد لا تأثير لها في حدوث مقدورها ولا في صفة من صفاتها وإن الله أجرى العادة بخلق مقدورها مقارنا لها فيكون الفعل خلقا من الله إبداعا وإحداثا وكسبا من العبد لوقوعه مقارنا لقدرته وقالوا: إن العبد ليس محدثا لأفعاله ولا موجدا لها ومع هذا فقد يقولون: إنا لا نقول بالجبر المحض بل نثبت للعبد قدرة حادثة والجبري المحض الذي لا يثبت للعبد قدرة، وأخذوا يفرقون بين الكسب الذي أثبتوه وبين الخلق فقالوا: الكسب عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة وقالوا: أيضا الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه والخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه، فقال لهم الناس: هذا لا يوجب فرقا بين كون العبد كسب وبين كونه فعل وأوجد وأحدث وصنع وعمل ونحو ذلك؛ فإن فعله

=

=

وإحداثه وعمله وصنعه هو أيضا مقدور بالقدرة الحادثة وهو قائم في محل القدرة الحادثة.

و أيضا فهذا فرق لا حقيقة له فإن كون المقدور في محل القدرة أو خارجا عن محلها لا يعود إلى نفس تأثير القدرة فيه: وهو مبني على " أصلين " إن الله لا يقدر على فعل يقوم بنفسه وإن خلقه للعالم هو نفس العالم وأكثر العقلاء من المسلمين وغيرهم على خلاف ذلك. و (الثاني إن قدرة العبد لا يكون مقدورها إلا في محل وجودها ولا يكون شيء من مقدورها خارجا عن محلها. وفي ذلك نزاع طويل ليس هذا موضعه. و أيضا فإذا فسر التأثير بمجرد الاقتران فلا فرق بين أن يكون الفارق في المحل أو خارجا عن المحل. و أيضا قال لهم المنازعون: من المستقر في فطر الناس أن من فعل العدل فهو عادل ومن فعل الظلم فهو ظالم ومن فعل الكذب فهو كاذب فإذا لم يكن العبد فاعلا لكذبه وظلمه وعدله بل الله فاعل ذلك لزم أن يكون هو المتصف بالكذب والظلم قالوا: وهذا كما قلتم أنتم وسائر الصفاتية: من المستقر في فطر الناس أن من قام به العلم فهو عالم ومن قامت به القدرة فهو قادر ومن قامت به الحركة فهو متحرك ومن قام به التكلم فهو متكلم ومن قامت به الإرادة فهو مريد وقلتم إذا كان الكلام مخلوقا كان كلاما للمحل الذي خلقه فيه كسائر الصفات فهذه القاعدة المطردة فيمن قامت به الصفات نظيرها أيضا من فعل الأفعال. وقالوا أيضا: القرآن مملوء بذكر إضافة هذه الأفعال إلى العباد كقوله تعالى: {جزاء بما كانوا يعملون} وقوله: {اعملوا ما شئتم} وقوله: {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم} وقوله: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات} وأمثال ذلك.

وقالوا (أيضا إن الشرع والعقل متفقان على أن العبد يحمد ويذم على فعله ويكون حسنة له أو سيئة فلو لم يكن إلا فعل غيره لكان ذلك الغير هو المحمود المذموم

=

=

عليها. وفي " المسألة " كلام ليس هذا موضع بسطه لكن ننبه على نكت نافعة في هذا الموضع المشكل فنقول: قول القائل: هذا فعل هذا وفعل هذا: لفظ فيه إجمال؛ فإنه تارة يراد بالفعل نفس الفعل وتارة يراد به مسمى المصدر. فيقول فعلت هذا أفعله فعلا وعملت هذا أعمله عملا فإذا أريد بالعمل نفس الفعل الذي هو مسمى المصدر كصلاة الإنسان وصيامه ونحو ذلك فالعمل هنا هو المعمول وقد اتحد هنا مسمى المصدر والفعل؛ وإذا أريد بذلك ما يحصل بعمله كنساجة الثوب وبناء الدار ونحو ذلك فالعمل هنا غير المعمول قال تعالى {يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات} فجعل هذه المصنوعات معمولة للجن. ومن هذا الباب قوله تعالى {والله خلقكم وما تعملون} فإنه في أصح القولين {ما} بمعنى الذي والمراد به ما تنحتونه من الأصنام كما قال تعالى {أتعبدون ما تنحتون} {والله خلقكم وما تعملون} أي والله خلقكم وخلق الأصنام التي تنحتونها. ومنه حديث حذيفة عن النبي ﷺ {إن الله خالق كل صانع وصنعته} لكن قد يستدل بالآية على أن الله خلق أفعال العباد من وجه آخر فيقال: إذا كان خالقا لما يعملونه من المنحوتات لزم أن يكون هو الخالق للتأليف الذي أحدثوه فيها فإنها إنما صارت أوثانا بذلك التأليف وإلا فهي بدون ذلك ليست معمولة لهم وإذا كان خالقا للتأليف كان خالقا لأفعالهم.

والمقصود أن لفظ " الفعل " و " العمل " و " الصنع " أنواع وذلك كلفظ البناء والخياطة والنجارة تقع على نفس مسمى المصدر وعلى المفعول وكذلك لفظ " التلاوة " و " القراءة " و " الكلام " و " القول " يقع على نفس مسمى المصدر وعلى ما يحصل بذلك من نفس القول والكلام فيراد بالتلاوة والقراءة نفس القرآن المقروء المتلو؛ كما يراد بها مسمى المصدر. والمقصود هنا أن القائل إذا قال هذه التصرفات فعل الله أو فعل العبد؛ فإن أراد بذلك أنها فعل الله بمعنى المصدر فهذا

=

=

باطل باتفاق المسلمين وبصريح العقل ولكن من قال هي فعل الله وأراد به أنها مفعولة مخلوقة لله كسائر المخلوقات فهذا حق.
ثم من هؤلاء من قال إنه ليس لله فعل يقوم به فلا فرق عنده بين فعله ومفعوله وخلقه ومخلوقه. وأما الجمهور الذين يفرقون بين هذا وهذا فيقولون هذه مخلوقة لله مفعولة لله ليست هي نفس فعله وأما العبد فهي فعله القائم به وهي أيضا مفعولة له إذا أريد بالفعل المفعول؛ فمن لم يفرق في حق الرب تعالى بين الفعل والمفعول إذا قال إنها فعل الله تعالى وليس لمسمى فعل الله عنده معنيان وحينئذ فلا تكون فعلا للعبد ولا مفعولة له بطريق الأولى وبعض هؤلاء قال هي فعل للرب وللعبد فأثبت مفعولا بين فاعلين. وأكثر المعتزلة يوافقون هؤلاء على أن فعل الرب تعالى لا يكون إلا بمعنى مفعوله مع أنهم يفرقون في العبد بين الفعل والمفعول؛ فلهذا عظم النزاع، وأشكلت المسألة على الطائفتين وحاروا فيها. وأما من قال: خلق الرب تعالى لمخلوقاته ليس هو نفس مخلوقاته قال: إن أفعال العباد مخلوقة كسائر المخلوقات ومفعولة للرب كسائر المفعولات ولم يقل: إنها نفس فعل الرب وخلقه بل قال إنها نفس فعل العبد وعلى هذا تزول الشبهة؛ فإنه يقال الكذب والظلم ونحو ذلك من القبائح يتصف بها من كانت فعلا له كما يفعلها العبد وتقوم به ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له إذا كان قد جعلها صفة لغيره كما أنه سبحانه لا يتصف بما خلقه في غيره من الطعوم والألوان والروائح والأشكال والمقادير والحركات وغير ذلك؛ فإذا كان قد خلق لون الإنسان لم يكن هو المتلون به وإذا خلق رائحة منتنة أو طعما مرا أو صورة قبيحة ونحو ذلك مما هو مكروه مذموم مستقبح لم يكن هو متصفا بهذه المخلوقات القبيحة المذمومة المكروهة والأفعال القبيحة. ومعنى قبحها كونها ضارة لفاعلها وسببا لذمه وعقابه وجالبة لألمه وعذابه. وهذا أمر يعود على الفاعل الذي قامت به؛ لا

=

=

على الخالق الذي خلقها فعلا لغيره.

ثم على قول الجمهور الذين يقولون له حكمة فيما خلقه في العالم مما هو مستقبح وضار ومؤذ يقولون: له فيما خلقه من هذه الأفعال القبيحة الضارة لفاعلها حكمة عظيمة؛ كما له حكمة عظيمة فيما خلقه من الأمراض والغموم. ومن يقول: لا تعلل أفعاله لا يعلل لا هذا ولا هذا.

يوضح ذلك أن الله تعالى إذا خلق في الإنسان عمى ومرضا وجوعا وعطشا ووصبا ونصبا ونحو ذلك كان العبد هو المريض الجائع العطشان المتألم فضرر هذه المخلوقات وما فيها من الأذى والكراهة عاد إليه ولا يعود إلى الله تعالى شيء من ذلك فكذلك ما خلق فيه من كذب وظلم وكفر ونحو ذلك هي أمور ضارة مكروهة مؤذية. وهذا معنى كونها سيئات وقبائح أي أنها تسوء صاحبها وتضره وقد تسوء أيضا غيره وتضره كما أن مرضه ونتن ريحه ونحو ذلك قد يسوء غيره ويضره. يبين ذلك أن القدرية سلموا أن الله قد يخلق في العبد كفرا وفسوقا على سبيل الجزاء كما في قوله تعالى {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة} وقوله {في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا} وقوله {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}. ثم إنه من المعلوم أن هذه المخلوقات تكون فعلا للعبد وكسبا له يجزى عليها ويستحق الذم عليها والعقاب وهي مخلوقة لله تعالى فالقول عند أهل الإثبات فيما يخلقه من أعمال العباد ابتداء كالقول فيما يخلقه جزاء من هذا الوجه وإن افترقا من وجه آخر وهم لا يمكنهم أن يفرقوا بينهما بفرق يعود إلى كون هذا فعلا لله دون هذا وهذا فعلا للعبد دون هذا؛ ولكن يقولون إن هذا يحسن من الله تعالى لكونه جزاء للعبد وذلك لا يحسن منه لكونه ابتداء للعبد بما يضره وهم يقولون لا يحسن منه أن يضر الحيوان إلا بجرم سابق أو عوض لاحق. وأما أهل الإثبات للقدر فمن لم يعلل منهم لا يفرق بين مخلوق ومخلوق.

=

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣).

{لَهُ مَقَالِيد السَّمَاوَات وَالْأَرْض} أَيْ مَفَاتِيح خَزَائِنهمَا مِنْ الْمَطَر وَالنَّبَات وَغَيْرهمَا {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله} الْقُرْآن {أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} مُتَّصِل بِقَوْلِهِ {وَيُنَجِّي الله الَّذِينَ اتَّقُوا} إلَخْ وَمَا بَيْنهمَا اعتراض(١).

=

وأما القائلون بالحكمة وهم الجمهور فيقولون: لله تعالى فيما يخلقه من أذى الحيوان حكم عظيمة كما له حكم في غير هذا ونحن لا نحصر حكمته في الثواب والعوض فإن هذا قياس لله تعالى على الواحد من الناس وتمثيل لحكمة الله وعدله بحكمة الواحد من الناس وعدله.

(١) قوله تعالى: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الزمّر: ٦٣].

قال الطبري: يقول:"له مفاتيح خزائن السموات والأرض، يفتح منها على من يشاء، ويمسكها عمن أحب من خلقه".

قال الزجاج:"أي: مفاتيح السماوات، المعنى: ما كان من شيء من السماوات والأرض فالله خالقه وفاتح بابه".

قال أبو عبيدة:"أي: المفاتيح، واحدها: مقليد، وواحد الأقاليد: إقليد. وقال الأعشى:

فتى لو يجارى الشّمس ألقت قناعها... أو القمر الساري لألقى المقالدا".

قال ابن قتيبة:"أي: مفاتيحها وخزائنها، واحدها: «إقليد»، يقال: هو فارسي معرب «إكليد»".

وفي تفسير قوله تعالى: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الزمّر: ٦٣]، قولان:

أحدهما: خزائن السموات والأرض، قاله السدي.

=

الثـاني: مفـاتيح الـسموات والأرض، قالـه ابـن عبـاس ، ومجاهـد ، وقتـادة ، والضحاك.

قـال مقاتـل:"يعنـى: مفـاتيح، بلغـة النـبط، {مقاليـد الـسماوات}: المطـر. {والأرض}: يعني النبات".

قال ابن كثير:"المعنى على كلا القولين: أن أزمَّة الأمور بيده، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير".

وقال ابن زيد:"المقاليد: المفاتيح، قال: له مفاتيح خزائن السموات والأرض".

وقال سهل:"بيده مفاتيح القلوب، يوفق من يشاء لطاعته وخدمته بالإخلاص، ويصرف من يشاء عن بابه".

وروي عن عثمان بن عفان -رضي الله عنه-: "أنه سأل رسول الله ﷺ، عن تفسير له مقاليد السماوات والأرض فقال: «ما سألني، عنها أحد قبلك يا عثمان» قال: «تفسيرها: لا إله إلا الله، والله أكبر وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله ولا قوة إلا بالله، الأول والآخر والظاهر والباطن، بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير من قالها يا عثمان إذا أصبح عشر مرات أعطي خصلا ستا أما أولاهن: فيحرس من إبليس وجنوده، وأما الثانية فيعطى قنطارا من الأجر، وأما الثالثة: فترفع له درجة في الجنة، وأما الرابعة: فيتزوج من الحور العين، وأما الخامسة: فيحضره اثنا عشر ملكا، وأما السادسة: فيعطى من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور. وله مع هذا يا عثمان من الأجر كمن حج وتقبلت حجته، واعتمر فتقبلت عمرته، فإن مات من يومه طبع بطابع الشهداء»".

قال ابن كثير:"غريب جدا، وفي صحته نظر.. ورواه أبو يعلى الموصلي من حديث يحيى بن حماد، به مثله. وهو غريب، وفيه نكارة شديدة، والله أعلم".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [الزمّر: ٦٣]،

=

أي:"والذين جحدوا بآيات القرآن وما فيها من الدلائل الواضحة، أولئك هم الخاسرون في الدنيا بخِذْلانهم عن الإيمان، وفي الآخرة بخلودهم في النار".

قال الطبري: يقول:"والذين كفروا بحجج الله فكذبوا بها وأنكروها، أولئك هم المغبونون حظوظهم من خير السموات التي بيده مفاتيحها، لأنهم حرموا ذلك كله في الآخرة بخلودهم في النار، وفي الدنيا بخذلانهم عن الإيمان بالله ﷻ".

قال ابن كثير:"{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ} أي: حججه وبراهينه".

قال الزجاج:"أي: الذين يقولون: إن شيئا ليس مما خلق الله أو رزقه من السماوات والأرض فليس الله خالقه، {أولئك هم الخاسرون}".

قال العثيمين: قوله تعالى: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: مَفاتيحُ خزائِنها من المطَر والنبات وغيرهما]، قوله تعالى: {لَهُ مَقَالِيدُ} المَقاليد جَمْع: مِقلاد، وهو ما يُقلَّد به الشيء، هذا هو الأصل، والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ جعَل المَقاليد هنا بمَعنَى: المَفاتيح، ولو أنه قال: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي: تَدبير السمَواتِ والأرض. لكان أَوْلى؛ لأن كلِمة: المَفاتيح قد يَظُنُّ الظانُّ أنه يَملِك المفاتيح دون التَّدبير، ولكن الأمر ليس كذلك، فهو بيَدِه مَقاليد السمَواتِ والأرض. أي: تَدابيرُهما كما يَشاء.

ثُمَّ قال ﷻ: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا} مُبتَدأ، وجملة: {أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} خبَرُه، وعلى هذا فتكون هذه الجُملةُ تَتَضمَّن جُمْلَتين: كُبرى، وصُغرى.

الكبرى: هي المُكوَّنة من المُبتَدَأ والخَبَر، والصُّغرى: هي التي وقَعَت خبَرًا، فقوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا} مُبتَدَأ، {أُولَئِكَ} مُبتَدَأ آخَرُ {الْخَاسِرُونَ} خبَر المُبتَدَأ الآخَر، والجُملة من المُبتَدَأ الثاني وخبَرِه خبَرُ المُبتَدَأ الأوَّل.

وفائِدة الإتيان بهذا التَّركيبِ: أنه أُسنِدَت الجُمْلة الثانية إلى الأُولى حتى صارت

=

=

الجُمْلة جُمْلتين في المَعنَى.

أَمَّا قوله تعالى: {هُمُ الْخَاسِرُونَ} فـ {هُمُ} ضَمير فَصْل لا مَحَلَّ له من الإعراب. وفائِدتُه:

أَوَّلًا: التَّوكيد.

ثانيًا: الحَصْر.

ثالثًا: التَّمييز، أو إن شِئْت فقُل: الفصل بين كون ما بعدَه خبَرًا أو وَصْفًا، فإنك إذا قلت: زيدٌ هو الفاضِلُ. فإن كلِمة (الفاضِل) تَحتَمِل أن تَكون خبَرًا، أو أن تَكون صِفة إذا حَذَفت (هو)، وإذا قلت: زيدٌ الفاضل. فربما يَترَقَّب الإنسان كلِمة أُخرى تَتِمُّ بها الجُملة، ويَعتقِد أن (الفاضِل) صِفة، فإذا قلتَ: هو الفاضِل. زال هذا الوهمُ، أو زال هذا التَّوقُّع، وعَلِم أن ما بعد (هو) خبَرَ المُبْتَدَأ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ} القرآن] وهذا فيه شيءٌ من القُصور؛ لأن آياتِ الله عَزَّ وَجَلَّ في القرآن وفي غير القرآن، ثُمَّ الآياتُ كونيةٌ وشَرْعيةٌ، والكُفْر يَكون بهما جميعًا؛ أي: بالآيات الكونية والآيات الشرعية، ويَكون بالقرآن وبالتَّوراة وبالإنجيل وبغَيرِهما من الكُتُب التي أَنزَلها الله عَزَّ وَجَلَّ، فالأَوْلى العُموم أن يُقال: كفَروا بآيات الله تعالى الكَوْنية والشَّرْعية، القرآن وغير القرآن.

وأصل الكُفْر الجَحْد، ومنه: الكفرة الذي هو وِعاء طَلْع النَّخْلة؛ لأنه يَستُر الطَّلْع ولا يَتبيَّن، والكافِر جاحِدٌ ساتِرٌ لحَقِّ الله عَزَّ وَجَلَّ ولِنِعَم الله عَزَّ وَجَلَّ، وكُفرهم بآيات الله تعالى يَكون تارةً بالتكذيب وتارةً بالاستِكْبار، ففي مُقابِل الأخبار يَكون بالتَّكذيب، وفي مُقابِل الأمر والنَّهي يَكون بالاستِكْبار.

إذَنِ: الكُفْر قُلنا: إنه يَتَضمَّن شيئين: إمَّا جُحودًا، وإمَّا استِكبارًا.

قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}، قوله تعالى: {أُولَئِكَ} اسمُ إشارة، وهنا المُشار إليه بعيد؛ لأن الكافَ لا تَأتِي إلَّا إذا كان

=

المُشار إليه بعيدًا، فإنها تَأْتِي الكاف لتَنبيه المُخاطَب إلى المُشار إليه؛ لبُعْده، أمَّا إذا كان المُشار إليه قريبًا فإنه لا يُؤتَى بالكاف، بل يُقال: (أولاءِ) مثل: (هَؤلاءِ)، ويُقال: (هذا) لكن إذا كان بَعيدًا فإنه يُؤتَى بالكاف؛ لتَنبيه المُخاطَب إلى المُشار إليه؛ لأنه لا شَكَّ أن الإنسان إذا خُوطِب كان ذلك أبلَغَ في تَنبيهه: (أولئِك) إذا قلتَ الكافَ سيَنتَبِه ويَنظُر من هذا المُشارُ إليه.

فإذا كان لا يَكون إلَّا البعيد، فالبُعْد إمَّا عُلوٌّ أو سُفول، وإمَّا حِسِّيٌّ وإمَّا مَعنَوِيٌّ، فالأقسام إذَنْ أربعة، والقِسْم الذي يَنطَبِق على الذين كفَروا هنا حِسِّيٌّ، لكن في الدنيا مَعنوِيٌّ؛ لأنه قد يَكون كافِرًا وهو في قِمَّة الجبَل.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} هم لا غيرهم الخاسِرون الذين خسِروا الدُّنيا والآخِرة، أمَّا خُسْران الآخِرة فظاهِر، وأمَّا خُسْران الدنيا فإنهم إنما خُلِقوا لعِبادة الله تعالى، ولم يَقوموا بعِبادة الله تعالى، إذَنْ خَسِروا المعنى الذي من أَجْله خُلِقوا، قال الله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، وقال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الزمر: ١٥].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُتَّصِلٌ بقوله: {وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ} وما بينهما اعتِراض] قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُتَّصِلٌ] يَعنِي بقوله تعالى: {وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ}؛ هذا ما ذهَب إليه رَحِمَهُ اللَّهُ، ولكن هذا قد يُنازَع، قد يُقال إن قوله تعالى: {وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ} هو مُتَّصِل بما قبلَه، لمَّا ذكَر الذين كذَبوا على الله تعالى أن وجوهَهم مُسوَدَّة قال تعالى: {وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا}، أمَّا هذا فليس له صِلة بما ذُكِر، بل صِلَته بما قَبْله مُباشَرةً أَبْيَنُ وأَظهَرُ؛ لأن الله تعالى قال: {اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} يَعنِي: فبَعدَ هذا البيانِ، وبعد إقرار الكُفَّار بأن الله تعالى خالِق كل شيء لا يَبقَى لهم

قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤).

{قُلْ أَفَغَيْر الله تَأْمُرُونِّي أَعْبُد أَيّهَا الْجَاهِلُونَ} غَيْر مَنْصُوب بِأَعْبُد الْمَعْمُول لِتَأْمُرُونِّي بِتَقْدِيرِ أَنْ بِنُونٍ وَاحِدَة وَبِنُونَيْنِ بِإِدْغَامٍ وَفَكّ[1].

=

رِبْحٌ إذا كفَروا، بل همُ الخاسِرون.

فتكون هذه الآيةُ مُتَّصِلةً بما قبلَها مُباشَرةً، وليست مُتَّصِلةً بقوله تعالى: {وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ}، لأن هذه الآيةَ: {وَيُنَجِّي اللهُ} مُتَّصِلة بما قبلَها، وهذا هو مُقتَضى النَّظْم القرآني، أمَّا أن نُشَتِّتَ الآياتِ ونَقول: كلُّ هذه الجُملةِ {اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} كل هذا جُملة اعتِراضية، أو كل هذا اعتِراضٌ لا محَلَّ له هنا؛ فلا شَكَّ أن هذا خِلاف ما يَقتَضيه النَّظْم وسِياق القرآن.

فالصَّوابُ: أن هذه الجُملةَ مُتَّصِلة بما قبلَها، ووجهُ الاتِّصال أنه بيَدِه مَقاليدُ السمَوات والأرض، وأنه خالق كل شيء، وهم يُقِرُّون به؛ فصار هؤلاء الذين يُقِرُّون بأن الله تعالى خالِق كل شيء، وأن له مَقاليدَ السموات والأرض وكفَروا به يَكونون خاسِرين لا شكَّ هم أَخسَرُ الناس، فكيف يُقِرُّون بأن الله تعالى خالِق كل شيء، وأن له مَقاليدَ السموات والأرض ثُم يَكفُرون بآياته؟! وكان مُقتَضى هذا الإقرارِ أن يُؤمِنوا بآياته، ولكنهم خَسِروا فكفَروا بآيات الله تعالى، قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}.

(١) ذكر سبب النزول.

عن الحسن البصري؛ قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بعض شعاب مكة، وقد دخله من الغم ما شاء الله من تكذيب قومه إياه، فقال: "رب أرني ما أطمئن إليه، ويذهب عني هذا الغم"؛ فأوحى الله إليه: "ادع أي أغصان هذه الشجرة شئت"، فدعا غصنًا فانتزع من مكانه ثم خد في الأرض حتى جاء رسول الله ﷺ، فقال له رسول

=

=

الله ﷺ: "ارجع إلى مكانك"؛ فرجع الغصن فخد في الأرض حتى استوى كما كان، فحمد رسول الله ﷺ طابت نفسه ورجع، وقد كان قال المشركون: أفضلت أباك وأجدادك يا محمد؟! فأنزل الله ﷻ: {قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)}.

أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٦/ ١٤) من طريق أحمد بن عبد الجبار ثنا يونس بن بكير عن المبارك بن فضالة عن الحسن به.

وهذا سند ضعيف؛ فيه علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: المبارك مدلس؛ وقد عنعنه.

الثالثة: أحمد بن عبد الجبار؛ ضعيف؛ كما في "التقريب".

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن قريشًا دعت رسول الله ﷺ أن يعطوه مالًا فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، ويطأون عقبه، فقالوا له: هذا لك عندنا يا محمد! وتكف عن شتم آلهتنا، ولا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل؛ فإنا نعرض عليك خصلة واحدة وهي لنا ولك، فدلوه، قال: "حتى أنظر ما يأتيني من ربي"؛ فجاء الوحي: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢٤٥) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤)} [الزمّر: ٦٤].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه: قل يا محمد لمشركي قومك، الداعيك إلى عبادة الأوثان: {أَفَغَيْرَ اللهِ} -أيها الجاهلون بالله- {تَأْمُرُونِّي} أن {أَعْبُدُ} ولا

=

=

تصلح العبادة لشيء سواه".

قال الزجاج:"المعنى: أفغير الله أعبد -أيها الجاهلون- فيما تأمرونني".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي} الهَمْزة للاستِفْهام، والفاء حَرْف عَطْف، وهنا يُشكِل على هذا الإعرابِ ما اشتُهِر من أن هَمزة الاستِفهام لها الصَّدارة، وهنا قال تعالى: {قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي} فإذا كان لها الصَّدارة فكيف تَأتِي الفاء بعدَها الدالة على أن الجُملة مَعطوفة؟

فالجَوابُ: إن في ذلك لعُلماءِ النَّحوِ رحمهم الله وَجهَيْن:

الوجهُ الأوَّل: أن الهمزة للاستِفهام، وأنها داخِلة على جُملةٍ مَعطوف عليها، وتُقدَّر هذه الجُملةُ بما يُناسِب السِّياق، وعلى هذا فيَكون التَّقديرُ في هذه الآيةِ: قُلْ أَتَجْهَلون فغيرَ الله تَأمُرونِّي أَعبُد أيُّها الجاهِلون؛ ويُقدَّر في كل مَوضِع ما يُناسِبه، فقوله سبحانه وتعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ} [يوسف: ١٠٩]، التَّقدير: أَغَفَلوا فلم يَسيروا في الأرض.

وقيل: إن الهَمْزة للاستِفْهام، وإن الفاء مُزحلَقة عن مَكانها، والتَّقدير: فأَغَيرَ الله. فتكون هذه الجُملةُ مَعطوفةً على ما سبَق، ولكن المَعنَى الأوَّل إذا تَيَسَّر وأَمكَن أن يُقدَّر شيءٌ مُناسِب فإنه أَوْلى.

يَقول المُفَسِّر رَحَمَهُ اللَّهُ في إعرابه: [{غَيْرَ} مَنصوب بـ {أَعْبُدُ} المَعمول لـ {تَأْمُرُونِّي} بتَقدير (أَن)؛ بنونٍ واحِدة وبنُونين، وبإدغام وفَكٍّ]، هذه على قول: {تَأْمُرُونِّي}.

يَقول المُفَسِّر رَحَمَهُ اللَّهُ في الإعراب: إن {غَيْرَ} مَنصوبة بـ {أَعْبُدُ}، والتقديرُ: أَأَعبُد غير الله تعالى بأَمْركم. هذا مَعنَى الآية.

وقوله تعالى: {أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي} فيها قِراءات:

أوَّلًا: قِراءتها بنون واحِدة: (تَأمُرونِي).

ثانيًا: قِراءتها بنونين بإدغام (تَأمُرونِّي).

=

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥).

{وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْك وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلك} والله {لئن أشركت} يا محمد فرضا {ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين}[١].

=

ثالثًا: قِراءتها بنُونين بدون إدغام (تَأمُرونَنِي).

فقوله تعالى: {أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ} يَعنِي: أَتَأمُرونَني أَعبُد غير الله تعالى.

قوله تعالى: {أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} أيِ: الجاهِلون بحقيقة ما يَجِب لله ﷻ وبحقيقة عِبادة الأصنام، ويُحتَمَل أن المَعنى المُراد بقَوْله تعالى: {الْجَاهِلُونَ} أيِ: السُّفَهاء؛ لأن الجَهْل تارةً يُراد به السفَهُ، وتارةً يُراد به عدَم العِلْم، وإذا كان المُراد به السفَهُ فإنه يُسمَّى جهالةً، كما في قوله تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ} [النساء: ١٧].

وقوله تعالى: {أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي} يَشمَل كلَّ ما سِوى الله تعالى من حَيٍّ وميت وصالِحٍ وفاسِد وجَمادٍ وحَيَوان.

قوله تعالى: {أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ}: (أيُّ) مُنادى، و {الْجَاهِلُونَ} وَصْف لـ (أَيُّ)؛ ولهذا جاءَتْ مَرفوعةً، والاستِفهام هنا للتَّوْبيخ والإنكار بدليل قوله تعالى: {أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ}.

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمّر: ٦٥].

قال الطبري: يقول:"ولقد أوحى إليك يا محمد ربك، وإلى الذين من قبلك من الرسل: لئن أشركت بالله شيئا يا محمد، ليبطلنّ عملك، ولا تنال به ثوابا، ولا تدرك جزاء إلا جزاء من أشرك بالله".

قال السمعاني:"يقال: هذا خطاب للرسول، والمراد منه غيره، ويجوز أن يكون

=

=

تأديبا للرسول، وتخويفا له ليتمسك بما عليه... والحبوط: البطول".

قال البيضاوي:"كلام على سبيل الفرض والمراد به تهييج الرسل وإقناط الكفرة والإشعار على حكم الأمة، وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد".

كان الإمام أحمد -رَحِمَهُ اللَّهُ-يقول:"إن الشرك يحبط الأعمال كلها. ويقرأ: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)} وإن المرتد إذا أسلم وجب عليه الحج للإسلام، وإن كان قد حج".

قوله تعالى: {وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمّر: ٦٥]، أي:"ولتكوننَّ من الهالكين الخاسرين دينك وآخرتك بسبب ذلك".

قال الطبري: يقول:"ولتكونن من الهالكين بالإشراك بالله إن أشركت به شيئا".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَلَقَدْ} هذه الجُملةُ مُؤكَّدة بمُؤكِّدين: اللَّام، والقسَم المُقدَّر، والتَّقدير: واللهِ لقَدْ.

وقوله تعالى: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} في هذا إشكالٌ: وهو كيف يَقول الله تعالى في حقِّ رسوله ﷺ: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ}؟ وهل يَجوز أن يُشرِك؟

الجَوابُ: من وَجْهَيْن:

الوَجْه الأوَّلُ: أن المُراد بهذا الأُمَّةِ، وإن كان الخِطاب مُوجَّهًا للرسول ﷺ؛ فالمُرادُ به الأُمَّة، كقوله تعالى: {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٨٨].

الوجه الثاني: أن التَّعليق بالشَّرْط لازِم منه وُقوع المَشروط، ونَظيره قولُه تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [الزخرف: ٨١]، ومَعلومٌ أنه يَمتَنِع أن يَتَّخِذ الله تعالى ولَدًا.

قوله تعالى: {وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} مُؤكَّدة باللَّام والقسَم المُقدَّر؛ لأن اللَّام هذه تكون جَوابًا للقسَم.

بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦).

{بَلِ اللهَ} وَحْده {فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} إنعامه عليك[1].

---

(١) قوله تعالى: {بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ} [الزمّر: ٦٦].

قال مقاتل: "يعني: فوحد".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا تعبد ما أمرك به هؤلاء المشركون من قومك يا محمد بعبادته، بل الله فاعبد دون كلّ ما سواه من الآلهة والأوثان والأنداد".

قال ابن كثير: "أي: أخلص العبادة لله وحده، لا شريك له، أنت ومن معك، أنت ومن اتبعك وصدقك".

قال الزجاج: "«الفاء» جاءت على معنى المجازاة، كأنه قال: قد تبينت فاعبد الله".

قوله تعالى: {وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الزمّر: ٦٦]، أي: "وكن من الشاكرين لله نعمه".

قال مقاتل: "على الرسالة والنبوة".

قال الطبري: يقول: "{وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} لله على نعمته عليك بما أنعم من الهداية لعبادته، والبراءة من عبادة الأصنام والأوثان".

قال العثيمين: قوله تعالى: {بَلِ} هذه لإضراب الإبْطال؛ والإضرابُ عِندهم نَوْعان:

١- نَوْعٌ يُراد به إبطال ما سبَق وإثبات ما لَحِق.

٢- ونَوْعٌ يُراد به الانتِقال من شيءٍ إلى آخَرَ.

مِثال الأوَّل: هذه الآيةُ.

ومِثال الثاني: قولُه تعالى: {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ} [النمل: ٦٦]، فهنا انتِقالات من سيِّئٍ إلى أَسوَأَ {بَلِ ادَّارَكَ}، أي: =

=

بعد عِلْمهم في الآخِرة {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ}.

وهُنا يَقول تعالى: {بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ} هذا إضرابٌ إِبْطاليٌّ لما سبَق من الشِّرْك. يَعنِي: بل دَعِ الشِّرْك فإنه باطِل واعبُدِ الله تعالى.

وقوله تعالى: {بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ} قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وحدَه] وأخَذ هذه الوَحْدانيةَ المُفيدةَ للحَصْر من تَقدير المَعمول؛ والقاعِدة في البَلاغة: أن تَقديم ما حقُّه التَّأخيرُ يُفيد الحَصْر والاختِصاص، ومَعلومٌ أن المَفعول به حَقُّه التأخيرُ، فإذا قُدِّم على عامِله أَفاد الاختِصاص والحَصْر، أي: بل اللهَ تعالى وحده فاعبُدْ.

وقوله تعالى: {فَاعْبُدْ} الفاء يَقولون: إنه جِيء بها لتَحسين اللَّفْظ، ولو حُذِفت في غير القُرآن لاستَقام الكلام، لكنها في القرآن لا تُحذَف؛ لأنه نزَل من عند الله تعالى، ولا يُمكِن تَغييرُه، إنما في التَّعبير بمِثْل ذلك يُسمُّون هذه الفاءَ فاءَ التَّزْيين، ولها نَظير مثل قولهم: عِندي كذا وكذا فقَطْ. أي قَطُّ، والفاء زائِدة؛ لتَحسين اللَّفْظ.

قال تعالى: {بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ}: (اعْبُدْ) فِعْل أَمْر أي: تَذلَّل له بفِعْل عِبادة بامتِثال أوامِره واجتِناب نَواهيه.

واعلَمْ أن العِبادة تُطلَق على مَعنَيَيْن:

المَعنَى الأوَّل: التَّعبُّد.

والمَعنَى الثاني: المُتعبَّد به.

أَمَّا التَّعبُّد فمَعناه: التَّذلُّل لله تعالى محَبَّةً وتَعظيمًا، بالقِيام بأَوامِره واجتِناب نَواهِيه، فإذا رأَيْنا شَخْصًا يُصلِّي مثَلًا قلنا: هذا يَتَعبَّد. أي: يَتَذلَّل لله تعالى بفِعْل الصلاة، وتُطلَق على المُتعَبَّد به، أي: على نَفْس المَفعول.

وعرَّفها شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا المَعنَى بقوله: "العِبادة اسمٌ جامِع لكل ما يُحِبُّه الله تعالى ويَرضاه من الأقوال والأعمال الباطِنة والظاهِرة".

وعلى هذا فالصلاةُ نَفسُها نُسمِّيها عِبادة، والصدَقة عِبادة، والصوم عِبادة، والحَجُّ

=

=

عِبادة، وبِرُّ الوالِدَيْن عِبادة، وصِلة الأَرْحام عِبادة، والإحسان إلى الفُقَراء عِبادة، وهكذا.

قوله تعالى: {بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ}: (كُنْ) فِعْل أَمْر، و {مِنَ الشَّاكِرِينَ} أي: مِنَ الذين يَشكُرون الله تعالى.

واعْلَمْ أن (أل) إذا اتَّصَلت بمُشتَقٍّ فإنها تَكون اسْمًا مَوصولًا من أسماء المَوْصول العامَّة، فهي بمَنزِلة (مَن) وبمَنزِلة (ما) إذا اتَّصَلت بمُشتَقٍّ، مثل: الشاكِر والمَشكور والأحسَن وما أَشبَهها؛ فعلى هذا يَكون قوله تعالى: {مِنَ الشَّاكِرِينَ} مُفيدًا للعُموم، أي: من القائِمين بشُكْر الله تعالى، والشُّكْر هو القِيام بطاعة المُنعِم عَقيدةً وقولًا وفِعْلًا، ولهذا قال الشاعِر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

يَعنِي: أنكم مَلَكْتم بإنعامكم عليَّ قلبي ولِساني وجَوارحي.

فإن قال قائِل: هل الشُّكْر هو الحَمْد أو غيرُه؟

فالجَوابُ: بينهما عُموم وخُصوص، يَجتَمِعان فيما إذا كانا في مُقابَلة نِعمة، فإن الحَمْد هو الشُّكْر؛ لأنه ثَناءٌ على الله تعالى باللِّسان، فإذا أكَل الإنسان أو شَرِب فقال: الحَمْد لله تعالى؛ كان بذلك شاكِرًا وحامِدًا، ويَنفَرِد الحمد بوَصْف الله تعالى بالكَمال دون مُقابَلة نِعْمة، فإذا أَثنَيْت على الله تعالى بأنه الحيُّ العَظيم، وما أَشبَهَ ذلك فهو حَمْد، وليس شُكْرًا؛ لأنه ليس في مُقابِل نِعْمة، لكن ربما نَعتَبِره شُكْرًا باعتِبار أنه عِبادة، والقِيام بطاعة المُنعِم من الشُّكْر.

وإذا قُمْتَ بطاعة الله سبحانه وتعالى جَزاءً على نِعْمته ولم يَكُن في ذِهْنك وَصْفه بالكَمال صار ذلك شُكْرًا لا حَمْدًا.

وعلى كل حال: قد يَحصُل انفِراد أحدِهما عن الآخَر، وذلك لأن الثَّناء نفسه وإن لم يَكُن في مُقابَلة نِعْمة يُعتَبر شُكْرًا؛ لأنه قِيامٌ بطاعة المُنعِم.

وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧).

{وَمَا قَدَرُوا الله حَقّ قَدْره} مَا عَرَفُوهُ حَقّ مَعْرِفَته أَوْ مَا عَظَّمُوهُ حَقّ عَظَمَته حِين أَشْرَكُوا بِهِ غَيْره {وَالْأَرْض جَمِيعًا} حَال أَيْ السَّبْع {قَبْضَته} أَيْ مَقْبُوضَة لَهُ أَيْ فِي ملكه وتصرفه {يوم القيامة والسماوات مَطْوِيَّات} مَجْمُوعَات {بِيَمِينِهِ} بِقُدْرَتِهِ {سُبْحَانه وَتَعَالَى عَمَّا يشركون} معه[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: مر يهودي بالنبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: "يا يهودي! حدثنا"؛ فقال: كيف تقول يا أبا القاسم! إذا وضع الله السماوات على ذه، والأرض على ذه، والماء على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه؟ - وأشار أبو جعفر محمد بن الصلت بخنصره أولًا، ثم تابع حتى بلغ الإبهام- فأنزل الله -تعالى-: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)}.

أخرجه أحمد (١/ ٣٢٤)، والترمذي (٣٢٤٠)، والطبري في تفسيره (٢٤/ ١٨)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٤٥)، وابن خزيمة في التوحيد (١٠٦) والحديث قال عنه الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه من حديث بن عباس إلا من هذا الوجه وأبو كدينة اسمه يحيى بن المهلب قال رأيت محمد بن إسماعيل روى هذا الحديث عن الحسن بن شجاع عن محمد بن الصلت، وقال العلامة الألباني في ظلال الجنة (٥٤٥): إسناده ضعيف، وقال صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٣/ ١٧٩) سنده ضعيف عطاء بن السائب اختلط وأبو كدينة روى عنه في الإختلاط، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٥/ ١٢٩): حديث حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف، وقال الشيخ مشهور في تحقيق الموافقات (٤/ =

=

١٦٣): إسناده ضعيف، فيه عطاء بن السائب، وهو مختلط.
وأخرج البيهقي في "الأسماء والصفات" (٢/ ١٧١، ١٧٢ رقم ٧٣٧) من طريق الحسن بن عطية عن يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: أتدري ما سعة جهنم؟ قلت: لا، قال: أجل، والله ما تدري، حدثتني عائشة؛ أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، قال: قلت: فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟! قال: "على جسر جهنم".
وسنده ضعيف؛ رواية جعفر عن سعيد على وجه الخصوص فيها ضعف؛ كما قال ابن منده.
وقد خالف الحسنَ بنَ عطية -وهو صدوق- محمدُ بنُ حميد الرازي؛ فرواه عن يعقوب به مرسلًا لم يذكر ابن عباس.
ومحمد ضعيف بل اتهم بالكذب؛ لكنه لم ينفرد، بل تابعه أبو الربيع الزهراني -وهو ثقة- عند أبي الشيخ في "العظمة" (١/ ٣٦٠، ٣٦١ رقم ٨١)، وعمرو بن رافع -وهو ثقة ثبت- عند ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية" (١٣/ ١٦٣).
وعليه؛ فالصواب في هذا الطريق الإرسال، وهو ضعيف لذلك.
والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢٤٦) وزاد نسبته لابن المنذر.
وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: أتى النبيَّ ﷺ رجل من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم! أبلغك أن الله عَزَّ وَجَلَّ يحمل الخلائق على أصبع، والسماوات على أصبع، والأرض على أصبع، والشجر على أصبع، والثرى كذا على أصبع، قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

=

=

عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)}.

أخرجه أحمد في "المسند" (١/ ٣٧٨)، وابن أبي عاصم في "السنة" (١/ ٢٣٩، ٢٤٠ رقم ٥٤٣، ٥٤٤) -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٤٩) -، وابن خزيمة في "التوحيد" (١/ ١٧٩ رقم ١٠٢)، والدارقطني في "الصفات" (رقم ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٣)، والطبري في "جامع البيان" (٢٤/ ١٨)، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (٢/ ١٦٤ رقم ٧٣٠) من طريق أبي عوانة وأبي معاوية وجرير بن عبد الحميد ومحمد بن فضيل أربعتهم عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود به.

قلنا: وهذا سند صحيح على شرط الشيخين.

وقد أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٨١١، ٧٤١٤، ٧٧١٥، ٧٤٥١)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ٢٧٨٦) من طرق عن ابن مسعود بنحوه ليس فيه التصريح بسبب نزول الآية؛ فتنبه.

وعن الحسن؛ قال: اليهود نظروا في خلق السماوات والأرض والملائكة، فلما زاغوا؛ أخذوا يقدرونه؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢٤٦)، و"لباب النقول" (ص ١٨٦) ونسبه لابن أبي حاتم. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

وعن سعيد بن جبير؛ قال: تكلمت اليهود في صفة الرب، فقالوا بما لم يعلموا ولم يروا؛ فأنزل الله هذه الآية.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤/ ١٩)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"، كما في "لباب النقول" (ص ١٨٦). وهذا سند ضعيف؛ لإرساله.

=

=

وعن الربيع بن أنس: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [البقرة: ٢٥٥] قال: لما نزلت: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}؛ قال أصحاب النبي ﷺ: يا رسول الله! هذا الكرسي وسع السماوات والأرض، فكيف العرش؟! فأنزل الله -تعالى-: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٣/ ٧): حدثت عن عمارة عن ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: أبو جعفر الرازي؛ صدوق سيئ الحفظ.

الثالثه: ابنه عبد الله؛ قال ابن حبان في "ثقاته": "يعتبر به في غير روايته عن أبيه".

الرابعة: الانقطاع بين الطبري وعمارة.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢٤٦)، و"لباب النقول" (ص ١٨٦) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم.

* قوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [الزمّر: ٦٧].

قال السدي: "ما عظموا الله حقّ عظمته".

قال مقاتل: "نزلت في المشركين، يقول: وما عظموا الله حق عظمته".

قال أبو عبيدة: "أي: ما عرفوا الله حقّ معرفته".

قال ابن قتيبة: "أي: ما وصفوه حق صفته ولا عرفوه حق معرفته. يقال: قدرت الشيء وقدرته. وقدرت فيك كذا وكذا، وقدرته".

قال سهل: "أي: ما عرفوه حق معرفته في الأصل والفرع".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وما عظَّم الله حقّ عظمته، هؤلاء المشركون بالله، الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان".

=

=

قال ابن كثير:"يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته".

قال السعدي:"يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك، من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا يملك من الأمر شيئا. فسووا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم".

عن ابن عباس، قوله: " {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ}، قال: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حقّ قدره، ومن لم يؤمن بذلك، فلم يقدر الله حقّ قدره".

قوله تعالى: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الزمّر: ٦٧]، أي: الذي من عظيم قدرته أن جميع الأرض في قبضته يوم القيامة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والأرض كلها قبضته في يوم القيامة".

قال السعدي: أي:"الذي من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن".

عن ابن عباس، قوله: {الأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}:"يقول: قد قبض الأرضين والسموات جميعا بيمينه. ألم تسمع أنه قال: {مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} يعنى: الأرض والسموات بيمينه جميعا، قال ابن عباس: وإنما يستعين بشماله المشغولة يمينه".

قال ابن عباس:"ما السموات السبع، والأرضون السبع في يد الله إلا كخردلة في يد أحدكم".

=

=

وقال الحسن:"كأنها جوزة بقضها وقضيضها".

قال الضحاك:"السموات والأرض مطويات بيمينه جميعا".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: {مطويات بيمينه} [الزمر: ٦٧] قال: " إذا كان يوم القيامة طوى الله السموات بيمينه والأرض بقبضته، ثم يقول: لي الملك، أين ملوك الأرض؟".

عن ابن عمر:"أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، يحركها يقبل بها ويدبر: "يمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم". فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: لَيَخِرَّن به".

عن عبد الله بن مسعود قال: "جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد: إنا نجد أن الله ﷻ يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} الآية".

عن ابن عباس، عن عائشة قالت:"سألت رسول الله ﷺ، عن قوله (وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، فأين الناس يومئذ؟ قال: «عَلى الصِّراطِ»".

قوله تعالى: {وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} [الزمّر: ٦٧]، أي:"والسموات مطويات بيمينه".

قال السعدي: أي:"وأن السماوات- على سعتها وعظمها- مطويات بيمينه، فلا عظمه حق عظمته من سوَّى به غيره، ولا أظلم منه".

=

=

عن الضحاك:"{وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}،، قال: كلهن بيمينه".

عن ربيعة الجُرْسي، قال: " {وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}، قال: ويده الأخرى خلو ليس فيها شيء".

عن شيبان النحوي:"{وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة} قال: لم يفسرها قتادة".

قوله تعالى: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمّر: ٦٧]، أي:"تنزه وتعاظم سبحانه وتعالى عما يشرك به هؤلاء المشركون".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره تنزيها وتبرئة لله، وعلوا وارتفاعا عما يشرك به هؤلاء المشركون من قومك يا محمد، القائلون لك: اعبد الأوثان من دون الله، واسجد لآلهتنا".

قال السعدي:"أي: تنزه وتعاظم عن شركهم به".

عن ميمون بن مهران: {سبحان الله}: اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء".

عن الحسن قال: " {سبحان الله}: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه".

قال ابن كثير:"وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف".

قال العثيمين: قوله تعالى: {مَا} نافية، و {قَدَرُوا} بمَعنَى: عظَّموا، ولَفْظ الجلالة مَفعول لـ (قَدَروا)، و {حَقَّ قَدْرِهِ} مَفعولٌ مُطلَق؛ لأنه أُضيف إلى المَصدَر، والمُضاف إلى المَصدَر يُسمَّى مَفعولًا مُطلَقًا؛ لأنه بمَنزِلة المَصدَر، وعلى هذا فنَقول: {حَقَّ قَدْرِهِ} أي: حقَّ تَعظيمه.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ما عرَفوه حَقَّ مَعرِفته، أو ما عظَّموه حقَّ عظَمَته حين أَشرَكوا به

=

غيرَه]، والصَّواب: الثاني: أن المَعنَى: ما عظَّموه حقَّ عظَمته حين أَشرَكوا به غيره، لأن من عَظَّم الله تعالى حقَّ تَعظيمه لا يُمكِن أن يُشرِك به أحَدًا.

ودليلُ ذلك: أن هؤلاءِ عرَفوا الله تعالى كما في قوله تعالى {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ} [الزخرف: ٨٧]، وقوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ} [الزمر: ٣٨]، لكن لم يُعظِّموا مَن عرَفوه حقَّ تَعظيمه، وهذا هو الذي نَفاه الله تعالى هنا.

ثُمَّ قال تعالى: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} الواو للحال، ويَجوز أن تكون استِئْنافية؛ لبيان عظَمة الله تعالى.

وقوله تعالى: {الْأَرْضُ} مُبتَدَأ، و {جَمِيعًا} حال، و {قَبْضَتُهُ} خبَر المُبتَدَأ؛ يَعنِي: أن الأرض كلَّها جميعًا- كل الأرَضين السَّبْع- تَكون يوم القيامة قَبْضتَه؛ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{وَالْأَرْضُ جَمِيعًا} حال؛ أيِ: السَّبْع]، فقوله تعالى: {جَمِيعًا} حال من {الْأَرْضُ}.

وبهذا نَعرِف أنه يَجوز مجَيءُ الحال من المُبتَدَأ قبل الإتيان بالخَبَر، فتَقول مثَلًا: زيدٌ قائِمًا خيرٌ منه قاعِدًا.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: [{وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ} أي: مَقبوضةٌ له، أي: في مُلْكه وتَصرُّفه] فسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ القَبْض بمَعنى المُلْك والتَّصرُّف، وفي هذا نظَرٌ ظاهِر، بل هذا تَحريف؛ لأن المُلْك والتَّصرُّف كل شيء في مُلكه وتَصرُّفه الأرض والسماء يومَ القيامة وقبلَ يوم القيامة، لكن القَبضة بمَعنَى: المَقبوضة التي تكون في اليَدِ تُحيط بها اليد.

فيُقال مثَلًا: قبضةٌ من طعام؛ بمَعنَى أن الإنسان يَقبِض الطعام بيَدِه، فالأرض يوم القِيامة قَبْضة الله عَزَّ وَجَلَّ، وقد جاء ذلك مُبيَّنًا في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قِصَّة النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع حَبْرٍ من أحبار اليَهود أن الله تعالى يَجعَل الأرض على إِصبَع

=

والشجَر على إِصبَع والجِبال على إِصبَع ... إلخ.

فالصوابُ المُتعيَّن: أن يُقال: المُراد بالقَبْضة أنها في قَبْضة يَدِه ﷻ.

فإن قال قائِل: وهل يَجوز لنا أن نُمثِّل هذه القَبضةَ بحيث نَأخُذ تَمرةً أو تُفَّاحة ونَضَعها في أيدينا، ونَقول: قَبْضَتُه ثُم نَقبِض على التُّفَّاحة أو التَّمرة؟

الجَوابُ: لا؛ لأنَّنا لو فعَلْنا ذلك لكان هذا تَمثيلًا لقَبْضة الله ﷻ للأرض، وهذا لا يَجوز، أمَّا أن نُبيِّن مَعنَى القبضة فلا بأسَ بأن نَقول: القبضة هي وَضْع الشيء في اليد ثُمَّ قَبْضه بها، لكن نُكيِّف كيف قبَضَ الله ﷻ على الأرض، هذا خِلاف مُعتَقَدِ أهل السُّنَّة والجماعة، كما هو معروف.

فإن قال قائِل: إن الرسول ﷺ عندما قرَأَ قوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ١٣٤] وَضَع إِصبَعه على عَيْنه وأُذُنه ، فهل يَجوز مثل هذا في قوله تبارك وتعالى: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ} ؟

فالجَوابُ: الجمع بينهما أن ما جاءت به السُّنَّة نَأخُذ به، وما لا فالأصل المَنْع، فأنت إذا قبضت شيئًا بيدك، فواضِح أنك كيَّفْت، لكن نَقول: {قَبْضَتُهُ}: أن تَكون هذه الأرضُ جميعًا في يدِ الله ﷻ، أمَّا (كيف) فاللهُ تعالى أَعلَمُ.

فيَجِب أن نَعلَم أن الرسول ﷺ فعَل هذا تَحقيقًا لا تَكييفًا، فهو يُحقِّق مَعنَى السمع والبصَر، سَمْع وبَصَر حَقيقيٌّ.

وعلى كل حال: نَقتَصِر في هذا على ما ورَد مهما كان الأمرُ.

ومثل هذا في صِفة الطَّي والقبض، فنَقول: يَطوِي ويَقبِض، والله تعالى يَقدِر ويَبسُط، كما في قوله تعالى.

فإن قال قائِل: ما حُكْم مَن يَقول: (بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِن أَصابِعِ الرَّحْمَنِ) فيُشِير بإِصْبعيه؟

فالجَوابُ: هو لا يَستَطيع أن يُحدِّد أيَّ الأصابع، ثُمَّ إذا أَشار فقد يَفهَم الرائِي أن

=

أصابع الرحمن ﷻ مُباشِرة للقَلْب، وليس كذلك، فالقلب بين إِصْبَعين من أصابع الرحمن ، لكن لا نَقول: إنه مُباشِر.

فإذا قال قائِل: كيف يُعقَل أن يَكون القلب بين إِصبَعين من أصابع الرحمن بدون مُباشَرة؟

قلنا: استَمِع لقول الله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} إلى قوله: {وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٦٤]، السَّحاب مُسخَّر بين السماء والأرض، فهل هو مُباشِر للسماء والأرض؟

الجوابُ: لا، فلا يَلزَم من البَينية المُباشَرة، فلا يَجوز أن يُعيِّن إصبَعين، لأنه إذا فعَل لزِم من ذلك أنه جزَم بأنه بين هذَيْن الإِصبَعين.

وقوله تعالى: {يَوْمَ الْقِيَامَةِ} ظَرْف للقَبْضة، أي: أنها تَكون قبضةً له يوم القِيامة، ويوم القِيامة هو اليوم الذي يُبعَث الناسُ من قبورهم لله ﷻ، وسُمِّيَ بهذا الاسمِ لوجوهٍ ثلاثةٍ: لقيام الناس من قُبورهم لربِّ العالَمين؛ ولإقامة العَدْل؛ ولقِيام الأشهاد؛ لقوله تعالى: {وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: ٥١].

وقوله تعالى: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ} قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مجَموعات بيَمينِه وقُدْرته].

قوله تعالى: {وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ} الطَّيُّ مَعروف: عَطْف الثَّوْب بعضِهِ على بعضٍ يُسمَّى: طيًّا، ومنه طيُّ الورَقة، فإذا فرَغ الكاتِب منها طواها، يَعنِي: عطَف بعضَها على بعضٍ، وقد شبَّه الله ﷻ طيَّه للسَّموات بطيِّ السِّجِلِّ للكتُب، فقال جَلَّ وَعَلَا: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ} [الأنبياء: ١٠٤]، فتَبارَك اللهُ ربُّ العالَمين!.

فهذه السماءُ العَظيمة الواسِعة الأَرْجاء التي ورَد أن سُمْكها خَمسُ مئة عامٍ، يَطوِي

=

الله ﷻ هذه السمواتِ كما يَطوِي السجِلُّ الكتُبَ، أو كما يُطوَى السجلُّ الكتُبَ {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ} يَعني: كما يَطوِي السجِلُّ وهو كاتِب القاضي، أو كما يُطوى السجِلُّ الذي تُكتَب به القضايا، فالطيُّ مَعروف قُلنا: إنه عَطْف الثوب بعضِه على بعضٍ، أو الورَقة، وما أَشبَه ذلك.

وقوله تعالى: {وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ} أَتَى بصيغة اسم المَفعول للعِلْم بالطاوِي وهو الله سبحانه، كما تُفسِّره الآياتُ الأخرى {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مَطْوِيَّاتٌ} مَجموعاتٌ] وهذا فيه نظَر؛ لأننا: نَقول هي مجَموعةٌ طيًّا، وإذا فسَّرْناها بالمَجموعات فإننا لم نُفسِّر تَفسيرًا دقيقًا؛ لأن الشيء قد يَكون مَجموعًا بلا طيٍّ، ولكن إذا كان مَطويًّا فهذا مَعنًى زائِدٌ على مُجرَّد الجَمْع، فالصواب أن يُقال: {مَطْوِيَّاتٌ} أي: مَلفوفٌ بعضُها إلى بعضٍ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} بقُدْرته] وهذا تَحريف على مَذهَب مَن لا يُؤمِنون بصِفات الله سبحانه وتعالى الخبَرية، والصوابُ: أن المُراد باليَمين اليدُ اليُمنَى يَطويها جَلَّ وَعَلَا بيَدِه اليُمنى.

فإن قال قائِل: إنه وَصْف في السُّنَّة أن كِلتا يدَيِ الله ﷻ يَمين، فما فائِدة ذِكْره في الآيةِ: {وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}؟

فالجَوابُ: كما تَقدَّم وقُلْنا: لله تعالى يَدٌ يمين ويدٌ شِمال، لكن الرسول ﷺ قال: "كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ"، يَعنِي: من اليُمن وهو البركة؛ ولدَفْع تَوهُّم أن تكون اليد الأُخرى ناقِصةً؛ لأن اليَدَ الشِّمال بالنِّسبة لنا ناقِصة عن اليَد اليمين، وقد أَفتَى شيخ الإسلام مُحمَّدُ بنُ عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ في آخِر (كتاب التوحيد) فقال: وفيه التصريح بالشِّمال لله ﷻ.

قوله تعالى: {سُبْحَانَهُ} اسمُ مَصدَر، وفِعْله: سبَّح، والمَصدَر: تَسبيحٌ، واسمُ

=

=

المَصدَر: سُبحانَ، وهو مَنصوب على المَفْعولية المُطلَقة دائِمًا، ومُلازِم للإضافة غالِبًا.

وعلى هذا فلا يُخطِئ المَرء في إعرابه؛ فيُعرِبه دائمًا على أنه مَفعول مُطلَق لفِعْلٍ مَحذوف، والتَّقدير: يُسبِّح تَسبيحًا.

وقوله تعالى: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي: تَنزيهًا له، فقَدْ فسَّرْنا كلمة التَّسبيح من حيث التَّصريف، أمَّا مَعنَى التسبيح: التَّنزيه؛ لأنه مِن سبَح يَسبَح إذا بَعُد في الماء، فالتَّنزيهُ: الإبعاد عن السُّوء؛ وعلى هذا فمَعنَى: (سُبحانَ اللهِ) أي: تَنزيهًا له، ويُنَزَّه الله تعالى عن شيئين:

١- عن مُماثَلة المَخلوق.

٢- وعن كل نَقْص وعَيْب في صِفاته.

فمثَلًا: قُدْرته مُنَزَّهة عن العَجْز، وعِلْمه مُنزَّهٌ عن الجَهْل والنِّسْيان، وقوَّتُه مُنزَّهة عن الضَّعْف، ويَدُه مُنزَّهة عن مُماثلة المَخلوقين، ووجهُه كذلك، وهلُمَّ جَرًّا.

الخُلاصةُ: أن تَنزيه الله ﷻ يَعود إلى شيئين:

الأوَّل: مُماثَلة المَخلوق.

والثاني: العَيْب والنَّقْص.

والدليلُ على أن الله تعالى مُنزَّهٌ عن النَّقْص: قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، وقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} [النحل: ٦٠]، وقوله تعالى: {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [ق: ٣٨]، أي: من تعَبٍ وإِعياءٍ.

والدليل على تَنزُّهِه عن المُماثَلة قولُه تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١].

مَسألَةٌ: لماذا قُلْنا: "يُنزَّه الله تعالى عن كل نَقْص وعن المُماثَلة" أليسَتِ المُماثلة نقصًا؟

=

=

فالجَواب: أن النقص شيء والمُماثَلة شيء آخَرُ، مثَلًا: لله تعالى القُدْرة، فنَقول: ليسَت كقُدْرة المَخلوق، لكن لا يُمكِن أن يَلحَقها النقصُ.

إذَنْ: لا بُدَّ أن نَقول: "عن كل نَقْص"، فلا يَكفِي نفيُ المُماثَلة، ربما يُغنِي قولُنا: (عن كل نَقْص) عن نفي المُماثَلة؛ لأن المُماثَلة نَقْص، لكن نَقول: إذا كان الله تعالى قد نصَّ على ذلك فقال: {فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]؛ فيَنبَغي أن نُنَبِّهَ عليه.

وقوله تعالى: {وَتَعَالَى} أي: تَرفَّع لعظَمته.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: {عَمَّا يُشْرِكُونَ}] أي: عمَّا يُشرِكون معَه، ولا شكَّ أن هذا هو الواقِعُ. ا.هـ

مسألة: ذكر صفة اليدين.

اليدان صفةٌ ذاتيةٌ خبريَّةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، نثبتها كما نثبت باقي صفاته تعالى؛ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، وهي ثابتةٌ بالكتاب والسنة.

الدليل من الكتاب:

١- قوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة: ٦٤].

٢- وقوله: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥].

الدليل من السنة:

١- حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إنَّ الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها).

٢- حديث الشفاعة، وفيه: (... فيأتونه فيقولون: يا آدم! أنت أبو البشر؛ خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه...).

=

=

٣- حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (إنَّ الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك...).

٤- حديث: (يد الله ملأى لا يغيضها نفقة... وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع).

قال إمام الأئمة ابن خزيمة في كتاب التوحيد (ص١٩٢): تدبروا يا أولي الألباب ما نقوله في هذا الباب، في ذكر اليدين: كنحو قولنا في ذكر الوجه، والعينين تستيقنوا بهداية الله إياكم، وشرحه جل وعلا صدوركم للإيمان بما قصه الله جل وعلا، في محكم تنزيله ، وبينه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من صفات خالقنا عز وجل ، وتعلموا بتوفيق الله إياكم أن الحق والصواب والعدل في هذا الجنس مذهبنا مذهب أهل الآثار، ومتبعي السنن، وتقفوا على جهل من يسميهم مشبهة، إذ الجهمية المعطلة جاهلون بالتشبيه نحن نقول: لله جل وعلا يدان كما أعلمنا الخالق البارئ في محكم تنزيله ، وعلى لسان نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ونقول: كلتا يدي ربنا عز وجل يمين، على ما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ونقول: إن الله عز وجل يقبض الأرض جميعا بإحدى يديه، ويطوي السماء بيده الأخرى، وكلتا يديه يمين، لا شمال فيهما، ونقول: من كان من بني آدم سليم الأعضاء والأركان ، مستوي التركيب ، لا نقص في يديه، أقوى بني آدم ، وأشدهم بطشا له يدان عاجز عن أن يقبض على قدر أقل من شعرة واحدة، من جزء من أجزاء كثيرة، على أرض واحدة من سبع أرضين؟ ولو أن جميع من خلقهم الله من بني آدم إلى وقتنا هذا، وقضى خلقهم إلى قيام الساعة لو اجتمعوا على معونة بعضهم بعضا ، وحاولوا على قبض أرض واحدة من الأرضين السبع بأيديهم كانوا عاجزين عن ذلك غير مستطيعين له، وكذلك لو اجتمعوا جميعا على طي جزء من أجزاء سماء واحدة لم يقدروا على ذلك، ولم يستطيعوا ، وكانوا عاجزين عنه، فكيف يكون- يا ذوي الحجا- من وصف يد

=

=

خالقه بما بينا من القوة والأيدي، ووصف يد المخلوقين بالضعف والعجز مشبها يد الخالق بيد المخلوقين؟ أو كيف يكون مشبها من يثبت أصابع على ما بينه النبي المصطفى ﷺ للخالق البارئ؟ ونقول: إن الله جل وعلا يمسك السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، تمام الحديث ونقول: إن جميع بني آدم منذ خلق الله آدم إلى أن ينفخ في الصور لو اجتمعوا على إمساك جزء من أجزاء كثيرة من سماء من سماواته ، أو أرض من أراضيه السبع بجميع أبدانهم كانوا غير قادرين على ذلك، ولا مستطيعين له، بل عاجزين عنه، فكيف يكون من يثبت لله ﷻ يدين على ما ثبته الله لنفسه ، وأثبته له ﷺ مشبها يدي ربه بيدي بني آدم؟ نقول: لله يدان مبسوطتان، ينفق كيف يشاء بهما خلق الله آدم عليه السلام ، وبيده كتب التوراة لموسى عليه السلام، ويداه قديمتان لم تزالا باقيتين، وأيدي المخلوقين محدثة غير قديمة ، فانية غير باقية، بالية تصير ميتة ، ثم رميما، ثم ينشئه الله خلقا آخر {تبارك الله أحسن الخالقين} ، فأي تشبيه يلزم أصحابنا:- أيها العقلاء- إذا أثبتوا للخالق ما أثبته الخالق لنفسه ، وأثبته له نبيه المصطفى ﷺ وقول هؤلاء المعطلة يوجب أن كل من يقرأ كتاب الله ، ويؤمن به إقرارا باللسان وتصديقا بالقلب فهو مشبه، لأن الله ما وصف نفسه في محكم تنزيله بزعم هذه الفرقة ومن وصف يد خالقه فهو: يشبه الخالق بالمخلوق، فيجب على قود مقالتهم: أن يكفر بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ عليهم لعائن الله؛ إذ هم كفار منكرون لجميع ما وصف الله به نفسه في كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ غير مقرين بشيء منه، ولا مصدقين بشيء منه نقول: لو شبه بعض الناس: يد قوي الساعدين شديد البطش، عالم بكثير من الصناعات، جيد الخط ، سريع الكتابة، بيد ضعيف البطش، من الآدميين، خلو من الصناعات والمكاسب، أخرق، لا يحسن أن يخط بيده كلمة واحدة، أو شبه يد من ذكرنا أولا بالقوة والبطش الشديد، بيد صبي في المهد، أو

=

=

كبير هرم، يرعش، لا يقدر على قبض ، ولا بسط ، ولا بطش أو نقول له: يدك شبيهة بيد قرد، أو خنزير، أو دب، أو كلب، أو غيرها من السباع، أما ما يقوله سامع هذه المقالة- إن كان من ذوي الحجا والنهى -: أخطأت يا جاهل التمثيل، ونكست التشبيه، ونطقت بالمحال من المقال، ليس كل ما وقع عليه اسم اليد جاز أن يشبه ويمثل إحدى اليدين بالأخرى، وكل عالم بلغة العرب، فالعلم عنده محيط: أن الاسم الواحد قد يقع على الشيئين مختلفي الصفة، متبايني المعاني ، وإذا لم يجز إطلاق اسم التشبيه، إذا قال المرء لابن آدم، وللقرد يدان، وأيديهما مخلوقتان، فكيف يجوز أن يسمى مشبها من يقول لله يدان، على ما أعلم في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ ، ونقول: لبني آدم يدان ، ونقول: ويدا الله بهما خلق آدم، وبيده كتب التوراة لموسى عليه السلام، ويداه مبسوطتان، ينفق كيف يشاء ، وأيدي بني آدم مخلوقة على ما بينت وشرحت قبل: في باب الوجه والعينين ، وفي هذا الباب وزعمت الجهمية المعطلة: أن معنى قوله: {بل يداه مبسوطتان} [المائدة: ٦٤] أي نعمتاه، وهذا تبديل ، لا تأويل ، والدليل على نقص دعواهم هذه أن نعم الله كثيرة ، لا يحصيها إلا الخالق البارئ، ولله يدان لا أكثر منهما ، كما قال لإبليس عليه لعنة الله: {ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي} [ص: ٧٥]، فأعلمنا جل وعلا أنه خلق آدم بيديه، فمن زعم أنه خلق آدم بنعمته كان مبدلا لكلام الله، وقال الله ﷻ: {والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه}، أفلا يعقل أهل الإيمان أن الأرض جميعا لا تكون قبضة إحدى نعمتيه يوم القيامة، ولا أن السموات مطويات بالنعمة الأخرى ألا يعقل ذوو الحجا من المؤمنين أن هذه الدعوى التي يدعيها الجهمية جهل، أو تجاهل شر من الجهل، بل الأرض جميعا قبضة ربنا جل وعلا، فإحدى يديه يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه وهي: اليد الأخرى، وكلتا يدي ربنا يمين، لا شمال فيهما جل ربنا وعز أن يكون له

=

=

يسار؛ إذ كون إحدى اليدين يسارا إنما يكون من علامات المخلوقين، جل ربنا وعز عن شبه خلقه، وافهم ما أقول من جهة اللغة تفهم وتستيقن أن الجهمية مبدلة لكتاب الله، لا متأولة قوله ، بل يداه مبسوطتان ، لو كان معنى اليد النعمة كما ادعت الجهمية لقرئت: بل يداه مبسوطة، أو منبسطة، لأن نعم الله أكثر من أن تحصى، ومحال أن تكون نعمة نعمتين لا أكثر فلما قال الله ﷻ: {بل يداه مبسوطتان} [المائدة: ٦٤]، كان العلم محيطا أنه ثبت لنفسه يدين لا أكثر منهما، وأعلم أنهما مبسوطتان ينفق كيف يشاء والآية دالة أيضا على أن ذكر اليد في هذه الآية ليس معناه النعمة، فقد حكى الله جل وعلا قول اليهود ، فقال: {وقالت اليهود يد الله مغلولة} [المائدة: ٦٤] ، فقال الله ﷻ ردا عليهم: {غلت أيديهم} [المائدة: ٦٤] ، وقال: {بل يداه مبسوطتان} [المائدة: ٦٤]، وبيقين يعلم كل مؤمن: أن الله لم يرد بقوله: {غلت أيديهم} [المائدة: ٦٤] أي غلت نعمهم، ولا اليهود أرادوا أن نعم الله مغلولة ، وإنما رد الله عليهم مقالتهم ، وكذبهم في قولهم {يد الله مغلولة} [المائدة: ٦٤] وأعلم المؤمنين أن يديه مبسوطتان، ينفق كيف يشاء، وقد قدمنا ذكر إنفاق الله ﷻ بيديه في خبر همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «يمين الله ملأى سحاء لا يغيضها نفقة» فأعلم النبي ﷺ أن الله ينفق بيمينه، وهما يداه التي أعلم الله أنه ينفق بهما كيف يشاء وزعم بعض الجهمية: أن معنى قوله: «خلق الله آدم بيديه» أي بقوته، فزعم أن اليد هي القوة، وهذا من التبديل أيضا، وهو جهل بلغة العرب، والقوة إنما تسمى الأيد بلغة العرب، لا اليد، فمن لا يفرق بين اليد والأيد فهو إلى التعليم والتسليم إلى الكتاتيب أحوج منه إلى الترؤس والمناظرة ا. هـ

وقال أبو بكر الإسماعيلي في اعتقاد أئمة الحديث (ص ٥١): وخلق آدم عليه السلام بيده، ويداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، بلا اعتقاد كيف يداه، إذ لم ينطق كتاب الله

=

=

تعالى فيه بكيف ا. هـ

وقال أبو الحسن الأشعري في رسالة إلى أهل الثغر (ص ٢٢٥): (وأجمعوا على أنه ﷻ يسمع ويرى، وأنَّ له تعالى يدين مبسوطتين) اهـ.

وقال قَوَّام السُّنَّة الأصبهاني في الحجة (١/ ١٨٥): (فصل: في إثبات اليد لله تعالى صفة له)، ثم أورد بعض الآيات التي تدل على ذلك، ثم قال: (ذكر البيان من سنة النبي ﷺ على إثبات اليد موافقًا للتَنْزيل) ثم أورد أحاديث بسنده تدل على ذلك. اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ١٧١): ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مئة موضع ورودا متنوعا متصرفا فيه، مقرونا بما يدل على أنها يد حقيقية؛ من الإمساك، والطي، والقبض، والبسط... وأخذ الصدقة بيمينه... وأنه يطوي السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى... اهـ.

وقال الشنقيطي في أضواء البيان (٥/ ٧٨): وسنذكر هنا إن شاء الله أن أئمة المتكلمين المشهورين رجعوا كلهم عن تأويل الصفات أما كبيرهم الذي هو أفضل المتكلمين المنتسبين غلى أبي الحسن الأشعري، وهو القاضي محمد بن الطيب المعروف بأبي بكر الباقلاني، فإنه كان يؤمن بالصفات على مذهب السلف ويمنع تأويلها منعًا باتًا، ويقول فيها بمثل ما قدمنا عن الأشعري. وسنذكر لك هنا بعض كلامه. قال الباقلاني المذكور في كتاب التمهيد ما نصه: باب في أن لله وجهًا ويدين، فإن قال قائل. فما الحجة في أن لله ﷻ وجهًا ويدين؟ قيل له قوله: {ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام} [الرحمن: ٢٧]. وقوله: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥]. فأثبت لنفسه وجهًا ويدين. ثم قال أيضا: واعلم أن إمام الحرمين، أبا المعالي الجويني، كان في زمانه من أعظم أئمة القائلين بالتأويل،

=

=

وقد قرر التأويل وانتصر له في كتابه الإرشاد. ولكنه رجع عن ذلك في رسالته العقيدة النظامية ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكذلك أبو حامد الغزالي، كان في زمانه من أعظم القائلين بالتأويل ثم رجع عن ذلك، وبين أن الحق الذي لا شك فيه هو مذهب السلف. وقال في كتابه: إلجام العوام عن علم الكلام: اعلم أن الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر، هو مذهب السلف أعني الصحابة والتابعين، ثم قال: إن البرهان الكلي على أن الحق في مذهب السلف وحده ينكشف بتسليم أربعة أصول مسلمة عند كل عاقل.

ثم بين أن الأول من تلك الأصول المذكورة أن النبي ﷺ هو أعرف الخلق بصلاح أحوال العباد في دينهم ودنياهم.

الأصل الثاني: أنه بلغ كلما أوحى إليه من صلاح العباد في معادهم ومعاشهم، ولم يكتم منه شيئًا.

الأصل الثالث: أن أعرف الناس بمعاني كلام الله وأحراهم بالوقوف على أسراره هم أصحاب رسول الله ﷺ الذين لازموه وحضروا التنزيل وعرفوا التأويل.

والأصل الرابع: أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في طول عصرهم إلى آخر أعمارهم ما دعوا الخلق إلى التأويل، ولو كان التأويل من الدين أو علم الدين لأقبلوا عليه ليلًا ونهارًا ودعوا إليه أولادهم وأهلهم. ثم قال الغزالي: وبهذه الأصول الأربعة المسلمة عند كل مسلم نعلم بالقطع أن الحق ما قالوه والصواب ما رأوه.

مسألة: يؤمن أهل السنة والجماعة أنَّ لله عَزَّ وَجَلَّ يدين، وأنَّ إحدى يديه يَمِين؛ فهل الأخرى توصف بالشِّمال؟ أم أنَّ كلتا يديه يَمِين؟.

هذه مسألة خلافية وإذا كانت المسألة خلافية فلا ينبغي أن تكون المخالفة فيها مثارًا للنزاع واللجاج وممن أثبت الشمال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي، وأبو يعلى الفراء، ومحمد بن عبد الوهاب، وصديق حسن خان، ومحمد خليل هرَّاس،

=

=

وعبدالله الغنيمان وغيرهم وممن قال كلتا يديه يمين الإمام أحمد وابن خزيمة، والبيهقي، والألباني وغيرهم وقد سئل العلامة الألباني-رَحِمَهُ اللهُ- في مجلة الأصالة (ع٤، ص ٦٨): كيف نوفِّق بين رواية: (بشماله) الواردة في حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في صحيح مسلم وقوله ﷺ: (وكلتا يديه يَمِين)؟

فأجاب: لا تعارض بين الحديثين بادئ بدء؛ فقوله ﷺ: (٠٠٠ وكلتا يديه يَمِين): تأكيد لقوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)

فهذا الوصف الذي أخبر به رسول الله ﷺ تأكيدٌ للتنْزيه، فيدُ الله ليست كيدِ البشر: شمال ويَمِين، ولكن كلتا يديه سبحانه يَمِين.

وأمر آخر؛ أنَّ رواية: (بشماله): شاذة؛ كما بيَّنتها في (تخريج المصطلحات الأربعة الواردة في القرآن) (رقم ١) للمودودي. ويؤكد هذا أنَّ أبا داود رواه وقال: (بيده الأخرى)، بدل: (بشماله)، وهو الموافق لقوله ﷺ: (وكلتا يديه يَمِين)، والله أعلم.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه عن: كيف نجمع بين قول النبي ﷺ: " المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين " وبين قوله ﷺ: " ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله"؟

فأجاب: كلمة " بشماله " اختلف فيها الرواة: فمنهم من أثبتها، ومنهم من أنكرها وقال لا تصح عن رسول الله ﷺ وأصل هذه التخطئة هو ما ثبت في صحيح مسلم أن الرسول ﷺ قال: " المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين". وهذا يقتضي أنه ليس هناك يد يمين ويد شمال. ولكن قد روى مسلم في صحيحه إثبات الشمال لله تعالى فإذا كانت محفوظة فهي عندي لا تنافي "كلتا يديه يمين" لأن المعنى أن اليد الأخرى ليست كيد الشمال بالنسبة للمخلوق ناقصة عن اليد اليمنى، فقال: " كلتا يديه يمين " أي ليس فيهما نقص. فلما كان

=

=

الوهم ربما يذهب إلى أن إثبات الشمال يعني النقص في هذه اليد دون الأخرى قال: " كلتا يديه يمين" ويؤيده قوله: " المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن" فإن المقصود بيان فضلهم ومرتبتهم وأنهم على يمين الرحمن سبحانه. وعلى كل فإن يديه سبحانه اثنتان بلا شك، وكل واحدة غير الأخرى وإذا وصفنا اليد الأخرى بالشمال فليس المراد أنها أنقص من اليد اليمنى بل كلتا يديه يمين. والواجب علينا أن نقول: إن ثبتت عن رسول الله ﷺ نؤمن بها، وإن لم تثبت فنقول: كلتا يديه يمين.

مسألة: صفة القبض والحثو.

القبض والطي صفتان فعليتان خبريتان لله ﷻ، ثابتتان بالكتاب والسنة، و (القابض) من أسماء الله تعالى.

قال الإمام ابن خزيمة في كتاب التوحيد (ص١٩٢) :... ونقول: إن الله ﷻ يقبض الأرض جميعا بإحدى يديه، ويطوي السماء بيده الأخرى، وكلتا يديه يمين، لا شمال فيهما.... ا.هـ

وقال أبو يعلى الفراء في إبطال التأويلات (ص ١٦٨) بعد ذكر حديث: (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها...: اعلم أنه غير ممتنع إطلاق القبض عليه سبحانه، وإضافتها إلى الصفة التي هي اليد التي خلق بها آدم؛ لأنه مخلوق باليد من هذه القبضة، فدل على أنها قبضة باليد، وفي جواز إطلاق ذلك أنه ليس في ذلك ما يحيل صفاته ولا يخرجها عما تستحقه. اهـ.

وقال الشيخ عبد الله الغنيمان في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ١٤٠) : قوله: (يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه) : القبض: هو أخذ الشيء باليد وجمعه، والطي: هو ملاقاة الشيء بعضه على بعض وجمعه، وهو قريب من القبض. وهذا من صفات الله تعالى الاختيارية، التي تتعلق

=

=

بمشيئته وإرادته، وهي ثابتة بآيات كثيرة وأحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ، وهي مما يجب الإيمان به؛ لأن ذلك داخل في الإيمان بالله تعالى، ويحرم تأويلها المخرج لمعانيها عن ظاهرها، وقد دل على ثبوتها لله تعالى العقل أيضا؛ فإنه لا يمكن لمن نفاها إثبات أن الله هو الخالق لهذا الكون المشاهد؛ لأن الفعل لابد له من فاعل، والفاعل لابد له من فعل، وليس هناك فعل معقول إلا ما قام بالفاعل، سواء كان لازما كالنزول والمجيء، أو متعديا كالقبض والطي؛ فحدوث ما يحدثه تعالى من المخلوقات تابع لما يفعله من أفعاله الاختيارية القائمة به تعالى؛ وهو تعالى حي قيوم، فعال لما يريد، فمن أنكر قيام الأفعال الاختيارية به تعالى فإن معنى ذلك أنه ينكر خلقه لهذا العالم المشاهد وغير المشاهد، وينكر قوله: {إنه على كل شيء قدير} ؛ فالعقل دل على ما جاء به الشرع. وما صرح به في هذا الحديث من القبض والطي، قد جاء صريحا أيضا في كتاب الله تعالى؛ كما قال تعالى: {وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون} ، والأحاديث والآثار عن السلف في صريح الآية والحديث المذكور في الباب كثيرة وظاهرة جلية لا تحتمل تأويلا ولا تحتاج إلى تفسير، ولهذا صار تأويلها تحريفا وإلحادا فيها. اهـ.

مسألة: الحثو صفة فعلية خبرية ثابتة لله ﷻ بالسنة الصحيحة.

والدليل: حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه مرفوعا: (وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفا، وثلاث حثيات من حثيات ربي). حديث صحيح، وحديث حديث عامر بن زيد البكالي عن عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن ربي وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفا بغير حساب، ثم يتبع كل ألف سبعين ألفا، ثم يحثي بكفه ثلاث حثيات، فكبر عمر، وحديث أبي سعيد الأنماري الخير رضي الله عنه مرفوعا:

=

=

(إن ربي وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا بغير حساب، ويشفع لكل ألف سبعين ألفا، ثم يحثي ربي ثلاث حثيات بكفيه.

وقد أورد الدارمي في حديث عتبة وأبي سعيد في موطن الرد على المريسي في طعنه إثبات صفة اليد والكف لله ﷻ.

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٧/ ١٢٩) عند شرحه لحديث أبي أمامة المتقدم: (ثلاث حثيات) ؛ بفتح الحاء والمثلثة، جمع حثية، والحثية والحثوة يستعمل فيما يعطيه الإنسان بكفيه دفعة واحدة من غير وزن وتقدير اهـ.

وقال ابن القيم- كما في مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ١٧١) -: ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مئة موضع ورودا متنوعا متصرفا فيه مقرونا بما يدل على أنها يد حقيقة من الإمساك والطي والقبض والبسط... والحثيات... .

مسألة: صفة الأصابع.

الأصابع صفة ذاتية خبرية ثابتة لله ﷻ بالسنة الصحيحة.

ومذاهب الناس في إثبات الأصابع على أقسام:

١- أهل السنة والجماعة وهم على إثبات الأصابع لله ﷻ.

٢- الذين يؤولون الأصابع كتأويل اليد، فيؤولونها بالقدرة والملك... إلخ. وهذا مذهب الجهمية والمعتزلة ومتأخري الأشاعرة والماتريدية، ويضاف على ذلك آخرون أثبتوا اليدين كما مر معنا لكنهم أولوا الأصابع كالبيهقي وشيخه ابن فورك.

٣- من أنكر إثبات الأصابع لله ونفى صحة ورود ذلك كالخطابي، نقل ذلك عنه السفاريني في عقيدته لما تكلم عن صفة الأصابع لله ﷻ.

قال البغوي في شرح السنة (١/ ١٦٨) بعد ذكر الحديث السابق: والإصبع

=

=

المذكورة في الحديث صفة من صفات الله ﷻ، وكذلك

كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل من صفات الله تعالى؛ كالنفس، والوجه، والعين، واليد، والرجل، والإتيان، والمجيء، والنزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والضحك، والفرح. اهـ.

وقال ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص ٢٤٥): ونحن نقول: إنَّ هذا الحديث صحيح، وإن الذي ذهبوا إليه في تأويل الإصبع لا يشبه الحديث؛ لأنه ﵇ قال في دعائه: (يا مقلب القلوب! ثبت قلبي على دينك). فقالت له إحدى أزواجه: أوَ تخاف يا رسول الله على نفسك؟ فقال: (إنَّ قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله ﷻ)، فإن كان القلب عندهم بين نعمتين من نعم الله تعالى؛ فهو محفوظ بتينك النعمتين؛ فلأي شيء دعا بالتثبيت؟ ولِمَ احتج على المرأة التي قالت له: أتخاف على نفسك؟ بما يؤكد قولها؟ وكان ينبغي أن لا يخاف إذا كان القلب محروسًا بنعمتين. فإن قال لنا: ما الإصبع عندك ها هنا؟ قلنا: هو مثل قوله في الحديث الآخر: (يحمل الأرض على إصبع)، وكذا على إصبعين، ولا يجوز أن تكون الإصبع ها هنا نعمة، وكقوله (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) ولم يجز ذلك. ولا نقول: إصبعٌ كأصابعنا، ولا يدٌ كأيدينا، ولا قبضةٌ كقبضاتنا؛ لأن كل شيء منه ﷻ لا يشبه شيئًا منا ا.هـ

وقال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (١/ ١١٩): وأما حديث: " إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء". فقد رواه مسلم في صحيحه في كتاب القدر في الباب الثالث منه، وليس فيه تأويل عند أهل السنة والجماعة حيث يؤمنون بما دل عليه من إثبات الأصابع لله تعالى على الوجه اللائق به، ولا يلزم من كون قلوبنا بين أصبعين منها أن تماس القلب، فإن

=

=

السحاب مسخر بين السماء والأرض ولا يمس السماء ولا الأرض، فكذلك قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ولا يستلزم ذلك المماسة.

(فرع): في عدد الأصابع وهل يثبت لله عدد محدد للأصابع كما أثبتنا أن له يدان اثنتان؟ الذي ورد في حديث ابن مسعود (جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع... الحديث) خمسة أصابع، وفي حديث تقليب القلب ذكر إصبعين، فنثبت هذا العدد لأنه ورد. ونقول: " آمنا بما جاء عن الله على مراد الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله "، ونسكت عن تحديد ذلك، ونقول: الله أعلم. ويسعنا ما وسع من قبلنا من ترك تحديد العدد مع إثبات ما ورد.

قال العلامة العثيمين كما في فتاوى الحرم النبوي: ومنا الآن طلاب علم إذا مروا بصفة من صفات الله جعلوا يمزقونها، ليس ينكروها، لكن يتنطعون ويتعمقون فيها، حتى أصبحوا ممثلين للرب ﷻ بالخلق، يبحث معك، يقول: إن لله أصابع، حقًا أن لله أصابع؟ وما هي الأصابع؟ يقول لك: كم الأصابع؟ له أظفار؟ له فواصل؟ وما أشبه ذلك، هذا حرام، مسائل الصفات آمِن بها على ما جاءت ولا تسأل، إن سألت هلكت. وانظروا إلى الأئمة رحمهم الله! قال رجل للإمام مالك: يا أبا عبد الله ! الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [طه:٥] كيف استوى؟ سائل يسأل: كيف الاستواء؟ وما سأل عن المعنى، لو قال: ما معنى استوى؟ أجيب، لكن: كيف استوى؟ وهل أنت مطالب بأن تسأل عن الكيفية؟ أبدًا، أطرق مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام برأسه حتى قام يتصبب عرقًا من ثقل السؤال على نفسه، ثم رفع رأسه وقال: يا هذا! الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. كلمات من نور -ما شاء

=

=

الله- يوفق الله من يشاء، ويتفضل عليه بالكلمات التي تكون نبراسًا للمسلمين. يروي بعض العلماء هذا الكلام فيقول: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. لكن اللفظ ما سقناه أولًا. (الاستواء غير مجهول) وغير المجهول معناه معلوم. (والكيف غير معقول) يعني: أننا لا ندركه بعقولنا، وكيف ندرك كيفية صفة من صفات الله بالعقل والله ﷻ يقول في الحس: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ [الأنعام:١٠٣]؟ ولذلك فكل ما بالحس سهل، حتى أبلد من في العالم يدرك بالحس، فالذي لا يدرك بالحس، بمعنى: لا تدركه الأبصار لا تحيط به، لا يدرك بالعقل، بمعنى: أننا لا نعلم كيفيات صفاته أبدًا. (والإيمان به واجب) الإيمان بالاستواء واجب؛ لأن الله تعالى أثبته لنفسه، وما أثبته لنفسه وجب علينا أن نسلم به وأن نثبته. (والسؤال عنه بدعة) السؤال عن ماذا؟ عن الكيفية، لا عن المعنى؛ لأن المعنى يقول: غير مجهول، أي: معروف، لكن السؤال عن الكيفية بدعة، ولماذا كان بدعة؟ نقول: كان بدعة لوجهين: الوجه الأول: أن الصحابة لم يسألوا عنه الرسول ﷺ، ونحن نعلم أن الصحابة أحرص منا على معرفة الله ﷻ، ويجيبهم من؟ الرسول عليه الصلاة والسلام الذي هو أعلم الخلق بالله، فالسبب والمقتضي موجود، وانتفاء المانع موجود، ومع ذلك ما سألوا الرسول؛ لأنهم يعلمون أن عقولنا أقصر وأحقر من أن تدرك كيفية صفة الله، آمنوا بالاستواء ولم يسألوا عنه، وسبحان الله! الصحابة رضي الله عنهم لا يسألون عنه وأنت تأتي في آخر الزمان تسأل عنه؟! أأنت أعلم بالله منهم؟! أأنت أشد تعظيمًا لله منهم؟! أأنت أشد حبًا لله منهم؟! كلا. الوجه الثاني: أن السؤال عن كيفية صفات الله من سمات أهل البدع وعلاماتهم، فأهل البدع هم الذين يسألون عن الكيفيات ليحرجوا المثبتين، وتعرفون أن في الصدر الأول من هذه الأمة ولا زال خلاف في صفات الله، انقسم الناس فيها إلى ستة أقسام ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في آخر الفتوى

=

=

الحموية ، من شاء أن يرجع إليها فليرجع، لكن أهل البدع يأتون لأهل الإثبات فيقولون: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [طه:٥] كيف استوى؟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ [المائدة:٦٤] كيف اليدان؟ كيف البسط؟ لكي يتوقف الإنسان لأنه لا يعرف هذا، فيتوقف فيقال: إذًا ليس عندك علم، لست كفؤًا لأن تسأل عن صفات الله فيوقعونك في إحراج. ولكن ذكر بعض أهل السنة كلامًا جيدًا جدًا ومفحمًا، قال: إذا قال لك الجهمي: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا فكيف ينزل؟ فقل له: إن الله أخبرنا أنه ينزل ولم يخبرنا كيف ينزل. سبحان الله! كلام مضبوط واضح: أخبرنا أنه ينزل ولم يخبرنا كيف ينزل، أخبرنا أن له يدين ولم يخبرنا كيف اليدان، أخبرنا أنه خلق آدم بيديه كما قال تعالى لإبليس: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ولكن لو جاء إنسان يسأل: كيف خلقه بيدين؟ يجب علينا أن نقول: إن الله أخبرنا أنه خلقه بيده، ولم يخبرنا كيف خلقه، ولا كيف يده، وهذه أمور غيبية يجب علينا أن نقتصر فيها على ما جاء به النص، ولهذا أسلم طريقة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته هي طريقة السلف الصالح ، الذين هم أهل السنة والجماعة ، أما غيرهم من الطرق فإنها كلها فاسدة، لما يلزم فيها من اللوازم الباطلة لو لم يكن فيها إلا مخالفة ظاهر الكتاب والسنة ومخالفة الصحابة رضي الله عنهم ؛ لأن الصحابة مجمعون، على إثبات النصوص كما هي، فإذا قال قائل: ما دليلك على أنهم مجمعون على النصوص كما هي؟ قلنا: لأن القرآن نزل بلغة العرب، وأعرب العرب الصحابة، نزل القرآن بلغتهم، ولم يأت حرفٌ واحدٌ منهم يفسر القرآن بخلاف ظاهره فيما يتعلق بصفات الله، إذًا: فهم مجمعون عليها، ولا يحتاج أن نقول هذا النقل، ولعلنا توسعنا قليلًا ولا حرج إن شاء الله. إذًا: نقول: إن الله سبحانه وتعالى إذا فسر القرآن بشيء أخذنا به، وإذا فسره الرسول بشيء أخذنا به، وإذا فسره علماء الصحابة بشيء أخذنا به، وإذا فسره أئمة التابعين الذين تلقوا علم التفسير عن

=

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨).

{وَنُفِخَ فِي الصُّور} النَّفْخَة الْأُولَى {فَصَعِقَ} مَاتَ {من في السماوات ومن في الأرض إِلَّا مَنْ شَاءَ الله} مِنْ الْحُور وَالْوِلْدَان وَغَيْرهمَا {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ} أَيْ جَمِيع الْخَلَائِق الْمَوْتَى {قِيَام يَنْظُرُونَ} يَنْتَظِرُونَ مَا يُفْعَل بِهِمْ(١).

=

الصحابة أخذنا به، وما عدا ذلك فليس بحجة.

(١) قوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ} [الزمّر: ٦٨].

قال ابن كثير:"هذه النفخة هي الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله كما هو مصرح به مفسرا في حديث الصور المشهور. ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولا وهو الباقي آخرا بالديمومة والبقاء، ويقول: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} [غافر: ١٦] ثلاث مرات. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} أي: الذي هو واحد وقد قهر كل شيء، وحكم بالفناء على كل شيء".

عن السديّ:"{فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأرْضِ}، قال: مات".

قال سهل:"باطن الآية أن الملائكة إنَّما يؤمرون بالإمساك عن الذكر لا بالنفخة ولا بنزع عزرائيل، لأن الله أحياهم بذكره، كما أحيا بني آدم بأنفاسهم، قال الله تعالى: {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لاَ يَفْتُرُونَ} [الأنبياء: ٢٠] فإذا أمسك الذكر عنهم ماتوا".

وفي «الصور» قولان:

=

=

أحدهما: أنه قرن ينفخ فيه نفختان: إحداهما لفناء من كان حيًّا على الأرض، والثانية لنشر كل مَيْتٍ.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال إذ سئل عن الصور:"هو قرن يُنفخ فيه".

عن مجاهد، قوله: " {ونفخ في الصور}، قال: كهيئة البوق".

عن مجاهد، " {الصور}، البوق".

وعن مجاهد، قال:"هو القرن، صاحبه آخذ به، فقبض مجاهد قبضتين بكفيه على طف القرن، بين طرفيه، وبين قدر قبضة أو نحوها قد برك على ركبة إحدى رجليه، فأشار فبرك على ركبة يسراه مقعيا على قدمي عقبه تحت فخذه وإليته وأطراف أصابعه في التراب، قد نصب ركبته اليمنى ووضع قدمها في التراب".

وحكى ابن قتيبة: أن الصور: القرن، في لغة قوم من أهل اليمن، وأنشد :

نحن نطحنا غداة الجمعين... بالضابحات في غبار النقعين

نطحا شديدا لا كنطح الصورين.

وأنشد الفراء :

لَوْلا ابْنُ جَعْدَةَ لَمْ تُفْتَحْ قُهُنْدُزُكُمْ... وَلا خُرَاسَانَ حَتَّى يُنْفَخَ الصُّورُ

رجّحه البغوي ، وقال ابن الجوزي:"وهذا اختيار الجمهور".

والثاني: أن {الصور}، جمع: «صورة»، يقال: صورة وصور، بمنزلة سورة وسور، كسورة البناء والمراد نفخ الأرواح في صور الناس، وهذا قول قتادة ، وأبي عبيدة ، ومنه قول النابغة :

ألم تر أنّ الله أعطاك سورة... ترى كلّ ملك دونها يتذبذب

عن قتادة، قوله: " {ونفخ في الصور}، أي: في الخلق".

قال ابن قتيبة:"السورة في هذا البيت سورة المجد. وهي مستعارة من سورة البناء".

=

=

قال ثعلب: "الأجود أن يكون {الصور}: القرن، وظاهر القرآن يشهد أنه ينفخ في الصور مرتين".

وقد روى أهل التفسير عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الصور قرن ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى: نفخة الفزع. والثانية: نفخة الصعق. والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين».

قال ابن عباس: " يعني: بالصور: النفخة الأولى ، ألم تسمع أنه يقول: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى يعني الثانية فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} [سورة الزمر: ٦٨]".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندنا، ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إن إسرافيلَ قد التقم الصور وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ» ، وأنه قال: «الصور قرن ينفخ فيه»".

واختلف أهل التفسير في الذي عنى الله بالاستثناء في هذه الآية، على أقوال:

أحدها: عنى به جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وملك الموت يقبض أرواحهم بعد ذلك. قاله السدي ، وكعب ، ورواه أنس عن النبيﷺ.

روي عن عيسى المديني، قال: سمعت علي بن الحسين، سأل كعب الأحبار، عن قوله: " {فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله}، من الذين استثنى؟ قال: هم ثلاثة عشر، جبريل وميكائيل، وإسرافيل، وحملة العرش الثمانية، وملك الموت، ورب العزة، فيأمر ملك الموت فيقبض فلانا وفلانا وحملة العرش حتى لا يبقى غيره، فيقول رب العزة، مت يا ملك الموت فيموت، فذلك قوله: {كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام}، وذلك قوله: {كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون}".

قال ابن فورك:"وقيل: {إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ}، أي: من الملائكة الذين ثبت الله

=

قلوبهم".

الثاني: انهم الشهداء. قاله سعيد بن جبير ، وقتادة ، ورواه ابو هريرة مرفوعا إلى النبيﷺ.

قال سعيد:"الشهداء ثنية الله حول العرش، متقلدين السيوف".

قال قتادة:"هم الشهداء ثنية الله حول العرش متقلدي السيوف".

الثالث: أن قوله: {إلا من شاء الله}، هم رضوان، والحور، ومالك، والزبانية. قاله الضحاك.

الرابع: عنى بالاستثناء في الفزع: الشهداء، وفي الصعق: جبريل، وملك الموت، وحملة العرش. رواه أبو هريرة عن النبيﷺ.

قوله تعالى: {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} [الزمّر: ٦٨]، أي:"ثم نفخ المَلَك فيه نفخة ثانية مؤذنًا بإحياء جميع الخلائق للحساب أمام ربهم، فإذا هم قيام من قبورهم ينظرون ماذا يفعل الله بهم".

قال الطبري:"ذكر لنا أنه يبعث في تلك الأربعين مطر يقال له مطر الحياة، حتى تطيب الأرض وتهتز، وتنبت أجساد الناس نبات البقل، ثم ينفخ فيه الثانية {فإذا هم قيام ينظرون}، يقول: فإذا من صعق عند النفخة التي قبلها وغيرهم من جميع خلق الله الذين كانوا أمواتا قبل ذلك قيام من قبورهم وأماكنهم من الأرض أحياء كهيئتهم قبل مماتهم ينظرون أمر الله فيهم".

قال ابن كثير:"ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى، وهي النفخة الثالثة نفخة البعث، قال تعالى: {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} أي: أحياء بعد ما كانوا عظاما ورفاتا، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [النازعات: ١٤، ١٣]، وقال تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ

=

لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا} [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ} [الروم: ٢٥]".

عن عكرمة في قوله: " {فصعق من في السماوات ومن في الأرض}،... الآية، قال: الأولى من الدنيا، والأخيرة من الآخرة".

عن السدي: " {فإذا هم قيام ينظرون}، قال: حين يبعثون".

قال السمعاني:"أي: ينظرون ماذا يؤمر في حقهم".

عن ابي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "بين النفختين أربعون". قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوما؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبي، قالوا: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عَجْبُ ذنبه فيه يركب الخلق".

عن يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال: سمعت رجلا قال لعبد الله بن عمرو: إنك تقول: الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ قال: لقد هممت ألا أحدثكم شيئا، إنما قلت: سترون بعد قليل أمرا عظيما. ثم قال عبد الله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ: "يخرج الدجال في أمتي، فيمكث فيهم أربعين- لا أدري أربعين يوما أو أربعين عاما أو أربعين شهرا أو أربعين ليلة- فيبعث الله عيسى ابن مريم، كأنه عروة بن مسعود الثقفي، فيظهر فيهلكه الله. ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه". قال: سمعتها من رسول الله ﷺ: "ويبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفا، ولا ينكرون منكرا". قال: "فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دارة أرزاقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق. ثم يرسل الله-

=

=

أو: ينزل الله مطرا كأنه الطل - أو الظل شك نعمان - فتنبت منه أجساد الناس. ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} [الصافات: ٢٤]، قال: "ثم يقال: أخرجوا بعث النار". قال: "فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فيومئذ تبعث الولدان شيبا، ويومئذ يكشف عن ساق".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَنُفِخَ} النَّفخ مَعروف، والنافِخ (إسرافيلُ) عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأَبهَمه للتَّعظيم؛ لأن الإبهام يَأتِي للتَّعْظيم كما في قوله تعالى: {فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ} [طه: ٧٨]، فإن هذا يَدُلُّ على عِظَم ما غَشِيَهم، والنَّفْخ لا شكَّ أنه أَمْر عظيم؛ ولهذا لم يُبيَّن مَن النافِخُ، وكل ما في القُرآن من النَّفْخ في الصُّور يَأتِي بصيغة: {وَيَوْمَ يُنْفَخُ}، {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ}.

وقوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} الصِّيغة هنا صِيغة ماضٍ، مع أنه مُستَقبَل، لكن عبَّر عنه بالماضِي؛ لتَحقُّق وقوعه، كما في قوله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل: ١] مع أنه لم يَأتِ بعدُ.

وقوله تعالى: {فِي الصُّورِ}، الصُّور: قَرْن عَظيم، قيل: إن سَعة دائِرته كما بين السماء والأرض، وهذا الصُّورُ يَنفُخ فيه إسرافيلُ.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} النَّفخة الأُولى {فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ}] وهذا بِناءً على أنَّ النَّفْخ في الصُّور يَكون مرَّتَيْن، وقيل: بل النَّفْخُ في الصُّور ثلاثَ مرَّاتٍ، وقد دلَّ على هذا حديثُ الصُّور الذي ذكَره ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بطوله في تَفسير سورة الأنعام.

وهذه الثلاثُ هي: نَفْخة الفزَع، ونَفْخة الصَّعْق، ونَفْخة البَعْث؛ لقوله تعالى في سورة النَّمْل: {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ} [النمل: ٨٧]، وهنا قال تعالى: {فَصَعِقَ}، {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى}.

=

=

وقيل: بل النَّفْخ مرَّتان، وهو ما مشَى عليه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، وأن نَفْخة الفزَع هي نَفْخة الصَّعْق، وأن الناس إذا سمِعوه أوَّلَ مرَّة فزِعوا ثُمَّ يُطيل في النَّفْخ فيُصعَقون: يَموتون بعد الفزَع، وعلى هذا فيَكون النَّفْخ مرَّتين: فزَعٌ، ثُم صَعْق؛ لأنه يُطيل النَّفْخ، ثُمَّ يُصعَق الناس، ولا شَكَّ أن شيئًا يُصعَق الناس منه؛ لا بُدَّ أن يَكون شيئًا عظيمًا مُزعِجًا مُرعِبًا، وهو كذلك.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [({فَصَعِقَ} مات {فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ})] {مَنْ} اسمٌ مَوْصول تُفيد العُموم، وتُستَعمَل غالِبًا في العاقِل، وقد تُستعمَل في غيره تبَعًا أو للشُّمول؛ مِثالها تبَعًا قوله تعالى: {وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ} [النور: ٤٥]، ومَعلوم أن الذي يَمشِي على بَطْنه أو على أربَع ليس من ذَوي العُقول، لكن أُتِيَ بـ (مَن) تبَعًا، وقد يَكون للعُموم كما في هذه الآيةِ: {مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ}، فكُلُّ مَن في السمَوات والأرض من آدَمِيِّين أو بهائِمَ أو غيرها كلها تَموت.

يَقول تعالى: {إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ} أي: ألَّا يُصعَق فإنه لا يُصعَق، وقدِ اختَلَف العُلَماءُ رحمهم الله مَن هذا المُستَثْنى؟

فذهَبَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ وجماعة إلى إن المُستَثْنى: [الحُور والوِلْدان]، وهُم في الجَنَّة.

وقيل: الحُور والوِلْدان والمَلائِكة، ولا يَمنَع منه كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لقوله: [وغيرهما].

وقيل: الله أَعلَمُ نَقول: إلَّا مَن شاء الله تعالى، كما أَبهَم الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا نَتعَرَّض للتَّفصيل؛ لأنه ليس هناك دليلٌ صحيحٌ صريحٌ في تَعيُّن هؤلاءِ المُستَثْنَيْنَ.

وقوله تعالى: {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى}، والنافِخُ إسرافيلُ، وقوله تعالى: {أُخْرَى} مَفعول مُطلَق أي: نَفْخة أخرى، أو نَقول: إنها وَصْف لمَوْصوف مَحذوف،

=

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩).

{وَأَشْرَقَتِ الْأَرْض} أَضَاءَتْ {بِنُورِ رَبِّهَا} حِين يَتَجَلَّى الله لِفَصْلِ الْقَضَاء {وَوُضِعَ الْكِتَاب} كِتَاب الْأَعْمَال لِلْحِسَابِ {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء} أَيْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمَّته يَشْهَدُونَ لِلرُّسُلِ بِالْبَلَاغِ {وَقُضِيَ بَيْنهمْ بِالْحَقِّ} أَيْ الْعَدْل {وَهُمْ لَا يظلمون} شيئا[1].

=

والتَّقدير: نَفْخة أُخرى، كما في قوله تعالى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ} [الحاقة: ١٣].

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: [{فَإِذَا هُمْ} أي: جميع الخلائِق المَوْتى، {قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} يَنتَظِرون ما يُفعَل بهم] قوله تعالى: {فَإِذَا هُمْ} الفاء حرفُ عَطْف، و (إذا) فُجائِيَّة، والفُجائِيَّة تَدُلُّ على حُصول ما بعدَها مُفاجأةً، بمَعنَى: أنه يَأتِي بسُرعة.

وقوله تعالى: {هُمْ قِيَامٌ} جملةٌ اسمِيَّةٌ، والغرَض منها الثُّبوت والاستِمْرار، وهي أبلَغُ ممَّا لو قال: فقاموا؛ لأن قوله تعالى: {فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ} تَدُلُّ على أن هذا وَصْف لهم كأنه أَمْر ثابِت من قديم، مُستَقِرٌّ مع أنهم لم يَقوموا إلَّا في النَّفْخة الواحِدة الأخيرة.

وقوله تعالى: {يَنْظُرُونَ} قال: [يَنتَظِرون ماذا يُفعَل بهِمْ]، ويُحتَمَل أن يَكون المعنى: يَنظُرون ما حدَث، من النظَر بالعَيْن، وهذا الاحتِمالُ لا يُنافِي ما ذكَره المُفسِّر رَحِمَهُ اللهُ؛ فتَكون الآية شامِلةً لهذا وهذا، أي: يَنظُرون بأعينهم ما حصَل، ويَنتَظِرون ماذا يُفعَل بهم.

(١) قوله تعالى: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} [الزمّر: ٦٩].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فأضاءت الأرض بنور ربها، وذلك حين يبرز

=

=

الرحمن لفصل القضاء بين خلقه".

قال ابن كثير:"أي: أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق، تبارك وتعالى، للخلائق لفصل القضاء".

قال السعدي:"علم من هذا، أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل، وهو كذلك، فإن الله أخبر أن الشمس تكور، [ص:٧٣٠] والقمر يخسف، والنجوم تندثر، ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها، عندما يتجلى وينزل للفصل بينهم، وذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة، وينشئهم نشأة يَقْوَوْنَ على أن لا يحرقهم نوره، ويتمكنون أيضا من رؤيته، وإلا فنوره تعالى عظيم، لو كشفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه".

قال سهل:"قلوب المؤمنين يوم القيامة تشرق بتوحيد سيدهم، والاقتداء بسنة نبيهم ﷺ".

قال ابن الجوزي:"المراد بالأرض: عرصات القيامة".

عن السدي: " {وأشرقت الأرض بنور ربها}، قال: أضاءت".

عن قتادة، قوله: " {وأشرقت الأرض بنور ربها}، قال: فما يتضارون في نوره إلا كما يتضارون في الشمس في اليوم الصحو الذي لا دخن فيه".

قوله تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ} [الزمّر: ٦٩]، أي:"ونشرت الملائكة صحيفة كل فرد".

قال قتادة:"كتب أعمالهم".

وقال السدي:"الحساب".

قال الطبري:"يعني: كتاب أعمالهم لمحاسبتهم ومجازاتهم".

قال مقاتل:"الذي عملوا فى أيديهم ليقرؤه".

قال السعدي:"أي: كتاب الأعمال وديوانه، وضع ونشر، ليقرأ ما فيه من الحسنات

=

=

والسيئات، كما قال تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}".

قوله تعالى: {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ} [الزمّر: ٦٩]، أي:"وجيء بالنبيين والشهود على الأمم".

قال مقاتل:"{وجيء بالنبيين} فشهدوا عليهم بالبلاغ، {والشهداء}، يعني: الحفظة من الملائكة فشهدوا عليهم بأعمالهم التي عملوها".

قال الطبري:"يقول: وجيء بالنبيين ليسألهم ربهم عما أجابتهم به أممهم، وردت عليهم في الدنيا، حين أتتهم رسالة الله، والشهداء، يعني بالشهداء: أمة محمد ﷺ، ويستشهدهم ربهم على الرسل، فيما ذكرت من تبليغها رسالة الله التي أرسلهم بها ربهم إلى أممها، إذ جحدت أممهم أن يكونوا أبلغوهم رسالة الله".

قال السعدي:"{وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ} ليسألوا عن التبليغ، وعن أممهم، ويشهدوا عليهم. {وَالشُّهَدَاءِ} من الملائكة، والأعضاء والأرض".

قال ابن كثير:"{وَالشُّهَدَاءِ}، أي: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر".

عن ابن عباس، قوله:"{وجيء بالنبيين والشهداء}، فإنهم ليشهدون للرسل بتبليغ الرسالة، وبتكذيب الأمم إياهم".

عن قتادة:"{وجيء بالنبيين والشهداء} قال: الذين استشهدوا".

وعن السدي: " {وجيء بالنبيين والشهداء}: الذين استشهدوا في طاعة الله".

قوله تعالى: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [الزمّر: ٦٩]، أي:"وقضى ربُّ العالمين بين العباد بالعدل التام، وهم لا يُظلمون شيئًا بنقص ثواب أو زيادة

=

=

عقاب".

قال الطبري:"وقضي بين النبيين وأممها بالحق، وقضاؤه بينهم بالحق، أن لا يحمل على أحد ذنب غيره، ولا يعاقب نفسا إلا بما كسبت".

قال السمعاني:"{وقضى بينهم بالحق} أي: بالعدل، وقوله: {وهم لا يظلمون} أي: لا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم".

قال السعدي:"أي: العدل التام والقسط العظيم، لأنه حساب صادر ممن لا يظلم مثقال ذرة، ومن هو محيط بكل شيء، وكتابه الذي هو اللوح المحفوظ، محيط بكل ما عملوه، والحفظة الكرام، والذين لا يعصون ربهم، قد كتبت عليهم ما عملوه، وأعدل الشهداء قد شهدوا على ذلك الحكم، فحكم بذلك من يعلم مقادير الأعمال

ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب. فيحصل حكم يقر به الخلق، ويعترفون لله بالحمد والعدل، ويعرفون به من عظمته وعلمه وحكمته ورحمته ما لم يخطر بقلوبهم، ولا تعبر عنه ألسنتهم".

قال ابن كثير:"{وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ} أي: بالعدل {وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ} قال الله تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء: ٤٧]، وقال الله تعالى: {وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ٤٠]".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَأَشْرَقَتِ} قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَضاءَت]، ومنه: أَشرَقتِ الشمسُ، إذا انتَشَر ضَوؤُها، وشرَقَتْ إذا برَزَت، ويُقال: شرَقَتِ الشمسُ. إذا ظهَرَتْ على الأفُق، وأَشرَقَت، إذا ارتَفَعَت أو استَطار ضَوْؤُها؛ ولهذا تُسمَّى الصلاة التي بعد ارتِفاعها قِيدَ رُمْح تُسمَّى: (صلاةَ الإِشْراق) لا صلاةَ الشُّروق، إذِ الشُّروق ظُهور الشمس في الأُفُق، والإشراق ارتِفاعها واتِّساع ضَوْئِها.

=

=

وهنا يَقول تعالى: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} بنور الله تعالى الذي هو نوره، وليس بنور المَخلوق، فإضافة النور إلى الربِّ سبحانه وتعالى من باب إضافة الصِّفة إلى مَوْصوفها، أي: أن الله جَلَّ وَعَلَا يُنير الأرض بنُوره؛ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [{بِنُورِ رَبِّهَا} حين يَتجَلَّى] أي: يَظهَر [لفَصْل القَضاء]، فيَأتي ﷻ للقَضاء بين العِباد.

فإن قال قائِل: إنه نورٌ مَخلوق، وأَضافه الله تعالى إلى نَفْسه إضافةَ مَخلوق إلى خالِقه مثل قوله تعالى: {فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا} [الشمس: ١٣]، وبيت الله؟

فالجَوابُ: أن هذا خِلاف الظاهِر، فالله تعالى يَقول: {بِنُورِ رَبِّهَا}، والله تعالى له نور، يَقول تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} فكل إنسان يُحرِّف الكلِم عن ظاهِره نُجيبه بهذا، ونَقول: هذا غيرُ مَقبول؛ لأنه خِلاف ظاهِر اللَّفْظ، فإن أَتيتَ بدليل صحيح يُخرِجه عن ظاهِره فعلى العَيْن والرَّأْس، وإن لم تأتِ بدليل صحيح يُخرِجه عن ظاهِره فقولُك مَردود.

وقد ورد أن الله سبحانه وتعالى يُنزِل مَلائِكة السماء الدنيا حتى تُحيط بالخَلْق، ثُم تَنزِل مَلائِكة السماء الثانية حتى تُحيط بأهل السماء الدُّنيا؛ لأن أهل السماء الثانية أكثَرُ من أهل السماء الدنيا، إِذْ إن السماءَ الثانية أَوسَعُ من السماء الدنيا، فيَكون سُكَّانها أكثَرَ، ثُم يَنزِل أهل السماء الثالِثة فيُحيطون بمَن قَبْلهم، وهم أكثَرُ من أهل السماء الثانية، وهَلُمَّ جَرًّا، إلى السماء السابِعة.

قال الله تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر: ٢٢]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا} [الفرقان: ٢٥]، {وَنُزِّلَ} أي: نزَلوا شيئًا فشيئًا؛ أهل السماء الدنيا، ثُم الثانية، ثم الثالثة ... إلى السابِعة.

وقوله تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ} قال أهلُ العِلْم رحمهم الله: إن هذا

=

=

الغَمامَ هو الذي يَأتِي بين يدَيِ الله ﷻ، وهو غَمام عظيم لا نَعلَم قَدْره ولا نَعلَم كيفِيَّته.

ولهذا قال تعالى: {تَشَقَّقُ السَّمَاءُ} ولم يَقُل: تَنشَقُّ، بل: (تَشقَّق)، كأنه شيء يَنبَعِث منها شيئًا فشيئًا، وسيَكون هذا عظيمًا، وذلك بين يدَيْ مَجيء الربِّ جَلَّ وَعَلَا، ثُم يَنزِل سبحانه وتعالى للقَضاء بين العِباد، وحينئذ تُشرِق الأرض بنور ربها.

ولا نَستَطيع الآنَ أن نَتصوَّر كيف هذا الإشراقُ! وكيف هذا النُّورُ! وكيف هذا الغَمامُ! فهو أَمْرٌ لا تُدرِكه عُقولنا الآنَ!.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَوُضِعَ الْكِتَابُ} كِتاب الأعمال للحِساب] (وُضِع) أي: وُضِع بين أَيْدي الناس، قال الله تبارك وتعالى: {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا} [الإسراء: ١٣]، هذا الكِتابُ كُتِب فيه أعمال العِباد، مَن عمِل مِن خَير أو شَرٍّ، إلَّا ما انمَحَى بالمَغفِرة أو بالتَّوْبة فإنه لا يُوجَد في الكِتاب، فالصغائِر مثَلًا تُكتَب، فإذا صلَّى الإنسان فإن الصلواتِ الخَمسَ يَمحو الله تعالى بهن الخَطايا، وربما يَتوب الإنسان من سَيِّئات كُتِبَت عليه، فلا يُوجَد في الكِتاب إلَّا ما واجَه الإنسان به ربَّه، وكان خُتِم عليه في حياته.

وقوله تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ}: (أل) هنا الظاهِر أنها للعُموم لا للجِنْس، يَعنِي: وُضِع كلُّ كِتاب فأَخَذه صاحبه، وهذا الكِتابُ الذي تُكتَب فيه الأعمال يُقال لصاحِبه: {اقْرَأْ كِتَابَكَ} أنتَ بنَفْسك {كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: ١٤].

وإذا قرَأَه فلا يُمكِن أن يُنكِر ما فيه، فلا بُدَّ أن يُقِرَّ، إلَّا المُشرِكين، فإنهم يُنكِرون ويَقولون: {وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣]؛ لأنهم إذا رأَوْا أن المُوحِّدين المُخلِصين نَجَوْا من العذاب سَوَّلت لهم أنفسهم أن يُنكِروا الشِّرْك لعلهم يَنجون

=

=

من العذاب، ولكن هذا لا يَنفَعهم، فإذا قالوا: {وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} شهِدَ عليهم سَمْعهم وأبصارهم وجُلودهم بما كانوا يَعمَلون، وحينئذ يَوَدُّ الذين كفَروا لو تُسوَّى بهم الأرضُ ولا يَكتُمون الله حَديثًا.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَوُضِعَ الْكِتَابُ} كِتاب الأعمال للحِساب]، وكيفية تَوزيع الكِتاب أنه يُوزَّع على وَجْهين:

الوجهُ الأوَّلُ: أن يُعطَى باليَمين.

والثاني: أن يُعطَى بالشِّمال.

فالمُؤمِن يُعطَى باليَمين، ويَقول للناس: {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ}، انظُروا اقرؤُوا، يَقول هذا ابتِهاجًا بنِعْمة الله تعالى، وتَحدُّثًا بنعمة الله تعالى كما لو أُعطِيَ الواحدُ نَتيجتَه وإذا فيها التَّقدير مُمتاز، مِئة بالمِئة، فإنه يُريها لكل واحد من الطُّلاب، وإذا كان كلُّ رقَم عليه دائِرة حَمراءُ فإنه يُمزِّقه، لكن في القِيامة لا يُمكِنة أن يُمزِّقه، أمَّا في الدنيا يُمكِنه أن يُمزِّقه أو يُخفيه.

على كل حال: هذا أمرٌ جِبِلِّي طبيعيٌّ: أن الإنسان يَفخَر بنِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ ويُريها للناس فيَقول: {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ} [الحاقة: ١٩، ٢٠]، الظنُّ هنا بمَعنَى اليَقين، يَعنِي: أَيقَنْت أني مُلاقٍ حِسابِي، وأن الله سبحانه وتعالى سيُحاسِبني.

أمَّا مَن أُوتِيَ كِتابه بشِماله- والعِياذ بالله- فيَقول: {يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ} [الحاقة: ٢٥، ٢٦]، كما يَقول القائِل للزائِر الثَّقيل: لَيْتَه لم يَأتِ، لَيْتَني لم أَرَ وجهه. فالكِتاب الذي يَكون بالشِّمال- والعِياذ بالله- يَعرِف صاحِبه ما فيه فيَقول: {يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ}

مَسأَلةٌ: في القرآن الكريم ذَكَر الله سبحانه وتعالى أن مَن لم يُؤْتَ كِتابه بيمينه يَأخُذه بشِماله، وفئة أُخرى من وراء ظَهْره، فهل هُما صِفتان أو صِفة واحِدة؟

=

=

الجَوابُ: قال بعضُ العُلماءِ رحمهم الله: إنهما صِفتان.

وقال بعضُ العُلَماءِ رحمهم الله: إنهما صِفة واحِدة، يَعنِي: أنه يُعطَى الكِتاب بالشِّمال من وراءِ الظَّهْر، ليس هو من الأمام يُعطَى إيَّاه من وجهه، بل من وراء ظَهْره، فيَكون في هذا تَنبيهٌ له وتَذكير له بما فعَل بكِتاب الله تعالى في الدنيا.

فوَضَع يَساره وراءَ ظَهْره؛ تَذكيرًا له بحاله في الدنيا، أنه نبَذ كِتاب الله تعالى وراءَ ظَهْره، قال تعالى: {فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} [آل عمران: ١٨٧]، كأنه يُقال له: جَزاؤك من جِنْس عمَلك.

وقيل: بل إن من الناس مَن يَأخُذه بشِماله من قِبَل الشِّمال، ومن الناس مِن وراء ظَهْره فتكون صِفتَيْن، والله أَعلَمُ.

فإن قال قائِل: ألَا يُمكِن أن نَقول: إن أَخْذ الكُفَّار المُعرِضين عن كِتاب الله سبحانه وتعالى وآياته الكِتابَ بيُسراهم من وراء ظُهورهم، لا يَستَوِي مع أَخْذ المُؤمِنين العُصاة الكِتاب بيُسراهم؟

فالجَوابُ: أنه لا دليلَ على هذا، فمَن يَقول: إن عُصاةَ المُؤمِنين يَأخُذون الكُتُب بشِمالهم، وقَوْل الله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} لا يُثْبِتُ هذا المَعنَى، فلو ثبَت أن عُصاة المُؤمِنين يَأخُذون بالشِّمال لكان لا بأسَ، لكن الآية تَقول: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ} [الحاقة: ٢٥- ٣٣]، فهذا في الكافِر.

وقوله تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ}: {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ} جاء بهم الله ﷻ؛ لأن المُلْك في ذلك الوقتِ لله تعالى، فله التَّصرُّف فيُؤتَى بالنَّبِيِّين، و

=

=

(النَّبيِّين) هنا يَشمَل النَّبيِّين الذين أُرسِلوا، والنَّبيِّين الذين لم يُرسَلوا، فهو عامٌّ.
قوله تعالى: {وَالشُّهَدَاءِ} الشُّهداء جمع شَهيد، وليس المُراد بالشُّهداء الذين قُتِلوا في سبيل الله تعالى، بل المُرادُ بالشُّهداء الذين يُستَشهَدون يوم القِيامة، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: بمُحمَّد ﷺ وأُمَّته، يَشهَدون للرُّسُل بالبَلاغ].
أمَّا قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: بمُحمَّد] فظاهِره أنه يُريد أن يُفسِّر النَّبيِّين بمُحمَّد، فيَكون على تفسيره عامًّا أُريد به الخاصُّ، وهذا غير مُسلَّم به، بل الصوابُ: أنه عامٌّ باقٍ على عُمومه، أي: يُؤتَى بالنَّبيِّين كلهم يَشهَدون على أُمَمهم بأنهم بلَغوهم.
أمَّا قوله: (الشُّهَداء) فهو من باب عَطْف العامِّ على الخاصِّ، والمُراد بهم: الذين يَشهَدون على الأُمَم وللرُّسُل، وهم هذه الأُمَّةُ، قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣] مُحمَّد ﷺ {عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}، فالرُّسُل شُهَداءُ على أُمَمهم يَقولون: يا ربَّنا نَشهَد أنك أَرسَلْتنا إلى أقوامنا وأننا بلَّغْناهم.
ولا يُمكِن أن يَقول أَحَدٌ في ذلك اليومِ: هذه دَعْوى، فأين البَيِّنة؟ لأنه لو قال مثل هذا القولِ فإنه يَشهَد عليه أَعضاؤُه، والله تعالى يَشهَد قبل كل شيء.
أمَّا الشُّهَداء فهُمْ أُمَّة مُحمَّد ﷺ؛ لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}، وهذه الأُمَّةُ- ولله الحمدُ- تَشهَد على الناس في الدُّنيا وفي الآخِرة، ونحن الآنَ نَشهَد أن الله تعالى أَرسَل نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قومه، ونَشهَد أن قومَه أُبلِغوا على الوجه الأَكمَل، ونَشهَد أنه بَقِيَ فيهم ألفَ سَنَة إلَّا خَمْسين عامًا، كل هذا نَشهَد به، بما علَّمنا الله عَزَّ وَجَلَّ في كِتابه، فيَوم القِيامة تَكون الشهادة لنا على الأُمَم.
وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَشهَدون للرُّسُل بالبَلاغ] لو قال: (وعلى الأُمَم بإقامة الحُجَّة) لكان هذا خيرًا، فنحن كذلك نَشهَد على الأُمَم بأنهم بُلِّغوا، وأُقيمت

=

=

عليهم الحُجَّة، فلنا شَهادتان: شَهادة للرُّسُل، وشهادة على الأُمَم.

وقوله تعالى: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ} أيِ: العَدْل، والقاضي هو الله ﷻ، لكن أَبهَمه للتعظيم، وهو مَعلوم فليس هناك ضَرورة إلى التَّعْيين؛ لأنه مَعلوم أن القاضِيَ هو الله ربُّ العالَمين.

وقوله تعالى: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} أي: بين الناس، {بِالْحَقِّ} أي: بالعَدْل، {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} شيئًا، يُقضَى بين الناس يوم القيامة بالعَدْل، وليس القضاء بين الناس فقَطْ بالعَدْل، بل وبين البَهائم أيضًا بالعَدْل، حتى إن الرسول ﷺ أَخبَر بأنه يُقتَصُّ للشاة الجَلحاءِ من الشاة القَرناءِ ، سُبحانَ الله! ثُمَّ بعد ذلك تكون تُرابًا؛ لأنها ليس لها جَنَّة ولا نار، لكِنْ إظهارًا للعَدْل وشِفاءً لما في الصدور؛ لأن الشاة الجَلحاءَ إذا نطَحَتْها الشاه القَرناءُ صار في قَلْبها شيء، لكنها لا تَستَطيع أن تَقتَصَّ؛ لأن هذه لها قُرون وهذه ليس لها قُرون، لكن يوم القِيامة يُعطِي الله سبحانه وتعالى الشاة الجَلْحاء قُدرة حتى تَقتَصَّ، أو يُريها الله ﷻ كيف يَقتصُّ لها من الشاة القَرناءِ؛ ولهذا يَقول تعالى: {وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ}.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أيِ: العدل]، وفسَّر الحَقَّ هنا بالعَدْل ولم يُفسِّره بالصِّدْق؛ لأن المَقام مَقام حُكْم وقَضاء، والمُناسِب فيه العدل.

قوله تعالى: {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} الضمير (هم) يَعود على الناس، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لَا يُظْلَمُونَ} شيئًا]، أي: لا يُنقَصون من حُقوقهم شيئًا، بل يُعطَى كل إنسان حقَّه على وجهِ الكَمال.

وقوله تعالى: {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} الجُمْلة حالِيَّة، يَعنِي: والحال أنهم لا يُظلَمون شيئًا.

مسألة: النور صفة ذاتية لله ﷻ ثابتة بالكتاب والسنة، وقد عد بعضهم (النور) من أسماء الله تعالى؛ كما سيأتي.

=

=

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النونية (٢/ ١٠٥): (وَالنُّورُ مِنْ أَسْمائِهِ أَيْضًا وَمِنْ أَوْصَافِهِ سُبْحَانَ ذِي البُرْهَانِ) قال الهرَّاس في الشرح: (ومن أسمائه سبحانه النور، وهو أيضًا صفة من صفاته، فيقال: الله نور، فيكون اسمًا مخبراً به على تأويله بالمشتق، ويقال: ذو نور، فيكون صفة؛ قال تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، وقال: {وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا}).

وفي الصحيح عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ أنه ﷺ كان حين يستيقظ من الليل؛ يقول: (اللهم لك الحمد؛ أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن)) اهـ.

وقال الشيخ الغنيمان في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ١٧٠): قوله: " لك الحمد أنت نور السماوات والأرض " قال الحافظ في الفتح (٣/ ٤): أي منورهما، وبك يهتدي من فيهما ا. هـ

وقال القاضي عياض كما في المشارق (٢/ ٣١): " معناه: ذو النور، أي خالقه، وقيل: منور الدنيا بالشمس والقمر والنجوم، وقيل: منور قلوب عباده المؤمنين بالهداية والمعرفة " ا. هـ. قلت: هذا تأويل باطل كما سيأتي بيان بطلانه.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٦/ ٣٧٩) في جواب من قال: إنه يجب تأويل قوله: " الله نور السماوات والأرض " قطعًا. قال: " لا نسلم أنه يجب تأويله، ولا نسلم أن ذلك لو وجب قطعي، بل جماهير المسلمين لا يتأولون هذا الاسم، وهذا مذهب السلفية وجمهور الصفاتية من أهل الكلام والفقهاء والصوفية وغيرهم، وهو قول أبي سعيد ابن كلاب، ورد على الجهمية تأويلهم " اسم النور" وكذا الأشعري" ا. هـ.

وقد نص الله تعالى في كتابه أنه نور السماوات والأرض، وزاد ذلك رسول الله ﷺ إيضاحًا وبيانًا، كما في هذا الحديث وغيره.

وقد أخبر تعالى: أن الأرض يوم القيامة تشرق بنوره، وصحت النصوص عن

=

=

رسول الله ﷺ بأنه يحتجب بالنور، فإذا كانت الأرض تشرق من نوره، فهو جلا وعلا نور، كما قاله رسوله: " أنت نور السماوات والأرض".

وقال تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} وقال -تعالى-: {وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا}.

وفي الحديث الذي رواه ابن إسحاق في السيرة عن رسول الله ﷺ أنه قال في دعائه: (أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة)، وقال ابن مسعود رضي الله عنه (إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه)، وفي حديث أبي ذر في صحيح مسلم قال (سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: نور أنَّى أراه" وفي رواية "رأيت نورًا)، وفي حديث أبي موسى في صحيح مسلم قال (قام فينا رسول الله بخمس كلمات، فقال: "إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه).

السبحات هي: نوره وبهاؤه وجلاله. فأخبر ﷺ أنه -تعالى احتجب عن المخلوقات بحجابه النور، وأنه لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه، ومعلوم أن بصره لا يفوته شيء، ولا يستره ساتر، ولا يحول دونه حائل.

وفي الترمذي عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله خلق خلقه في ظلمة، وألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل) فقد جاءت النصوص "بتسمية الرب نورًا، وبأن له نورًا مضافًا إليه، وبأنه نور السماوات والأرض، وبأن حجابه النور، فهذه أربعة أنواع:

فالأول: يطلق عليه تعالى اسمًا له، فإنه النور الهادي.

=

=

والثاني: يضاف إليه كما تضاف إليه حياته، وسمعه وبصره، وعزته وقدرته وعلمه، ومرة يضاف إلي وجهه الكريم، وأخرى يضاف إلى ذاته المقدسة: فإضافته إلى وجهه تعالى كقوله ﷺ: " أعوذ بنور وجهك " وقوله: "نور السماوات والأرض من نور وجهه".

وإضافته إلى ذاته المقدسة كقوله -تعالى-: {وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا}.

وكما في حديث عبد الله بن عمرو: " أن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره" الحديث.

ويضاف نوره تعالى إلى السماوات والأرض، كقوله: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}.

وقوله في هذا الحديث: " أنت نور السماوات والأرض". وكذا حجابه النور كقوله: " حجابه النور- أو النار-" كما في حديث أبي موسى" ا. هـ من الصواعق ملخصًا (٣٥٩).

وقال تعالى: {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ} على القول بأن الضمير يعود إلى الله تعالى.

قال ابن القيم: " إضافة النور إلى الله -تعالى- على أحد وجهين:

إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله.

فالأول: كقوله ﷻ: {وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} فهذا يكون يوم القيامة، تشرق بنوره -تعالى- إذا جاء لفصل القضاء بين عباده.

ومنه قوله في الدعاء المشهور: " أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلني، لا إله إلا أنت".

وفي الأثر الآخر: " أعوذ بنور وجهك، الذي أشرقت له الظلمات".

فأخبر ﷺ أن الظلمات أشرقت لنور وجهه، كما أخبر الله تعالى أن الأرض تشرق

=

=

يوم القيامة بنوره.

الوجه الثاني: ما ذكر في قوله -تعالى-: {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ}، وقد اختلف على من يعود الضمير في {نوره}، فقيل: على محمد ﷺ وقيل: على المؤمن، والصحيح عوده على الله تعالى.

والمعنى: مثل نور الله في قلب عبده المؤمن، وأعظم عباده نصيبًا من هذا النور رسوله ﷺ.

فهذا النور يضاف إلى الله -تعالى- على أن معطيه لعبده، وواهبه، كما يضاف إلى العبد؛ لأنه محله وقابله" اهـ اجتماع الجيوش بتلخيص وتصرف (ص ٦).

فالله تعالى سمى نفسه نورًا، وجعل كتابه نورًا، ورسوله نورًا، ودينه نورًا، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه في الآخرة نورًا يتلألأ، قال تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، قال أبي بن كعب: (بدأ الله بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن).

وفسر بكونه منور السماوات والأرض، وبأنه هادي أهل السماوات والأرض، وهذا لا يمنع أنه تعالى في نفسه نور، فإن من عادة السلف في تفسيرهم أن يذكروا بعض صفات المفسر بفتح السين من الأسماء، أو بعض أنواع ذلك المفسر، ولا ينافي ذلك ثبوت بقية الصفات له. فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وأما النور الذي هو وصفه فهو قائم به، ومنه اشتق له اسم النور، الذي هو أحد الأسماء الحسنى، كما دلت على ذلك النصوص، فلا يجوز تحريف ذلك بالتأويلات الباطلة.

=

=

وأما الأنوار القائمة بأعيان مشاهدة قائمة بأنفسها، فلم تأت إضافتها إلى الله تعالى أبدًا، فلا يقال لأنوار المصابيح، أو نور الشمس أو القمر أو الكواكب، إنها نور الله.

والحديث تضمن ثلاثة أمور شاملة عامة للسماوات والأرض: وهي: ربوبيتهما، وقيوميتهما، ونورهما، فكونه سبحانه ربًا لهما، وقيومًا لهما، ونورًا لهما، أوصاف له -تعالى-، وآثار هذه الأمور الثلاثة قائمة بهما.

فأثر الربوبية: الخلق والإيجاد، وأثر القيومية: صلاحهما، وانتظامهما، وأثر نوره تعالى استنارة السماوات، وإشراق الأرض بنوره يوم القيامة.

وأما صفة الربوبية والقيومية، والنور، فهي قائمة به تعالى كما أن صفة الرحمة، والقدرة، والإرادة، والرضا، والغضب، قائمة به تعالى والرحمة الموجودة في العالم، والإحسان، والخير، والنعمة، والعقوبة، آثار تلك الصفات.

وهكذا علمه تعالى القائم به هو صفته، وأما علوم عباده فمن آثار علمه، وقدرتهم من آثار قدرته، وبذلك يعلم أن قول المعطلة: " كل عاقل يعلم بالبديهة أنه الله- سبحانه- ليس هو هذا النور الفائض من جرم الشمس والقمر والمصابيح، فلا بد من حمل قوله: " أنت نور السماوات والأرض" على معنى أنه منور السماوات والأرض، أو هادي أهل السماوات والأرض " يعلم أنه باطل من جنس تحريفاتهم لسائر صفات الله، كما هو نهجهم.

ونحن نقول لهم أيضًا: أسأتم الظن بكلام الله، وكلام رسوله ﷺ حيث فهمتم أن حقيقته ومدلوله أنه سبحانه هو هذا النور الواقع على الحيطان، وغيرها، وهذا الفهم الفاسد هو الذي أوجب لكم إنكار حقيقة نوره تعالى وجحده.

فجمعتم بين الفهم الفاسد، وإنكار المعنى الحق، وليس ما ذكرتم هو نور الرب تعالى القائم به، الذي هو صفته، وإنما هو مخلوق له منفصل عنه، فإن هذه الأنوار المخلوقة، تكون في محل دون محل، فنور الشمس والقمر ينور بعض الأرض لا

=

=

جملتها، ولا ينور السماوات، فمن ادعى أن نور الشمس والقمر ونحوهما، هو المراد بقوله تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} وقول الرسول ﷺ وسل: " أنت نور السماوات والأرض " فقد كذب على الله ورسوله ا. هـ كلام الغنيمان.

وسئل علماء اللجنة الدائمة (١٠/ ٥١٠): هل يجوز إطلاق اسم (عبد النور) على واحد من الناس؟

فأجابوا: أسماء الله تعالى توقيفية، ولم يثبت أن (النور) من أسمائه تعالى، وبناء على ذلك فلا يصح تعبيد الاسم له فلا يقال: (عبد النور) ا. هـ

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٦/ ٢٠٨): شيخنا في مثل هذا الموضوع استغرب بعض طلبة العلم ما سمعه منكم في تفسير قوله تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} (النور:٣٥) لكونه ينورهما وليس له اسم النور، فنريد تفصيل في هذا جزاكم الله خيرًا.

فأجاب: ما عندي تفصيل إلا أنني لا أعلم أن النور اسم من أسماء الله ﷻ في حديث صحيح، بل قوله ﷺ: حجابه النور لما سئل: هل رأيت ربك، قال: «نور أنى أراه»، وفي حديث أبي موسى الأشعري في صحيح مسلم يقول: «حجابه النور لو كشف هذا الحجاب لأحرق نوره كل شيء»... أو كما قال عليه الصلاة والسلام، فالجواب: لا أعلم أن النور اسم من أسماء الله ﷻ ا. هـ

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: بالنسبة لكلمة (النور) هل هي من صفات الله سبحانه وتعالى؟.

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٦/ ٢٠٨): شيخنا في مثل هذا الموضوع استغرب بعض طلبة العلم ما سمعه منكم في تفسير قوله تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} (النور:٣٥) لكونه ينورهما وليس له اسم النور، فنريد تفصيل في هذا جزاكم الله خيرًا.

=

=

فأجاب: ما عندي تفصيل إلا أنني لا أعلم أن النور اسم من أسماء الله ﷻ في حديث صحيح، بل قوله عليه السلام: حجابه النور لما سئل: هل رأيت ربك، قال: «نور أنى أراه»، وفي حديث أبي موسى الأشعري في صحيح مسلم يقول: «حجابه النور لو كشف هذا الحجاب لأحرق نوره كل شيء»... أو كما قال عليه الصلاة والسلام، فالجواب: لا أعلم أن النور اسم من أسماء الله ﷻ ا. هـ

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: بالنسبة لكلمة (النور) هل هي من صفات الله سبحانه وتعالى؟ يسعنا ما وسعهم، ولذلك أنا أنصح الإخوان الموجودين الآن من طلبة العلم وغير طلبة العلم أن يكفوا عن السؤال فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته عما كف عنه الصحابة رضي الله عنهم، فوالله! إنهم لخيرٌ منا، وإن الذي يتوجه السؤال إليه في وقتهم خيرٌ منا، فعلينا أن نقف، لماذا هذا التكلف؟ نقول كما قال الله عنه نفسه: اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [النور:٣٥] إنك إذا سلكت هذه القاعدة، ونهجت هذا المنهج سلمت، وسلمت عقيدتك من شكوكٍ وأوهام، وسلمت من اتباع الهوى أو القول على الله بلا علم، فنصيحتي لكم ولمن يستمع إلى كلامي: أن يتقي الله في نفسه، وأن يتجنب كلما تجنبه الصحابة الكرام رضي الله عنهم في الكف عن السؤال فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته، والصحابة رضي الله عنهم قد وفوا بالمقصود، والله ﷻ قد أكمل لنا الدين، ولو كان شيءٌ يحتاج إلى سؤالٍ وتوضيح لوفق الله تعالى من الصحابة من يسأل عنه، ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم أهل المدينة يستحيون أن يسألوا رسول الله ﷺ عن شيءٍ من الأشياء حتى يتمنوا أن يأتي رجلٌ من الأعراب يسأل عنه، فيقيض الله تعالى من يسأل عن الشيء فيجيب عنه الرسول عليه الصلاة والسلام، حتى سأله رجل: أين كان الله قبل خلق السماوات والأرض؟ -إلى هذا الحد- فأجابه النبي عليه الصلاة والسلام، لو كان شيءٌ مما يتعلق بالدين يحتاج الناس إليه لقيض الله تعالى من يسأل عنه، فكف عما كف عنه

=

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠).

{وَوُفِّيَتْ كُلّ نَفْس مَا عَمِلَتْ} أَيْ جَزَاءَهُ {وَهُوَ أَعْلَم} عَالِم {بِمَا يَفْعَلُونَ} فَلَا يَحْتَاج إلى شاهد[1].

=

الصحابة، اترك هذا التقييد، يجيء واحد متحذلق متعمق متكلف يقول: كم أصابع الله مثلًا؟ سبحان الله! أنت مكلف بهذا؟ عليك أن تؤمن بما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله واسكت، قال الإمام أحمد: لا نتجاوز القرآن والحديث، ونصف الله بما وصف به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله ﷺ، فلا نتجاوز القرآن والحديث ا. هـ ولشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ بحث موسع انظره في مجموع الفتاوى (٦/ ٣٧٤).

(١) قوله تعالى: {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ} [الزمّر: ٧٠].

قال البغوي:"أي: ثواب ما عملت".

قال ابن كثير:"أي: من خير أو شر".

قال الطبري:"ووفى الله حينئذ كل نفس جزاء عملها من خير وشر".

قوله تعالى: {وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ} [الزمّر: ٧٠]، أي:"وهو سبحانه وتعالى أعلم بما يفعلون في الدنيا من طاعة أو معصية".

قال الطبري:"وهو أعلم بما يفعلون في الدنيا من طاعة أو معصية، ولا يعزب عنه علم شيء من ذلك، وهو مجازيهم عليه يوم القيامة، فمثيب المحسن بإحسانه، والمسيء بما أساء".

قال مقاتل:"يقول الرب- تبارك وتعالى- أعلم بأعمالهم من النبيين والحفظة".

قال عطاء: " {وهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ}، يريد: أني عالم بأفعالهم، لا أحتاج إلى كاتب ولا إلى شاهد".

قال العثيمين: قوله تعالى: (وُفِّيَت) أي: أُعطِيَت وفاءً، كما تقول: وفَّيْتُه حَقَّه. أي:

=

=

أَعطَيْته إيَّاه وفاءً.

قوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ}: {كُلُّ} بالضَّمِّ على أنها نائِب فاعِل.

قوله تعالى: {مَا عَمِلَتْ} أيِ: الذي عمِلَت، فـ {مَّا} هو اسمٌ مَوْصول، وهو مَفعول ثانٍ لـ (وُفِّيَت)، والمَفعول الأوَّل هو {كُلُّ} وإن كانت بالضَّمِّ، لكن نائب الفاعل يَنوب مَناب المَفعول؛ فلهذا صارت {كُلُّ} في مَحلِّ المَفعول الأوَّل، و {مَا عَمِلَتْ} في محَلِّ المَفعول الثاني.

فإن قال قائِل: الفِعْل المَبنيُّ للمَجهول هل الأَوْلى دائِمًا أن نَقول: مبنيٌّ لما لم يُسَمَّ فاعِلُه. أم في هذه الصِّيَغ؟

فالجَوابُ: أن نَقول: الأَوْلَى دائِمًا: (لما لم يُسمَّ فاعِله)، وأنت إذا قُلتَ: (لما لم يُسمَّ)، فصحيح سواءٌ كان مَجهولًا أو غيرَ مَجهول، ثُمَّ إن الفِعْل المَبنيَّ لما لم يُسمَّ فاعِله إذا كان الله تعالى هو الذي تَكلَّم به؛ فلا يَصِحُّ أن نَقول: إن هذا مَجهول لله تعالى. يَعنِي: في القرآن لا يُمكِن أن تَقول: مَبنيٌّ للمَجهول؛ لأن الله تعالى لا يَجهَل الفِعْل، أَمَّا في غيره فربما يَقول القائِل مثلًا: لمَّا أَصبَح صاحَ. فقيل: ماذا أَصابَك؟

قال: سُرِق مَتاعي. فهذا مَبنيٌّ للمَجهول؛ لأنه لا يُمكِن أنه يُريد السَّتْر على السارِق!.

قوله تعالى: {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: جزاءَه] حمَلَه على هذا التأويل أن العمَلَ قد مضَى في الدنيا، والذي تُوفَّى النفسُ هو الجَزاءُ، كما قال الله تعالى: {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٧].

فإذا قال قائِل: الأمر واضِح كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، لكن ما الحِكْمة في أن الله عَزَّ وَجَلَّ عبَّر بالعمَل عن جَزاء العمَل؟

فالجَوابُ: الحِكْمة في ذلك: الإشارة إلى أن الجَزاء لا يَتَجاوَز العمَل، ولا يَنقُص

=

=

عن العمَل، فكأنه هو العمَل، فإذا كان لا يَتَجاوَزه ولا يَنقُص عنه فكأنه هو العمَل، وهذا هو كَمال العَدْل، وكما تَدين تُدانُ.

قوله تعالى: {وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ} الضمير (هو) يَعود على الله ﷻ، يَعنِي: كأنَّ قائِلًا يَقول: كيف يَعلَم ما عمِلت النَّفْس، وقد مضت دُهور ودُهور وفي العمَل الدقيق والجَليل؟ فقال: {وَهُوَ} أي: الله {أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ}، يَعنِي: لا يَخفَى عليه شيء، وهو ﷻ لا يَضِلُّ ولا يَنسَى، فلا يُمكِن أن يَفوت شيء من عمَل الإنسان.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: [عالِمٌ {بِمَا يَفْعَلُونَ}] تفسيره {أَعْلَمُ} بـ(عالِم) يُعتبَر تفسيرًا قاصِرًا؛ لأن (أَعلَم) أعلى درجةً من عالِم، فإنك تَقول: زيد عالِم، وعَمرٌو عالِم، فيَتَساوَيان في العِلْم، وتَقول: زَيْد أَعلَمُ من عَمرٍو، فيَكون زَيْدٌ أَعلَمَ وأعلى درجةً من عَمرٍو.

فالمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ الآنَ إذا قال: {أَعْلَمُ} أي: [عالِم] نقَص من عِلْم الله تعالى؛ لأن كلِمة (عالِم) لا تمنَع المُشارَكة، لكن (أَعلَم) تَمنَع المُشارَكة؛ لأنه لا يَستَوِي الأفضل والمَفضول.

والعجَبُ أننا لو سألَنا سائِل: لماذا عدَل المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ عن اسمِ التَّفضيل إلى اسمِ الفاعِل؟ قال: لأنه لا يَنبَغي أن يَكون هناك تَناسُب أو مُفاضَلة بين الخالِق والمَخلوق.

إذا قُلتَ: (أَعلَمُ) مَعناه: فضَّلت الخالِق عن المَخلوق، فنَقول له: سبحان الله! وإذا قُلت: (عالِم) فقد سوَّيْت الخالِق بالمَخلوق، فانْظُر كيف عدَل عن ظاهِر اللَّفْظ إلى فَساد المَعنَى! فجَنَى جِنايَتَيْن - عفا الله عنه -:

الأُولى: مُخالَفة ظاهِر اللَّفْظ.

الثاني: تَنقيص الخالِق في عِلْمه.

فنَحن نَقول: إن الله تعالى أَعلَمُ وأَرحَمُ، ففي القرآن الكريم: {وَأَنْتَ أَرْحَمُ

=

=

الرَّاحِمِينَ} [الأعراف: ١٥١]، وأَحكَم {أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} [التين: ٨]. بل أَبلَغُ من ذلك أن الله تعالى قال: {آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل: ٥٩]، مع العِلْم بأنه لا أحَدَ يَظُنُّ أو يُقدِّر أن الأصنام مثل الخالِق، لكن قال هذا من أَجْل إفحام الخَصْم، وبيان ضَلاله؛ بأن نَقول له: آللهُ خيرٌ أَمِ الذي تُشرِكون به؟

فالحاصِلُ: أن علينا أن نُجرِي (أَعلَم) على ظاهِرها من أن المُراد بها تَفضيل الله تعالى في عِلْمه على عِباده، فهو أَعلَمُ بما يَفعَلون.

فإن قال قائِل: إن المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ عدَل عن (أَعلَم) إلى (عالِم)؛ لأن الناس لا يَعلَمون ما يَفعَلون، فالعِلْم مُنتَفٍ وحينئذ لا يَكون تَفسيرُه (أَعلَم) بـ (عالِم) ضارًّا؟

قُلْنا: هذا خطَأ أيضًا، بلِ العالم يَعلَمون ما يَفعَلون، إِذْ كل إنسان يَعلَم ما فعَل، وكل مَن شاهَد غيره أنه يَفْعَل عَلِم ما فعَل.

وقوله تعالى: {وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ} تارةً تَأتِي (يفعَلون)، وتارةً تَأتِي (يعمَلون)، وتارةً تَأتِي (يَكسِبون)، فهل بينها فَرْق؟

نَقول: لا ليس بينها فَرْق؛ لأن مُؤَدَّاها واحِد، لكن إذا قيل: قولٌ وفِعْلٌ؛ صار القول باللِّسان، والفِعْل بالجَوارِح، وإذا قيل: عمِل صار شامِلًا للقول والفِعْل، وإذا قيل: قول فإنه يَكون شامِلًا للقول والفِعْل.

ومنه- أي: من إطلاق القَوْل على الفِعْل- قول الرسول ﷺ لعَمَّار بنِ ياسِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ هَكَذَا" ثُمَّ ضرَب يدَه بالأرض. ومعلوم أن هذا ليس قولًا، بل هو فِعْل.

وقوله تعالى: {وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فلا يَحتاج إلى شاهِد] نعَمْ، لا يَحتاج إلى شاهِد، كفَى بالله تعالى شَهيدًا، لكنه سبحانه وتعالى يُقيم الشهود إظهارًا للعَدْل، وتَوْبيخًا للفاعِل؛ لأنه إذا أُقيم عليه الشهود بعد أن أنكَر صار ذلك أَشدَّ تَوْبيخًا.

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١).

{وَسِيق الَّذِينَ كَفَرُوا} بِعُنْفٍ {إِلَى جَهَنَّم زُمَرًا} جَمَاعَات مُتَفَرِّقَة {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابهَا} جَوَاب إِذَا {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُل مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَات رَبّكُمْ} الْقُرْآن وَغَيْره {وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَة الْعَذَاب} أَيْ {لَأَمْلَأَن جَهَنَّم} الآية {على الكافرين}[١].

(١) قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا} [الزمّر: ٧١].

قال الطبري:"يقول: وحشر الذين كفروا بالله إلى ناره التي أعدها لهم يوم القيامة جماعات، جماعة جماعة، وحزبا حزبا".

عن قتادة قوله: " {زمرا}، قال: جماعات".

قال ابن زيد:"كان سوق أولئك عنفا وتعبا ودفعا،، وقرأ: {يوم يدعون إلى نار جهنم دعا}، قال: يدفعون دفعا، وقرأ: {فذلك الذي يدع اليتيم}. قال: يدفعه، وقرأ (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا".

قال أبو حيان:"السوق: يقتضي الحث على المسير بعنف، وهو الغالب فيه".

قال ابن كثير:"وإنما يساقون سوقا عنيفا بزجر وتهديد ووعيد، كما قال تعالى: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا} [الطور: ١٣] أي: يدفعون إليها دفعا. هذا وهم عطاش ظماء، كما قال في الآية الأخرى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا} [مريم: ٨٦، ٨٥]. وهم في تلك الحال صُمٌّ وبكم وعمي، منهم من يمشي على وجهه، {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} [الإسراء: ٩٧]".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمّر: ٧١]، أي:"حتى إذا وصلوا
=

=

إليها فتحت أبواب جهنم فجأة لتستقبلهم".

قال الطبري:"{أبوابها}: السبعة".

قال ابن كثير:"أي: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا، لتعجل لهم العقوبة".

قال أبو حيان:"جواب {إذا}: {فتحت أبوابها}، ودل ذلك على أنه لا يفتح إلا إذا جاءت كسائر أبواب السجون، فإنها لا تزال مغلقة حتى يأتي أصحاب الجرائم الذين يسجنون فيها فيفتح ثم يغلق عليهم".

قوله تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ} [الزمّر: ٧١]، أي:"وقال لهم خزنة جهنم تقريعًا وتوبيخًا: ألم يأتكم رسلٌ من البشر يتلون عليكم آيات ربكم".

قال أبو حيان:"وقال لهم خزنتها، على سبيل التقريع والتوبيخ: {ألم يأتكم رسل} من جنسكم، تفهمون ما ينبئونكم به، وسهل عليكم مراجعتهم، {يتلون عليكم آيات ربكم}، أي: الكتب المنزلة للتبشير والنذارة".

قال ابن كثير:"ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية- الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القوى على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل -: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} أي: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، {يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ} أي: يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه".

قال الطبري:"{خزنتها}: قوامها، {آيات ربكم}: كتاب الله المنزل على رسله وحججه التي بعث بها رسله إلى أممهم".

قوله تعالى: {وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} [الزمّر: ٧١]، أي:"ويحذِّرونكم أهوال هذا اليوم؟".

قال الطبري:"يقول: وينذرونكم ما تلقون في يومكم هذا، وقد يحتمل أن يكون

=

معناه: وينذرونكم مصيركم إلى هذا اليوم".

قال ابن كثير:"أي: ويحذرونكم من شر هذا اليوم؟".

قال أبو حيان:"وهو يوم القيامة، وما يلقى فيه المسمى من العذاب".

قوله تعالى: {قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [الزمّر: ٧١]، أي:"قالوا مقرين بذنبهم: بلى قد جاءت رسل ربنا بالحق، وحذّرونا هذا اليوم، ولكن وجبت كلمة الله أن عذابه لأهل الكفر به".

قال الطبري:"يقول: قال الذين كفروا مجيبين لخزنة جهنم: بلى قد أتتنا الرسل منا، فأنذرتنا لقاءنا هذا اليوم، ولكن وجبت كلمة الله أن عذابه لأهل الكفر به علينا بكفرنا به".

قال ابن كثير:"فيقول الكفار لهم: {بَلَى} أي: قد جاءونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، {وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} أي: ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق إلينا من الشَقْوة التي كنا نستحقها حيث عَدَلْنا عن الحق إلى الباطل، كما قال تعالى مخبرا عنهم في الآية الأخرى: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نزلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك: ٨- ١٠]، أي: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة {فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك: ١١] أي: بعدا لهم وخسارا".

قال أبو حيان:"أي: قد جاءتنا، وتلوا وأنذروا، وهذا اعتراف بقيام الحجة عليهم، ولكن حقت كلمة العذاب أي قوله تعالى: {لأملأن جهنم}. {على الكافرين}: وضع الظاهر موضع المضمر، أي: علينا، صرحوا بالوصف الموجب لهم العقاب".

عن قتادة، قوله: " {ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين}، بأعمالهم".

=

قال العثيمين: قوله تعالى: (سِيق) فِعْل ماضٍ مَبنيٌّ للمَجهول، والأَوْلى أن نَقول: مَبنيٌّ لما لَمْ يُسمَّ فاعِله؛ قالوا: أن الأَوْلَى الثاني؛ لأنه قد يَكون الفاعِل مَعلومًا، لكن حُذِف لغَرَض آخَرَ؛ ولهذا كان تَعبير المُحقِّقين من النَّحويِّين أن يَقولوا: ما لم يُسمَّ فاعِله. وفي هذا الفِعْلِ نَقول: مَبنيٌّ لما لَمْ يُسمَّ فاعِله. فالظاهِر أن السائِق المَلائِكة، يَسوقُونهم إهانةً.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بعُنْف] دَليله قوله تعالى: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ} [الطور: ١٣] مَعنَى الدَّعِّ: الدَّفْع بشِدَّة وقوة، هذا كيفية سَوْق الذين كفَروا.

وقوله تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا} حُذِف المَفعول ليَعُمَّ كل ما يُكفَر به ممَّا يَجِب الإيمان به، فإذا كفَروا بالمَلائِكة فهم داخِلون في هذا، وكذلك إذا كفَروا بالنَّبيِّين، وبالكِتاب، وباليوم الآخِر، وبالقَدْر؛ فهم داخِلون في هذه الآيةِ، وكذلك إذا استكبَروا عمَّا يَجِب عليهم الإيمان به فإنهم يَكفُرون؛ لأن الكُفْر نَوْعان: كُفرُ جُحود، وكُفرُ استِكْبار؛ فالتَّكذيب كُفْر جُحود، وتَرْك العمَل كُفْر استِكْبار، والآية تَشمَل هذا وهذا.

فإن قال قائل: في هذه الآيةِ: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا}، وفي الحديث في صحيح البُخارِيِّ وغيره: أنه تُصوَّر لهم النار كأنها سَراب فيَأتون مُسرِعين، فكيف يُمكِن الجَمْع بين السُّوق وبين كونهم هم يَتَبادَرونها؟

فالجَوابُ: أن الجَمْع من أحد الوَجْهين:

إمَّا أنه يُجمَع لهم بين السَّوْق وبين انطِلاقهم، ولا مانِعَ من أن يَركُض الإنسان وهناك واحد وراءَهُ يَدفَعه.

أو يُقال: إنهم إذا وصَلوا إلى حَوْلها ورأَى المُشرِكون النار هابوا ووقَفوا، وعلِموا أنها ليسَتْ بماءٍ، فسوف يَنكِصون وحينئذ يُساقون ويَدَعُّون إلى جَهنَّمَ دعًّا.

وإن قال قائِل: هل يُعذَّب الجِنَّ كما يُعذَّب الإنسان في جَهنَّمَ؟ وهل هُما سواءٌ؟

=

=

فالجَوابُ: نعَمْ، هذا هو الظاهِر، أن الجِنَّ يُعذَّبون كما يُعذَّب الإِنْس، قال تعالى: {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا} [الأعراف: ٣٨].

قوله تعالى: {إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا} قوله: {جَهَنَّمَ} سبَق الكلام عليها، وأن العُلَماءَ رحمهم الله اختَلَفوا فيها، وهل هي مُعَرَّبة أو عرَبية أصلِيَّة.

وقوله تعالى: {زُمَرًا} قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [جماعاتٍ مُتَفَرِّقةً] ووجهُ التَّفريق في هذه الجَماعاتِ قد يَكون باعتِبار الأُمَم، أو باعتِبار الأعمال، بحيث تَكون الزُّمْرة الأُولى هي الكافِرة المُشركة، والثانية ما دونَها، والثالِثة ما دونَها وهكذا.

فإن قُلْنا بالأوَّل- أي: أن هذه الزُّمَرَ باعتِبار الأُمَم- فإن دليله قولُه تعالى: {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ} [الأعراف: ٣٨]، فإن هذا يَدُلُّ على أنهم يُذهَب بهم إلى النار أُمَمًا.

وإن قُلنا بالثاني: فدَليله ما يُصنَع بأهل الجَنَّة أن أوَّل زُمْرة تَدخُل الجَنَّة وجوهُهُم كالقمر ليلةَ البَدْر، أو على صُورة القمَر ليلةَ البَدْر، فإن هذا يَقتَضي أن يَكون الزُّمَر باعتِبار العمَل، فالله أَعلَمُ.

المُهِمُّ: أن نَعرِف أنهم يُساقون زُمَرًا.

فإن قال قائِل: أَلَا يَمنَع من كونه المَعنَى {زُمَرًا} أن يَكون جَماعاتٍ باعتِبار العمَل؛ لقول النبيِّ ﷺ: "أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ ثَلَاثَةٌ" ؟

فالجَوابُ: نعَمْ، هذا يُؤيِّد أن المُراد باعتِبار العمَل؛ لأن هؤلاءِ الثلاثةَ يَكونون في الأُمَم من قَبْلنا وفينا.

وقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} شَرْطها: {جَاءُوهَا}، وجوابُها: {فُتِحَتْ} يَعنِي: من حين أن يَصِلوا إليها تُفتَح، وفَتْحُها أَكْرَهُ شيءٍ إليهم- نَسأَل اللهَ العافِيةَ -؛ لأنهم يَوَدُّون أن يَقِفوا ولو على شَفيرها دون أن يَدخُلوا فيها،

=

=

ولكنهم يُفاجَؤُون بفَتْحها من أَجْل مُبادَرتهم بالعَذاب، والعِياذ باللهِ.

وقوله تعالى: {فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} فقوله تعالى: {أَبْوَابُهَا} جَمْع: باب، وقد بيَّن الله تعالى في كِتابه أن أبوابها سَبْعة، فقال تعالى: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ} [الحجر: ٤٣، ٤٤] حَسْب عمَله.

وقوله تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا}: {خَزَنَتُهَا} أي: القائِمون عليها المُوكَّلون بها، وهم مَلائِكة غِلاظ شِداد؛ غِلاظ الطِّباع، شِداد الأجسام، هؤلاء هُمْ خزَنة النار، ليس فيهم رحمة إلَّا امتِثالًا بأَمْر الله ﷻ، والله تبارك وتعالى يوم القيامة لا يَظلِم الكافِر، بل يَقول تبارك وتعالى: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [المؤمنون: ١٠٨]، فهُمْ أبعَدُ الناس عن رحمة الله.

وقوله تبارك وتعالى: {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا} مُوبِّخين ومُقرِّرين {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ}، فالاستِفْهام هنا للتَّوْبيخ والتَّقرير، يَعنِي: يُقَرِّرون إتيان الرسُل، ويُوبِّخون هؤلاء على الكُفْر بهم {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} يَعنِي: لا من غيركم، فلو أَرسَل الله تعالى للبشَر مَلائِكة لكانوا يَنفِرون، يَقول تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا} [الإسراء: ٩٥]، وهذا رَدٌّ عليهم لمَّا قالوا: أين المَلائِكةُ؟ فليس من الحِكْمة أن نُنزِل للبشَر ملَكًا، قال تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا} لو أَنزَل الله تعالى ملَكًا، أي: لو فُرِض أن الله تعالى يُرسِل للبشَر ملَكًا {لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا} [الأنعام: ٩]، أي: على صورة الرجُل؛ كي لا يَنفِروا منه.

وهنا يَقول: {يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} وهذا أبلَغُ؛ من أن يُقال: (مِن أَنفُسِكم)، فمُحمَّد عليه الصلاة والسلام من قُرَيْش من بني هاشِمٍ، يَعرِفونه ويَعرِفون أباه ويَعرِفون أجداده، ويَصِفونه بالأمين، ويَثِقون به، وحَكَّموه حين اختَصَموا في وَضْع الحجَر في مَكانه في الكعبة حتى حكَم فيهم ذلك الحُكْمَ العَدْلَ؛ ولهذا قال الله تبارك

=

=

وتعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [آل عمران: ١٦٤] من جِنْسهم؛ لأن الرسول ﷺ ليس مَلَكًا، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ} [الجمعة: ٢]؛ لأنه من العرَب.

ولمَّا جاءَهُم بالبينات قالوا: هذا الساحِر، هذا الكذَّابُ، هذا المَجنونُ، هذا الكاهِنُ، هذا الشاعِرُ. سبحان الله! وهو رجُل منهم يَعرِفونه، لكن الاستِكْبار يَأبَى أن يَقول الحقَّ.

وقوله سبحانه وتعالى: {يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ} جُمْلة: {يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ} يَجوز أن تَكون حالًا، ويَجوز أن تَكون صِفةً أُخرى؛ لأن قوله تعالى: {مِنْكُمْ} صِفة، والنَّكِرة إذا وُصِفت جاز وقوع الحالُ منها، وجاز أن تَكون الجُمْلة صِفةً أُخْرى؛ لأنه لا مانِعَ من تَعدُّد الصِّفات، على أن الحال في الواقِع صِفة، كما قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ اللَّهُ:

الحَالُ وَصْفٌ فَضْلَةٌ مُنْتَصِبُ ... مُفْهِمُ فِي حَالٍ كَفَرْدًا اذْهَبُ

وقوله تعالى: {يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ} أي: يَقرَؤُون عليكم آياتِ ربكم، والمُراد بالآيات هنا: الآياتُ الشَّرْعية؛ لأن المُراد بها ما نزَل من الوَحي.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [القُرآن وغيره] يَعنِي: أنه يَشمَل كلَّ الكتُب التي أُنزِلت.

قوله تعالى: {وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} يُخوِّفونكم لقاءَ هذا اليوم، حيث أَخبَروكم به وأَخبَروكم بما فيه من الأهوال العِظام، فلم يَبقَ لكم عُذْر؛ ولهذا أَقَرُّوا: {قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}.

قوله تبارك وتعالى: {قَالُوا بَلَى} يَعنِي: قد أَتانا رُسُل مِنَّا يَتلون علينا آياتِ ربِّنا ويُنذِروننا لِقاء يومِنا هذا، {وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} وهذا هو الذي منَعَنا من طاعة الرُّسُل.

وقوله تعالى: {حَقَّتْ} بمَعنَى: وجَبَت وثبَتَت.

=

=

قال الطبري: ({أفمن حق عليه كلمة العذاب} [الزمر:١٩]: أفمن وجب عليه كلمة العذاب).

وقال أيضا: ({ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين} [الزمر:٧١]: يقول قالوا: ولكن وجبت كلمة الله).

وقال السمرقندي: (قوله ﷻ: {أفمن حق عليه كلمة العذاب} [الزمر:١٩] يعني: وجب له العذاب).

وقال أيضا: ({ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين} [الزمر:٧١] أي: وجبت كلمة العذاب).

وقال السمعاني: (ومعنى حقت: وجبت).

فإن قيل: فما السر في اختيار [حق] بدل [وجب]؟.

فالجواب من وجوه منها: أن معنى [حق]: تحقق حصوله في الواقع، فكلمة العذاب حق وصدق لا كذب، وفي [حق] الدلالة على الثبوت واليقين بلا شك، وفيها معنى الاستحقاق والإحكام والعدل بلا ظلم، فكلمة [حق] جمعت هذه المعاني أكثر من غيرها. والله تعالى أعلم.

وقوله {كَلِمَةُ الْعَذَابِ} هي الكلِمة التي يَستَوْجبون بها العَذاب، وفي هذه الكلِمةِ- {كَلِمَةُ الْعَذَابِ}- قولان:

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ: هي قول الله تعالى: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [هود: ١١٩]، هذه هي الكلِمة؛ فإن الله سبحانه وتعالى التَزَم لجَهَنَّمَ بمَلْئها من الجِنَّة والناس أَجمَعين، فإذا كان قدِ التَزَم للنار بمَلْئها، فلا بُدَّ أن يَخلُق لها أقوامًا يُكذِّبون الرُّسُل ليَستَحِقُّوا نار جهنَّمَ- والعِياذُ بالله -.

وقيل: إن الكلِمة- {كَلِمَةُ الْعَذَابِ}- هي قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ} [يونس: ٩٦، ٩٧]، فإنها لما

=

قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢).

{قِيلَ اُدْخُلُوا أَبْوَاب جَهَنَّم خَالِدِينَ فِيهَا} مُقَدَّرِينَ الْخُلُود {فَبِئْسَ مَثْوَى} مَأْوَى {الْمُتَكَبِّرِينَ} جَهَنَّم[1].

=

حقَّتْ عليهم كلِمة الله تعالى امتَنَع إيمانهم، ولكن هنا يَقول الإنسان: هل هذا من باب الاحتِجاج بالقدَر، أم من باب الاعتِراف بالواقِع؟

الجَوابُ: الثاني؛ لأنه لا يُمكِن أن يَحتَجُّوا بالقدَر في ذلك المَوْضِع.

(١) قوله تعالى: {قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا} [الزمّر: ٧٢].

قال الطبري:"فتقول خزنة جهنم للذين كفروا حينئذ: {ادخلوا أبواب جهنم} السبعة على قدر منازلكم فيها ماكثين فيها، لا ينقلون عنها إلى غيرها".

قال ابن كثير:"أي: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به؛ ولهذا قال جل وعلا {قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا} أي: ماكثين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها".

عن سعيد بن جبير: {خَالِدِينَ فِيهَا}، يعني: لا يموتون".

قوله تعالى: {فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} [الزمّر: ٧٢]، أي:"فقَبُح مصير المتعالين على الإيمان بالله والعمل بشرعه".

قال السمعاني:"أي: منزل المتكبرين عن الإيمان بالله".

قال الطبري:"يقول: فبئس مسكن المتكبرين على الله في الدنيا، أن يوحدوه ويفردوا له الألوهة، جهنم يوم القيامة".

قال ابن كثير:"أي: فبئس المصير وبئس المقيل لكم، بسبب تكبركم في الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس

=

=

المآل".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قِيلَ} فِعْل ماضٍ مَبنيٌّ لما لَمْ يُسمَّ فاعِله، وقال بعض العُلماء رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه أَبهَم الفاعِل ليُفيد أن كل الكون يَقول لهم هذا، {قِيلَ} يَعنِي: من قِبَل المَلائِكة، من قِبَل أهل الجَنَّة، من قِبَل كلِّ مَن شهِد.

وقوله تعالى: {ادْخُلُوا} فِعْل أَمْر للإهانة، وليس للإكرام؛ لأن مَن قيل له: ادخُلِ النار. فإنه ليس بمُكرَم- أَعوذ بالله -، ولكنه مُهان.

وقوله تعالى: {أَبْوَابَ جَهَنَّمَ} سبَقَ لنا أنها بنَصِّ القرآن سبعةُ أَبواب.

وقوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا} حال من الواو في قوله تعالى: {ادْخُلُوا}، يَعنِي: حال كونكم خالِدين فيها؛ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُقدِّرين الخلود] يَعنِي: مَعناها: أن الحال مُقدَّرة؛ لأن الخُلود يَأتي بعد الدُّخول، يَدخُلون أوَّلًا ثُمَّ يُخلَّدون ثانيًا، فالحال إذا لم تَكُن مُصاحِبة تَكون حالًا مُقدَّرة.

والخُلود في الأصل: المُكْثُ الطويل، وقيل: المُكثُ الدائِم، فعلى القول الأوَّلِ يَكون ذِكْر التأبيد بعد الخُلود تَأسيسًا، وعلى القول الثاني- أن الخُلود هو البَقاء الدائِم- يَكون ذِكْر التَّأبيد بعد الخُلود تَوْكيدًا، وأيًّا كان فإن الله تعالى قد صرَّح في ثلاث آيات من القُرآن: أن خُلود أهل النار فيها أَبَديٌّ.

أمَّا أهل الكبائِر فدُخولُهم بلا خُلود، وأمَّا أهل النار- الذين هُمْ أهل النار- فإنه دُخول بخُلود، وتَقدَّم أن بعض العُلَماء رحمهم الله يَقول: الخُلود هو المُكْث الدائِم، وبعضهم يَقول: هو المُكْث غير الدائِم، ولكن على هذا القولِ يَكون هذا الخُلودُ مُقيَّدًا بالآيات الأخرى الدالَّةِ على الدوام.

مَسأَلَةٌ: في قوله تبارك وتعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} [هود: ١٠٦، ١٠٧] هل استَثْنى الله تعالى خُلودهم بالمَشيئة؟

=

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣).

{وَسِيق الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبّهمْ} بِلُطْفٍ {إلَى الْجَنَّة زُمَرًا حَتَّى إذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابهَا} الْوَاو فِيهِ لِلْحَالِ بِتَقْدِيرِ قَدْ {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتهَا سَلَام عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ} حَال {فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} مُقَدِّرِينَ الْخُلُود فِيهَا وَجَوَاب إذَا مُقَدَّر أَيْ

=

الجَوابُ: أن قوله تعالى: {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} عائِد على دوام السمَوات والأرض، يَعنِي: إلَّا ما شاء ربُّك ممَّا فوقَ ذلك؛ لأن دوامَ السمَواتِ والأرض مُؤقَّت، لكن عذاب هؤلاء غيرُ مُؤقَّت؛ فقوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} ممَّا فوق ذلك إلى ما لا نِهايةَ له، فقوله: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ} مَعناها: خالِدين فيها مُدَّةَ دوام السماء والأرض {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} يَعني: إلَّا الذي زاد على مُدَّة دوام السموات والأرض، وهو ما شاء الله تعالى؛ وهذا إذا جعَلنا الاستِثْناء مُتَّصِلًا؛ أمَّا إن جعَلْناه مُنقَطِعًا وصار مَعنَى {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}، لكن ما شاء الله فلا حدَّ له؛ فالمَعنَى واضِح.

وقوله تبارك وتعالى: {فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}: (بِئْس) فِعْل ماضٍ جامِدٌ لا يَتَصرَّف، وهو مُحتاج إلى فاعِل وإلى مَخصوص، ففاعِله {مَثْوَى}، ومَخصوصه مَحذوف، قدَّره المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: [جهنَّم]؛ والمَثْوَى: المَأْوَى.

والمُتكبِّر فسَّره أَعلَمُ الناس به مُحمَّدٌ ﷺ في قوله: "الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ"؛ فالمُتكبِّرون هم الذين يَرُدُّون الحقَّ ويَعْلُون على الخَلْق، هؤلاء هم المُتكبِّرون.

دُخُولهَا وَسَوْقهمْ وَفَتْح الْأَبْوَاب قَبْل مَجِيئِهِمْ تَكْرِمَة لَهُمْ وَسَوْق الْكُفَّار وَفَتْح أَبْوَاب جَهَنَّم عِنْد مَجِيئِهِمْ لِيَبْقَى حَرّهَا إلَيْهِمْ إهَانَة لَهُمْ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا} [الزمّر: ٧٣].

قال ابن زيد:"فهؤلاء وفد الله".

قال الطبري: يقول: " وحشر الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه في الدنيا، وأخلصوا له فيها الألوهة، وأفردوا له العبادة، فلم يشركوا في عبادتهم إياه شيئا {إلى الجنة} جماعات، فكان سوق هؤلاء إلى منازلهم من الجنة وفدا على نجائب من نجائب الجنة، وسوق الآخرين إلى النار دعا وورداً، كما قال الله".

قال ابن كثير:"وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة {زُمَرًا}، أي: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضا".

قال أبو حيان:"عبّر عن الإسراع بهم إلى الجنة مكرمين بالسوق، والمسوق دوابهم، لأنهم لا يذهبون إليها إلا راكبين".

قال الزمخشري:"فإن قلت: كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعا بلفظ السوق؟ **قلت**: المراد بسوق أهل النار: طردهم إليها بالهوان والعنف، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل. والمراد بسوق أهل الجنة: سوق مراكبهم، لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، وحثها إسراعا بهم إلى دار الكرامة والرضوان، كما يفعل بمن يشرف ويكرّم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السوقين".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمّر: ٧٣]، أي:"حتى إذا =

=

جاءوها وقد فتحت أبوابُها".

هل الواو في هذا الموضع هي واو الثمانية.

قال ابن العربي في المسالك (٤/ ٢٤٥): وقوله: "فتحت أبواب الجنة" فيه دليل على أن أبوابها مغلقة.

وقوله:، غلقت أبواب النار" دليل على أنها مفتحة، وقد غلط في ذلك بعض المعتدين على كتاب الله تعالى، فقال: إن قوله تعالى: {جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} دليل على أن أبوابها مفتحة أبدا، إذ لم يجعله جواب الخبر، وقوله في النار: {جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} دليل على أنها مغلقة، فقلب الحقيقة، وتكلم في كتاب الله برأيه.

وقال آخر من الفضوليين: قوله: "فتحت أبوابها" يفسره واو الثمانية، إذ للجنة ثمانية أبواب، كما قال تعالى: {وثامنهم كلبهم} بواو، وسائر الأعداد بغير واو. والحق الصحيح المعقول المعلوم. ما قال النبي - ﷺ -: "إني آتي باب الجنة وآخذ بحلقة الباب فاقعقع، فيقول الخازن: من؛ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت، لا أفتح لأحد سواك" وإنما تفتح أبواب الجنة في رمضان، ليعظم الرجاء ويكثر العمل، وتتعلق بها الهمم، ويتشوف إليها الصابر الصائم. وتغلق فيه أبواب النار، لتخزى الشياطين، وتقل المعاصي، وتصير الحسنات في وجوه السيئات، فتذهب سبيل النار ا. هـ

وقال الإمام ابن القيم في حادي الأرواح (ص ٥١): قال الله تعالى {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِين}، وقال في صفة النار {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} بغير واو فقالت طائفة هذه واو الثمانية دخلت في أبواب الجنة لكونها ثمانية وأبواب النار سبعة فلم تدخلها الواو، وهذا قول ضعيف لا دليل عليه ولا

=

=

تعرفه العرب ولا أئمة العربية وإنما هو من استنباط بعض المتأخرين، وقالت طائفة أخرى الواو زائدة والجواب الفعل الذي بعدها كما هو في الآية الثانية وهذا أيضا ضعيف فإن زيادة الواو غير معروف في كلامهم ولا يليق بأفصح الكلام أن يكون فيه حرف زائد لغير معنى ولا فائدة، وقالت طائفة ثالثة الجواب محذوف وقوله "وفتحت أبوابها" عطف على قوله جاؤها وهذا اختيار أبي عبيدة والمبرد والزجاج وغيرهم قال المبرد:"وحذف الجواب أبلغ عند أهل العلم".

قال أبو الفتح بن جني:"وأصحابنا يدفعون زيادة الواو ولا يجيزونه ويرون أن الجواب محذوف للعلم به، بقي أن يقال فما السر في حذف الجواب في آية أهل الجنة وذكره في آية أهل النار فيقال هذا أبلغ في الموضعين فإن الملائكة تسوق أهل النار إليها وأبوابها مغلقة حتى إذا وصلوا إليها فتحت في وجوههم ففجأهم العذاب بغتة فحين انتهوا إليها فتحت أبوابها بلا مهلة فإن هذا شأن الجزاء المرتب على الشرط أن يكون عقيبه فإنها دار الإهانة والخزي فلم يستأذن لهم في دخولها ويطلب إلى خزنتها أن يمكنوهم من الدخول وأما الجنة فإنها دار الله ودار كرامته ومحل خواصه وأوليائه فإذا انتهوا إليها صادفوا أبوابها مغلقة فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتحها لهم ويستشفعون إليه بأولي العزم من رسله وكلهم يتأخر عن ذلك حتى تقع الدلالة على خاتمهم وسيدهم وأفضلهم فيقول:"أنا لها" فيأتي إلى تحت العرش ويخر ساجدا لربه فيدعه ما شاء الله أن يدعه ثم يأذن له في رفع رأسه وأن يسأل حاجته فيشفع إليه سبحانه في فتح أبوابها فيشفعه ويفتحها تعظيما لخطرها وإظهارا لمنزلة رسوله وكرامته عليه، وإن مثل هذه الدار هي دار ملك الملوك ورب العالمين إنما يدخل إليها بعد تلك الأهوال العظيمة التي أولها من حين عقل العبد في هذه الدار إلى أن انتهى إليها وما ركبه من الأطباق طبقا بعد طبق وقاساه من الشدائد شدة بعد شدة حتى أذن الله تعالى لخاتم أنبيائه ورسله

=

=

وأحب خلقه إليه أن يشفع إليه في فتحها لهم، وهذا أبلغ وأعظم في تمام النعمة وحصول الفرح والسرور مما يقدر عليه بخلاف ذلك ولئلا يتوهم الجأهل أنها بمنزلة الخان الذي يدخله من شاء فجنة الله عالية غالية بين الناس وبينها من العقبات والمفاوز والأخطار مالا تنال إلا به فما لمن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ولهذه الدار فليعد عنها إلى ما هو أولى به وقد خلق له وهيئ له، وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمرا من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حده كل مشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم مستبشرين أقوياء القلوب كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير كذلك يؤنس بعضهم بعضا ويفرح بعضهم ببعض، وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها زمرا يلعن بعضهم بعضا ويتأذى بعضهم ببعض وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحدا واحدا فلا تهمل تدبر قوله:"زمرا" ا. هـ

وقال في بدائع الفوائد (٥١/ ٣): قولهم: إن الواو تأتي للثمانية ليس عليه دليل مستقيم، وقد ذكروا ذلك في مواضع فلنتكلم عليها واحدًا واحدًا:

الموضع الأول: قوله تعالى: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ} [التوبة: ١١٢] فقيل الواو في: والناهون، واو الثمانية لمجيئها بعد استيفاء الأوصاف السبعة، وذكروا في الآية وجوهًا أخرى، ذكرها ابن القيم ثم قال:

الموضع الثاني: قوله تعالى: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ} إلى قوله: {ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} [التحريم: ٥] فقيل: هذه واو الثمانية لمجيئها بعد الوصف السابع وليس كذلك، ودخول الواو ههنا متعين؛ لأن الأوصاف التي قبلها المراد اجتماعها في النساء، وأما وصفا البكارة والثيوبة فلا

=

=

يمكن اجتماعهما، فتعين العطف؛ لأن المقصود أنه يزوجه بالنوعين الثيبات والأبكار.
الموضع الثالث: قوله تعالى: {سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} [الكهف: ٢٢].
قيل: المراد إدخال الواو ههنا لأجل الثمانية، وهذا يحتمل أمرين: أحدهما: هذا. وذكر الثاني ثم قال: والموضع الرابع: قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: ٧٣] فأتى بالواو لما كانت أبواب الجنة ثمانية. وقال في النار: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: ٧١] لما كانت سبعة، وهذا في غاية البعد ولا دلالة في اللفظ على الثمانية حتى تدخل الواو لأجلها، بل هذا من باب حذف الجواب لنكتة بديعة... إلخ.
وقال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (١/ ٤٢٨): يا محب، كتابكم الكريم المؤرخ في ١٢\١\١٣٨٨ هـ وصل وصلكم الله بهداه، وما تضمنه من الإشارة إلى تضعيف قول من قال: إن الواو في قوله تعالى في سورة الزمر في حق أهل الجنة: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} هي واو الثمانية، كان معلوما، وأفيد فضيلتكم أن ما ذكرتموه هو الصواب، وقد نبهت على ذلك حين كلامي على الآية، وذكرت أن العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ ضعف هذا القول، كما ضعفه العلامة ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ ورجحا جميعا أنها واو العطف، ولكن لعل فضيلتكم لم ينتبه لهذا الشيء والأمر واضح جدا، وليس للقول بأنها واو الثمانية وجه، لا من جهة الشرع ولا من جهة اللغة، وأما قول بعض المفسرين كصاحب روح المعاني، إنها واو الحال فليس بجيد، والصواب ما تقدم، وهو أنها " واو العطف " والجواب محذوف بعد قوله: {فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} وتقديره والله أعلم، فرحوا بذلك وسروا به، وقالوا: (الحمد لله) إلخ وقد بسط العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ الكلام في هذا الأمر، في كتابه: (حادي

=

=

الأرواح) عند كلامه على أبواب الجنة ا. هـ

وقال الشيخ الفوزان في مجموع فتاواه (١/ ١٧٢): قال بعض المفسرين: الواو هذه تدل على أن أبواب الجنة ثمانية، وتسمى هذه الواو واو الثمانية كما قوله تعالى: (الكهف الآية ٢٢) وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ [الكهف: ٢٢]، فالواو هذه تدل على أن أبواب الجنة ثمانية، ولعله مأخوذ من حروف الجمل.

وابن القيم له رأي في هذا، يقول: إن الجنة غالية ولا يدخلها المؤمنون إلا بعد أن تستفتح، وأول من يستفتح باب الجنة هو محمد ﷺ، وأول من يدخلها من الأمم أمته، فهم لا يدخلونها من أول ما يصلون، بل لا بد من استفتاح؛ لأنها غالية وثمينة، أما النار - والعياذ بالله - فإنهم من حين يصلون إليها وهي مفتوحة، ويدخلونها رغمًا عن إرادتهم ورغبتهم. ا.هـ

نعود لتفسير الآية.

قال ابن كثير:"أي: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة، وقد ورد في حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول، فيقصدون، آدم، ثم نوحا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمدا، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما فعلوا في العرصات عند استشفاعهم إلى الله، ﷻ، أن يأتي لفصل القضاء، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر في المواطن كلها".

عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: " «أنا أكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة».

وقال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. قال: يقول: بك أُمِرْتُ ألا أفتح لأحد قبلك».

=

=

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون فيها، ولا يتغوطون فيها. آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن. لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشيا».

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "أول زُمْرَة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشدُّ كوكب دُرِّي في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتْفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعا في السماء".

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: "يدخل الجنة من أمتي زُمْرَة، هم سبعون ألفا، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر". فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن فقال: يا رسول الله ادع الله، أن يجعلني منهم: فقال: "اللهم اجعله منهم". ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال ﷺ: "سبقك بها عُكَّاشة".

عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: "ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفا- أو: سبعمائة ألف- آخذٌ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر".

عن أبي أمامة الباهلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "وعدني ربي، عز وجل، أن يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا، مع كل ألف سبعون ألفا، ولا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حَثَيَات من حثيات ربي عز وجل".

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله،

=

=

دعي من أبواب الجنة، وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دُعِي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان" فقال أبو بكر، رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله، ما على أحد من ضرورة دُعي، من أيها دعي، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: "نعم، وأرجو أن تكون منهم".

عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: "إن في الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون".

عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ- أو: فيسبغ الوضوء- ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء".

عن معاذ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "مفتاح الجنة: لا إله إلا الله".

وفي جواب {إذا} في قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: ٧٣]، ثلاثة وجوه:

أحدها- قوله: {وفتحت} والواو زائدة. وهو رأي الكوفيين والأخفش.

قال السمين:"وإنما جيء هنا بالواو دون التي قبلها؛ لأن أبواب السجون مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح له ثم تغلق عليه فناسب ذلك عدم الواو فيها، بخلاف أبواب السرور والفرح فإنها تفتح انتظارا لمن يدخلها".

الثاني- أن الجواب قوله: {وقال لهم خزنتها}، على زيادة الواو أيضا.

الثالث- أن الجواب محذوف.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: الجواب متروك".

=

=

قال الزمخشري:"وإنما حذف، لأنه صفة ثواب أهل الجنة، فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف، وحق موقعه ما بعد خالدين".

قال السمين:"يعني لأنه يجيء بعد متعلقات الشرط وما عطف عليه، والتقدير: اطمأنوا. وقدره المبرد: «سعدوا». وعلى هذين الوجهين فتكون الجملة من قوله: و «فتحت» في محل نصب على الحال".

قال القشيري:"وإذا وافوا الجنة تكون الأبواب مفتّحة لئلا يصيبهم نصب الانتظار".

قوله تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} [الزمّر: ٧٣]، أي:"وقال لهم حراس الجنة: سلامٌ عليكم أيها المتقون الأبرار".

قال قتادة:"إذا قطعوا النارَ حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتصّ بعضهم من بعض، حتى إذا هُذِّبوا وطُيِّبوا أُدخلوا الجنة، فقال لهم رضوان وأصحابه: {سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادْخُلُوها خالِدِينَ}".

قوله تعالى: {طِبْتُمْ} [الزمّر: ٧٣]، أي:"طهرتم من دنس المعاصي والذنوب".

عن مجاهد:"{طبتم}، قال: كنتم طيبين في طاعة الله".

قال الزمخشري:"{طِبْتُمْ} من دنس المعاصي، وطهرتم من خبث الخطايا".

قال ابن كثير:"أي: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم، كما أمر رسول الله ﷺ أن ينادى بين المسلمين في بعض الغزوات: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة». وفي رواية: "مؤمنة»".

قال القشيري:"{طِبْتُمْ}، أي: أنهم يساقون إلى الجنة بلطف دون عنف".

قوله تعالى: {فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} [الزمّر: ٧٣]، أي:"فادخلوا الجنة خالدين فيها".

قال ابن كثير:"أي: ماكثين فيها أبدا، لا يبغون عنها حولا".

=

=

قال الزمخشري:"جعل دخول الجنة مسببا عن الطيب والطهارة، فما هي إلا دار الطيبين ومثوى الطاهرين، لأنها دار طهرها الله من كل دنس، وطيبها من كل قذر، فلا يدخلها إلا مناسب لها موصوف بصفتها، فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة، وما أضعف سعينا في اكتساب تلك الصفة، إلا أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحا، تنقى أنفسنا من درن الذنوب، وتميط وضر هذه القلوب".

قال العثيمين: قوله تعالى: (سِيق) ما قُلناه فيما سبَق: أنها فِعلٌ ماضٍ مَبنيٌّ للمَجهول، أو مَبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعِله، وجاءت بصيغة الماضِي مع أنها للمُستَقبَل تَحقيقًا لوقوعه؛ لقول الله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل: ١]، فالماضِي يَأتي بصورة المُضارِع أحيانًا حِكايةً للحال، والمُستَقبَل يَأتِي بصيغة الماضي تَحقيقًا لوقوعه كأنه شيء وقَع ويُتحدَّث عنه.

وقوله تعالى: {الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ} التَّقوَى أن يَتَّخِذ الإنسان وِقايةً من عذاب الله تعالى، وذلك بِفِعْل أوامِره واجتِناب نواهيه؛ لأنك لو سأَلْت: ما الذي يَقِي من عَذاب الله تعالى؟ لقيل لك: طاعته بامتِثال أَمْره، واجتِناب نَهيِه.

وقيل في التَّقوَى: أن تَعمَل بطاعة الله تعالى على نور من الله تعالى تَرجو ثَواب الله تعالى، وأن تَترُك ما نَهَى الله تعالى على نور من الله تعالى، تَخشَى عِقاب الله تعالى.

وقيل في التَّقوَى:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا ... وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاعْمَلْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً ... إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الحَصَى

ولكن ما ذكَرْناه أوَّلًا هو الجامِع المانِع؛ أن يَتَّخِذ الإنسان وِقايةً من عَذاب الله تعالى بفِعْل أَوامِره واجتِناب نواهيه، فإن خالَف وترَكَ شيئًا من الأوامِر أو فعَل شيئًا من النواهِي؛ فإنه يَنقُص من تَقْواه بقَدْر ما أخلَّ به، وحينَئِذ يَجتَمِع في الإنسان

=

=

تَقوى وعِصيان، وهذا مَذهَب أهل السُّنَّة والجماعة: أن الإنسان يَجتَمِع فيه خِصال إيمان وكُفْر، خِصال تَقوَى وفِسْق، ولا مانِعَ، ولكلٍّ حُكْمه.

وقوله تعالى: {الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ} أَضاف الرُّبوبية إليهم؛ لأن رُبوبية الله تعالى للمُتَّقين رُبوبية خاصَّة ليست كالرُّبوبية العامة لجميع العالَمين، بل هي رُبوبية خاصَّة ربَّاهم حتى اتَّقَوْا ربَّهم.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بلُطْف] مُقابِل قوله في أهل النار: [بعُنْف]؛ لأن الله تعالى صرَّح بأن أهل النار يُدفَعون دَفْعًا إلى نار جهنَّمَ، أمَّا المُؤمِنون فإنهم يُساقون سَوْق إكرام، كأن المَلائِكة تَحتَفُّ بهم إكرامًا لهم وإجلالًا.

وقوله تعالى: {إِلَى الْجَنَّةِ} الجَنَّة في اللغة: البُستان الكثير الأشجار، وسُمِّيَ بذلك لأنه يَجِنُّ مَن فيه، أي: يَستُرُه، وأصل المادة الجيم والنون، أصلُها من السَّتْر؛ ولهذا سُمّيَ القلبُ: جَنَانًا؛ لأنه مُستَتِر، وسُمّيَ الجِنُّ: جِنًّا؛ لأنهم مُستَتِرون، وسُمِّيتِ الجَنَّةُ: جَنَّةً؛ لأنها تَستُر مَن فيها؛ لكثرة أشجارها، هذا في الأصل.

أمَّا في الشَّرْع: فالجَنَّة هي الدار التي أَعَدَّها الله تعالى لأَوْليائه، التي فيها ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَت، ولا خطَر على قَلْب بشَر.

وقوله تعالى: {زُمَرًا} جَمْع: زُمْرة، ومَعناها: جماعات مُتفرِّقة، وكيفية تَوْزيع هذه الجَماعات قيل: جماعات حسَب الأُمَم. وقيل: حسَب الأعمال. والقول الأَرجَحُ: أنه بحسَب الأعمال، والدليل قوله ﷺ: "أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ"، ثُم يَتَتابَع الناس على حسَب أعمالهم، فالنار مِثلها، يَعنِي: أن الأسبَق إلى النار الأَشَدُّ جُرْمًا كالأسبَق إلى دُخول الجنَّة الأفضَلُ عمَلًا.

وقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} الفاتِح خزَنَتُها.

وقوله تعالى: {حَتَّى} للغاية {إِذَا جَاءُوهَا} أي: جاؤُوا الجَنَّة.

وقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ

=

=

طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} إذا قرَأْت الآية هكذا سيَبقَى قلبُك مُعلَّقا، ستَقول: أيـنَ جوابُ {إِذَا}؟ فقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} كلُّها جُمَل مُتَعاطِفة.

الجَوابُ: اختَلَف المُعرِبون في ذلك:

فمِنهم مَن قال: إن جوابَ (إِذَا) (فُتِحَتْ)، وإن الواو زائِدة. ولكن هذا القولَ ضعيف؛ لأن زيادة الواو لم يُعهَد في اللغة العربية.

ومنهم مَن قال: إن الواو للحال بتَقدير (قَدْ)، أي: (حتى إذا جاؤُوها وقد فُتِحَت أبوابُها)، ويَكون الجواب على هذا محَذوفًا، وهذا ما ذهَب إليه المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقيل: الواو حرفُ عَطْف، والجوابُ مَحذوف مُقدَّر قبلَها، والتَّقدير: (حتى إذا جاؤُوها هُذِّبوا ونُقُّوا وفُتِحَت أبوابُها)، وهذا القولُ أَصَحُّ الأقوال أن الواو للعَطْف وليست للحال، وأن الجواب مَحذوف مُقدَّر قبل الواو.

وهذا القولُ هو الراجِحُ لدَلالة الأحاديث عليه، فإنه قد ورَدَ في الأحاديث الصحيحة أنهم إذا عبَروا الجِسْر- الصِّراط المَمدود على جَهنَّمَ- وقَفوا على قَنطرةٍ بين الجَنَّة والنار، فيُقتَصُّ لبعضهم من بعض، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دُخول الجَنَّة، ثُمَّ إنهم أيضًا إذا وصَلوا الجَنَّة لا يَجِدون أبوابها مَفتوحة، بل يَجِدونها مُغلَقة حتى يَشفَع النبيُّ ﷺ، فيَفتَح الله تعالى أبوابَها، هذا القولُ هو الراجِح المُتعَيِّن بدَلالة السُّنَّة عليه.

مَسأَلةٌ: ورَد أن المُؤمِنين قبل دُخولهمُ الجَنَّة يُوقَفون على قَنطَرة يُقتَصُّ من بعضهم لبعض، فهل هذه القَنطرةُ من الصِّراط أم غيره؟

الجَوابُ: القنطرة التي يُوقَفون عليها بعد العُبور على الصِّراط؛ قيل: إنها طرَف الصِّراط، فهي قَنطرة وإن لم يَكُن تَحتَها شيء، فـ (وُقِفُوا على القَنْطرة) أي: على جانِب الصِّراط الكبير، وقيل: إنها قَنطَرة أُخرى للعُبور عليها، فالله أَعلَمُ.

=

فإن قال قائِل: كيف يُقتَصُّ لبعضهم من بعض والقِصاص كان في عرَصات القيامة قبل العُبور على الصِّراط؟

فالجَوابُ: هذا الاقتِصاصُ غير الاقتِصاص الأوَّل، الاقتِصاص الأوَّلُ للجزاء والمُعادَلة، وهذا الاقتِصاصُ لإزالة ما بَقِيَ في النفوس من أجل إزالة الغِلِّ والحِقْد، وقد تَقدَّم: أنهم إذا هُذِّبوا ونُقُّوا دخَلوا الجنَّة كما جاء في الحديث.

وقوله تعالى: {أَبْوَابُهَا} قد عَلِم أن أبوابها ثمانية لقول النبيِّ ﷺ في الوُضوء: "فُتِّحَتْ له أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ". وقوله: {وَقَالَ لَهُمْ} العجَب أن بعض النَّحويِّين قال: إن الواو هنا واوُ الثمانية، فأَحدَث للواو مَعنًى جديدًا، واستَدَلَّ لقوله بأَمْر عَجيب؛ قال: إن الله تعالى قال في القرآن: {وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} [الكهف: ٢٢]، فالواو للثَّمانية، فيُقال: سُبحانَ الله! من أين جاءَتْ؟! فالفائِدة في قوله تعالى: {سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} تَقرير ما ذكَرَ؛ لأن الله تعالى قال: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ}.

قال العُلَماءُ رحمهم الله: إنه قال: {وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} تَقريرًا لهذا القول؛ ولهذا قال فيما قبله: {رَجْمًا بِالْغَيْبِ} وفي قوله تعالى: {وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} لم يَقُل: {رَجْمًا بِالْغَيْبِ}؛ لأن الواو عاطِفة تَدُلُّ على أن ما قبلَها ثابِت مُتقرِّر.

قال تبارك وتعالى: {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} خزَنتها المُوَكَّلون بها، وهم ملائِكة، يَقولون لأهل الجَنَّة: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ}.

وقوله تعالى: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} هذا خبَر، وليس دُعاءً فيما يَظهَر؛ لأنه لو كان دُعاءً لكان القادِمون هم الذين يُسلِّمون، وهنا المَلائِكة هي التي تَقول: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ}، فكأنها تُخبِرهم بأنهم حلَّ عليهم السلام؛ لأن الجنَّة دارُ السلام.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ} حال {فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}] يَعنِي:

=

سلام عليكم حالَ كَوْنكم طَيِّبين.

فالجُملة إذَنْ: حال من الكاف في قوله تعالى: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ}.

وقوله تعالى: {طِبْتُمْ} أي: طِبْتم في كل شيء؛ في الأبدان والعُقول والتَّصرُّف وكل شيء، فهم طَيِّبون حَلُّوا مَكانًا طيِّبًا، طابوا من الغِلِّ والحِقْد، قال تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر: ٤٧]، وطابوا من كل مرَض، لا يُمكِن أن يُصيبهم مرَض، وطابوا من كل كلام فاحِش {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} [الواقعة: ٢٥- ٢٦]، فالطِّيِّب هنا قَدَّرْه في كل شيء.

وقوله تعالى: {فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}: (ادْخُلوا) فِعْل أَمْر يُراد به الإكرام، ليس أمرًا حقيقيًّا يُراد به إلزام المُخاطَب، ولكنه أمرٌ للإكْرام، كما تَقول لمَنِ استَأْذَن عليك في بيتك: ادخُلْ.

وقوله تبارك وتعالى: {خَالِدِينَ} حال من الواو في (ادْخُلُوهَا) أي: حالَ كَونِكم خالِدين، والحال هنا مُقدَّرة؛ لأن الخُلود بعد الدُّخول.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُقدِّرين الخُلود فيها، وجَواب (إذا) مُقدَّر، أي: دخَلوها، وسَوْقهم وفَتْح الأبواب قبل مجِيئهم تكرمةً لهم، وسَوْق الكُفار وفَتْح أبواب جَهنَّمَ عند مَجيئِهم ليَبقَى حرُّها إليهم إهانةً لهم]، قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: دخَلوها] في نُسْخة: (أَيْ: دخَولها) وهو غلَط.

وقوله تعالى: {وَفُتِحَتْ} الواو على رَأْي المُفَسَّر للحال؛ وتَجِد أن الكلام على هذا الوجهِ فيه رَكاكة: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} يَعنِي وقد فُتِحت أبوابها {أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} أي: دخَلوها؛ لا يَستَقيم، لكن ما ذكَرْنا أنه الراجِح هو المُطابِق تمامًا لما جاءت به السُّنَّة، والسُّنَّة تُفسِّر القرآن.

=

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤).

{وَقَالُوا} عُطِفَ عَلَى دُخُولهَا الْمُقَدَّر {الْحَمْد لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْده} بِالْجَنَّةِ {وَأَوْرَثَنَا الْأَرْض} أَيْ أَرْض الْجَنَّة {نَتَبَوَّأ} نَنْزِل {مِنْ الْجَنَّة حَيْثُ نَشَاء} لِأَنَّهَا كُلّهَا لَا يُخْتَار فِيهَا مَكَان عَلَى مَكَان {فَنِعْمَ أَجْر الْعَامِلِينَ} الْجَنَّة[1].

=

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [وسَوْقهم وفَتْح الأبواب قبل مَجيئهم تكرمة لهم] قوله رَحِمَهُ اللهُ: [سَوْقهم] مُستَفاد من قوله تعالى: {وَسِيقَ}، [وفَتْح الأبواب قبل مَجيئهم]؛ لأنه يَقول: الواو للحال، وقد فُتِحت أبوابها تَكرِمة لهم، لكن يُقال: إن دَعوَى أن أبوابها فُتِحت قبل مَجيئهم دَعوَى لا يُسعِفها الدليلُ، بلِ الدليل على خِلافها؛ لأنهم إذا جاؤُوها لا يَجِدونها مَفتوحةً، بل يَجِدونها مُغلَقة، ثُمَّ يَشفَع النبيُّ ﷺ أن تُفتَح الأبواب لأهلها.

فإذَن: قول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ فيه خطَأ من الناحية العِلْمية لمُخالَفته للأحاديث الصحيحة أن النبيَّ ﷺ يَشفَع في فتح أبواب الجَنَّة؛ وهذه مَسألة عَقدية في الواقِع؛ لأننا نُؤمِن ونَعتَقِد أن للنبيِّ ﷺ شَفاعةً خاصَّةً به، وهي الشفاعة لأهل الجَنَّة أن يَدخُلوا الجَنَّة، وعلى كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ لا شَفاعةَ؛ لأنهم يَجِدون الأبواب مَفتوحةً.

ثُمَّ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ: [وسَوْقُ الكُفَّار وفَتْح جهنَّمَ عند مَجيئِهم ليَبقَى حَرُّها إليهم إهانةً لهم] قوله رَحِمَهُ اللهُ: [ليَبْقَى حَرُّها إليهم] عِبارة فيها نظَر.

وعلى كل حال: على كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللهُ: فإنها تُفتَح عند مَجيئهم من أَجْل أن يُباشِرَهم حَرُّها مُباشَرةً بدون تَأخُّر.

(١) قوله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ} [الزمّر: ٧٤]، أي:"وقال

=

=

المؤمنون: الحمد لله الذي صدَقنا وعده الذي وعدَنا إياه على ألسنة رسله".

قال الطبري:"يقول وقال الذين سيقوا زمرا ودخلوها: الشكر خالص لله الذي صدقنا وعده، الذي كان وعدناه في الدنيا على طاعته، فحققه بإنجازه لنا اليوم".

قال ابن كثير:"أي: يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير، يقولون عند ذلك: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ} أي: الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام، كما دعوا في الدنيا: {رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [آل عمران: ١٩٤]، {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} [الأعراف: ٤٣]، {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} [فاطر: ٣٥، ٣٤]".

قوله تعالى: {وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ} [الزمّر: ٧٤]، أي:"وأورثَنا أرض الجنة".

قال الطبري:"يقول: وجعل أرض الجنة التي كانت لأهل النار لو كانوا أطاعوا الله في الدنيا، فدخلوها، ميراثا لنا عنهم".

قال ابن كثير:"وهذه الآية كقوله: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: ١٠٥]".

عن قتادة، قوله: " {وأورثنا الأرض}، قال: أرض الجنة". وروي عن السدي وابن زيد مثله.

قال القشيري:"هؤلاء قوم مخصوصون، والذين هم قوم «الغرف» أقوام آخرون".

قوله تعالى: {نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ} [الزمّر: ٧٤]، أي:"نَنْزِل من الجنة في أيِّ مكان شئنا".

قال الطبري:"يقول: نتخذ من الجنة بيتا، ونسكن منها حيث نحب ونشتهي".

=

=

قال ابن كثير:"أي: أين شئنا حللنا".

قال السدي:"ننزل منها حيث نشاء".

قال الزمخشري:"أطلق تصرفهم فيها كما يشاؤن، تشبيها بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه، وذهابه في إنفاقه طولا وعرضا".

قال الزمخشري:"فإن قلت: ما معنى قوله: {حَيْثُ نَشاءُ}، وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره؟

قلت: يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة، فيتبوأ من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره".

قوله تعالى: {فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [الزمّر: ٧٤]، أي:"فنِعم ثواب المحسنين الذين اجتهدوا في طاعة ربهم".

قال الطبري:"يقول: فنعم ثواب المطيعين لله، العاملين له في الدنيا الجنة لمن أعطاه الله إياها في الآخرة".

قال ابن كثير:"فنعم الأجر أجرنا على عملنا".

عن أنس في قصة المعراج قال النبي ﷺ: "أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك".

عن أبي سعيد -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة؟ فقال: "دَرْمَكة بيضاءُ مِسْك خالص: فقال رسول الله ﷺ: «صدق»".

قال العثيمين: قال المُفَسِّر رحمه الله: [{وَقَالُوا} عُطِف على (دَخَلوها) المُقدَّر]، فعلى كلام المُفَسِّر رحمه الله: {وَقَالُوا} الواو حَرْف عَطْف، والفِعْل (قالوا) مَعطوف على (دَخَلوها)، والصوابُ أن الواو للاستِئْناف، وأنهم بعد أن دخَلوا واستَقَرُّوا قالوا هذا الكلامَ.

وقوله رحمه الله: [{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ} بالجَنَّة] حمَدوا الله عز وجل هنا على

=

=

إنعامه وعلى كَماله؛ لأنَّ صِدْق اللهِ تعالى إيَّاهم وعدَه بالجَنَّة يَتَضمَّن شَيْئين:
الشيء الأوَّل: وَصْف الله تعالى بالصِّدْق، وهذا حَمْد له على كَمال صِفَته.
والثاني: تَحقيق ذلك لهم، أي: أنه حَقٌّ لهم فيَكون حمدًا على الشُّكْر.
فحَمْدهم اللهَ تعالى الآنَ على أَمْرين: على الكَمال وعلى الإِفْضال:
الأوَّل: الكَمال في صِفاته، والصِّفة هنا الصِّدْق، قال تعالى: {الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ}، ولا شَكَّ أن الصِّدْق كَمال.
الثاني: الإِفْضال، حيث أَسكَنَهم الجَنَّة.
فيَكون الحَمْد هنا شامِلًا للأَمْرين؛ لأنَّ الله تعالى يُحمَد على ما لَهُ من صِفات الكَمال، وعلى ما له من تمَام الإِفْضال.
وقوله تبارك وتعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ}: (صدَق) المُخفَّف غير (صَدَّق) المُشدَّد؛ لأن (صدَق) يَعنِي: أَخبَر بالصِّدْق، و (صدَّق) صدَّق مَن أَخبَر بالصِّدْق، يُقال: حدَّثني فصدَقني. المَعنَى: أَخبَرني بالصِّدْق، ويُقال: حدَّثْتُه فصدَّقَني. يَعنِي قال: إني صادِق؛ قال الله تعالى: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ}، فالذي جاء بالصِّدْق هو الذي صدَق، وصدَّق مَن أَخبَر بالصِّدْق.
قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ} بالجَنَّة {وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ} أي: أرضَ الجَنَّة {نَتَبَوَّأُ} نَنزِل {مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ}؛ لأنها كلها لا يُختار فيها مَكان على مَكان]، قوله تعالى: {وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ} أي: جعَلنا نَرِثها، والأرض هنا دخَلَت عليها (أل)، فهل المُراد بها الأرض المَعهودة، أو المُراد بها أرضُ الجَنَّة؟
يَرَى المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أن المُراد بها أرض الجَنَّة، وهذا التَّفسير يَرِدُ عليه أَمْرانِ:
الأَمْرُ الأوَّلُ: أن الأرض إذا أُطلِقت فهي الأرضُ المُقابِلة للسَّماء، وهي أَرْضنا هذه.
الأمرُ الثاني: أنه تعالى قال: {نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ}، وكان مُقتَضى السِّياق إذا كانت

=

=

الأرض هي الجَنَّة أن يُقال: (وأَوْرَثنا الأرض نَتبَوَّأ منها حيثُ نَشاءُ)، فلا يَأتي بالظاهِر؛ لأنَّ الظاهِر في هذا المَكانِ لا مَعنَى له.

وعلى هذا فالقولُ الصحيح: إن المُراد بالأَرْض هنا الأرضُ المُقابِلة للسماء، فتكون (أل) هنا للعَهْد، أي: العَهْد الذِّهْنيّ، لا الحُضوريّ، ولا الذِّكْريّ.

فإذا قال قائِل: كيف أَوْرَثهمُ الأرضَ؟

نَقول: أوَّلًا: أن الله تعالى قال في كِتابه: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: ١٠٥]، فتَوريث الله تعالى الأَرْض للمُؤمِنين في الدُّنيا: أنهم يُقاتِلون الكُفَّار ويَستَوْلون على أراضيهم.

ثانيًا: أن وُجودهم على الأرض وسُكْناهم فيها وعُمرانهم إيَّاها كالميراث بالنِّسبة للكُفَّار؛ وذلك لأنَّ الكُفَّار لا يَتمتَّعون بنِعْمة في الدنيا إلَّا كانت عليهم نِقْمة.

فاللُّقْمة إذا رفَعَها الكافِر إلى فمِه يُعاقَب عليها؛ لأن الله تعالى قال: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا} [المائدة: ٩٣]، فمَفهومه: أن مَن لم يَكُن كذلك فعليه جُناح فيما طَعِم.

ويَقول ﷻ في اللِّباس: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الأعراف: ٣٢]، فالكُفَّار ليسَتْ لهم في الدنيا ولا خالِصةً لهم يوم القيامة، فهم يَكتَسون بغير حَقٍّ؛ لأنهم يَتَنَعَّمون بنِعْمة الله تعالى ويَكفُرون بالله تعالى.

على كل حال نَقول: إِيراثُ الأرض في الدنيا: ما يَستَولِي عليه المُسلِمون من أراضِي الكُفَّار؛ وإِيراثٌ آخَرُ: أن وُجودهم على الأرض بحَقٍّ، ووجود الكُفَّار بغير حقٍّ، لكن الله تعالى أَبقاهم لحِكْمة.

وقوله تعالى: {نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ} ظاهِره: أي: نَسكُن حيث نَشاءُ، وهذا ليس على ظاهِره، بمَعنَى أن الإنسان الذي في أَدْنى الجَنَّة نُزُلًا لا يَستَطيع أن يَصعَد

=

=

إلى أعلى شيءٍ، قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: "إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرَفَ" يَعنِي: التي فَوْقَهم "كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ"، يَعنِي: بعيدًا وله إِضاءة، وقال تعالى: {لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ} [الزمر: ٢٠].

ولكن يُقال في تَوجيه هذه الآيةِ الكَريمة {حَيْثُ نَشَاءُ}:

الوَجهُ الأَوَّلُ: إمَّا أن المَعنَى: نَتَبوَّأ من الجَنَّة حيث نَشاء في الدُّنيا، يَعنِي: نَعمَل في الدُّنيا ما نَشاءُ من الأعمال التي تُبوِّئُنا النُّزُل التي هي ثوابٌ لأعمالنا، ففي الدنيا قد يَكون الإنسان مع الأبرار الأخيار، وقد يَكون مع المُقتَصِدين، وقد يَكون من الظالِمين أنفسَهم؛ قال تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} [فاطر: ٣٢]، فالإنسان في الدُّنيا يُمكِن أن يَتَبوَّأ من الجَنَّة حيث يَشاءُ بأعماله الصالِحة المُختَلِفة، فهو إمَّا: ظالِم لنَفْسه، أو مُقتَصِد، أو سابِقٌ بالخَيْرات.

الوجهُ الثاني: أن نَقول: {حَيْثُ نَشَاءُ} أن كل واحِد من أهل الجَنَّة لا يَشاء سِوى الذي هو فيه، يَعنِي: لا يَقَع في قَلْبه أن يَتَمنَّى أنه فوقُ، بل هو مُطمَئِنٌّ تمَامًا في مكانه الذي هو فيه؛ لقول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} [الكهف: ١٠٧، ١٠٨]، يَعنِي: لا يَطلُبون تَحوُّلًا، كل واحد منهم راضٍ بما هو فيه، ولا يَرَى أن أَحَدًا أَنعَمَ منه، حتَّى لو رآه حِسًّا لم يَرَه قَلْبًا؛ لأنَّه لو رأَى أحَدًا من الناس أعلى منه لكان في قلبه شيءٌ من الحَسْرة واللَّوْعة، وهذا مُنتَفٍ في الجَنَّة.

ويَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [لأنها كلها لا يُختار فيها مَكان على مَكان]، فجَنَح المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الاحتِمال الثاني: أن كل إنسان في مَكانه لا يَخْتار مَكانَ غيره.

فإن قال قائِل: قال الله تعالى: {وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ} لماذا لم يَقُل: (ونَتَبوَّأ)؛ ليَكون العَطْف يَقتَضِي المُغايَرة؟

=

فالجَوابُ: أنه يُقال: إن جُمْلة (نَتَبَوَّأ) حال، {وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ} يَعنِي: حالَ كَوْننا مُتَبوِّئِين، وهي حال مُقدَّرة، والحال المُقدَّرة هي التي يَتَّصِف بها صاحِبها بعدُ، يَعنِي: لا حال الفِعْل أو حال التَّلبُّس بها، فنَقول: الحال هنا صحيح أننا لسنا نَتَبوَّأ من الجَنَّة في نَفْس الدُّنيا، لكنها حال مُقدَّرة، والحال المُقدَّرة هي أن الحال تَقَع بعد عامِلها؛ وتَقدَّم أنَّه يَمتَنِع أن تكون أرض الجَنَّة لشَيْئين.

وقوله: [{فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} الجَنَّةُ]: [الجَنَّةُ] بالضَّمِّ على أنَّها مَخصوص، والفاعِل {أَجْرُ}، و (نِعْمَ) و (بِئْسَ) يَحتاجان إلى شَيْئين: فاعِل ومَخصوص، الفاعِل واضِحٌ والمَخصوص يَكون محَذوفًا في الغالِب.

وقوله تعالى: {فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}: (نِعْمَ) فِعْل جامِد لإِنْشاء المَدْح، والأجر هنا بمَعنَى الثواب، ولكن الله تعالى سمَّاه أَجْرًا تَفضُّلًا منه ومِنَّةً، كأننا استَحْقَقنا ذلك وجوبًا كما يَستَحِقُّ العامِل أُجْرته وجوبًا.

فإن قال قائِل: وهل يَجِب على الله تعالى أن يُثيبَنا؟

فالجَوابُ: يَجِب بوَعْده فإنه وَعَد أن يُثيبَنا، وما وَعَد به فإنه لا يُمكِن إخلافُه.

إِذَن: فالوُجوب هنا ليس منَّا على الله تعالى، بل مِن الله تعالى على نَفْسه؛ قال تعالى: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام: ٥٤].

فتَسمية الثواب أَجْرًا من باب تفضُّل الله ﷻ أنَّه جَعَل هذا الثوابَ على نَفْسه كالأُجْرة للعامِل الأجرةَ الثابتةَ اللازمةَ، فكذلك ثواب المُحسِن أَجْر ثابِت واجِب على الله تعالى بإيجابه هو سبحانه وتعالى على نفسه تَفضُّلًا منه وإحسانًا.

وفي مثل هذا يَقول ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... هُوَ أَوْجَبَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ الشَّانِ

إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥).

{وَتَرَى الْمَلَائِكَة حَافِّينَ} حَال {مِنْ حَوْل الْعَرْش} مِنْ كُلّ جَانِب مِنْهُ {يُسَبِّحُونَ} حَال مِنْ ضَمِير حَافِّينَ {بِحَمْدِ رَبّهمْ} مُلَابِسِينَ لِلْحَمْدِ أَيْ يَقُولُونَ سُبْحَان الله وَبِحَمْدِهِ {وَقُضِيَ بَيْنهمْ} بَيْن جَمِيع الْخَلَائِق {بِالْحَقِّ} أَيْ الْعَدْل فَيَدْخُل الْمُؤْمِنُونَ الْجَنَّة وَالْكَافِرُونَ النَّار {وَقِيلَ الْحَمْد لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ} خَتْم اسْتِقْرَار الْفَرِيقَيْنِ بِالْحَمْدِ مِنْ الْمَلَائِكَة[1].

=

إذَنْ: فهو سبحانه وتعالى الذي مَنَّ علينا- في الواقِع- مَرَّتين:

المرَّة الأُولى: بتَوفيقنا للعمَل.

والمرَّة الثانية: بجَزائِنا على هذا العمَلِ الحسَنةَ بعشَرة أمثالها.

وانظُرْ إلى الفَضْل أيضًا والمِنَّة الثالِثة: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن: ٦٠]، فكأننا نحن الذين أَحسَنَّا فأَحْسَن إلينا، مع أن الإحسان لله تعالى أوَّلًا وآخِرًا، فالحمدُ لله ربِّ العالَمين.

وقوله تعالى: {فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} قد يَكون كلامًا مُبتَدًا من الله تعالى، وقد يَكون بقيةَ كلام أهل الجَنَّة حين قالوا: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}؛ فإن كان من أهل الجَنَّة فهو زِيادة ثَناء على الله ﷻ، وإن كان من الله تعالى ابتِداءً فهو حَثٌّ لنا على أن نَعمَل هذا العمَلَ الذي يَكون هذا جَزاءَه.

(١) قوله تعالى: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ} [الزمّر: ٧٥].

قال الطبري: يقول:"وترى يا محمد الملائكة محدقين من حول عرش الرحمن، ويعني بالعرش: السرير".

=

=

قال مقاتل:"يعنى: تحت العرش".

قال ابو عبيدة:"أطافوا به بحفافيه".

قال السجستاني:"أي: مطيفين بحفافيه، أي: بجانبيه ومنه حف به الناس، أي: صاروا في جوانبه".

وقال ابن أبي زمنين:"أي: محدقين".

قال الواحدي:"محيطين محدقين به".

قال الأخفش:"{من} أدخلت ها هنا توكيدا- والله أعلم -".

عن قتادة، قوله: " {وترى الملائكة حافين من حول العرش} : محدقين".

وقال عطاء:"مُدِيرِين".

قال السدي:"محدقين حول العرش، قال: العرش: السرير".

قوله تعالى: {يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} [الزمّر: ٧٥]، أي:"ينزهون ربهم عن كل ما لا يليق به".

قال الزمخشري:"يقولون: سبحان الله والحمد لله، متلذذين لا متعبدين".

قال مقاتل:"يعني: يذكرونه بأمر ربهم".

قال الواحدي:"يحمدون الله حيث أدخل الموحدين الجنة".

قال الطبري:"يقول: يصلون حول عرش الله شكرا له، والعرب تدخل الباء أحيانا في التسبيح، وتحذفها أحيانا، فتقول: سبح بحمد الله، وسبح حمد الله، كما قال جل ثناؤه: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى: ١]، وقال في موضع آخر: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} [الواقعة: ٧٤، ٩٦/ الحاقة: ٥٢]".

قال ابن كثير:"لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نزل كُلا في المحل الذي يليق به ويصلح له وهو العادل في ذلك الذي لا يجور- أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه

=

=

ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل".

قوله تعالى: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ} [الزمّر: ٧٥]، أي:"وقضى الله سبحانه وتعالى بين الخلائق بالحق والعدل".

قال الطبري:"يقول: وقضى الله بين النبيين الذين جيء بهم، والشهداء وأممها بالعدل، فأسكن أهل الإيمان بالله، وبما جاءت به رسله الجنة. وأهل الكفر به، ومما جاءت به رسله النار".

قال ابن كثير:"{وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} أي: بين الخلائق {بِالْحَقِّ}".

قال القشيري:"وقضى بين أهل الجنة وأهل النار بالحقّ، لهؤلاء دركات ولأولئك درجات".

قوله تعالى: {وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الزمّر: ٧٥]، أي:"وقيل: الحمد لله رب العالمين على ما قضى به بين أهل الجنة وأهل النار، حَمْدَ فضل وإحسان، وحَمْدَ عدل وحكمة".

قال الطبري:"يقول: وختمت خاتمة القضاء بينهم بالشكر للذي ابتدأ خلقهم الذي له الألوهية، وملك جميع ما في السموات والأرض من الخلق من ملك وجن وإنس، وغير ذلك من أصناف الخلق".

قال النحاس:"أي: يقول المؤمنون: الحمد لله الذي أثابنا فله الحمد على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونصرنا على من ظلمنا".

قال ابن أبي زمنين:"قاله المؤمنون؛ حمدوا الله على ما أعطاهم".

قال الواحدي:"أهل الجنة يقولون ذلك شكرا لله على إنجاز وعده حين تم وعد الله لهم".

قال ابن كثير:"أي: ونطق الكون أجمعه- ناطقه وبهيمه- لله رب العالمين، بالحمد

=

=

في حكمه وعدله؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شَهِدَت له بالحمد".

قال مقاتل:"افتتح الخلق بالحمد، وختم بالحمد".

قال قتادة: "فتح أول الخلق بالحمد لله، فقال: الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وختم بالحمد، فقال: {وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين}".

قال الزمخشري: فإن قلت: قوله {وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ} من القائل ذلك؟

قلت: المقضى بينهم إما جميع العباد وإما الملائكة، كأنه قيل: وقضى بينهم بالحق، وقالوا الحمد لله على قضائه بيننا بالحق، وإنزال كل منا منزلته التي هي حقه".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ}: (تَرَى) تَرَى أيُّها المُخاطَب، ويُحتَمَل أن المُراد به رسول الله ﷺ، ولكن القول الأوَّلَ أَوْلى؛ لأنَّ القول الأوَّلَ يَشمَل القولَ الثانِيَ ولا عكسَ، فإنك لو قُلتَ: وتَرَى يا مُحمَّدُ. حجَبْت هذا الخِطابَ عن بقية الأُمَّة، وإذا قُلت: وتَرَى أيُّها المُخاطَب صار عامًّا للنبيِّ ﷺ ولغيرِه من الأُمَّة.

والقاعِدةُ: أنه إذا دار اللَّفْظ بين مَعنًى عامٍّ ومَعنًى خاصٍّ فإنَّه يُحمَل على المَعنَى العامِّ؛ لأنك إذا حمَلته على المَعنَى العامِّ دخَل فيه الخاصُّ ولا عكسَ.

وقوله: {الْمَلَائِكَةَ} جَمعُ ملَك، والمَلَك في الأصل هو الرَّسول، والمَلائِكة جعَلهم الله تعالى رُسُلًا، وهم عالَم الغَيْب قائِمون بأَمْر الله ﷻ، مَخلوقون من نور؛ ولهذا ليس فيهم مَعْصية؛ لأنهم خُلِقوا من نور.

والجِنُّ خُلِقوا من النار؛ ولهذا كان الأصل أنه ليس فيهم طاعة، فإن أَباهم وزعيمهم استكبَر من أمر الله تعالى الذي خاطَبه به مُشافَهةً.

=

=

قوله تعالى: {الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ} يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [حال]، وإنما جعَلها حالًا؛ لأن الرُّؤْية هنا بصَرية، والرؤية البصَرية لا تَنصِب إلَّا مَفعولًا واحِدًا، فما يَأتي بعدَه مَنصوبًا يَكون مَنصوبًا على الحال، بخِلاف الرُّؤية العِلْمية فإنَّها تَنصِب مَفعولين.

إِذَنِ: الرؤيةُ هنا بصَرية، ولهذا أَعرَب المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قوله تعالى: {حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ} أَعرَبها حالًا.

وقوله تعالى: {حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ} أي: مُحيطين به.

والعَرْش هو عَرْش الله عَزَّ وَجَلَّ الذي استَوَى عليه، وهو أَعظَمُ المَخلوقات وأَعلاها، وأَوْسعها، فإن الكرسيَّ وسِعَ السمواتِ والأرضَ؛ يَعنِي: أَحاط بها وشمِلَها، والعَرْش أَعظَمُ من الكُرسيِّ؛ وقد ورَد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن الكُرسيَّ مَوضِع القَدَمَيْن، وقال بعضُ العُلَماءِ رحمهم الله: إنه بالنِّسبة للعَرْش كالدرَجة.

وقد جاء في الحديث: "أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي الْكُرْسِيِّ كَحَلَقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ" الحلَقة: حلَقة المِغفَر وهي حلَقة ضَيِّقة "أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَنَّ فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الحَلَقَةِ".

إِذَنْ: فيَكون هذا العرشُ عظيمًا لا يَقدُر قَدْره إلَّا الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ} من كل جانِب] ووجهُ هذا التَّفسيرِ: أنَّه من كل جانِب؛ لأنه أَطلَق قوله تعالى: {حَوْلِ الْعَرْشِ}، وحينئذ لا بُدَّ أن يَكون هذا الحَولُ من كل جانب؛ لأنهم لو أَحاطوا من جانِبٍ واحِد لم يَكونوا حول العَرْش من الجانب الخالي، فإذا كانوا حافِّين من حوله فلا بُدَّ أن يُحيطوا بجميع جوانِبه؛ ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِن كُلِّ جانِب].

قوله تبارك وتعالى: {يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{يُسَبِّحُونَ} حال] يَعنِي: الجُمْلة هذه حاليَّة [من ضمير {حَافِّينَ}]؛ لأن {حَافِّينَ} اسم فاعِل، واسم الفاعِل

=

=

يَتَحمَّل الضمير كما يَتَحمَّله الفِعْل.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} مُلابِسين للحَمْد] يَعنِي: جعَل الباء في قوله تعالى: {بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} للمُلابَسة، وإن شِئْت فقُلْ: للمُصاحَبة. أي: يُسبِّحون تَسبيحًا مَصحوبًا بالحَمْد، أي: يَقولون: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه.

والجمع بين التَّسبيح والحمد هو كَمال المُسبَّح والمَحمود؛ لأن بالتَّسبيح زوال النقائِص والعُيوب، وبالحَمْد إثبات الكمال، فيَكون الجَمْع بين التَّسبيح والحَمْد مُفيدًا لمَعنًى أكثَرَ ممَّا لوِ انفَرَد التسبيح أوِ انفَرَد الحمد.

فإن قال قائِل: قال بعضُ أهل العِلْم في قوله تعالى: {يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}: إن التسبيح هنا للتَّلَذُّذ لا للتَّعبُّد؛ لأنَّه لا تَكليفَ في ذلك اليوم، فما رأْيُكم؟

فالجَوابُ: رأْيُنا أن هذا قول باطِل، بل وللتَّعبُّد، ولكنهم يَتَلذَّذون بالعِبادة، يَعنِي: يَشعُرون بأنهم خاضِعون لله تعالى مُتذَلِّلون له.

وأمَّا قوله: لا تَكليفَ في ذلك اليوم. فهو أيضًا باطِل، ففي ذلك اليوم تَكليف؛ أَلَيْسَ الله سبحانه وتعالى يَقول: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ} [القلم: ٤٢]؟ ففيه تَكليف، ومَن نَفَى التَّكليف في ذلك اليوم فقَدْ أَخطَأَ وغفَل عن النُّصوص الدالَّة على أن فيه تَكليفًا.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} بين جميع الخَلائِق {بِالْحَقِّ} أي: العدل، فيَدخُل المُؤمِنون الجَنَّة، والكافِرون النار]، قوله تعالى: {وَقُضِيَ} أي: حُكِم؛ لأن القَضاء مَعناه: الحُكْم.

وقوله تعالى: {وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}: {وَقِيلَ} أُبهِم الفاعِل؛ ليَكون أَعمَّ. يَعنِي: أن الله تعالى في تلك الحالِ يُحمَد من كل أحَد، ومن كل جانِب، ومن كل جِهة، والحمد هنا مَقرون بـ (أل) المُفيدة للاستِغْراق، واللَّام في قوله تعالى: {لِلَّهِ} للاختِصاص والاستِحْقاق، فإذا جعَلْنا الحمد للاستِغْراق شمِلت كلَّ أنواع

=

=

الحَمْد، سواءٌ كان على كَمال الصِّفات أو على الإِفْضال والإِحْسان والإِنْعام، وإذا قُلنا: اللَّام في قوله تعالى: {لِلَّهِ} أنها للاستِحْقاق والاختِصاص تَبيَّن أن الحَمدَ المُطلَق لا يَستَحِقُّه إلَّا الله تعالى، ولا يَكون إلَّا لله تعالى اختِصاصًا، ولا يُحمَد به إلَّا اللهُ تعالى استِحقاقًا.

والفَرْق بين الحَمْد والمَدْح مع تَساويهما في الحُروف: أن المَدْح وَصْف بالكَمال، لكن لا يَستَلزِم المَحبَّة، وأمَّا الحمْد وهو وَصْف للكَمال مُستَلزِمٌ للمَحبَّة، فالله تعالى يُحمَد ويُمدَح، لكن الحَمد أَخَصُّ من المَدْح؛ لأنَّ المَدْح هو مُطلَق الثَّناء، وأمَّا الحمد فهو ثَناء مَقرون بمَحبَّة وتَعظيم.

وقوله تعالى: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: خالِق العالَمين ومالِكهم ومُدبِّرهم، والعالَم كلُّ مَن سِوى الله تعالى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [ختَمَ استِقْرار الفَريقين بالحَمْد من المَلائِكة]، وهذا فيه نظَر، فليس من المَلائِكة فقَطْ، بل من المَلائِكة وغيرهم؛ ولهذا أُبهِم الفاعِل فقال تعالى: {وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها- قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) (الزمر: ٢- ٣)، وقال فيما بعد: (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ) (الزمر: ٤١)، للسائل أن يسأل عن قوله أولًا: (إليك) وثانيًا (عليك) وهل بينهما فرق يوجب خصوص كل واحدة من العبارتين بمكانها؟

والجواب: أن (إليك) وعليك) هنا مترادفتان على معنى واحد من معنى الخطاب، فتارة يراعى وصول المنزل بواسطة المَلك، وتارة يراعي وصوله من عند الله سبحانه من غير واسطة، فإذا روعي هذا قيل عليك، وإذا روعي الأول قيل إليك، قال تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) (البقرة: ٤)، وقال تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ

=

=

الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ) (الكهف: ١)، والأول أكثر فبدئ هنا به.

ثم إنه ورد في الآية الثانية: (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ)، واللام الجارة في قوله (للناس) تفيد الاختصاص وترادف كثيرًا لفظة: (إلى)، تقول الأمر لزيد والأمر إلى زيد، قال تعالى: (وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ) (البقرة: ٢٧٥)، وقال: (قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ) (آل عمران: ١٥٤)، فلو وردت الآية الثانية بإلى فقيل: إنا أنزلنا إليك الكتاب للناس، لكان ذلك كالمرادف لقوله: إنا أنزلنا إليك الكتاب إلى الناس، وكان يكون فيه إيصال الفعل إلى مجرورين بحرف واحد، وليس أحدهما معطوفًا على الآخر، والعرب لا تقضي الفعل مما يطلب إلا واحدًا، فلا تقضيه ظرفي زمان بغير حرف تشريك، ولا ظرفي مكان، ولا تقضي مفعولين لفعل متعد إلى واحد، ولا ثلاثة مفعولين لمتعد إلى مفعولين إلا على طريقة البدلية، ولا يصح ذلك في الآية، أو على التشريك بحرف العطف، وليس ذلك في الآية أيضًا، فجيء بالآيتين على ما يناسب ويلائم، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة الزمر قوله تعالى: (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) (الزمر: ١١- ١٢)، للسائل أن يسأل لم عُدي الفعل الذي هو أمرت أولًا بغير حرف جر ثم عدي ثانيًا في قوله: (أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ) بحرف الجر؟

والجواب عن ذلك: أن العرب تقول: أمرتك الخير وأمرتك بالخير، فعدي هذا الفعل بنفسه وبحرف الجر، وهو الأصل فيه، والحذف فصيح كثير، ويلحق إذ ذاك بباب أعطى وكسا في أحكامه، ومنه:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به فقد تركتك ذا مال وذا نشب

والآية من قوله: (أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ) مثل البيت، وإذ تقرر هذا فمفعول أمرت الأول- وهو الضمير- مقام مقام الفاعل، والثاني أن يكون وصل الفعل إليه بنفسه،

=

=

والأصل بأن أكون. وأما قوله: (أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ) فأقول إنه محذوف منه حرف الجر كالأول، تقديره: وأمرت بأن أكون، فحذف منه حرف الجر الذي هو أصل الفعل أن يصل به وهو الباء، وأما اللاّم في: (لِأَنْ أَكُونَ) فمبقاة من محذوف يفهمه سياق الكلام مع الحرف المبني من، تقديره: وأمرت لعلمي أولًا أن أكون أول المؤمنين. ألا ترى أن الوارد في الآيتين أمران: أولهما عام والثاني خاص، لأن أمره، عليه السلام، بالعبادة والإخلاص أمر له ولأمته. قال تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) (البينة: ٥)، فالآية من قبيل ما توجه فيه الخطاب له عليه السلام والمراد هو وأمته، والخطاب يأتي كذلك، ويأتي أوله خاص وآخره عام. ومنه: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ) (الطلاق: ١)، وإذا ورد بصورة الخصوص به كان أمرًا ونهيًا فأمته داخلة معه في ذلك الحكم ما لم ينص على خصوصه كقوله: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ) (الأحزاب: ٥٠)، فحكمه، عليه السلام، وحكم أمته في هذا واحد، ثم قال تعالى: (وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) (الأحزاب: ٥٠)، فأفرده سبحانه بجواز الموجوبة بالنص على ذلك، ولولا قوله تعالى: (خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) لكان حكم أمته في ذلك كحكمه، وإذ تقرر هذا فقوله: (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) أمر خاص به، ولا يشركه فيه غيره، ونظير هذا قوله: (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ) (الأنعام: ١٤)، والمعنى يحرز ذلك، بل لا يمكن خلافه، وذلك أن (الحكم من الأمر والنهي إذا جاء به المَلَك وتلقى منه ﷺ ما خوطب به وصدق به وأسلم وجهه لربه وبعد ذلك يتلقاه منه، عليه السلام، من حضره وخاطبه به، ولا طريق لأحد أن يتلقى حكمًا إلا منه، عليه السلام بعد تلقيه هو ذلك من جبريل، فهو، عليه السلام، أول مؤمن

=

=

وأول مسلم، ولا تمكن تلك الأولية لغيره، ولا نسبة إليها لأحد فقد وضح وجه دخول هذه اللام في قوله له: (لِأَنْ أَكُونَ).

الآية الثالثة من سورة الزمر قوله تعالى: (ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا) (الزمر: ٢١)، وفي سورة الحديد: (كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا) (الحديد: ٢٠)، فورد هنا: (ثم يكو) وفي الأولى: (ثم يجعله) مكان (ثم يكون) فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟ وهل كان يمكن أن يرد في الأولى: (ثم يكون) وفي الثانية (ثم يجعله)؟

والجواب، والله أعلم: أنه لا يناسب كلا من الموضعين إلا ما ورد فيه، ولا يجوز على رعي التناسب اللازم رعيه في الكتاب العزيز غير ما ورد عليه الموضعان، ووجه ذلك أن آية الزمر وردت مورد التنبيه على الاعتبار، وبالنّصية على ذلك افتتحت الآية فقال تعالى خطابًا لنبيه ﷺ، والمراد هو وأمته: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) (الزمر: ٢١)، والمراد به المطر، فسلكه ينابيه في الأرض أي أنقذه وأراه في الأرض فبرزت عيونها وجرت مياهها من تلك المادة السماوية (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ) (البقرة: ٧٤)، فيخرج به سبحانه الزرع المختلف الألوان والطعوم المتباينة: (يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ) (الرعد: ٤)، (ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا) (الزمر: ٢١) فنسب سبحانه كل حالة من تقلبات الزرع إلى نفسه، وتنقلاته من لدن خروجه ونباته وما بعد ذلك إلى تخلصه إلى نفسه، إذ لا طمع لمخلوق في إعادة شيء من ذلك، ثم قال تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (الزمر: ٢١)، فافتتحت الآية واختتمت بالتنبيه على الاعتبار، فلما كان مبناها على ذلك ناسب نسبة الفعل إليه تعالى فقال: (ثُمَّ يَجْعَلُهُ).

وأما آية الحديد فوردت مثالًا للدنيا وابتداء غرورها، وصغو الكافر الغافل إلى

=

=

ذلك، وإرعاضه عن سرعة تقلبها وزوارها وفنائها، فلما قصد هنا المثال ناسب هذا المقصود قوله: (ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا)، إذ لم يتقدم في أول الآية النسبة للفاعل اكتفاء بما هو غير خاف على كل ذي عقل سليم، فجرى آخرها على ما يجري عليه أولها، كما جرى في آية الزمر (من آخرها من التنبيه على ما جرى عليه أولها، وتناسب ذلك كله، وورد على ما يجب، ولم يكن بناء على ما صدرت به كل آية منهما أن يكون في آية الزمر): (ثم يكون) ولا في آية الحديد: (ثم يجعله)، بل ورد كل على ما يناسب، والله أعلم.

الآية الرابعة من سورة الزمر قوله تعالى: (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (الزمر"٤٨)، وفي سورة الجاثية: (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا) (الجاثية: ٣٣)، للسائل أن يسأل عن وجه اختصاص آية الزمر بقوله: (ما كسبوا) وآية الجاثية بقوله (ما عملوا) مع أن المقصد في الموضعين واحد وهو أنه لم يغب من أعمالهم السيئة شيء؟

والجواب عنه، أن العمل أعم من الكسب لأن الكسب واقع على ما للإنسان فيه تعمل وعلاج، وقد يطلق على غير الإنسان إذا كان الواقع منه ذلك حيوانًا يصح منه القصد كالجوارح المعلمة وشبهها، ومنها قوله: وتجر مجرية لها لحمى إلى أجر حواشب

وأجر جمع جرو، وأما العمل فيقع على ذلك وعلى ما جرى من فاعله وإن لم يكن منه قصد ولا تعمل ولا هو فاعل حقيقة، فيطلق على ما لا يطلق فيه الكسب، ومنه بيت الكتاب:

حتى شآها كليل موهنًا عمل باتت طرابًا وبات الليل لم ينم

فوصف البرق بأنه عمل، ومقصود الآية أنه بدا لهم كل ما كان منهم على الاستيفاء، لأنه إخبار موعظة وتهديد وإشعار بالوعيد، فيناسبه ما يجري في

=

=

المناقشة. وإذا كان المعنى على ما ذكرنا فالمطابق لهذا ما ورد في الجاثية من التعبير ببدأ والعمل، وعلى هذا ورد قوله في سورة النحل وعيد للمقول فيهم: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ...) (النحل: ٣٣) ثم قال: (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا) (النحل: ٣٤)، ولم يرد هنا: (ما كسبوا) لأنه من قصد التوسعة (والاستيفاء) (مما يبدون من أعمالهم ويظهر الاستيفاء لذلك)، وكذلك الوارد في الجاثية، وإذا وضح هذا بفينبغي السؤال عما ورد في سورة الزمر، ولم عدل به عن هذا فقيل: (ما كسبوا)؟

والجواب عنه، والله أعلم: أنه إنما ورد تتمة لما تقدمه من قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) (الزمر: ٤٧)، فقوله: (مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) يتناول ما قدموه من سيئ أعمالهم غافلين عنه وناسين إياه، كان مما قصدوه فيه أنفسهم أو دون ذلك فقد حمل من هذا مع بعده ما تحصل من قوله: (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا)، وكان قوله مع ذلك: (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا) كالتتمة المؤكدة ومتناولًا ما قصدوه وأعملوا أنفسهم فيه، حصل من مجموع ذلك المكتسب وغير المكتسب، فلا فرق بين آية الزمر وآية الجاثية.

ولو قيل في آية الزمر: (ماعملوا) لكان تكرارًا لأن ذلك حاصل مما قبلها، ولو قيل في آية الجاثية (ماكسبوا) لما كان وافيًا بما بينا قبل أنه مقصود الكلام، فتبين خصوص كل من الواردين بموضعه، وأن عكس الوارد لا يمكن.

فإن قلت: ما الوجه هنا من قوله: (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) (الزمر: ٤٧)؟ تلك هي نكرة موصوفة كقولهم: مررت بما معجب لك. وإذ ذاك يحرز ما تقرر من المعنى بإبهامها، كما أن ما الاستفهامية حيث يقصد الإبهام تعظيمًا للأمر وتفخيمًا كقوله تعالى: (الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ) (الحاقة: ١ - ٢) وقوله:

=

=

(الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ) (القارعة: ١- ٢) تحرز لإبهامها من عظيم أمر الحاقة والقارعة ما لايفي به الوصف، والإبهام مقصود في التعظيم والتفخيم للأمر المعبّر بها عنه.

فإن قلت: إن (ما) يقل وقوعها نكرة موصوفة، قلت: بل هي حيث يقصد بها هذا المعنى موجودة في كثير من كلامهم وإن كانت الموصولة أكثر منها، إلا أن الموصولة لا تحرز ما ذكرنا من المعنى إحرازها.

فإن قلت: إنما يصح ما اعتمدت من المعنى على القول بتكليف ما لايطاق، وذلك أمر لم يكلف به: قلت إما أنه من الأمر فصحيح وقد امتحن به من قبلنا، وحمل عليهم بنص القرآن، وأما أنه مما لا يطاق فلا يبلغ هذا، بل نقول: إنه يطاق بمشقة، والآية ليست نصًا في هذه الأمة بل ولا في أهل الشرائع وحدهم، وإنما هي فيمن ينكر البعث الأخراوي ومن جارهم، ويبين ذلك ما قد ورد قبل آية الجاثية من قوله: (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا...) (الجاثية: ٣٢)، وهو قول من لا يصدق بالبعث وليس هذا من أتباع الرسل، ثم إن تخويفها يعم جميع المكلفين، والمؤمن الموفق أشد الخلق خوفًا منها: (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) (الأعراف: ٩٩)، ثم إنا نقول بجواز التكليف بما لا يطاق هقلًا ونمنعه شرعًا، وبسط هذا في مظانه.

الآية الخامسة من سورة الزمر- قوله تعالى في أهل النار: (إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) (الزمر: ٧١)، ثم قال تعالى في أهل الجنة: (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) (الزمر: ٧٣)، للسائل أن يسأل عن زيادة الواو في قوله: (وَفُتِحَتْ) في الآية الثانية؟

والجواب، والله أعلم: أن (إذا) في مثل هذا االكلام جارية مجرى أدوات الشرط في احتياج الفعل بعدها إلى الجواب، إلا أن جوابها في قول البصريين لا ينجزم إلا

=

=

في الشعر، وأهل الكوفة يرون أنها تجزم في الكلام، وقد اتفقنا في استدعائها الجواب، فوقع جوابها في الآية الأولى منطوقًا به وهو قوله: (فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)، فلا مدخل. وأما الآية الثانية فجوابها محذوف مقدر، وقوله: (وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) كلام معطوف على ما قبله كما عطف عليه ما بعده، ولو كان جوابًا لكان مقتضاه أنها لا تفتح إلا عند مجيئهم، كالحال في أهل النار، وليس كذلك، والله أعلم. ألا ترى قوله تعالى في سورة ص: (هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ) (ص: ٤٩- ٥٠) فانتصاب (مفتحة) إنما هو على الحال، والحال قيد فيما قبلها.

فإذا قلت: جاء زيد ضاحكًا فالمعنى: جاء زيد متصفًا وقت مجيئه بالضحك، فالضحك خيئة حين المجيء وليس المراد أن ضحكه بعد المجيء، وإنما المعنى أن تلك صفته التي جاء عليها بل تقدمت مجيئه ولهذا قال سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ قول بعض العرب مررت برجل معه صقر (صائدًا به غدًا، فقدره: مررت برجل معه صقر) مقدرًا الصيد به غدًا، فقدره بما هو حاصل ثابت وقت المرور، ولهذا قالوا في قول العرب: قمت وأَوُكّ عينه أنه من الشاذ النادر ونحوه ما أنشدوه من قول الشاعر:

فلما خشيت أظافيرهم نجوت وأرهنهم مالكا

فهذا في غاية القلة، ويحسن ورود الماضي حالًا إذا كانت معه قد لاقتضائها القرب، حتى يزول احتمال أن يكون منقطعًا فيضاد مقود الحال، فإن قويت الدلالة عليه من المعنى جاز وروده في فصيح الكلام، وعليه جاء قوله في قراءة الأكثر (أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ....) (النساء: ٩٠) لدلالة المعنى، وقرأ يعقوب (حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ) فبينت قراءته ما قرأ به الجماعة، فقد تبين أن قوله تعالى: (فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) معطوف على قوله: (جَاءُوهَا) وليس جوابًا، ومما يبين ما ذكرناه في معنى الآية ويشهد له إخباره ﷺ في الصحيح أنه أول من

=

=

يفتح وأول من يقرع باب الجنة، فقد أوضح هذا أن الداخلين تالون له وبعده فيجدونها مفتوحة الأبواب، وإذا لم يتوقف فتح أبوابها على مجيئهم فليس قوله: (وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) جوابًا لو فرضنا أن لا يعتد بالواو كما يقول أهل الكوفة.

فإن قيل: فما جواب إذا؟ قلت: الجواب- والله أعلم- مقدر بعد، يفسره المعنى، كأن قد قيل: حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين أنسوا وأمنوا أو ما يرجع إلى هذا المعنى ويحرزه، وإذ ذلك يقولون: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) (فاطر: ٣٤)، وقد نقل منسوبًا إلى أهل الكوفة أن الواو قد تزاد في الجواب في مثل هذا، وعليه عندهم ما ورد في مثل قول امرئ القيس: فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى

قالو: قوله: وانتحى جواب (لما) والواو زائدة، وعند غيرهم أن قوله: (وانتحى) معطوف على (أجزنا)، والجواب محذوف أي أنسنا أو تحدثنا أو ما يحرز هذا المعنى، ومن محسنات الحذف الطول هنا وفي الآية الكريمة، ثم إن الآية قد اوضح مقصودها ما ورد في سورة ص.

فإن قيل: إن قوله في تقدير الجواب في البيت: أنسنا أو تحدثنا التقدير فليس ذلك بمعين، ولا يحذف الجواب أو الخبر أو ما يحذف إلا بعد أن يتعين؟ فلاجواب إنا لم نقدر ما يتغاير معناه، ولا شك أن المراد تعيينه إنما هو المعنى، ثم نحوم على ما نحصله من العبارة اللفظية مما يرجع إلى معنى واحد، هذا قول المحصلين، وهذا رد على من جعل خبر المبتدأ في قولهم: كل رجل وضعيته هذا المعطوف الذي: هو وضعيته، وقال إن الفائدة قد حصلت بذلك وتم الكلام، وتأول كلام سيبويه على هذا وقال: إن الذي قدره الفارسي وغيره، فقولهم واحد. فقال: تقدير سيبويه تقدير معنى، وإنما كلامنا في تقدير الإعراب وما يجوز حذفه من اللفظ وما لا يجوز، وجوابه أن سيبويه وأبا علي مومن قال بقولهما إنما اعتمدوا في الدلالة على

=

سورة غافر أو المؤمن(١)

=

أن الخبر محذوف ما تعطيه وتدل عليه واو مع في قوله: (وضيعته) التي اتفق الكل وأنت معهم أنها بمعنى (مع) فلدلت على معنى الالتزام، فلا مبالاة بالاختلاف في تقدير الألفاظ المترادفة ما لم يختلف المعنى، فتقدير مقرونان أن متلازمان أو متلاصقان إلى ما يحرز معنى الاجتماع الذي تعطيه وتقتضيه واو مع لاتضييق في ذلك، وشأن من اغتر بنظره فلم يتلبث، ولم يتهم نفسه، ولا بالي بمخالفته الجماهيير في كل صناعة، أنه قل ايصيب، والناس في هذه المسألة متفقون على ما اعتمده سيبويه والفارسي، ولم يجعل واحدًا منهم خلافًا إلا ما زعمه هذا القائل، وقد خرج بنا (الكلام) إلى ما موضعه أولى به، وأما الآية فقد (وضح) أمرها، والحمد لله. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٢٤-٤٣٠).

(١) اختلف أهل العلم في وقت نزول السورة على اقوال:

أحدها: أنها نزلت بمكة. قاله ابن عباس ، ومسروق ، وسمرة بن جندب ، والحسن ، وعطاء ، وعكرمة ، وجابر.

قال ابن عباس:"أنزلت الحواميم السبع بمكة".

قال الشعبي:"أخبرني مسروق أن آل حم، إنما نزلت بمكة".

قال سمرة بن جندب:"نزلت الحواميم جميعا بمكة".

الثاني: أنها مكية، إلا قوله: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك} [غافر: ٥٥]... الآية، لأن الصلوات نزلت بالمدينة. قاله الحسن.

الثالث: أنها مكية، إلا قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ ببالِغِيه} [غافر: ٥٦]. وهذا قول أبي العالبة.

الرابع: أنها مكية إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة وهما: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ

=

=

ال} [غافر: ٥٦] والتي بعدها. قاله ابن عباس -أيضا- ، وقتادة.
قال الفيروزآبادي:"السورة مكية بالاتفاق".
قال ابن عطية:"هذه السورة مكية بإجماع، وقد روي في بعض آياتها أنها مدنية، وهذا ضعيف، والأول أصح".
قال ابن عاشور:"هي مكية بالاتفاق وعن الحسن استثناء قوله تعالى: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} [غافر: ٥٥]، لأنه كان يرى أنها نزلت في فرض الصلوات الخمس وأوقاتها، ويرى أن فرض صلوات خمس وأوقاتها ما وقع إلا في المدينة وإنما كان المفروض بمكة ركعتين كل يوم من غير توقيت، وهو من بناء ضعيف على ضعيف فإن الجمهور على أن الصلوات الخمس فرضت بمكة في أوقاتها على أنه لا يتعين أن يكون المراد بالتسبيح في تلك الآية الصلوات بل يحمل على ظاهر لفظه من كل قول ينزه به الله تعالى".
وقال ابن عاشور:"وأشذ منه ما روي عن أبي العالية أن قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبالِغِيه} [غافر: ٥٦]، نزلت في يهود من المدينة جادلوا النبيء ﷺ في أمر الدجال وزعموا أنه منهم. وقد جاء في أول السورة {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} [غافر: ٤]. والمراد بهم: المشركون".
* عدد آياتها خمس وثمانون فى عدّ الكوفة والشَّام، وأَربع فى الحجاز، واثنتان فى البصرة. وكلماتها أَلْف ومائة وتسع وتسعون. وحروفها أَربعة آلاف وتسعمائة وستون. الآيات المختلف فيها تسع: حم، كاظمين، التلاق، بارزون، {بني إِسْرَائِيلَ}، {فِي الحَمِيْمِ} {وَالبَصِيْرِ} {يُسْحَبُونَ} {كُنْتُمْ تُشْرِكُوْنَ} مجموع فواصل آياتها (من علق وتر).
* أسماء السورة.

=

=

تسمى «سورة غافر» لذكر وصفه تعالى: {غَافِرِ الذَّنْب} [غافر: ٣] في أولها. وبهذا الاسم اشتهرت في مصاحف المغرب.

وتسمى « حم المؤمن المؤمن» وردت تسمية هذه السورة في السنة «حم المؤمن المؤمن» كما في حديث الترمذي الآتي ، وبذلك اشتهرت في مصاحف المشرق، وبهذا الاسم ترجمها البخاري في: «صحيحه» والترمذي في: «سننه». ووجه التسمية أنها ذُكرت فيها قصة: مؤمن آل فرعون، ولم تذكر في سورة أخرى بوجه صريح.

ثانيا:- اسماؤها الإجتهادية:

وتسمى أيضًا سورة «الطَّوْل» لقوله تعالى في أولها: {ذِي الطَّوْلِ} [غافر: ٣]، وقد تنوسي هذا الاسم.

وتسمى«سورة حم الأولى» سمّاها بها الفيروزآبادي في كتابه البصائر ، وعللّ تسميتها بهذا الاسم لكونها "أولى ذوات «حم» " ، دون استناد إلى حديث في كلامه.

قال تاج القرآء:"وسميت هذه السورَ السبع: «حم» على الاشتراك في الاسم لما بينهن من التشاكل الذي اختصت به، وهو أن كل واحدة استفتحت بالكتاب أو صفة الكتاب، مع تقارب المقادير في الطول والقصر وتشاكل الكلام في النظام".

* معظم مقصود السّورة: المِنَّة على الخَلْق بالغفران، وقبول التوبة، وخطبة التوحيد على جلال الحقّ، وتقلب الكفار بالكسب والتجارة، وبيان وظيفة حَمَلة العرش، وتضرّع الكفَّار فى قَعْر الجحيم، وإِظهار أَنوار العَدْل فى القيامة، وذكر إِهلاك القرون الماضية، وإِنكار فرعون على موسى وهارون، ومناظرة خربيل لقوم فرعون نائبًا عن موسى، وعَرْض أَرواح الكفَّار على العقوبة، ووعد النَّصر للرّسل، وإِقامة أَنواع الحجّة والبرهان على أَهل الكفر والضَّلال، والوعد بإِجابة

=

=

دعاءِ المؤمنين، وإظهار أنواع العجائب من صنع الله، وعجز المشركين فى العذاب، وأَنَّ الإيمان عند اليأْس غير نافع، والحكم بخسران الكافرين والمبطلين فى قوله: {وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُوْنَ}.

* المتشابهات: قوله: {أَوَلَمْ يَسِيروُا فِي الأرض}، وبعده: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا} ما يتعلَّق بذكرهما سبق.

قوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم}، وفى التغابن: {بِأَنَّهُ كَانَت} لأَنَّ هاءَ الكناية إِنما زيدت لامتناع (أَنَّ) عن الدّخول على (كان) فخُصّت هذه السّورة بكناية المتقدّم ذكرهم؛ موافقة لقوله: {كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً} وخُصّت سورة التغابُن بضمير الأَمر والشأْن توصّلا إِلى (كان).

قوله: {فَلَمَّا جَآءَهُمْ بالحق} فى هذه السورة فحسْبُ، لأَنَّ الفعل لموسى، وفى سائر القرآن الفعل للحقِّ.

قوله: {إِنَّ الساعة لآتِيَةٌ} وفى طه {آتِيَةٌ} لأَنَّ اللام إِنَّما يزاد لتأْكيد الخبر، وتأْكيد الخبَر إِنَّما يُحتاجُ إِليه إِذا كان المخبرَ به شاكًّا فى الخبر، والمخاطبون فى هذه السّورة هم الكفَّار، فأَكَّد. وكذلك أَكّد {لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس} (وافق ما قبله) فى هذه السّورة باللاَّم:

قوله {ولاكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ}، وفى يونس {ولاكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ} - وقد سبق -، لأَنَّه وافق ما قبله فى هذه السّورة: {ولاكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُوْنَ}، وبعده: {ولاكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُوْنَ} ثم قال: {ولاكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ}.

قوله فى الآية الأُولى {لاَ يَعْلَمُوْنَ} أَى لا يعلمون أَنَّ خَلْق الأَصغر أَسهل من خَلْق الأَكبر، ثمَّ قال: {لاَ يُؤْمِنُوْنَ} أَى لا يؤمنون بالبعث ثم قال: {لاَ يَشْكُرُونَ} أَى لا يشكرون الله على فضله. فختم كلّ آية بما اقتضاه.

=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

حم (١).

{حم} الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِهِ[2].

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢).

{تنزيل الكتاب} القرآن مبتدأ {من الله} خبره {الْعَزِيز} فِي مُلْكه {الْعَلِيم} بِخَلْقِهِ.

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣).

{غَافِر الذَّنْب} لِلْمُؤْمِنِينَ {وَقَابِل التَّوْب} لَهُمْ مَصْدَر {شَدِيد الْعِقَاب} لِلْكَافِرِينَ أَيْ مُشَدَّدَة {ذِي الطَّوْل} الْإِنْعَام الْوَاسِع وَهُوَ مَوْصُوف عَلَى الدَّوَام

=

قوله {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَّ إِلاه إِلاَّ هُوَ} سبق.

قوله: {الحمد للهِ رَبِّ العالمين} مدح نفسه سبحانه، وختم ثلاث آيات على التَّوالى بقوله {رَبِّ العالمين} وليس له فى القرآن نظير.

قوله: {وَخَسِرَ هُنَالِكَ المبطلون} وختم السّورة بقوله {وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون}؛ لأَنَّ الأَوّل متصل بقوله: {قَضَى بِالحَقِّ} ونقيض الحق الباطل، والثانى متصل بإِيمان غير مُجْد، ونقيض الإِيمان الكفر. بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٠٩- ٤١٢).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

بِكُلِّ هَذِهِ الصِّفَات فَإِضَافَة الْمُشْتَقّ مِنْهَا لِلتَّعْرِيفِ كَالْأَخِيرَةِ {لَا إلَه إلَّا هُوَ إلَيْهِ الْمَصِير} الْمَرْجِع[1].

---

(١) قوله تعالى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}[غافر: ٢].

قال الطبري:"يقول الله تعالى ذكره: من الله العزيز في انتقامه من أعدائه، العليم بما يعملون من الأعمال وغيرها تنزيل هذا الكتاب".

قال ابن كثير:"أي: تنزيل هذا الكتاب- وهو القرآن- من الله ذي العزة والعلم، فلا يرام جنابه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه".

قال مقاتل:"يقول: قضي تنزيل الكتاب من الله {العزيز} في ملكه، {العليم} بخلقه".

قال السعدي:"يخبر تعالى عن كتابه العظيم وبأنه صادر ومنزل من الله، المألوه المعبود، لكماله وانفراده بأفعاله، {الْعَزِيزِ} الذي قهر بعزته كل مخلوق {الْعَلِيمِ} بكل شيء".

قال أبو العالية:"{عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

قال محمد بن إسحاق: " {عليم}، أي: عليم بما يخفون".

قال سعيد بن جبير:"{عليم} يعني: عالما بها".

قوله تعالى: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ} [غافر: ٣]، أي:"غافر الذنب للمذنبين، وقابل التوب من التائبين".

قال الحسن:"{غافِرِ الذَّنْبِ} لِمَن لم يتب، {وقابِلِ التَّوْبِ} مِمَّن تاب".

قال ابن كثير:"أي: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخَضَع لديه".

قال السعدي:"{غَافِرِ الذَّنْبِ} للمذنبين {وَقَابِلِ التَّوْبِ} من التائبين".

=

=

قال سهل:"{غافِرِ الذَّنْبِ}، أي: ساتر الذنب على من يشاء، {وَقابِلِ التَّوْبِ} عمن تاب وأخلص العمل له بالعلم".

قال النسفي:"{غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْب} لمن قال لا إله إلا الله".

وقال مقاتل:"{غَافِرِ الذَّنْبِ}، يعني: من الشرك".

قال القشيري:"يقال: غافر الذنب لمن أصرّ واجترم، وقابل التوب لمن أقرّ وندم، شديد العقاب لمن جحد وعند، ذى الطول لمن عرف ووحد".

قال زكريا الأنصاري:"{غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْب}: صفتان لله- تعالى -، والإضافة محضة؛ لأنه- تعالى- لم يزل غافر الذنب، وقابل التوب".

قوله تعالى: {شَدِيدِ الْعِقَابِ} [غافر: ٣].

قال مقاتل:"لمن لم يتب من الشرك".

قال النسفي:"لمن لا يقول لا إله إلا الله".

قال السعدي:"على من تجرأ على الذنوب ولم يتب منها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: شديد عقابه لمن عاقبه من أهل العصيان له، فلا تتكلوا على سعة رحمته، ولكن كونوا منه على حذر، باجتناب معاصيه، وأداء فرائضه، فإنه كما أن لا يؤيس أهل الإجرام والآثام من عفوه، وقبول توبة من تاب منهم من جرمه، كذلك لا يؤمنهم من عقابه وانتقامه منهم بما استحلوا من محارمه، وركبوا من معاصيه".

قال ابن كثير:"أي: لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله، وبغى وقد اجتمع في هذه الآية الرجاء والخوف. وهذه كقوله تعالى: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ} [الحجر: ٤٩، ٥٠] يقرن هذين الوصفين كثيرًا في مواضع متعددة من القرآن؛ ليبقى العبد بين الرجاء والخوف".

عن علي بن زيد، قال: "تلا مطرف هذه الآية: {شديد العقاب}، قال: لو يعلم

=

=

الناس قدر عقوبة الله، ونقمة الله، وبأس الله، ونكال الله، لما رقأ لهم دمع، وما قرت أعينهم بشيء".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: " لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع في الجنة أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من الجنة أحد، خلق الله مائة رحمة، فوضع رحمة واحدة بين خلقه يتراحمون بها، وعند الله تسعة وتسعون رحمة".

قوله تعالى: {ذِي الطَّوْلِ} [غافر: ٣]، أي:"وهو سبحانه وتعالى صاحب الإنعام والتفضُّل على عباده الطائعين".

قال أبو عبيدة: أي:"ذى التفضل، تقول العرب للرجل: إنه لذو طول على قومه أي ذو فضل عليهم".

قال الزجاج:"معناه: ذي الغنى والفضل والقدرة. تقول: لفلان على فلان طول. إذا كان له عليه فضل".

قال الطبري:"يقول: ذي الفضل والنعم المبسوطة على من شاء من خلقه؛ يقال منه: إن فلانا لذو طول على أصحابه، إذا كان ذا فضل عليهم".

قال السعدي:"أي: التفضل والإحسان الشامل".

قال ابن كثير:"المعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هو فيه من المنن والأنعام، التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم: ٣٤]".

قال سهل:"{ذِي الطَّوْلِ}: ذي الغنى عن الكل".

عن مجاهد، قوله:"{ذِي الطَّوْلِ}: الغنى". وفي رواية:"ذي إنعام".

قال ابن عباس:"يقول: ذي السعة والغنى".

قال قتادة:"أي: ذي النعم".

=

=

قال الضحاك:"ذي المَنّ".

قال الحسن:"ذي الفضل".

قال القرطبي:"أي: ذي المن".

قال ابن قتيبة:"{الطَّوْلُ}: التفضُّل. يقال: طُل عليّ برحمتك؛ أي تفضَّل".

قال البيضاوي:"الطول: الفضل بترك العقاب المستحق".

قال مقاتل:"يعني: ذي الغنى عمن لا يوحده".

وقال ابن زيد:"الطول القدرة، ذاك الطول".

قوله تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [غافر: ٣]، أي:"لا معبود تصلح العبادة له سواه".

قال الطبري:"يقول: لا معبود تصلح له العبادة إلا الله العزيز العليم، الذي صفته ما وصف جلّ ثناؤه، فلا تعبدوا شيئا سواه".

قال ابن كثير:"أي: لا نظير له في جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه".

عن كعب قال:"لا إله إلا الله، كلمة الإخلاص".

قال محمد بن إسحاق: "لا إله إلا الله، أي: ليس معه غيره شريك في أمره".

قال السعدي:"فلما قرر ما قرر من كماله وكان ذلك موجبًا لأن يكون وحده، المألوه الذي تخلص له الأعمال قال: {لا إِلَهَ إِلا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ}".

قوله تعالى: {إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [غافر: ٣]، أي:"إليه مصير جميع الخلائق يوم الحساب، فيجازي كلا بما يستحق".

قال الطبري: يقول: " إلى الله مصيركم ومرجعكم أيها الناس، فإياه فاعبدوا، فإنه لا ينفعكم شيء عبدتموه عند ذلك سواه".

قال ابن كثير:"أي: المرجع والمآب، فيجازي كل عامل بعمله، {وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [الرعد: ٤١]".

قال القشيري:"وإذا كان إليه المصير فقد طاب إليه المسير".

=

=

عن عبد الله بن عمر -من طريق أسلم-: " {ذِي الطَّوْلِ} ذي الغِنى، {لا إِلَهَ إلّا هُوَ} كانت كُفّار قريش لا يُوَحِّدونه، فوحَّد نفسه، {إِلَيْهِ المَصِيرُ} مصير مَن يقول: لا إله إلا الله، فيُدخله الجنة، ومصير مَن لا يقول: لا إله إلا الله، فيُدخله النار".

قال السعدي:"ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله الموصوف بهذه الأوصاف [{غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ}]: أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن، من المعاني. فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله، وصفاته، وأفعاله، وهذه أسماء، وأوصاف، وأفعال. وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة، فهي من تعليم العليم لعباده. وإما إخبار عن نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك، من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: {ذِي الطَّوْلِ} . وإما إخبار عن نقمه الشديدة، وعما يوجبها ويقتضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: {شَدِيدِ الْعِقَابِ} وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة، والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ} وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوى الله، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: {لا إِلَهَ إِلا هُوَ} وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: {إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات".

قال العثيمين: قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{تنزيل الكتاب} القرآن، مبتدأ، يعني: المراد بالكتاب هنا القرآن، مع أن الكتاب اسم جنس يحتمل أن تكون فيه (أل) للجنس، فيشمل كل كتاب، ولكن الظاهر ما ذهب إليه المفسر، لأن المقصود بذلك تقرير كون هذا القرآن الذي نزل على المكذبين من عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

=

=

وقوله: [مبتدأ] يريد قوله: {تنزيل}؛ أي: أنها مبتدأ، والمبتدأ يحتاج إلى خبر، والخبر قوله: {من الله}؛ ولهذا قال المفسر: [{من الله} خبره] تنزيل الكتاب من الله لا من غيره.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{العزيز} في ملكه {العليم} بخلقه] العزيز: ذو العزة، وقد سبق أن عزة الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- عزة القدر.

٢- وعزة القهر.

٣- وعزة الامتناع.

وهو كذلك في كل موضع جاء فيه "العزيز" فهذا هو معناه، أي: أنه ذو عزة.

أما عزة القدر: فمعناها: أنه ذو شرف وسيادة.

وأما عزة القهر فمعناها: أنه ذو غلبة وسلطان.

وأما عزة الامتناع: فمعناه: أنه ذو امتناع عن كل نقص وعيب.

وقد سبق الاستشهاد على هذه المعاني الثلاثة وبيان اشتقاقها؛ فيكون قول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{العزيز} في ملكه، فيه قصور؛ لأنه جعله بمعنى الغالب فقط، والصواب ما ذكرنا لكم.

وقوله تعالى: {العليم} قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [بخلقه] والعليم أي: ذو العلم، وعلم الله سبحانه وتعالى ليس بمحدود لا أولا، ولا آخرا، ولا مقدارا، فعلم الله تعالى واسع شامل لكل شيء، علم الله تعالى أزلي؛ أي: لم يسبقه جهل، علم الله تعالى أبدي؛ أي: لا يلحقه نسيان، فصار علم الله تعالى واسعا شاملا زمنا وكيفا، زمنا أي: في المستقبل وفي الماضي، وكيفا أي: أنه شامل لكل ما من شأنه أن يعلم.

قال الله عَجَّلَ: {غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير} [غافر: ٣].

=

=

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{غافر الذنب} للمؤمنين {وقابل التوب} لهم {شديد العقاب} للكافرين]، قوله: {غافر الذنب} الغفر هو الستر مع الوقاية، ومنه المغفر: ما يوضع على الرأس عند الحرب؛ لاتقاء السهام، ومعلوم أن المغفر ساتر، فهو جامع بين الستر والوقاية، والذنب: المعصية، يقال: أذنب الرجل. إذا عصى، ومعنى غافر الذنب؛ أي: ساتره المتجاوز عنه.

وقول المفسر: [للمؤمنين] فيه نظر واضح؛ لأن مغفرة الذنب شامل للمؤمنين وغير المؤمنين، قال الله تبارك وتعالى: {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف} [الأنفال: ٣٨]، فهو غافر الذنب لكل من تاب إلى الله وسأل المغفرة.

وقوله: {وقابل التوب} قابله: معناها: أن من تاب إلى الله قبل الله توبته، و {التوب} بمعنى: الرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ من معصيته إلى طاعته.

وقال المفسر: [لهم] أي: للمؤمنين، وهذا أيضا ليس بصحيح، فالتوبة مقبولة من المؤمنين والكافرين، قال الله تبارك وتعالى عن المشركين: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين} [التوبة: ١١].

وقال تعالى: {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما (١٧) وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما} [النساء: ١٧، ١٨].

فقال: {يموتون وهم كفار} إذن: لو تابوا قبل ذلك لقبلت، فتبين بهذا أن ما ذهب إليه المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تخصيص ذلك بالمؤمنين يعتبر قصورا.

قال: [مصدر] {وقابل} اسم فاعل، إذن فالمصدر هو {التوب}.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {شديد العقاب} للكافرين] كأن المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خص الغافر والقابل بالمؤمنين؛ لقوله: {شديد العقاب}؛ لأن شدة العقاب إنما هي للكافرين، ولكن

=

=

في هذا نظرا؛ لأن المقصود هنا ذكر صفة الله سبحانه وتعالى أنه جمع بين الفضل والعدل، بين الفضل في كونه غافر الذنب وقابل التوب، والعدل في كونه شديد العقاب؛ لأن شدة العقاب من الله ﷻ لمن استحقها عدل، إذ إن الله أخبرنا وبين لنا أن من فعل كذا عاقبه بالعقوبة الشديدة، فإذا فعل الإنسان ما توعد عليه بالعقوبة الشديدة فهو الذي اختار لنفسه هذا، فيكون معاملة الله له به تكون عدلا.

وقوله: [أي: مشدده] ولينتبه لهذا التفسير! فقد عدل عن ظاهر الآية التي تفيد أنه نفسه شديد العقاب؛ لأنهم- الأشاعرة- ينفون الصفات، والتشديد فعل بائن عن الله ﷻ، فهي مثل القادر، يعني تعود الصفة على مذهب الأشاعرة إلى القدرة، وتعود على مذهب الماتريدية إلى الخلق؛ لأن الماتريدية يثبتون الخلق والتكوين بخلاف الأشاعرة.

فلننظر الآن: فعلى كلام المفسر تكون {شديد} بمعنى مشدد، ولنا أن نطالب فنقول: هل "فعيل" تأتي بمعنى "مفعل"؟ الجواب: نعم، تأتي "فعيل" بمعنى مفعل كقول الشاعر:

أمن ريحانة الداعي السميع ... يؤرقيي وأصحابي هجوع

"السميع" هنا بمعنى المسمع، "الداعي" الذي يسمعه، "يؤرقني" فلا أنام، "وأصحابي هجوع" نائمون.

فمن حيث اللفظ لا اعتراض على المفسر؛ أي: من حيث جعله (فعيل) بمعنى (مفعل) لا اعتراض عليه؛ لأن ذلك وارد في اللغة العربية، لكن من حيث المعنى فيه نظر؛ لأن ظاهر قوله: {شديد العقاب}، أنه هو نفسه عقابه شديد، وهو كذلك، فإذا كان العقاب شديدا لزم أن يكون الألم -ألم من عوقب- شديدا أيضا، والعقاب مأخوذ من المعاقبة، وهي المجازاة، وسميت المجازاة عقابا؛ لأنها تعقب العمل، لكنها تذكر غالبا فيما يسوء لا فيما يسر.

=

=

قال الله ﷻ: {ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير} [غافر: ٣].

قوله: {ذي} بمعنى صاحب، وهي مجرورة بالياء نيابة عن الكسرة؛ لأنها من الأسماء الخمسة.

و {الطول} يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: الإنعام الواسع] هذا الطول، قال الله تبارك وتعالى: {ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات} [النساء: ٢٥] إلى آخره؛ فالطول هو الغنى الواسع، ومن تمام الغنى أن يكون منعما، والله سبحانه وتعالى منعم، واسع الغنى.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ذي الطول} وهو موصوف على الدوام بكل من هذه الصفات، فإضافة المشتق منها للتعريف كالأخيرة] فيه عدة صفات {غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول} هذه أربعة، والأخيرة غير مشتقة، فإن {ذي} بمعنى صاحب غير مشتقة، لكنها مؤولة بمشتق، أما ما قبلها {شديد العقاب}، {وقابل التوب}، {غافر الذنب}، فهي مشتقة، ووصف، ولهذا جاءت باسم الفاعل، وجاء "الغفور" الذي هو اسمه على صيغة المبالغة.

وجعل المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الصفات لا يراد بها إثبات المعنى المشتق منه، ولكنها للتعريف فقط، ولا يخفى ما في هذا الكلام من القصور التام، فكيف نجعل المشتق لمجرد التعريف؟ كيف نقول: إن {غافر الذنب} المراد بذلك التعريف بالله ﷻ، لا أنه غافر، ولا أنه قابل، ولا أنه شديد العقاب؟ ! فهو قاصر جدا، ولا يصح أن نفسر كلام الله تعالى بهذا الكلام، بل نقول: {غافر} مشتق من الغفر، وهو صفة مقصودة، ليس المقصود بها التعريف، وكذلك نقول في {وقابل التوب}، وفي {شديد العقاب}.

وقول المفسر: [موصوف على الدوام بكل من هذه الصفات] قال ذلك هربا من إثبات صفات الأفعال، فانتبه لأنك إذا قلت: غافر بمعنى يغفر، صارت صفة فعل

=

=

يتعلق بالمشيئة!. وعند الأشاعرة وغيرهم من المتكلمين يمتنع أن يوصف الله تعالى بوصف هو فعل، لا يمكن، قالوا: لأن الفعل يدل على الحدوث، والحدوث لا يكون في القديم، لا يكون الحدوث إلا لحادث!.

وقد سبق لنا بيان بطلان هذا القول، فالصواب إذن: أن {غافر} {وقابل} صفتان من صفات الأفعال، وأما {شديد العقاب} فهي أيضا صفة من صفات الأفعال؛ لأن التقدير: عقابه شديد، فهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، أي: أن عقابه شديد، فتكون كما سبق من الصفات الفعلية.

وأما {ذي الطول} فإذا قلنا: إن معناه ذي الغنى الواسع، فهي من صفات الذات، وإذا قلنا: إنها بمعنى الإنعام الواسع؛ فهي من صفات الأفعال.

فإن قال قائل: هل {شديد} صفة فعل لله ﷻ؟

فالجواب: لا هي صفة لفعله، ليست صفة فعل، وإنما هي صفة لفعل الله، يعني نفس العقاب شديد، وهو جعلها مشددا شيئا منفصلا عن الله ﷻ.

فإن قيل: عقاب الله منه النار، فكأنها هي التي وصفت بالشدة، فكيف وصفنا بها الله سبحانه وتعالى؟

فالجواب: هو نفسه شديد العقاب، أنا مثلا إذا قلت: فلان قوي الضرب. يعني ضربه الواقع منه قوي، والعقاب الواقع منه شديد، والموصوف الله ﷻ شدة عقابه هو، أما المعاقب به فهذا شيء آخر، فعندنا عقاب ومعاقب به ومعاقب وارد عليه العقاب، فإذا عاقبت شخصا بالضرب فهذا الضرب معاقب به، وأما ضرب الضارب فهو وصفه الذي هو عقابه.

فإن قال قائل: قلنا: إن المفسر يتهرب من إثبات الصفات الفعلية، ثم هو قال هنا: [ذي الطول الإنعام الواسع، وهو موصوف على الدوام بكل من هذه الصفات]. فهو هنا أثبت الصفات؟

=

=

فالجواب: أي لكن على أنها صفات ذاتية، ثم إن المفسر أيضا لاحظ شيئا آخر من جهة النحو، وهو أن {غافر الذنب} و {وقابل التوب} {شديد العقاب} هذه صفات مضافة، وإضافتها ليست محضة، بل إضافتها إضافة لفظية، والإضافة اللفظية لا تقتضي التعريف.

فإن قال قائل: لكن سماها صفات!.

فالجواب: لا مخالفة، هي صفات لكن ما قصده؟ انظر عبارة المفسر: [وهو موصوف على الدوام بكل من هذه الصفات، إذا كان موصوفا بها على الدوام فتكون صفات ذاتية. ثم يقول: [فإضافة المشتق منها للتعريف كالأخيرة] المشتق: {غافر} {وقابل} {شديد}، يقول: للتعريف، يعني أن إضافتها أفادت التعريف كالأخيرة: {ذي الطول} فإن هذه الإضافة أفادت التعريف لا شك؛ لأنها إضافة اسم جامد إلى معرفة، فيكون معرفة.

واسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة إذا أضيفت فإنها لا تفيد التعريف، ويسمون هذه الإضافة: إضافة لفظية، لا معنوية، وبعضهم يقول: محضة، وغير محضة، وأتى المفسر بهذا الكلام؛ لأنه يورد عليه مسألة: "الله العزيز العليم"، فهذه معارف، وإذا قلنا: غافر صفة لله. وقلنا: إن إضافتها لفظية، ورد علينا إشكال، الإضافة اللفظية لا تقتضي التعريف، فتكون الصفة نكرة وصف بها معرفة، ووصف المعرفة بالنكرة غير جائز.

ولا يجوز أن تقول: جاء زيد فاضل. يجب أن تقول: جاء زيد الفاضل. فإذا كانت الإضافة {غافر} و {وقابل} و {شديد}، في لا تفيد التعريف، وأعربناها على أنها صفة، فصار في هذا إشكال، وهو أننا وصفنا معرفة بنكرة، وهذا غير جائز، فأراد المفسر أن يصحح الموضوع فقال: إن هذه الصفات لا يراد بها الحدوث، وإنما هي صفات على الدوام، وإذا كانت الصفات على الدوام خرجت عن مشابهة

=

=

الفعل، وصارت الإضافة للتعريف؛ لأجل أن يصح وصف اسم الجلالة، أو لفظ الجلالة بهذه الصفات لما كانت إضافتها محضة معنوية.

لكن للمعربين قول آخر، بل قول ثالث: في القول الآخر يقولون: إن {غافر} و {وقابل} و {شديد} بدل من الله، والبدل لا يشترط فيه موافقة المبدل منه، لكن القول بأنها بدل غير صحيح؛ لأن علامة البدل أن يحل محل المبدل منه، وهذا لا يصح، هذا وصف زائد على الموصوف.

وهناك رأي ثالث لإخواننا الكوفيين الميسرين يقولون: يجوز أن تنعت المعرفة بمثل هذا التركيب، ولو كانت الإضافة لفظية غير محضة. يعني يقولون: ما أضيف إلى المعرفة ولو كانت الإضافة غير محضة يجوز أن يكون نعتا للمعرفة اعتبارا باللفظ؛ لأن لفظ: {غافر الذنب} معرفة؛ لأنه أضيف إلى معرفة، وإن كانت الإضافة عندهم غير حقيقية، وإنما هي لفظية.

فالنحويون يقولون: لا يهم لفظية أو معنوية، ما دام ظاهر اللفظ منسجم الصفة مع الموصوف، فهذا يكفي.

والقاعدة المتبعة عندنا فيما إذا ورد خلاف بين النحويين أن نتبع الأسهل اقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام، أنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما.

ونحن لا نأثم إذا اتبعنا الكوفيين في رأيهم؛ لأنها ليست مسائل شرعية؛ فعلى رأي الكوفيين لا حاجة إلى كلام المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فنقول: الإضافة لفظية، لكن صورتها أنها إضافة معنوية؛ لأنها أضيف إلى معرفة، فصح أن يوصف بها المعرفة؛ وهذا البحث لا يدركه الإنسان تماما إلا إذا عرف أن الإضافة نوعان: محضة معنوية، ولفظية غير محضة.

مسألة: كيف نجمع بين القول بأن أسماء الله تعالى لا تحصى، وبين قول النبي

=

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤).

=

ﷺ: "إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة"؛

فالجواب على ذلك أن نقول- إذا كان السائل مستفهما فقل: الجواب على ذلك، وإذا كان موردا أي مناقضا، فقل: الجواب عن ذلك؛ ولهذا يكون "الجواب عن ذلك" في مقام الرد على من اعترض عليك، و"الجواب على ذلك" في جواب من استرشد -: أن كلام النبي ﷺ ككلام الله لا يتناقض أبدا، فإذا كان قد ثبت عنه أنه قال: "أو استأثرت به في علم الغيب عندك" علمنا أن من أسماء الله ما لا يمكن الوصول إليه، ولا يمكن إدراكه؛ لأن ما استأثر الله به لا يمكن أن نعلمه، فحينئذ يتعين أن نقول: إن معنى قوله: "إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة" أي: من أسمائه تسعة وتسعين من أحصاها دخل الجنة، فتكون جملة "من أحصاها" وصفا لكلمة "اسما"، وليست جملة مستقلة مستأنفة، تكون معنى "إن لله تسعة وتسعين اسما" موصوفة بأن "من أحصاها دخل الجنة"، وله أسماء أخرى لكن اختر منها تسعة وتسعين فإذا أحصيتها دخلت الجنة.

ومعنى إحصائها: هو معرفتها لفظا ومعنى، والتعبد لله بمقتضاها، أي: معرفة لفظها ومعناها والتعبد لله تعالى بمقتضاها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إليه المصير} المرجع] الجملة خبرية مكونة من مبتدأ وخبر، والخبر فيها مقدم، وإذا قدم الخبر أفاد التخصيص والحصر؛ إليه أي: إلى الله وحده، المصير: المرجع، وهل المراد بقوله: {إليه المصير} أي: المرجع في كل شيء، أو إليه المصير بعد الموت؟

الجواب: إليه المصير في كل شيء، فإليه المرجع في الحكم بين الناس، إليه المرجع في تدبير الأمور، إليه المرجع بعد الموت، إليه المرجع في كل شيء، {هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم} [الحديد: ٣].

{مَا يُجَادِلِ فِي آيَات الله} الْقُرْآن {إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} مِنْ أَهْل مَكَّة {فَلَا يَغْرُرْك تَقَلُّبهمْ فِي الْبِلَاد} لِلْمَعَاشِ سَالِمِينَ فَإِنَّ عَاقِبَتهمْ النار[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي مالك؛ قال: نزلت في الحارث بن قيس السهمي.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٨٦)، و"الدر المنثور" (٧/ ٢٧٣) وقال: "وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي عن أبي مالك به". وهو ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} [غافر: ٤].

قال الطبري: يقول:"ما يخاصم في حجج الله وأدلته على وحدانيته بالإنكار لها، إلا الذين جحدوا توحيده".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان {إِلا الَّذِينَ كَفَرُوا}، أي: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه".

قال سهل:"{مَا يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ}، يعني: في الذات والقدرة والقرآن والسنة بهوى النفس، كما قال: {وَجادَلُوا بِالْباطِلِ}، أي: بالهوى من غير هدى من الله، كما قال: {فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} [آل عمران: ٦٦] {إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} وابتدعوا غير الحق".

قال السعدي:"يخبر تبارك وتعالى أنه ما يجادل في آياته إلا الذين كفروا والمراد بالمجادلة هنا، المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل، فهذا من صنيع الكفار، وأما المؤمنون فيخضعون لله تعالى الذي يلقي الحق ليدحض به الباطل".

قال الزمخشري:"سجل على المجادلين في آيات الله بالكفر: والمراد: الجدال بالباطل، من الطعن فيها، والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور الله، وقد دلّ على ذلك وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل
=

=

مشكلها، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنها، فأعظم جهاد في سبيل الله".

قال القشيري: "إذا ظهر البرهان واتّضح البيان استسلمت الألباب الصاحية للاستجابة والإيمان، فأمّا أهل الكفر فلهم على الجمود إصرار، وشؤم شركهم يحول بينهم وبين الإنصاف".

قوله تعالى: {فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ} [غافر: ٤]، أي: "فلا يغررك -أيها الرسول- ترددهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب، ونعيم الدنيا وزهرتها".

قال الطبري: " يقول جلّ ثناؤه: فلا يخدعك يا محمد تصرفهم في البلاد وبقاؤهم ومكثهم فيها، مع كفرهم بربهم، فتحسب أنهم إنما أمهلوا وتقلبوا، فتصرّفوا في البلاد مع كفرهم بالله، ولم يعاجلوا بالنقمة والعذاب على كفرهم لأنهم على شيء من الحق فإنا لم نمهلهم لذلك، ولكن ليبلغ الكتاب أجله، ولتحقّ عليهم كلمة العذاب، عذاب ربك".

قال الزجاج: "أي: فلا تغررك سلامتهم بعد كفرهم حتى إنهم، يتصرفون كيف شاءوا، فإن عاقبة كفرهم العذاب والهلاك".

قال ابن قتيبة: "أي: تصرفهم في البلاد للتجارة وما يكسبون، ومثله: {لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ} ".

قال السجستاني: {تقلبهم فِي الْبِلَاد}: تصرفهم فيها للتجارة، أي: فلا يغررك تصرفهم، وأمنهم وخروجهم من بلد إلى بلد، فإن الله جل وعز محيط بهم".

قال ابن عطية: " {تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ}، عبارة عن تمتعهم بالمساكن والمزارع والأسفار وغير ذلك".

قال ابن كثير: "أي: في أموالهم ونعيمها وزهرتها، كما قال: {لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران: ١٩٦،

=

=

١٩٧]، وقال تعالى: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [لقمان: ٢٤]".

عن قتادة: " {فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ}: أسفارهم فيها، ومجيئهم وذهابهم" ، وفي رواية: إقبالهم ، وإدبارهم ، وتقلبهم في أسفارهم".

قال السعدي:"لا ينبغي للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية، ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا دليل على محبته له وأنه على الحق، ولهذا قال: {فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ}، أي: ترددهم فيها بأنواع التجارات والمكاسب، بل الواجب على العبد، أن يعتبر الناس بالحق، وينظر إلى الحقائق الشرعية ويزن بها الناس، ولا يزن الحق بالناس، كما عليه من لا علم ولا عقل له".

قال الزمخشري:"فإن قلت: من أين تسبب لقوله: {فَلا يَغْرُرْكَ} ما قبله؟

قلت: من حيث إنهم لما كانوا مشهودا عليهم من قبل الله بالكفر، والكافر لا أحد أشقى منه عند الله: وجب على من تحقق ذلك أن لا نرجح أحوالهم في عينه، ولا يغره إقبالهم في دنياهم وتقلبهم في البلاد بالتجارات النافقة والمكاسب المربحة، وكانت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن، ولهم الأموال يتجرون فيها ويتربحون، فانّ مصير ذلك وعاقبته إلى الزوال، ووراءه شقاوة الأبد".

قال الماتريدي:"معلوم أن رسول الله- ﷺ- لا يغره تقلبهم في البلاد، لكنه ذكر الخطاب له، وأراد به غيره؛ لما يحتمل أن يظن قوم أن أهل الكفر لما كانوا فيه من التقلب في البلاد والسعة في عيشهم وأن أهل الإيمان في ضيق وشدة وخوف- أن أولئك على الحق وهؤلاء على الباطل، فجائز أن يظن ظان ما ذكرنا، فأخبر الله- ﷻ- أن الأمن والسعة، ليس بدليل على كون صاحبه على الحق، ولا الضيق والشدة بدليل على كون صاحبه على الباطل، ولكن محنة: امتحنهم مرة بالسعة والأمن، ومرة بالضيق والخوف؛ دليل ذلك: وجود الحالين جميعا في كل فريق مع

=

=

اختلاف مذاهبهم، وتضاد أقاويلهم.

ويحتمل أن يكون المراد منه أهل مكة، أي: لا يغررهم تقلبهم في البلاد وأمنهم وسعتهم بعد ما نزل بأهل الآفاق والنواحي أنهم على الحق، وأن ذلك إنما يدفع عنهم لمكانهم، وإنما يدفع ذلك عنهم، ويكونون على أمن؛ لمكان كونهم بقرب من البيت؛ لحرمته وشرفه".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا} [غافر: ٤]؛ "ما": نافية، و"إلا": أداة حصر، والجملة هنا جملة خبرية حصرية، فهي خبرية لأنها منفية، وحصرية لأنه حصر الجدال في الذين كفروا: {ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا}، أما الذين آمنوا فلا يجادلون في آيات الله.

والمجادلة: المنازعة والمخاصمة، مأخوذة من الجدل وهو: فتل الحبل حتى يشتد ويقوى هكذا، هذا أصل الجدل: المنازعة، وهي مأخوذة من الجدل أي: فتل الحبل؛ لأن كل واحد من المتنازعين كأنما يفتل حبلا لمنازعه، فيكون ذلك أشد في الإحكام.

وقوله: {في آيات الله} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [القرآن]، وينبغي أن نفسر الآيات بما هو أعم، وهذا الذي فسر المفسر به الآيات يعتبر قصورا، ولا ينبغي أن نفسر العام بأخص منه إلا إذا دلت قرينة قوية على ذلك، وهنا لا دلالة، فالمنازعون في آيات الله منهم من ينازع في القرآن، ومنهم من ينازع في السنة، ومنهم من ينازع في الخلق. فمثلا: الكسوف من آيات الله، وخسوف القمر من آيات الله، ومن الناس من يجادل فيه، ويقول: ليس هذا من باب تخويف العباد، وأي رابطة بين هذا وبين التخويف، وسببه طبيعي معلوم يدرك بالحساب؟ ! فيجادل في شرع الله، وفي آيات الله، فتقول مثلا: لماذا كان كذا، وكان في موضع آخر كذا وكذا؟ كقصة المعري الذي جادل في كون اليد تقطع في ربع دينار وديتها خمس مئة دينار، وكقول

=

=

بعضهم: لماذا ينتقض الوضوء بالريح من أسفل، ولا ينتقض بالريح من أعلى؟ والريح من أعلى هو: الجشاء، وما أشبه ذلك من المجادلات في الآيات الشرعية!.

ومنهم من يجادل في القرآن، يقول: القرآن فيه تناقض! قال الله تعالى: {ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين} [الأنعام: ٢٣]، وقال في آية أخرى: {ولا يكتمون الله حديثا} [النساء: ٤٢]، هذا تناقض! فيجادل.

فالمهم: أن الجدل يكون في الآيات الشرعية الثابتة في القرآن والسنة، ويكون أيضا في الآيات الكونية، فينبغي أن نفسر الآيات بما هو أعم مما ذكر المفسر، فنقول: {ما يجادل في آيات الله} الكونية أو الشرعية {إلا الذين كفروا}، وأما المؤمنون فلا يجادلون، المؤمنون يقولون: {كل من عند ربنا} [آل عمران: ٧]، ولا يجادلون، عرفنا ذلك من كونه حصر المجادلة في الذين كفروا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إلا الذين كفروا} من أهل مكة] وهذا تخصيص آخر، فالله عَزَّ وَجَلَّ يقول: {إلا الذين كفروا} والمفسر يقول: من أهل مكة، سبحان الله! القرآن يعمم، ونحن نخص، فهذا خطأ وقصور في التفسير، فنقول: {في آيات الله} أعم من القرآن، {إلا الذين كفروا} أعم من أهل مكة، فالذي يجادل في آيات الله: الذين كفروا من أهل مكة ومن غير أهل مكة، من أهل المدينة، من أهل الطائف، من أهل جدة، من أهل القصيم، من كل مكان، كلهم يجادلون في آيات الله، إذا كانوا كفارا. فإن قال قائل: كيف تجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: {وجادلهم بالتى هى أحسن} [النحل: ١٢٥] فأمر بالمجادلة؟ هنا أمر: {وجادلهم} وهنا قال: {ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا}؟

فالجواب: مجادلة الكفار تكون بالباطل لإبطال الحق، أما الذين آمنوا فمجادلتهم تكون لبيان الحق. إذن: المجادلة هنا غير المجادلة هناك.

قوله تعالى: {فلا يغررك تقلبهم في البلاد} الفاء: للتفريع على ما سبق، والخطاب

=

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥).

{كَذَّبَتْ قَبْلهمْ قَوْم نُوح وَالْأَحْزَاب} كَعَادٍ وَثَمُود وَغَيْرهمَا {مِنْ بَعْدهمْ وَهَمَّتْ كُلّ أُمَّة بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ} يَقْتُلُوهُ {وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا} يُزِيلُوا {بِهِ الْحَقّ فَأَخَذْتهمْ} بِالْعِقَابِ {فَكَيْفَ كَانَ عِقَاب} لَهُمْ أَيْ هُوَ وَاقِع مَوْقِعه[1].

=

في قوله: {فلا يغررك} إما للنبي ﷺ؛ لأنه الذي نزل عليه القرآن، وإما لعموم المخاطبين؛ لأن القرآن نزل للجميع، وأولاهما الثاني؛ لأن القاعدة التفسيرية عندنا: أنه إذا دار الأمر بين كون المعنى عاما أو خاصا؛ فإنه يحمل على العام؛ لأن الخاص يدخل في العام ولا عكس.

إذن: فلا يغررك أيها المخاطب، وأول من يدخل في ذلك الرسول ﷺ، و {يغررك} يعني: لا يخدعك، ولا تغتر به.

وقوله تعالى: {تقلبهم في البلاد} التقلب هو: التردد من شيء إلى شيء، ومنه تقلب الإنسان في فراشه من جنب إلى جنب، المعنى: لا يغرك ترددهم في البلاد يمينا وشمالا، وشرقا وغربا، للتجارة ولغير التجارة.

قال المفسر رحمه الله: [{تقلبهم في البلاد} للمعاش سالمين فإن عاقبتهم النار]، ولكن لو قال: فإن عاقبتهم البوار لكان أحسن؛ لأن الله تعالى ضرب مثلا بمن كان على حالهم بأن الله أهلكهم، فقال: {كذبت قبلهم قوم نوح} إلى آخره.

(١) قوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ} [غافر: ٥].

قال ابن كثير:"ثم قال تعالى مسليًا لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء؛ فإنه قد كذبهم أممهم وخالفوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليل، فقال: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ} وهو أول رسول بَعَثه الله ينهى عن

=

=

عبادة الأوثان، {وَالأحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ} أي: من كل أمة".

قال الطبري: " ثم قصّ على رسول الله ﷺ قصص الأمم المكذّبة رسلها، وأخبره أنهم كانوا من جدالهم لرسله على مثل الذي عليه قومه الذين أرسل إليهم، وإنه أحلّ بهم من نقمته عند بلوغهم أمدهم بعد إعذار رسله إليهم، وإنذارهم بأسه ما قد ذكر في كتابه إعلاما منه بذلك نبيه، أن سنته في قومه الذين سلكوا سبيل أولئك في تكذيبه وجداله سنته من إحلال نقمته بهم، وسطوته بهم، فقال تعالى ذكره: كذبت قبل قومك المكذبين لرسالتك إليهم رسولا المجادليك بالباطل قوم نوح والأحزاب من بعدهم، وهم الأمم الذين تحزبوا وتجمعوا على رسلهم بالتكذيب لها، كعاد وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مَدْيَن وأشباههم".

قال الماتريدي:"ذكر هذا لتصبير رسوله على تكذيب قومه إياه بالباطل؛ يقول: لست أنت بأول من كذبه قومه، ولا بأول من جادله قومه بباطل، لم يزل الأمم المتقدمة يكذبون رسلهم، ويجادلونهم بالباطل؛ فصبروا على ذلك؛ فاصبر أنت على تكذيب قومك، ومجادلتهم إياك بالباطل كما صبر أولئك كقوله: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: ٣٥]".

قال الزمخشري:"{الْأَحْزابُ}: الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم وهم عاد وثمود وفرعون وغيرهم من هذه الأمم التي هي قوم نوح والأحزاب".

قال ابن عطية:"{وَالْأَحْزابُ}: يريد بهم عادا وثمود أو أهل مدين وغيرهم".

قال السمعاني:"وهم الذين تحدثوا على الأنبياء".

قوله تعالى: {وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ} [غافر: ٥]، أي:"وهمت كل أمةٍ من الأمم المكذبين أن يقتلوا رسولهم ويبطشوا به".

قال قتادة:"أي: ليقتلوه".

قال الزجاج:"أي: ليتمكنوا منه فيقتلوه".

=

=

قال الأزهري: "ليأخذوه فيتمكنوا من قتله".

قال الطبري: يقول: " وهمت كل أمة من هذه الأمم المكذّبة رسلها، المتحزّبة على أنبيائها، برسولهم الذي أرسل إليهم ليأخذوه فيقتلوه".

قال ابن كثير:"أي: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله".

قال ابن قتيبة:"أي: ليُهلكوه. من قوله: {فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}، ويقال: ليحبسوه ويعذبوه. ويقال للأسير: أخيذٌ".

قال السمعاني:"أي: ليقتلوه. ويقال: ليأسروه، والعرب تسمي الأسير: أخيذا".

قال الزمخشري: أي: " ليتمكنوا منه، ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل. ويقال للأسير: أخيذ".

قال الماتريدي:"لكن الله تعالى بفضله عصم رسله عما هم أولئك الكفرة بهم من القتل والمجادلة بالباطل، وفي ذلك آية من آيات الرسالة لهم حيث حفظهم عما هموا بهم وكادوا بلا أعوان وأنصار كانوا للرسل مع كثرة أولئك الكفرة".

قال السعدي:"وهذا أبلغ ما يكون الرسل الذين هم قادة أهل الخير الذين معهم الحق الصرف الذي لا شك فيه ولا اشتباه، هموا بقتلهم، فهل بعد هذا البغي والضلال والشقاء إلا العذاب العظيم الذي لا يخرجون منه؟".

قوله تعالى: {وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ} [غافر: ٥]، أي:"وخاصموا بالباطل؛ ليبطلوا بجدالهم الحق".

قال الزجاج:"أي: ليدفعوا به الحق".

قال ابن كثير:"أي: مَاحَلُوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي".

قال الطبري: " يقول: وخاصموا رسولهم بالباطل من الخصومة ليبطلوا بجدالهم إياه وخصومتهم له الحق الذي جاءهم به من عند الله، من الدخول في طاعته، والإقرار بتوحيده، والبراءة من عبادة ما سواه، كما يخاصمك كفار قومك يا محمد

=

=

بالباطل".

قال السمعاني:"الجدال: هو فتل الخصم عما هو عليه بحق أو باطل، وأما المناظرة لا تكون إلا بين محقين، أو بين محق ومبطل، والجدال قد يكون بين المبطلين".

قال الماتريدي:"أهل الكفر هم الذين كانوا يجادلون في دفع آيات الله والطعن فيها، فأما أهل الإيمان بها كانوا يفرحون بنزولها ويزدادون بذلك إيمانا؛ كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ} [الرعد: ٣٦]، وكقوله: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [الأنفال: ٢]، ونحو ذلك من الآيات، كانوا يستسلمون لها ويقبلونها، ويستقبلون لها بالتعظيم والتبجيل".

قوله تعالى: {فَأَخَذْتُهُمْ} [غافر: ٥]، أي:"فأهلكتهم إهلاكًا مريعًا".

قال السمعاني:"أي: أخذتهم بالعقوبة".

قال السعدي:"أي: بسبب تكذيبهم وتحزبهم".

قال ابن كثير:"أي: أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام".

قال الطبري: يقول:"فأخذت الذين هموا برسولهم ليأخذوه بالعذاب من عندي".

قال الزجاج:"أي: جعلت جزاءهم على إرادة أخذ الرسل أن أخذتهم فعاقبتهم".

قال الزمخشري:"{فَأَخَذْتُهُمْ}، يعنى: أنهم قصدوا أخذه، فجعلت جزاءهم على إرادة أخذه أن أخذتهم".

قوله تعالى: {فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} [غافر: ٥]، أي:"فكيف كان عقابي إياهم عبرة للخلق، وعظة لمن يأتي بعدهم؟".

قال الطبري: يقول:"فكيف كان عقابي إياهم، الم أهلكهم فأجعلهم للخلق عبرة، ولمن بعدهم عظة؟ وأجعل ديارهم ومساكنهم منهم خلاء، وللوحوش ثواء".

=

=

قال الزجاج:"أي: إنهم يجتازون بالأمكنة التي أهلك فيها القوم فيرون آثار الهلاك".

قال ابن كثير:"أي: فكيف بلغك عذابي لهم، ونكالي بهم؟ قد كان شديدًا موجعًا مؤلمًا".

قال القرطبي:"أي: أليس وجدوه حقا".

قال الزمخشري: أي:"فإنكم تمرون على بلادهم ومساكنهم فتعاينون أثر ذلك. وهذا تقرير فيه معنى التعجيب".

قال ابن عطية:"تعجيب وتعظيم، وليس باستفهام عن كيفية وقوع الأمر".

قال السعدي:"كان أشد العقاب وأفظعه، ما هو إلا صيحة أو حاصب ينزل عليهم أو يأمر الأرض أن تأخذهم، أو البحر أن يغرقهم فإذا هم خامدون".

عن قتادة، قوله: {فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}، قال:"شديد والله".

قال العثيمين: قوله تعالى: {كذبت قبلهم قوم نوح} [غافر: ٥]، هذا كالتعليل لقوله: {فلا يغررك تقلبهم في البلاد} [غافر: ٤]، يعني: فلينظر عاقبة من كان قبلهم حين كذبوا.

وقوله: {قبلهم} الضمير يعود على الذين كذبوا النبي ﷺ. وقوله: {قوم نوح والأحزاب من بعدهم} نوح عليه الصلاة والسلام هو أول رسول أرسله الله تعالى إلى أهل الأرض بعد أن اختلفوا، {فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه} [البقرة: ٢١٣]، ونوح بعث إلى أهل الأرض؛ لأن أهل الأرض كانوا هم قومه، أما حين تعددت الأقوام فقد كان الرسول لا يبعث إلا إلى قومه خاصة، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ.

فإن قال قائل: ما هو الدليل على أن الذين ذكروا من الأنبياء في القرآن كلهم رسل؟

=

=

فالجواب: الدليل قوله تعالى: {ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك} [غافر: ٧٨]، فكل من قصه الله علينا فهو رسول.

فإن قال قائل: هل يوجد دليل على عدد الأنبياء والرسل؟

فالجواب: في حديث أبي ذر أنهم كانوا مئة وعشرين ألفا منهم ثلاث مئة وبضعة عشر رسولا والباقي أنبياء، لكن الحديث بعض العلماء قالوا: إنه غير صحيح. وإن كان ابن حبان صححه، فالله أعلم. ليس هناك شيء يركن إليه الإنسان في العقيدة بأن عددهم كذا أو كذا، لا الأنبياء ولا الرسل.

وقوله: {والأحزاب} جمع حزب وهي الطائفة، يعني: الطوائف، {من بعدهم} أي: من بعد قوم نوح.

يقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كعاد وثمود وغيرهما] فماذا أغنى عنهم التكذيب، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: {ليأخذوه}.

وقوله: {وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه} هو يعني: كل أمة همت برسولهم، أي: بالذي أرسل إليهم، {ليأخذوه} هذه متعلقة بـ {وهمت}، أي: هموا لتقتلوه، واللام هنا بمعنى الباء؛ أي: بأن يأخذوه فيقتلوه، ومنهم من قتلهم بالفعل من قتل النبيين بغير حق.

وقوله: {وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق} هذه تفسر معنى الجدال فيما سبق في قوله: {ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا} فجادلوا بالباطل؛ أي: جعلوا الباطل سلاحا لهم {ليدحضوا} [يزيلوا] به الحق، فكانوا يأتون بالباطل يحتجون به على الحق لإدحاضه.

واعلم أن الذين يأتون بالباطل ليدحضوا به الحق لا يأتون بالباطل على وجهه، بل يزخرفون القول له كما قال تعالى: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} [الأنعام: ١١٢]، ولهذا

=

=

تجد الذين يجادلون بالباطل يأتون بعبارات إذا رآها الإنسان ظنها حقا، كأنها السراب للظمآن {حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه} [النور: ٣٩].

وكما قال بعضهم:

حجج تهافت كالزجاج تخالها ... حقا وكل كاسر مكسور

فهم يأتون بزخرف القول، الزخرف يعني: القول المنمق المحسن المزين لأجل إدحاض الحق.

قال الله تعالى: {فأخذتهم} الفاء هنا للسببية، أي: فبسبب ما قاموا به من المجادلة بالباطل والتكذيب أخذتهم، والضمير الفاعل يعود على الله سبحانه وتعالى، والمفعول يعود على هؤلاء المكذبين.

فقوله: {فأخذتهم} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالعقاب] {فكيف كان عقاب} فسر المفسر الأخذ هنا بالعقاب لقوله: {فكيف كان عقاب} أي: معاقبتي لهم، وكيف هنا للتعجب وللتقرير وللتعظيم أيضا، أي: فكان عقابي عظيما في كيفيته، وفي وقوعه موقعه، وفي شدته، فإنه عذاب لم يبق أحدا منهم، وعلى هذا فالاستفهام له عدة معان يعينها السياق.

فإن قال قائل: ما الفرق بين الأخذ في قوله: {وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه} وقوله: {فأخذتهم}؟

فالجواب: الأخذ يأتي بقرينة، مثل قوله: {فأخذتهم} أي أهلكتهم، أما أخذهم هم للأنبياء فقد يكون يأخذونهم ليحبسوهم، كقوله: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك} [الأنفال: ٣٠]، يثبتوك يعني: يحبسونك، فتكون ثابتا في مكان لا تتعداه، أو يقتلوك، أو يخرجوك من البلد؛ لقوله تعالى: {ويقتلون الأنبياء بغير حق} [آل عمران: ١١٢]، ، ولقوله: {فأخذتهم} فيكون إهلاكهم في

=

وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦).

{وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَة رَبّك} أَيْ {لَأَمْلَأَنّ جَهَنَّم} الْآيَة {عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَاب النَّار} بَدَل مِنْ كَلِمَة[1].

=

مقابل ما يريدونه من إهلاك الرسل، الرسول ﷺ لما هموا أن يقتلوه أشار عليهم الشيخ النجدي قال: لا يمكن أن تقتلوا قرشيا، إلا أن يكون عشرة شبان أقوياء وأعطوا كل واحد منهم سيفا، فإذا خرج محمد فليقتلوه ضربة رجل واحد، حتى يتفرق دمه في القبائل فلا تستطيع قريش أن تطالب به، فيخضعوا لأخذ الدية. إذن هموا بقتله، واليهود هموا بقتله في قصة بني النضير.

وقوله: {عقاب} قد يشكل على الناظر لأول وهلة كيف كان مجرورا مع أنه مبتدأ أو خبر مبتدأ، فحمال: إنه ليس بمجرور، وأن الأصل عقابي، فحذفت الياء تخفيفا والكسرة قبلها دليل عليها.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: هو واقع موقعه] وهذا بناء على أن الاستفهام تقريري وإذا قلنا: للتعظيم يكون المعنى: {فكيف كان عقاب} أي: فما أعظم عقابي، وأشده حيث أزالهم عن آخرهم.

(١) قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا} [غافر: ٦].

قال الطبري: يقول:"وكما حق على الأمم التي كذبت رسلها التي قصصت عليك يا محمد قصصها عذابي، وحل بها عقابي بتكذيبهم رسلهم، وجدالهم إياهم بالباطل، ليدحضوا به الحق، كذلك وجبت كلمة ربك على الذين كفروا بالله من قومك، الذين يجادلون في آيات الله".

قال الزجاج:"أي: ومثل ذلك حقت كلمة ربك- يعني به، قوله: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّم} [الأعراف: ١٨/ هود: ١١٩/ السجدة: ١٣/ ص: ٨٥]".

قال السمعاني:"أي: وجب حكم ربك على الذين كفروا".

=

=

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: سبقت، ووجبت كلمة ربك، على الذين كفروا بالعذاب".

قال السعدي:"أي: كما حقت على أولئك، حقت عليهم كلمة الضلال التي نشأت عنها كلمة العذاب".

قال العز بن عبدالسلام:"{حَقَّت} وجب عذاب ربك، أو صدق وعده".

قال النحاس:"{حَقَّتْ}: وجبت ولزمت، لأنه مأخوذ من الحقّ، لأنه اللازم".

عن قتادة:"{وكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلى الَّذِينَ كَفَرُوا}، قال: حقَّ عليهم العذابُ بأعمالهم".

قوله تعالى: {أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ} [غافر: ٦]، أي:"لأنهم أهل النار".

عن أبي مالك، قوله: " {أصحاب النار}: يعذبون فيها".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: يصيرون إليها".

قال العز بن عبدالسلام:"جعلهم لها أصحابًا لملازمتهم لها".

قال أبو السعود:"أي: لأنهم مستحقو أشد العقوبات وأفظعها التي هي عذاب النار وملازموها أبدا لكونهم كفارا معاندين متحزبين على الرسول ﷺ كدأب من قبلهم من الأمم المهلكة فهم لسائر فنون العقوبات أشد استحقاقا وأحق استيجابا".

قال الشوكاني:"جملة: «أنهم أصحاب النار» للتعليل، أي: لأجل أنهم مستحقون للنار".

قال الأخفش:"أي: لأنهم أو بأنهم. وليس {أنهم} في موضع مفعول".

قال الطبري:"قوله: {أنهم}: ترجمة عن الكلمة، بمعنى: وكذلك حقّ عليهم عذاب النار، الذي وعد الله أهل الكفر به".

قال مقاتل:"حين قال لإبليس: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: ٨٥]".

=

=

قال الزمخشري:" {أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ}: في محل الرفع بدل من {كَلِمَةُ رَبِّكَ}، أى: مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار. ومعناه: كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل، كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة، أو في محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل. و {الذين كفروا}:

قريش، ومعناه. كما وجب إهلاك أولئك الأمم، كذلك وجب إهلاك هؤلاء، لأن علة واحدة تجمعهم أنهم من أصحاب النار".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وكذلك}: أي مثل ذلك الأمر، وهو وقوع العقاب، {حقت} وجبت {كلمت ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار}.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: {لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين} [هود: ١١٩] الآية، ، ففسر كلمة الله بذلك، ولكن في هذا نظرا واضحا؛ لأن الله يقول: {أنهم أصحاب النار} هذه الكلمة، وهي قوله: {أنهم أصحاب النار} أي: حقت كلمة ربك التي ثبتت أزلا أن هؤلاء أصحاب النار.

وقوله: {حقت كلمت ربك على الذين كفروا} أي: وجبت عليهم، والكلمة هي قوله: {أنهم أصحاب النار}، ولهذا قال المفسر إنها: [بدل من {كلمت}]، وإذا كانت بدلا من {كلمت} كيف نقول: إن الكلمة هي قوله: {لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين}، إذا كانت هي البدل، فابن مالك يقول:

التابع المقصود بالحكم بلا ... واسطة هو المسمى بدلا فقوله: "التابع المقصود بالحكم بلا واسطة" هذا البدل.

إذن: فالمقصود بالحكم المقصود بقوله: {كلمت ربك} هو قوله: {أنهم أصحاب النار}؛ وإذا وجدت في القرآن أصحاب النار فالمراد بها أصحابها المخلدون؛ لأن الصحبة تقتضي الملازمة، ولا يمكن أن تكون أصحاب النار لمن توعدوا بدخول

=

الَّـذِينَ يَحْمِلُـونَ الْعَـرْشَ وَمَـنْ حَوْلَـهُ يُـسَبِّحُونَ بِحَمْـدِ رَبِّهِـمْ وَيُؤْمِنُـونَ بِـهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧).

{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْش} مُبْتَدَأ {وَمَنْ حَوْله} عُطِفَ عَلَيْهِ {يُسَبِّحُونَ} خَبَره {بِحَمْدِ رَبّهمْ} مُلَابِسِينَ لِلْحَمْدِ أَيْ يَقُولُونَ سُبْحَان الله وَبِحَمْدِهِ {وَيُؤْمِنُونَ بِهِ} تَعَالَى بِبَصَائِرِهِمْ أَيْ يُصَدِّقُونَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} يَقُولُونَ {رَبّنَا وَسِعْت كُلّ شَيْء رَحْمَة وَعِلْمًا} أَيْ وَسِعَتْ رَحْمَتك كُلّ شَيْء وَعِلْمك كُلّ شَيْء {فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا} مِنْ الشِّرْك {وَاتَّبَعُوا سَبِيلك} دِين الْإِسْلَام {وَقِهِمْ عَذَاب الْجَحِيم} النار[1].

=

النار، ثم يخرجون منها، إنما تكون لمن هم أهل النار الذين هم أهلها وأصحابها.

(١) قوله تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} [غافر: ٧].

قال الطبري: يقول: " الذين يحملون عرش الله من ملائكته، ومن حول عرشه، ممن يحفّ به من الملائكة، يصلون لربهم بحمده وشكره".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حَمَلة العرش الأربعة، ومن حوله من الكروبيين، بأنهم يسبحون بحمد ربهم، أي: يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص، والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح".

قال السمعاني:"ذكر النقاش: أن حملة العرش الكروبيون، وهم سادة الملائكة. وفي بعض التفاسير: أن أقدامهم في تخوم الأرضين، والأرضون والسموات إلى حجزهم، وهم يقولون: سبحان ذي العز والجبروت، سحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبوح قدوس رب الملائكة والروح".
=

=

قال الثعلبي:"وفي الخبر: أن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة عرشه، تفضيلا لهم على سائر الملائكة، فهذه صفة حملة العرش".

قال مجاهد: "بين الملائكة وبين العرش سبعون حجابا من نور".

عن ابن عباس: "أن رسول الله ﷺ صَدّق أمية في شيء من شعره، فقال :

رَجُلٌ وَثَور تَحْتَ رِجْل يَمينه... وَالنَّسْرُ للأخْرَى وَلَيْثٌ مُرْصَدُ

فقال رسول الله ﷺ: "صدق". فقال:

وَالشمس تَطلعُ كل آخر لَيْلةٍ... حَمْراءُ يُصْبحُ لَونُها يَتَوَرّدُ

تَأبَى فَما تَطلُع لنَا في رِسْلها... إلا معَذّبَة وَإلا تُجْلدَ

فقال النبي ﷺ: «صدق»".

قال ابن كثير:"وهذا إسناد جيد: وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية كما قال تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة: ١٧]".

وروي عن العباس بن عبد المطلب، قال: "كنت بالبطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: "ما تسمون هذه؟ " قالوا: السحاب. قال: "والمزن؟ " قالوا: والمزن. قال: "والعَنَان؟ " قالوا: والعنان- قال أبو داود: ولم أتقن العنان جيدًا- قال: "هل تدرون بُعْدَ ما بين السماء والأرض؟ " قالوا: لا ندري. قال: "بُعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك" حتى عَدّ سبع سموات "ثم فوق السماء السابعة بحر، بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أَوْعَال، بين أظلافهن ورُكبهن مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله، ﷻ، فوق ذلك".

=

=

قال ابن عباس: "حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمس مائة عام، وقال: مسيرة أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم، وهم أشد خوفا من أهل السماء السابعة، وأهل السماء السابعة أشد خوفا من أهل السماء التي تليها، والتي تليها أشد خوفا من التي تليها".

قال ابن كثير:"وهذا يقتضي أن حملة العرش ثمانية، كما قال شَهْر بن حَوْشَب: حملة العرش ثمانية، أربعة يقولون: "سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك". وأربعة يقولون: "سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك".

وقال رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لى أنْ أُحَدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكةِ اللهِ من حملةِ العرشِ ما بين شَحْمَةِ أُذُنِهِ إلى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سبعمِائةِ سنة».

وفي رواية: «أُذِنَ لى أنْ أحدثَ عن مَلَكٍ من حملةِ العرشِ رجلاه فى الأرضِ السابعةِ السفلى على قرنِهِ العرشُ ومن شَحمة أُذُنه إلى عاتقِهِ خفقان الطيرِ مسيرة مائةِ عامٍ».

قوله تعالى: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا} [غافر: ٧].

قال الطبري: يعني:"وسعت رحمتك وعلمك كل شيء من خلقك، فعلمت كل شيء، فلم يخف عليك شيء، ورحمت خلقك، ووسعتهم برحمتك".

قال ابن كثير:"أي: إن رحمتك تَسَع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم".

وقال مقاتل:"يعنى: ملأت كل شيء من الحيوان في السموات والأرض {رحمة}، يعني: نعمة يتقلبون فيها، {وعلما}، يقول: علم من فيهما من الخلق".

قال الماتريدي:"{وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً}: هي رحمة الدنيا: المؤمن والكافر

=

=

جميعا في تلك، فأما رحمة الآخرة ليست إلا للذين آمنوا، قوله: {وَعِلْمًا}، أي: علم ما فيها".

قوله تعالى: {فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ} [غافر: ٧]، أي:"فاغفر للذين تابوا من الشرك والمعاصي، وسلكوا الطريق الذي أمرتهم أن يسلكوه وهو الإسلام".

قال الطبري:"يقول: فاصفح عن جرم من تاب من الشرك بك من عبادك، فرجع إلى توحيدك، واتبع أمرك ونهيك، وسلكوا الطريق الذي أمرتهم أن يسلكوه، ولزموا المنهاج الذي أمرتهم بلزومه، وذلك الدخول في الإسلام".

قال ابن كثير:"أي: فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به، من فعل الخيرات وترك المنكرات".

قال الزجاج:"أي: لزموا طريق الهدى التي دعوت إليها".

عن قتاده: " {فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا} من الشرك"، " {وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ}، أي: طاعتك".

قال التستري:"هم الذين تابوا من الغفلة، وأنسوا بالذكر، واتبعوا سنة المصطفى ﷺ".

قال الزمخشري:"فإن قلت: ما الفائدة في استغفارهم لهم وهم تائبون صالحون موعودون المغفرة والله لا يخلف الميعاد؟

قلت: هذا بمنزلة الشفاعة، وفائدته زيادة الكرامة والثواب".

قوله تعالى: {وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} [غافر: ٧]، أي:"وجَنِّبْهم عذاب النار وأهوالها".

قال الطبري:"يقول: واصرف عن الذين تابوا من الشرك، واتبعوا سبيلك عذاب النار يوم القيامة".

=

=

قال ابن كثير:"أي: وزحزحهم عن عذاب الجحيم، وهو العذاب الموجع الأليم".
قال السمعاني:"معناه: وادفع عنهم عذاب الجحيم، والجحيم معظم النار".
وعن بعض السلف: "أنصح الخلق للمؤمنين هم الملائكة، وأغش الخلق للمؤمنين هم الشياطين".
قال العثيمين: قوله تعالى: {الذين}: مبتدأ مستأنف، ويجب الوقوف على ما قبله {أنهم أصحاب النار}؛ لأنك لو قلت: {الذين يحملون العرش} ووصلت لظن الظان أن أصحاب النار هم الذين يحملون العرش، وهذا فساد للمعنى.
قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{الذين يحملون العرش} مبتدأ]، وجملة {يسبحون} خبر المبتدأ.
قوله: {الذين يحملون العرش} العرش: هو عرش الرحمن ﷻ، وهو أكبر المخلوقات، وأعظمها، وأوسعها، وأشرفها فيما عدا المكلفين، هذا العرش لا يعلم قدره إلا الله ﷻ؛ لأننا لم نخبر عن قدره، ولا نعلم من أي مادة هو، أهو من نور أو خشب أو حديد؟ لا نعلم؛ لأننا لم نخبر عن ذلك، ولم نعلم عن لونه، ولم نعلم عن ملمسه، ألين هو أم قاس؟ كل هذا لا نعلمه، إنما نعلم أنه عرش عظيم محيط بالمخلوقات، استوى عليه الرب ﷻ، وله حملة، والمشهور أن حملته الآن أربعة، وفي يوم القيامة يكونون ثمانية، ومن جملة حملة العرش إسرافيل الموكل بالنفخ في الصور، فإنه أحد حملة العرش.
ونحن لا نعلم صفات هؤلاء الذين يحملون العرش، لكن نعلم أنهم ملائكة، أما كيف هم فإن ذلك موقوف على ما جاء به السمع.
{ومن حوله} (من) معطوفة على {الذين يحملون العرش} أي: والذين حوله.
قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ومن حوله} عطف عليه] على المبتدأ؛ لأن المفسر قال: [مبتدأ {ومن حوله} عطف عليه، أي: على المبتدأ، وهو قوله: {الذين يحملون العرش}.

=

=

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{يسبحون} خبره] خبر المبتدأ وما عطف عليه، يعني: حملة العرش والذين حول العرش يسبحون بحمد الله، والتسبيح تنزيه الله عَزَّ وَجَلَّ عما لا يليق به من نقص أو مماثلة للمخلوقين.

والباء في قوله: {بحمد ربهم} للملابسة؛ أي: تسبيحا ممزوجا بالحمد، فهم مسبحون حامدون. قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: يقولون: سبحان الله وبحمده]، وقد بين الله عَزَّ وَجَلَّ أن ذلك دائم مستمر، فقال تعالى: {ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون (١٩) يسبحون الليل والنهار لا يفترون} [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، أما {فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون (٣٨)} [فصلت: ٣٨].

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ويؤمنون به} تعالى ببصائرهم. أي: يصدقون بوحدانيته، الإيمان في اللغة الإقرار بالشيء.

وأقول: بل الإقرار بالقلب واللسان وليس هو مجرد التصديق فقط، قد لا يعرض على الإنسان شيء فيؤمن به، كما إذا شاهد شيئا بعينه فإنه يؤمن به وإن لم يعرض عليه، والقول بأنه في اللغة التصديق. فيه نظر؛ لأن تفسير الشيء بالشيء يلزم أن يكون مطابقا له، ومن المعلوم أنك تقول: آمنت به. وتقول: صدقت به. وتقول: آمنت له. وتقول: صدقت له. وتقول: صدقته. ولا تقول: آمنته. وهذا يدل على أن الإيمان ليس هو التصديق.

وقد نبه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (الإيمان)، فقال: "إن الإيمان بمعنى التصديق ليس بصحيح" وإن كان قد يأتي بمعناه، ولكن حقيقته أنه ليس إياه، فهو إقرار بالقلب، ونطق باللسان.

وقوله: {ويؤمنون به} أي: يؤمنون بوجوده عَزَّ وَجَلَّ ووحدانيته، وبكل ما يستحقه من أسماء وصفات وغيرها إيمانا كاملا، والإيمان بالله يتضمن: الإيمان بوجوده،

=

وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته، وانفراده بذلك.

وقوله: {ويستغفرون للذين آمنوا} {ويستغفرون} أي: يطلبون المغفرة للذين آمنوا، وقد تقدم مرارا أن المغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه.

وقوله: {ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت} جملة {ربنا} مقول لقول محذوف فسره المفسر بقوله: [يقولون {ربنا وسعت كل شيء}] ربنا" أي: يا ربنا، وحذفت منه (يا) النداء لكثرة الاستعمال وتيمنا بالبداءة باسم الله ﷻ، أو بوصفه بالربوبية.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما} أي: وسعت رحمتك كل شيء وعلمك كل شيء]، فمعنى {وسعت كل شيء} أي: أحطت به رحمة، وأحطت به علما، فما بلغه علم الله بلغته رحمته، ولكن الرحمة إما عامة، وإما خاصة كما سيأتي في الفوائد إن شاء الله.

وجملة {ربنا وسعت كل شيء} هي عبارة عن توسل؛ أي: توسلوا بسعة علم الله ورحمته إلى مطلوبهم.

يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا} من الشرك]، ورجعوا إلى الله تعالى بالتوحيد والإخلاص، {واتبعوا سبيلك}؛ أي: طريقك، وهو دين الإسلام، سواء كان إسلام محمد ﷺ، أو إسلام من قبله؛ لأن هذا الدعاء عام لكل المؤمنين، فقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دين الإسلام] يريد به الإسلام العام، فالذين اتبعوا الرسل السابقين مسلمون والذين اتبعوا محمدا ﷺ مسلمون، لكن لا إسلام بعد محمد ﷺ إلا باتباع دينه.

وهنا قال: {واتبعوا سبيلك} وفي آية أخرى: {ويتبع غير سبيل المؤمنين} [النساء: ١١٥]، فأضاف السبيل إلى المؤمنين، وكذلك الصراط يضيفه تعالى أحيانا لنفسه مثل قوله: {صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض} [الشورى: ٥٣]، وأحيانا للمؤمنين مثل: {صراط الذين أنعمت عليهم} [الفاتحة: ٧]، ، فالجمع

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨).

{رَبّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّات عَدْن} إقَامَة {الَّتِي وَعَدْتهمْ وَمَنْ صَلَحَ} عُطِفَ عَلَى هُمْ فِي وَأَدْخَلَهُمْ أَوْ فِي وَعَدْتهمْ {مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجهمْ وَذُرِّيَّاتهمْ إنَّك أَنْتَ الْعَزِيز الْحَكِيم} فِي صُنْعه[1].

=

بينهما أن الله أضاف السبيل أو الصراط إليه باعتبارين:

الاعتبار الأول: أنه هو الذي وضعه لعباده يسيرون عليه.

والاعتبار الثاني: أنه موصل إلى الله ﷻ، فمن سلكه أوصله إلى ربه.

أما إضافته للمؤمنين في قوله: {ويتبع غير سبيل المؤمنين} أو للذين أنعم عليهم في قوله: {صراط الذين أنعمت عليهم}؛ فلأنهم سالكوه، فأضيف إليهم باعتبار سلوكهم إياه، وحينئذ ليس بين الآيات تعارض.

قوله: {وقهم عذاب الجحيم} أي: اجعل لهم وقاية من عذاب الجحيم وهو عذاب النار، كما فسر بذلك المفسر.

(١) قوله تعالى: {رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ} [غافر: ٨].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن دعاء ملائكته لأهل الإيمان به من عباده، تقول: يا {رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ} بساتين إقامة التي وعدت أهل الإنابة إلى طاعتك أن تدخلهموها".

وفي "جَنَّاتِ عَدْنٍ"، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن «عدن»: اسم قصر في الجنة، قاله الحسن ، وكعب.

عن قتادة، في قوله تعالى: {وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم} [غافر: ٨] قال: بلغني أن عمر بن الخطاب قال: لكعب: ما عدن؟ قال: «قصور في الجنة يسكنها

=

=

النبيون، والصديقون، والشهداء، وأئمة العدل».
وقد روي عن الحسن:"قصرٌ من ذهَب، لا يدخله إلا نبي، أو صدّيق، أو شهيد، أو حكم عدل".
الثاني: أنها مدينة الجنة، فيها الرُّسُل والأنبياء والشهداء، وأئمة الهدى، والناس حولهم بعدُ، والجنات حولها. قاله الضحاك.
الثالث: أنها اسم نهر في الجنة، جنّاته على حافتيه. قاله عطاء.
قال السمعاني:"معناه: جنات إقامة، يقال: عدن بالمكان، إذا أقام، وجنة عدن هي بطنان الجنة. ويقال: مصر الجنة".
والصحيح أنَّه اسمٌ لِجُملة الجنَّات ، فكلها جنَّات عدن، قال تعالى: {جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ} [مريم: ٦١]، وقال تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [فاطر: ٣٣]، وقال تعالى: {وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ} [الصف: ١٢]. والاشتقاق يدلُّ على أنَّ جميعها جنَّاتُ عدنٍ، فإنَّه من: الإقامة والدَّوام. يقال: عَدَن بالمكان: إذا أقام به، وَعَدَنْتُ البلد: توطَّنْتُهُ، وعَدَنتِ الإبل بمكان كذا: لَزِمَتْهُ فلم تبرح منه.
قال الجوهري: "ومنه جنَّات عدن أي جنَّات إقامة، ومنه سمي المَعْدِن -بكسر الدَّالِ-؛ لأنَّ النَّاس يقيمون فيه الصيف والشتاء، ومركز كل شيءٍ معدنه. والعادن: النَّاقة المقيمة في المرعى".
قوله تعالى: {وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ} [غافر: ٨]، أي:"وأدخل الصالحين من الآباء والأزواج والأولاد في جنات النعيم أيضًا ليتم سرورهم بهم".
قال الطبري:"يقول: وأدخل مع هؤلاء الذين تابوا {وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ} جنات عدن من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، فعمل بما يرضيك عنه من الأعمال

=

=

الصالحة في الدنيا".

قال ابن كثير:"أي: اجمع بينهم وبينهم، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الطور: ٢١]،أي: ساوينا بين الكل في المنزلة، لتقر أعينهم، وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني، بل رفعنا الناقص في العمل، فساويناه بكثير العمل، تفضلا منا ومنة".

وعن بعض السلف أنه قال: "إن المؤمن يحب أن يجمع شمله، ويضم إليه أهله، فيجمع الله شمله، ويضم إليه أهله في الآخرة".

وفي معنى "الصلاح"، في الآية الكريمة وجهان :

أحدهما: ومن عمل صالحا من آبائهم.

الثاني: ومن وحد من آبائهم.

قال يحيى بن سلام:"«الصلاح» يعني: الإيمان، يعني: ومن آمن من آبائهم وأزواجهم، {وَذُرِّيَّاتِهِمْ}".

قال مقاتل:"يقول: من آمن".

قال سفيان:"من أسلم من آبائهم".

قال مجاهد:"من آمن من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم".

والصحيح-والله أعلم- أن المراد بـ (الصلاح) -هاهنا-: "الإيمان بالله والعمل بما شرعه الله، فمن فعل ذلك فقد صلح لدخول الجنة".

قال الزجاج:"أعلم الله- ﷻ- أن الأنساب لا تنفع بغير أعمال صالحة، فقال: {يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ [مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِم]} [الرعد: ٢٣] ممن جرى ذكره".

قال الطاهر بن عاشور: "وفي هذه الآية بشرى لمن كان له سلف صالح، أو خلَف

=

=

صالح، أو زوج صالح، ممن تحققت فيهم هذه الصفات: أنه إذا صار إلى الجنَّة: لحِق بصالح أصوله، أو فروعه، أو زوجه، وما ذكر الله هذا إلا لهذه البشرى، كما قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} الطور/ ٢١]. والآباء: يشمل الأمهات، على طريقة التغليب، كما قالوا: الأبوين".

قوله تعالى: {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [غافر: ٨]، أي:"إنك أنت العزيز القاهر لكل شيء، الحكيم في تدبيره وصنعه".

قال الطبري:"يقول: أنك أنت يا ربنا العزيز في انتقامه من أعدائه، الحكيم في تدبيره خلقه".

قال ابن كثير:"{الْعَزِيزُ}، أي: الذي لا يمانع ولا يغالب، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، {الْحَكِيمُ} في أقوالك وأفعالك، من شرعك وقدرك".

قال محمد بن إسحاق: " العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء" ، الحكيم: في عذره وحجته إلى عباده".

قال أبو العالية:"{عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

عن أبي العالية:"{حكيم}، قال: حكيم في أمره".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم} هذا من جملة دعاء الذين يحملون العرش ومن حوله، يقولون: {ربنا وأدخلهم جنات عدن} ربنا؛ أي: يا ربنا، وكرروا النداء بالربوبية؛ لأنهم كانوا بالأول يسألون الله المغفرة لهم، ووقاية عذاب الجحيم، وهذا من باب التخلية؛ أي: السلامة مما يضر، أما الثاني: فهو من باب التحلية؛ أي: من باب حصول المطلوب {ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم} فترى الجملة الأولى من الدعاء فيها النجاة

=

=

من المرهوب، والثانية فيها حصول المطلوب، ولهذا كرروا قولهم: ربنا.

{ربنا وأدخلهم} وجعلوا هذه الجملة معطوفة على ما سبق لا مستأنفة؛ أي لم يقولوا: ربنا أدخلهم. قالوا: وأدخلهم؛ لتحقق ما قبلها؛ لأن العطف يقتضي ثبوت المعطوف عليه وكونه أصلا، فكأنهم قالوا: ربنا واجمع لهم مع ما سبق أن تدخلهم جنات عدن.

وقوله: {جنات} جمع جنة، والجنة تأتي في القرآن مجموعة وتأتي مفردة، فباعتبار الجنس هي جنة واحدة، وباعتبار الأنواع هي جنان، ذكر الله تعالى فيها أربعة أنواع في موضع واحد: {ولمن خاف مقام ربه جنتان (٤٦)} [الرحمن: ٤٦]، {ومن دونهما جنتان (٦٢)} [الرحمن: ٦٢]، فهي تجمع باعتبار الأنواع، وتفرد باعتبار الجنس.

والجنة في الأصل البستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك؛ لأنه يجن من فيه. أي: يستره لكثرة أشجاره. والمراد بها شرعا دار النعيم التي أعدها الله تعالى لأوليائه، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وسقفها عرش الله ﷻ، فهم أقرب الناس إلى الله.

وقوله: {جنات عدن} العدن بمعنى الإقامة، يقال: عدن بمكان، أي: أقام، ومنه سمي المعدن لمعادن الأرض؛ لأن المعدن مقيم ثابت راسخ في الأرض، فجنات عدن أي: جنات إقامة، ووصفت بذلك؛ لأن أهلها لا يبغون عنها حولا، ولأنها دائمة أبد الآبدين.

وقوله: {التي وعدتهم} صفة {جنات}، وإنما قالوا ذلك اعترافا بفضل الله تعالى أولا وآخرا، وتوسلا إليه بتحقيق ما طلبوا؛ لأن الله إذا وعد شيئا أتمه، فإنه لا يخلف الميعاد، فصار ذكر قول: {التي وعدتهم} له فائدتان:

=

=

الأولى: الاعتراف بفضله سبحانه وتعالى؛ حيث وعدهم هذه الجنات.

الثانية: التوسل إلى الله تعالى بإجابة الدعاء، كأنهم يقولون: أدخلهم هذا؛ لأنك وعدتهم إياه، فيكون من باب التوسل بوعده إلى تحقق موعوده.

وقوله: ﴿ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ من صلح يقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [عطف على (هم) في ﴿وأدخلهم﴾ أو في ﴿وعدتهم﴾]، فالواو حرف عطف، و ﴿ومن﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل نصب عطفا على ﴿وأدخلهم﴾ أو على ﴿وعدتهم﴾، والأحسن أن يكون عطفا على ﴿وأدخلهم﴾، فيكون الدعاء بالدخول شاملا لهم ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

فقوله: ﴿ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ هذا احتراز جيد حيث قالوا: ﴿ومن صلح﴾ ولم يقولوا: وآبائهم وأزواجهم وذرياتهم، قالوا: ﴿ومن صلح﴾؛ لأنهم لو دعوا بالعموم لكان فيه نوع من الاعتداء في الدعاء؛ لأن الاعتداء في الدعاء هو أن يدعو الإنسان بما لا يمكن شرعا أو حسا، كل من دعا الله تعالى بما لا يمكن شرعا أو حسا فإنه معتد في الدعاء، ولو زدنا أيضا أو حسا أو عادة فهو معتد، فلو سأل الله تعالى أن يخرج له ولدا من جدار بيته لكان هذا اعتداء في الدعاء، ولو سأل الله تعالى أن يجعله نبيا لكان هذا اعتداء في الدعاء؛ لأن ذلك لا يمكن شرعا، ولو سأل الله أن يجعل السموات والأرض بيده لكان هذا معتديا في الدعاء؛ لأنه لا يمكن عقلا، فما لا يمكن شرعا، أو عقلا، أو عادة، أو حسا؛ فإنه لا يدعى الله به؛ لأن هذا اعتداء في الدعاء.

فهنا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ومن صلح من آبائهم﴾ لو قالوا: آباءهم لكان فيه نوع من الاعتداء حيث إن آباء هؤلاء قد يكونون مشركين كفارا، لا يستحقون أن يدخلوا الجنة، فيقول: ﴿ومن صلح من آبائهم وأزواجهم﴾ جمع زوج، ﴿وذرياتهم﴾ جمع ذرية، فذكروا الأصول والفروع والمصاهرة، الأصول والفروع:

=

وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩).

{وَقِهِمُ السَّيِّئَات} أَيْ عَذَابهَا {وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَات يومئذ} يوم القيامة {فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم}[١].

=

آباء وذريات، والمصاهرة: أزواج.

أما إذا قال القائل في دعائه: اللهم اغفر لنا ولآبائنا وذرياتنا وإخواننا، وجداتنا وأجدادنا، وخالاتنا وأخوالنا، وعماتنا وأعمامنا، والأصول والفروع والحواشي، هذا ليس تكرارا للدعاء، إنما هو تكرار للمدعو لهم، وأنت ترى الملائكة الآن ما دعت إلا لثلاثة أصناف فقط: الأصول، والفروع، والأصهار- الزوجات- لكن لا نقول في هذا شيئا، لا ننكر عليه، لكن كونه يطول على الناس بمثل هذه الأشياء قد يكون فيه مضرة على الناس وتعب.

قوله: {إنك أنت العزيز الكريم} هذه جملة استئنافية يراد بها التوسل إلى الله تعالى بعزته وحكمته أن يحقق هذا الدعاء أو هذا المدعو به.

(١) قوله تعالى: {وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ} [غافر: ٩].

قال ابن كثير:"أي: فعلها أو وَبالها ممن وقعت منه".

قال الطبري: أي" اصرف عنهم سوء عاقبة سيئاتهم التي كانوا أتوها قبل توبتهم وإنابتهم، يقولون: لا يؤاخذهم بذلك، فتعذبهم به".

قال الزمخشري:"أى: العقوبات. أو جزاء السيئات. فحذف المضاف على أن السيئات هي الصغائر أو الكبائر المتوب عنها. والوقاية منها: التكفير أو قبول التوبة".

عن قتادة: " {وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ}، أي: العذاب".

وقال مقاتل:"يعني: الشرك".

=

=

قوله تعالى: {وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ} [غافر: ٩]، أي:"ومن تصْرِف عنه السيئات يوم الحساب فقد رحمته، وأنعمت عليه بالنجاة من عذابك".

قال الطبري:"يقول: ومن تصرف عنه سوء عاقبة سيئاته بذلك يوم القيامة، فقد رحمته، فنجيته من عذابك".

قال ابن كثير:"{وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ}، أي: يوم القيامة، {فَقَدْ} لطفت به ونجيته من العقوبة".

قوله تعالى: {وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [غافر: ٩]، أي:"وذلك هو الظَّفَر العظيم الذي لا فوز مثله".

قال الطبري:"لأنه من نجا من النار وأدخل الجنة فقد فاز، وذلك لا شك هو الفوز العظيم".

قال سعيد بن جبير:"يعني: ذلك الثواب الفوز العظيم".

قال مطرف: "وجدنا أغشّ عباد الله لعباد الله الشياطين، ووجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة. وتلا: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}... الآية".

روى الأعمش عن إبراهيم قال: "كان أصحاب عبد الله يقولون الملائكة خير من ابن الكواء، يستغفرون لمن في الأرض وابن الكواء يشهد عليهم بالكفر، وابن الكواء رجل من الخوارج قال: وكانوا لا يحبون الاستغفار على أحد من أهل هذه القبلة".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وقهم السيئات}، هذا معطوف على ما سبق، على قوله: {وأدخلهم}؛ أي: {وقهم السيئات} والجملة فعل أمر وفاعل ومفعول به، بل ومفعولان، الجملة تتضمن فعلا وفاعلا ومفعولين، الفعل (ق)، والفاعل مستتر وجوبا، والمفعول الأول الهاء، والمفعول الثاني السيئات، و (ق) هنا فعل

=

=

أمر، لكنه مكون من حرف واحد بعد أن حذف منه حرفان؛ الأول والثالث، وهكذا كل مثال ناقص إذا كان ثلاثيا فإن فعل الأمر منه على حرف واحد، هذه القاعدة، كل مثال ناقص ففعل الأمر منه إذا كان ثلاثيا على حرف واحد.

والمثال هو: الذي أوله حرف علة، والناقص: الذي آخره حرف علة.

إذن: القاعدة هذه تشمل أمثلة كثيرة، وقد جمعها الخضري في حاشية ابن عقيل على ألفية ابن مالك جمعها في أبيات، منها: ق ف ع يعني عدد، لكن الضابط هو هذا، كل ثلاثي كان مثالا ناقصا ففعل الأمر منه على حرف واحد.

وقوله: {وقهم السيئات} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: عذابها]، وهذا إذا جعلنا السيئات بمعنى الأعمال السيئات، فإنه يتعين أن نفسر ذلك بعذاب السيئات؛ لأن عمل السيئات الآن قد انتهى وقته، وإنما الموجود هو الجزاء، فيفسر حينئذ بالعذاب.

وأما إذا فسرنا السيئات بما يسوء دون العمل الذي يقع من العبد، فإنه لا حاجة إلى أن نقول: عذابها؛ لأن العذاب مما يسوء، فكأنهم قالوا: وقهم ما يسوؤهم من العذاب، والقاعدة في التفسير وفي شرح الأحاديث: أنه إذا دار الأمر بين احتمال التقدير وعدم التقدير، فالأولى عدم التقدير، وعلى هذا فنقول: السيئات هنا لا يراد بها الأعمال السيئات التي هي فعل العبد قطعا؛ لأن هذا قد انتهى، وإنما يراد بالسيئات ما يسوء من أعمال، ومن عقوبات، ومن عادات، ومن غير ذلك.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{ومن تق السيئات يومئذ} يوم القيامة {فقد رحمته}] من شرطية، وجملة {فقد رحمته} جواب الشرط، وإنما اقترن جواب الشرط بالفاء؛ لأنه مبدوء ب (قد)، وجواب الشرط إذا بدئ ب (قد) وجب اقترانه بالفاء، وله نظائر مما يجب اقترانه بالفاء.

المهم: أنه يجب ارتباط جواب الشرط بالفاء إذا وقع واحدا من سبعة أمور،

=

=

مجموعة في قول الناظم:

اسمية طلبية وبجامد وبما ... وقد وبلن وبالتنفيس

التنفيس يشمل سوف والسين، وهذه الآية من نوع قوله: {فقد رحمته}.

قوله: {وذلك} المشار إليه وقاية السيئات والرحمة {هو الفوز العظيم} {هو}: يجوز أن تكون مبتدأ، و {الفوز} خبره، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول، ويجوز أن تكون {هو} ضمير فصل لا محل لها من الإعراب، ويكون التقدير: وذلك الفوز العظيم، ويؤيد هذا أنها تأتي بهذه الصيغة في بعض المواضع {وذلك هو الفوز العظيم}.

وضمير الفصل من حيث الإعراب لا محل له من الإعراب، أما من حيث المعنى فله ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: الحصر.

والفائدة الثانية: التوكيد.

والفائدة الثالثة: التمييز بين الصفة والخبر.

والتمييز بين الخبر والصفة يظهر هذا في المثال.

إذا قلت: زيد الفاضل. وأنت تريد أن تكون (الفاضل) خبر المبتدأ، فإنه يحتمل أن تكون (الفاضل) صفة، والخبر لم يأت بعد، ويحتمل أن يكون المراد زيد الفاضل فاهم، ويحتمل أن تكون (الفاضل) خبر المبتدأ، فإذا جاءت زيد هو الفاضل، زال الإشكال، وتعين أن تكون (الفاضل) خبر المبتدأ.

أما التوكيد والحصر فظاهر؛ لأنك إذا قلت: زيد هو الفاضل. أكدت أنه فاضل، وحمرت الفضل فيه.

وقوله: {الفوز العظيم}، الفوز: حصول المطلوب والنجاة من المرهوب، والدليل على ذلك قوله تعالى: {فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز} [آل

=

إِنَّ الَّـذِينَ كَفَـرُوا يُنَـادَوْنَ لَمَقْـتُ اللهِ أَكْبَـرُ مِـنْ مَقْـتِكُمْ أَنْفُـسَكُمْ إِذْ تُـدْعَوْنَ إِلَـى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠).

{إِنَّ الَّـذِينَ كَفَـرُوا يُنَـادَوْنَ} مِـنْ قِبَـلِ الْمَلَائِكَـة وَهُـمْ يَمْقُتُـونَ أَنْفُـسهمْ عِنْـد دُخُولهمْ النَّار {لَمَقْت الله} إياكم {أكبر من مقتكم أنفسهم إذ تـدعون} في الـدنيا {إلى الإيمان فتكفرون}[1].

=

عمران: ١٨٥]، فالنجاة من المرهوب في الآية {فمن زحزح عـن النـار} وحـصول المطلوب {وأدخل الجنة} ولا تفسير أبين وأوضح من تفسير الله ﷻ، فالفوز هـو: النجاة من المرهوب وحصول المطلوب، والدليل ما سمعتم.

وقوله: {العظيم} وصف له بالعظمة، لأنه لا فوز أعظم من هذا، لا فوز أعظـم مـن أن يمن الله عليك بسكنى هذه الدار- جعلني الله وإياكم من ساكنيها- التي فيهـا مـا لا عـين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطـر علـى قلـب بـشر، كـل النـاس في الـدنيا- المؤمنون- يسعون للوصول إلى هذه الدار، ولهذا لما قال الأعرابي للنبـي ﷺ: يـا رسول الله، أنا لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، ولكني أسأل الله الجنـة، وأسـتعيذ به من النار فقال: "حولهما ندندن"، نحن لا نريد إلا هذا، وهذا الحديث وإن كـان في صحته ما فيه، لكن حقيقـة هـو هـذا، كـل المـؤمنين يعملـون للوصـول إلـى هـذه الدار، وهو- أي: العمل لها- يسير، لكن على مـن يـسره الله عليـه، ومتـى ييـسر الله عليـك ذلـك؛ اسـمع إلـى قـول الله تعـالى: {فأمـا مـن أعطـى واتقـى (٥) وصـدق بالحسنى}، الجواب: {فسنيسره لليـسرى} [الليـل: ٥- ٧]، اعمـل أنـت كمـا قـال النبي ﷺ: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له".

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ} [غـافر: ١٠].

=

=

قال الطبري: يقول:"إن الذين كفروا بالله ينادون في النار يوم القيامة إذا دخلوها، فمقتوا بدخولهموها أنفسهم حين عاينوا ما أعدّ الله لهم فيها من أنواع العذاب، فيقال لهم: لمقت الله إياكم أيها القوم في الدنيا، إذ تدعون فيها للإيمان بالله فتكفرون، أكبر من مقتكم اليوم أنفسكم لما حل بكم من سخط الله عليكم".

قال ابن كثير:"لمقتُ الله أهل الضلالة حين عُرض عليهم الإيمان في الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة".

قال مقاتل:"وذلك أن الكفار إذا عاينوا النار في الآخرة ودخلوها مقتوا أنفسهم فقالت لهم الملائكة، وهم خزنة جهنم يومئذ: {لمقت الله} إياكم في الدنيا حين دعيتم إلى الإيمان، يعني: التوحيد فكفرتم، {أكبر من مقتكم أنفسكم}".

قال الزمخشري:"المعنى: أنه يقال لهم يوم القيامة: كان الله يمقت أنفسكم الأمارة بالسوء والكفر، حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان، فتأبون قبوله وتختارون عليه الكفر أشدّ مما تمقتونهن اليوم وأنتم في النار إذا أوقعتكم فيها باتباعكم هواهنّ، والمقت: أشدّ البغض، فوضع في موضع أبلغ الإنكار وأشدّه".

قال ابن زيد:"لما دخلوا النار مقتوا أنفسهم في معاصي الله التي ركبوها، فنودوا: إن مقت الله إياكم حين دعاكم إلى الإسلام أشد من مقتكم أنفسكم اليوم حين دخلتم النار".

عن السديّ قوله: " {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ} في النار {إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإيمَانِ} في الدنيا، {فَتَكْفُرُونَ}".

قال قتادة:"يقول: لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا، فتركوه، وأبوا أن يقبلوا، أكبر مما مقتوا أنفسهم، حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة".

قال مجاهد:"مقتوا أنفسهم حين رأوا أعمالهم، ومقت الله إياهم في الدنيا، إذ

=

=

يدعون إلى الإيمان، فيكفرون أكبر".

عن زر الهمداني، في قوله {إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم} قال: "هذا شيء يقال لهم يوم القيامة حين مقتوا أنفسهم فيقال لهم {لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم} قال: مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة حين مقتوا أنفسهم الآن حين علمتم أنكم من أصحاب النار".

قال سهل:"المقت: غاية الإبعاد من الله ﷻ، والكفار إذا دخلوا النار مقتوا أنفسهم، ومقت الله عملهم أشد من دخول النار".

قوله تعالى: {إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ} [غافر: ١٠]، أي:"حين كنتم تُدعون إلى الإيمان فتكفرون كبراً وعتوًا".

قال الطبري: يقول: " إذ تدعون فيها للإيمان بالله فتكفرون".

قال السمعاني:"يعني: إن مقت الله إياكم كان لأن الله دعاكم إلى الإيمان فكفرتم".

عن الحسن، قال: "مقتوا أنفسهم لما دخل المؤمنون الجنة وأدخلوا النار فأكلوا أناملهم من المقت قال: ينادون في النار {لمقت الله} إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون {أكبر من مقتكم أنفسكم} في النار".

وفي رواية عن الحسن، في قوله {إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم} قال: "إذا كان يوم القيامة فرأوا ما صاروا إليه مقتوا أنفسهم فقيل لهم {لمقت الله} إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون {أكبر من مقتكم أنفسكم} اليوم".

وروي عن مطرِّف -هو ابن طريف-، قال: سمعت الحسن يقول: "نظروا في كتابهم فلما رأوا سوء أعمالهم مقتوا أنفسهم، فنادى منادٍ مِن عند الله ﷻ لمقت الله إياكم. {إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ} [سورة غافر: ١٠] أشد من مقتكم أنفسكم".

=

=

وكان أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خليفة بن سليمان الأندلسي الطُّرْطُوشِيّ الفقيه الزاهد يقول: "إذا كان يوم القيامة يجيء القاضي أبو بكر بن الطيب ، وبين يديه الدواويين التي صنفها في نصرة الشريعة والذب عنها، ويجيء القاضي فلان وبين يديه دواوين المكوس يحذّر مِن مباشرة ذلك". ذكر ذلك الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المِنذريّ في مناقب الطُّرطُوشَيّ.

قال العثيمين: قوله تعالى: {إن الذين كفروا ينادون} والنداء: هو الكلام من بعيد، والمناجاة الكلام من قريب، ولم يبين الله تعالى من يناديهم، لكن المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ قال: [من قبل الملائكة]، وذلك عند دخولهم النار، وهم يمقتون أنفسهم في ذلك الوقت أكبر مقت- والمقت: هو أشد البغض -، فهم في ذلك الوقت عند دخولهم النار يبغضون أنفسهم بغضا شديدا؛ حيث لم يتوصلوا إلى النجاة منها، فينادون فيقال لهم: {لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم} اللام هنا لام الابتداء، وتدخل على المبتدأ توكيدا.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لمقت الله} إياكم]، هذا أحد الوجهين في الآية، وعلى هذا فيكون المقت مضافا إلى فاعله لا إلى مفعوله، يعني: لبغض الله إياكم أشد من بغضكم أنفسكم، وقيل: إنه مضاف إلى مفعوله لا إلى فاعله، وعلى هذا يكون المعنى: لمقتكم الله حين تدعون إلى الإيمان أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم، أي: أنهم كرهوا ما دعوا إليه في الدنيا من محبة الله، وأبدلوا ذلك بأشد البغض، وهذا المعنى أقرب مما مشى عليه المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لمقت الله} إياكم]، وعلى ما رجحنا يكون المعنى: لمقتكم الله، فهو مضاف إلى مفعوله.

متى مقتوا الله؟ الجواب: {إذ تدعون إلى الإيمان} وعلى هذا فيكون قوله: {إذ تدعون} متعلقا بقوله: {لمقت الله}، أي: أنكم حينما دعيتم إلى الإيمان كرهتم ذلك، ولم تقتنعوا به، بل أبغضتموه أشد البغض.

=

قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١).

{قَالُوا رَبّنَا أَمَتّنَا اثْنَتَيْنِ} إمَاتَتَيْنِ {وَأَحْيَيْتنَا اثْنَتَيْنِ} إحْيَاءَتَيْنِ لِأَنَّهُمْ نُطَف أَمْوَات فَأُحْيُوا ثُمَّ أُمِيتُوا ثُمَّ أُحْيُوا لِلْبَعْثِ {فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا} بِكُفْرِنَا بِالْبَعْثِ {فَهَلْ إلَى خُرُوج} مِنْ النَّار وَالرُّجُوع إلَى الدُّنْيَا لِنُطِيعَ رَبّنَا {مِنْ سَبِيل} طَرِيق وَجَوَابهمْ لا[1].

=

وقوله: {أكبر من مقتكم أنفسكم} مقتوا أنفسهم حين قيل لهم: ادخلوا نار جهنم، فأبغضوا أنفسهم، وقوله: {من مقتكم أنفسكم} مقت هنا مصدر مضاف إلى فاعله، يعني: أنهم هم مقتوا أنفسهم، وأنفس مفعول مقت.

وقوله: {إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون} تدعون في الدنيا إلى الإيمان، وأبهم الداعي؛ لأن دعوتهم إلى الإيمان تكون من الرسل، وتكون من ورثة الرسل، وهم العلماء، فالداعي لهم إلى الإيمان في الدنيا ليس واحدا، بل هم الرسل يدعونهم، وورثة الرسل وهم العلماء يدعونهم كذلك.

وقوله: {إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون}، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، هذا هو الإيمان كما فسره النبي ﷺ حين سأله جبريل قال: "أخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله ... " إلى آخره.

فقوله: {إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون} المراد بالإيمان هنا- كما ذكرت لكم- هو الإيمان بالأركان الستة، وكذلك الانقياد اللازم من الإيمان بهذه الأركان الستة؛ ولهذا هم دعوا إلى الإيمان الذي في القلوب، ودعوا إلى الاستسلام أيضا وهو أعمال الجوارح، وكفروا بذلك كله، {إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون}.

(١) قوله تعالى: {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} [غافر: ١١]، أي:"قال

=

=

الكافرون: ربنا أمتَّنا مرتين: حين كنا في بطون أمهاتنا نُطَفًا قبل نفخ الروح، وحين انقضى أجلُنا في الحياة الدنيا، وأحييتنا مرتين: في دار الدنيا، يوم وُلِدْنا، ويوم بُعِثنا من قبورنا.

في الآية وجوه من التفسير:

أحدها: أنه خلقهم أمواتًا في أصلاب آبائهم، ثم أحياهم بإخراجهم ثم أماتهم عند انقضاء آجالهم، ثم أحياهم للبعث، فهما ميتتان إحداهما في أصلاب الرجال، الثانية في الدنيا، وحياتان: إحداهما في الدنيا والثانية في الآخرة، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، وأبو مالك. وبه قال ابن كثير.

قال أبو مالك: "خلقتنا ولم نكن شيئا ثم أمتنا، ثم أحييتنا".

وقال أبو مالك:"كانوا أمواتا فأحياهم الله، ثم أماتهم، ثم أحياهم".

قال قتادة:"كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم، فأحياهم الله في الدنيا، ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما حياتان وموتتان".

عن عبد الله، في قوله: " {أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ}، قال: هي كالتي في البقرة: {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}".

عن ابن عباس، قوله: " {رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} قال: هو كقوله: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا} ... الآية".

عن عبيد، قال: "سمعت الضحاك يقول فى قوله: {أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} هو قول الله: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}".

الثاني: أن الله أحياهم حين أخذ عليهم الميثاق في ظهر آدم قوله: {وإذ أخذ رَبُكَ مِن ابني آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذريتَهُمْ} [الأعراف: ١٧١] الآية. ثم إن الله أماتهم بعد أخذ الميثاق عليهم، ثم أحياهم حين أخرجهم، ثم أماتهم عند انقضاء آجالهم، ثم

=

=

أحياهم للبعث فتكون حياتان وموتتان في الدنيا وحياة في الآخرة، قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

الثالث: أن الله أحياهم حين خلقهم في الدنيا، ثم أماتهم فيها عند انقضاء أجالهم، ثم أحياهم في قبورهم للمساءلة، ثم أماتهم إلى وقت البعث. ثم أحياهم للعبث، قاله السدي.

قال ابن كثير:"وهذان القولان- من السدي وابن زيد- ضعيفان؛ لأنه يلزمهما على ما قالا ثلاث إحياءات وإماتات. والصحيح قول ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما. والمقصود من هذا كله: أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله، ﷻ، في عرصات القيامة، كما قال: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [السجدة: ١٢]، فلا يجابون. ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنَّكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال الله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُون} [الأنعام: ٢٧، ٢٨] فإذا دخلوا النار وذاقوا مَسّها وحَسِيسها ومقامعها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم، {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} [فاطر: ٣٧]، {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ. قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ} [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨]، وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال، وقدموا بين يدي كلامهم مُقدّمة، وهي قولهم: {رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} أي: قدرتك عظيمة، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتا، ثم أمتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا

=

=

كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا".

قولـه تعـالى: {فَاعْتَرَفْنَـا بِـذُنُوبِنَا} [غـافر: ١١]، أي:"فـنحن الآن نُقِـرُّ بأخطائنـا السابقة.

قال الطبري: "يقول: فأقررنا بما عملنا من الذنوب في الدنيا".

قال ابن كثير:"وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا".

قوله تعالى: {فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ} [غـافر: ١١]، أي:"فهـل لنا مـن طريـق نخرج به من النار، وتعيدنا به إلى الدنيا؛ لنعمل بطاعتك؟".

قال الطبري: " يقول: فهل إلى خروج من النار لنا سبيل، لنرجع إلى الدنيا، فنعمـل غير الذي كنا نعمل فيها".

قال ابن كثير:"أي فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قـادر علـى ذلك؛ لنعمل غير الذي كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون. فأُجِيبُوا ألا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا".

قال قتادة:"فهل إلى كرّة إلى الدنيا".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قالوا ربنا أمتنا اثنتين} الإماتة هنا مـا كـان قبـل الحيـاة وبعد الحياة، ما كان قبل الحيـاة أي وهـم أجنـة في بطـون أمهـاتهم، ومـا كـان بعـدها وهو المـوت الـذي يكـون بعـد الوجـود في الـدنيا، هاتـان ميتتـان، {وأحييتنـا اثنتـين} الحياة وهم أجنة في بطون أمهاتهم، والحياة بعد البعث يوم القيامة، أو حـين البعـث يوم القيامة.

وهـذا كقولـه تعـالى: {كيـف تكفـرون بـالله وكنـتم أمواتـا فأحيـاكم ثـم يميـتكم ثـم يحييكم} [البقرة: ٢٨]، هذه أربعة: إماتتـان، وإحياءتـان، فهـم يقولـون- كمـا ذكـر المفسر -: [{ربنا أمتنا اثنتين} إماتتين {وأحييتنـا اثنتـين} إحيـاءتين؛ لأنهـم نطـف أموات، فأحيوا، ثم أميتوا، ثم أحيـوا للبعـث]، هـذا تفسير: {أمتنـا اثنتـين وأحييتنـا

=

ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢).

=

اثنتين}.

والإماتة الأولى ليست إماتة بعد حياة، ولكنها فقد حياة، فصح أن يطلق عليها اسم الموت، وقصدهم بهذا الإقرار بأن الأمر حق، فكما أننا ندرك أنه مرت بنا هذه الأطوار الأربعة: موت فحياة، ثم موت فحياة، فإننا نتيقن أننا أخطأنا؛ ولهذا قالوا: {فاعترفنا بذنوبنا} يعني: فقد اعترفنا بذنوبنا.

فإن قال قائل: قول الله تبارك وتعالى: {أمتنا اثنتين} هل يقصد بالميتتين: الموت في الدنيا حين المنام، والموت في الأخرى في يوم القيامة؟

فالجواب: لا يصح؛ لأن ميتة الدنيا في المنام ليست هي مرتين، ولا ثلاثا، ولا أربعا، ولا مئة، الإنسان في الشهر ينام على الأقل ثلاثين مرة {وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه} [الأنعام: ٦٠] فإذا بعثنا من ميتة الليلة البارحة جاءت الليلة الثانية، متنا ثانية، والتي وراءها، والذي ينام بعد صلاة الفجر، والذي ينام في القيلولة، والذي ينام بعد العصر، أربع ميتات في يوم واحد.

والذنوب جمع ذنب وهو: المعصية، والمراد بها هنا الكفر، كما قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بكفرنا بالبعث {فهل إلى خروج} من النار]، و (هل) هنا للتمني، يعني أننا نتمنى الخروج من النار ولكنه لا يحصل لهم ذلك.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فهل إلى خروج} من النار والرجوع إلى الدنيا لنطيع ربنا {من سبيل} من طريق؟ وجوابهم: لا] وهذا من المفسر بناء على أن الاستفهام على بابه، أنهم يسألون: هل لنا من طريق فنخرج؟ أما على ما قلنا: إنه للتمني فلا يحتاج إلى جواب، فهو كقوله: {فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل} [الأعراف: ٥٣].

{ذَلِكُمْ} أَيْ الْعَذَاب الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ {بِأَنَّهُ} أَيْ بِسَبَبِ أَنَّهُ فِي الدُّنْيَا {إذَا دُعِيَ اللهُ وَحْده كَفَرْتُمْ} بِتَوْحِيدِهِ {وَإِنْ يُشْرَك بِهِ} يُجْعَل لَهُ شَرِيك {تُؤْمِنُوا} تَصْدُقُوا بِالْإِشْرَاكِ {فَالْحُكْم} فِي تَعْذِيبكُمْ {لِلَّهِ الْعَلِيّ} عَلَى خَلْقه {الْكَبِير} العظيم(١).

---

(١) قوله تعالى: {ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ} [غافر: ١٢].

قال ابن كثير: "أي: أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدنيا، كما قال تعالى: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام: ٢٨]".

قال الشوكاني: "أي: ذلك الذي أنتم فيه من العذاب بسبب أنه إذا دعي الله في الدنيا وحده دون غيره كفرتم به، وتركتم توحيده".

قال الطبري: "وفي هذا الكلام متروك استغني بدلالة الظاهر من ذكره عليه؛ وهو: فأجيبوا أن لا سبيل إلى ذلك هذا الذي لكم من العذاب أيها الكافرون {بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ}، فأنكرتم أن تكون الألوهة له خالصة، وقلتم: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا}".

قوله تعالى: {وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا} [غافر: ١٢]، أي: "وإن دعيتم إلى اللات والعزَّى وأمثالهما من الأصنام، آمنت وصدَّقتم بألوهيتها".

قال مقاتل: "يعني: وإن يعدل به تصدقوا".

قال الطبري: "يقول: وإن يجعل لله شريك تصدّقوا من جعل ذلك له".

قال الشوكاني: أي: " وإن يشرك به غيره من الأصنام أو غيرها تؤمنوا بالإشراك وتجيبوا الداعي إليه، فبين سبحانه لهم السبب الباعث على عدم إجابتهم إلى الخروج من النار، وهو ما كانوا فيه من ترك توحيد الله، وإشراك غيره به في العبادة التي رأسها الدعاء".

قال أبو طالب المكي: "{ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ الله وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ}: والكفر: التغطية، {وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا}: والشرك: الخلط، أن يخلط بذكره ذكر سواه".

=

=

عن محمد بن كعب القرظي، أنَّه قال: "لأهل النار خمس دعوات يكلمون في أربع، ويسكت عنهم في الخامسة فلا يكلمون يقولون: {رَبَّنَا أَمَتَّنَا * اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ} [غافر: ١١] فيردُّ عليهم: {ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا} [غافر: ١٢] ثم يقولون: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [السجدة: ١٢] فيرد عليهم: {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي} [السجدة: ١٣] الآيتين ثم يقولون: {رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ} [إبراهيم: ٤٤] فيرد عليهم: {أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ} [إبراهيم: ٤٤] ثم يقولون: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} [فاطر: ٣٧] فيرد عليهم: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ} [فاطر: ٣٧] ثم يقولون: {رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ} [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٧] فيرد عليهم: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [المؤمنون: ١٠٨] إلى قوله: {وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ} [المؤمنون: ١١٠] فلا يتكلمون بعد ذلك خرَّجه آدم بن أبي إياس، وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرٍو قال: نادى أهل النار: {يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} [الزخرف: ٧٧] قال: فخلى عنهم أربعين عامًا ثم أجابهم: {إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} [الزخرف: ٧٧] فقالوا: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا} [المؤمنون: ١٠٧] فخلى عنهم مثل الدنيا ثم أجابهم: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} قال: فأطبقت النار عليهم ويئسوا من كل خير، ولم ينطق القوم بعد تلك الكلمة وإن كان إلا الزفير والشهيق".

قوله تعالى: {فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ} [غافر: ١٢].

قال ابن كثير:"أي: هو الحاكم في خلقه، العادل الذي لا يجور، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو".

=

=

عن قتادة:"{فالحُكْمُ لِلَّهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ}، قال: قالت الحَرُورِيَّةُ: لا حكم إلا لله. فقال عليٌّ: كلمة حق غُذِّي بها الباطل. قال معمر: قال قتادة: واللهِ، لقد استُحلّ بها الفرج الحرام، والمال الحرام، والدم الحرام، وعُصي بها الرحمن".

قال العثيمين: قوله تعالى: قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [{ذلكم} أي: العذاب الذي أنتم فيه]، فالمشار إليه موجود، أي: أن العذاب الذي أنتم فيه بسبب كذا وكذا، وهنا قال: {ذلكم} وتأتي أحيانا بذلك، وتأتي أحيانا بذلكن، وتأتي أحيانا بذلكما، فما هو السبب في تغير الخطاب في هذه الإشارات؟ فيقال: اسم الإشارة بحسب المشار إليه، وكاف الخطاب التي بعدها بحسب المخاطب.

فإذا أشرت إلى واحد مخاطبا اثنين فقل: "ذلكما"، كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لصاحبي السجن: {ذلكما مما علمني ربي} [يوسف: ٣٧].

وإذا أشرت إلى اثنين مخاطبا واحدا تقول: "ذانك"؛ كقوله تعالى: {فذانك برهانان من ربك} [القصص: ٣٢].

وإذا أشرت إلى واحد مخاطبا جماعة ذكور، تقول: "ذلكم"، ومنه قوله تعالى: {وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم} [فصلت: ٢٣].

وإذا أشرت إلى واحد مخاطبا جماعة إناث تقول: "ذلكن"، قالت: {فذلكن الذي لمتنني فيه} [يوسف: ٣٢].

وإذا أشرت إلى اثنين مخاطبا اثنين تقول: "ذانكما".

وإذا أشرت إلى اثنين مخاطبا جماعة ذكور تقول: "ذانكم".

وإذا أشرت إلى اثنين مخاطبا جماعة إناث تقول: "ذانكن".

وإذا أشرت إلى جماعة مخاطبا جماعة ذكور تقول: "أولئكم".

وإذا أشرت إلى جماعة مخاطبا جماعة إناث تقول: "أولئكن".

وإذا أشرت إلى جماعة مخاطبا اثنين تقول: "أولئكما".

=

=

المهم: أن اسم الإشارة بحسب المشار إليه، والكاف بحسب المخاطب، إن كان مفردا مذكرا فالكاف تكون مفردة مذكرة، وإن كان مفردا مؤنثا فكذلك، ومثنى، وجمعا كذلك، هذا هو الأفصح.

وربما تأتي الكاف مفتوحة للمخاطب المذكر مطلقا، واحدا كان أو مثنى أو جماعة، ومكسورة للمخاطب المؤنث مطلقا، واحدة أو اثنتان أو جماعة.

وربما تأتي الكاف مفتوحة مفردة لكل مخاطب، فتقول: "ذلك". تخاطب الرجل، والمرأة، والاثنين، والجماعة.

فهذه ثلاث لغات في كاف الخطاب المقترن باسم الإشارة، الأفصح أن يكون بحسب المخاطب، ثم مفتوحا في المذكر، ومكسورا في المؤنث، ثم مفتوحا على كل حال مفردا مذكرا.

هنا يقول ﷻ: {ذلكم بأنه} المشار إليه واحد، والمخاطب جماعة ذكور {ذلكم}: فالمخاطبون جماعة ذكور.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: العذاب الذي أنتم فيه {بأنه} أي: بسبب أنه في الدنيا {إذا دعي الله وحده كفرتم}]، إذا دعي الله وحده كفرتم وأشركتم، وقلتم: {أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب} [ص: ٥].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{كفرتم} بتوحيده {وإن يشرك به} يجعل له شريك {تؤمنوا} تصدقوا بالإشراك].

وهذا هو الواقع: {وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون (٤٥)} [الزمر: ٤٥]، فهم يصدقون بقلوبهم، ويستبشرون بألسنتهم، وهذا الإيمان في الواقع قد نقول: إنه إيمان حقيقي، وقد نقول: إنه إيمان دعوي، يعني: أنه دعوة، وأنهم في قرارة أنفسهم يؤمنون بالله، وانظروا إلى أكفر أهل الأرض فرعون، كيف أنكر الخالق، وادعى

=

=

الربوبية، وقال لقومه: {ما علمت لكم من إله غيري} [القصص: ٣٨]، ومع ذلك كان مؤمنا في قرارة نفسه، قال له موسى وهو يحاوره: {قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر} [الإسراء: ١٠٢].

هذه الآية أقول لك: تدل على أن فرعون كان مؤمنا بربوبية الله، وذلك لأنه لما قال له موسى: {قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض} لم يقل: لم أعلم، وهو في مقام يرى نفسه أعلى من موسى، يعني: يستطيع أن ينكر دعوى موسى لو كان ينكر ذلك، لكنه يقر بأن الله أنزل التوراة على موسى عليه الصلاة والسلام.

ويدل لهذا قوله تعالى: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا} [النمل: ١٤]. ولهذا لا يمكن لأحد عاقل- وأريد بالعاقل من سوى المجنون- أن ينكر أن لهذا العالم خالقا أبدا، كل إنسان عاقل إذا تدبر أدنى تدبر في هذا الكون علم أن له ربا مدبرا، ولا يمكن أن ينكر.

فائدة: هناك قول أن فرعون أصله عربي ويقولون: اسمه مصعب بن ريان. ونقول: من قال هذا؟ فرعون قبطي وخبيث، وهو بريء من العرب، والعرب بريئون منه، لكن اليهود من الممكن أنهم هم من قالوا هذا الكلام؛ لأن اليهود من بني إسرائيل، وفرعون عدوهم، والعرب الآن أعداؤهم، فأرادوا أن يضعوا آل فرعون معهم.

فقوله هنا: {بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا} الذي يظهر لنا أنه إيمان دعوى، يعني يقول: نؤمن بأن هذا شريك مع الله، يقولونه بألسنتهم، أما في قرارة قلوبهم فلا نظن أن أحدا ينكر أن الله سبحانه وتعالى واحد، وقد يقال: إن المراد بقوله: {إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا} توحيد الألوهية. يعني: يكفرون بتوحيد الألوهية، ويؤمنون بالشرك في الألوهية؛ لأنهم يؤمنون بأن

=

=

هذه الآلهة تقربهم إلى الله زلفى، فإذن هم مؤمنون بالله ربا، ويؤمنون بالأصنام شفعاء.

ولا شك أن عبادة الرهبان والأحبار بالمعنى الذي فسره الرسول ﷺ ليست كعبادة الأصنام، لأن عبادة الأصنام عبادة تقرب وخضوع، وعبادة الأحبار والرهبان عبادة اتباع، ولا شك أنها عبادة كما جاء في الحديث.

وقال تعالى: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا} [التوبة: ٣١]، فإذا كانت عبادة الأحبار والرهبان كعبادة المسيح ابن مريم، لزم من هذا أنهم يعبدونهم عبادة التقرب، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام قال لعدي بن حاتم: "أليسوا يحلون ما حرم الله، فتحلونه، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ " قال: نعم. قال: "فتلك عبادتهم" فهذه عبادة اتباع، وغالب عبادة المشركين تقرب وتعظيم.

فإن قال قائل: ماذا يقصد بقول بعض المفسرين في قوله تعالى: {ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم} يقول: "فيه متروك استغني عنه بدلالة الظاهر عليه، ومجازه ألا سبيل إلى ذلك"؟

فالجواب: هذا قصده لما قالوا: {فهل إلى خروج من سبيل} [غافر: ١١]، كأنه قال: لا سبيل إلى الخروج؛ لأنكم قدمتم لأنفسكم ما لا يمكن معه الخروج، وهو أنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فالحكم} في تعذيبكم {لله العلي} على خلقه {الكبير} العظيم]. يعني: فبناء على أنكم في هذه الحال يكون حكمكم إلى الله، فالفاء حينئذ تكون؛ إما للاستئناف، وإما للتفريع على ما سبق. يعني: فبناء على ذلك يكون الحكم في أمركم إلى الله، الحكم في تعذيبكم لله وحده، واللام تكون بمعنى الغاية أحيانا، كما تقول: ولله ترجع الأمور. بمعنى: إلى الله، وهنا الحكم لله. أي: إلى

=

=

الله. أي: أن حكمكم ينتهي إلى الله، ويحتمل أن يكون المعنى: الحكم لله. أي: مستحق له لا يشاركه فيه أحد.

وقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{العلي} على خلقه] علو ذات، وعلو صفة، فالله سبحانه وتعالى عال على خلقه في ذاته فوق كل شيء، وعال على خلقه في صفاته، قال الله تعالى: {وله المثل الأعلى في السماوات والأرض} [الروم: ٢٧]، المثل يعني: الوصف الأعلى في السموات والأرض.

وعلو الله سبحانه وتعالى علوا معنويا، وهو علو الصفة أمر مجمع عليه، لم يخالف فيه أحد من أهل الملة حتى المعطلون الذين ينكرون صفات الله عَزَّ وَجَلَّ، إنما أنكروها بناء على تنزيههم لله عَزَّ وَجَلَّ عن مشابهة المخلوقين، وإن كانوا أخطؤوا الطريق لكن هم يقولون: نحن نقول هذا تنزيها لله؛ ولهذا يسمون الذين يثبتون الصفات: المشبهة، والمجسمة، والحشوية، وما أشبه ذلك، ويرون أنفسهم هم أهل التوحيد!.

فعلو الصفة لم ينكره أحد من أهل الملة، حتى أهل البدع يقرون بذلك.

وأما علو الذات فهو محل الصراع بين أهل السنة والجماعة، وبين أهل التعطيل، فأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن الله تعالى عال على خلقه بنفسه، وأهل التعطيل ينكرون ذلك، ثم انقسموا إلى قسمين:

قسم قالوا: إن الله في كل مكان؛ في السماء، وفي الأرض، وفي الأسواق، وفي المساجد، وفي البيوت، وفي كل مكان.

وقسم آخر قالوا: لا يوصف أنه في مكان، فلا يقال: فوق العالم، ولا في العالم، ولا تحته، ولا يمينه، ولا شماله، ولا متصل بالعالم، ولا مماس له، وهذا هو التعطيل المحض؛ لأننا لو أردنا أن نصف المعدوم لم نجد أبلغ من هذا الوصف، إذن خالف في علو الذات طائفتان:

=

=

الطائفة الأولى، قالت: إن الله في كل مكان بنفسه، وهو قول قيل حقيقة، ولكن لا تظنوا أنه تصور، فيوجد الآن من يعتقدون أن الله في كل مكان، إن جئت السوق وجدته في السوق، وإذا قالوا: بالجبر قالوا: في السوق يبيع ويشتري؛ لأن فعل العبد منسوب إلى الله تعالى، فإذا كان الذي في السوق هو في السوق، وفعل العبد فعله لصار يبيع ويشتري! ! وإذا جئت المسجد كان في المسجد، يصلي أو يقعد! لا ندري! إذا أتيت في أي مكان وجدته فيه. نسأل الله العافية! هذا من لازم قولهم.

ونحن نفصل هذا عن مسألة الجبر حتى لا نصل إلى نهاية سيئة جدا، نقول: هم يقولون: إن الله في كل مكان، حتى قال لهم أهل السنة: كيف يمكن أن تقولوا: إنه في أماكن القذر والأذى؟ قالوا: نقول: إذا دخلت أنت المكان صار الله معك، أي مكان تدخله فالله معك.

فإن قال قائل: الذين أنكروا علو الذات يستدلون بآية {فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله} .

فالجواب: {فثم وجه الله} [البقرة: ١١٥]، هل هذا ينافي العلو حتى يكون دليلا على عدمه؟ فيمكن أن يكون الشيء فوقك وهو أمامك، هذا في المخلوق، فكيف بالخالق المحيط بكل شيء؟ ! ثم كيف نورد آية تحتمل على آيات محكمة لا تحتمل وهو العلو؟ انتبهوا لهذا؛ لأن أهل الباطل يوردون المتشابه على المحكم، ولا يحملون المتشابه على المحكم، يوردون المتشابه على المحكم؛ ليناقضه، وليسوا يحملون المتشابه على المحكم ليكون محكما، وهذا هو البلاء، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم" هكذا روته عن النبي ﷺ.

وهذه مسألة أحب أن أنبهكم عليها، وهو أنه إذا وردت آيات متعارضة، وأحاديث متعارضة، فلا توردوها على أنفسكم على أنها متعارضة، أوردوها على أنفسكم

=

=

على أنكم تطلبون الجمع بينها، لتوفقوا للجمع، أما إذا أوردتم هذه على أنها متعارضة بقيت محل إشكال، وأنا دائما أنهاكم عن هذا، أقول: لا توردوا الآيات المتشابهة التي ظاهرها التعارض، أو الأحاديث كذلك على أنها متعارضة، أوردوها على أنكم تريدون الجمع بينها، لا أن بعضها معارض لبعض، حتى تهدوا إلى الصراط المستقيم؛ لأن هناك فرقا بين الإيراد وبين الرد، إيراد المتشابه على المحكم معناه: أنه يطلب التعارض، لكن رد المتشابه إلى المحكم هذا معناه أنه حاول الجمع دون أن يتصور التعارض، وهذه المسألة كما تكون في الأمور العلمية تكون أيضا في الأمور العملية.

أحيانا ترد عن النبي ﷺ صفات في عبادة واحدة، فيظن الظان أن هذا تعارض، لكن نقول: لا تقرأها ولا توردها على نفسك على أنها متعارضة، لا، أوردها على أنك تجمع بينها، فتحمل هذه على وجه وهذه على وجه، وأكثر ما يكون الشك للطالب أنه يورد الآيات المتعارضة التي ظاهرها التعارض، أو الأحاديث التي ظاهرها التعارض على أنها متعارضة، لكن لو أوردها على أنه يرد بعضها إلى بعض، ويضم بعضها إلى بعض، لوجد وجها ومخرجا مما كان يظن، وهذا شيء إذا فعلتموه ستنتفعون به، إن شاء الله.

فالذين قالوا: {ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله} [البقرة: ١١٥]، يدل على عدم العلو فيعارض أدلة العلو. نقول: من قال هذا؟ ! من قال: إنه يدل على عدم العلو؟ ! وإذا كان الشيء مقابلا لك فلا يلزم أن يكون محاذيا لك، قد تقول: هذا عن يميني وهو أسفل شيء، لكن مع الجهة اليمنى، وهذا عن يساري وهو أسفل شيء، وهو عن الجهة اليسرى، كما جاء في حديث المعراج: "أن على يمين آدم أسودة وعلى يساره أسودة، فإذا رأى إلى اليسار بكى" اليسار هي نسم بنيه الكفرة في النار، وهذا في الأسفل، فلا يلزم من كون الشيء على يمينك أن

=

=

يكون محاذيا لك، ولا يلزم من كون الشيء فوقك أن يكون محاذيا لك، ولا من كونه أسفل منك أن يكون محاذيا لك، هذا ليس بلازم، لكن الذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه؛ لإيراد التشكيك.

القول الثاني: قالوا: لا يصح أن يوصف الله بأي مكان، لا فوق، ولا تحت، ولا يمين العالم، ولا شمال العالم، ولا اتصال بالعالم، ولا انفصال من العالم.

وقد قال محمود بن سبكتكين لمحمد بن فورك وهو يناظره في هذه المسألة قال له: إذا قلت هذا فأثبت لنا ربك، إذا كان لا هو فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا متصلا ولا منفصلا، ولا مباينا ولا محايثا أين يكون؟ لا يكون، وهذا العدم تماما.

فليس بصحيح أنه ليس بيمين ولا بشمال، لكنه وصف نفسه بما هو أحسن من هذا؛ لأنه لو قال: لا يمين ولا شمال صارت الصفة صفة سلبية، لكن إذا قال: {هو العلي} انتفى اليمين والشمال بوصف ثبوتي، لا بوصف سلبي، والوصف الثبوتي أكمل من الوصف السلبي؛ لأن دلالة الوصف السلبي على الإثبات دلالة التزام، قد ينكرها منكر ولا يلتزم بها.

فإن قال قائل: نفي العدم يعني القول بأن الله لا فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، فبماذا استدل القائلون به؟

فالجواب: نقول: لأنك إذا أثبت أنه في جهة فقد جسمت- أي: جعلته جسما- إذا صار فوق معناه أنه جسم، ويمينا وشمالا كذلك، كل هذا فرارا من التجسيم، والسبب أن الشيطان تلاعب بهم في الواقع، وإلا نقول لهم: ما هو التجسيم الذي تريدون أن تنفوه عن الله، تريدون أن الله ليس بشيء؟ فنحن لا نوافقكم، تريدون أن الله تعالى جسم موصوف بالصفات الكاملة؟ فهو كذلك هو موصوف بالصفات الكاملة، لكن لا نطلق لفظ جسم على الله أبدا، وقد ورد في الحديث ما

=

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣).

=

يدل على أنه يوصف بالشخص، ومع ذلك لا نقول: إنه شخص كأشخاص المخلوقين أبدا {ليس كمثله شيء}.

فالحاصل: أن العلو قول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{العلي} على خلقه] نقول: العلو نوعان: علو صفة، وعلو ذات.

أما علو الصفة: فهذا لم ينكر أحد من أهل القبلة حتى المبتدعة أنه منفي عن الله، كلهم يثبتون لله علو الصفة، لكن أهل التعطيل يرون التعطيل من باب التنزيه، ورفع الله عَزَّ وَجَلَّ، وأهل التمثيل كذلك يرون هذا من باب تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ وإثبات حقيقته.

وأما علو الذات: فهو الذي انقسم فيه الناس إلى هذه الأقسام الثلاثة التي سمعتموها.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{الكبير} العظيم] وهذا تفسير تقريبي، ولو قال: الكبير ذو الكبرياء لكان أقرب، فهو كبير عَزَّ وَجَلَّ ذو كبرياء، وهو كبير أيضا، كبير باعتبار ذاته، لا يحيط به شيء من مخلوقاته، والسموات السبع والأرضون السبع في يده كخردلة في يد أحدنا.

مسألة: هل يجب على الإنسان أن يبلغ الناس أنه يجب عليهم أن يبحثوا، ثم كيف نقول لهم هذا وهم أصلا كسالى، لا يبحثون وجهلة؟

فالجواب: نحن لا نتكلم عن العرب، العرب يفهمون الدعوة بمجرد أن تبلغهم، بل نتكلم عن قوم لا يفهمون المعنى، يجب عليهم أن يبحثوا، أما عوام الناس الآن فقد بلغتهم وفهموها؛ ولهذا يعرفون معنى لا إله إلا الله، ويعرفون معنى محمد رسول الله، وما أشبهها.

{هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاته} دَلَائِل تَوْحِيده {وَيُنَزِّل لَكُمْ مِنَ السَّمَاء رِزْقًا} بِالْمَطَرِ {وَمَا يَتَذَكَّر} يَتَّعِظ {إلَّا مَنْ يُنِيب} يَرْجِع عَنْ الشِّرْك(١).

---

(١) قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ} [غافر: ١٣].

قال الطبري: يقول: " الذي يريكم أيها الناس حججه وأدلته على وحدانيته وربوبيته".

قال ابن كثير:"أي: يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها".

قوله تعالى: {وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا} [غافر: ١٣]، أي:"ويُنَزِّل لكم من السماء مطرًا تُرزَقون به".

قال الطبري: " يقول ينزل لكم من أرزاقكم من السماء بإدرار الغيث الذي يخرج به أقواتكم من الأرض، وغذاء أنعامكم عليكم".

قال السمعاني:"أي: المطر؛ لأنه سبب الأرزاق".

قال ابن كثير:"وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعومه، وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء".

قوله تعالى: {وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ} [غافر: ١٣]، أي:"وما يتذكر بهذه الآيات إلا مَن يرجع إلى طاعة الله، ويخلص له العبادة".

قال الطبري: " يقول: وما يتذكر حجج الله التي جعلها أدلة على وحدانيته، فيعتبر بها ويتعظ، ويعلم حقيقة ما تدل عليه، إلا من ينيب، يقول: إلا من يرجع إلى توحيده، ويقبل على طاعته".

قال ابن كثير:"{وَمَا} يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها {إلا}: من هو بصير منيب إلى الله ﷻ".

=

قال السمعاني:"أي: وما يتعظ إلا من يرجع إلى الله في جميع أموره".
عن السديّ: " {إِلا مَنْ يُنِيبُ}، قال: من يقبل إلى طاعة الله".
قال الهروي:"ا (لتذكر) فوق (التفكر)، فإن التفكر طلب، والتذكر وجود وأبنية.
التذكر ثلاثة أشياء: الانتفاع بالعظة واستبصار العبرة والظفر بثمر الفكرة.
وإنما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء: بشدة الافتقار إليها والعمي عن عيب الواعظ وبذكر الوعد والوعيد.
وإنما تستبصر العبرة بثلاثة أشياء: بحياة العقل ومعرفة الأيام والسلامة من الأغراض:
وإنما تجنى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء: بقصر الأمل والتأمل في القرآن وقلة الخلطة والتمني والتعلق والشبع والمنام".
قال الغزالي:"وقد شرط الله ﷻ (الإنابة) في الفهم والتذكير، فقال تعالى: {تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} [ق: ٨]، وقال ﷻ: {وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ} وقال تعالى: {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الرعد: ١٩/ ص: ٢٩/ الزمر: ٩]، فالذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب".
قال شيخ الإسلام:"ومن فعل ما يعلم أنه يضره؛ فمثل هذا ما له عقل، فكما أن الخوف من الله يستلزم العلم به، فالعلم به يستلزم خشيته، وخشيته تستلزم طاعته، فالخائف من الله ممتثل لأوامره مجتنب لنواهيه، وهذا هو الذي قصدنا بيانه أولا.
ويدل على ذلك أيضًا قوله تعالى: {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى} [الأعلى: ٩: ١٢]، فأخبرَ أن من يخشاه يتذكر، والتذكر هنا مستلزم لعبادته، قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاء رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ} [غافر: ١٣]، وقال: {تَبْصِرَةً

=

وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ} [ق: ٨]؛ ولهذا قالوا في قوله: {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى}: سيتعظ بالقرآن من يخشى الله، وفي قوله: {وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ}: إنما يتعظ من يرجع إلى الطاعة. وهذا لأن التذكر التام يستلزم التأثر بما تذكره، فإن تذكر محبوبًا طلبه، وإن تذكر مرهوبًا هرب منه".

قال العثيمين: قوله تعالى: {هو الذي يريكم} أي: يظهر لكم آياته حتى تروها، والضمير يعود إلى الله، فهو الذي له الحكم، وهو العلي الكبير، ومع ذلك لم يدع عباده هملا، بل أراهم آياته حتى يؤمنوا.

فقوله: {هو الذي يريكم آياته}؛ أي: يظهرها لكم حتى تروها عيانا، والآيات هنا: العلامات الدالة على معلومها، وهي أبلغ من المعجزات وما أشبهها.

وآيات الله سبحانه وتعالى نوعان: آيات كونية وآيات شرعية.

فالآيات الكونية: هي مخلوقات الله ﷻ.

والآيات الشرعية: هي الوحي الذي جاءت به الرسل.

كل المخلوقات آيات من آيات الله: {وفي الأرض آيات للموقنين (٢٠) وفي أنفسكم أفلا تبصرون} [الذاريات: ٢٠، ٢١]، {ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها} [الروم: ٢١]، {ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة} [الشورى: ٢٩].

والأمثلة على هذا كثيرة، كلها تدل على خالقها ﷻ، وعلى تفرده بالخلق، وعلى حكمته، وعلى رحمته، وعلى عزته إلى غير ذلك من معاني الربوبية التي تدل عليها هذه الآيات، وقد تكون آية واحدة تدل على عدة آيات، وعلى عدة أوصاف، هذه الآيات الكونية شاملة لكل المخلوقات، وفي هذا يقول القائل:

فواعجبا كيف يعصى الإله؟ ! ... أو كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

=

=

كل شيء تتأمل فيه تجد الدلالة الكاملة على أن له خالقا مدبرا حكيما عليما، إلى غير ذلك من معاني الربوبية.

أما الآيات الشرعية: فهي ما جاءت به الرسل وقد أرانا الله تعالى إياها، وأعطى الرسل عليه الصلاة والسلام من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، فالرسل لم يأتوا هكذا يقولون للناس: نحن رسل إليكم. بل أتوا بالآيات الدالة على ما أرسلوا به، وعلى مرسلهم.

قوله: {هو الذي يريكم آياته} إذن الآيات تشمل: الكونية والشرعية، البرق: آية كونية: {هو الذي يريكم البرق خوفا} [الرعد: ١٢].

وقوله: {وينزل لكم من السماء رزقا} التنزيل يكون من أعلى، وهنا قال: {من السماء} وهو العلو، وليس المراد بالسماء هنا السماء المحفوظة- السقف المرفوع -، بل المراد به العلو؛ لقوله تعالى: {والسحاب المسخر بين السماء والأرض} [البقرة: ١٦٤]، فالمطر ليس ينزل من السماء السقف المحفوظ، وإنما ينزل من العلو، من السحاب المسخر بين السماء والأرض، وهذا أمر مشاهد.

وقوله: {رزقا} أي: ماء يكون به الرزق، فالذي ينزل ماء يكون به الرزق، فهو نفسه رزق: {أفرأيتم الماء الذي تشربون (٦٨) أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون} [الواقعة: ٦٨، ٦٩]، وبه يكون الرزق {فأخرجنا به من كل الثمرات} [الأعراف: ٥٧]، والثمرات أرزاق تؤكل، والماء رزق يشرب، فهو رزق بكل حال.

وفي تقديم الآيات على إنزال الرزق من السماء دليل على أن النعمة الدينية أهم وأكبر من النعمة الدنيوية.

قوله: {وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب} [غافر: ١٣].

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{هو الذي يريكم آياته} دلائل توحيده، يعني: التي تدل على

=

فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤).

{فَادْعُوا الله} اُعْبُدُوهُ {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين} مِنْ الشِّرْك {وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} إخْلَاصكُمْ مِنْهُ[1].

=

توحيده وغير ذلك مما تدل عليه من معاني الربوبية، [{وينزل لكم من السماء رزقا} بالمطر]، فالمفسر رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أن الرزق هو ما يخرج بالمطر. يعني: النبات وما أشبه ذلك، ولكن ما ذكرناه هو الأصوب، أن المطر نفسه رزق؛ لأن الله قال: {أفرأيتم الماء الذي تشربون (٦٨) أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون} [الواقعة: ٦٨، ٦٩]، وأحيانا يكون احتياج البدن إلى الماء أكثر من احتياجه إلى الأكل.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وما يتذكر} يتعظ {إلا من ينيب} يرجع عن الشرك]، وقوله: {إلا من ينيب} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يرجع عن الشرك]، وهذا لا شك أنه صحيح لكنه قاصر، فالصواب: {من ينيب} من يرجع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ من الشرك وغيره من المعاصي والفسوق، فهو أعم مما قاله المفسر.

(١) قوله تعالى: {فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [غافر: ١٤].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللمؤمنين به، فاعبدوا الله أيها المؤمنون له، مخلصين له الطاعة غير مشركين به شيئا مما دونه".

قال السمعاني:"أي: مخلصين له التوحيد. ومعناه: وحدوا الله ولا تشركوا به شيئا".

قال ابن كثير:"أي: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم".

قال الشوكاني:"لما ذكر سبحانه ما نصبه من الأدلة على التوحيد أمر عباده بدعائه، وإخلاص الدين له فقال: {فادعوا الله مخلصين له الدين}، أي: إذا كان الأمر كما

=

ذكر من ذلك فادعوا الله وحده مخلصين له العبادة التي أمركم بها".

فليس لأحد في ملكه مثقال ذرة دونه سبحانه وبحمده، والإسلام هو أن تسلم قلبك وجوارحك لله بالإخلاص كما في المسند عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال لرسول الله ﷺ: (فبالذي بعثك بالحق له ما بعثك به؟ قال: الإسلام. قال: وما الإسلام؟ قال: أن تسلم قلبك، وأن توجه وجهك إلى الله؛ وأن تصلي الصلاة المكتوبة، وأن تؤدي الزكاة المفروضة) ، والآيات في بيان الإخلاص كثيرة، وهو أن لا يلتفت القلب ولا الوجه في جميع الأعمال كلها إلا لله وحده. كما قال تعالى: {فادعوا الله مخلصين له الدين} فأمر تعالى بإخلاص الدعاء له وحده، وأخبر أنه الدين الذي تصح معه الأعمال وتقبل.

قال شيخ الإسلام: "الإخلاص محبة الله وإرادة وجهه، فمن أحب الله أحب دينه وما لا فلا".

قوله تعالى: {وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [غافر: ١٤]، أي:"اعبدوه وأخلصوا له قلوبكم، حتى ولو كره الكافرون وذلك، وغاظهم إخلاصكم وقاتلكم عليه".

قال الطبري:"يقول: ولو كره عبادتكم إياه مخلصين له الطاعة الكافرون المشركون في عبادتهم إياه الأوثان والأنداد".

قال الشوكاني: أي:"فلا تلتفتوا إلى كراهتهم، ودعوهم يموتوا بغيظهم ويهلكوا بحسرتهم".

عن هشام يعني ابن عروة بن الزبير، عن أبي الزبير، قال:"كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: " لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، وله النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون " قال: " وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة".

=

وقد ثبت في الصحيح عن ابن الزبير؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: "لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون".

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه".

قال العثيمين: لما بين الله سبحانه وتعالى أنه أرانا آياته الكونية والشرعية، أمرنا أن ندعوه وحده مخلصين له الدين.

فقوله: {فادعوا الله} هو قال المفسر رحمه الله: [فاعبدوه] وهذا أحد معنيين: الدعاء، والمعنى الثاني: دعاء المسألة، يعني: اسألوه. والصواب: أنه شامل للأمرين؛ أي: دعاء المسألة، ودعاء العبادة، فالعبادة تسمى دعاء كما في قوله تعالى: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠)} [غافر: ٦٠]، قال: {ادعوني} ثم قال: {إن الذين يستكبرون عن عبادتي}.

وأما دعاء العبادة: فإن كل إنسان يدعو الله سبحانه وتعالى، فإنه لا يدعوه إلا وهو يؤمن أنه بكل شيء عليم، وأنه على كل شيء قدير؛ فلهذا دعاه، فصار بذلك عابدا له.

وقوله: {فادعوا الله مخلصين له الدين} {مخلصين} حال من الواو في قوله: {فادعوا الله}، والإخلاص: التنقية، فتنقية الشيء تسمى إخلاصا، والمعنى: نقوا دينكم من الشرك.

وقوله: {له الدين}، المراد بالدين العمل، سواء كان عبادة أم دعاء، والدين يطلق على العمل، ويطلق على جزاء العمل، فقوله تعالى: {لكم دينكم ولي دين}

=

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) .

{رَفِيع الدَّرَجَات} أَيْ الله عَظِيم الصِّفَات أَوْ رَافِع دَرَجَات الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّة {ذُو الْعَرْش} خَالِقه {يُلْقِي الرُّوح} الْوَحْي {مِنْ أَمْره} أَيْ قَوْله {عَلَى مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَاده لِيُنْذِر} يُخَوِّف الْمُلْقَى عَلَيْهِ النَّاس {يَوْم التَّلَاقِ} بِحَذْفِ الْيَاء وَإِثْبَاتهَا يَوْم الْقِيَامَة لِتَلَاقِي أَهْل السَّمَاء وَالْأَرْض وَالْعَابِد وَالْمَعْبُود وَالظَّالِم وَالْمَظْلُوم فِيهِ[1].

=

[الكافرون: ٦] هذا من باب إطلاق الدين على العمل، وقوله تعالى: {مالك يوم الدين} [الفاتحة: ٤] هذا من باب إطلاق الدين على الجزاء.

ويقال: (كما تدين تدان) أي: كما تعمل تجازى، فالدين هنا {مخلصين له الدين} بمعنى: العمل.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مخلصين له الدين} من الشرك] كما قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ، أن ندعو الله تعالى مخلصين له الدعاء، وأن نعبده مخلصين له العبادة من الشرك، فلا نشرك به غيره، لا في دعائنا ولا في عبادتنا.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ولو كره الكافرون} إخلاصكم] يعني: ادعوا الله مخلصين على كل حال، سواء رضي الكافرون أم سخطوا، ومن المعلوم أنهم سوف يسخطون، لكن لا يهم أن يسخطوا علينا إذا أخلصنا الدين لله، وقول المفسر: [{ولو كره الكافرون} إخلاصكم] ينبغي أن يقال: ولو كرهوا عملكم المخلص؛ لأن الإخلاص نية القلب، والكافر إنما يكره ما يظهر من عمل الإنسان، فالمعنى: ولو كره الكافرون عملكم الذي تخلصون فيه لله على رغم أنوفهم.

(١) قوله تعالى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ} [غافر: ١٥].

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هو رفيع الدرجات".

قال ابن العربي:"رفيع الدرجات؛ لا يلحق مرتبته أحد بحال".

وفي قوله تعالى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ} [غافر: ١٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: رفع السموات السبع، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والكلبي.

قال الشوكاني: "على هذا الوجه يكون (رفيع) بمعنى: (رافع)".

وقال ابن عباس- رضي الله عنهما -: يعني رافع السموات وهو فوق كل شيء وليس فوقه شيء

الثاني: عظيم الصفات، قاله ابن زياد.

الثالث: يراد: وصفه بكونه رافع درجات عباده في الآخرة، قاله ابن عباس ، ويحيى بن سلام ، وسهل بن عبد الله. وبه قال ابن أبي زمنين ، وابن فورك.

قال عطاء، عن ابن عباس: "يريد درجاتكم".

قال سهل:"أي: رافع الدرجات، يرفع درجات من يشاء بالمعرفة به".

قال ابن فورك:"أي: طبقات الثواب للأنبياء والمؤمنين في الجنة".

قال القشيري:"رافع الدرجات للعصاة بالنجاة، وللمطيعين بالمثوبات، وللأصفياء والأولياء بالكرامات، ولذوى الحاجات بالكفايات".

وقيل: "رافع درجات أوليائه في الدنيا بالمنزلة وفي الآخرة بالجنة".

الرابع: وصف لله تعالى بالرفعة، وكلمة "رفيع" خبر لمبتدأ محذوف تقديره:"هو": ضمير اسم الجلالة في قوله تعالى: {فَادْعُوا اللَّهَ}. كذا قال ابن عاشور في تفسيره.

الخامس: أن يكون المراد: وصف الله بالعلو، فيكون المعنى: مرتفع الدرجات. ذكره القرطبي ، وابن جزي.

قال ابن عطية:"رفيع الدرجات صفاته العلى، وعبر بما يقرب لأفهام السامعين".

=

=

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرًا عن عظمته وكبريائه وارتفاعه على عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها كما قال تعالى {مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ} ... الآية".

قال العثيمين:"الصواب أنه سبحان هو رفيع الدرجات، ويدل لهذا ويعينه قوله: {ذُو الْعَرْشِ}، أي: صاحب العرش، والعرش هو أعلى المخلوقات، فكأنه قال: رفيع الدرجات فوق العرش، وهذا هو المتعين".

جاء في "شرح الطحاوية للراجحي: قوله تعالى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ}: "إخبار عن رفعته وعظمته بأنه -تعالى- رفيع الدرجات، فقوله: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ} "فعيل" بمعنى "مفعول"، أي: مرفوعة درجاته برفعته وارتفاعه وعلو شأنه، وليس "رفيع" هنا بمعنى: "رافع درجات المؤمنين"، فيكون "فعيل" بمعنى "فاعل"، كما يقوله: المعطلة؛ لأن السياق يأبى هذا القول. وذلك أن الله -سبحانه- وصف نفسه قبل هذا بالعلو في قوله: {فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ} ثم وصف نفسه بأنه رفيع الدرجات ذو العرش، فالأوصاف كلها راجعة إلى رفعته هو وارتفاعه على الخلق، لا إلى رفعه بعض خلقه، ونظير هذا قول الله -تعالى- في سورة المعارج: {مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ} أي المصاعد التي تصعد فيها الملائكة إليه جل سلطانه، وهي الدرجات الرفيعة، والقرآن يفسر بعضه بعضا".

قوله تعالى: {ذُو الْعَرْشِ} [غافر: ١٥]، أي:"وهو صاحب العرش العظيم".

قال الطبري:"يقول: ذو السرير المحيط بما دونه".

قال الواحدي: أي:"خالقه ومالكه".

قال النسفي: أي" مالك عرشه الذي فوق السموات، خلقه مطافا للملائكة اظهار لعظمته مع استغنائه في مملكته".

قال الشوكاني: " معنى ذو العرش: مالكه وخالقه والمتصرف فيه، وذلك يقتضي

=

=

علو شأنه وعظم سلطانه، ومن كان كذلك فهو الذي يحق له العبادة ويجب له الإخلاص".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبراعن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: {مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فَاصْبِرْ} [المعارج: ٣، ٤]، وسيأتي بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة، في قول جماعة من السلف والخلف، وهو الأرجح إن شاء الله تعالى. وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة. وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة. وقد تقدم في حديث "الأوعال" ما يدل على ارتفاعه عن السموات السبع بشيء عظيم".

قال البيضاوي:"{رفيع الدرجات ذو العرش}، خبران آخران للدلالة على علو صمديته من حيث المعقول والمحسوس الدال على تفرده في الألوهية، فإن من ارتفعت درجات كماله بحيث لا يظهر دونها كمال وكان العرش الذي هو أصل العالم الجسماني في قبضة قدرته لا يصح أن يشرك به".

قوله تعالى: {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [غافر: ١٥]، أي:"ومن رحمته بعباده أن يرسل إليهم رسلا يلقي إليهم الوحي الذي يحيون به، فيكونون على بصيرة من أمرهم".

قال الشوكاني:"معنى ذلك: أنه سبحانه يلقي الوحي على من يشاء من عباده، وسمي الوحي روحا، لأن الناس يحيون به من موت الكفر. كما تحيا الأبدان بالأرواح".

قال ابن كثير:"قوله: {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} كقوله تعالى: {يُنزلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا

=

=

فَاتَّقُونِ} [النحل: ٢]، وكقوله: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين} [الشعراء: ١٩٢- ١٩٤]".

وفي قوله تعالى: {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [غافر: ١٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن «الروح»: الوحي، قاله مجاهد -في رواية ابن ابي نجيح- ، وقتادة ، ومقاتل.

قال سهل: "أي: ينزل الوحي من السماء إلى الأرض بأمره".

قال الزجاج: وسمي «الوحي»: روحا: لانه " به حياة الناس، لأن كل مهتد حي، وكل ضال كالميت، قال الله ﷻ: {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} [النحل: ٢١]، وقال: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} [الأنعام: ١٢٢].

وهذا جائز في خطاب الناس، يقول القائل لمن لا يفقه عنه ما فيه صلاحه: أنت ميت".

قال النحاس: "وسمي «الوحي»: روحا، لأن الناس يحيون به، أي: يهتدون، والمهتدي حي والضال ميت على التمثيل، ومنه يقال لمن لم يفقه: إنما أنت ميت، وقال الله تعالى: {فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} [الروم: ٥٢]".

الثاني: أنه النبوة، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال السدي.

قال الفراء: "الروح -في هذا الموضع-: النبوة لينذر من يلقى عليه الروح يوم التلاق".

الثالث: أن «الروح»: الكتاب، ينزله على من يشاء. قاله الضحاك.

الرابع: أن «القرآن» هو الروح، أوحاه الله إلى جبريل، وجبريل روح نزل به على النبي ﷺ. قاله ابن زيد.

=

=

قال ابن زيد:"هذا القرآن هو الروح، أوحاه الله إلى جبريل، وجبريل روح نزل به على النبي ﷺ، وقرأ: {نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ} قال. فالكتب التي أنزلها الله على أنبيائه هي الروح، لينذر بها ما قال الله يوم التلاق، {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا}، قال: الروح: القرآن، كان أبي يقوله، قال ابن زيد: يقومون له صفا بين السماء والأرض حين ينزل جل جلاله".

قال الطبري:"وهذه الأقوال [أي: الأقوال الثلاثة السابقة] متقاربات المعاني، وإن اختلفت ألفاظ أصحابها بها".

الرابع: انه الرحمة، حكاه إبراهيم الجوني.

وحكي النحاس معمر عن قتادة:"{يلقي الروح}، قال: الوحي والرحمة".

الخامس: أرواح عباده، لا ينزل ملك إلا ومعه منها روح، قاله مجاهد.

قوله تعالى: {لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ} [غافر: ١٥]، أي:"لتخوِّف الرسل عباد الله، وتنذرهم يوم القيامة الذي يلتقي فيه الأولون والآخرون".

قال السعدي:"أي: يخوف العباد بذلك، ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه".

عن ابن عباس، قوله: " {يَوْمَ التَّلاقِ}، من أسماء يوم القيامة، عظمه الله، وحذّره عباده".

وفي تسمية القيامة بـ {يَوْمَ التَّلَاقِ} [غافر: ١٥]، وجوه، من التفسير:

أحدها: لأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، قاله ابن عباس ، السدي ، والفراء ، والزجاج.

قال الفراء:"وإنما قيل «التلاق» لأنه يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض".

الثاني: يلتقي فيه الخلق والخالق، قاله مقاتل.

الثالث: يوم تلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق. قاله قتادة.

=

=

الرابع: لأنه يلتقي فيه الأولون والآخرون، وهو معنى قول ابن عباس.
قال ابن عباس: "يلتقي فيه آدم وآخر ولد من أولاده".
الخامس: يوم تتلاقى العباد. قاله ابن زيد.
السادس: يلتقي الظالم والمظلوم والخصوم. قاله يوسف بن مهران.
السابع: يوم يلقى الإنسان عمله وأفعاله التي عملها. أفاده الماتريدي.
الثامن: يلتقي العابدون والمعبودون. حكاه الثعلبي.

قال السعدي: "سماه {يوم التلاق}، لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم".

قال النحاس: "قرأ الحسن: «لتنذر يوم التلاق»، وهي مخاطبة للنبيّ ﷺ، وتأوّل أبو عبيد قراءة من قرأ: «لينذر»، بالياء أنّ المعنى: لينذر الله".

قال الزجاج: "الأجود- والله أعلم- أن يكون لينذر النبي- ﷺ -.
والدليل على ذلك أنه قرئ: «لتنذر يوم التلاق»- بالتاء -".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{رفيع الدرجات}؛ أي: الله عظيم الصفات، أو رافع درجات المؤمنين في الجنة]، قوله: {رفيع} من الرفعة وهي العلو، فسرها المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعفا عنه- بأحد معنيين:

المعنى الأول: أن المراد بالرفعة العظمة، والمراد بالدرجات الصفات، أي: أن الله تعالى عظيم الصفات.

والمعنى الثاني: رفيع الدرجات؛ أي: رافع درجات غيره وهم المؤمنون في الجنة.
وكلا المعنيين تحريف للكلم عن مواضعه؛ لأن {رفيع} اسم فاعل أو صفة مشبهة، فاعلها يعود على الله ﷻ المذكور في قوله: {فادعوا الله مخلصين له الدين} [غافر: ١٤] وعلى هذا فلا يصح أن تفسر بأن المراد: رافع درجات المؤمنين؛ لأنه على هذا التفسير تكون الدرجات درجات غيره، درجات

=

=

المؤمنين.

ولا يصح أن تفسر {رفيع الدرجات} بعظيم الصفات، لما بينهما من الفرق العظيم، لكن المفسر عفا الله عنه فسرها بهذا التفسير فرارا من إثبات العلو الذاتي ، لأنه ممن لا يرون ذلك أنه عال بذاته، فلهذا حرف القرآن إلى أحد هذين المعنيين، وكلاهما باطل.

والصواب: أنه سبحانه رفيع الدرجات، ويدل لهذا ويعينه قوله: {ذو العرش} ؛ أي: صاحب العرش، والعرش هو أعلى المخلوقات، فكأنه قال: رفيع الدرجات فوق العرش، وهذا هو المتعين.

وقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ذو العرش} : خالقه] فيه أيضا إشارة إلى إنكار الاستواء؛ لأن معنى {ذو العرش} ؛ أي: صاحبه المستوي عليه، هذا هو المعنى؛ ولهذا لا يقال: ذو الأرض، ولا ذو السماء، ولا ذو الجبال، ولا ذو السحاب، مع أنه خالقها، فتفسيره {ذو العرش} بخالقه لا شك أنه تحريف للكلم عن مواضعه فرارا من إثبات الاستواء على العرش.

وتفسير الآية المتعين أن نقول: إنه رفيع الدرجات؛ أي: هو نفسه جَلَّ وَعَلَا مرتفع، بل رفيع الدرجات أتى بالصفة المشبهة الدالة على الثبوت والدوام، والدرجات من الدرجات المعروفة؛ أي: ما كان بعضه فوق بعض حتى يصل إلى الغاية، وأما {ذو العرش} فمعناه صاحب العرش المختص بالاستواء عليه، هذا هو المتعين من الآية.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{يلقي الروح} الوحي {من أمره} ؛ أي: قوله {على من يشاء من عباده}] إلى آخره. {يلقي الروح} الروح: الوحي؛ لقوله تعالى: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا} [الشورى: ٥٢] وسمى الله تعالى الوحي روحا؛ لأن به حياة القلوب، وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{من أمره} أي: قوله] وهذا جيد، هذا التفسير

=

=

يعني أن الوحي من قول الله ﷻ، يقول: فيسمع جبريل، ثم ينزل به إلى من شاء الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: {على من يشاء من عباده}، ولم يبين من هؤلاء، ولكننا نعلم أنهم الأنبياء؛ لأنهم هم الذين يلقى إليهم الوحي، سواء كانوا رسلا أم غير رسل، ثم إن قوله: {على من يشاء} إطلاق المشيئة في كل موضع جاءت في القرآن مقيد بالحكمة، كلما رأيت الله يقول: يشاء، فإنه مشيئة مقرونة بالحكمة؛ لقوله تعالى: {لمن شاء منكم أن يستقيم (٢٨) وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين} [التكوير: ٢٨- ٢٩]؛ ولقوله تعالى: {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} [الإنسان: ٣٠]، وهؤلاء الذين يشاء الله تعالى أن يلقي عليهم الروح بينهم في قوله: {الله أعلم حيث يجعل رسالته} [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: {من عباده} المراد بالعباد هنا: العبودية الخاصة، وهم الذين آمنوا بالله ﷻ، بل ما هو أخص وهم الرسل.

قوله: {لينذر يوم التلاق} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لينذر} يخوف الملقى عليه الناس] واللام هنا للتعليل، والإنذار هو: الإعلام المقرون بالتخويف، ولهذا قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ليخوف] تفسيرا بلازمه، وإلا فإن الإنذار إعلام مقرون بتخويف، وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [الملقى عليه الناس] أفادنا المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ أن فاعل (ينذر) هو الملقى عليه وهو الرسول، ولا شك أنه هو المنذر مباشرة، ويحتمل أن الفاعل يعود على فاعل {يلقي الروح} وهو الله ﷻ، أي: لينذر الله، والحكمة من عدم ذكر الفاعل- والله أعلم- ليصلح الفعل للأمرين؛ أي: ليكون صالحا لأن يعود الإنذار إلى الله، وأن يعود إلى الرسول، فإن عاد إلى الله فلأنه الأصل، وإن عاد إلى الرسول فلأنه المبلغ المباشر للإنذار.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [الناس] هذا تقدير للمفعول الأول الذي هو مفعول (ينذر)؛ لأن

=

يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦).

{يَوْم هُمْ بَارِزُونَ} خَارِجُونَ مِنْ قُبُورهمْ {لَا يَخْفَى عَلَى الله مِنْهُمْ شَيْء لِمَنِ الْمُلْك الْيَوْم} يَقُولهُ تَعَالَى وَيُجِيب نَفْسه {لِلَّهِ الْوَاحِد الْقَهَّار} أَيْ لِخَلْقِهِ[1].

=

(ينذر) تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، المفعول الأول يكون محذوفا، أو المفعول الثاني يكون محذوفا، قال الله تعالى: {وأنذرهم يوم الآزفة} [غافر: ١٨] هذا موجود فيه المفعولان جميعا، {وأنذر الناس يوم يأتيهم} [إبراهيم: ٤٤] كذلك المفعولان جميعا، وقد يحذف أحدهما إما الأول وإما الثاني؛ لدلالة السياق عليه.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لينذر يوم التلاق} بحذف الياء وإثباتها] أي: أن فيها قراءتين "التلاقي" بالياء، و {التلاق} بحذف الياء، أما إثبات الياء فلأنه الأصل، وأما حذف الياء فللتخفيف، مثل قوله تعالى: {الكبير المتعال} [الرعد: ٩] أصلها المتعالي، لكن حذفت الياء للتخفيف، فهنا التلاق أصلها التلاقي وحذفت الياء للتخفيف، ويوم التلاق هو يوم القيامة، وعلل المفسر ذلك بقوله: [لتلاقي أهل السماء والأرض، والعابد والمعبود، والظالم والمظلوم فيه] أي: في ذلك اليوم، ولو قلنا بمعنى أعم: لتلاقي الخلائق في ذلك اليوم؛ لأن كل شيء يلاقيه الآخر حتى الوحوش {وإذا الوحوش حشرت (٥)} [التكوير: ٥] فسمي يوم التلاقي؛ لتلاقي الخلق فيه، يحشر الله عَزَّ وَجَلَّ الخلائق كلها في ذلك اليوم فيتلاقون.

(١) قوله تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ} [غافر: ١٦]، أي:"يوم هم ظاهرون بادون للعيان، لا شيء يكنُّهم ولا يظلّهم ولا يسترهم من جبلٍ أو أكمةٍ أو بناء".

قال السعدي:"أي: ظاهرون على الأرض، قد اجتمعوا في صعيد واحد لا عوج ولا أمت فيه، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر".

=

=

قال ابن كثير:"أي: ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم".

قال الثعلبي: أي:"خارجون من قبورهم، ظاهرون لا يسترهم شيء".

قال الطبري:"يعني: المنذرين الذين أرسل الله إليهم رسله لينذروهم وهم ظاهرون، يعني: للناظرين لا يحول بينهم وبينهم جبل ولا شجر، ولا يستر بعضهم عن بعض ساتر، ولكنهم بقاع صفصف لا أمت فيه ولا عوج".

قال الزمخشري:"ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء، لأنّ الأرض بارزة قاع صفصف، ولا عليهم ثياب، إنما هم عراة مكشوفون، كما جاء في الحديث «يحشرون عراة حفاة غرلا»".

قوله تعالى: {لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ} [غافر: ١٦]، أي:"لا يخفى على الله منهم ولا مِن أعمالهم التي عملوها في الدنيا شيء".

قال الطبري:"أي: ولا من أعمالهم التي عملوها في الدنيا {شَيْءٌ}".

قال السعدي:"لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال".

قال قتادة:"ولكنهم برزوا له يوم القيامة، فلا يستترون بحبل ولا مدر".

قال ابن كثير:"أي: الجميع في علمه على السواء".

قال الزمخشري:"معناه: أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب: أنّ الله لا يراهم ويخفى عليه أعمالهم، فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه. قال الله تعالى: {وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ} [فصلت: ٢٢]، وقال تعالى: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّ} [النساء: ١٠٨]، وذلك لعلمهم أنّ الناس يبصرونهم، وظنهم أن الله لا يبصرهم".

قوله تعالى: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} [غافر: ١٦]، أي:"يقول الله سبحانه: لمن الملك

=

=

والتصرف في هذا اليوم؟".

قال الطبري:"يقول الربّ: لمن الملك اليوم، يعني: لمن السلطان اليوم؟ وذلك يوم القيامة".

قال السعدي:"أي: من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسباب، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة؟".

قوله تعالى: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: ١٦]، أي:"فيجيب تعالى نفسه: لله المتفرد بأسمائه وصفاته وأفعاله، القهَّار الذي قهر جميع الخلائق بقدرته وعزته".

قال السعدي:"الملك {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} أي: المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. {الْقَهَّارِ} لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصًا في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنه".

قال الطبري:"فيجيب نفسه فيقول: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ} الذي لا مثل له ولا شبيه {القَهَّارِ} لكلّ شيء سواه بقدرته، الغالب بعزّته".

قال الحسن: "هو السائل وهو المجيب، لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه فيقول: لله الواحد القهار الذي قهر الخلق بالموت".

عن ابن عباس، قال: "ينادي مناد بين يدي الساعة: يا أيها الناس، أتتكم الساعة. فيسمعها الأحياء والأموات، قال: وينزل الله -ﷻ- إلى سماء الدنيا ويقول: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}".

عن ابن مسعود قال: "يجمع الله الخلق يوم القيامة بصعيد واحد، بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله تعالى فيها قط، فأول ما تتكلم به أن ينادي مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار".

=

=

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:"يقبض الله ﷻ الأرض يوم القيامة ويطوي السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟".

عن عبد الله بن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:"يَأْخُذُ الجَبَّارُ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضَهُ بِيَدَيْهِ"، وقبض يده فجعل يقبضها ويبسطها، ثُمَّ يَقُولُ:"أنا الجَبَّارُ، أنا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ، أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ "قال: ويميل رسول الله ﷺ عن يمينه وعن شماله، حتى نظرت إلى المنبر يتحرّك من أسفل شيء منه، حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ؟".

قال العثيمين: قوله تعالى: {يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء} {يوم} هذه بدل من يوم الأولى: {يوم التلاق} يوم هم بارزون، وقوله: {هم بارزون} مبتدأ وخبر، والجملة في محل جر بالإضافة، إضافة {يوم} إليها.

و{بارزون} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [خارجون من قبورهم]، ولكن المعنى أخص مما قال، بل المعنى {يوم هم بارزون} أي: ظاهرون، ليس لهم ظل يظلهم، لا من شجر، ولا حجر، ولا بيت، ولا غيره؛ لأن البارز هو الظاهر الذي لا يحجب دونه شيء، وهم بارزون في ذلك اليوم، وتدنو الشمس منهم مقدار ميل، ويعرق الناس في ذلك اليوم على قدر أعمالهم: منهم من يصل العرق إلى كعبيه، ومنهم من يصل إلى ركبتيه، ومنهم من يصل إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما، على حسب أعمالهم.

وقوله: {لا يخفى على الله منهم شيء} أي: لا يستتر على الله منهم شيء، ولا يغيب عن علمه منهم شيء، بل هو محيط بهم إحاطة تامة، كما أنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من قبل ذلك أيضا؛ لأن الله تعالى محيط بكل شيء علما، لكن قال هنا: {لا يخفى على الله منهم شيء} لأجل تمام التخويف.

قوله: {لمن الملك اليوم لله الواحد القهار} {لمن الملك} هذه مقول قول

=

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧).

{الْيَوْم تُجْزَى كُلّ نَفْس بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْم الْيَوْم إِنَّ الله سَرِيع الْحِسَاب} يُحَاسِب جَمِيع الْخَلْق فِي قَدْر نِصْف نَهَار مِنْ أَيَّام الدُّنْيَا لِحَدِيثٍ بِذَلِكَ(١).

=

محذوف، التقدير: يقال: لمن الملك اليوم. والقائل هو الله ﷻ، فإنه تعالى يقبض السموات بيمينه وبيده الأخرى الأرض، ويهزهن ويقول: أنا الملك، أين ملوك الدنيا؟ ! ويقول أيضا: لمن الملك اليوم؟ فيجيب نفسه: {لله الواحد القهار}.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [يقوله الله تعالى ويجيب نفسه {لله الواحد القهار}؛ أي: لخلقه] فقوله: {لله الواحد القهار} خبر مبتدأ محذوف، التقدير: الملك لله الواحد القهار، والواحد يعني: الذي لا ثاني له، لا في ذاته، ولا في أفعاله، ولا في أحكامه، ولا في صفاته سبحانه وتعالى.

وقوله: {القهار} صيغة مبالغة من القهر، وهو الغلبة، فهو قهار لكل شيء، والمفسر رَحِمَهُ اللهُ قال: [أي: لخلقه].

(١) قوله تعالى: {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [غافر: ١٧].

قال الطبري: "يقول: اليوم يثاب كلّ عامل بعمله، فيوفى أجر عمله، فعامل الخير يجزى الخير، وعامل الشر يجزى جزاءه".

قال السعدي: أي: في الدنيا، من خير وشر، قليل وكثير".

قوله تعالى: {لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ} [غافر: ١٧]، أي: "لا ظلم لأحد اليوم بزيادة في سيئاته أو نقص من حسناته".

قال الطبري: "يقول: لا بخس على أحد فيما استوجبه من أجر عمله في الدنيا، فينقص منه إن كان محسنا، ولا حُمِل على مسيء إثم ذنب لم يعمله فيعاقب عليه".

قال السعدي: "أي: بزيادة في سيئاته، أو نقص من حسناته".

=

=

عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ- فيما يحكي عن ربه ﷻ- أنه قال: "يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا- إلى أن قال -: يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه".

فأول ما يبدأ به من الخصومات الدماء ، ثبت هذا عند البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا: "أول ما يقضي بين الناس في الدماء" زاد مسلم "يوم القيامة".

والجمع بين هذا الحديث وحديث أبي هريرة الذي أخرجه أصحاب السنن وغيرهم مرفوعا: "إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة" ، هو أن حديث ابن مسعود فيما يتعلق بحقوق الخلق بعضهم ببعض، وحديث أبي هريرة فيما يتعلق بحق الله تعالى.

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [غافر: ١٧]، أي:"إن الله سبحانه وتعالى سريع الحساب، فلا تستبطئوا ذلك اليوم؛ فإنه قريب".

قال الطبري:"يقول: إن الله ذو سرعة في محاسبة عباده يومئذ على أعمالهم التي عملوها في الدنيا؛ ذُكر أن ذلك اليوم لا يَنْتَصِف حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وقد فرغ من حسابهم، والقضاء بينهم".

قال ابن كثير:"أي: يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفسًا واحدة، كما قال: {مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: {وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر: ٥٠]".

قال السعدي:"أي: لا تستبطئوا ذلك اليوم فإنه آت، وكل آت قريب. وهو أيضا سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة، لإحاطة علمه وكمال قدرته".

قال الزمخشري في الآية:"لما قرّر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم عدّد نتائج

=

=

ذلك، وهي أنّ كل نفس تجزى ما كسبت وأن الظلم مأمون، لأن الله ليس بظلام للعبيد، وأن الحساب لا يبطئ، لأن الله لا يشغله حساب عن حساب، فيحاسب الخلق كله في وقت واحد وهو أسرع الحاسبين".

قال ابن أبي زمنين:"قال يحيى: سمعت بعض الكوفيين يقول: يفرغ الله من القضاء بين الخلق إذا أخذ في حسابهم في قدر نصف يوم من أيام الدنيا".

عن مجاهد:"{سَرِيعُ الْحِسَابِ}، قَالَ: أحصاه عليهم".

عن مجاهد:"{سَرِيعُ الْحِسَابِ}، قال: سريع الإحصاء".

قال العثيمين: قوله تعالى: {اليوم تجزى كل نفس بما كسبت} {اليوم}: ظرف متعلق بـ {تجزى}، والظرف والجار والمجرور لابد لهما من متعلق؛ لأنهما لا يقعان إلا معمولين أو معمولا فيهما؛ لذلك لابد لهما من عامل يتعلقان به.

قال: {اليوم تجزى كل نفس بما كسبت} {تجزى} أي: تكافأ؛ لأن الجزاء بمعنى المكافأة، جازيته على عمله؛ أي: كافأته عليه، فمعنى {تجزى} أي: تكافأ، {كل نفس بما كسبت} من خير وشر، ولكن هذا الجزاء في الآخرة يختلف عن جزاءات الدنيا التي يجازى بها الناس بعضهم من بعض.

وقوله: {لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب} {لا ظلم} (لا) نافية للجنس، و {ظلم} اسمها، قال أهل النحو: والنفي للجنس ينفي هذا الجنس مطلقا. أي: قليله وكثيره، واحده ومتعدده، ولهم (لا) أخرى يسمونها نافية الوحدة، ونافية الوحدة لا تعمل عمل (إن)، بل تعمل عمل (ليس)، تقول: لا رجل في الدار؛ أي: ليس في الدار رجل واحد، بل ثلاثة رجال مثلا، أما إذا أردت الجنس فقل: لا رجل في الدار؛ أي: لا واحد ولا متعدد.

وهي- أي: "لا" النافية للجنس- نص في العموم؛ أي: أنها دالة على العموم بالنص، فيكون {لا ظلم اليوم}؛ أي: لا ظلم واقع من الله، ولا ظلم واقع من

=

=

الخلق بعضهم لبعض، بل كل واحد من الخلق يفر من الآخر، لا ظلم اليوم.

وقوله: {إن الله سريع الحساب}؛ أي: سريع محاسبة الخلائق على أعمالهم، وبين المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ هذه السرعة فقال: [يحاسب جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا؛ لحديث ورد في ذلك] يحاسب جميع الخلائق كلهم في مقدار نصف يوم، لكن من أيام الدنيا. هذا يحتاج إلى تحقيق؛ لأن يوم القيامة يوم مقداره خمسون ألف سنة، يفرغ الله سبحانه وتعالى من حساب الخلائق في نصف ذلك اليوم؛ ولهذا قال الله تعالى: {أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا} [الفرقان: ٢٤]، ومعلوم أن القيلولة تكون في نصف النهار، وهذا يدل على أنه لا ينتصف النهار إلا وقد فرغ الله سبحانه وتعالى من حساب الخلائق، وصار كل واحد إلى ما آل إليه، لكن هل هو كيوم الدنيا، أو هو يوم القيامة الذي مقداره خمسون ألف سنة؟

فإن قال قائل: ما هو الدليل على أن الله يحاسب الناس في نصف يوم؟

فالجواب: أوله أحاديث وردت في هذا، والثاني قوله تعالى: {أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا} [الفرقان: ٢٤] قال: {يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا} والمقيل لا يكون إلا في نصف النهار بأطرافه.

* مسألة: في مباحث الإيمان بالحساب.

المسألة الأولى: تعريف الحساب في اللغة، وفي الشرع.

جاءت في كتب اللغة عدة إطلاقات للفظة الحساب، ومن بين تلك الإطلاقات: أن الحساب يطلق ويراد به: العدد، والمعدود، والإحصاء بالدقة التامة دون زيادة ولا نقصان، وقد ذكر أهل اللغة في مادة حسب كثيرًا من المعاني التي جاءت لهذه الكلمة.

وفي هذا يقول الأزهري: (وإنما سمي الحساب في المعاملات حسابًا لأنه يعلم به

=

=

ما فيه كفاية ليس فيه زيادة على المقدار ولا نقصان).

وقال الليث: (والحساب والحسابة عدك الشيء، تقول: حسبت الشيء أحسب حسابًا وحسابة وحسبته).

ويأتي الحساب كذلك بمعنى الكثرة، قال أبو عبيد عن أبي يزيد) أحسبت الرجل أي أعطيته ما يرضى، وقال: غيره معناه أعطيته حتى قال: حسبي، قال الله ﷻ: عَطَاء حِسَابًا [النبأ: ٣٦] أي كثيرًا.

ويقال: أتاني حساب من الناس أي جماعة كثيرة وهي لغة هذيل)-.

وتأتي لفظة حسبان مرادفة لكلمة الحساب والكل بمعنى واحد، نقل الأزهري في تهذيب اللغة (٤/ ٣٣١- ٣٣٢) عن أبي العباس أنه قال: (حسابنا مصدر كما تقول: حسبته أحسبه حسبانًا وحسابًا، وقال الأخفش: إن حسبانا جمع حساب، وقال أبو الهيثم: الحسبان جمع حساب وكذلك أحسبة، مثل شهاب وأشهبة وشهبان ا.هـ.

وقال أيضًا في نفس المصدر: وأخبرني المنذري عن ثعلب أنه قال: قال الأخفش في قوله ﷻ: وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا [الأنعام: ٩٦] فمعناه: بحساب فحذف الباء ا.هـ

ويقول الفيروزآبادي في القاموس المحيط (١/ ٥٦): حسبه حسبًا وحسبانًا بالضم، وحسبانًا وحسابًا وحسبة وحسابة بكسرهن: عده، والمعدود محسوب ا.هـ

ويقول الهوريني في فوائد في اللغة والصحاح (ص: ٤٢): حسبته أحسبه بالضم حسبًا وحسابًا وحسبانًا وحسابة إذا عددته، والمعدود محسوب ا.هـ.

وذكر أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا في معجم مقاييس اللغة (٢/ ٥٨) أن حسب لها معان فقال: (الأول: العدد، تقول: حسبت الشيء أحسبة وحسبانًا، قال

=

=

الله تعالى: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ [الرحمن: ٥]) ا.هـ

وقال الراغب في المفردات (ص: ١٦٦ - ١١٧): الحساب: استعمال العدد، يقال: حسبت أحسب حسابا وحسبانا، قال تعالى: لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ [يونس: ٥] وقال تعالى: وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا [الأنعام: ٩٦] ا.هـ

والحسبان ما يحاسب عليه فيجازى بحسبه، وكذا لفظة الحسيب والمحاسب فإنها تطلق مرادًا بها الحساب قال الراغب في المصدر السابق: والحسيب والمحاسب: من يحاسبك ثم يعبر عن المكافئ بالحساب ا.هـ

وقد ورد في القرآن الكريم كذلك إطلاق لفظة الحساب مرادا بها الجزاء كما قال تعالى:

١ - (وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) [المؤمنون: ١١٧] قال الطبري في جامع البيان (١٨/ ٦٤): فإنما حساب عمله السيئ عند ربه وهو موفيه جزاءه إذا قدم عليه ا.هـ

٢- وقال تعالى: (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ) [الشعراء: ١١١- ١١٣] قال ابن جريج: أي هو أعلم بما في أنفسهم.

٣- قال تعالى: (إِنَّ إِلينَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) [الغاشية: ٢٥- ٢٦] قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٠٤): أي نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ا.هـ

ويطلق أيضًا على محاسبة النفس: قال تعالى: (كَفَى بِنَفْسِكَ اليوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) [الإسراء: ١٤] أي كفى بك لنفسك محاسبًا، ويطلق على التوسعة في الرزق كما قال تعالى: (يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ) [آل عمران: ٣٨] ، أي بغير تقتير

=

=

وتضييق، كقولك: فلان ينفق بغير حساب، أي يوسع النفقة ولا يحسبها.

والحاصل أن أقوال أهل اللغة في المراد بالحساب، تشير إلى أنه يرد بمعنى الكثرة في الشيء، والزيادة فيه، والعدد، والإحصاء، والدقة في العدد دون زيادة ولا نقصان. الحياة الآخرة لغالب عواجي (٢/ ٩٠٥).

أما المراد بالحساب في الشرع فإنه يراد به: توقيف الله عباده قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم، خيرًا كانت أو شرًا، تفصيلًا لا بالوزن، إلا من استثنى منهم-.

وقوله: (لا بالوزن) يحتمل أنه يريد أن الله يحاسبهم ثم يزن أعمالهم، لا أنه يكتفي بالمحاسبة عن الوزن (إلا من استثنى منهم) فإنه لا يحاسبهم ولا يزن أعمالهم.

ويحتمل أيضا أن يكون المعنى: أن الله يوقفهم على أعمالهم تفصيلًا، ولا يكتفي بالمعرفة الإجمالية التي تتأتى من طريق الوزن.

ونقل السفاريني عن الثعلبي تعريفه للحساب قائلًا: الحساب تعريف الله- عزوجل- الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم ما قد نسوه من ذلك، يدل على هذا قوله تعالى: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ- [المجادلة: ٦].

والظاهر: أن تعريف الثعلبي أشمل من تعريف السفاريني، لأنه يتضمن تعريف الله عباده بأعمالهم تفصيلًا على مقدار ما يستحقونه من الجزاء، خيرًا أو شرًا، وتعريف السفاريني ينفرد بأن هذه المحاسبة لا يغني عنها الميزان، ولا تغني عن الميزان.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في التذكرة (ص٢٧١) في تعريف الحساب: ومعناه أن البارئ- سبحانه- يعدد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة، يعدد عليهم نعمه ثم يقابل البعض بالبعض ا.هـ

=

=

ومعنى هذه العبارة: أن نتيجة مقابلة بعضها ببعض أي السيئات بالحسنات- لإظهار أيهما أرجح، وعليه يحكم على الشخص، إن كان من أهل الخير أو أهل الشر.

قال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (٥/ ٦٣): الحساب لغة: العدد.

وشرعا: إطلاع الله عباده على أعمالهم.

وهو ثابت بالكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين.

قال الله تعالى: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}. وكان النبي، ﷺ، يقول في بعض صلاته: «اللهم حاسبني حسابا يسيرا". فقالت عائشة رضي الله عنها: ما الحساب اليسير؟ قال: " أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه». رواه أحمد. وقال الألباني: إسناده جيد.

وأجمع المسلمون على ثبوت الحساب يوم القيامة.

وصفة الحساب للمؤمن: أن الله يخلو به فيقرره بذنوبه، حتى إذا رأى أنه قد هلك. قال الله له: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته.

وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين. متفق عليه من حديث ابن عمر.

والحساب عام لجميع الناس إلا من استثناهم النبي، ﷺ، وهم سبعون ألفا من هذه الأمة منهم عكاشة بن محصن يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب. متفق عليه. وروى أحمد من حديث ثوبان مرفوعا أن مع كل واحد سبعين ألفا، قال ابن كثير: حديث صحيح وذكر له شواهد.

وأول من يُحاسب هذه الأمة لقول النبي، ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة المقضي بينهم قبل الخلائق». متفق عليه، وروى ابن ماجه عن ابن عباس مرفوعا: «نحن آخر الأمم وأول من يحاسب» الحديث.

=

=

وأول ما يحاسب عليه العبد من حقوق الله الصلاة لقول النبي، ﷺ: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله». رواه الطبراني في الأوسط، وسنده لا بأس به إن شاء الله، قال المنذري في الترغيب والترهيب ص٢٤٦ ج١: وأول ما يقضى بين الناس في الدماء لقول النبي، ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء». متفق عليه.

(تنبيه): سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٤٠): هل يوم الحساب يوم واحد؟.

فأجاب: يوم الحساب يوم واحد، ولكنه يوم مقداره خمسون ألف سنة، كما قال الله- تعالى-: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} أي أن هذا العذاب يقع للكافرين في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أن النبي- ﷺ- قال: " «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، وأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه، وجبينه، وظهره، كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد».

وهذا اليوم الطويل هو يوم عسير على الكافرين، كما قال- تعالى -: {وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} ، وقال- تعالى-: {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} ، ومفهوم هاتين الآيتين: أنه على المؤمن يسير وهو كذلك، فهذا اليوم الطويل بما فيه من الأهوال، والأشياء العظيمة ييسره الله- تعالى- على المؤمن، ويكون عسيرا على الكافر. وأسأل الله- تعالى- أن يجعلني وإخواني المسلمين ممن يسره الله عليهم يوم القيامة.

والتفكير والتعمق في مثل هذه الأمور الغيبية هو من التنطع، الذي قال النبي ﷺ

=

=

فيه: «هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون». الحياة الآخرة لغالب عواجي- (٢/ ٩٠٨).

ويراد بالحساب والجزاء أيضا كما في القيامة الكبرى لعمر بن سليمان الأشقر (ص١٩٣): أن يُوقف الحق تبارك وتعالى عباده بين يديه، ويعرفهم بأعمالهم التي عملوها، وأقوالهم التي قالوها، وما كانوا عليه في حياتهم الدنيا من إيمان وكفر، واستقامة وانحراف، وطاعة وعصيان، وما يستحقونه على ما قدموه من إثابة وعقوبة، وإيتاء العباد كتبهم بأيمانهم إن كانوا صالحين، وبشمالهم إن كانوا طالحين.

ويشمل الحساب ما يقوله الله لعباده، وما يقولونه له، وما يقيمه عليهم من حجج وبراهين، وشهادة الشهود ووزن للأعمال.

والحساب منه العسير، ومنه اليسير، ومنه التكريم، ومنه التوبيخ، والتبكيت، ومنه الفضل والصفح، ومتولي ذلك أكرم الأكرمين.

المسألة الثانية: أدلة إثبات الحساب.

لقد حظي ذكر الحساب بنصوص كثيرة في كتاب الله- ﷻ- وفي سنة نبيه ﷺ، وأجمع عليه جميع أهل الإسلام، إذ هو من المسائل الأخروية المعلومة من الدين بالضرورة.

وقد أكثر الله من ذكره في القرآن الكريم، في مواضع كثيرة، بعبارات متنوعة، ودلالات مختلفة مصورًا هول ذلك، أو مخبراً عنه ومبشرًا به، كل ذلك لزيادة العناية وللفت أنظار الناس إليه ليكونوا على بينة من أمرهم فيستعدوا له بالعمل الصالح إذ أنه من أهم الأمور التي تحدث في يوم القيامة، بل هو المراد ببعث الناس وقيامهم من قبورهم وفي الموقف.

وبه يتميز الناس فيسعد من يسعد، ويشقى من يشقى، حينما يفصل الله بين خلقه في

=

=

أكمل صور العدل وأجلها، ونعرض فيما يلي أدلة إثباته من كتاب الله ﷻ ومن سنة نبيه ﷺ.

المطلب الأول: الأدلة من القرآن الكريم.

الأدلة في القرآن الكريم على وقوع الحساب كثيرة لا يتسع المقام لذكرها كلها غير أننا سنقتصر على إبراز أهم الجوانب التي جاءت في أمر الحساب، فمن ذلك:

١-ما جاء في إخباره ﷻ عن سرعة وقوع الحساب، فقال تعالى: (وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) [المائدة:٤]

وقال تعالى في بيان أن سرعة ذلك الحساب يكون مع تمام العدل: (لِيَجْزِي اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) [إبراهيم: ٥١]

(اليَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ اليَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) [غافر: ١٧]

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) [الأنبياء: ٤٧]

٢- والحساب تارة يكون يسيرًا على أهل الإيمان والطاعات، وتارة يكون عسيرًا على أهل الكفر والمعاصي (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنقَلِبُ إلى أَهْلِهِ مَسْرُورًا) [الانشقاق: ٧- ٩].

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهْ) [الحاقة: ١٩- ٢٠]

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ) [الحاقة: ٢٥- ٢٦]

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

=

=

الْمِهَادُ) [الرعد: ١٨]

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) [ص: ٢٦]

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) [النور: ٣٩]

٣- وقال تعالى في بيان إحاطة علمه بكل ما يصدر عن العباد ظاهرًا أو باطنًا: (لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [البقرة: ٢٨٤]

وقد عفا الله عما يضمره الإنسان في قلبه فلا يحاسبه عليه.

٤- وقال تعالى في مدح المؤمنين وخوفهم من هول الحساب: (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ) [الرعد: ٢١]

٥- وقال تعالى في مدح الصابرين وبيان أجرهم: (قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) [الزمر: ١٠]

٦- وقال تعالى في ذم المكذبين بالحساب: (إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا) [النبأ: ٢٧]. (وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ) [غافر: ٢٧].

وأما ما ورد من قولهم: (رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) [ص: ١٦]، فإنما هو قول على سبيل الاستهزاء أو التحدي للرسول ﷺ أن يريهم صكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر الذي وعد الله عباده أن يؤتيهموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا استهزاء بوعيد الله.

=

=

ونكتفي بما تقدم ذكره من الآيات التي تدل على وقوع الحساب في يوم القيامة، وبها يتبين مدى عناية القرآن الكريم بذكره وعظيم شأنه. ونضيف إلى ما تقدم من الأدلة الواردة في القرآن الكريم أدلة أخرى من السنة النبوية فيما يأتي:

المطلب الثاني: الأدلة من السنة النبوية.

وكما حظي ذكر الحساب في القرآن الكريم بكثرة العناية بذكره وإيراده في أكثر من موضع كما رأينا فيما سبق عرضه، فقد حظي كذلك بالذكر والعناية والاهتمام على لسان المصطفى ﷺ، فقد وردت أحاديث كثيرة بشأنه وسنذكر منها ما يتبين به صدق ما قدمناه وذلك فيما يلي:

وقد ورد في الحث على الاستعداد بالعمل الصالح، ومحاسبة النفس، وعدم تركها ترتع كيف شاءت، ما يروى عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ أنه قال: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني)-، قال الترمذي: ومعنى قوله ﷺ: (دان نفسه) يقول حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة ا.هـ فإذا لم يستعد العبد بالعمل الصالح، ولم يسلك ما أمره الله به، ولم ينته عما نهاه عنه بل كفر بربه ولقائه، فإنه سيندم يوم القيامة، ويتمنى أن لو كان له ملء الأرض ذهبًا ويفتدي به لو نفعه حين يحاسب بين يدي الله تبارك وتعالى.

كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ كان يقول: (يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك)-.

وقدجاء عن النبي ﷺ في سهولة الحساب ويسره وتجاوز الله تعالى حديث عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك، فقلت: يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ

=

=

يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا [الانشقاق: ٧- ٩]. فقال رسول الله ﷺ: إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب)-. وفي بعض روايات هذا الحديث: (من حوسب عذب.. إلخ الحديث)-.

وقال ﷺ في تجاوز الله تعالى عمن يتجاوز عن الناس في الحساب، وييسر عليهم، وتخفيف الله عن عباده، عن أبي مسعود البدري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسرًا، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر. قال: قال الله ﷻ: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه)-.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: اللهم حاسبني حسابًا يسيرًا، فلما انصرف قلت: يا نبي الله ما الحساب اليسير؟ قال: أن ينظر الله في كتابه فيتجاوز عنه، من نوقش الحساب يومئذ يا عائشة هلك، وكل ما يصيب المؤمن يكفر الله ﷻ به عنه حتى الشوكة تشوكه)-.

وعن محمود بن لبيد أن النبي ﷺ قال: (اثنان يكرههما ابن آدم: الموت، والموت خير للمؤمن من الفتنة، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب)-.

وعن العدل في القصاص يوم القيامة وتبادل الحسنات والسيئات يقول ﷺ: (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها، فإنه ليس ثمَّ دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه)-.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا)-.

=

=

وقد أخبر ﷺ أن ناسًا لا يحاسبون، وهم سبعون ألفًا إكرامًا لهم كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي انظر إلى الأفق الآخر، فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي: هذه أمتك ومنهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئًا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: وما الذي تخوضون فيه؟ فأخبروه، فقال: هم الذين لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: سبقك بها عكاشة)-.

وفي بيان أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة قال رسول الله ﷺ: (أول ما يقضى بين الناس بالدماء)-.

وعن حريث بن قبيصة قال: قدمنا المدينة فقلت اللهم يسر لي جليسًا صالحًا، قال فجلست إلى أبي هريرة فقلت: إني سألت الله أن يرزقني جليسًا صالحًا، فحدثني بحديث سمعته من رسول الله ﷺ، لعل الله أن ينفعني به، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب ﷻ: انظروا هل لعبدي من تطوع، فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك)-.

=

=

وعن أول الخلق حسابًا يقول ﷺ فيما يرويه ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: (نحن آخر الأمم وأول من يحاسب، يقال: أين الأمة الأمية ونبيها؟ فنحن الآخرون الأولون)-. الحياة الآخرة لغالب عواجي (٢/ ٩١٦).

المسألة الثالثة: قواعد محاسبة العباد على أعمالهم.

لو عذَّب الله جميع خلقه لم يكن ظالمًا لهم، والحق تبارك وتعالى بين لنا في كثير من النصوص جملة القواعد التي تقوم عليها المحاكمة والمحاسبة في ذلك اليوم.

القاعدة الأولى: العدل التام الذي لا يشوبه ظلم.

يُوَفِّي الحقُّ- ﷻ- عباده يوم القيامة أجورهم كاملة غير منقوصة، ولا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل (ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) [البقرة: ٢٨١].

وقال لقمان في وصيته لابنه معرفًا إياه بعدل الله: (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) [لقمان: ١٦].

وقال الحق في موضع آخر: (إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) [النساء: ٤٠]، وقال: (وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) [النساء: ٧٧]. وقال: (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) [النساء: ١٢٤].

وقال تعالى: (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ- وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) [الزلزلة: ٧-٨]، فقد أخبر الحق تبارك وتعالى في هذه النصوص أنه يُوفِّي كل عبدٍ عمله، وأنه لا يضيع منه، ولا ينقص منه مقدار الذرة، وهي الهباءة التي في أشعة الشمس إذا دخلت من الطاق، ولا مقدار الفتيل ولا النقير، والفتيل هو الخيط الذي يكون في شق النواة، والنقير: النقرة الصغيرة التي تكون في ظهر النواة.

=

=

القاعدة الثانية: لا يؤخذ أحد بجريرة غيره.

قاعدة الحساب والجزاء التي تمثل قمة العدل ومنتهاه أن الله يجازي العباد بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، ولا يحمل الحق تبارك وتعالى أحدًا وزر غيره، كما قال تعالى: (وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) [الأنعام: ١٦٤]. وهذا هو العدل الذي لا عدل فوقه، فالمهتدي يقطف ثمار هدايته، والضال ضلاله على نفسه، (مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) [الإسراء: ١٥].

وهذه القاعدة العظيمة إحدى الشرائع التي اتفقت الرسالات السماوية على تقريرها، قال تعالى: (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى- وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى- أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى- وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى- وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى- ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى) [النجم: ٣٦-٤١].

يقول القرطبي في تفسيره (٤/ ١٥٧) في تفسير قوله تعالى: (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) [الأنعام: ١٦٤] " أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى، لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة بإثمها، وأصل الوزر الثقل، ومنه قوله تعالى: (وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ) [الشرح: ٢]، وهو هنا الذنب،.. والآية نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يقول: اتبعوا سبيلي أحمل أوزاركم، ذكره ابن عباس، وقيل: إنها نزلت ردًا على العرب في الجاهلية من مؤاخذة الرجل بأبيه وابنه، وبجريرة حليفه " ا.هـ

قد يعارض بعض أهل العلم هذا الذي ذكرناه من أن الإنسان لا يحمل شيئًا من أوزار الآخرين بمثل قوله تعالى: (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ) [العنكبوت: ١٣]، وقوله: (وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ) [النحل: ٢٥].

=

=

وهذا الذي ذكروه موافق لما ذكرناه من النصوص، وليس بمعارض لها، فإن هذه النصوص تدل على أن الإنسان يتحمل إثم ما ارتكب من ذنوب، وإثم الذين أضلهم بقوله وفعله، كما أن دعاة الهدى ينالون أجر ما عملوه، ومثل أجر من اهتدى بهديهم، واستفاد بعلمهم، فإضلال هؤلاء لغيرهم هو فعل لهم يعاقبون عليه.

القاعدة الثالثة: إطلاع العباد على ما قدموه من أعمال.

من إعذار الله لخلقه، وعدله في عباده أن يطلعهم على ما قدموه من صالح أعمالهم وطالحها، حتى يحكموا على أنفسهم، فلا يكون لهم بعد ذلك عذر.

قال تعالى: (إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) [المائدة: ١٠٥]، وقال: (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا) [آل عمران: ٣٠]، وقال: (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) [الانفطار: ٥] وقال: (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) [الكهف: ٤٩].

وإطلاع العباد على ما قدموه يكون بإعطائهم صحائف أعمالهم، وقراءتهم لها، فقد أخبرنا ربنا- تبارك وتعالى- أنه وكل بكل واحد منا ملكين يسجلان عليه صالح أعماله وطالحها، فإذا مات ختم على كتابه، فإذا كان يوم القيامة أعطى العبد كتابه، وقيل له: اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا.

قال تعالى: (وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا- اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) [الإسراء: ١٣-١٤].

وهو كتاب شامل لجميع الأعمال كبيرها وصغيرها (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) [الكهف: ٤٩].

=

=

القاعدة الرابعة: مضاعفة الحسنات دون السيئات.

ومن رحمته أن يضاعف أجر الأعمال الصالحة (إِن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ) [التغابن: ١٧].

وأقل ما تضاعف به الحسنة عشرة أضعاف (مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) [الأنعام: ١٦٠]. أما السيئة فلا تجزى إلا مثلها (وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا) [الأنعام: ١٦٠]. وهذا مقتضى عدله تبارك وتعالى.

وقد روى الحاكم في مستدركه، وأحمد في مسنده بإسناد حسن عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال (حدثنا الصادق المصدوق فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: " الحسنة بعشر أمثالها أو أزيد.. والسيئة واحدة أو أغفرها، ولو لقيتني بقراب الأرض خطايا ما لم تشرك بي، لقيتك بقرابها مغفرة)-.

ومن الأعمال التي أخبر الرسول ﷺ أنها تضاعف عشرة أضعاف قراءة القرآن، ففي الحديث الذي يرويه الترمذي والدارمي بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف)- ، وأخبرنا رسولنا صلوات الله وسلامه عليه أيضًا أن الذكر يضاعف عشرة أضعاف، ففي سنن الترمذي والنسائي وأبي داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: (خصلتان- أو خلتان لا يحصيهما رجل مسلم إلا دخل الجنة، وهما يسيرٌ، ومن يعمل بهما قليل: يسبح الله في دبر كل صلاة عشرًا، ويحمده عشرًا، ويكبره عشرًا، فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده، قال: فلك خمسون ومائة باللسان، وألف وخمسمائة في الميزان، وإذا أخذت مضجعك تسبحه وتكبره وتحمده مائة، فتلك مائة باللسان، وألف في الميزان، فأيكم يعمل في اليوم والليلة ألفين وخمسمائة سيئة؟ قالوا: فكيف لا نحصيها؟ قال: يأتي أحدكم الشيطان وهو

=

=

في صلاته، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، حتى ينفتل، فلعله لا يفعل، ويأتيه وهو في مضجعه، فلا يزال ينومه حتى ينام "، أخرجه الترمذي والنسائي، وفي رواية أبي داود بعد قوله: " في الميزان " الأولى، قال: " ويكبر أربعًا وثلاثين إذا أخذ مضجعه، ويحمد ثلاثًا وثلاثين، ويسبح ثلاثًا وثلاثين، فذلك مائة باللسان، وألف في الميزان، فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده قالوا: يا رسول الله، كيف هما يسيرٌ، ومن يعمل بهما قليل؟ قال: يأتي أحدكم الشيطان في منامه، فينومه قبل أن يقوله، ويأتيه في صلاته فيذكره حاجته قبل أن يقولها)-.

وحدثنا رسولنا ﷺ في حديث الإسراء الذي يرويه البخاري وغيره تردده ﷺ بين ربه وموسى، حيث كان يشير عليه موسى في كل مرة أن يرجع إلى ربه، فيسأله أن يخفف عنه من الصلاة، حتى أصبحت خمسًا بعد أن كانت خمسين.. قال في ختام ذلك: " قال الجبار تبارك وتعالى: إنه لا يبدل القول، كما فرضت عليك في أم الكتاب، فكل حسنة بعشرة أمثالها، فهي خمسون في أم الكتاب، وهي خمس عليك، فرجع إلى موسى. فقال: كيف فعلت؟ قال: خففت عنا، أعطانا بكل حسنة عشرة أمثالها".

وقد يضاعفها أكثر من ذلك، وقد تصل المضاعفة إلى سبعمائة ضعف، وأكثر من ذلك، ومن ذلك أجر المنفق في سبيل الله، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] ، قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٦١): هذا مثل ضربه الله لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. فقال: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [البقرة: ٢٦١] قال سعيد بن جبير: " يعني في طاعة الله". وقال مكحول: يعني به الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك.

=

=

وعن ابن عباس: الجهاد والحج يضعف الدرهم فيها إلى سبعمائة ضعف " ا.هـ
وأورد ابن كثير عند تفسير هذه الآية الحديث الذي يرويه مسلم والنسائي وأحمد عن عبد الله بن مسعود (أن رجلًا تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: " لتأتين يوم القيامة بسبعمائة مخطومة " هذا لفظ أحمد والنسائي. ولفظ مسلم: جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: يا رسول الله. هذه في سبيل الله، فقال: " لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة).
وأما الأعمال التي تضاعف أضعافًا لا تدخل تحت حصر، ولا يحصيها إلا الذي يجزى بها: الصوم، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: (كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي: وأنا أجزي به)-.
والسر في كون الصائم يعطى من غير تقدير، أن الصوم من الصبر، والصابرون يوفون أجورهم بغير حساب، قال تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) [الزمر: ١٠]، قال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٤٠): " وقال أهل العلم: كل أجر يكال كيلًا، ويوزن وزنًا إلا الصوم، فإنه يحثى ويغرف غرفا " ا.هـ.
ومن الصبر: الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها وكربها التي يبتلي الله بها عباده (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ- الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ- أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) [البقرة: ١٥٥-١٥٧].
وعندما يرى أهل العافية عظم أجر الصابرين يتمنون أن تكون جلودهم قرضت بالمقاريض لينالوا أجر الصابرين، ففي سنن الترمذي عن جابر، ومعجم الطبراني عن ابن عباس بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال: (ليودَّن أهل العافية يوم القيامة، أن جلودهم قرضت بالمقاريض، مما يرون من ثواب أهل البلاء)-.

=

=

ومن فضل الله تبارك وتعالى أن المؤمن الذي يهم بفعل الحسنة، ولكنه لا يفعلها تكتب له حسنة تامة، والذي يهم بفعل السيئة، ثم تدركه مخافة الله، فيتركها تكتب له حسنة تامة، ففي صحيح البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل، قال: (إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها، كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها، فعملها، كتبها الله له سيئة واحدة)-.

وتبلغ رحمة الله بعباده وفضله عليهم أن يبدِّل سيئاتهم حسنات، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: (إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها. رجل يؤتى به يوم القيامة. فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا فيقول نعم: لا يستطيع أن ينكر. وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له: فإن لك مكانا كل سيئة حسنة فيقول: رب، عملت أشياء لا أراها ها هنا " فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه)-.

القاعدة الخامسة: إقامة الشهود.

أعظم الشهداء في يوم المعاد على العباد هو ربهم وخالقهم وفاطرهم، الذي لا تخفى عليه خافية من أحوالهم، قال تعالى: (وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) [يونس: ٦١] ، وقال: (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) [النساء: ٣٣].

ولكن الله يحب الإعذار على خلقه، فيبعث من مخلوقاته شهداء على المكذبين الجاحدين حتى لا يكون لهم عذر، وقد أشارت أكثر من آية إلى الشهداء الذين

=

=

يشهدون على العباد، كقوله تعالى: (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) [غافر: ٥١]، وقوله تعالى: (وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء) [الزمر: ٦٩].

وأول من يشهد على الأمم رسلها، فيشهد كل رسول على أمته بالبلاغ، (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا) [النساء: ٤١]، (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء) [النحل: ٨٩].

وقوله: (شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ)، هم الرسل، لأن كل أمة رسولها منها، كما قال تعالى: (لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ) [التوبة: ١٢٨] وقال تعالى: (وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) [القصص: ٧٥].

وكما يشهدون على أممهم بالبلاغ يشهدون عليهم بالتكذيب، (يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ) [المائدة: ١٠٩]، وقال: (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ- فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ) [الأعراف: ٦-٧].

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٧٦) في تفسير الآية الأولى: " هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلوا إليهم،... وقول الرسل: (لا علم لنا) قال مجاهد والحسن البصري والسدي: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم.. وقال ابن عباس: لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا، رواه ابن جرير ثم اختاره، ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التأدب مع الله ﷻ، أي لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا ما أجبنا، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا شيء " ا.هـ

=

=

ثم إن الأمم تكذب رسلها، وتقول كل أمة ما جاءنا من نذير، فتأتي هذه الأمة: أمة محمد ﷺ وتشهد للرسل بالبلاغ، كما قال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) [البقرة: ١٤٣].

وقد أورد البخاري في صحيحه في كتاب التفسير (٤٤٨٧) الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: " يدعى نوح يوم القيامة، لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: " هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليكم شهيدًا، فذلك قوله جل ذكره: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) [البقرة: ١٤٣]".

وقد أفاد ابن حجر في الفتح (٨/ ١٧٢) أنه قد جاء الحديث عند أحمد والنسائي وابن ماجة بلفظ: " يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، ويجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه أكثر من ذلك. قال: فيقال لهم: أبلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال للنبي: أبلغتهم؟ فيقول: نعم، فيقال له: من يشهد لك؟.. " الحديث. وذكر ابن حجر أيضًا أن في بعض روايات الحديث زيادة: " فيقال ما علمكم؟ فيقولون: أخبرنا نبينا أن الرسل قد بلغوا فصدقناه " ا.هـ

ومن الأشهاد الأرض والأيام والليالي، تشهد بما عمل فيها وعليها، ويشهد المال على صاحبه، وقد عقد القرطبي في تذكرته لهذا الموضوع بابًا، وذكر فيه حديث الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: (قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (يومئذٍ تحدث أخبارها) [الزلزلة: ٤]. قال: " أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها)-، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح

=

=

غريب.

ويشهد على العبد أيضًا ملائكة الرحمن الذين كانوا يسجلون عليه صالح أعماله وطالحها، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]، والسائق والشهيد الملكان اللذان كانا موكلين بتلك النفس.

وتشهد الملائكة على العباد بما كانوا يعملون، ﴿وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨]، فإذا لج العبد في الخصومة، وكذب ربه، وكذب الشهود الذين شهدوا عليه، أقام الله عليه شاهدًا منه، فتشهد على المرء أعضاؤه، وقد مضى بيان هذا. القيامة الكبرى لعمر بن سليمان الأشقر (ص٢٠٣-٢١٢).

المسألة الرابعة: من يشملهم الحساب.

الناس في يوم القيامة يردون فصل القضاء طوائف متفرقة، وأصنافًا شتى، منهم من يستحق غاية الإكرام، ومنهم من يستحق غاية التعذيب، ومنهم من هو بين ذلك.

فهناك الأنبياء، وهناك المؤمنون- السابقون منهم والمقتصدون -، وهناك من خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، وهناك كفار هم أعداء الله ومحل سخطه وبغضه.

إنهم يردون أصنافًا شتى لا يعلمهم إلا الله تعالى، فمن من هؤلاء يحاسب؟ ومن من هؤلاء لا يحاسب، بل يكرمهم الله فلا يحاسبهم؟

قد أجمل القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ الجواب عن هذه الأصناف بالنسبة للحساب، فقسمهم إلى ثلاثة فرق فقال في التذكرة (ص ٣٤٣): فرقة: لايحاسبون أصلًا، وفرقة: تحاسب حسابًا يسيرًا- وهما من المؤمنين- وفرقة: تحاسب حسابًا شديدًا، يكون منها مسلم وكافر، وإذا كان من المؤمنين من يكون أدنى إلى رحمة الله، فلا يبعد أن يكون من الكفار من هو أدنى إلى غضب الله، فيدخله النار بغير حساب ا.هـ.

والواقع أن الإجابة تحتاج إلى تفصيل أكثر لطوائف الناس، وسنذكر فيما يلي تفصيل ما قيل عن كل طائفة:

=

=

المطلب الأول: الأنبياء.

جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ* فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ} الأعراف: ٦. وهو سؤال عن التبليغ لا عن الأعمال التى يمارسها كل مؤمن ليجازى عليها، فالحساب الذى يتصل به عرض الكتاب وقراءته {ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين} الأنبياء: ٤٧، فيه استثناءات جاء بعضها فى الحديث المتفق عليه (أن سبعين ألفا من أمة النبى ﷺ يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وعينهم بقوله "وهم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)، ومن المعلوم أن المذكورون من السبعين ألفا لا يرقون إلى درجة الأنبياء والرسل وقد أعفاهم الله من الحساب كرامة لهم، فهل يحاسب الأنبياء والرسل؟ نعم سيسألون عن تبليغ الرسالة كشهادة على أممهم أما سؤال الحساب وما يترتب عليه من جزاء فلا.

فإطلاق القول في الآية بأن الأنبياء يسألون؛ المقصود به مساءلتهم عن تبليغهم الدعوة إلى أقوامهم، وهو مجرد مساءلة لزيادة إقامة الحجة على العصاة، وليس مساءلة مناقشة كما تقدم.

قال الطبري في تفسيره (١٢/ ٣٠٥): يقول تعالى ذكره: لنسألن الأمم الذين أرسلت إليهم رسلي: ماذا عملت فيما جاءتهم به الرسل من عندي من أمري ونهيي؟ هل عملوا بما أمرتهم به، وانتهوا عما نهيتهم عنه، وأطاعوا أمري، أم عصوني فخالفوا ذلك؟ ولنسألن المرسلين) ، يقول: ولنسألن الرسل الذين أرسلتهم إلى الأمم: هل بلغتهم رسالاتي، وأدَّت إليهم ما أمرتهم بأدائه إليهم، أم قصّروا في ذلك ففرَّطوا ولم يبلغوهم؟. ا.هـ

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٨٨): قوله: {فلنسألن الذين أرسل إليهم} الآية،

=

=

كقوله تعالى {ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين}[القصص: ٦٥] وقوله: {يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب}[المائدة : ١٠٩] فالرب تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته؛ ولهذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية: {فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين} قال: يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسلين عما بلغوا ا.هـ

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ١٥): قوله : {فلنسئلن الذين أرسل إليهم} هذا وعيد شديد ، والسؤال للقوم الذين أرسل الله إليهم الرسل من الأمم السالفة للتقريع والتوبيخ ، واللام لام القسم ، أي لنسألنهم عما أجابوا به رسلهم عند دعوتهم ، والفاء لترتيب الأحوال الأخروية على الأحوال الدنيوية {ولنسألن المرسلين} أي الأنبياء الذين بعثهم الله ، أي نسألهم عما أجاب به أممهم عليهم ، ومن أطاع منهم ومن عصى. وقيل المعنى : فلنسألن الذين أرسل إليهم ، يعني الأنبياء ، ولنسألن المرسلين ، يعني الملائكة ، ولا يعارض هذا قول الله سبحانه : {ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون}[القصص : ٧٨] لما قدمنا غير مرة أن الآخرة مواطن ، ففي موطن يسألون ، وفي موطن لا يسألون ، وهكذا سائر ما ورد مما ظاهره التعارض بأن أثبت تارة ونفى أخرى ، بالنسبة إلى يوم القيامة ، فإنه محمول على تعدد المواقف مع طول ذلك اليوم طولا عظيما {فلنقصن عليهم بعلم} أي على الرسل والمرسل إليهم ، ما وقع بينهم عند الدعوة منهم بعلم لا بجهل ، أي عالمين بما يسرون وما يعلنون {وما كنا غائبين} عنهم في حال من الأحوال حتى يخفى علينا شيء مما وقع بينهم ا.هـ

وقال السعدي في تفسيره (ص٢٨٣): قوله {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ} أي

=

=

لنسألن الأمم الذين أرسل اللّه إليهم المرسلين عما أجابوا به رسلهم {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} الآيات

{وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} عن تبليغهم لرسالات ربهم وعما أجابتهم به أممهم ا.هـ

وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير (٥/ ٣٠٨): وسؤال الذين أرسل إليهم سُؤال عن بلوغ الرّسالة. وهو سؤال تقريع في ذلك المحشر ، قال تعالى : {ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين}[القصص : ٦٥].

وسؤال المرسلين عن تبليغهم الرّسالة سؤال إرهاب لأُمُمِهم، لأنّهم إذا سمعوا شهادة رسلهم عليهم أيقنوا بأنّهم مسوقون إلى العذاب ، وقد تقدّم ذلك في قوله : {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد}[النساء : ٤١] وقوله {يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم}[المائدة : ١٠٩].

و {الذين أرسل إليهم } ، هم أمم الرّسل، وعبّر عنهم بالموصول لما تدُلّ عليه الصّلة من التّعليل ، فإن فائدة الإرسال هي إجابة الرّسل ، فلا جرم أن يسأل عن ذلك المُرسَل إليهم، ولمّا كان المقصود الأهمّ من السّؤال هو الأمم ، لإقامة الحجّة عليهم في استحقاق العقاب ، قُدّم ذكرهم على ذكر الرّسل ، ولما تدُلّ عليه صلة (الذي) وصلة (ال) من أنّ المسؤول عنه هو ما يتعلّق بأمر الرّسالةِ ، وهو سؤال الفريقين عن وقوع التّبليغ.

ولَمَّا دلّ على هذا المعنى التّعبيرُ : ب {الذين أرسل إليهم} والتّعبيرُ : ب {المرسلين} لم يحتجّ إلى ذكر جواب المسؤولين لظهور أنّه إثبات التّبليغ والبلاغ.

والفاء في قوله : {فلنقصن عليهم} للتفريع والتّرتيب على قوله : {فلنسألن} ، أي لنسألنّهم ثمّ نخبرهم بتفصيل ماأجمله جوابهم ، أي فلنقصّنّ عليهم تفاصيل أحوالهم ، أي فعِلْمُنا غَنِي عن جوابهم ولكن السّؤال لغرض آخر.

=

=

وقد دلّ على إرادة التّفصيل تنكيرُ علم في قوله : {بعلم} أي علم عظيم ، فإنّ تنوين (عِلم) للتعظيم، وكمالُ العلم إنّما يظهر في العلم بالأمور الكثيرة، وزاد ذلك بيانًا قولُه: {وما كنا غائبين} الذي هو بمعنى: لا يعزب عن علمنا شيء يغيب عنّا ونغيب عنه.

والقَصّ : الاخبار، يقال: قصّ عليه، بمعنى أخبره، وتقدّم في قوله تعالى: {يقص الحقّ} في (الأنعام:٥٧).

وجملة: {وما كنا غائبين} معطوف على {فلنقصن عليهم بعلم }، وهي في موقع التّذييل.

والغائب ضدّ الحاضر، وهو هنا كناية عن الجاهل، لأنّ الغيبة تستلزم الجهالة عرفًا، أي الجهالة بأحوال المَغيب عنه ، فإنّها ولو بلغتْه بالأخبار لا تكون تامة عنده مثل المشاهد، أي وما كنّا جاهلين بشيء من أحوالهم ، لأنّنا مطّلعون عليهم، وهذا النّفي للغيبة مثل إثبات المعيَّة في قوله تعالى {وهو معكم أينما كنتم}[الحديد:٤].

وإثباتُ سؤال الأمم هنا لا ينافي نفيه في قوله تعالى {ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون}[القصص:٧٨] وقوله {فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان}[الرحمن:٣٩] لأنّ المسؤول عنه هنا هو التّبليغ والمنفيَّ في الآيتين الآخريين هو السّؤال لمعرفة التفاصيل ا.هـ

المطلب الثاني: المؤمنين.

وأما بقية المؤمنين بصورة عامة فلا ريب أن الله تعالى يحاسبهم محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، وبالحساب يمتاز بعضهم على بعض بالدرجات؛ نتيجة لثقل موازينهم وخفتها (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) [الزلزلة: ٧- ٨]

=

=

وقد قدمنا ذكر للنصوص التي تدل على محاسبة الله تعالى عباده المؤمنين.

وأما أولئك السبعون الألف الذين ورد النص بأنهم لا يحاسبون، فهو إكرام من الله تعالى لنبينا محمد صلي الله عليه وسلم في أمته.

ومصداق هذا ما جاء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم برقم (٢٢٠) قال رسول الله ﷺ (عرضت علي الأمم فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط والنبي ليس معه أحد حتى رفع لي سواد عظيم قلت ما هذا أمتي هذه قيل بل هذا موسى وقومه قيل انظر إلى الأفق فإذا سواد يملأ الأفق ثم قيل لي انظر ها هنا وها هنا في آفاق السماء فإذا سواد قد ملأ الأفق قيل هذه أمتك ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفا بغير حساب ثم دخل ولم يبين لهم فأفاض القوم وقالوا نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله فنحن هم أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام فإنا ولدنا في الجاهلية فبلغ النبي ﷺ فخرج فقال هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون فقال عكاشة بن محصن أمنهم أنا يا رسول الله قال نعم فقام آخر فقال أمنهم أنا قال سبقك بها عكاشة).

وعن أبي أمامة أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال: (إن الله وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألف بغير حساب، فقال يزيد الأخنس: والله ما أولئك في أمتك إلا كالذباب الأصهب في الذبان، فقال رسول الله: فإن ربي عز وجل قد وعدني سبعين ألفًا مع كل ألف سبعين ألفًا، وزادني ثلاث حثيات، قال فما حوضك؟ قال: ما بين عدن إلى عمان، وأوسع وأوسع- يشير بيده- قال: فيه مثعبان من ذهب وفضة. قال: فما حوضك يا نبي الله؟ قال: أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وأطيب من رائحة المسك، من شرب منه لم يظمأ بعدها أبدًا، ولم يسود وجهه أبدًا)-.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول صلي الله عليه وسلم قال: (أعطيت سبعين ألفا

=

=

يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر و قلوبهم على قلب رجل واحد ، فاستزدت ربي ﷻ ، فزادني مع كل واحد سبعين ألفا)-.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في زاد المعاد (١/ ٤٧٥): "وذلك لأن هؤلاء دخلوا الجنة بغير حساب لكمال توحيدهم ، ولهذا نفى عنهم الاسترقاء وهو سؤال الناس أن يرقوهم ، ولهذا قال : (وعلى ربهم يتوكلون) فلكمال توكلهم على ربهم وسكونهم إليه وثقتهم به ورضاهم عنه وإنزال حوائجهم به لا يسألون الناس شيئا لا رقية ولا غيرها ، ولا يحصل لهم طيرة تصدهم عما يقصدونه ؛ فإن الطيرة تنقص التوحيد وتضعفه" انتهى-.

(تنبيه): هل السبعون ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب كلهم من أهل البقيع؟

قال العلامة الألباني في الضعيفة (١١/ ٢/ ٨٤٩- ٨٥٠): روي عن النبي ﷺ وآله وسلم: «يا أم قيس! ترين هذه المقبرة؛ يبعث الله منها سبعين ألفًا يوم القيامة على صورة القمر ليلة البدر، يدخلون الجنة بغير حساب، [كأن وجوههم القمر ليلة البدر]. فقام عكاشة فقال: وأنا يا رسول الله؟! قال: وأنت. فقام آخر فقال: وأنا يا رسول الله؟! قال: سبقك بها عكاشة»

قال الإمام العلامة الألباني: والحديث منكر؛ لأن المحفوظ أن النبي ﷺ وآله وسلم قال في السبعين ألفًا أنهم: "الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون".أخرجه الشيخان. والظاهر: أنه في عامة أمته- ﷺ وآله وسلم -؛ وليس في الذين يدفنون في البقيع. والله أعلم.

المطلب الثالث: الكفار.

اختلف العلماء في الكفار: هل يحاسبون ويسألون؟ أم يأمر بهم إلى النار من غير سؤال، لأن أعمالهم باطلة حابطة فلا فائدة من السؤال والحساب؟ وإذا كانوا

=

=

يحاسبون ويسألون فما فائدة حسابهم وسؤالهم؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوي (٤/ ٣٠٥): " هذه المسألة تنازع فيها المتأخرون من أصحاب أحمد وغيرهم، فممن قال إنهم لا يحاسبون أبو بكر عبد العزيز، وأبو الحسن التميمي، والقاضي أبو يعلى، وغيرهم، وممن قال: إنهم يحاسبون: أبو حفص البرمكي من أصحاب أحمد، وأبو سليمان الدمشقي، وأبو طالب " ا.هـ

والصحيح أن الكفار محاسبون مسؤولون كما أن أعمالهم توزن، وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة، كقوله تعالى: (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) [القصص: ٦٢]، وقوله: (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) [القصص: ٦٥]، وقوله: (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ- فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ- وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ- فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ- وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ- نَارٌ حَامِيَةٌ) [القارعة: ٦-١١].
وقوله: (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ- أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) [المؤمنون: ١٠٣-١٠٥] ولا شك أن هذه النصوص في الكفار المشركين.

أما لماذا يحاسبون وتوزن أعمالهم مع أن أعمالهم حابطة مردودة فلأمور:

الأول: إقامة الحجة عليهم، وإظهار عدل الله فيهم، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، وهو صاحب العدل المطلق، ولذلك يسألهم ويحاسبهم، ويطلعهم على سجلاتهم التي حوت أعمالهم، ويظهر الميزان عظم سيئاتهم وشناعة أفعالهم (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) [الأنبياء: ٤٧]، (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا

=

=

كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) [الكهف: ٤٩].

يقول القرطبي في التذكرة (ص٢٢٥): " والباري- سبحانه وتعالى- يسأل الخلق في الدنيا والآخرة تقريرًا لإقامة الحجة وإظهارًا للحكمة".

الثاني: أن الله يحاسبهم لتوبيخهم وتقريعهم، يقول شيخ الإسلام في مجموع الفتاوي (٤/ ٣٠٥): " يراد بالحساب عرض أعمال الكفار عليهم وتوبيخهم عليها، ويراد بالحساب موازنة الحسنات بالسيئات، فإن أريد بالحساب المعنى الأول، فلا ريب أنهم محاسبون بهذا الاعتبار، وإن أريد به المعنى الثاني فإن قصد ذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات يستحقون بها الجنة فهذا خطأ ظاهر " ا.هـ.

وهذا التأنيب والتقريع والتوبيخ ظاهر من نصوص كثيرة كقوله تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) [الأنعام: ٣٠]. وقوله: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ) [الأنعام: ١٣٠]، وقوله: (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ- وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ) [الشعراء: ٩١-٩٢]، وقوله: (وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ) [القصص: ٦٤].

قال ابن كثير في النهاية (٢/ ٣٥): "وأما الكفار فتوزن أعمالهم، وإن لم تكن لهم حسنات تنفعهم يقابل بهذا كفرهم، لإظهار شقائهم وفضيحتهم على رؤوس الخلائق".

الثالث: أن الكفار مكلفون بأصول الشريعة كما هم مكلفون بفروعها، فيسألون عما قصروا فيه وخالفوا فيه الحق، يقول القرطبي في التذكرة (ص٣٠٥): " وفي القرآن ما يدل على أنه مخاطبون بها (أي فروع الشريعة) مسؤولون عنها،

=

محاسبون بها، مجزيون على الإخلال بها، لأن الله تعالى يقول: (وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ- الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) [فصلت: ٦-٧]، فتوعدهم على منعهم الزكاة، وأخبر عن المجرمين أنهم يقال لهم: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ- قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ- وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ- وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ- وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ) [المدثر: ٤٢-٤٦]، فبان بهذا أن المشركين مخاطبون بالإيمان والبعث وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأنهم مسؤولون عنها، مجزيون " ا.هـ

الرابع: أن الكفار يتفاوتون في كفرهم وذنوبهم ومعاصيهم، ويحلون في النار بمقدار هذه الذنوب، فالنار دركات بعضها تحت بعض، كما أن الجنة درجات بعضها فوق بعض، وكلما كان المرء أشد كفرًا وضلالًا كلما كان أشد عذابًا، وبعض الكفرة يكون في الدرك الأسفل من النار، ومنهم المنافقون (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) [النساء: ١٤٥].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوي (٤/ ٣٠٥): " عقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قلَّت سيئاته، ومن كان له حسنات خففت عنه العذاب، كما أن أبا طلب أخف عذابًا من أبي لهب.. فكان الحساب لبيان مراتب العذاب، لا لأجل دخولهم الجنة " ا.هـ

ويذكر القرطبي في التذكرة (ص٣١٢) في وزن أعمال العباد وجهين:

الأول: أنه يوضع في إحدى الكفتين كفره وسيئاته. ولا يجد الكافر حسنة توضع في الكفة الأخرى، فترجح كفة السيئات لكون كفة الحسنات فارغة.

والثاني: أن حسنات الكافر من صلة رحم، وصدقة، ومواساة للناس توضع في كفة الحسنات، ولكن كفة السيئات ترجح بسبب كفره وشركه ا.هـ

والوجه الأول هو الصحيح لأن الشرك يحبط العمل، (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ

=

عَمَلُكَ) [الزمر: ٦٥] (وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة: ٢١٧]. وفي الحديث: (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغي به وجهه)-.

ولأنه قد صح أن الرسول ﷺ أخبر أن الكافر يطعم بحسنته في الدنيا فيوافى يوم القيامة وليس له حسنة، ففي صحيح مسلم (٢٨٠٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال (قال رسول الله ﷺ و سلم إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها).

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٣٨): كيف يحاسب الكافر يوم القيامة، وهو غير مطالب بالتكاليف الشرعية؟.

فأجاب: هذا السؤال مبني على فهم ليس بصحيح، فإن الكافر مطالب بما يطالب به المؤمن، لكنه غير ملزم به في الدنيا، ويدل على أنه مطالب قوله- تعالى -: {إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ}.

فلولا أنهم عوقبوا بترك الصلاة، وترك إطعام المساكين ما ذكروه؛ لأن ذكره في هذه الحال لا فائدة منه، وذلك دليل على أنهم يعاقبون على فروع الإسلام، وكما أن هذا هو مقتضى الأثر، فهو أيضا مقتضى النظر، فإذا كان الله تعالى يعاقب عبده المؤمن على ما أخل به من واجب في دينه فكيف لا يعاقب الكافر؟ ، بل إني أزيدك أن الكافر يعاقب على كل ما أنعم الله به عليه من طعام وشراب وغيره، قال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا

=

=

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} ، فمنطوق الآية رفع الجناح عن المؤمنين فيما طعموه، ومفهومها وقوع الجناح على الكافرين فيما طعموه، وكذلك قوله- تعالى-: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} ، فإن قوله: {قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} . دليل على أن غير المؤمن ليس له حق في أن يستمتع بها في الدنيا.

أقول: ليس له حق شرعي، أما الحق بالنظر إلى الأمر الكوني وهو أن الله- سبحانه وتعالى- خلقها، وانتفع بها هذا الكافر، فهذا أمر لا يمكن إنكاره، فهذا دليل على أن الكافر يحاسب حتى على ما أكل من المباحات وما لبس، وكما أن هذا مقتضى الأثر فإنه مقتضى النظر، إذ كيف يحق لهذا الكافر العاصي لله الذي لا يؤمن به كيف يحق له عقلا أن يستمتع بما خلقه الله- ﷻ- وما أنعم الله به على عباده، وإذ تبين لك هذا، فإن الكافر يحاسب يوم القيامة على عمله، ولكن حساب الكافر يوم القيامة ليس كحساب المؤمن؛ لأن المؤمن يحاسب حسابا يسيرا، يخلو به الرب- ﷻ- ويقرره بذنوبه حتى يعترف، ثم يقول له -سبحانه وتعالى-: «قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم».

أما الكافر- والعياذ بالله- فإن حسابه أن يقرر بذنوبه، ويخزى بها على رءوس الأشهاد: {وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} ا.هـ كلام العثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

فإن قيل: قررتم فيما سبق أن الكفار يسألون ويجادلون ويتكلمون ويعتذرون، فيكف تفعلون بالنصوص الدالة على خلاف ذلك، كقوله تعالى: (وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) [القصص: ٧٨] ، وقوله: (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ) [الرحمن: ٣٩] ، وقوله: (هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ- وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ)

=

=

[المرسلات: ٣٥-٣٦] ، ونحو ذلك من النصوص.

فنقول: ليس بين هذه النصوص وتلك تعارض، وقد وفق أهل العلم بينهما بوجوه عدة.

الأول: أن الكفار لا يسألون سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ، لم عملتم كذا وكذا؟ وكذا يقال في تكليمهم واعتذارهم، أي لا يكلمهم الله بما يحبونه، بل يكلمهم كلام تقريع وتوبيخ.

الثاني: أنهم لا يسألون سؤال استفهام، لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم، وإنما يسألون سؤال تقرير، فيقال لهم: لم فعلتم كذا؟ قال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم، لأن الله حفظها عليهم وكتبتها عليهم الملائكة.

الثالث: أنهم يسألون في يوم القيامة في موطن دون موطن، قال القرطبي في التذكرة (ص٢٨٦): " القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك "

وقال السفاريني في لوامع الأنوار البهية: (٢/ ١٧٤): " وقيل يسألون في موطن دون موطن رواه عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .. فللناس يوم القيامة حالات، والآيات مخرجة باعتبار تلك الحالات، ومن ثَمَّ قال الإمام أحمد في أجوبته القرآنية: أول ما تبعث الخلائق على مقدار ستين سنة لا ينطقون، ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون، ثم يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون، فذلك قوله تعالى تكلموا، واختصموا، فذلك قوله تعالى: (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) [الزمر: ٣١] ، عند الحساب وإعطاء المظالم، ثم يقال لهم بعد ذلك: (لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ) [ق: ٢٨] ، يعني في الدنيا، فإن العذاب مع هذا القول كائن".

الرابع: قال القرطبي في التذكرة (ص٢٨٧): " أن معنى قوله تعالى: (وَلَا يُسْأَلُ عَن

=

=

ذُنُـوبِهِمُ الْمُجْرِمُـونَ) [القـصص: ٧٨] ، سـؤال التعـرف لتمييـز المـؤمنين مـن الكافرين، أي إن الملائكة لا تحتاج إلى أن تسأل أحدًا يوم القيامة أن يقال: ما دينك؟ وما كنت تصنع في الدنيا؟ حتى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمنًا أو كان كافرًا، لكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه منشرحي الصدور، ويكون المشركون سود الوجوه زرقًا مكروبين، فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار، وتميزهم في الموقف كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم.. " ا.هـ

قال العلامة الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب (ص١٣١-١٣٢): قوله تعالى: {فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين} الآية، هذه الآية الكريمة تدل على أن الله يسأل جميع الناس يوم القيامة ونظيرها قوله تعالى: {فوربك لنسألنهم أجمعين، عما كانوا يعملون}، وقوله: {وقفوهم إنهم مسؤولون} ، وقوله: {ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين}، وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله: {فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان}، وكقوله: {ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون}.

والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:

الأول: وهو أوجهها لدلالة القرآن عليه وهو أن السؤال قسمان: سؤال توبيخ وتقريع، وأداته غالبا (لم)، وسؤال استخبار واستعلام وأداته غالبا (هل) فالمثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع، والمنفي هو سؤال: الاستخبار والاستعلام، وجه دلالة القرآن على هذا أن سؤاله لهم المنصوص في القرآن كله توبيخ وتقريع كقوله: {وقفوهم إنهم مسؤولون، ما لكم لا تناصرون}، وكقوله: {أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون} ، وكقوله: {ألم يأتكم رسل منكم} ، وكقوله: {ألم يأتكم نذير}، إلى غير ذلك من الآيات، وسؤال الله للرسل ماذا أجبتم لتوبيخ الذين كذبوهم كسؤال الموؤودة بأي ذنب قتلت لتوبيخ قاتلها.

=

=

الوجه الثاني: أن في القيامة مواقف متعددة ففي بعضها يسألون وفي بعضها لا يسألون.

الوجه الثالث: هو ما ذكره الحليمي من أن إثبات السؤال محمول على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، وعدم السؤال محمول على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه، ويدل لهذا قوله تعالى فيقول: {ماذا أجبتم المرسلين} والعلم عند الله تعالى.

المسألة الخامسة: متى يكون الحساب؟ وأين يكون المحاسبون؟

حدثنا ربنا عن مشهد الحساب والجزاء في يوم الحساب فقال: (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) [الزمر: ٦٩].

وحسبنا أن نعلم أن المحاسب في ذلك اليوم هو الحكم والعدل قيوم السماوات والأرض ليتبين لنا عظم هذا المشهد وجلاله ومهابته، وهذا الإشراق المنصوص عليه في الآية، إنما يكون عند مجيء الملك الجليل لفصل القضاء، قال تعالى: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمُورُ) [البقرة: ٢١٠].

وهذا المجيء الله أعلم بكيفيته، نؤمن به ونعلم أنه حق، ولا نؤوِّله ولا نحرِّفه، ولا نكذب به، والآية تنصُّ على مجيء الملائكة، فهو موقف جليل تحضره ملائكة الرحمن بكتب الأعمال التي أحصت على الخلق أعمالهم وتصرفاتهم وأقوالهم، ليكون حجة على العباد، وهو كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) [الكهف: ٤٩].

=

=

ويجاء في موقف القضاء والحساب بالرسل، ويسألون عن الأمانة التي حمَّلهم الله إياها. وهي إبلاغ وحي الله إلى من أرسلوا إليه، ويشهدون على أقوامهم ما علموه منهم.

ويقوم الأشهاد في ذلك اليوم العظيم فيشهدون على الخلائق بما كان منهم، والأشهاد هم الملائكة الذين كانوا يسجلون على المرء أعماله، ويشهد أيضًا الأنبياء وغيرهم.

قال تعالى: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ) [المجادلة: ٦] وما أسرع نسيان الإنسان لأعماله التي يعملها هو غافل لا يدري أن هناك من يراقبه مراقبة دقيقة يسجل عليه كل ما يصدر عنه من قول أو فعل.

قال الطبري في تفسيره (٢٨/ ١٢): يقول تعالى ذكره أحصى الله ما عملوا، فعده عليهم، وأثبته، وحفظه، ونسيه عاملوه، والله على كل شيء شهيد ا.هـ

فإذا جمعهم الله في الموقف، وأذن بفصل القضاء فيهم أعطاهم الله تلك الكتب ليقفوا على ما فيها، ثم بعد ذلك تبدأ المحاسبة: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا) [الانشقاق: ٧- ١٠]

وفي تقديم الله تعالى ذكر الكتاب- أو صحف الأعمال- على ذكر الحساب دلالة على تقديم أخذ الصحف على الحساب، وفي هذا يقول القرطبى في التذكرة (ص٢٥٥): فإذا وقف الناس على أعمالهم، من الصحف التي يؤثرها بعد البعث حوسبوا عليها ا.هـ

وقبل حسابهم يمتاز كل فريق عن الأخر، المؤمنون في مكان، وغيرهم من الكفار كل فرقة في مكان، قال الحافظ ابن كثير في (النهاية (٢/ ١١٠): فإذا نصب كرسي فصل القضاء، انماز الكافرون عن المؤمنين في الموقف إلى ناحية الشمال وبقي

=

=

المؤمنون عن يمين العرض، ومنهم من يكون بين يديه، قال تعالى: (وَامْتَازُوا اليَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) [يس: ٥٩]) ا.هـ

قال ابن كثير فيتفسيره (٣/ ٥٧٦): (وَامْتَازُوا اليَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) يقول الله تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة، من أمره لهم أن يمتازوا، بمعنى يميزون عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى: (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ) [يونس: ٢٨]. وقال ﷻ: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ) [الروم: ١٤] أي يصيرون صدعين فرقتين ا.هـ

وفي فتح القدير (٤/ ٣٣٧ قال مقاتل: (معناه: اعتزلوا اليوم- بمعنى في الآخرة- من الصالحين)، وقال السدي: (كونوا على حدة)، وقال الزجاج: (انفردوا عن المؤمنين) ، وقال الضحاك: (يمتاز المجرمون بعضهم من بعض، فيمتاز اليهود فرقة، والنصاري فرقة، والمجوس فرقة، والصابئون فرقة، وعبدة الأوثان فرقة)، وقال داود بن الجراح: (يمتاز المسلمون عن المجرمين، إلا أصحاب الأهواء فإنهم يكونون مع المجرمين) ا.هـ

فالثابت هنا هو تميز كل فريق عن الفريق الآخر، دون تحديد للجهات التي ذكرها الحافظ ابن كثير رحمه الله كما في الآية السابقة، وكذا في قوله تعالى: (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ) [يونس: ٢٨].

قال ابن كثير في تفسيره (في معني الآية: ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ [يونس: ٢٨]: (الزموا أنتم وهم مكانا معينا، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين).

وقال تعالى: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ). [الروم: ١٤]

=

=

وقال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) [الروم: ٤٣] أي يصيرون فرقتين

قال الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٢٩).: (والمراد بتفرقهم هاهنا: أن أهل الجنة يصيرون إلى الجنة وأهل النار يصيرون إلى النار ا.هـ

وقال تعالى: (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إلى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) [الصافات: ٢٢- ٢٣]

وهذه الآية فسرها بعضهم بأن كل صنف يتميز مع مثله، فقد جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قول الله: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ [الصافات: ٢٢]، قال: (أمثالهم، الذين هم مثلهم، يجيء أصحاب الربا مع أصحاب الربا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، أزواج في الجنة، وأزواج في النار).

وفي رواية عن ابن عباس: قال: (أشباههم) ، وفي لفظ: (نظراءهم)، وفي رواية عن عكرمة مثله.

وعن مجاهد قال: (أمثالهم، القتلة مع القتلة، والزناة مع الزناة، وأكلة الربا مع أكلة الربا).

وخلاصة ما قيل عن تميز المؤمنين عن غيرهم، وتميز كل فرقة بمفردها: أن الله تعالى أمر بأن يتميز أهل محبته ورضوانه عن أهل عداوته وعصيانه، إلى حيث يشاء سبحانه وتعالى، كما أمر أن ينفرد أهل عصيانه عن أهل طاعته، ليكون لكل فرقة من الفرق موضع يليق بها، وليعرف كل فريق حاله. الحياة الآخرة لغالب عواجي (٢/ ٩٢٥).

المسألة السادسة: ما يسأل عنه العباد.

يسأل العباد عن الإله الذي كانوا يعبدونه، وعن إجابتهم للمرسلين، وقد بينا ذلك فيما مضى، ويسألون عن أعمالهم التي عملوها، وعما تمتعوا به من النعيم في

=

=

الحياة الدنيا، كما يسألون عن عهودهم ومواثيقهم، وعن أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم.

١ - الكفر والشرك: أعظم ما يسأل عنه العباد هو كفرهم وشركهم، فيسألهم عن الشركاء والأنداء الذين كانوا يعبدونه من دون الله كما قال تعالى: (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ- مِن دُونِ اللهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ) [الشعراء: ٩٢-٩٣]، (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) [القصص: ٦٢].

ويسألون عن عبادتهم لغير الله من تقديم القرابين للآلهة التي كانوا يعبدونها، ونحر الذبائح باسمها (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ) [النحل: ٥٦]. ويسألون عن تكذيبهم للرسل: (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ- فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءلُونَ) [القصص: ٦٥-٦٦].

٢- ما عمله في دنياه: يسأل المرء في يوم القيامة عن جميع أعماله التي عملها في الحياة الدنيا، كما قال تعالى: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ- عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الحجر: ٩٢-٩٣]. وقال: (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) [الأعراف: ٦]، وفي سنن الترمذي عن أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟)-.

وفي سنن الترمذي أيضًا عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه، حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم)-.

والذي يتأمل في مثل هذا الحديث يعلم السر في دعوة الرسول ﷺ المسلم إلى

=

التخفف من المال، فكلما كثر مال العبد كثر حسابه وطال، وكلما قل ماله خف حسابه وأسرع به إلى الجنة، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن فقراء المهاجرين يسبقون أغنياءهم إلى الجنة بأربعين سنة، ففي صحيح مسلم (٢٩٧٩) عن أبي عبد الرحمن الحبلي قال (جاء ثلاثة نفر إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، وأنا عنده، فقالوا: يا أبا محمد، إنا والله، ما نقدر على شيء، لا نفقة، ولا دابة، ولا متاع. فقال: ما شئتم إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يسر الله لكم. وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان. وإن شئتم صبرتم. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء، يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا).

٣- النعيم الذي يتمتع به: يسأل الله عباده في يوم القيامة عن النعيم الذي خولهم إياه في الدنيا، كما قال: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) [التكاثر: ٨]، يعني بالنعيم شبع البطون، وبارد الماء، وظلال المساكن، واعتدال الخلق، ولذة النوم، وقال سعيد بن جبير: حتى عن شربة عسل. وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا. وقال الحسن البصري: من النعيم الغذاء والعشاء. وقال أبو قلابة: من النعيم أكل السمن والعسل بالخبز النقي. وعن ابن عباس: النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار.

وهذا الذي فسروها به من باب التنوع في التفسير، فإن أصناف النعيم كثيرة لا تعد ولا تحصى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) [إبراهيم: ٣٤] ، وبعض أنواع النعيم من الضروريات وبعضها من الكماليات، والناس يتفاوتون في ذلك فيما بينهم، ويوجد في عصر مالا يجده أهل عصور أخرى، وفي بلد ما لا يجده أهل بلاد أخرى، وكل ذلك يسأل عنه العباد.

روى الترمذي بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نصح لك جسمك؟ ونروك من
=

=

الماء البارد)-، وبعض الناس لا يستشعر النعم العظيمة التي وهبه الله إياها، فلا يدرك النعمة التي في شربة الماء، ولقمة الطعام، وفيما وهبه الله من مسكن وزوجة وأولاد، ويظن أن النعم تتمثل في القصور والبساتين والمراكب فحسب، فقد سأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص فقال (ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم فأنت من الأغنياء قال فإن لي خادمًا قال: فأنت من الملوك)-.

وفي صحيح البخاري (٦٤١٢) عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)، ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون. وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: (لا بأس بالغنى لمن اتقى الله ﷻ، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم)-.

وفي بعض الأحاديث النبوية بيان من الرسول ﷺ عن صورة من صور السؤال عن النعيم الذي يواجه الله به عباده في ذلك اليوم، ففي صحيح مسلم (٢٩٦٨) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: " يلقى (الرب) العبد فيقول: أي فُل- أي يا فلان- ، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ قال: فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول: أي فُل، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. أي رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع. فيقول: ههنا اذن،

قال: ثم يقال له الآن نبعث عليك شاهدًا عليك، ويتفكر في نفسه، من ذا يشهد

=

=

علي؟ فيختم الله على فيه. ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق الذي يسخط الله عليه).

والسؤال عن النعيم سؤال عن شكر العبد لما أنعم الله به عليه، فإذا شكر فقد أدى حق النعمة، وإن أبى وكفر، أغضب عليه الله، ففي صحيح مسلم (٢٧٣٤) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: " إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة، فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها).

٤- العهود والمواثيق: يسأل الله عباده عما عاهدوه عليه (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولًا) [الأحزاب: ١٥]، وكل عهد مشروع بين العباد فإن الله سائل العبد عن الوفاء به (وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا) [الإسراء: ٣٤].

٥- السمع والبصر والفؤاد: يسأل الله العباد عن جميع ما يقولونه، ولذلك حذرهم من القول بلا علم (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا) [الإسراء: ٣٦]، قال قتادة: " لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله".

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٠٨): " ومضمون ما ذكروه في الآية أن الله نهى عن القول بغير علم، بل بالظن، الذي هو التوهم والخيال. كما قال تعالى: (اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) [الحجرات: ١٢]. وفي الحديث: " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث "، وفي سنن أبي داود بئس مطية الرجل: (زعموا) وفي الحديث الآخر: " إن أفرى الفرى أن يري الرجل عينيه ما لم تريا " وفي الصحيح: " من تحلم حلمًا كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل". القيامة الكبرى (ص٢١٦).

=

=

المسألة السابعة: أول من يحاسب.

يحاسب الله سبحانه وتعالى البشر في أسرع وقت كما ذكر سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، وقد اختلفت أقوال العلماء في ذكر أول من يحاسب في يوم القيامة من الجماعات أو الأفراد، هل هم الملائكة؟ أم هو اللوح المحفوظ؟ أم هم الأنبياء والرسل؟ أم أرباب الأموال والسعة؟ أم أنهم أول من تبارزوا في يوم بدر؛ علي بن أبي طالب، وحمزة، وعبيدة، وأقرانهم من المشركين؟ أم أن أول المحاسبين جاران من أمة محمد ﷺ؟ أم الزوج وزوجته؟.

كل ذلك قد قيل، ونوضح فيما يلي أدلة تلك الأقوال والجمع بينها:

* أما ما جاء من أنهم الملائكة: فهو ما روى ابن أنعم عن حبان بن أبي جيلة فيما يعزوه البرديسي قال: (أول من يدعى يوم القيامة إسرافيل، فيقول الله ﷻ ثناؤه: هل بلغت عهدي؟ فيقول: نعم يا رب، فيخلى عن إسرافيل، ويقول لجبريل: ما صنعت بعهدي؟ فيقول: بلغت الرسل، فتدعى الرسل فيقول: هل بلغكم جبريل عهدي؟ فيقولون: نعم فيخلى جبريل. ويقال للرسل: هل بلغتم عهدي؟ فيقولون: نعم قد بلغناه الأمم، فتدعى الأمم فيقال: هل بلغكم الرسل عهدي؟ فمكذب، ومصدق، فتقول الرسل: لنا عليكم شهداء، فيقول الله تبارك وتعالى وهو أعلم: من؟ فيقولون: أمة محمد ﷺ، فيقال لهم: أتشهدون أن الرسل قد بلغت الأمم؟ فتقول الأمم: يا رب، كيف يشهد علينا من لم يدركنا؟ فيقول الله ﷻ: تشهدوا عليهم ولم تدركوهم؟ فيقولون: يا ربنا أرسلت إلينا رسولًا، وأنزلت علينا كتابًا، فقصصت علينا فيه أن قد بلغوا قولك) وهو حديث ضعيف لا يثبت.

* وأما ما جاء من أول المحاسبين اللوح المحفوظ: فهو ماجاء عن سنان أنه قال: (اللوح المحفوظ معلق بالعرش، فإذا أراد الله أن يوحي بشئ كتب في اللوح المحفوظ، فيجيء اللوح حتى يقرع جبهة إسرافيل، فينظر فيه، فإن كان لأهل

=

=

السماء دفعه إلى ميكائيل، وإن كان لأهل الأرض دفعه إلى جبريل، فأول ما يحاسب يوم القيامة اللوح المحفوظ، يدعى به ترعد فرائصه، فيقال: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: إسرافيل، فيجاء بإسرافيل ترعد فرائصه، فيقال: هل بلغك اللوح؟ فإذا قال: نعم؛ قال اللوح: الحمد لله الذى نجاني من سوء الحساب، ثم كذلك) وهو أيضا حديث ضعيف لا يثبت، وفى حديث وهب بن الورد (أن إسرافيل عليه السلام يقول: بلغت جبريل، فيدعى جبريل عليه السلام ترعد فرائصه، فيقال: ما صنعت فيما بلغك إسرافيل؟ فيقول: بلغت الرسل، فيؤتى بالرسل فيقال: ما صنعتم فيما أدى إليكم جبريل؟ فيقولون: بلغنا الناس، فهو قوله تعالى: فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إليهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِين [الأعراف: ٦]) وهو أيضا حديث ضعيف لا يثبت.

* وأما ما جاء من أن أول المحاسبين الأنبياء والرسل فقد قال البرديسي: (فيبدأ بالأنبياء عليهم الصلاة السلام، فيقول: ماذا أجبتم؟ قيل في تفسيرها: كانوا قد علموا ولكن ذهبت عقولهم، وغربت أفهامهم ونسوا من شدة الهول، وعظيم الخطب، وصعوبة الأمر، فقالوا: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب، ثم يقويهم الله عز وجل فيدعى بنوح عليه الصلاة والسلام)، ثم استدل بما أخرج البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يدعى بنوح عليه السلام يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليهم شهيدًا، وذلك في قوله: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [البقرة: ١٤٣]. والوسط: العدل، أى عدولًا خيارًا، وخير الأمور الوسط).

* وأما ما جاء من أنهم العلماء، أو المغازون، أو أرباب المال والسعة: فهو ما

=

=

ذكره السفاريني في لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٧٤) إلا أنه لم يسنده إلى أحد.
* أما ما جاء من أنهم الذين تبارزوا فى يوم بدر: فهو ما أخرج البخاري (٤٧٤٤) بسنده إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة).
وروى كذلك عن قيس بن عباد وعن أبي ذر عن علي بن أبي طالب أن الآية من قوله تعالى: (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) [الحج: ١٩]. أنها نزلت في شأن الذين تبارزوا يوم بدر، وهم حمزة، وعلي، وعبيدة- أبو عبيدة- ابن الحارث، وشيبة بن ربيعة، وعتبة، والوليد بن عتبة)-.
* وأما ما جاء من أنهم جاران: فهو ما روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أول خصمين يوم القيامة جاران)-.
ويجمع بين تلك الأقوال: بأن ما صح من تلك الأقوال والروايات فإنه يحمل على أولية مقيدة فى بابها، وأما بالنسبة للأمم، فقد جاء في السنة أن أول الأمم يقضي الله بينهم هم أمة محمد ﷺ، وهذه مزية ومفخرة لهم؛ ليكونوا شهداء على الناس، ومما ورد في هذا ما أخرجه ابن ماجه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: (نحن آخر الأمم، وأول من يحاسب، يقال: أين الأمة الأمية ونبيها؟ فنحن الآخرون الأولون)-.
وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يجئ النبي ومعه الرجلان ويجئ النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقل، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، فيقال: من شهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتدعى أمة محمد، فيقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم، فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون أخبرنا نبينا بذلك؛ أن الرسل قد بلغوا فصدقناه قال فذلكم قوله تعالى: وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا

=

=

شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [البقرة: ١٤٣])-.

وورد عن رفاعة الجهني قال: (صدرنا مع رسول الله ﷺ فقال: والذي نفس محمد بيده ما من عبد يؤمن ثم يسدد إلا سلك به في الجنة، وأرجو ألا يدخلوها حتى تبوؤا أنتم ومن صلح من ذراريكم مساكن في الجنة، ولقد وعدني ربي ﷻ أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا بغير حساب)-.

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنكم وفيتم سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله)-.

فثبت بهذه النصوص أن أمة محمد ﷺ هم أول الأمم تحاسب، وأول الأمم تدخل الجنة.

قال ابن كثير في النهاية (٢/ ٢٣٧): أول ما يقضي فيه يوم القيامة الدماء، قال في حديث الصور-: ثم يقضي الله بين العباد، فيكون أول ما يقضي فيه الدماء، وهذا هو الواقع يوم القيامة، وهو أنه بعد أن يفرغ الله من الفصل بين البهائم-، يشرع في القضاء بين العباد كما قال الله تعالى : (وَلِكُل أُمَّةٍ رَسُول فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) يونس : ٤٧ . ويكون أول الأمم.

أمة محمد (ﷺ) أول الأمم حسابًا يوم القيامة

ثم يقضي بين هذه الأمة ، لشرف نبيها ، كما أنهم أول من يجوز على الصراط ، وأول من يدخل الجنة ، كما ثبت في الصحيحين من حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (ﷺ) : (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة) وفي رواية : (المقضي لهم قبل الخلائق).

وقال ابن ماجه : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا عمار بن سلمة ، عن سعيد بن أياس الحريري ، عن أبي نصرة ، عن ابن عباس أن النبي (ﷺ) قال : (نحن آخر الأمم ، وأول من يحاسب ، يقال أين الأمة الأمية ونبيها ؟ فنحن

=

=

الآخرون الأولون) والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر أول ما يقضي بين الناس فيه يوم القيامة ، ومن يناقش الحساب ، ومن يسامح فيه

قد تقدم في الحديث : (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء).

وفي رواية يحيى بن عقيل ، عن أبي هريرة : (حتى للذرة من الذرة) والمراد بالذرة هاهنا النملة ، والله أعلم.

وإذا كان هذا حكم الحيوانات التي ليست مكلفة ، فتخليص الحقوق من الآدميين ، وإنصاف بعضهم من بعض ، أولى وأحرى.

وقد ثبت في الصحيحين، ومسند أحمد، وسنن الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، من حديث سليمان بن مهران، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: (أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة الدماء)، وقد تقدم في حديث الصور (أن المقتول يأتي يوم القيامة تشخب أوداجه دماء ، وفي بعض الأحاديث ورأسه في يده فيتعلق بالقاتل حتى ولو كان قتله في سبيل الله فيقول : يا رب سل هذا فيم قتلني ؟ فيقول الله تعالى : لم قتلت هذا ؟ فيقول : يا رب قتلته لتكون العزة لك ، فيقول الله : صدقت. ويقول المقتول ظلمًا : سل هذا فيم قتلني ؟ فيقول الله تعالى : لم قتلته. فيقول : لتكون العزة لي ، وفي رواية لفلان فيقول الله : تعست ، ثم يقتص منه لكل من قتله ظلمًا ، ثم يبقى في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء رحمه. الحياة الآخرة لغالب عواجي- بتصرف- (٢/ ٩٦٩).

(فرع): أول ما يحاسب عليه العبد من أعماله.

فأول ما يحاسب عليه العبد من حقوق الله تبارك وتعالى الصلاة، فإن صلحت

=

=

أفلح ونجح وإلا خاب وخسر، ففي الحديث عن أبي هريرة ﵁ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيئًا قال الرب تبارك وتعالى انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك)-.

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة، قال: يقول ربنا- ﷿- لملائكته: انظروا في صلاة عبدي، أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئًا، قال: انظروا، هل لعبدي من تطوع، فإن كان له تطوع، قال: أتموا لعبدي فريضته من تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال بعد ذلك)-.

المسألة الثامنة: أنواع الحساب وأمثلة لهذه الأنواع.

المطلب الأول: أنواع الحساب.

يتفاوت حساب العباد، فبعض العباد يكون حسابهم عسيرًا وهؤلاء هم الكفرة المجرمون الذين أشركوا بالله ما لمن ينزل به سلطانًا، وتمردوا على شرع الله، وكذبوا بالرسل، وبعض عصاة الموحدين قد يطول حسابهم ويعسر بسبب كثرة الذنوب وعظمها، وبعض العباد يدخلون الجنة بغير حساب، وهم الصفوة من هذه الأمة، والقمم الشامخة في الإيمان والتقى والصلاح.. وبعض العباد يحاسبون حسابًا يسيرًا، وهؤلاء لا يناقشون الحساب، أي لا يدقق، ولا يحقق معهم، وإنما تعرض عليهم ذنوبهم ثم يتجاوز لهم عنها.

وهذا معنى قوله تبارك وتعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ- فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا) [الانشقاق: ٧-٨] ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: " ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك، فقلت: يا رسول

=

=

الله، أليس قد قال الله تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ- فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا) [الانشقاق: ٧-٨] ، فقال رسول الله ﷺ: " إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا هلك).

قال النووي في شرحه للحديث (١٧/ ٢٠٨): " معنى نوقش الحساب: استقصي عليه. قال القاضي: وقوله: (عذب) له معنيان: أحدهما: أن نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ. والثاني: أنه مفض إلى العذاب بالنار ويؤيده قوله في الرواية الأخرى: (هلك) مكان (عذب) هذا كلام القاضي.

قال النووي: وهذا الثاني هو الصحيح، ومعناه أن التقصير غالب في العباد فمن استقصي عليه، ولم يسامح هلك، ودخل النار، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء " ا.هـ

ونقل الحافظ في الفتح (١١/ ٤٠٢) عن القرطبي في معنى قوله: " إنما ذلك العرض " قال: إن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منَّة الله عليه في سترها عليه في الدنيا، وفي عفوه عنها في الآخرة ا.هـ

والمراد بالعرض- كما هو ظاهر من هذه الأحاديث- عرض ذنوب المؤمنين عليهم، كي يدركوا مدى نعمة الله عليهم في غفرانها لهم

وقد سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٣٧): كيف نجمع بين قول النبي- ﷺ -: «من نوقش الحساب عذب». رواه البخاري من حديث عائشة، ومناقشة المؤمن في قوله- ﷺ -: «إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم،

=

=

فيعطى كتاب حسناته». الحديث رواه البخاري؟.

فأجاب: ليس في هذا إشكال؛ لأن المناقشة معناها: أن يحاسب، فيطالب بهذه النعم التي أعطاه الله إياها؛ لأن الحساب الذي فيه المناقشة معناه: أنك كما تأخذ تعطي، ولكن حساب الله لعبده المؤمن يوم القيامة ليس على هذا الوجه، بل إنه مجرد فضل من الله- تعالى- إذا قرره بذنوبه، وأقر واعترف قال: "سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم "، وكلمة نوقش تدل على هذا؛ لأن المناقشة الأخذ والرد في الشيء، والبحث على دقيقه وجليله، وهذا لا يكون بالنسبة لله- عز وجل- مع عبده المؤمن، بل إن الله- تعالى- يجعل الحساب للمؤمنين مبنيا على الفضل والإحسان، لا على المناقشة والأخذ بالعدل ا.هـ

المطلب الثاني: أمثلة هذه الأنواع.

ورد في السنة النبوية مشاهد للمناقشة والعرض والمعاتبة التي تكون من الله لعباده، وسنسوق لكل واحد من هذه الأنواع الثلاثة مشهدًا مما صح في السنة.

١- مناقشة المرائين: روى مسلم والترمذي والنسائي عن شفي بن ماتع الأصبحي رحمه الله أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: " من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه، حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا، قلت له: أسألك بحق وحق، لما حدثتني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ، عقلته وعلمته، ثم نشغ أبو هريرة نشغة، فمكثنا قليلًا، ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت، ما معنا أحدٌ غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم أفاق ومسح عن وجهه، وقال: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ، أنا وهو في هذا البيت، ما معنا أحدٌ غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارًا على وجهه، فأسندته طويلًا، ثم أفاق،

=

=

فقال: حدثني رسول الله ﷺ: أن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجلٌ كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى، يا رب، قال: فماذا عملت فما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان قارئ، وقد قيل ذلك، ويؤتى بصحاب المال فيقول الله: ألم أوسع عليك، حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى، يا رب، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم، وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جواد، فقيل ذلك.

ثم يؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله: في ماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء، فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي، فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة "، قال الوليد أبو عثمان المدائني: فأخبرني عقبة بن مسلم: أن شفيًا هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا، قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم: " أنه كان سيافًا لمعاوية، فدخل عليه رجل، فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: قد فعل بهؤلاء هكذا، فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديدًا، حتى ظننا أنه هالك، وقلنا: قد جاء هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية، ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله: (مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ- أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) [هود: ١٥-١٦]. أخرجه الترمذي. وفي رواية مسلم والنسائي عن سليمان بن يسار: قال: " تفرق الناس عن

=

=

أبي هريرة، فقال له ناتل أخو أهل الشام: أيها الشيخ حدثني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه: رجل استشهد، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، فقال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأوتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنه تعلمت العلم ليقال عالمٌ، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه بنعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار".

٢- عرض الرب ذنوب عبده عليه: ففي صحيح البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب. حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته. وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد: (هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) [هود: ١٨].

قال القرطبي في التذكرة (ص٢٦٣) قوله: " فيضع عليه كنفه " أي: ستره ولطفه وإكرامه، فيخاطب خطاب ملاطفة، ويناجيه مناجاة المصافاة والمحادثة، فيقول له: هل تعرف؟ فيقول: رب أعرف، فيقول الله ممتنًا عليه، ومظهرًا فضله لديه: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، أي لم أفضحك بها فيها، وأنا أغفرها لك اليوم.

=

=

٣- معاتبة الرب عبده فيما وقع منه من تقصير: وقد حدثنا الرسول ﷺ عن معاتبة الرب لعبده يوم القيامة، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني؟ قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمتك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم، استسقتيك فلم تسقني؟ قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه؟ أما علمت أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي؟".

وفي ختام مشهد الحساب يعطى كل عبد كتابه المشتمل على سجل كامل لأعماله التي عملها في الحياة الدنيا وتختلف الطريقة التي يؤتى بها العباد كتبهم، فأما المؤمن فإنه يؤتى كتابه بيمينه من أمامه، فيحاسب حسابًا يسيرًا، وينقلب إلى أهله في الجنة مسرورًا (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ- فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا- وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا) [الانشقاق: ٧-٩] ، وإذا اطلع المؤمن على ما تحويه صحيفته من التوحيد وصالح الأعمال سر واستبشر، وأعلن هذا السرور، ورفع به صوته، (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ- إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ- فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ- فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ- قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ- كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) [الحاقة: ١٩-٢٤].

وأما الكافار والمنافقين فإنهم يؤتون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم، وعند ذلك يدعو الكافر بالويل والثبور، وعظائم الأمور (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ- فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا- وَيَصْلَى سَعِيرًا) [الانشقاق: ١٠-١٢]. (وَأَمَّا مَنْ

=

=

أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ- وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ- يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ- مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ- هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ- خُذُوهُ فَغُلُّوهُ- ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ) [الحاقة: ٢٥-٣١].

وعندما يعطى العباد كتبهم يقال لهم: (هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) [الجاثية: ٢٩].

وقد سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٤٢): كيف نجمع بين قول الله- تعالى-: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ} ، وقوله: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ} ؟.

فأجاب: الجمع بينهما أن يقال: يأخذه بشماله، لكن تخلع الشمال إلى الخلف من وراء ظهره، والجزاء من جنس العمل، فكما أن هذا الرجل جعل كتاب الله وراء ظهره، أعطي كتابه يوم القيامة من وراء ظهره جزاء وفاقا ا.هـ القيامة الكبرى (ص٢٢٤).

المسألة التاسعة: اقتصاص المظالم بين الخلق.

يقتص الحكم العدل في يوم القيامة للمظلوم من ظالمه، حتى لا يبقى لأحد عند أحد مظلمة، حتى الحيوان يقتص لبعضه من بعض، فإذا انطحت شاتان إحداهما جلحاء لا قرون لها، والأخرى ذات قرون، فإنه يقتص لتلك من هذه، ففي صحيح مسلم (٢٥٨٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: " لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء".

والذي يعتدي على غيره بالضرب، يقتص منه بالضرب في يوم القيامة، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري في الأدب المفرد والبيهقي في السنن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من ضرب بسوط ظلمًا، اقتص منه يوم القيامة)-.

=

=

وفي معجم الطبراني الكبير عن عمار، قال: قال رسول الله ﷺ: (من ضرب مملوكه ظالمًا، أقيد منه يوم القيامة)-.

والذي يقذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد في يوم القيامة، إن كان كذابًا فيما رماه به، ففي صحيح مسلم (١٦٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: (من قذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد يوم القيامة، إلا أن يكون كما قال).

المطلب الأول: كيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة.

إذا كان يوم القيامة كانت ثروة الإنسان ورأس ماله حسناته، فإذا كانت عليه مظالم للعباد فإنهم يأخذون من حسناته بقدر ما ظلمهم، فإن لم يكن له حسنات أو فنيت حسناته، فإنه يؤخذ من سيئاتهم فيطرح فوق ظهره، ففي صحيح البخاري (٢٣١٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلل منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه).

وهذا الذي يأخذ الناس حسناته، ثم يقذفون فوق ظهره بسيئاتهم هو المفلس، كما سماه الرسول ﷺ، ففي صحيح مسلم (٢٥٨١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أتدرون من المفلس؟ " قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: " إن المفلس من أمتي، من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته، قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار).

والمدين الذي مات، وللناس في ذمته أموال يأخذ أصحاب الأموال من حسناته بمقدار ما لهم عنده، ففي سنن ابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله

=

=

ﷺ: (من مات وعليه دينار أو درهم، قضى من حسناته، ليس ثم دينار ولا درهم)-.

وفي صحيح البخاري (٢٤٤٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه).

وإذا كانت بين العباد مظالم متبادلة اقتص لبعضهم من بعض، فإن تساوى ظلم كل واحد منهما للآخر كان كفافًا لا له ولا عليه، وإن بقي لبعضهم حقوق عند الآخرين أخذها.

ففي سنن الترمذي عن عائشة، قالت: (جاء رجل فقعد بين يدي الرسول ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني، ويخونني، ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ فقال رسول الله ﷺ: " إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا لا لك، ولا عليك. وإن كان عقابك إياهم دون ذنبهم كان فضلًا لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتص لهم منك الفضل " فتنحى الرجل، وجعل يهتف ويبكي، فقال له رسول الله ﷺ: " أما تقرأ قوله تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) [الأنبياء: ٤٧])-.

ولما كان هذا شأن الظلم فحري بالعباد الذين يخافون ذلك اليوم أن يتركوه ويجتنبوه وقد أخبر الرسول ﷺ أن الظلم يكون ظلمات في يوم القيامة، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (الظلم ظلمات يوم القيامة).

=

=

وفي صحيح مسلم (٢٥٧٨) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ: (اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة).

المطلب الثاني: عظم شأن الدماء.

من أعظم الأمور عند الله أن يسفك العباد بعضهم دم بعض في غير الطريق الذي شرعه الله تبارك وتعالى، ففي الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (يجيء الرجل آخذًا بيد الرجل، فيقول: يا رب، هذا قتلني: فيقول: لم قتلته؟ فيقول: قتلته لتكون العزة لك، فيقول: فإنها لي، ويجيء الرجل آخذًا بيد الرجل، فيقول: أي رب، إن هذا قتلني، فيقول الله: لم قتلته؟ فيقول: لتكون العزة لفلان، فيقول: إنها ليست لفلان، فيبوء بإثمه)-.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة، ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخب دمًا، فيقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني؟ حتى يدنيه من العرش)-.

ولعظم أمر الدماء فإنها تكون أول شيء يقضى فيه بين العباد.

فقد روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: " أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء).

قال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٩٧): " وفي الحديث عظم أمر الدم، فإن البداءة إنما تكون بالأهم، والذنب يعظم بحسب عظم المفسدة وتفويت المصلحة، وإعلام البنية الإنسانية غاية في ذلك " ا.هـ

ولا تعارض بين هذا الحديث وحديث أن أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة، قال ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٩٦): " ولا يعارض هذا حديث أبي هريرة رفعه: " إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته " الحديث أخرجه أصحاب السنن، لأن الأول محمول على ما يتعلق بمعاملات الخلق.

=

والثاني: فيما يتعلق بعبادة الخالق. وقد جمع النسائي في روايته في حديث ابن مسعود بين الخبرين، ولفظه: " أول ما يحاسب العبد عليه صلاته، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء " ا.هـ

المطلب الثالث: الاقتصاص للبهائم بعضها من بعض.

" يقضي الله بين خلقه: الجن والإنس والبهائم، وإنه ليقيد يومئذ الجماء من القرناء، حتى إذا لم يبق تبعة عند واحدة لأخرى قال الله: كونوا ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر: (يا ليتني كنت ترابًا) [النبأ: ٤٠].

هذا حديث أخرجه ابن جرير في تفسيره بإسناده إلى أبي هريرة يرفعه، وفي رواية أخرى أخرجها ابن جرير أيضًا عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: " إن الله يحشر الخلق كلهم، كل دابة وطائر وإنسان، يقول للبهائم والطير: كونوا ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر: (يا ليتني كنت ترابًا) [النبأ: ٤٠]".

وعن ابن جرير أيضًا عن عبد الله بن عمرو قال: (إذا كان يوم القيامة مد الأديم، وحشر الدواب والبهائم والوحش، ثم يحصل القصاص بين الدواب، يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء نطحتها، فإذا فرغ من القصاص بين الدواب، قال لها: كوني ترابًا، قال فعند ذلك يقول الكافر: (يا ليتني كنت ترابًا) [النبأ: ٤٠])-.

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء).

وأخرج أحمد في مسنده بإسناد رجاله رجال الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " يقتص الخلق بعضهم من بعض حتى الجماء من القرناء، وحتى الذَّرة من الذَّرة". وفي المسند أيضًا عن أبي هريرة يرفعه: " ألا والذي نفسي بيده ليختصمن كل شيء يوم القيامة، حتى الشاتان فيما انتطحتا". وروى أحمد بإسناد صحيح عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنطحان، فقال: أبا ذر، هل تدري

=

فيم تنطحان؟ قال: لا. قال: ولكن الله يدري، وسيقضي بينهما) وهذه الأحاديث مخرجه في الحاشية.

(تنبيه): كيف يقتص من البهائم وهي غير مكلفة؟ لقد أشكل على كثير من أهل العلم هذا الذي ذكره الرسول ﷺ من حشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض.

قال العلامة الألباني في الصحيحة (١٩٦٧): (فائدة) قال النووي في " شرح مسلم " تحت حديث الترجمة : " هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة و إعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من الآدميين و كما يعاد الأطفال و المجانين ، و من لم تبلغه دعوة. و على هذا تظاهرت دلائل القرآن و السنة ، قال الله تعالى : (و إذا الوحوش حشرت) و إذا ورد لفظ الشرع و لم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل و لا شرع ، وجب حمله على ظاهره، قال العلماء: و ليس من شرط الحشر و الإعادة في القيامة المجازاة و العقاب والثواب. وأما القصاص من القرناء للجلحاء فليس هو من قصاص التكليف، إذ لا تكليف عليها بل هو قصاص مقابلة ، و (الجلحاء) بالمد هي الجماء التي لا قرن لها. والله أعلم " وذكر نحوه ابن الملك في مبارق الأزهار (٢ / ٢٩٣) مختصرا. ونقل عنه العلامة الشيخ علي القاريء في المرقاة (٤ / ٧٦١) أنه قال: " فإن قيل : الشاة غير مكلفة ، فكيف يقتص منها ؟ قلنا: إن الله تعالى فعال لما يريد و لا يسأل عما يفعل و الغرض منه إعلام العباد أن الحقوق لا تضيع بل يقتص حق المظلوم من الظالم". قال القاريء : " و هو وجه حسن ، و توجيه مستحسن، إلا أن التعبير عن الحكمة بـ- (الغرض) وقع في غير موضعه. وجملة الأمر أن القضية دالة بطريق المبالغة على كمال العدالة بين كافة المكلفين، فإنه إذا كان هذا حال الحيوانات الخارجة عن التكليف ، فكيف بذوي العقول من الوضيع و الشريف ، والقوي والضعيف ؟ " قلت: ومن

=

=

المؤسف أن ترد كل هذه الأحاديث من بعض علماء الكلام بمجرد الرأي ، و أعجب منه أن يجنح إليه العلامة الألوسي ! فقال بعد أن ساق الحديث عن أبي هريرة من رواية مسلم و من رواية أحمد بلفظ الترجمة عند تفسيره آية (و إذا الوحوش حشرت) في تفسيره روح المعاني (٩/ ٣٠٦): " ومال حجة الإسلام الغزالي و جماعة إلى أنه لا يحشر غير الثقلين لعدم كونه مكلفا و لا أهلا لكرامة بوجه ، و ليس في هذا الباب نص من كتاب أو سنة معول عليها يدل على حشر غيرهما من الوحوش ، و خبر مسلم و الترمذي و إن كان صحيحا لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية و يجوز أن يكون كناية عن العدل التام. و إلى هذا القول أميل و لا أجزم بخطأ القائلين بالأول لأن لهم ما يصلح مستندا في الجملة. و الله تعالى أعلم". قلت : كذا قال- عفا الله عنا و عنه- وهو منه غريب جدا لأنه على خلاف ما نعرفه عنه في كتابه المذكور ، من سلوك الجادة في تفسير آيات الكتاب على نهج السلف ، دون تأويل أو تعطيل ، فما الذي حمله هنا على أن يفسر الحديث على خلاف ما يدل عليه ظاهره ، و أن يحمله على كناية عن العدل التام ، أليس هذا تكذيبا للحديث المصرح بأنه يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء ، فيقول هو تبعا لعلماء الكلام : إنه كناية !... أي لا يقاد للشاة الجماء. و هذا كله يقال لو وقفنا بالنظر عند رواية مسلم المذكورة ، أما إذا انتقلنا به إلى الروايات الأخرى كحديث الترجمة و حديث أبي ذر و غيره ، فإنها قاطعة في أن القصاص المذكور هو حقيقة و ليس كناية ، ورحم الله الإمام النووي ، فقد أشار بقوله السابق : " و إذا ورد لفظ الشرع و لم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل و لا شرع وجب حمله على ظاهره " قلت : أشار بهذا إلى رد التأويل المذكور وبمثل هذا التأويل أنكر الفلاسفة وكثير من علماء الكلام كالمعتزلة و غيرهم رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة وعلوه على عرشه و نزوله إلى السماء الدنيا كل ليلة و مجيئه تعالى يوم القيامة. و غير ذلك من

=

=

آيـات الـصفات و أحاديثهـا. و بالجملـة ، فـالقول بحـشر البهـائم و الاقتـصاص لبعـضها مـن بعـض هـو الـصواب الـذي لا يجـوز غيـره ، فـلا جـرم أن ذهـب إليـه الجمهور كما ذكر الألوسي نفسه في مكان آخر من " تفسيره " (٩ / ٢٨١) ، و بـه جزم الشوكاني في تفسير آية " التكوير من تفسيره فتح القدير، فقال (٥/ ٣٧٧): " الوحوش ما توحش من دواب البر، و معنى (حشرت) بعثت، حتى يقتص بعضها من بعض ، فيقتص للجماء من القرناء". و قد اغتر بكلمة الألوسي المتقدمة النافية لحشر الوحوش محرر " باب الفتاوي " في مجلة الوعي الإسلامي السنة الثانيـة ، العـدد ٨٩ ص ١٠٧ ، فنقلها عنـه ، مرتـضيا لها معتمـدا عليها ، و ذلـك مـن شـؤم التقليد و قلة التحقيق. و الله المستعان و هو ولي التوفيق.

المطلب الرابع: متى يقتص للمؤمنين بعضهم من بعض؟

في صـحيح البخـاري (٢٤٤٠) عـن أبـي سـعيد الخـدري رضي الله عنه عـن رسـول الله ﷺ قال: (إذا خلص المؤمنون من النار، حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نقوا وهذِّبوا، أذن لهـم بـدخول الجنة، فـو الذي نفس محمد بيده، لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا)، قـال الحافظ في الفتح (٥ / ٩٦): قوله (بقنطرة) الذي يظهر أنها طرف الصراط مما يلي الجنة ، ويحتمل أن تكون من غيره بين الصراط والجنة.

وقوله (فيتقاصون) بتشديد المهملة : يتفاعلون ، من القصاص ، والمراد به : تتبع ما بينهم من المظالم ، وإسقاط بعضها ببعض.

وقوله (حتى إذا نقوا) بضم النون ، بعدها قاف ، من التنقية ، ووقع للمستملي هنا " تقصوا بفتح المثناة والقاف وتشديد المهملة ، أي : أكملوا التقاص.

قوله (وهذبوا) أي : خلصوا من الآثام بمقاصصة بعضها ببعض ا.هـ

وقـال علمـاء اللجنـة الدائمـة (٣/ ٤٦٣): إذا عـبر المؤمنـون عامـة علـى الـصراط

=

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨).

{وَأَنْذِرْهُمْ يَوْم الْآزِفَة} يَوْم الْقِيَامَة مِنْ أَزِفَ الرَّحِيل قَرُبَ {إِذِ الْقُلُوب} تَرْتَفِع خَوْفًا {لَدَى} عِنْد {الْحَنَاجِر كَاظِمِينَ} مُمْتَلِئِينَ غَمًّا حَال مِنْ الْقُلُوب عُومِلَتْ بِالْجَمْعِ بِالْيَاءِ وَالنُّون مُعَامَلَة أَصْحَابهَا {مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيم} مُحِبّ {وَلَا شَفِيع يُطَاع} لَا مَفْهُوم لِلْوَصْفِ إِذْ لَا شَفِيع لهم أصلا فما لنا من شافعين أو له مَفْهُوم بِنَاء عَلَى زَعْمهمْ أَنَّ لَهُمْ شُفَعَاء أَيْ لَوْ شَفَعُوا فَرْضًا لَمْ يَقْبَلُوا[1].

=

أوقف منهم من كان عليه مظالم للمؤمنين بمكان بين الجنة والنار ومنعوا من دخول الجنة حتى يقضى للمظلوم ممن ظلمه فيؤخذ من حسنات الظالم ويعطى المظلوم، حتى إذا نقوا وطهروا أذن لهم بدخول الجنة، أما من لا مظلمة عليه لأحد فإن ظاهر هذا الحديث وغيره من الأحاديث الدالة على أن بعض المؤمنين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب فإنه لا يوقف.

وأما قوله تعالى: {وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا} فخبر منه تعالى عن الناس مسلمهم وكافرهم بأنه لا أحد منهم إلا سيرد جهنم، وذلك مرور كل منهم على الصراط المضروب على متن جهنم كالقنطرة مرورا متفاوتا في السرعة والبطء والنجاة من النار والسقوط فيها، فينجي الله المؤمنين من النار، ويدع فيها الكافرين، كما قال تعالى عقب هذه الآية {ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا} وقد أوجب سبحانه على نفسه هذا الجزاء وقضى به عليها قضاء مبرما، لا راد لقضائه تعالى ولا تبديل لحكمه(-).

(١) قوله تعالى: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ} [غافر: ١٨].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه: وأنذر يا محمد مشركي قومك يوم الآزفة،

=

=

يعني يوم القيامة، أن يوافوا الله فيه بأعمالهم الخبيثة، فيستحقوا من الله عقابه الأليم".

عن مجاهد وقتادة، والسدي، وابن زيد، في قول الله: {يوم الآزفة}، قالوا: "يوم القيامة".

قال الكسائي: يقال: أزف الشئ يأزف، أي: دنا واقترب".

قال الزجاج:"وإنما قيل لها: آزفة، لأنها قريبة وإن استبعد الناس مداها. يقال: قد أزف الأمر، إذا قرب".

قال السمعاني:"وسميت آزفة لقربها، كأنها قريبة عند الله تعالى، وإن كان الناس يستبعدونها. وقيل: هي قريبة لأنها كائنة لا محالة، وكل كائن قريب".

قال ابن كثير:"يوم الآزفة هو: اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: {أَزِفَتِ الآزِفَةُ. لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ} [النجم: ٥٧، ٥٨] وقال {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} [القمر: ١]، وقال {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ} [الانبياء: ١] وقال {أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل: ١] وقال {فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ} [الملك: ٢٧]".

قوله تعالى: {إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ} [غافر: ١٨]، أي:"إذ قلوب العباد مِن مخافة عقاب الله قد ارتفعت من صدورهم، فتعلقت بحلوقهم".

قال الطبري: يقول:"إذ قلوب العباد من مخافة عقاب الله لدى حناجرهم قد شخصت من صدورهم، فتعلقت بحلوقهم كاظميها، يرومون ردها إلى مواضعها من صدورهم فلا ترجع، ولا هي تخرج من أبدانهم فيموتوا".

قال الزجاج:"جاء في التفسير: أن القلب من الفزع يرتفع فيلتصق بالحنجرة فلا يرجع إلى مكانه ولا يخرج فيستراح من كرب غمه".

قال قتادة:"قد وقعت القلوب في الحناجر من المخافة، فلا هي تخرج ولا تعود

=

=

إلى أمكنتها".

قال السدي:"شخصت أفئدتهم عن أمكنتها، فنشبت في حلوقهم، فلم تخرج من أجوافهم فيموتوا، ولم ترجع إلى أمكنتها فتستقر".

عن عكرمة أنه قال: "تضيق للناس أرض القيامة، حتى لا يكون لأحد إلا موضع قدمه، ثم يضيق لهم أيضا حتى يوضع القدم على القدم، ثم يبكون حتى تنفد دموعهم، ثم يبكون الدم حتى ينفد، ثم تشخص قلوبهم إلى حناجرهم، ثم قرأ قوله تعالى: وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ} [غافر: ١٨]".

قوله تعالى: {كَاظِمِينَ} [غافر: ١٨]، أي:"وهم ممتلئون غمًّا وحزنًا".

قال ابن كثير:"أي: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه، {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} [النبأ: ٣٨]".

وقال ابن جُرَيْج: " {كَاظِمِينَ}، أي: باكين".

قال السمعاني:"الكاظم: هو الممسك على قلبه بما فيه. وقيل: مغمومين مكروبين. ويقال: باكين. ومن هذا كظم الغيظ إذا أمسكه وصبر عليه".

قوله تعالى: {مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ} [غافر: ١٨]، أي:"ما للظالمين من قريب ولا صاحب".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: ما للكافرين بالله يومئذ من حميم يحم لهم، فيدفع عنهم عظيم ما نزل بهم من عذاب الله، ولا شفيع يشفع لهم عند ربهم فيطاع فيما شفع، ويجاب فيما سأل".

قال ابن كثير:"أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم".

عن السدي: " {{مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ} قال: "من يعنيه أمرهم، ولا شفيع

=

=

لهم".

قال السمعاني:"الحميم: القريب".

قوله تعالى: {وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ} [غافر: ١٨]، أي:"ولا شفيع يشفع لهم عند ربهم، فيستجاب له".

قال الطبري:"ولا شفيع يشفع لهم عند ربهم فيطاع فيما شفع، ويجاب فيما سأل".

قال الزجاج:"أي: ولا من شفيع مطاع".

قال السدي: "ولا شفيع لهم".

قال ابن كثير:"ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير".

قال مقاتل: "استكثروا من صداقة المؤمنين فإن المؤمنين يشفعون يوم القيامة".

قال الحسن: "استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة يوم القيامة".

قال السعدي:"وصفها بهذه الأوصاف المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتمالها على الترغيب والترهيب".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وأنذرهم يوم الآزفة} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يوم القيامة من أزف الرحيل: قرب].

{وأنذرهم} الضمير الفاعل يعود على الرسول والمفعول به الناس، يعني: أنذر الناس هذا اليوم، وهذا العامل استوفى مفعولين الهاء وهي المفعول الأول، و {يوم الآزفة} المفعول الثاني.

وقوله: {يوم الآزفة}؛ أي: اليوم الآزف، فهو من باب إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: أنذرهم اليوم القريب، وإن شئت فقل: {الآزفة} صفة لموصوف محذوف، والتقدير: يوم القيامة الآزفة، والآزفة بمعنى: القريبة، قال الله تعالى: {أزفت الآزفة (٥٧) ليس لها من دون الله كاشفة} [النجم: ٥٧ - ٥٨]، وقال الشاعر:

=

=

أزف الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قد

أي: وكأن قد زالت.

فالحاصل: أن الأزف بمعنى القرب، فالآزفة القريبة، وهو يوم القيامة، قال الله تبارك وتعالى: {وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا} [الأحزاب: ٦٣]، {وما يدريك لعل الساعة قريب} [الشورى: ١٧].

فهي قريبة مهما طال الوقت، لو تبقى الدنيا ملايين الملايين من السنين فهي قريبة، وإذا شئت أن يتبين لك ذلك فانظر ما تستقبله الآن، إذا أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى المستقبل، المستقبل تنظر إليه نظر البعيد فإذا به يأتي وبسرعة، كأنه برق خاطف، هكذا مستقبل الدنيا كلها قريب، فإن أدركته أدركته، وإن لم تدركه قامت قيامتك قبلها، فقيامتك قريبة، وإن بقيت إلى القيامة الكبرى فهي أيضا قريبة، إذن كل آت قريب، وكل ماض بعيد، الماضي ولو كان قبل وقتك بساعة بعيد؛ لأنه لا يمكن أن يرجع، والمستقبل قريب.

إذن: سميت القيامة آزفة لقربها، ووجه قربها- وإن كان بيننا وبينها ما لا يعلمه إلا الله من السنين- أن المستقبل مهما بعد قريب.

فإن قال قائل: ما القول في اليوم الذي كألف سنة؟

فالجواب: قال الله تعالى: {وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون} [الحج: ٤٧]، وقال: {يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون} [السجدة: ٥]، لكن يوم القيامة لم يرد فيه إلا خمسون ألف سنة {في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} [المعارج: ٤]، وفي الحديث الصحيح في قصة مانع الزكاة: {في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة} [المعارج: ٤]، وعلى هذا فاليوم الذي عند ربنا كألف سنة لا ندري ما هذا اليوم، فهو يوم مجهول لنا.

=

=

أما {يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة} [السجدة: ٥]، فهذا لأن ما بين السماء والأرض خمس مئة سنة، فإذا كان ما بينهما خمس مئة سنة؛ فإن صعود الأمر إلى الله ثم رجوعه، يكون ألف سنة؛ فالأيام ثلاثة: يوم مقداره خمسون ألف سنة وهذا يوم القيامة، ويوم عند الله لا نعلم ما هو، مقداره ألف سنة، ويوم مقداره ألف سنة في تدبير الأمر من السماء إلى الأرض، ثم عروجه إلى الله ﷻ.

مسألة: ورد عن النبي ﷺ أن الله يحاسب الخلائق في ساعة واحدة، فهل الساعة تدخل في نصف يوم؟

فالجواب: الساعة تطلق على الزمن القليل والكثير، إلا إذا فصلت، مثل: "من جاء في الساعة الأولى في يوم الجمعة.. ومن جاء في الثانية.. ومن جاء في الثالثة..".

وقوله: {إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع} [غافر: ١٨].

وقوله: {إذ القلوب} (إذ): بدل من {يوم الآزفة} [غافر: ١٨] يعني: أنذرهم يوم الآزفة، أنذرهم إذ القلوب لدى الحناجر.

و(إذ): ظرف لما مضى من الزمان، وتأتي ظرفا وتأتى تعليلا على حسب ما جاءت معانيها في اللغة العربية.

وقوله: {القلوب} (أل): هنا للاستغراق؛ أي: كل القلوب، وقوله: {لدى} يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: بمعنى: عند.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إذ القلوب} ترتفع خوفا {لدى} عند {الحناجر كاظمين}]، قال الله تبارك وتعالى: {وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر} [الأحزاب: ١٠]، وهذا شيء معلوم محسوس؛ أن الإنسان كلما اشتد به الخوف ارتفع قلبه وانكمش وازداد خفقانا، فيوم القيامة ترتفع القلوب حتى تصل إلى الحناجر،

=

=

والحنجرة ما بين الترقوتين.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{كاظمين} ممتلئين غما، حال من {القلوب} عوملت بالجمع بالياء والنون معاملة أصحابها]، لم يقل: إذ القلوب لدى الحناجر كاظمة، لأنه لو جرى الوصف للقلوب؛ لقال: إذ القلوب لدى الحناجر كاظمة، وقال تعالى: {قلوب يومئذ واجفة} [النازعات: ٨] ولا يجمع جمع المذكر السالم بالواو والنون إلا للعاقل.

وقوله: {إذ القلوب لدى الحناجر} القلوب جماد، هي نفسها جماد، والجماد لا يجمع بالواو والنون؛ لأنه لا يجمع بالواو والنون إلا العاقل، علما كان أو وصفا، وقد مر عليكم في شروط جمع المذكر السالم أن يكون علما أو وصفا لعاقل، فهنا القلوب ليست عاقلة، القلوب جزء من البدن ليست عاقلة، فكيف توجيه الحال التي جاءت منها بجمع على صيغة جمع المذكر السالم؟ !

يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لأن المراد بها أصحاب القلوب، القلوب لدى الحناجر والكاظم صاحبها، وهذا حق أن {كاظمين} حال من القلوب باعتبار أصحابها، والكاظم يقول: الممتلئ غما، ويمتلئون غما لشدة الأهوال، والمخافة قلوب مرتفعة أنفس ممتلئة غما.

قوله: {ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع} [غافر: ١٨] الظالمون هم الكافرون هنا؛ لقول الله تعالى: {والكافرون هم الظالمون} [البقرة: ٢٥٤] وليس المراد مطلق الظلم، بل المراد الظلم المطلق، وهو ظلم الكفر، فالظالمون في ذلك اليوم ليس لهم حميم، والحميم هو: المحب، كما قال المفسر، وقيل: القريب، كما قال تعالى: {فما لنا من شافعين (١٠٠) ولا صديق حميم} [الشعراء: ١٠٠-١٠١]}؛ أي: قريب، ولا نقول: ولا صديق محب؛ لأنه ما من صديق إلا وهو محب، ولولا المحبة ما صادقه.

=

=

وعلى هذا فنقول: إن الأولى أن تفسر الحميم بالقريب، والغالب أن الذي يحامي عنك ويدافع عنك ويشفع لك هو القريب، هذا الغالب.

وقوله: {ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع} {شفيع} بمعنى: شافع، فهي فعيل بمعنى فاعل، كسميع بمعنى: سامع، والشافع: من شفعك؛ أي: صار معك حتى تكون بعد الفرد شفعا؛ ولهذا يقال: الشافع هو من توسط لك بجلب منفعة، أو دفع مضرة، هذا هو الشافع، التوسط للغير بجلب الخير، أو دفع الضير، يعني: الشفاعة هي التوسط للغير بجلب الخير أو دفع الضير، هذا إذا أردت أن تأتي بها على سبيل السجع؛ من أجل أن تكون أريح، ففي يوم القيامة ليس لهم شفيع، فلا يشفع لهم أحد؛ لأن من شرط الشفاعة أن يكون الله راضيا عن الشافع وعن المشفوع له.

ولجأنا إلى هذا التأويل لوجود الآية الثابتة للشفاعة، وهي قوله تعالى: {فما لنا من شافعين} [الشعراء: ١٠٠]، وانتفاء الشفاعة وهي قوله تعالى: {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} [الأنبياء: ٢٨] وهؤلاء لا يرتضيهم الله.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{ولا شفيع يطاع} لا مفهوم للوصف، إذ لا شفيع لهم أصلا؛ لقوله تعالى: {فما لنا من شافعين} أو له مفهوم بناء على زعمهم أن لهم شفعاء، أي: لو شفعوا فرضا لم يقبلوا].

كلمة {يطاع} جملة فعلية في محل جر صفة لـ {شفيع} ولو حولناها إلى اسم فاعل لكان التقدير: ولا شفيع مطاع، فهل هذه الصفة قيد، بمعنى: أن لهم شفيعا لا يطاع، أو هي بيان للواقع والمراد نفي الشفيع؟ ذكر المفسر احتمالين:

الأول: أن يكون المراد ليس لهم شفيع مطلقا، واستدل لذلك بقوله تعالى عنهم: {فما لنا من شافعين (١٠٠) ولا صديق حميم} [الشعراء: ١٠٠- ١٠١].

أو أن المعنى: لو قدر أن لهم شفعاء، فإن هؤلاء الشفعاء لا يطاعون، وهذا بناء

=

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩).

{يَعْلَم} أَيْ الله {خَائِنَة الْأَعْيُن} بِمُسَارَقَتِهَا النَّظَر إلَى مُحَرَّم {وَمَا تُخْفِي الصُّدُور} الْقُلُوب[1].

=

على قولهم: إن الذي يعبدون من دون الله يكونون شفعاء لهم، والآية تحتمل ما قال المفسر، أما إذا قلنا بالوجه الأول، وهو نفي الشفاعة مطلقا فالأمر ظاهر لا إشكال فيه.

أما الثاني: أن يقام لهم شفعاء، ولكن ترد شفاعتهم، فهذا من أجل التخجيل لهم، أن يخجلوا حيث تقام الشفعاء الذين يدعون أنهم شفعاء لهم، ثم ترد الشفاعة، هذا أبلغ في خجلهم، وفي ردهم، وعدم انتفاعهم بآلهتهم، والله أعلم.

فإن قال قائل: إذا قلنا بالوجه الثاني {ولا شفيع يطاع} ثم يقام ثم يرد، ما حال الشفيع الذي يقام ثم يرد، هل هو من تقبل شفاعته، هل أنه مثلهم أصلا؟

فالجواب: لا، بل تمثل لهم أصنامهم، حتى الذين يعبدون عيسى، يمثل لهم عيسى عليه الصلاة والسلام.

(١) قوله تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ} [غافر: ١٩].

قال الطبري:"يقول جل ذكره مخبرا عن صفة نفسه: يعلم ربكم ما خانت أعين عباده".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها؛ ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حَقّ الحياء، ويَتَّقُوهُ حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة".

قال الزجاج:"إذا نظر الناظر نظرة خيانة علمها الله، فإذا نظر أول نظرة غير متعمد خيانة فذلك غير إثم، فإن عاد ونيته الخيانة في النظر علم الله ذلك، والله- عز وجل-

=

=

عالم الغيب والشهادة، ولكنه ذكر العلم ههنا ليعلم أن المجازاة لا محالة واقعة".

عن مجاهد: " {يعلم خائنة الأعين} ، قال: نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه".

عن ابن عباس،:"{يعلم خائنة الأعين} ، إذا نظرت إليها تريد الخيانة أم لا".

قال قتادة:"أي: يعلم همزه بعينه، وإغماضه فيما لا يحب الله ولا يرضاه".

وقال سفيان: "هي النظرة بعد النظرة".

وقال الضحاك: " {خَائِنَةَ الأَعْيُنِ} هو الغمز، وقول الرجل: رأيت، ولم ير؛ أو: لم أر، وقد رأى".

وقال الزمخشري:"الخائنة: صفة للنظرة. أو مصدر بمعنى: الخيانة، كالعافية بمعنى المعافاة، والمراد: استراق النظر إلى ما لا يحل، كما يفعل أهل الريب، ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين، لأن قوله: {وَما تُخْفِي الصُّدُورُ} لا يساعد عليه".

قوله تعالى: {وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: ١٩]، أي:"ويعلم ما يضمره الإنسان في نفسه من خير أو شر".

قال الطبري: يقول: ويعلم ربكم "ما أخفته صدورهم، يعني: وما أضمرته قلوبهم؛ يقول: لا يخفى عليه شيء من أمورهم حتى ما يحدث به نفسه، ويضمره قلبه إذا نظر ماذا يريد بنظره، وما ينوي ذلك بقلبه".

قال ابن كثير: أي:"ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر".

عن ابن عباس:"{وما تخفي الصدور} ، إذا قدرت عليها أتزني بها أم لا؟".

وعن السدى قال: "هو وسوسة القلب".

قال السمعاني: " {وما تخفي الصدور} ، هو شهوة القلب".

وحكي السمعاني عن بعضهم، قال: " {خيانة العين} ، أن يقول: رأيت ولم ير، وخيانة القلب هو أن يقول: علمت ولم يعلم".

=

وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠).

{وَاَللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَاَلَّذِينَ يَدْعُونَ} يَعْبُدُونَ أَيْ كُفَّار مَكَّة بِالْيَاءِ وَالتَّاء {مِنْ دُونه} وَهُمْ الْأَصْنَام {لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ} فَكَيْفَ يَكُونُونَ شُرَكَاء لِلَّهِ {إِنَّ الله هُوَ السَّمِيع} لِأَقْوَالِهِمْ {الْبَصِير} بأفعالهم[1].

=

قال العثيمين: قوله تعالى: {يعلم} الفاعل هو الله ﷻ.

وقوله: {خائنة الأعين} هذا من باب إضافة الصفة إلى موصوفها؛ أي: الأعين الخائنة، وخيانة العين مسارقتها النظر إلى الشيء المحرم، يعني: أن الإنسان قد ينظر إلى شيء محرم، وجليسه إلى جنبه لا يشعر بذلك؛ لأنه يسارقه النظر؛ كأنما يتحين الفرص في غفلة صاحبه؛ حتى ينظر إلى ما حرم الله ﷻ، هذه واحدة.

ثانيا: قد ينظر الإنسان النظر بدون مسارقة بل بمجاهرة، ولا يحس جليسه أنه ينظر نظرا محرما، لذلك حذر الله ﷻ من هذه الحال.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [{يعلم خائنة الأعين} بمسارقتها النظر إلى محرم {وما تخفي الصدور}: القلوب].

فسر المفسر رَحِمَهُ اللهُ الصدور بالقلوب؛ لأنها في الصدور كما قال الله تعالى: {فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} [الحج: ٤٦]، فبين الله ﷻ هنا دقة علمه، ولطف علمه بأنه يعلم حتى هذه الحال التي لا يعلمها الناس الذين يشاهدون، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

(١) قوله تعالى: {وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ} [غافر: ٢٠]، أي:"والله سبحانه يقضي بين الناس بالعدل فيما يستحقونه".

قال ابن كثير:"أي: يحكم بالعدل".

=

=

قال الزمخشري:"يعنى: والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضى إلا بالحق والعدل، لاستغنائه عن الظلم".

قال الطبري: " يقول: والله تعالى ذكره يقضي في الذي خانته الأعين بنظرها، وأخفته الصدور عند نظر العيون بالحق، فيجزي الذين أغمضوا أبصارهم، وصرفوها عن محارمه حذار الموقف بين يديه، ومسألته عنه بالحسنى، والذين رددوا النظر، وعزمت قلوبهم على مواقعة الفواحش إذا قدرت، جزاءها".

عن ابن عباس،:"{والله يقضي بالحق}، قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة، {إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}".

عن ابن جُرَيْج، في قوله: " {واللهُ يَقْضِي بِالحَقِّ} قال: يقدر على أن يقضي بالحق".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ} [غافر: ٢٠]، أي:"والذين يُعبدون من دون الله من الآلهة لا يقضون بشيء؛ لعجزهم عن ذلك".

قال الطبري:"يقول: والأوثان والآلهة التي يعبدها هؤلاء المشركون بالله من قومك من دونه لا يقضون بشيء، لأنها لا تعلم شيئا، ولا تقدر على شيء، يقول جل ثناؤه لهم: فاعبدوا الذي يقدر على كل شيء، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فيجزي محسنكم بالإحسان، والمسيء بالإساءة، لا ما لا يقدر على شيء ولا يعلم شيئا، فيعرف المحسن من المسيء، فيثيب المحسن، ويعاقب المسيء".

قال السمعاني:"أي: الأصنام وما أشبهها، لا يحكمون بشيء؛ لأنه ليس بأيديهم شيء".

قال ابن كثير:"أي: من الأصنام والأوثان والأنداد، لا يملكون شيئا ولا يحكمون

=

=

بشيء".

قال الشوكاني:"أي: تعبدونهم من دون الله لا يقضون بشيء، لأنهم لا يعلمون شيئا، ولا يقدرون على شيء".

قال الزمخشري: يعنى: "وآلهتكم لا يقضون بشيء، وهذا تهكم بهم، لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه: يقضى، أو لا يقضى".

قال السعدي:" {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ} وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله {لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ} لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله".

عن ابن جُرَيْج، في قوله: " {والذين يدعون من دونه} لا يقدرون على أن يقضوا بالحق".

وقرئ: «يدعون»، بالتاء والياء.

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [غافر: ٢٠]، أي:"إن الله هو السميع لأقوال خلقه، البصير بأفعالهم وأعمالهم، وسيجازيهم عليها".

قال الطبري:"يقول: إن الله هو السميع لما تنطق به ألسنتكم أيها الناس، البصير بما تفعلون من الأفعال، محيط بكل ذلك محصيه عليكم، ليجازي جميعكم جزاءه يوم الجزاء".

قال ابن كثير:"أي: سميع لأقوال خلقه، بصير بهم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك".

قال السعدي:" {إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ} لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. {الْبَصِيرُ} بما كان وما يكون، وما نبصر وما لا نبصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون".

قال الزمخشري: " تقرير لقوله: {يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ}، ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه وتعريض بما

=

=

يدعون من دون الله، وأنها لا تسمع ولا تبصر".

قال العثيمين: قوله تعالى: {والله يقضي بالحق} الجملة معطوفة على قوله: {يعلم} و {يقضي بالحق} أي: يحكم به شرعا وقدرا؛ لأن القضاء- أعني: قضاء الله ﷻ على قسمين: قضاء كوني؛ كقوله تعالى: {وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا} [الإسراء: ٤]، وقضاء شرعي؛ كقوله تعالى: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه} [الإسراء: ٢٣]، "قضى" يعني: قضاء شرعيا، ومعناها: وصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه؛ فهنا يقول: {والله يقضي بالحق} والمراد هنا الأمران جميعا؛ أي: أنه يقضي قضاء كونيا بالحق؛ فليس في قضائه الكوني عبث ولا لعب: {وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين (٣٨) ما خلقناهما إلا بالحق} [الدخان: ٣٨- ٣٩].

وكذلك يقضي قضاء شرعيا بالحق؛ فقضاؤه سبحانه وتعالى الشرعي كله حق؛ لأنه خير فيأمر به، أو شر فينهى عنه، وهذا هو الحق إذن الله يقضي بالحق بالنوعين: القضاء الكوني، والقضاء الشرعي.

وقوله: {والذين يدعون من دونه} الواو هنا عاطفة، ويجوز أن تكون استئنافية.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{والذين يدعون} يعبدون؛ أي: كفار مكة، بالياء والتاء]، هنا: تفسير لكلمة {يدعون}، وتفسير للضمير الواو، وقراءة؛ أما القراءة فذكر المفسر أن فيها قراءتين: القراءة الأولى {يدعون} [غافر: ٢٠] بالياء، والقراءة الثانية: "تدعون" بالتاء على سبيل المخاطبة، وكلاهما قراءتان سبعيتان، وأما {يدعون} ففسرها بكلمة [يعبدون]، والصواب: أن المراد بها يعبدون ويسألون؛ لأنهم هم يعبدون الأصنام ويسألونها، يسألونها جلب المنافع ودفع المضار، ويعبدونها أيضا بالركوع والسجود والنذور وغير ذلك.

وأما الواو ففسرها المفسر بكفار مكة؛ فجعل الضمير عائدا إلى كفار مكة، وهنا

=

=

نسأل: هل لا يوجد أحد يعبد الأصنام ويدعو الأصنام إلا كفار مكة؟ الجواب: يوجد منهم ومن غيرهم، وإذا كان كذلك فإن تفسير العام بالخاص نقص في التفسير، فالتفسير المطابق للواو، أن تكون عامة لكل من يدعو من دون الله من كفار مكة، أو كفار المدينة، أو كفار الطائف، أو كفار العراق، أو كفار الشام، أو كفار هذه الأمة، أو كفار من قبلها، عامة، كل من يدعو من دون الله فإنه يدعو من لا يقضي بشيء.

فإن قال قائل: في قوله تعالى: {والذين يدعون من دونه} حملها المفسر على أهل مكة، وقد تقدم أيضا أن المشركين دائما يحملها المفسر على أهل مكة، ربما أن السورة نزلت في مكة، وربما المفسر حملها على هذا؟

فالجواب: لكن لا يصح هذا، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. هو له وجهة نظر، وأقوى من هذه الوجهة قوله: {أولم يسيروا في الأرض فينظروا} بعد الآية هذه، لكن نحن نقول: العبرة بعموم اللفظ، والسبب لا يخصص العام، وإذا ذكر حكم يتعلق ببعض أفراد العام، لا يقتضي تخصيصه أيضا. كما هي القاعدة.

وقوله: {من دونه}؛ أي: من دون الله، والدون هنا بما سوى؛ أي: ما سوى الله ﷻ وهم الأصنام هنا، قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهم الأصنام] وكان مقتضى اللغة العربية أن يقول: وهي الأصنام؛ لأن الجمع لغير ما يعقل لا يعود عليه ضمير ما يعقل، و (هم) للعقلاء، ولكن المفسر عدل عن الأصل، وهي الأصنام لمراعاة قوله: {والذين يدعون} و (الذين) هذه للعاقل، وذلك أن الله تعالى جعل هذه المعبودات نزلها منزلة العقلاء، ومع كونها منزلة منزلة العقلاء لا تقضي بشيء.

قوله: {والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء} [غافر: ٢٠]، ولم يقابل هذه الجملة بالجملة التي قبلها، بل جعلها أعم، في الجملة الأولى قال: {والله يقضي بالحق}، وهنا قال: {لا يقضون بشيء} ولم يقل: لا يقضون بالحق، إشارة إلى

=

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ (٢١).

{أو لم يَسِيرُوا فِي الْأَرْض فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَة الَّذِينَ كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم} وفي قراءة منكم {قُوَّة وَآثَارًا فِي الْأَرْض} مِنْ مَصَانِع وَقُصُور {فأخذهم الله} أهلكهم {بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق} عذابه[1].

=

أنها لا تقضي لا بحق ولا بباطل؛ فليست أهلا لأن تعبد من دون الله ﷻ، لا يقضون بشيء أبدا، لا شرع، ولا قدر، ولا حق، ولا باطل.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{لا يقضون بشيء} فكيف يكونون شركاء لله؟ !] هذا محط النفي، يعني: إذا كانت هذه الأصنام لا تقضي بشيء فكيف تجعل شريكة لله؟ ! وهذا يعني: توبيخ هؤلاء الذين يعبدون هذه الأصنام من دون الله.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{إن الله هو السميع} لأقوالهم {البصير} بأفعالهم]، و (هو) في قوله: {هو السميع}، يجوز أن تكون ضمير فصل، ويجوز أن تكون مبتدأ، والجملة خبر (إن)، لكن هي ضمير فصل أحسن منها مبتدأ.

(١) قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ} [غافر: ٢١].

قال الطبري: يقول:"أو لم يسر هؤلاء المقيمون على شركهم بالله، المكذبون رسوله من قريش، في البلاد، فيروا ما الذي كان خاتمة أمم الذين كانوا من قبلهم من الأمم الذين سلكوا سبيلهم، في الكفر بالله، وتكذيب رسله".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: أو لم يسر هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد {فِي

=

=

الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ} أي: من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب والنكال".

قال السعدي:"{أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ} أي: بقلوبهم وأبدانهم سير نظر واعتبار، وتفكر في الآثار، {فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ} من المكذبين، فسيجدونها شر العواقب، عاقبة الهلاك والدمار والخزي والفضيحة".

قال الشوكاني:"لما خوفهم سبحانه بأحوال الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال: {أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم}، أرشدهم سبحانه إلى الاعتبار بغيرهم".

عن عباد بن منصور، قال: "سألت الحسن، عن قوله: {قل سيروا في الأرض}، قال: لم يسيروا في الأرض".

قال الحسن:"فينظروا كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط، وقوم صالح، والأمم التي عذب الله".

قال قتادة:"عاقبة الأولين والأمم قبلكم. قال: كان سوء عاقبة متعهم الله قليلا ثم صاروا إلى النار".

قال قتادة:"بئس والله، كان عاقبة المجرمين، دمر الله عليهم، وأهلكهم، ثم صيرهم إلى النار".

قوله تعالى: {كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ} [غافر: ٢١]، أي:"كانوا أشد منهم بطشًا، وأبقى في الأرض آثارًا، فلم تنفعهم شدة قواهم وعِظَم أجسامهم".

قال الطبري:"يقول: كانت تلك الأمم الذين كانوا من قبلهم أشد منهم بطشا، وأبقى في الأرض آثارا، فلم تنفعهم شدة قواهم، وعظم أجسامهم، إذ جاءهم أمر الله".

=

=

قال ابن كثير:"مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة [و] أثروا في الأرض من البنايات والمعالم والديارات، ما لا يقدر عليه هؤلاء، كما قال: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ} [الاحقاف: ٢٦]، وقال {وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا} [الروم: ٩]".

قال السعدي:"وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء في الْعَدَد والْعُدَد وكبر الأجسام. {و} أشد {آثارا في الأرض} من البناء والغرس، وقوة الآثار تدل على قوة المؤثر فيها وعلى تمنعه بها".

قال الشوكاني:"فإن الذين مضوا من الكفار كانوا هم أشد منهم قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار وأقوى وآثارا في الأرض بما عمروا فيها من الحصون والقصور وبما لهم من العدد والعدة، فلما كذبوا رسلهم أهلكهم الله".

عن مجاهد: {كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض} [غافر: ٨٢]، يعني: «المشي في الأرض بأرجلهم».

عن مجاهد، في قوله تعالى: {وآثارا في الأرض} [غافر: ٢١] قال: «المشي فيها بأرجلهم».

عن مجاهد:"{وَأَثَارُوا الأَرْضَ}، قال: حرثوا الأرض".

عن الضحاك:"{وأثاروا الأرض}، يقول: جنانها، وأنهارها وزروعها، {وعمروها أكثر مما عمروها}، يقول: عاشوا فيها أكثر من عيشكم فيها".

وقرأ ابن عامر: «أشد منكم» على الالتفات.

قوله تعالى: {فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ} [غافر: ٢١]، أي:"فأخذهم الله بعقوبته؛ بسبب كفرهم واكتسابهم الآثام".

قال الشوكاني:"أي: بسبب ذنوبهم".

قال السعدي: أي:"بعقوبته بذنوبهم حين أصروا واستمروا عليها".

=

=

قال ابن كثير:"ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم، وهي كفرهم برسلهم".

قال الطبري:"أباد جمعهم، وصارت مساكنهم خاوية منهم بما ظلموا".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ} [غافر: ٢١]، أي:"وما كان لهم من عذاب الله من واق يقيهم منه، فيدفعه عنهم".

قال الطبري:"يقول: وما كان لهم من عذاب الله إذ جاءهم، من واق يقيهم، فيدفعه عنهم".

قال ابن كثير:"أي: وما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق".

قال الشوكاني:"أي: من دافع يدفع عنهم العذاب".

عن قتادة: " {وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ} : يقيهم، ولا ينفعهم".

روي ابن حسنون المقرئ بإسناده إلى ابن عباس:"{وَما كانَ لَهُم مِنَ اللَهِ مِن واقٍ}، يعني:"مانع بلغة خثعم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أولم يسيروا في الأرض} هذا النظم موجود في القرآن كثيرا، أن تأتي أداة الاستفهام وبعدها حرف العطف ثم الجملة، وقد اختلف المعربون في كيفية إعراب هذا النظم وهذا التركيب، فقال بعضهم: إن التقدير: وألم يسيروا في الأرض؛ فتكون الواو عاطفة على ما سبق، وتكون الهمزة داخلة على جملتها، مصدرة الجملة بها، وهذا القول لا يحتاج إلى تقدير، لكنه يرد عليه أن الهمزة متقدمة على حرف العطف، فأجابوا عن ذلك بأن الهمزة مقدمة، وقالوا: إن تقديمها في مثل هذا سائغ.

والقول الثاني للمعربين: أن الهمزة داخلة على شيء مقدر، وأن حرف العطف عاطف على ذلك المقدر، وحينئذ نحتاج إلى تعيين ذلك المقدر، ولا يعينه إلا

=

=

السياق؛ فيقدر ذلك المحذوف بحسب ما يقتضيه السياق، فمثلا: يقال: {أولم يسيروا} أفرطوا ولم يسيروا في الأرض، أو: أغفلوا ولم يسيروا في الأرض، أو ما يؤدي إلى هذا المعنى.

وقوله: {أولم يسيروا في الأرض} هل المراد سير القلوب بالنظر والتأمل والتفكر، أو المراد سير الأقدام، حتى يقف الإنسان على ما حصل للأمم السابقة بعيني رأسه؟

الجواب: كلاهما؛ فمن لم يتيسر له أن يسير بقدمه فليسر بقلبه، ولكن طريق سيره بقلبه أن يقرأ تاريخ الأمم السابقة، وحينئذ يثبت هذا التاريخ بطريقين فقط: الطريق الأول: القرآن. والطريق الثاني: السنة الصحيحة عن رسول الله- ﷺ وعلى آله وسلم-.

فإن الله سبحانه وتعالى قال فيمن سبق: {الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله} [إبراهيم: ٩] وإذا كان لا يعلمهم إلا الله؛ فإن مصدر التلقي لأخبارهم من عند الله، أو من رسوله- ﷺ وعلى آله وسلم-.

أما ما حدثت به بنو إسرائيل عمن سبق؛ فهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما شهد شرعنا به، أو ما شهد القرآن والسنة به؛ فهذا مقبول، لا لأنه خبر بني إسرائيل، ولكن لأن القرآن والسنة شهدت بصدقه.

القسم الثاني: ما شهد القرآن والسنة بكذبه، فهذا مرفوض، ولا يجوز التحدث به إلا إذا أراد الإنسان بيان كذبه وبطلانه.

القسم الثالث: ما لم يشهد الوحي بصدقه ولا كذبه؛ أي: ما ليس في القرآن ولا في السنة تصديقه ولا تكذيبه، فهذا قال فيه النبي- ﷺ وعلى آله وسلم-: "حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج" فيكون من الكلام الذي يباح نقله، لكن لا فائدة منه؛ فلا يشتغل به عما هو أهم منه.

=

=

وبهذا نعرف كيف نسير بقلوبنا في أخبار من سبق، فصار مصدر التلقي في أخبار من سبق، المصدر الأساسي الأكيد هو الكتاب والسنة، وأما ما وقع من أخبار بني إسرائيل، فعرفنا أنه على ثلاثة أقسام.

وقوله: {أولم يسيروا في الأرض} قال بعض المعربين: إن (في) هنا بمعنى (على)؛ لأنه لا يمكن السير في جوف الأرض، بناء على أن (في) للظرفية، والظرف محيط بالمظروف، كما إذا قلت: الماء في الإناء؛ فإن الإناء محيط به، والماء في جوفه، ولكن ربما يقول قائل: إن هذا غير متعين؛ لأن المراد {في الأرض} أي: في مناكب الأرض، كما قال تعالى: {هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها} [الملك: ١٥] ، وتكون الظرفية هنا ظرفية الأجواء؛ أي: في جو الأرض، في أجواء الأرض، والأجواء ظرف لمن يسير فيها.

قوله: {فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم} {فينظروا} الفاء هنا قيل: إنها عاطفة، وعلى هذا فيكون السير منتفيا، والنظر أيضا منتف، والتقدير على هذا القول: {أولم يسيروا في الأرض} فألم ينظروا في كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم، وقيل: إن الفاء للسببية؛ أي: فبسبب سيرهم ينظروا كيف كان. والمعنيان متلازمان؛ لأنهم إذا لم يسيروا لم ينظروا، وإن ساروا نظروا.

وقوله: {فينظروا كيف كان} هل النظر هنا نظر قلب وبصيرة، أو نظر عين وبصر؟

الجواب: ينبني على ما سبق في السير، إن كان سير قلب فالنظر نظر قلب وبصيرة، وإن كان سير قدم فالنظر نظر عين وبصر. وقد قلنا: إن السير صالح لهذا وهذا؛ فيكون النظر أيضا صالحا لهذا وهذا.

قوله: {كيف كان عاقبة الذين من قبلهم} (كيف) اسم استفهام، وهو في محل نصب على أنه خبر (كان) مقدم، و {عاقبة} اسمها، {كيف كان عاقبة الذين من قبلهم} ؛ أي: مآلهم، ماذا كان مآلهم؟ سيأتي ذكر المآل، لكن الله ذكر حالهم قبل

=

=

أن يذكر مآلهم، قال: {كانوا أشد منهم قوة} {أشد} من الشدة، وهي الصلابة والعظم.

و{منهم} يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قراءة "منكم"] فيكون في هذا التفات من الغيبة إلى الخطاب، ومعلوم أن الخطاب أشد وقعا في النفس من الحديث بصيغة الغيبة، يعني إذا كنت تخاطب الشخص مخاطبة فهو أشد وقعا في نفسه، مما إذا كنت تتحدث بصيغة الغيبة؛ ولهذا جاء قول الله تعالى: {عبس وتولى} [عبس: ١] بصيغة الغيبة، والعابس والمتولي الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يقل: عبست وتوليت؛ لأن الخطاب أشد وقعا من الغيبة. وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قراءة: "منكم"] اعلم أن اصطلاح المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا قال: في قراءة. فهي سبعية، وإذا قال: وقرئ. فهي شاذة ليست سبعية.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{قوة وآثارا في الأرض} من مصانع وقصور] فهم أقوياء الأبدان، ولهم من الآثار في الأرض أكثر مما عند هؤلاء الذين كذبوا رسول الله- ﷺ وعلى آله وسلم- والشاهد في هذا ظاهر في ديار ثمود، فإن كل من شاهدها تبين له كيف كانت قوة القوم، وكذلك آثار عاد في الأحقاف، التي اطلع عليها، وقال الله فيها: {إرم ذات العماد (٧) التي لم يخلق مثلها في البلاد} [الفجر: ٧- ٨] قوة عظيمة، حتى إن عادا قالوا: {من أشد منا قوة} فماذا كانت حالهم؟

قال تعالى: {فأخذهم الله} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أهلكهم] {بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق} هؤلاء القوم الأشداء الذين لهم من الآثار ما يبهر العقول، أخذهم الله بذنوبهم، أهلكهم بسبب ذنوبهم، وذنوبهم مكونة من شيئين: التكذيب والتولي، فهم مكذبون للخبر، متولون عن الأمر، فكذبوا الأخبار، وخالفوا الأوامر، وقعوا فيما نهوا عنه، وتركوا ما أمروا به، وكذبوا ما يلزمهم تصديقه {فأخذهم الله بذنوبهم} والباء هنا للسببية.

=

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢).

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلهمْ بِالْبَيِّنَاتِ} بِالْمُعْجِزَاتِ الظاهرات {فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب}[1].

=

وقوله: {وما كان لهم من الله من واق} (ما) نافية و (من) متعلقة بـ {واق}، و {واق} اسم (كان) دخلت عليه (من) الزائدة للتوكيد، وأصل (واق): واقي، فحذفت الياء للتخفيف؛ أي: ما كان لهم من أحد يقيهم من عذاب الله.

حتى إن ابن نوح عليه الصلاة والسلام لم يقه من عذاب الله قربه من نوح، ولا دخوله في العموم؛ لأن الله سبحانه وتعالى ذكر أنه منجيه وأهله -أعني: نوحا- فلما أرسل الله عليهم الغرق، دعا ابنه أن يركب معه في السفينة، ولكنه أبى، وقال: {سآوي إلى جبل يعصمني من الماء} [هود: ٤٣] فغرق، وقال نوح: {رب إن ابني من أهلي} [هود: ٤٥] وقد وعده الله أن ينجيه وأهله، فقال الله تعالى: {إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين} [هود: ٤٦]، فلم يق هذا الابن قربه من أبيه أحد أولي العزم من الرسل، ولكنه هلك فيمن هلك، كما قال تعالى هنا: {وما كان لهم من الله من واق}.

(١) قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا} [غافر: ٢٢].

قال الطبري: يقول:"هذا الذي فعلت بهؤلاء الأمم الذين من قبل مشركي قريش من إهلاكناهم بذنوبهم فعلنا بهم بأنهم كانت تأتيهم رسل الله إليهم بالبينات، يعني بالآيات الدالات على حقيقة ما تدعوهم إليه من توحيد الله، والانتهاء إلى طاعته، فانكروا رسالتها، وجحدوا توحيد الله، وأبوا أن يطيعوا الله".

قال ابن كثير:"ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها، فقال:

=

=

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} أي: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات، {فَكَفَرُوا} أي: مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا".

قوله تعالى: {فَأَخَذَهُمُ اللهُ} [غافر: ٢٢]، أي:"فأخذهم الله بعقابه".

قال الطبري:"يقول: فأخذهم الله بعذابه فأهلكهم".

قال ابن كثير:"أي: أهلكهم ودمَّر عليهم وللكافرين أمثالها".

قوله تعالى: {إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [غافر: ٢٢]، أي:"إنه سبحانه قوي لا يغلبه أحد، شديد العقاب لمن كفر به وعصاه".

قال الطبري:"يقول: إن الله ذو قوة لا يقهره شيء، ولا يغلبه، ولا يعجزه شيء أراده، شديد عقابه من عاقب من خلقه، وهذا وعيد من الله مشركي قريش، المكذبين رسوله محمدا ﷺ يقول لهم جل ثناؤه: فاحذروا أيها القوم أن تسلكوا سبيلهم في تكذيب محمد ﷺ وجحود توحيد الله، ومخالفة أمره ونهيه فيسلك بكم في تعجيل الهلاك لكم مسلكهم".

قال ابن كثير:"{إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} أي: ذو قوة عظيمة وبطش شديد، وهو {شَدِيدُ الْعِقَابِ} أي: عقابه أليم شديد وجيع. أعاذنا الله منه".

قال الشوكاني:"{إِنَّهُ قَوِيٌّ} يفعل كل ما يريده لا يعجزه شيء، {شَدِيدُ الْعِقَابِ} لمن عصاه ولم يرجع إليه".

قال السعدي:"فلم تغن قوتهم عند قوة الله شيئًا، بل من أعظم الأمم قوة، قوم عاد الذين قالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} أرسل الله إليهم ريحا أضعفت قواهم، ودمرتهم كل تدمير".

عن علي بن زيد، قال: "تلا مطرف هذه الآية: {شديد العقاب}، قال: لو يعلم الناس قدر عقوبة الله، ونقمة الله، وبأس الله، ونكال الله، لما رقأ لهم دمع، وما قرت أعينهم بشيء".

=

=

قال العثيمين: قوله تعالى: {ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات} ذلك المشار إليه أخذ الله تعالى إياهم بذنوبهم، فهذه الذنوب أنه {كانت تأتيهم رسلهم بالبينات} ، قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالمعجزات الظاهرات] {تأتيهم رسلهم} جمع رسول، والرسول لكل أمة كما قال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله} [النحل: ٣٦] ، والرسل جاؤوهم بالبينات، قال المفسر: [بالمعجزات] والصواب أن يقال: بالآيات؛ لأن الله تعالى يعبر عنها هكذا: {آياتنا بينات} والمراد بالآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهي نوعان: حسية ومعنوية وخلقية وخلقية، كلها آيات بينات، ظاهرة واضحة قال النبي- ﷺ وعلى آله وسلم-: "ما بعث الله نبيا إلا آتاه من الآيات ما على مثله يؤمن البشر".

والحكمة من هذه الآيات أن البشر لا يمكن أن يقبلوا دعوة من شخص عاش بينهم، يعرفونه فيأتي ويقول: إنه نبي أو إنه رسول، فلا بد من آيات تدل على صدقه، وكما قلت لكم إن الآيات نوعان: آيات معنوية: وهي ما يتضمنه الوحي الذي جاء به هؤلاء الرسل، وآيات حسية: وهي ما يظهر من خوارق العادات؛ ولهذا قيل في تعريف الآية: إنها أمر خارق للعادة يظهره الله سبحانه وتعالى على يد الرسول تأييدا له.

هذه الآيات قال العلماء- أعني: الآيات الحسية-: إنها تكون مناسبة للوقت الذي بعث فيه الرسول، واستشهدوا لذلك بأن موسى عليه الصلاة والسلام أعطي آيات سحرية؛ أي: تشبه السحر، لكنها أقوى منه تغلبه؛ فيضع العصا- وهي من خشب- على الأرض فتنقلب حية تسرح، ويدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء تلوح من غير عيب، أي: من غير برص؛ وهذا لأنه في وقته كان للسحر طور عال مرتفع، فجاء بآيات تغلب ذلك السحر، ويظهر هذا حينما اجتمع مع السحرة في اليوم الذي وعدهم فيه، فألقوا حبالهم وعصيهم، حتى خيل إليه من سحرهم أنها تسعى،

=

=

فأوجس في نفسه خيفة موسى، فقال له الله تعالى: {لا تخف} وأمره أن يضع العصا، فوضعها، فإذا هي حية تلقف ما يأفكون.

ثم عيسى ابن مريم بعث في زمن ترقى فيه الطب ترقيا عظيما بالغا؛ فجاء بأمر يعجز عنه الأطباء، يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ويحيي الموتى بإذن الله، بل يخرج الموتى من قبورهم بإذن الله، يقف على صاحب القبر ويخاطبه فيقول: اخرج. فيخرج، وهذا أعظم من الطب الذي أتوا به.

أما محمد عليه الصلاة والسلام فقد بعث في وقت بلغت فيه البلاغة أوجها، وصار الناس يتفاخرون أيهم أبلغ؛ فيأتي الشعراء، ويأتي الخطباء إلى أسواق الجاهلية عكاظ وغيره، يتبارون في أشعارهم وخطبهم؛ فجاء هذا القرآن قاضيا عليها كلها، وأعجزهم، وعجزوا عن أن يأتوا بآية منه، مع أنهم هم أمراء البلاغة.

المهم: أنه لا بد لكل نبي من آية يؤمن على مثلها البشر؛ لأن الله سبحانه وتعالى حكيم ورحيم؛ حكيم لا يرسل شخصا إلى الناس يقول: أنا رسول. بدون بينة، ورحيم حيث أيد هؤلاء الرسل بالآيات من وجه، ورحم الخلق فجعل مع الرسل آيات؛ من أجل أن تكون حجة الرسل مقبولة لديهم.

قوله: {تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا} الفاء عاطفة، وتدل على مبادرة هؤلاء بالكفر، وأنهم لم يتأملوا ولم ينظروا، وجه ذلك أن الفاء تدل على الترتيب والتعقيب، {فكفروا}؛ أي: بالرسل وبالبينات التي جاؤوا بها، {فأخذهم الله}؛ أي: أهلكهم، {إنه قوي شديد العقاب} أهلكهم الله سبحانه وتعالى بعامة إلا من آمن.

ثم بين أن هذا الأخذ شديد؛ لقوله: {إنه قوي شديد العقاب} قوي أزلا وأبدا، فلم يسبق قوته ضعف، ولا يلحقها ضعف، أما البشر فإنهم ضعفاء أولا ونهاية، ومنتهى قوتهم أيضا ليس بشيء، حتى وإن بلغ الإنسان أشده وبلغ غاية قوته، فإنه ليس

=

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣).

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَان مُبِين} بُرْهَان بين ظاهر.

إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤).

{إِلَى فِرْعَوْن وَهَامَان وَقَارُون فَقَالُوا} هُوَ {سَاحِر كذاب}[1].

=

بشيء، أما الرب ﷻ فإنه قوي أزلا وأبدا.

{شديد العقاب} هذا من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، المعنى عقابه شديد، الشديد يعني: الصلب القوي الذي تحصل آثاره على من عوقب.

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣)} [غافر: ٢٣].

ولقد أرسلنا موسى بآياتنا العظيمة الدالة على حقيقة ما أُرسل به، وحجة واضحة بيِّنة على صدقه في دعوته، وبطلان ما كان عليه مَن أُرسل إليهم.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مسليا نبيه محمد ﷺ، عما كان يلقى من مشركي قومه من قريش، بإعلامه ما لقي موسى ممن أرسل إليه من التكذيب، ومخبره أنه معليه عليهم، وجاعل دائرة السوء على من حاده وشاقه، كسنته في موسى صلوات الله عليه، إذ أعلاه، وأهلك عدوه فرعون {ولقد أرسلنا موسى بآياتنا}: يعني بأدلته. {وسلطان مبين}، يقول: وحججه المبينة لمن يراها أنها حجة محققة ما يدعو إليه موسى".

قال الزجاج:"{بِآيَاتِنَا}، أي: بعلاماتنا التي تدل على صحة نبوته، من العصا وإخراج يده بيضاء من غير سوء وأشباه ذلك، {وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ}، أي: حجة ظاهرة".

قال مقاتل:"{بِآيَاتِنَا}، يعني: اليد والعصا، {وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ}، يعني: وحجة بينة".

قال ابن كثير:"أرسله بالآيات البينات، والدلائل الواضحات، والسلطان هو: الحُجة والبرهان".

=

=

عن قتادة:"{وسلطان مبين}: أي: عذر مبين".

عن أبي مالك، ومحمد بن كعب، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، والنضر بن عربي:"كل سلطان في القرآن حجة".

قال مجاهد:"«السلطان المبين»، البرهان والبينة، وقوله: {مَا لَمْ يُنزِلْ بِهِ سُلْطَانًا} [سورة آل عمران: ١٥١ / سورة الأعراف: ٧ / سورة الحج: ٧١]، قال: بينَةً وبرهانًا".

قال ابن جريج: "كل شيء في القرآن (آيات)، بذلك تعرفون الله إنكم لن تروه فتعرفونه على رؤية، ولكن تعرفون بآياته وخلقه".

قوله تعالى: {إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ} [غافر: ٢٤]، أي:"إلى فرعون ملك «مصر»، وهامان وزيره، وقارون صاحب الأموال والكنوز".

قال ابن كثير:"{إِلَى فِرْعَوْنَ} هو: ملك القبط بالديار المصرية، {وَهَامَانَ} وهو: وزيره في مملكته {وَقَارُونَ} وكان أكثر الناس في زمانه مالا وتجارة".

قال الزجاج:"هذه الأسماء. في موضع خفض إلا أنها فتحت لأنها لا تنصرف لأنها معرفة وهي أعجمية".

عن محمد بن إسحاق -من طريق سلمة- قال: "لم يكن منهم فرعونٌ أعتى على الله، ولا أعظم قولًا، ولا أطول عمرًا في ملكه منه، وكان اسمه فيما ذُكر لي: الوليد بن مصعب".

عن الحسن، قال: "كان فرعون علجا من همذان".

قال قتادة:"وكان قارون ابن عم موسى أخي أبيه وكان قطع البحر مع بني إسرائيل وكان يسمى المنور من حسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري فأهلكه الله لبغيه، وإنما بغى عليهم لكثرة ماله وولده، قال الله: أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون".

=

=

قوله تعالى: {فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [غافر: ٢٤]، أي:"فقالوا عن موسى إنه ساحر فيما أظهر من المعجزات، كذَّاب فيما ادعاه أنه من عند الله".

قال الطبري:"يقول: فقال هؤلاء الذين أرسل إليهم موسى لموسى: هو ساحر يسحر العصا، فيرى الناظر إليها أنها حية تسعى. {كذاب} يقول: يكذب على الله، ويزعم أنه أرسله إلى الناس رسولا".

قال الزجاج:"المعنى: فقالوا هو ساحر كذاب، جعلوا أمر الآيات التي يعجز عنها المخلوقون سحرا".

قال ابن كثير:"أي: كذبوه وجعلوه ساحرًا مُمَخْرِقًا مموهًا كذابًا في أن الله أرسله. وهذه كقوله تعالى: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الذاريات ٥٢، ٥٣]".

قال مقاتل:"فلما رأوا اليد والعصا، قالوا: ليستا من الله بل موسى ساحر، في اليد حين أخرجها بيضاء، والعصا حين صارت حية {فقالوا ساحر كذاب}، حين زعم أنه رسول رب العالمين".

قال العثيمين: الجُمْلة هذه مُؤكَّدة بعِدَّة مُؤكِّدات: القسم المقدَّر، واللام، و (قَدْ)، والتقدير: "واللهِ لَقَد".

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ} مُوسى هو ابن عِمرانَ، أفضَلُ أنبياء بني إِسرائيلَ، وأعظَمُهم وأشَدُّهم، وهو من أشَدِّ الأنبياء وأقواهم، وَيدُلُّك على ذلك ما فعَله قبل النُّبوَّة، وما فعَله بعد النُّبوَّة.

فقبل النّبوَّة مَرَّ برجُل من قومه يُخاصِم رجُلًا من عَدوِّه؛ فوكَزَه موسى فقَضى عليه، وهذا يَدُلُّ على قوَّتِه وشِدَّته.

وبعد النُّبوَّة لمَّا رجع ورأى أنهم أَشرَكوا بالله غضِب غضَبًا شديدًا، فأَلقَى الألواح التي كتَبَ الله بها التَّوراة، ألقاها قال بعضُهم: فتكسَّرت؛ قال تعالى: {وَأَلْقَى

=

=
الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ} [الأعراف: ١٥٠] هارونَ وهو نَبيّ من الأنبياء مُشارِك لموسى في النُّبوَّة، ورَسولٌ، ألَمْ يَقولا لفِرعونَ: {إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٦]، أخَذ برَأْس أخيه يَجُرُّه إليه، فقال: {يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} [طه: ٩٤]، {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ} [الأعراف: ١٥٤]، هذا أيضًا يَدُلُّ على قوَّتِه وشِدَّته عليه الصلاة والسلام، وهذا من الحِكْمة؛ لأنَّه أُرسِل إلى أَعتَى أهل الأرض، وهو فِرعونُ؛ ولهذا قابَله بالقُوَّة؛ قال له: {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} [الإسراء: ١٠٢].

وهذه قوَّة تَدُلُّ على قوَّتِه عليه الصلاة والسلام، أَرْسَله الله تعالى أيضًا إلى قَوْم عُتاة، وهم بنو إسرائيلَ، ولهذا لا يُوجَد شَعْب من الشُّعوب فيما نَعلَم مثل بني إسرائيلَ في العُتوِّ والنُّفور والاستِكْبار، إلى حدِّ أنه لمَّا كُتِب عليهم القِتال قالوا لموسى: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا} [المائدة: ٢٤]، ولَيْتَهم اقتَصَروا على ذلك {فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} سنَقعُد على الفُرُش ولا نَتحرَّك، وأنت وربُّك اذهَبْ فقاتِلا {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}.

فلهذا كان من الحِكْمة أن يَكون هذا الرَّسولُ على هذا النَّحوِ من الشِّدَّة؛ لمُناسَبة مَن أُرْسِلَ إليهم من فِرعونَ وبني إسرائيلَ.

فإن قال قائِلٌ: إذا ورَد بنو إسرائيلَ في القُرآن على سبيل التَّكريم أو ليس على سبيل الذَّمِّ، وإذا ورَد اليَهود فإنه على سَبيل التَّقريع وعلى سبيل الذَّمِّ. فهل هذا مُطَّرِد في القُرآن؟

فالجَوابُ: لا، ليس بصَحيح، الله يَذكُر بني إسرائيلَ بذُنوبهم ويَذُمُّهم {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ} لم يَقُلْ: من اليهود. {يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي
=

=
أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة: ٤٧]، وآيات كثيرة.
وقوله: {بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ} "آياتنا" جَمع، تَدُلُّ على أنَّ مَعَهُ آياتٍ مُتَعَدِّدَةً وهو كذلك، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ} [الإسراء: ١٠١] إلى آخِره، فهو أُوتِي آياتٍ أَعظَمُها وأَشَدُّها وأبينُها حِسًّا آية العصا؛ فإنَّها من آياتِ الله الحِسِّيَّة العَجيبة الغَريبة، عصًا يَهُشُّ بها على غنَمه، وله فيها مَآرِبُ أخرى، ويَتوَكَّأ عليها، إذا ألقاها صارَت حيَّة عَظيمة تَلقَف كل ما عمِلوا، وإذا حمَلها عادت عَصًا، وإذا ضرَب بها الحجَر تَفجَّر ماءً.
هذه العَصا آية من آيات الله ﷻ، تأمَّلِ الآنَ وتَفكَّر مدَى كثرة العِصيِّ والحِبال التي ألقاها السحَرة وتَنوُّعها، ثُم ألقى هذه العصا فصارت تَلقَف كل ما تَعثُر عليه، وأنا أَتعَجَّب أين البَطْن الذي يَسَعُ كلَّ هذه الأشياءِ، نعَمْ؛ لكن آيات الله تُبهِر العُقول، وإلَّا فتَقول: كيف أنَّها حَيَّة بمِقدار العَصا تَلقَف كلَّ ما أَفِكوا من الحِبال والعِصيِّ، أين تَذهَب؟! نَقول؛ لا تَسأَل أين تَذهَب، أنت صدِّق وآمِنْ بهذا، وكيف تَذهَب إلى الله ﷻ، ولا مانِعَ من أن تَكون هذه الأشياءُ إذا مَضَغَتْهَا صارت الشيءَ الكبير شيئًا صغيرًا.
فائِدةٌ: التِّسْع الآيات التي أُرسِل بها موسى هي: العَصا، واليَد يُدخِلها في جَيْبه، والطُّوفان، والجَراد، والقُمَّل، والضَّفادِع، والدَّم، وانفِلاق البَحْر، والسِّنون ونَقْص من الثَّمَرات، وبعضُهم قال: ضرَب الحَجَر بالعَصا فيَتفجَّر.
أمَّا لبني إسرائيلَ فيَدخُل فَلْق البَحْر، وكذلك انفِجار الماء من الحَجَر، لكِنَّ هذه الثِّنتَين ليست لآل فِرْعَونَ، فآل فرعونَ آيتهم السِّنون ونَقْص من الثَّمَرات، بالإضافة إلى السَّبْع السابِقة.
فإن قال قائِل: يَستَخدِم بعضُ عُلماء الجرْح والتَّعديل إذا تَكلَّموا في رجُل يَقولون: هذا الرجُلُ كعصا مُوسى، تَلقَف ما يَأفِكون. وبعض الإِخْوان يَمزَح بها فيقول
=

=

للآخَرِ: أنت كعَصا موسى تَلقَف ما يَأفِكون. فهل يَصِحُّ هذا؟

فالجَوابُ: أنا أَرَى أنه حتَّى المُحدِّثون يَقولون هذا -نَسأَل الله لهم العَفوَ- لا يَنبَغي أن يَقولوا هكذا؛ لأنه يُخشَى أن تُستَعمَل استِهْزاءً، وإن كان المُحدِّثون لا يُريدون هذا إطلاقًا، فالأَوْلى أنْ يُقال: هذا الرَّجُلُ مِثل آية، وهذا الرجُل واسِع الاطِّلاع، وهذا الرجُلُ واسِع العِلْم، وما أَشبَه ذلك.

وكذلك أيضًا مَن يَقول: فُلان يَملِك عصا موسى السِّحرية. فهذا أيضًا لا يَجوز، هذا أَشَرُّ، لأنَّ قوله: عصا موسى السِّحْرية. يَعنِي: أنَّ ما جَاءَ به سِحْرٌ، وهذا خَطير. وقد أَرسَل الله موسى بآياتِنا وسُلْطان مُبين، والسُّلْطان كل ما يَكون للإنسان به سُلْطة؛ أي: حُجَّة وقُوَّة، ويَختَلِف باختِلاف السِّياق؛ ، فالسُّلْطان في كل مَوْضِع بحَسَبه، فالسُّلطان بالنِّسبة للأَبِ مع أولاده في التأديب سُلْطان ضَرْب، والسُّلْطان فيمَن دُعُوا إلى الله ﷻ سُلْطان بيان، والسُّلْطان أيضًا فيمَن جُودِل سُلطان حُجَّة، وهو يَختَلِف باختِلاف المَواضِع.

المُهِمُّ: أنه ما كان فيه سُلْطة على الغير فهو سُلْطان.

وقوله: {مُبِينٍ} يُحتَمَل أن تكون من اللَّازِم ويُحتَمَل أن تكون من المُتعدِّي، وذلك أنَّ أبانَ الرُّباعيَّ يَكون لازِمًا ويَكون مُتعدِّيًا، فتَقول: أبنتُ له الحقَّ. وتَقول: أَبانَ الصُّبح؛ أي: بانَ وظهَر، فهي رُبَاعِيَّةٌ صَالِحَةٌ للتَّعَدِّي واللُّزوم.

فإن قال قائِل: كيف يَكون فِعلًا واحِدًا صالِحًا للتَّعدِّي واللُّزوم؟

قلنا: نعَم يَصْلُح، اللُّغة العربية واسِعة، فمثلًا: "رَجَعَ" فِعْل ماضٍ ثلاثيٌّ، يَكون لازِمًا وَيكون مُتعدِّيًا، قال تعالى: {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ} [المنافقون: ٨]، هذا لازِم، وقال تعالى: {فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ} [التوبة: ٨٣] ، هذا مُتعَدٍّ، فلا مانِعَ من أن يَكون الفِعْل الواحِد لازِمًا في سِياق ومُتعدِّيًا في سِياق آخَرَ، ومن ذلك "أَبانَ".

=

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥).

{فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ} بِالصِّدْقِ {مِنْ عِنْدنَا قَالُوا اُقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا} اسْتَبْقُوا {نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْد الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَال} هلاك[1].

=

فهل قوله سبحانه وتعالى: {وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ} مَعناها بَيِّن، أو مُبين مُظهِر للحَقِّ؟ نَنظُر أَيُّهما أَبْلَغُ البَيِّن في نَفْسه، أو المُبين لغَيْره؟

الجوابُ: الثاني؛ لأنَّ المُبين لغيره لا بُدَّ أن يَكون بيِّنًا في نفسه، وعلى هذا فكلِمة {مُبِينٍ} من المُتعدِّي، تكون أَشمَلَ وأَوسَعَ مَعنًى، وما كان أَوسَعَ وأَشمَلَ مَعنى فإنه يُؤخَذ به، ولا نَقول: يُترَك الثاني؛ لأنَّ الثانيَ داخِل في الأوَّل.

(١) قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا} [غافر: ٢٥].

قال مقاتل:"يعني: اليد والعصا".

قال الطبري: يقول:"فلما جاء موسى هؤلاء الذين أرسله الله إليهم بالحق من عندنا، وذلك مجيئه إياهم بتوحيد الله، والعمل بطاعته، مع إقامة الحجة عليهم، بأن الله ابتعثه إليهم بالدعاء إلى ذلك".

قال ابن كثير:"أي: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم".

قوله تعالى: {قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ} [غافر: ٢٥]، أي:"قالوا: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه، واستبقوا نساءهم للخدمة والاسترقاق".

قال مقاتل:"أي: قال فرعون وحده، للملأ، يعني: الأشراف: اقتلوا أبناءهم ودعوا البنات، فلما هموا بذلك حبسهم الله عنهم حين أقطعهم البحر".

قال الطبري: أي:"{قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا} بالله {معه} من بني إسرائيل، واستبقوا نساءهم للخدمة".

عن قتاده: {فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه

=

=

واستحيوا نساءهم) قال: هذا قتل غير القتل الأول الذي كان".

قال الطبري:"وإنما كان قتل فرعون الولدان من بني إسرائيل حذار المولود الذي كان أخبر أنه على رأسه ذهاب ملكه، وهلاك قومه، وذلك كان فيما يقال قبل أن يبعث الله موسى نبيا؟ قيل: إن هذا الأمر بقتل أبناء الذين آمنوا مع موسى، واستحياء نسائهم، كان أمرا من فرعون وملئه من بعد الأمر الأول الذي كان من فرعون قبل مولد موسى".

قال ابن كثير:"وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل. أما الأول: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين. وأما الأمر الثاني: فللعلة الثانية، لإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولهذا قالوا: {أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٢٩]".

وقال الزجاج:"كان قيل لفرعون: إن ملكه يزول بسبب غلام يولد، فقيل: افعلوا هذا حتى لا ينجو المولود".

قوله تعالى: {وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [غافر: ٢٥]، أي:"وما تدبير أهل الكفر إلا في ذَهاب وهلاك".

قال الطبري:"يقول: وما احتيال أهل الكفر لأهل الإيمان بالله إلا في جوز عن سبيل الحق، وصد عن قصد المحجة، وأخذ على غير هدى".

قال ابن كثير:"أي: وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا يُنصروا عليهم، إلا ذاهب وهالك في ضلال".

قال مقاتل:"يقول: {وما كيد} فرعون الذي أراد ببني إسرائيل من قتل الأبناء واستحياء النساء {إلا في ضلال}، يعني: خسار".

=

=

وقال الزجاج:"أي: يذهب باطلا، ويحيق الله به ما يريد".

قال القشيري:"لأنه إذا حفر أحد لوليّ من أولياء الله تعالى حفرة ما وقع فيها غير حافرها... بذلك أجرى الحقّ سنّته".

قال العثيمين: قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ} أَرسَله الله بالآيات؛ فقالوا: ساحِر كذَّاب. قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ} بالصِّدْق] {مِنْ عِنْدِنَا}: من عِند الله عَزَّوَجَلَّ وهو الوَحيُ، حينما قال موسى عليه الصلاة والسلام: إنَّ الله هو ربُّكم، وإن الله واحِد، وما أَشبَه ذلك ممَّا جرَت فيه المُحَاوَرة بينه وبين فِرْعَونَ، وهذا مَذكور في سورة الشُّعَراء، وفي سورة الإسراء وغيرهما.

{فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ} الذي عجَزوا أن يُقابِلوه بالحُجَّة الداحِضة، تَوعَّد فِرعونُ موسى فقال: {لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ} [الشعراء: ٢٩] ، وهذا وَعيد، شيء آخَرُ قالوا: {اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا} [غافر: ٢٥] ، قال المفَسّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [استبْقوا] {نِسَاءَهُمْ} وعلى هذا فيَكون القَتْل لأبناء بني إسرائيلَ، واستِحْياء النِّساء يَكون وقَع مرَّتَيْن؛ المرة الأُولى قبل أن يُبعَث موسى، والمرة الثانية بعد أن بُعث.

{قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ}؛ لئلاّ يَبقى لهم شَوْكة، ولتَزول هَيْبتهم؛ لأنه إذا لم يَبقَ إلَّا النِّساء فالنِّساء ضَعيفات، لا يَدفَعْن عن أنفُسِهنَّ، ولا يُدافِعن عن حُقوقِهن، فيَبْقى موسى وقومه على أَسوَأ حال.

ثُمَّ قال الله تعالى: {وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هَلاك] (ما) نافية، و {كَيْدُ} مُبتَدَأ، ولا يَصِحُّ أن يَكون اسمها؛ لأنَّ مِن شرط عمَل (ما) عمَلَ (ليس) أن لا يُنتَقَض النَّفيُ. قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

.... مَعَ بَقَا النَّفْيِ وَتَرْتِيبٍ زُكِنْ

فإذا انتَقَض النَّفيُ؛ فإنَّها لا تَكونُ عامِلَة عمَل (ما)، وفي القُرآن الكريم كثير من

=

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦).

{وَقَالَ فِرْعَوْن ذَرُونِي أَقْتُل مُوسَى} لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكُفُّونَهُ عَنْ قَتْله {وَلْيَدْعُ رَبّه} لِيَمْنَعهُ مِنِّي {إِنِّي أَخَاف أَنْ يُبَدِّل دِينكُمْ} مِنْ عِبَادَتكُمْ إياي فتتبعوه {وأن يُظْهِر فِي الْأَرْض الْفَسَاد} مِنْ قَتْل وَغَيْره وَفِي قِرَاءَة أَوْ وَفِي أُخْرَى بِفَتْحِ الْيَاء وَالْهَاء وَضَمّ الدَّال[1].

=

هذا: {مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} [المؤمنون: ٢٤]، ولم يَقُل: ما هذا إلَّا بشَرًا؛ لأنه انتُقِض النَّفيُ، إِذَنْ: (ما) نافِية، و {كَيْدُ} مُبتَدَأ.

وقوله: {كَيْدُ الْكَافِرِينَ} الكَيْد والمَكْر والخِداع، وما أَشبَهَها، كلُّها كلِمات مُتقارِبة، معناها التَّوصُّل إلى الإيقاع بالخَصْم، من حيثُ لا يَشعُر، يَعنِي: يَتوصَّل إلى الإيقاع بخَصْمه بأسباب خَفيَّة، لا يَشعُر بها الخَصْم؛ لأن الكائِدَ والماكِر والخادِع لا يَأتِي بالشيء علَنًا هكذا، بل بأسبابٍ خَفيَّة، فهي التَّوصُّل إلى الإيقاع بالخَصْم من حيث لا يَشْعُر؛ أي: بأسباب خَفيَّة؛ فالكُفَّار لهم كيدٌ عَظيم، يَكيدون على الإسلام، وليسوا يَكيدون للإسلام؛ لأن هُناك فَرْقًا بين الكَيْد على الشيء، والكيد للشيء، قال الله تعالى: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ} [يوسف: ٧٦]، ولم يَقُل: على. لكن الكَيْد بالعَدوِّ هذا يُسمَّى كَيْدًا عليه، الكافِرون لهم كَيْد على الرُّسُل، يَكيدون كيدًا عظيمًا، وَيفعَلون كل سبَب يُدحِضون به حُجَّة الرُّسُل، ولكن مَهما عمِلوا؛ فالله ﷻ يَقولُ: قوله تعالى: {إِلَّا فِي ضَلَالٍ} كَيْدُهم في ضَلال؛ أي: في هَلاك وضَياع. كما أنَّ الضالَّ لا يَهتَدِي السَّبيل كذلك كَيْد هَؤلاء الكُفَّارِ لا يُوصِلهم إلى المَقصود.

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى} [غافر: ٢٦].

=

قال الطبري:"{وقال فرعون} لملئه: {ذروني أقتل موسى..}".

قال ابن كثير:"وهذا عَزْمٌ من فرعون- لعنه الله- على قتل موسى، عليه السلام، أي: قال لقومه: دعوني حتى أقتل لكم هذا".

قال الزمخشري:"كانوا إذا همّ بقتله كفوه بقولهم: ليس بالذي تخافه، وهو أقل من ذلك وأضعف، وما هو إلا بعض السحرة، ومثله لا يقاوم إلا ساحرا مثله، ويقولون: إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس، واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة، والظاهر أنّ فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبيّ، وأنّ ما جاء به آيات وما هو بسحر، ولكن الرجل كان فيه خب وجربزة، وكان قتالا سفاكا الدماء في أهون شيء، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذي يثل عرشه ويهدم ملكه، ولكنه كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك".

قوله تعالى: {وَلْيَدْعُ رَبَّهُ} [غافر: ٢٦]، أي:"وليدع ربه الذي يزعم أنه أرسله إلينا، فيمنعه منا".

قال الطبري:"{وليدع ربه} الذي يزعم أنه أرسله إلينا فيمنعه منا".

قال القشيري:"أي: ليستعن بربه".

قال ابن كثير:"أي: لا أبالي منه. وهذا في غاية الجحد والتجهرم والعناد".

قال السعدي:"زعم -قبحه الله- أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه".

وقوله تعالى: {وَلْيَدْعُ رَبَّهُ} [غافر: ٢٦]، يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه كان ذلك من فرعون يقول: {ذروني أقتل موسى وليدع ربه} يمنعني عن قتله إن كان صادقا فيما يدعي من الرسالة؛ لأن من أرسل رسولا، فهم أحد قتله أو الضرر به، منعه المرسل عن ذلك، فعلى ذلك يقول، والله أعلم.

الثاني: يكون ذلك أمرا من الله- عز وجل- موسى بالدعاء على فرعون بالهلاك؛ لما هم

=

قتله، وعلى ذلك الرسل - عليهم السلام - قد أذن لهم بالدعاء على فراعنتهم ومعانديهم ومكابريهم إذا بلغوا في العناد غايتهم والتمرد نهايتهم، والله أعلم.

قال الزمخشري:"قوله: {وَلْيَدْعُ رَبَّهُ}، شاهد صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه".

قوله تعالى: {إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ} [غافر: ٢٦]، أي:"إني أخاف أن يُبَدِّل دينكم الذي أنتم عليه".

قال الطبري:"يقول: إني أخاف أن يغير دينكم الذي أنتم عليه بسحره".

قال مقاتل:"يعني: عبادتكم إياي".

عن قتادة:"{إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ}، أي: أمركم الذي أنتم عليه".

قال الزمخشري: أي:"أن يغير ما أنتم عليه، وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام، بدليل قوله: {وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [الأعراف: ١٢٧]".

قال الماتريدي:"قد كان هناك تبديل الدين فإنه قد أظهر موسى - عليه السلام - دين الحق وآمن أتباعه، لكن كأنه أراد - والله أعلم - بقوله: {أن يبدل دينكم}، أي: يذهب بدينكم من الأصل".

قوله تعالى: {أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر: ٢٦]، أي:"أو أن يُظْهِر في أرض «مصر» الفساد".

قال الطبري: يقول:"أو أن يظهر في أرضكم أرض مصر، عبادة ربه الذي يدعوكم إلى عبادته، وذلك كان عنده هو الفساد".

قال ابن كثير:"يعني: موسى، يخشى فرعون أن يُضِلَّ موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم. وهذا كما يقال في المثل: «صار فرعون مُذَكِّرًا»، يعني: واعظا، يشفق على الناس من موسى، عليه السلام".

قال قتادة:"والفساد عنده أن يعمل بطاعة الله".

=

=

عن ابن جريج:"{إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد} قال: أن يقتلوا أبناءكم ويستحيوا نساءكم إذا ظهروا عليكم كما كنتم تفعلون بهم".

قال القشيري:"وكان المفسد هو فرعون، وهو كما قيل في المثل: «رمتنى بدائها وانسلّت»".

قال السعدي:"وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}".

قال الماتريدي:"ذكر اللعين، وسمى إظهار التوحيد في الأرض ودين الإسلام: فسادا ليعلم أن كل مدع شيئا وإن كان مبطلا في دعواه فعنده أنه على حق وأن خصمه على باطل؛ فلا يقبل قول أحد إلا ببرهان، ويحتمل أن فرعون اللعين أراد بقوله: {أو أن يظهر في الأرض الفساد}: قتل أبنائهم أي: يقتل موسى أبناءكم مجازاة لما قتلتم أنتم أبناءهم".

قال مقاتل:"يعني بالفساد: أن يقتل أبناءكم ويستحيى نساءكم كما فعلتم بقومه يفعله بكم".

قال الزمخشري: " الفساد في الأرض: التفاتن والتهارج الذي يذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش، ويهلك الناس قتلا وضياعا، كأنه قال: إنى أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه. أو يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه".

وقرئ: «وأن يظهر في الأرض الفساد»، بغير ألف.

قال الزجاج:"معنى «أو»: وقوع أحد الشيئين، فالمعنى على «أو»: أن فرعون قال: إني أخاف أن يبدل دينكم أو يفسد، فجعل طاعة الله تعالى هي الفساد، فيكون المعنى: إني أخاف أن يبطل دينكم ألبتة، فإن لم يبطله أوقع فيه الفساد. ومن قرأ:

=

=

«وأن»، فيكون المعنى: أخاف إبطال دينكم والفساد معه".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه} أعوذ بالله! وقد كانوا اقترحوا أن يقتلوا أبناء بني إسرائيل، ويستحوا نساءهم، لكن فرعون قال: {ذروني أقتل موسى وليدع ربه} اتركوني أقتل موسى. وإنما قال هذا؛ لأن موسى هو زعيم بني إسرائيل، ومعلوم أن قتل الزعيم يوجب وهن الأتباع وضعفهم.

وفي قوله: {وقال فرعون ذروني أقتل موسى} اتركوني، دليل على تمويه فرعون، وأنه رجل مموه كائد، خبيث كأنه يقول: إن الناس يمسكونني عن قتل موسى، ولولا أن الناس يمسكوني لقتلته. فتقول: اتركوني عليه، اتركوني أقتله. مع أنه لا أحد يستطيع أن يرده عن مراده؛ لأنه يقول لهم: {أنا ربكم الأعلى} [النازعات: ٢٤] ، لكن يموه {ذروني أقتل موسى} و {أقتل} مجزوم على أنه جواب الأمر {ذروني أقتل موسى} وجواب الأمر يكون مجزوما، وهل هو مجزوم به، أو بشرط مقدر؟ على قولين:

القول الأول: إنه مجزوم به.

والثاني: إنه مجزوم بشرط مقدر، والتقدير: إن تذروني أقتل موسى، والقاعدة عندنا في التفسير، وفي الحديث: أنه إذا دار الكلام بين التقدير وعدمه فالأصل عدم التقدير، وعلى هذا فنقول: {أقتل} فعل مضارع مجزوم على أنه جواب الأمر، وعلامة جزمه السكون.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{أقتل موسى}؛ لأنهم كانوا يكفونه عن قتله] بنى المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله هذا على ظاهر اللفظ، أنهم كانوا يكفونه، ويقول: ذروني أقتله، ولكن الذي نرى: أنه كذاب لم يكفه أحد عن قتله، ولا يستطيع أحد أن يكفه عن قتله أبدا، لكن هو أراد أن يموه؛ لأنه لا يستطيع أن يقتل موسى؛ فادعى أنه -أو تظاهر بأنه-

=

=

يكف عن قتله، ويقول: {ذروني أقتل موسى}.

قال: {وليدع ربه} تحد- والعياذ بالله-، والواو حرف عطف، واللام لام الأمر، و"يدع": فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف الواو، والضمة قبلها دليل عليه، وأصل "يدع": "يدعو".

وقوله: {أقتل} و {وليدع} هذا تحد سافر لموسى ومن أرسله سبحانه وتعالى، يعني: إن كان صادقا؛ فليدع هذا الرب الذي أرسله، قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ليمنعه مني].

وقوله: {وليدع ربه} ذكرنا لكم أن اللام لام الأمر، وهي ساكنة، فبعد الواو والفاء و (ثم) تكون ساكنة، قال الله تعالى: {فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع} [الحج: ١٥]، وقال تعالى: {ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم} [الحج: ٢٩]، وهنا قال: {وليدع ربه}.

وقوله: {ربه} ولم يقل: ربنا؛ لأنه لا يعترف ظاهرا بربوبية الله، وإنما أضاف الربوبية إلى موسى، من أجل التبكيت، يعني: كأنه يقول: هذا ربك الذى زعمت، إن كنت صادقا فليمنعك مني.

قال تعالى: {إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد}.

قوله: {إني أخاف أن يبدل دينكم} هذا الخوف حقيقي، هو يخاف أن موسى بما معه من الآيات يبدل دين هؤلاء؛ لأن دينهم التعبد لفرعون، وموسى يقول: اعبدوا الله؛ فإذا جاء بالآيات واتبعه الناس بدل الدين، فصار الناس بدل أن يتجهوا إلى فرعون ويعبدوه، يتجهون إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أن يبدل دينكم} من عبادتكم إياي فتتبعونه].

إذن: دينهم هو عبادتهم فرعون، فإذا دعاهم موسى إلى عبادة الله انصرفوا إلى الله، فتبدل الدين، واتبعوا موسى.

=

=

فقوله: "وأن يظهر فى الأرض الفساد" الفساد على زعمه هو: صرف الناس عن عبادته إلى عبادة الله، هذا وجه.

وجه آخر: تفريق الناس بدل أن كانوا متفقين عليه، ما بين خائف وراغب، يختلفون؛ فيكون بعضهم تابعا لموسى، وبعضهم لفرعون، وتفرق الأمة لا شك أنه فساد، فصار إظهار الفساد يدعيه من وجهين: الأول: تغيير الدين. والثاني: تفريق الأمة.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: ["وأن يظهر فى الأرض الفساد" من قتل وغيره]، القتل هذا غالبا من لازم الاختلاف، ولازم الاختلاف بين الأمة أن يصل بهم النزاع إلى حد المقاتلة أو غيره، ومنه تغير عبادة الناس من عبادة فرعون إلى عبادة الله.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وفي قراءة (أو)] إذن الشارح شرح على الواو؛ لأنه قال: [وفي قراءة (أو)] وهذه القراءة سبعية؛ بناء على الاصطلاح الذي تقدم، أنه إذا قال: وفي قراءة، أو قال بالضم والفتح مثلا؛ فهي سبعية. وإذا قال: قرئ فهي شاذة.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وفي أخرى بفتح الياء والهاء وضم الدال] "وأن يظهر فى الأرض الفساد" ضم الدال على أن "الفساد" فاعل "يظهر".

وهذه القراءات تختلف معنى من حيث الظاهر؛ لكن مؤداها واحد؛ لأنه إذا أظهر موسى الفساد في الأرض، ظهر الفساد، فيكون اختلاف القراءات فيه فائدة: أولا: الفائدة من (أو) والواو: إذا كانت (أو) صار أنه خاف أحد أمرين: أن يبدل الدين، أو أن يظهر الفساد، والواو {أن يبدل دينكم} و {أن يظهر} يكون خاف من اجتماع الأمرين؛ تبديل الدين، وظهور الفساد.

ولا بد من أحد الأمرين؛ إما أن يبدل الدين، وإما أن يظهر الفساد، وإن لم يبدل الدين لا بد أن يكون هناك قتل ونزاع، ولا بد أيضا من طرف آخر أن يجمع بين الأمرين؛ تبديل الدين، وظهور الفساد، بالنسبة (ليظهر) و (يظهر) نقول: إذا قصد

=

وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧).

{وقال موسى} لقومه وقد سمع ذلك {إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب}[1].

=

إظهار الفساد؛ فقد يظهر وقد لا يظهر، فإذا كان "وأن يظهر فى الأرض الفساد" صار حصول ما أراده من إظهار الفساد.

فالقراءات مؤداها واحد "وأن يظهر فى الأرض الفساد".

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ} [غافر: ٢٧].

قال الطبري: يقول:"وقال موسى لفرعون وملئه: إني استجرت أيها القوم بربي وربكم".

قال السمعاني:"قال أهل التفسير: لما سمع موسى كلام فرعون استعاذ بالله والتجأ إليه، وقال: {إني عذت بربي وربكم}".

قال ابن كثير:"لما بلغه قول فرعون: {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى}، قال موسى: استجرتُ بالله وعُذْتُ به، ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوما قال: «اللهم، إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك في نحورهم»".

قال الزمخشري: " لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله: قال لقومه: {إِنِّي عُذْتُ} بالله الذي هو ربى وربكم، وقوله: {وَرَبِّكُمْ} فيه بعث لهم على أن يقتدوا به، فيعوذوا بالله عياذه، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه".

قال البيضاوي:"صدر الكلام بأن تأكيدا وإشعارا على أن السبب المؤكد في دفع الشر هو العياذ بالله، وخص اسم الرب لأن المطلوب هو الحفظ والتربية، وإضافته إليه وإليهم حثا لهم على موافقته لما في تظاهر الأرواح من استجلاب

=

=

الإجابة".

قوله تعالى: {مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} [غافر: ٢٧]، أي:"من كل مستكبر عن توحيد الله وطاعته، لا يؤمن بيوم يحاسب الله فيه خلقه".

قال الطبري: يقول:"من كل متكبر عليه، تكبر عن توحيده، والإقرار بألوهيته وطاعته، لا يؤمن بيوم يحاسب الله فيه خلقه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بما أساء؛ وإنما خص موسى صلوات الله وسلامه عليه، الاستعاذة بالله ممن لا يؤمن بيوم الحساب، لأن من لم يؤمن بيوم الحساب مصدقا، لم يكن للثواب على الإحسان راجيا، ولا للعقاب على الإساءة، وقبيح ما يأتي من الأفعال خائفا، ولذلك كان استجارته من هذا الصنف من الناس خاصة".

قال مقاتل:"{من كل متكبر}، يعني: متعظم عن الإيمان، يعني: التوحيد، {لا يؤمن بيوم الحساب}، يعني: فرعون لا يصدق بيوم يدان بين العباد".

قال ابن كثير:"{مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ} أي: عن الحق، مجرم، {لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ}".

قال السمعاني:"ويوم الحساب: يوم القيامة".

قال الماتريدي:"يحتمل قوله: {من كل متكبر}، أي: متكبر على التوحيد، ويحتمل متكبر على الرسل لا يؤمن بما يدعوه الرسول إلى الإيمان بيوم الحساب".

قال الزمخشري: " قال: {مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ}، لتشمل استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة، وليكون على طريقة التعريض، فيكون أبلغ، وأراد بالتكبر: الاستكبار عن الإذعان للحق، وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة صاحبه ومهانة نفسه، وعلى فرط ظلمه وعسفه، وقال لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القسوة

=

=

والجرأة على الله وعباده، ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها".

قال السعدي:"فمنعه الله تعالى بلطفه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقيض له من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون وملئه".

قال العثيمين: قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وقال موسى} لقومه وقد سمع ذلك {إني عذت بربي وربكم} ...] إلى آخره.

قوله: {وقال موسى إني عذت} توجيه القول إلى قوم موسى ليس بصواب، بل قال موسى لفرعون: {إني عذت بربي وربكم} هذا إن كان فرعون قد قاله له مواجهة، يعني: قال: {ذروني أقتل موسى} مواجهة، فإن موسى قال: {إني عذت بربي وربكم} منكم، ولكن قال: {من كل متكبر} ، أما إذا كان فرعون يتحدث مع قومه وسمع موسى ذلك؛ فعلى ما قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ أن موسى لما سمع هذا قال: {إني عذت بربي وربكم} ، ولكن الظاهر -والله أعلم- أن المعنى الأول أصح أنه قاله لفرعون حين قال: {ذروني أقتل موسى} .

{وقال موسى إني عذت بربي وربكم} {عذت} بمعنى: اعتصمت بالله؛ لأن عياذة الشيء الاعتصام به، قال العلماء: ويقال: العياذ واللياذ الفرق بينهما أن اللياذ فيما يرجى، والعياذ فيما يخشى.

فمعنى {عذت} : اعتصمت بربي وربكم، بربي وربكم، هذه الربوبية العامة والخاصة، ربي هذه ربوبية خاصة وربكم ربوبية الله لفرعون وقومه من الربوبية العامة.

وقوله تعالى: {من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب} وهذا الوصف ينطبق تماما على فرعون، فهو متكبر طاغ عات عال، والمتكبر هو المترفع كبرياء عن الحق، وعلى الخلق، لأن الكبر إما عن الحق وإما على الخلق؛ لقول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله وسلم-: "الكبر بطر الحق وغمط الناس" "بطر الحق" يعني: احتقاره

=

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨).

{وَقَالَ رَجُل مُؤْمِن مِنْ آل فِرْعَوْن} قِيلَ هو بن عَمّه {يَكْتُم إيمَانه أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ} أَيْ لِأَنْ {يَقُول رَبِّيَ الله وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} بِالْمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَات {مِنْ رَبّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبه} أَيْ ضَرَر كَذِبه {وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْض الَّذِي يَعِدكُمْ} بِهِ مِنْ الْعَذَاب عَاجِلًا {إِنَّ الله لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِف} مُشْرِك {كَذَّاب} مُفْتَرٍ(١).

=

وازدراءه، وهذا التكبر عن الحق، و"غمط الناس" يعني: احتقارهم، وهذا التكبر على الخلق، وإذا اجتمع في قلب المرء تكبر على الخلق، وتكبر عن الحق فهو الهالك، والعياذ بالله.

وقوله: {لا يؤمن بيوم الحساب} يعني: يوم القيامة، وعدل عن قوله يوم القيامة إلى يوم الحساب؛ لأن الحساب أشد خوفا من يوم القيامة، إذا قيل للإنسان: إنك سوف تحاسب على ما عملت من خير وشر؛ فإنه سوف يخاف ويوجل ويستقيم.

وإنما ذكر الحساب دون القيامة؛ لأنه أشد تخويفا؛ فإن الإنسان إذا علم أنه سيحاسب على عمله، فسوف يرتدع عن المعاصي، ويقوم بالأوامر.

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ} [غافر: ٢٨].

قال النحاس:"يجوز أن يكون المعنى: وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون. على التقديم والتأخير، ويجوز أن يكون المعنى: وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه".

=

=

قال ابن كثير:"كان هذا الرجلُ يكتم إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى}، فأخذت الرجل غضبة لله ﷻ، و"أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"، كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ} أي: لأجل أن يقول ربي الله، اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه.... عن عروة بن الزبير قال: «قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء مما صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عُقْبة بن أبي مُعَيط، فأخذ بمَنْكب رسول الله ﷺ ولَوَى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدا، فأقبل أبو بكر، رضي الله عنه، فأخذ بمنكبة ودَفَع عن النبي ﷺ ثم قال: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ}»".

واختلف أهل العلم في هذا الرجل المؤمن، على أقوال:

أحدها: أنه كان ابن عم فرعون، قال وهو الذي نجا مع موسى. قاله السدي.

قال الطبري: كان" الرجل المؤمن من آل فرعون، قد أصغى لكلامه، واستمع منه ما قاله، وتوقف عن قتل موسى عند نهيه عن قتله".

قال الحسن:"قد كان مؤمنًا قبل أن يأتيهم موسى".

قال وهْب بن مُنَبِّه: " {وقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِن آلِ فِرْعَوْنَ}، اسمه: حزيقال".

عن أبي إسحاق السبيعي، قال: "كان اسم الرجل الذي آمن مِن آل فرعون: حبيب".

عن محمد بن إسحاق:"أن اسم هذا الرجل المؤمن من آل فرعون: خبرك". وفي رواية:"كان اسمه: جبران". وفي رواية:"جبريل".

الثاني: أنه كان من ولي العهد لفرعون، وكان يكون له من بعده. قاله الكلبي.

الثالث: أنه كان من بني إسرائيل، ولكنه كان يكتم إيمانه من آل فرعون. حكاه

=

=

الطبري.

وعلى هذا القول في الآية تقديم وتأخير، فمعناه: وقال رجل يكتم إيمانه من آل فرعون.

الرابع: أنه كان قبطيًا من جنسه ولم يكن من أهله، قاله مقاتل.

قال مقاتل:"يعني: قبطي مثل فرعون، يكتم إيمانه مائة سنة حتى سمع قول فرعون في قتل موسى- عليه السلام- فقال المؤمن: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله".

قال ابن كثير:"المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبْطيًا من آل فرعون".

قال الزجاج:"كان أن يسمى سمعان، وقيل: كان اسمه حبيبا".

وقال ابن جُرَيج عن ابن عباس: "لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذي قال: {يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ} [القصص: ٢٠]".

قوله تعالى: {وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ} [غافر: ٢٨]، أي:"وقد جاءكم بالبراهين القاطعة مِن ربكم على صِدْق ما يقول".

قال الزجاج:"أي: بما يدل على صدقه من آيات النبوة".

قال ابن كثير:"أي: كيف تقتلون رجلا لكونه يقول: «ربي الله»، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟".

قال الطبري:"تلك البينات من الآيات يده وعصاه".

عن ابن إسحاق: " {وقد جاءكم بالبينات من ربكم}، بعصاه وبيده".

قوله تعالى: {وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ} [غافر: ٢٨]، أي:"وإن يك موسى كاذبًا فإنَّ وبالَ كذبه عائد عليه وحده".

قال الطبري:"يقول: وإن يك موسى كاذبا في قيله: إن الله أرسله إليك يأمركم بعبادته، وترك دينكم الذي أنتم عليه، فإنما إثم كذبه عليه دونكم".

=

=

قال الزجاج:"أي: فلا يضركم".

قال ابن كثير:"يعني: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذبا فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة".

قوله تعالى: {وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ} [غافر: ٢٨]، أي:"وإن يك صادقًا لحقكم بعض الذي يتوعَّدكم به".

قال الطبري:"يقول: وإن يك صادقا في قيله ذلك، أصابكم الذي وعدكم من العقوبة على مقامكم على الدين الذي أنتم عليه مقيمون، فلا حاجة بكم إلى قتله، فتزيدوا ربكم بذلك إلى سخطه عليكم بكفركم سخطا".

قال ابن كثير: يعني: " وإن يك صادقا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقا، فينبغي على هذا ألا تتعرضوا له، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه. وهكذا أخبر الله تعالى عن موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة في قوله: {وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ. أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ. وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ. وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ} [الدخان: ١٧- ٢١] وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله تعالى عباد الله، ولا يمسوه بسوء، وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته، قال الله تعالى: {قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} [الشورى: ٢٣] أي: إلا ألا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة، فلا تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس. وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكان فتحًا مبينًا".

قال الزجاج:"وهذا من لطيف المسائل، لأن النبي- ﷺ- إذا وعد وعدا وقع

=

=

الوعد بأسره، لم يقع بعضه، فالسؤال في هذا من أين جاز أن يقول بعض الذي يعدكم، وحق اللفظ كل الذي يعدكم فهذا باب من النظر يذهب فيه المناظر إلى الزام الحجة بأيسر ما في الأمر، وليس في هذا نفي إصابة الكل، ومثل هذا قول الشاعر:

قَدْ يُدْرِكُ الْمَتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ... وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

إنما ذكر البعض ليوجب له الكل، لا أن البعض هو الكل ولكن للقائل إذا قال أقل ما يكون للمتأني إدراك بعض الحاجة، وأقل ما يكون للمستعجل الزلل، فقد أبان فضل المتأني على المستعجل بما لا يقدر الخصم أن يدفعه. وكان مؤمن آل فرعون قال لهم: أقل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وفي بعض ذلك هلاككم، فهذا تأويله والله أعلم".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} [غافر: ٢٨]، أي:"إن الله لا يوفق للحق مَن هو متجاوز للحد، بترك الحق والإقبال على الباطل، كذَّاب بنسبته ما أسرف فيه إلى الله".

قال الطبري:"يقول: إن الله لا يوفق للحق من هو متعد إلى فعل ما ليس له فعله، كذاب عليه يكذب، ويقول عليه الباطل وغير الحق".

قال ابن كثير: أي: لو كان هذا الذي يزعم أن الله أرسله إليكم كاذبا كما تزعمون، لكان أمره بينا، يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، كانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديدا ومنهجه مستقيما، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله، وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله".

عن قتادة: " {إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب}: مشرك أسرف على نفسه بالشرك".

وقال السدي:"المسرف: هو صاحب الدم، ويقال: هم المشركون".

=

قال العثيمين: قوله تعالى: {وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا} إلى آخره؛ لما سمع هذا الرجل المؤمن بتهديد فرعون لموسى بالقتل، قال ذلك، وتأمل سياق الآية، {وقال رجل مؤمن} لم يعينه باسمه، بل قال: {رجل مؤمن} كتمانا له؛ لأنه ليس المقصود معرفة الاسم، إنما المقصود معرفة القضية، أما تعيين الأسماء فهي من فضول العلم، بمعنى: إن حصل فهذا طيب، وإن لم يحصل فليس ذا أهمية.

قوله: {وقال رجل مؤمن من آل فرعون} مؤمن بالله، وربما نقول: مؤمن بموسى أيضا. {من آل فرعون} يحتمل أن المراد من قرابته، لأن آل الإنسان قرابته، ويحتمل أن المراد من أتباعه؛ لأن الآل تطلق على الأتباع، وأيا كان فالرجل ليس من بني إسرائيل، بل هو من قوم فرعون، سواء كان من قرابته، أو من قومه الذين ينتمون إليه، وقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قيل هو ابن عمه] هذا قول أشار المفسر إلى ضعفه بكلمة: قيل.

قوله: {يكتم إيمانه} أي: يخفيه ويسره خوفا على نفسه، وفي قوله: {رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه} هذه ثلاث صفات: مؤمن، من آل فرعون، يكتم إيمانه.

وقد قال علماء النحو: إن النكرة إذا وصفت أول مرة فإن ما بعدها يجوز أن يكون حالا، ويجوز أن يكون صفة، وعلى هذا؛ فيجوز أن يكون {من آل فرعون} حال، و {يكتم إيمانه} حال، ويجوز أن يكون {من آل فرعون} صفة ثانية، و {يكتم إيمانه} حال، ويجوز أن تكون {من آل فرعون} صفة ثانية، و {يكتم إيمانه} صفة ثالثة، {يكتم إيمانه}؛ أي: يخفيه عن فرعون وقومه.

قوله: {أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله} الاستفهام هنا للإنكار، يعني: كيف تقتلون رجلا لم يأت بشيء إلا أنه يقول ربي الله؟ ! وهذا كقوله تعالى: {وما نقموا

=

منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} [البروج: ٨]، وقوله: {أن يقول} (أن) هذه مصدرية على تقدير اللام، ولهذا قدرها المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [أي: لأن يقول] فعلى هذا تكون (أن) منزوعة اللام، التي للتعليل؛ أي: بقوله ربي الله، لا فرعون. وهم يرون أن ربهم فرعون.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وقد جاءكم بالبينات} بالمعجزات الظاهرات من ربكم]، {وقد جاءكم بالبينات} الباء للمصاحبة، والبينات صفة لموصوف محذوف، وتقديرها -خلافا للمؤلف- الآيات، أي: جاءكم بالآيات البينات، أي: الظاهرات التي تدل دلالة قاطعة على أنه نبي.

قوله: {وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم} هذا يسمى عند علماء المنطق (السبر والتقسيم)، لأن موسى الآن إما أن يكون صادقا، وإما أن يكون كاذبا، وليس هناك رتبة بين الصدق والكذب؛ لأنه هو يقول: إنه رسول الله، فإما أن يكون صادقا في هذا، وإما أن يكون كاذبا، وعلى كل فإنه لا يضركم أن تصدقوه؛ ولهذا قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وإن يك كاذبا فعليه كذبه} أي: ضرر كذبه]، وسوف يوقع الله به الخزي والعار لو كذب على الله، قال الله تعالى: {فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه} [الزمر: ٣٢]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وأن الله تعالى يهتك سره ويبين كذبه؛ فيكون كذبه عليه.

وقوله: {وإن يك صادقا} في أنه رسول وكذبتموه أنتم أصابكم بعض الذي يعدكم، قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من العذاب عاجلا]، وكذلك يصبكم في الآخرة آجلا؛ فصار الآن الخطر عليه إن كان كاذبا وأنتم سوف تسلمون، والخطر عليكم إن كان صادقا، وهو سوف ينجو.

وهذا لا شك أنه من تمام نصحه أن الرجل تنزل مع آل فرعون إلى هذا التنزل، لم يقل: إنه صادق مع أنه كان يؤمن به، لكن هذا من باب التنزل.

=

يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩).

{يَا قَوْم لَكُمُ الْمُلْك الْيَوْم ظَاهِرِينَ} غَالِبِينَ حَال {فِي الْأَرْض} أَرْض مِصْر {فَمَنْ يَنْصُرنَا مِنْ بَأْس الله} عَذَابه إِنْ قَتَلْتُمْ أَوْلِيَاءَهُ {إِنْ جَاءَنَا} أَيْ لَا نَاصِر لَنَا {قَالَ فِرْعَوْن مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى} أَيْ مَا أُشِير عَلَيْكُمْ إِلَّا بِمَا أُشِير بِهِ عَلَى نَفْسِي وَهُوَ قَتْل مُوسَى {وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيل الرَّشَاد} طَرِيق الصَّوَاب[1].

=

وهنا قال: {أتقتلون رجلا} ولم يقل: أتقتلون موسى، إبعادا للتهمة عن نفسه؛ لئلا يظن أحد أنه كان يعرف موسى وأنه يدافع عنه عن معرفة، ولكنه أتى بـ {رجلا} النكرة إبهاما للأمر وشدة في إخفائه.

قوله: {إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب} {مسرف} أي: متجاوز للحد، {كذاب} أي: ذو كذب، وهل هذه الجملة تعليلية؟ وهل هي تعود على موسى، أو تعود على فرعون؟

نقول: هي صالحة للأمرين، كل من كان مسرفا كذابا، فإن الله لا يهديه، وهذا الوصف ينطبق على فرعون، فإنه مسرف متجاوز للحد، كذاب، مدع ما ليس له، يقول: {أنا ربكم الأعلى} [النازعات: ٢٤]، وكذب في ذلك؛ فهو مسرف كذاب؛ كذلك أيضا في مقام المجادلة والتنزل تنطبق على موسى لو كان كاذبا؛ فإنه يكون مسرفا متجاوزا للحد، وادعائه الرسالة وهو كاذب، وكذلك كذاب لأنه ادعى ما ليس صادقا فيه.

وعلى كل حال: فالجملة هنا صالحة لأن تكون منطبقة على فرعون، وهي منطبقة على الحقيقة، أو على موسى من باب التنزل مع الخصم.

(١) قوله تعالى: {يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ} [غافر: ٢٩].

=

=

قال يحيى: "يعني غالبين على أهل مصر في القهر لهم".

قال الطبري: "يقول: لكم السلطان اليوم والملك ظاهرين أنتم على بنى إسرائيل في أرض مصر".

قال ابن كثير: "أي: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله".

قال الزجاج: "أعلمهم الله أن لهم الملك في حال ظهورهم على جميع الناس".

عن السدي: {يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ}،قال: "غالبين على أرض مصر قاهرين لأهلها".

قوله تعالى: {فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا} [غافر: ٢٩]، أي: "فمَن يدفع عنا عذاب الله إن حلَّ بنا".

قال الطبري: "يقول: فمن يدفع عنا بأس الله وسطوته إن حل بنا، وعقوبته أن جاءتنا".

قال ابن كثير: "أي: لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئا من بأس الله إن أرادنا بسوء".

قال الزجاج: "أعلمهم أن بأس الله لا يدفعه دافع ولا ينصر منه ناصر".

وقوله تعالى: {يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا} [غافر: ٢٩]، يحتمل وجهين :

أحدهما: يحتمل أن يقول ذلك بعد ما سألوه أن يتبع دينهم وما هم فيه: إني لو اتبعتكم وأجبتكم ومعكم الملك والحشم والغلبة وليس معي ذلك، فإذا جاء بأس الله وعذابه فصرتم أنتم ممتنعين عنه بما معكم، فمن ينصرنا من عذاب الله وليس معنا ذلك؟! وإن كان يعلم حقيقة أن ما معهم من الغلبة لا يمنع من عذاب الله،

=

=

لكن قال ذلك بناء على اعتقادهم؛ إظهارا للعذر عندهم؛ كي لا يقدموا على قتله لصيانة حياته، ومثل هذا لا بأس به، والله أعلم.
والثاني: يقول على الرفق بهم وإظهار الموافقة لهم في الظاهر؛ يقول: إنه قد جاءنا من الله البينات ما أوضح الحق وبين السبيل، فإذا رددنا ذلك وكذبناهم جاءنا بأس الله جملة وعذابه، فمن يمنعنا عنه وينصرنا من عذابه إذا خالفنا أمره وتركنا اتباع دينه؟! على هذين القولين يخرج القول منه، والله أعلم.
قوله تعالى: {قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى} [غافر: ٢٩]، أي:"قال فرعون لقومه مجيبًا: ما أريكم -أيها الناس- من الرأي والنصيحة إلا ما أرى لنفسي ولكم صلاحًا وصوابًا".
قال الضحاك:"ما أُعْلِمُكم إلا ما أعلم".
قال الطبري:"يقول: قال فرعون مجيبا لهذا المؤمن الناهي عن قتل موسى: ما رأيكم أيها الناس من الرأي والنصيحة إلا ما أرى لنفسي ولكم صلاحا وصوابا".
قال السمعاني:"يعني: ما أرشدكم إلا إلى ما أنا عليه، وما رأيت لكم من الحق".
قال ابن كثير:"{قَالَ فِرْعَوْنُ} لقومه، رادًّا على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون: {مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى} أي: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به من الرسالة {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزلَ هَؤُلاءِ إِلا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ بَصَائِرَ} [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل: ١٤]، فقوله: {مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى} كذب فيه وافترى، وخان الله ورسوله ورعيته، فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: {وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ}".
قوله تعالى: {وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر: ٢٩]، أي:"وما أدعوكم إلا

=

=

إلى طريق الحق والصواب".

قال الطبري: يقول:"وما أهديكم إلا سبيل الرشاد. يقول: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصواب في أمر موسى وقتله، فإنكم إن لم تقتلوه بدل دينكم، وأظهر في أرضكم الفساد".

قال ابن كثير:"أي: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضا في ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تعالى: {فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ} [هود: ٩٧]، وقال تعالى: {وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى} [طه: ٧٩]، وفي الحديث: «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا لم يَرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»".

وعن معاذ بن جبل أنه قرأ: «إلا سبيل الرشاد»، بتشديد الشين.

قال السمعاني: أي: سبيل الله، والرشاد: هو الله تعالى".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض}، تأمل حسن خطاب هذا الرجل، كان بالأول ينكر عليهم: {أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله} ولما أراد أن يتودد إليهم، وأن يبين لهم نعمة الله عليهم، تلطف في الخطاب فقال: {ياقوم} وكأنه واحد منهم، وهذا اللطف في الخطاب -في جانب الدعوة- من الأمور التي أمر الله بها شرعا، والتي يهدي بها الله من شاء من عباده قدرا؛ فقد قال الله لموسى وهارون: {اذهبا إلى فرعون إنه طغى (٤٣) فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى} [طه: ٤٣- ٤٤].

ثم إن القدر يؤيد هذا، فكم من إنسان لان بسبب القول اللين، وكم من إنسان اعتدى بسبب العدوان في القول؛ ولهذا تجد هذا الرجل من حكمته أنهم لما هددوا موسى بالقتل أنكر عليهم علنا {أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله} ولما أراد أن يبين لهم النعم ويدعوهم إلى الحق، قال: {ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في

=

=

الأرض} {ظاهرين} أي: غالبين، عالين على أهلها.

وقوله: {لكم الملك اليوم} يعني: أنتم الآن مالكون، وتأمل أيضا حسن هذا الخطاب والتحرز، {لكم الملك اليوم}، يعني: والمستقبل لا يعلم، قد يزول ملككم، لكن اليوم أنتم في نعمة، غالبين في الأرض، ظاهرين على أهلها، فيجب أن تشكروا هذه النعمة.

وقوله: {في الأرض} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أرض مصر] وعلى هذا فـ (أل) في الأرض للعهد الذهني؛ أي: الأرض المعهودة أرضكم.

وقوله: {فمن ينصرنا من بأس الله} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عذابه إن قتلتم أولياءه] {إن جاءنا} {فمن ينصرنا} (من) هذه استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد ينصرنا، والنصر هنا بمعنى المنع؛ أي: فما الذي يمنعنا من بأس الله، والبأس هو العذاب.

وقوله: {إن جاءنا} يعني: إن نزل بنا، فهل أحد ينصرنا، حتى لو كنا اليوم ظاهرين في الأرض، وكنا ملوكا فإنه إذا نزل بنا بأس الله فلا أحد يمنعنا.

وقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إن قتلتم أولياءه] قد يقال: إن هذا الذي عينه المفسر يدل عليه السياق، لأنه أنكر عليهم أن يقتلوا موسى، وقد يقال: إن المراد إن بقيتم على الكفر والعدوان ومنه قتل موسى، وهذا أصح وأعم. يعني: ما الذي ينصرنا من بأس الله إن جاءنا؟ لكوننا مستحقين لهذا العذاب بالكفر وقتل أوليائه.

قال فرعون مجيبا لهذا الرجل: {ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد} أكذب قول في الأرض هو هذا، {ما أريكم إلا ما أرى} يعني: ما أظهر لكم شيئا حتى تروه إلا ما أرى، إلا ما أرى أنه الحق، وهذه دعوة كاذبة، لأنه يعلم أن الحق في اتباع موسى، كما قال له موسى: {لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يافرعون مثبورا} [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم} [النمل: ١٤]، لكن جحدوا ظلما

=

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠).

{وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْم إِنِّي أَخَاف عَلَيْكُمْ مِثْل يَوْم الْأَحْزَاب} أَيْ يَوْم حِزْب بعد حزب.

=

وعلوا.

فهو يقول: {ما أريكم إلا ما أرى}؛ أي: ما أرى أنه صواب وأنه حق. وهذه الدعوة كاذبة، وإن كان أراد ما أريكم إلا ما أرى أنه من مصلحتي؛ فهذا صادق لكنه غاش.

وعلى كل حال: فالجملة مؤاخذ عليها؛ لأنها إما كذب وإما غش، إما كذب إن كان يقول: ما أريكم إلا ما أرى من الصواب، وإما غش إذا كان يرى أن الحق خلاف ما أراهم لكنه لمصلحته أراهم ما رأى.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ما أشير عليكم إلا ما أشير به على نفسي وهو قتل موسى]، هذا أيضا تخصيص في غير محله؛ لأن فرعون لا يهمه أن يقولوا: اقتل موسى أو لا تقتله؛ لأنه مصمم على ما يريد، لكن أهم شيء ألا يكفروا به، وألا يبدل دينهم، وعلى هذا فالمقصود بقوله: {إلا ما أرى} في بقائكم على دينكم، هذا معنى الآية، لأن أصل الإنكار على موسى والتهديد بقتله أصله أنه خاف أن يبدل الدين.

قال: {ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد} يعني: ما أدلكم إلا على سبيل الرشاد، والرشاد ضد الغي؛ ولهذا يقال: رشد وغي. {قد تبين الرشد من الغي} [البقرة: ٢٥٦] فالرشاد هو ضد الغي، يعني: الصواب والسداد، وسبيل بمعنى: طريق، وهو أكذب الكاذبين؛ لأنه ليس يهديهم سبيل الرشاد، بل يهديهم سبيل الغي والعناد والاستكبار والكفر؛ فصار كاذبا في الجملتين {ما أريكم إلا ما أرى} إذا قلنا: إن المعنى: إلا ما أرى أنه صواب {وما أهديكم إلا سبيل الرشاد} فهو أيضا كاذب لأنه بلا شك يهديهم سبيل الغي والفساد.

مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١).

{مِثْل دَأْب قَوْم نُوح وَعَادٍ وَثَمُود وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدهمْ} مِثْل بَدَل مِنْ مِثْل قَبْله أَيْ مِثْل جَزَاء عَادَة مَنْ كَفَرَ قَبْلكُمْ من تعذيبهم في الدنيا {وما الله يريد ظلما للعباد}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠)} [غافر: ٣٠].

قال مقاتل:"يعني: مثل أيام عذاب الأمم الخالية الذين كذبوا رسلهم".

قال الطبري: " وقال المؤمن من آل فرعون لفرعون وملئه: يا قوم إني أخاف عليكم بقتلكم موسى إن قتلتموه مثل يوم الأحزاب الذين تحزبوا على رسل الله نوح وهود وصالح، فأهلكهم الله بتجرئهم عليه، فيهلككم كما أهلكهم".

قال السعدي:"{وَقَالَ الَّذِي آمَنَ} مكررًا دعوة قومه غير آيس من هدايتهم، كما هي حالة الدعاة إلى الله تعالى، لا يزالون يدعون إلى ربهم، ولا يردهم عن ذلك راد، ولا يثنيهم عتو من دعوه عن تكرار الدعوة فقال لهم: {يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأحْزَابِ} يعني الأمم المكذبين، الذين تحزبوا على أنبيائهم، واجتمعوا على معارضتهم".

قال ابن كثير:"هذا إخبار من الله، ﷻ، عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آل فرعون: أنه حذر قومه بأس الله في الدنيا والآخرة فقال: {يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأحْزَابِ} أي: الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله، وما رده عنهم راد، ولا صده عنهم صاد".

قال الزجاج:"الأحزاب -ههنا-: قوم نوح وعاد وثمود ومن أهلك بعدهم =

=

وقبلهم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وقال الذي آمن ياقوم إني أخاف عليكم} في الأول قال: {وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه}، وهنا قال: {وقال الذي آمن} فنقول: كرر هذا الوصف لهذا الرجل لطول الحديث والفصل، قال: {وقال الذي آمن} أما اختلاف الجملتين فإن الثانية تؤكد الأولى، بأن هذا الرجل قد اصطبغ بالإيمان، وحقق الإيمان.

وقوله: {وقال الذي آمن ياقوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب} {ياقوم} يعني بذلك: فرعون وقومه، وهذا من باب التلطف في المقال، {إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب} يعني: الطوائف السابقة، وكأن هذا الرجل ملهم، عنده علم بأحوال الأمم السابقين، وسيأتي -إن شاء الله- الكلام على فائدة هذه الجملة.

وقوله: {وقال الذي آمن ياقوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب} {ياقوم} معروف أن ياء النداء إذا دخلت على نكرة مقصودة، فإنها تبنى على الضم، كما إذا دخلت على معرفة، وهنا لم تكن مبنية على الضم، بل آخرها الكسر، فيقال: إن أصلها (يا قومي)، ولكن حذفت الياء للتخفيف، وفي قوله: {ياقوم} تلطف بدعوتهم، وإلا فهم معادون له؛ لأنهم كفار وهو مؤمن، لكن من باب التلطف في الدعوة إلى الله ﷻ قال لهم: {ياقوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب} أكد الجملة، وإن كانت مستقرة في نفسه، لكن المخاطب بها فعله فعل المنكر لها.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {مثل يوم الأحزاب} أي: يوم حزب بعد حزب]، ثم أبدل منه قوله: {مثل دأب قوم نوح} " {دأب} بمعنى: عادة، وذكر قوم نوح؛ لأنه هو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض، {وعاد وثمود}، وكل هؤلاء متقدمون بعيدو العهد، قبل موسى وقبل فرعون، فهم من أوائل الرسل. {قوم نوح وعاد}، (عاد) معطوفة على {قوم}، ولا يصح أن تكون معطوفة على {نوح}، لأنها لو كانت

=

=

معطوفة على {نوح} لكان المعنى مثل قوم عاد، ولا يستقيم الكلام، بل مثل عاد وهم قوم هود، وثمود قوم صالح.

وقوله: {مثل دأب قوم نوح} (مثل) هذه بدل من (مثل) التي قبلها، {مثل يوم الأحزاب} {مثل دأب} والبدل أحد التوابع الأربعة المعروفة من قول ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

يتبع في الإعراب الاسماء الأول ... نعت وتوكيد وعطف وبدل

وعلامة البدل أنه يصح أن محل محل المبدل منه، يعني: يصح أن يحذف المبدل منه ويحل محله البدل.

فإن قال قائل: ما الفائدة من أن نأتي بالمبدل منه ثم بالبدل، لماذا لم نأت بالبدل من أول الأمر؟

فالجواب: لا بد أن يكون هناك فائدة، إما تفصيل بعد إجمال، أو تبيين بعد إبهام، أو ما أشبه ذلك، ولا بد أن يكون للبدل فائدة.

وقوله: {مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود} ... إلى آخره. مثل دأبهم، هو لا يريد مثل دأبهم، يريد مثل جزاء دأبهم؛ لأن هناك دأبا وهناك جزاء؛ فالجزاء من الله، والدأب من الأمم، أو من الأحزاب، {مثل دأب} يعني مثل جزاء دأبهم، وبين الله تعالى دأبهم بقوله: {كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله} [الأنفال: ٥٢] أو {كذبوا بآيات} [الأنفال: ٥٤] هذا هو دأبهم.

وقوله: {مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود} هؤلاء كلهم دأبهم التكذيب بالرسل والكفر بهم، {والذين من بعدهم} من بعد قوم نوح، وهم أول الأمم، وعاد، وسيأتي أن هودا أشار إلى يوسف بن يعقوب بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مثل بدل من مثل قبله أي: مثل جزاء عادة من كفر]. فأفاد المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ أن في الكلام تقديرا أي: أن في الكلام شيئا محذوفا، وهو جزاء، أي:

=

=

مثل جزاء دأبهم؛ لأن هذا هو الذي يخاف منه أن ينال هؤلاء القوم عقوبة، كما نال هؤلاء.

فإذا قال قائل: كيف يطلق العمل على الجزاء؟

قلنا: لأنه سببه، وهذا في القرآن كثير أن الله تعالى يطلق العمل على الجزاء مثل: {ذوقوا ما كنتم تعملون} [العنكبوت: ٥٥]، المعنى: ذوقوا جزاءه، لكن يعبر به - أي: بالعمل- عن الجزاء، لأن الجزاء من جنس العمل، وحتى يحذر الإنسان من عمله، كما يحذر من عقوبة عمله.

يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مثل بدل من مثل قبله؛ أي: مثل جزاء عادة من كفر قبلكم من تعذيبهم في الدنيا]، إذن مثل دأب ما هي مثل عادتهم، إلا إذا أريد إضافتها إلى المفعول به؛ أي: مثل العادة التي أوقعها الله بهم، لكن كان المفسر جعلها مضافة إلى الفاعل، وأنها على تقدير مثل جزاء عادة؛ لأن الجزاء من الله، والعادة من هؤلاء الأقوام من الأحزاب، العادة عادة الأحزاب، والعقوبة عقوبة الله.

فإما أن نقول: إن الكلام على تقدير: مثل عقوبة عادة قوم نوح.. إلى آخره، أو نقول: مثل دأب قوم نوح؛ أي: مثل العادة التي فعلها الله بهم، والمعنى واحد. والمراد أنه يخاف عليهم مثل هذه الأيام التي هي عقوبة لهؤلاء الذين كذبوا رسله.

وقوله: {وما الله يريد ظلما للعباد} (ما) نافية وهي حجازية؛ لأن هذا القرآن باللغة الحجازية، انظروا إلى قوله تعالى: {ما هذا بشرا} ولم يقل: ما هذا بشر؛ فنحمل كل ما كان على شاكلتها عليها، والصحيح أن {وما الله يريد ظلما للعباد} لا تتبين أنها حجازية أو تميمية؛ لأن الخبر جملة ليس مفردا، يظهر فيه النصب؛ لكن يحمل ما لا يظهر فيه الإعراب على ما ظهر فيه الإعراب، وهو قوله: {ما هذا بشرا}.

ثم اعلم أن القرآن إنما كتب بلغة قريش، كما قال عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للذين كتبوا

=

وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢).

{وَيَا قَوْم إِنِّي أَخَاف عَلَيْكُمْ يَوْم التَّنَادِ} بِحَذْفِ الْيَاء وَإِثْبَاتهَا أَيْ يَوْم الْقِيَامَة يَكْثُر فِيهِ نِدَاء أَصْحَاب الْجَنَّة أَصْحَاب النَّار وَبِالْعَكْسِ وَالنِّدَاء بِالسَّعَادَةِ لِأَهْلِهَا وَبِالشَّقَاوَةِ لِأَهْلِهَا وَغَيْر ذَلِكَ.

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣).

{يَوْم تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ} عَنْ مَوْقِف الْحِسَاب إلَى النَّار {مَا لَكُمْ مِنَ الله} أَيْ مِنْ عذابه {من عاصم} مانع {ومن يضلل الله فما له من هاد}(١).

=

المصاحف قال: إن اختلفتم في شيء فاجعلوه على حرف قريش. يعني: على لغتها.

فقوله: {وما الله يريد ظلما للعباد} (ما) نافية، تعمل عمل ليس لتمام الشروط، ولفظ الجلالة اسمها، ويريد الجملة جملة هي خبرها، ولو كانت اسما لكان التقدير: وما الله مريدا.

وقوله: {وما الله يريد ظلما للعباد} الظلم يتناول شيئين: إما الزيادة في الآثام، وإما النقص في الحسنات. وكله ممتنع بالنسبة لله ﷻ لا يمكن أن يقع منه، ولا يمكن أن يريده؛ لكمال عدله.

(١) قوله تعالى: {مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ} [غافر: ٣١].

قال الطبري: " يقول: يفعل ذلك بكم فيهلككم مثل سنته في قوم نوح وعاد وثمود وفعله بهم، {والذين من بعدهم}، يعني: قوم إبراهيم، وقوم لوط، وهم أيضا من الأحزاب".

قال السعدي:"أي: مثل عادتهم في الكفر والتكذيب وعادة الله فيهم بالعقوبة

=

=

العاجلة في الدنيا قبل الآخرة".

قال مقاتل:"يعني: مثل أشباه {قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ}".

عن ابن عباس: " {مثل دأب قوم نوح}، يقول: مثل حال".

قال ابن زيد:"مثل ما أصابهم".

عن قتادة: " {والذين من بعدهم}، قال: " هم الأحزاب: قوم نوح، وعاد، وثمود".

قوله تعالى: {وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ} [غافر: ٣١]، أي:"وما الله سبحانه يريد ظلمًا للعباد، فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل المؤمن من آل فرعون لفرعون وملئه: وما أهلك الله هذه الأحزاب من هذه الأمم ظلما منه لهم بغير جرم اجترموه بينهم وبينه، لأنه لا يريد ظلم عباده، ولا يشاؤه، ولكنه أهلكهم بإجرامهم وكفرهم به، وخلافهم أمره".

قال ابن كثير:"أي: إنما أهلكهم الله بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره. فأنفذ فيهم قدره".

قال الزمخشري:"يعني: أن تدميرهم كان عدلا وقسطا، لأنهم استوجبوه بأعمالهم، وهو أبلغ من قوله تعالى: {وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}، حيث جعل المنفي إرادة الظلم، لأنّ من كان عن إرادة الظلم بعيدا، كان عن الظلم أبعد".

قوله تعالى: {وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢)} [غافر: ٣٢].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل هذا المؤمن لفرعون وقومه: {ويا قوم إني أخاف عليكم} بقتلكم موسى إن قتلتموه عقاب الله يوم ينادي الناس بعضهم بعضا، إما من هول ما قد عاينوا من عظيم سلطان

الله، وفظاعة ما غشيهم من كرب ذلك اليوم، وإما لتذكير بعضُهم بعضا إنجاز إلله

=

=

إياهم الوعد الذي وعدهم في الدنيا، واستغاثة من بعضهم ببعض، مما لقي من عظيم البلاء فيه".

وفي قوله تعالى: {يَوْمَ التَّناد} [غافر: ٣٢]، وجهان من القراءة:

أحدهما: «التَّنادِّ»، بتشديد الدال. قرأ بها أبو بكر الصِّدِّيق، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وابن جبير، وأبو العالية، والضحاك، والكلبي.

قال الزجاج:"من قرأ: «يوم التَنادِّ» بتشديد الدال، فهو من قولهم: نَدَّ فلان، ونَدَّ البعير: إذا هرب على وجهه، ومما يدل على هذا قوله: {يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ} [غافر: ٣٣]، وقوله: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥)} [عبس: ٣٤- ٣٥]".

قال ابن قتيبة: يقال: ندَّت الإبل؛ إذا شردتْ وذهبتْ".

وكان الكلبي: "يندّون كما يندّ البعير".

الثاني: «التَّنادِ» بغير ياءٍ، قرأ بها عاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي. وأثبت الياء في الوصل والوقف ابن كثير، ويعقوب، وافقهم أبو جعفر في الوصل.

ورُوِي عن الحسن البصري أنه قرأ: «يَوْمَ التَّنَادِي»، بإثبات الياء وتخفيف الدال".

قال الزجاج:"الأصل: «التنادي»، وإثبات الياء الوجه، وحذفها حسن جميل، لأن الكسرة تدل عليها الياء وهو رأس آية، وأواخر هذه الآيات على الدال".

وأما قراءة التخفيف، فهي من: «النداء»، وفيها للمفسرين أقوال:

أحدها: أنه عند نفخة الفزع ينادي الناس بعضهم بعضا. رواه ابو هريرة عن رسول الله ﷺ. وبه قال ابن قتيبة.

وقال الضحاك: "إذا كان يوم القيامة، أمر الله السماء الدنيا فتشقَّقت بأهلها، ونزل من فيها من الملائكة، فأحاطوا بالأرض ومن عليها، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم

=

=

الرابعة، ثم الخامسة، ثم السادسة، ثم السابعة، فصفوا صفا دون صف، ثم ينزل الملك الأعلى على مجنبته اليسرى جهنم، فإذا رآها أهل الأرض نَدُّوا فلا يأتون قطرا من أقطار الأرض إلا وجدوا السبعة صفوف من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قول الله: {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ} وذلك قوله: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ} وقوله: {يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ}، وذلك قوله: {وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا}".

الثاني: أنه نداء أهل الجنة والنار بعضهم بعضًا كما ذكر في الأعراف. وهذا قول قتادة ، ومقاتل.

قال قتادة:"يوم يتنادى كل قوم بأعمالهم ، فينادي أهل النار أهل الجنة، وأهل الجنة أهل النار".

قال الفراء:"ومن قرأها: «التناد» -خفيفة-، أراد يوم يدعو أهل الجنة أهل النار، وأهل النار أهل الجنة، وأصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم".

الثالث: أنه ينادى فيه كلُّ أُناس بإمامهم بسعادة السعداء وشقاوة الأشقياء. ذكره الزجاج.

قال ابن كثير:"لأن الميزان عنده ملك، وإذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته: ألا قد سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا. وإن خف عمله نادى: ألا قد شقي فلان بن فلان".

الرابع: أنه قولهم: يا حسرتنا، يا ويلتنا، قاله ابن جريج.

الخامس: أنه سمي بذلك لمجموع ذلك.

قال البغوي:"يوم القيامة يدعى كل أناس بإمامهم وينادي بعضهم بعضا، فينادي

=

=

أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة، وينادى أصحاب الأعراف، وينادى بالسعادة والشقاوة، ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا، وفلان ابن فلان قد شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدا، وينادى حين يذبح الموت: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت".

قال ابن كثير:"واختار البغوي وغيره: أنه سمي بذلك لمجموع ذلك. وهو قول حسن جيد، والله أعلم".

قوله تعالى: {يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ} [غافر: ٣٣]، أي:"يوم تولون ذاهبين هاربين".

قال ابن كثير:"أي: ذاهبين هاربين، {كَلا لا وَزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ} [القيامة: ١١، ١٢]".

وفي قوله تعالى: {يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ} [غافر: ٣٣]، وجهان من التفسير:

أحدهما: مدبرين في انطلاقهم إلى النار، قاله قتادة.

قال مقاتل:"يعني: بعد الحساب إلى النار ذاهبين".

قال الثعلبي:"منصرفين عن موقف الحساب إلى النار".

الثاني: مدبرين في فِرارهم من النار حتى يقذفوا فيها، قاله الضحاك.

وقال الضحاك: " إذا كان يوم القيامة، أمر الله السماء الدنيا فتشقَّقت بأهلها، ونزل من فيها من الملائكة، فأحاطوا بالأرض ومن عليها، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، ثم الخامسة، ثم السادسة، ثم السابعة، فصفوا صفا دون صف، ثم ينزل الملك الأعلى على مجنبته اليسرى جهنم، فإذا رآها أهل الأرض نَدُّوا فلا يأتون قطرا من أقطار الأرض إلا وجدوا السبعة صفوف من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قول الله: {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ}، وذلك قوله: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ}، وقوله: {يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ

=

=

وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ}، وذلك قوله: {وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا}".

وروي عن مجاهد، قوله: " {يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ}، قال: فارّين غير معجزين".

قوله تعالى: {مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ} [غافر: ٣٣]، أي:"ما لكم من الله من مانع يمنعكم وناصر ينصركم".

قال الطبري:"يقول: ما لكم من الله مانع يمنعكم، وناصر ينصركم".

قال ابن كثير:"أي: ما لكم مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه".

قال السعدي:"لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ} [الطارق: ٩- ١٠]".

عن قتادة: " {مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ}، أي: من ناصر".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [غافر: ٣٣]، أي:"ومَن يخذله الله ولم يوفقه إلى رشده، فما له من هاد يهديه إلى الحق والصواب".

قال الطبري:"يقول: ومن يخذله الله فلم يوفّقه لرشده، فما له من موفّق يوفّقه له".

قال ابن كثير:"أي: من أضله الله فلا هادي له غيره".

قال السعدي:"لأن الهدى بيد الله تعالى، فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به، لخبثه، فلا سبيل إلى هدايته".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وياقوم إني أخاف عليكم يوم التناد (٣٢) يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد} [غافر: ٣٢- ٣٣].

ثم قال الله تبارك وتعالى: {وياقوم إني أخاف عليكم يوم التناد} رضي الله عن هذا الرجل، خوفهم أولا بالعقوبة الدنيوية؛ حين قال: {إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب} ثم خوفهم من العقوبة الأخروية، فقال: {وياقوم إني أخاف عليكم يوم

=

=

التناد} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بحذف الياء وإثباتها] "التنادى" هذا إثباتها، (التناد) هذا حذفها، أما إثباتها فعلى الأصل، وأما حذفها فللتخفيف، والياء دائما تحذف للتخفيف قراءة، مثل قول الله تعالى: {فلا تستعجلون} [الأنبياء: ٣٧] أصلها: تستعجلوني، وليست النون هنا نون الرفع؛ لأنها مكسورة فهي نون الوقاية، وحذفت الياء تخفيفا.

وقوله: {وياقوم إني أخاف عليكم يوم التناد} كلمة {يوم} هنا هل هي ظرف منصوبة على الظرفية، والتقدير: إني أخاف عليكم العذاب يوم التناد، أو أن الفعل مسلط عليها فهي مفعول به؟ الثاني؛ لقوله تعالى: {يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار} [النور: ٣٧].

فجعل الخوف مسلطا على {يوم}؛ لأن يوم تصلح أن تكون مفعولا فيه، وأن تكون مفعولا به، وأن تكون مبتدأ، وأن تكون خبر مبتدأ تتصرف.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: {يوم التناد} بحذف الياء وإثباتها، أي: يوم القيامة]، هذا هو المراد به، وأنا أشرت في كلامي على قواعد في التفسير، أن هناك تفسيرا لفظيا، والثاني: معنويا، اللفظي يفسر اللفظ، والمعنوي يفسر المراد، فهنا {يوم التناد} تفسيرها اللفظي: أي: يوم يتنادى الناس بعضهم مع بعض، والمراد بها: يوم القيامة؛ فإذا قلنا: يوم التناد؛ أي: يوم القيامة، فهذا ليس تفسيرا لفظيا، بل هو تفسير معنوي للمراد بالآية.

يقول: {يوم التناد} [أي: يوم القيامة، يكثر فيه نداء أصحاب الجنة أصحاب النار وبالعكس، والنداء بالسعادة لأهلها والشقاوة لأهلها، وغير ذلك]. التنادي يوم القيامة يكثر، فينادي الله الناس، والناس ينادي بعضهم بعضا، وأهل النار ينادون أهل الجنة، وأهل الجنة ينادون أهل النار، والتنادي الحاصل يوم القيامة ليس كالتنادي الحاصل في الدنيا، لأنه بأصوات مزعجة، وحزينة إذا كان أهل النار

=

ينادون أهل الجنة، وما أشبه ذلك.

فهذا اليوم ذكر هذا المؤمن قومه به؛ ليحذروا من عذاب يوم القيامة، ثم بين ذلك بقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: {يوم تولون مدبرين} عن موقف الحساب إلى النار {ما لكم من الله} أي: من عذابه {من عاصم} مانع، {ومن يضلل الله فما له من هاد}].

وصف هذا اليوم بأوصاف:

أولا: أنه يوم التناد، ينادي الناس بعضهم بعضا، والله تعالى يناديهم أيضا، ويتنادون بنداءات قد يكون بعضها مجهولا لنا الآن.

الوصف الثاني: {يوم تولون مدبرين} يوم هذه بدل من قوله: {يوم التناد} أو عطف بيان، {يوم تولون مدبرين} مدبرين هذه حال، حال مؤكدة لعاملها، لأن التولي هو الإدبار، وعلى هذا فهي حال مؤكدة لعاملها، يعني: تولون يوم القيامة حال كونكم مدبرين، يولون إلى النار -والعياذ بالله- قال تعالى: {يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا (٨٥) ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا} [مريم: ٨٥-٨٦]، فهم -والعياذ بالله- يولون مدبرين.

وقوله: {ما لكم من الله من عاصم} الجملة هذه جملة خبرية مبدوءة بـ (ما) النافية، والمبتدأ فيها قوله: {من عاصم} لكن دخلت عليه (من) الزائدة للتوكيد، وتقدير الكلام: لولا من ما لكم من الله عاصم. وهنا نسأل: هل هي تميمية أو حجازية؟

والجواب: تتفق فيها اللغتان، لأنها لا تكون حجازية إلا بالترتيب، كما قال ابن مالك:

.... مع بقا النفي وترتيب زكن

وهنا لا ترتيب، لأن الخبر مقدم، وعلى هذا فنقول: (ما) هنا اتفقت فيها اللغتان، التميمية والحجازية؛ {ما لكم من الله من عاصم} [غافر: ٣٣]؛ أي: من مانع.

=

وقوله: {ومن يضلل الله فما له من هاد} هذه الجملة؛ قد تشكل كيف ختم بها الدعوة إلى الله ﷻ؛ لأن مقتضى الحال أن يقول: وأسأل الله لكم الهداية. فيقال: هل قوله: {ومن يضلل الله فما له من هاد} من كلام الرجل أو من كلام الله؟ لا بد أن نبحث قبل كل شيء، هل هي من كلام الله ﷻ ليبين أن هؤلاء القوم مع قوة الدعوة.

لم يستفيدوا، أو هي من كلام المؤمن؟ إن كانت من كلام الله فلا إشكال، إلا أنها حالت بين الكلام أوله وآخره، وهذا لا يضر لأن الجملة الاعتراضية تأتي كثيرا، وإن كانت من كلام الرجل فهنا محل الإشكال.

وقوله: {ومن يضلل الله فما له من هاد} (من) هذه شرطية، وفعل الشرط يضلل، وحرك بالكسر؛ لالتقاء الساكنين، وجواب الشرط جملة: {فما له من هاد} وقرن بالفاء؛ لأنه لا يصلح أن يكون فعلا للشرط، وكل جواب لا يصلح أن يكون فعلا للشرط فإنه يجب أن يقترن بالفاء، كما قال ابن مالك:

واقرن بفا حتما جوابا لو جعل ... شرطا لإن أو غيرها لم ينجعل

وذكروا له ستة ضوابط مجموعة في قوله:

اسمية طلبية وبجامد ... وبما وقد وبلن وبالتنفيس

فهذه الجمل الست إذا وقعت جوابا للشرط فإنه يجب أن يقترن بالفاء، وهنا الجملة هي مصدرة بـ (ما)، وإن شئت فقل: إنها جملة اسمية، ولا مانع من أن يوجد سببان لحكم واحد.

وقوله: {من هاد} أصلها: من هادي؛ بالياء، فحذفت الياء للتخفيف.

يقول الله ﷻ: إن من يضلل الله أي: من كتب الله إضلاله فإنه لا أحد يهديه؛ لأن الذي يهدي ويضل هو الله، بيده الأمر كله، ولكن ليعلم أنه لا يهدي أحدا إلا لحكمة، ولا يضل أحدا إلا لحكمة، فمن كان أهلا للهداية هداه، ومن كان أهلا

=

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤).

{وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُف مِنْ قَبْل} أَيْ قَبْل مُوسَى وَهُوَ يُوسُف بْن يَعْقُوب فِي قَوْل عَمَّرَ إلَى زَمَن مُوسَى أَوْ يُوسُف بْن إبْرَاهِيم بْن يُوسُف بْن يَعْقُوب فِي قَوْلٍ {بِالْبَيِّنَاتِ} بِالْمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَات {فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إذَا هَلَكَ قُلْتُمْ} مِنْ غَيْر بُرْهَان {لَنْ يَبْعَثَ الله مِنْ بَعْده رَسُولًا} أَيْ فَلَنْ تَزَالُوا كَافِرِينَ بِيُوسُف وَغَيْره {كَذَلِكَ} أَيْ مِثْل إضْلَالكُمْ {يُضِلّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ} مُشْرِك {مُرْتَاب} شَاكّ فِيمَا شَهِدَتْ بِهِ الْبَيِّنَات[1].

=

للإضلال أضله -والعياذ بالله- وإلا فإن الله سبحانه وتعالى لا يحرم فضله من أراده، إنما يحرم فضله من لم يرده، ودليل هذا قوله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} [الصف: ٥]، فجعل إزاغة الله لقلوبهم مترتبا على زيغهم، أما من أراد الهدى بجد، فإن الله سبحانه وتعالى ييسره له: {فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى} [الليل: ٥- ٧].

إذن: قوله: {ومن يضلل الله فما له من هاد} مقيد بمن فعل ما يقتضي إضلاله؛ لأن الله لا يضل أحدا إلا لحكمة.

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ} [غافر: ٣٤].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولقد جاءكم يوسف بن يعقوب يا قوم من قبل موسى بالواضحات من حجج الله".

قال ابن كثير:"يعني: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى، وهو يوسف- عليه السلام- كان عزيز أهل مصر، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته القبط، فما

=

=

أطاعوه تلك الساعة إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوي".

عن السديّ: " {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ}، قال: قبل موسى".

قال السمعاني:"هو يوسف بن يعقوب نبي الله. وعن بعضهم: أن الله تعالى أرسل إليهم يعني: إلى القبط نبيا من الجن يسمى يوسف، وهذا قول ضعيف، والصحيح هو الأول؛ لأنه أطلق ذكر يوسف، فينصرف إلى يوسف المعروف مثل إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم. وفي القصة: أن الله تعالى بعث يوسف بن يعقوب إليهم رسولا فدعاهم إلى الله تعالى، ومكث فيهم عشرين سنة بعد وفاة يعقوب عليه السلام".

قوله تعالى: {فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ} [غافر: ٣٤]، أي:"فما زلتم مرتابين مما جاءكم به في حياته".

قال الطبري:"يقول: فلم تزالوا مرتابين فيما أتاكم به يوسف من عند ربكم غير موقني القلوب بحقيقته".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا} [غافر: ٣٤]، أي:"حتى إذا مات ازداد شككم وشرككم، وقلتم: إن الله لن يرسل من بعده رسولا".

قال الطبري:"يقول: حتى إذا مات يوسف قلتم أيها القوم: لن يبعث الله من بعد يوسف إليكم رسولا بالدعاء إلى الحقّ".

قال ابن كثير:"أي: يئستم فقلتم طامعين: {لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا} وذلك لكفرهم وتكذيبهم".

قال الزجاج:"أي: أقمتم على كفركم وظننتم أنه لا يجدد عليكم إيجاب الحجة".

قال الزمخشري:"وبخهم بأن يوسف أتاكم بالمعجزات فشككتم فيها ولم تزالوا شاكين كافرين {حَتَّى} إذا قبض {قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا}، حكما من عند أنفسكم من غير برهان وتقدمة عزم منكم على تكذيب الرسل، فإذا جاءكم

=

=

رسول جحدتم وكذبتم بناء على حكمكم الباطل الذي أسستموه، وليس قولهم: {لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا}، بتصديق لرسالة يوسف، وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها، وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته".

قال أبو حيان:"وليس هذا تصديقا لرسالته، وكيف وما زالوا في شك منه، وإنما المعنى: لا رسول من عند الله فيبعثه إلى الخلق، ففيه نفي الرسول، ونفي بعثته".

وقرئ: «ألن يبعث الله»، على إدخال همزة الاستفهام على حرف النفي، كأن بعضهم يقرّر بعضا بنفي البعث.

قوله تعالى: {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ} [غافر: ٣٤]، أي:"مثل ذلك الضلال يُضِلُّ الله كل متجاوز للحق، شاكٍّ في وحدانية الله تعالى، فلا يوفقه إلى الهدى والرشاد".

قال الطبري:"يقول: هكذا يصد الله عن إصابة الحقّ وقصد السبيل من هو كافر به مرتاب، شاكّ في حقيقة أخبار رسله".

قال الزجاج:"أي: مثل ذلك الضلال يضل الله من هو مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ: {مُسْرِفٌ} -ههنا-: كافر، و {مُرتابٌ}: شاكٌّ في أمر الله وأنبيائه".

قال السمعاني:"أي: مسرف على نفسه بالكفر والظلم، والمرتاب: هو الشاك".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به} هذا من كلام الرجل المؤمن المحذر، قال: {ولقد جاءكم} الجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات؛ باللام، و (قد)، والقسم، وكلما جاءتك صيغة كهذه فإنها مؤكدة بثلاثة مؤكدات، اللام و (قد) والقسم؛ لأن تقدير الكلام: والله لقد جاءكم. وقوله: {يوسف} المراد به يوسف بن يعقوب.

فإن قال الإنسان: كيف يخاطبهم فيقول: {جاءكم} ويوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام قبلهم بأزمان كثيرة؟

=

=

فيقال: إن ما حصل للأسلاف فهو للأخلاف؛ يعني: أن ما جاء أسلافهم فهو كالذي جاءهم.

ودليل ذلك أن الله يخاطب بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ بما حصل لأسلافهم في عهد موسى، وبينهم قرون كثيرة؛ قال الله تعالى: {وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون (٥٥) ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون (٥٦) وظللنا عليكم الغمام} [البقرة: ٥٥- ٥٧]، ومعلوم أن هذا كله لم يحصل لليهود في عهد النبي ﷺ، لكنه حصل لأسلافهم؛ فما كان من الأمة من أولها، فإنه ثابت للأمة في آخرها.

إذن: لا إشكال في هذه الآية، ما دمنا نقول: إنه قد جاء أسلافهم، وأن ما يحصل من أسلافهم فيما سبق، يكون منسوبا إلى الجميع، إذا لم يخرجوا عن هذا المنهاج.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات} أي: من قبل موسى، وهو يوسف بن يعقوب...] إلى آخره.

قوله: {من قبل} لماذا جرها بالضم؟ والمعروف أن (من) حرف جر إذا دخلت على كلمة جرتها -كسرتها- تقول: من زيد. وهنا قال: {من قبل} حذف المضاف إليه ونوي معناه، لأنه إما أن يوجد المضاف أو يحذف وينوى معناه، أو يحذف وينوى لفظه، أو يحذف ولا ينوى لا لفظه ولا معناه، فالأقسام أربعة: تبنى في واحد منها، والباقي معربة تبنى إذا حذف المضاف إليه ونوي معناه.

فإن قال قائل: ما هو الدليل؟

قلنا: الدليل أنها تكون مضمومة لأنها تبنى على الضم؛ فإذا كلمنا من هو عالم بالعربية، وبناها على الضم، عرفنا أنه حذف المضاف ونوى معناه.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {من قبل} في قول عمر إلى زمن موسى، أو يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب في قول] حكى المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قولين في المراد بيوسف.

=

=

فقيل: إنه يوسف بن يعقوب، وأنه عمر إلى زمن موسى، وهذا قول باطل لا إشكال. يقول: [عمر إلى زمن موسى]، هذا قول ليس بصحيح، بل هو باطل، لأنه لو كان الأمر كذلك لكان يأتي موسى ويتصل به؛ لأن كليهما رسول.

القول الثاني: إنه يوسف وجده يوسف بن يعقوب، يوسف بن إبراهيم بن يوسف، وهذا أيضا لا دليل له، والصواب: أن المراد به يوسف بن يعقوب، وأنه لم يعمر إلى زمن موسى، وأنه مات في زمنه، لكنه جاء أسلافه؛ لأن يوسف ﷺ أخذه المارة الذين مروا بالبئر الذي ألقي فيها، وذهبوا به إلى مصر، والقصة معروفة في سورة كاملة.

وقوله: {بالبينات} البينات من بان يبين إذا ظهر، ومعلوم أنها وصف لموصوف محذوف؛ وذلك لأنه يجوز أن يحذف النعت وأن يحذف المنعوت إذا دل عليه دليل؛ والموصوف المحذوف هنا تقديره الآيات، كما يعبر به في القرآن كثيرا بالآيات البينات، بـ: {آيات بينات} [البقرة: ٩٩]، وما أشبه ذلك.

وأما قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالمعجزات] فإن هذا تعبير متأخر؛ لم يعرف في عهد السلف، وهو تعبير ناقص؛ لأن كلمة (معجزة) تشمل ما يفعله السحرة والمشعوذون من الأمور الخارقة للعادة، فإنها تعجز من ليس منهم، ولكنه إذا قيل: آية بمعنى علامة، صارت أبين وأوضح وأوفق لموافقتها للتعبير القرآني، على أنه لا يمكن أن تكون آية لرسول إلا والناس يعجزون عنها؛ لأنهم لو كانوا يستطيعون أن يأتوا بمثلها لم تكن آية للنبي، كل واحد يأتي بها.

إذن: تقدير الكلام بالآيات البينات، ولكن حذف الموصوف لدلالة السياق عليه، ومنه قوله تعالى: {أن اعمل سابغات وقدر في السرد} [سبأ: ١١] يعني: أن اعمل دروعا سابغات.

فإن قال قائل: هل يصح أن يطلق لفظ الدلائل على معجزات الأنبياء أو آيات

=

=

الأنبياء؟

فالجواب: أي نعم؛ لأن الدليل ما يهدي إلى غيره؛ ولهذا يسمى الرجل الذي يدلك الطريق يسمى هاديا؛ فالآيات لا شك أنها دليل وبينات.

ونحن نقول: الآية دليل، واللغة مترادفة، فما دام اللفظ مرادفا للآخر ولا يتضمن محظورا فلا مانع أن نعبر به.

قوله: {بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به} يعني: من وقت يوسف، إلى وقت موسى، وآل فرعون، وإن شئت فعبر بالقبط.

قوله: {فما زلتم في شك مما جاءكم به} أي: في شك مما جاء به يوسف؛ فلم يؤمنوا به الإيمان الواجب الخالي من الشك.

وقوله: {حتى إذا هلك قلتم} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من غير برهان] {قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا} يعني: أنهم كانوا في شك مما جاء به يوسف، ولم يصدقوه، ولما هلك قالت لهم نفوسهم: الآن استرحتم، فلن يبعث الله من بعده رسولا، كفيتم هلك من أرسل، فكذبتموه فاطمئنوا لن يبعث الله من بعده رسولا، قالوا ذلك بناء على أمنية كاذبة؛ لأنهم قالوا: هذا الرسول الذي جاءنا وتوعدنا إن خالفناه فإنه مات -هلك- فلن يأتي من بعده رسول، وحينئذ نكون قد استرحنا من الرسل ومشاكلهم -على زعمهم! -.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا}؛ أي: فلن تزالوا كافرين بيوسف وغيره]؛ لأنهم إذا قرروا في أنفسهم أن الله لن يبعث رسولا، فسوف يكذبون كل من جاء من الرسل بعد يوسف، بناء على هذه العقيدة الفاسدة التي أصلوها.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{كذلك} أي: مثل إضلالكم {يضل الله من هو مسرف} مشرك {مرتاب} شاك فيما شهدت به البينات]، {كذلك} قال المفسر: [أي: مثل

=

=

إضلالكم {يضل الله}]، وعلى هذا فتكون إعرابها: الكاف اسم بمعنى (مثل)، وهي مفعول مطلق مضاف إلى اسم الإشارة، وعامله قوله: {يضل}، عامله متأخر عنه، وهذا التعبير القرآني يكثر في كلام الله ﷻ، وإعرابه كما سمعتم: أن تقول الكاف اسم بمعنى (مثل) منصوبة على المفعولية المطلقة مضافة إلى اسم الإشارة، فإن قيل: وهل الكاف تأتى اسما؟ قلنا: نعم، اللغة العربية واسعة، وإلا فالأصل أن الكاف حرف، لكن تكون اسما.

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

شبه بكاف وبها التعليل قد ... يعنى وزائدا لتوكيد ورد

واستعمل اسما وكذا عن وعلى....

استعمل يعني: الكاف اسما؛ أي: في اللغة العربية.

وقوله: {كذلك} أي: مثل ذلكم يضل الله {من هو مسرف مرتاب} لا يضل الله تعالى رجلا مؤمنا مقتصدا موقنا أبدا، يضل الله -والعياذ بالله- {من هو مسرف مرتاب}.

يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {مسرف} مشرك] ولا شك أن الشرك من الإسراف؛ لأن الإسراف معناه: تجاوز الحد، ومن جعل لله شريكا فقد تجاوز الحد بلا شك؛ لكن معنى الآية أعم من المشرك؛ فالمسرف من تجاوز حده -هذا المسرف- بإفراط أو تفريط؛ لكن الغالب يكون بالإفراط؛ لأنه مجاوزة الحد زيادة، فالمشرك لا شك أنه مسرف بلا شك، والمستكبر مسرف، والجاحد مسرف، وهلم جرا.

إذن: {من هو مسرف} ينبغي أن يقال في تفسيرها: من هو مجاوز لحده؛ كالمشرك.

وقوله: {مرتاب}؛ أي: شاك -نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من الشك- المرتاب -والعياذ بالله- الذي يطمئن للارتياب، لا يهتدي يبقى على ضلاله -والعياذ بالله-

=

الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥).

{الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَات الله} مُعْجِزَاته مُبْتَدَأ {بِغَيْر سُلْطَان} بُرْهَان {أَتَاهُمْ كَبُرَ} جِدَالهمْ خَبَر الْمُبْتَدَأ {مَقْتًا عِنْد الله وَعِنْد الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ} مِثْل

=

أما إذا أوقع الشيطان في قلبك شكا ثم حاولت أن تنزعه من قلبك، فإن الله يعينك عليه ويهديك، لكن البلاء كل البلاء أن تركن إلى هذا الشك، وأن لا تنتشل منه؛ والدليل على هذا ما شكاه الصحابة ﷺ إلى رسول الله ﷺ مما يقع في نفوسهم، حتى قالوا: نود أن يكون الواحد منا حمما؛ أي: فحما محترقا، ولا نتكلم به؛ فأخبرهم النبي ﷺ أن ذلك لا يضرهم؛ لأنهم لا يركنون إلى ما حصل، أو إلى ما وقع في قلوبهم.

ولهذا يجب أن تكون شجاعا إذا ألقى الشيطان في قلبك مثل هذه الأمور فكن شجاعا لا تركن، لا تسترسل معها، كن شجاعا، استعمل معه السلاح الذي أعطاك إياه من هو عالم به، ومن عالم بإصابته للعدو، وهو الرسول ﷺ، وذلك بأمرين فقط: أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وتنتهي -أي تعرض- فاستعذ بالله ثم انته. وبذلك يزول عنك هذا البلاء، أما إن استرسلت معه فالأمر خطير جدا؛ لأنه يتفاعل في نفسك، ويقوى حتى يصل إلى درجة الشك والارتياب، وحينئذ تحرم من الهداية، وهذا لا شك أنه من حكمة القرآن، مثل هذا التعبير لئلا يقع في نفسك مثل ما ذكر الله ﷻ، فدواؤه بهذين الأمرين.

لو أن أذكى العالم حاول أن يجد دواء لهذا البلاء ما وجده بهذه العبارة المختصرة السهلة، قال: "فليستعذ بالله ثم لينته" اعرض عن هذا، اشتغل بشؤونك، وقل: أعوذ بالله من الشيطان، فاشتغالك بشؤونك وإعراضك عنه يوجب لك أن تنساه، وهذا شيء مشاهد ومجرب.

إضْلَالهمْ {يَطْبَع} يَخْتِم {الله} بِالضَّلَالِ {عَلَى كُلّ قَلْب مُتَكَبِّر جَبَّار} بِتَنْوِينِ قَلْب وَدُونه وَمَتَى تَكَبَّرَ الْقَلْب تَكَبَّرَ صَاحِبه وَبِالْعَكْسِ وَكُلّ عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ لِعُمُومِ الضَّلَال جَمِيع الْقَلْب لَا لِعُمُومِ الْقَلْب(١).

---

(١) قوله تعالى: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ} [غافر: ٣٥].

قال الطبري: أي:"الذين يخاصمون في حججه التي أتتهم بها رسله ليدحضوها بالباطل من الحُجَج، بغير حجة أتتهم من عند ربهم يدفعون بها حقيقة الحُجَج التي أتتهم بها الرسل".

قال ابن كثير:"أي: الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله".

قال السعدي:"ذكر وصف المسرف الكذاب فقال: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ} التي بينت الحق من الباطل، وصارت -من ظهورها- بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها، ليدفعوها ويبطلوها

{بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ} أي: بغير حجة وبرهان، وهذا وصف لازم لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان، لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصل".

عن أبي مالك، ومحمد بن كعب، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، والنضر بن عربي:"كل سلطان في القرآن حجة".

قوله تعالى: {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا} [غافر: ٣٥].

قال الطبري:"يقول: كبر ذلك الجدال الذي يجادلونه في آيات الله مقتا عند الله، {وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا} بالله".

قال ابن كثير:"فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت، والمؤمنون أيضا يُبغضُون من تكون هذه صفته".

=

=

قال السعدي:"{كَبُرَ} ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل {مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا} فالله أشد بغضًا لصاحبه، لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم، وهؤلاء خواص خلق الله تعالى، فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} [غافر: ٣٥].

قال الطبري:"يقول: كما طبع الله على قلوب المسرفين الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر على الله أن يوحده، ويصدّق رسله. جبار: يعني متعظم عن اتباع الحق".

قال ابن كثير:"فإن من كانت هذه صفته، يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفًا، ولا ينكر منكرًا؛ ولهذا قال: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ} أي: على اتباع الحق {جَبَّارٍ}".

قال السمعاني:"الطبع على القلب، هو: الختم عليه حتى لا يدخله الحق".

قال عكرمة: "لا يكون الرجل جبارا حتى يقتل نفسين".

قال أبو عمران الجوني وقتادة:"وآية الجبابرة القتل بغير الحق".

قال أبو حيان:"قد عدل الواعظ لهم عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب، لحسن محاورته لهم واستجلاب قلوبهم، وإبراز ذلك في صورة تذكيرهم، ولا يفجأهم بالخطاب، وفي قوله: {كبر مقتا}، ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم والشهادة على خروجه عن حد إشكاله من الكبائر".

وفي قراءة ابن مسعود: «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ على قَلْبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ جَبَّار».

قال النحاس:"ومعنى هذه القراءة كمعنى الأولى، كما يقال: أنا أكلم فلانا يوم كل جمعة وكل يوم جمعة".

=

=

قال السمعاني:"وأما القراءة الثانية فهي على وصف القلب بالتكبر، يقال: قلب متكبر أي: صاحبه متكبر".

قال الراغب: {مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}، " أي: متعال عن قبول الحق والإيمان له. يقال للقاهر غيره: جَبَّار، نحو: {وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} [ق: ٤٥]، ولتصور القهر بالعلو على الأقران قيل: نخلة جبّارة وناقة جبّار".

قال أبو هلال العسكري:"الجبار هاهنا والمتكبر سواء، وإنما كرر للتوكيد، ولا يجوز أن يقال أنه يعني: بـ«الجبار» هاهنا: القتال والغلاب؛ لأن القتل والغلبة لا يضافان إلى القلب ويضاف إليه الكبر، ويجوز أن تكون هذه الوجوه كلها بمعنى واحد وهو التكبر، وإِنَّمَا أوردتها على ما جاء في التفسير".

قال العثيمين: قوله تعالى: {الذين يجادلون} المجادلة هي: المخاصمة، والمناظرة من أجل إفحام الخصم، مأخوذة من جدل الحبل، أي: فتله؛ فإن الحبل إذا فتل احتكم وصار أقوى، فهذا المجادل تجده يحتكم ويتصلب من أجل أن يغلب مجادله.

وقوله: {في آيات الله} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [معجزاته] والصواب: أن يقال: آيات الله يعني: العلامات الدالة على ما يستحقه جل وعلا من الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، والأحكام، وغير ذلك. هذا هو المراد، وقد سبق أنه لا ينبغي أن نسمي الآيات المعجزات؛ لأن ذلك نقص في التعبير، وليس محددا للمعنى، وربما يدخل عليه فعل المشعوذين، والسحرة؛ لأنه معجز.

وقوله: {يجادلون في آيات الله} هل هم يجادلون لإثبات الآيات، أو لنفي الآيات؟ الثاني لا شك؛ ولهذا قال: {بغير سلطان أتاهم}؛ لأنهم لو كانوا يجادلون لإثبات الآيات، والإقرار بها، لكانوا على سلطان.

وقوله: {بغير سلطان أتاهم} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [برهان] أي: بغير دليل، وذلك

=

=

لأن السلطان كل ما يكون به السلطة، ويختلف بحسب السياق، فالإمام الأعظم يسمى السلطان؛ لأنه ذو سلطة. والدليل يسمى سلطانا، لأن الآخذ به ذو سلطة.

وعلى هذا يكون معنى قوله: {بغير سلطان} أي: بغير دليل. وهذا النعت أو الحال، لأن جملة: {بغير سلطان} حال من فاعل {يجادلون} هذا الوصف وصف لبيان الواقع، وليس وصفا مقيدا، والفرق: أننا لو قلنا: إنه وصف مقيد صار الذين يجادلون بآيات الله لإبطالها أحيانا يكون معهم سلطان، وأحيانا لا يكون معهم سلطان، والواقع أنه ليس لهم سلطان، والقيد المبين للواقع ليس له مفهوم، وهذا آت في القرآن كثيرا، وإنما المقصود به -أي: بالقيد المبين للواقع- الاستدلال؛ يعني: فكأنه تعليل للموصوف.

وانظر إلى قول الله تعالى: {ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه} [المؤمنون: ١١٧] فقوله: {لا برهان له به} مبين للواقع وليس قيدا؛ لأنه لا يمكن أن يدعو أحد مع الله إلها آخر له فيه برهان.

وكذلك قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم} [الأنفال: ٢٤]، فإن هذا لا يعني أنه قد يدعونا لما لا يحيينا، بل هو لا يدعونا إلا لما يحيينا، فيكون هذا كالتعليل لموصوفه الذي صار قيدا فيه.

إذن: {بغير سلطان أتاهم} هذا نقول: إنه وصف لبيان الحال والواقع، وأنه لا سلطان لهم بذلك، وعلى هذا فيكون كالتعليل لموصوف، وأعني بالوصف هنا ما يشمل الحال وغير الحال. وقوله: {أتاهم} الجملة صفة لـ {سلطان}.

وقوله: {كبر مقتا} هذه الجملة خبر المبتدأ. وقوله: {كبر}؛ أي: عظم، وضمت الباء حتى صار من باب فعل؛ لأنه أريد به التعجب، يعني: ما أكبر مقتهم عند الله!

قال: {مقتا} هذه تمييز، تمييز لـ {كبر} لأن كبر المراد به الجدال؛ يعني كبر جدالهم مقتا، فهي مميزة للفاعل المحذوف، بل الفاعل المستتر.

=

=

وقول المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [{كبر} جدالهم {مقتا}] الصواب أن يقال: كبر مقتهم مقتا عند الله؛ لأن التمييز مبين للفاعل المستتر، وقوله: {مقتا} المقت هو أشد البغض. وقوله: {عند الله} متعلق بـ {كبر}.

قوله: {كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا} يعني: وكذلك المؤمنون يكبر مقتهم لهؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان الذين يريدون إدحاض الحق، وإظهار الباطل.

وقوله: {وعند الذين آمنوا} إذا أطلق الإيمان فالمراد به ما يشمل الإسلام، وإذا أطلق الإسلام فالمراد به ما يشمل الإيمان؛ ولهذا لو سئلت وقيل لك: هل الإسلام والإيمان مترادفان بمعنى واحد؟ فقل: هما عند الإفراد مترادفان، وأما عند الاقتران فإنه يفسر الإيمان بأعمال القلوب، والإسلام بأعمال الجوارح؛ مثال ذلك قول الله تبارك وتعالى: {قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم} [الحجرات: ١٤] ففرق بين الإيمان والإسلام؛ وبين أن الإيمان لم يدخل في قلوبهم، ولكنه قريب الدخول؛ لأن (لما) تفيد القرب، وفي حديث جبريل فرق بين الإيمان والإسلام.

ومنه قوله تعالى: {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} [الذاريات: ٣٥- ٣٦].

ففرق بين هذا وهذا، المخرجون مؤمنون، والبيت مسلم؛ لأن في البيت امرأة كافرة، وهي امرأة لوط؛ فهي في ظاهر الحال مسلمة، مستسلمة؛ لأنها لا تظهر أنها كافرة، كما قال تعالى: {فخانتاهما}، ولكن حينما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ أن ينجي من ينجي من قوم لوط أنجى المؤمنين فقط، وأما المرأة فتقيت مع قومها وهلكت.

فإن قال قائل: ما الحكمة من بقاء زوجاتهم معهم؟ أي: نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ولوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، هل لم يكونوا يعلمون ذلك؟

=

=

فالجواب: ما دام أن الله تعالى يقول: {فخانتاهما}، وقال له: {إلا امرأتك}، فهم لم يكونوا يعلمون، وهذه لأجل الاعتبار بالنسبة لزوجات الرسول ﷺ، وهذه السورة كلها نزلت شبه معاتبة لزوجات الرسول ﷺ: {إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير} [التحريم: ٤] فالمقصود بيان عناية الله ﷻ برسوله ﷺ، وأنكما إن تظاهرتما عليه؛ فله أولياء: {فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير}.

وقوله تعالى: {كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار} نعوذ بالله، {كذلك} تقدمت قريبا، وقلنا: مثل هذا التركيب يكون إعرابه كالتالي: الكاف اسم بمعنى مثل، وهي مفعول مطلق للفعل الذي بعدها، العامل فيها الفعل الذي بعدها، و {يطبع} هو الفعل العامل، وعليه فنقول: مثل هذا الطبع يطبع الله.

وأما قول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مثل إضلالهم] ففيه نظر، وإن كان يلزم من الإضلال الطبع، لكن الأحسن أن يفسر بما يطابق العامل، فيقال: مثل هذا الطبع يطبع الله.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{يطبع} يختم]، نعم؛ الطبع بمعنى الختم؛ كأن الله جعل على قلوبهم غلافا ثم ختم عليه، كما يختم على الوثائق، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: {قلوبنا غلف بل طبع الله عليها} [النساء: ١٥٥].

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {كذلك يطبع الله} بالضلال {على كل قلب متكبر جبار}]، قوله: [{يطبع الله} بالضلال] يقال فيها كما قيل فيما سبق؛ بأن المراد يطبع الله بالطبع على القلوب على كل قلب متكبر.

وقوله: [{على كل قلب متكبر جبار} بتنوين قلب، ودونه] على كل قلب متكبر، وعلى كل قلب متكبر، والفرق أنه على قراءة التنوين يكون التكبر وصفا للقلب، وعلى قراءة الإضافة يكون الطبع على قلب المتكبر، وليس القلب هو المتكبر،

=

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦).

{وقال فرعون يا هامان بن لي صرحا} بناء عاليا {لعلي أبلغ الأسباب}.

أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧).

{أَسْبَاب السَّمَاوَات} طُرُقهَا الْمُوَصِّلَة إِلَيْهَا {فَأَطَّلِع} بِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى أَبْلُغ وَبِالنَّصْبِ جَوَابًا لِابْنِ {إِلَى إِلَه مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنّهُ} أَيْ مُوسَى {كَاذِبًا} فِي أَنَّ لَهُ إِلَهًا غَيْرِي قَالَ فِرْعَوْن ذَلِكَ تَمْوِيهًا {وَكَذَلِك زُيِّنَ لِفِرْعَوْن سُوء عَمَله وَصُدَّ عَنِ

=

والمعنى واحد؛ لأنه إذا تكبر القلب تكبرت النفس؛ لقول النبي -ﷺ وعلى آله وسلم-: "ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب".

قوله: {على كل قلب متكبر} "قلب متكبر" التكبر معناه الترفع، يعني: أن الإنسان يترفع، وهو نوعان: تكبر على الخلق، وتكبر عن الحق. وإلى هذا يشير قول النبي- ﷺ وعلى آله وسلم-: "الكبر بطر الحق، وغمط الناس" بطر الحق يعني: رده، وعدم الإذعان له. وغمط الناس يعني: احتقارهم، فيرى نفسه أنه فوق الناس، هذا هو الكبر -والعياذ بالله- ومعلوم أن من غمط الحق وازدراه فإنه لا يأخذ به، إذ كيف يأخذ بشيء يرى أنه نقيصة، وكذلك من غمط الناس فإنه لا يعدل فيه، بل يعاملهم بالكبرياء -والعياذ بالله- فيكون الطبع حقيقا بمثل هذا القلب، وقد أخبر النبي- ﷺ وعلى آله وسلم- أنه لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة خردل من كبر.

السَّبِيل} طَرِيق الْهُدَى بِفَتْحِ الصَّاد وَضَمّهَا {وَمَا كَيْد فِرْعَوْن إِلَّا فِي تَبَاب} خسار[١].

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا} [غافر: ٣٦].

قال الطبري: يقول:"وقال فرعون لما وعظه المؤمن من آله بما وعظه به وزجره عن قتل موسى نبيّ الله وحذره من بأس الله على قيله أقتله ما حذره لوزيره وزير السوء هامان: {يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا.. }، يعني: بناء".

قال قتادة:"وكان أول من بنى بهذا الآجر وطبخه".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرا عن فرعون، وعتوه، وتمرده، وافترائه في تكذيبه موسى، عليه السلام، أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحا، وهو: القصر العالي المنيف الشاهق. وكان اتخاذه من الآجرّ المضروب من الطين المشوي، كما قال: {فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا} [القصص: ٣٨]".

ولهذا قال إبراهيم النخعي: "كانوا يكرهون البناء بالآجر، وأن يجعلوه في قبورهم".

قال الزمخشري:"الصرح: البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد، اشتقوه من صرح الشيء إذا ظهر".

قوله تعالى: {لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ} [غافر: ٣٦- ٣٧]، أي:"لعلي أبلغ أبواب السموات وما يوصلني إليها".

قال ابن كثير:"وهذا من كفره وتمرده، أنه كذب موسى في أن الله، عز وجل، أرسله إليه".

اختلف أهل التأويل في معنى "الأسباب" في هذا الموضع، على أقوال:

أحدها: أن أسباب السموات: طرقها. قاله أبو صالح ، والسدي.

الثاني: أبواب السموات. قاله قتادة.

=

=

قال ابن قتيبة:"«أسباب السماء»: أبوابها، لأن الوصول إلى السماء يكون بدخولها.. قال زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه... ولو نال أسباب السّماء بسلّم".

الثالث: مَنزل السماء. قاله ابن عباس.

قال الطبري:"السبب: هو كل ما تسبب به إلى الوصول إلى ما يطلب من حبل وسلم وطريق وغير ذلك، فأولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال: معناه لعلي أبلغ من أسباب السموات أسبابا أتسبب بها إلى رؤية إله موسى، طرقا كانت تلك الأسباب منها، أو أبوابا، أو منازل، أو غير ذلك".

قال الزمخشري:"أَسْبابَ السَّماواتِ طرقها وأبوابها وما يؤدى إليها، وكل ما أداك إلى شيء فهو سبب إليه، كالرشاء ونحوه، فإن قلت: ما فائدة هذا التكرير؟ ولو قيل: لعلى أبلغ أسباب السماوات لأجزأ؟ قلت: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيما لشأنه، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السماوات أبهمها ثم أوضحها، ولأنه لما كان بلوغها أمرا عجيبا أراد أن يورده على نفس متشوفة إليه، ليعطيه السامع حقه من التعجب، فأبهمه ليشوف إليه نفس هامان، ثم أوضحه".

قوله تعالى: {فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَـهِ مُوسَى} [غافر: ٣٧]، أي:"فأنظر إلى إله موسى بنفسي".

قال الشوكاني:"وفي هذا دليل على أن فرعون كان بمكان من الجهل عظيم، وبمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جدا".

قوله تعالى: {وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا} [غافر: ٣٧]، أي:"وإني لأظن موسى كاذبًا في دعواه أن لنا ربًا، وأنه فوق السماوات".

قال الطبري:"يقول: وإني لأظنّ موسى كاذبا فيما يقول ويدّعي من أن له في السماء ربا أرسله إلينا".

=

=

قال الشوكاني:"أي: وإني لأظن موسى كاذبا في ادعائه بأن له إلها، أو فيما يدعيه من الرسالة".

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ} [غافر: ٣٧]، أي:"وهكذا زُيِّن لفرعون عمله السيِّئ فرآه حسنًا".

قال الشوكاني:"أي: ومثل ذلك التزيين زين الشيطان لفرعون سوء عمله من الشرك والتكذيب، فتمادى في الغي واستمر على الطغيان".

قال الطبري: يقول: "وهكذا زين الله لفرعون حين عتا عليه وتمرّد، قبيحَ عمله، حتى سوّلت له نفسه بلوغ أسباب السموات، ليطلع إلى إله موسى".

قال ابن كثير:"أي: بصنيعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئا يتوصل به إلى تكذيب موسى، عليه السلام".

قال الزمخشري:"المزين: إما الشيطان بوسوسته، كقوله تعالى وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ أو الله تعالى على وجه التسبيب، لأنه مكن الشيطان وأمهله. ومثله {زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ} [النمل: ٤]".

قوله تعالى: {وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ} [غافر: ٣٧]، أي:"ومُنع بضلاله عن طريق الهدى".

قال الشوكاني:"أي: سبيل الرشاد".

قال قتادة:"فُعِل ذلك به، زين له سوء عمله، وصُدَّ عن السبيل".

وقرئ: «وَصَدَّ» بفتح الصاد. قال الطبري: "بمعنى: وأعرض فرعون عن سبيل الله التي ابتُعث بها موسى استكبارا".

قوله تعالى: {وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ} [غافر: ٣٧]، أي:"وما احتيال فرعون وتدبيره لإيهام الناس أنه محق، وموسى مبطل إلا في خسار وبوار، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة".

=

قال الطبري:"وما احتيال فرعون الذي يحتال للاطلاع إلى إله موسى، إلا في خسار وذهاب مال وغبن، لأنه ذهبت نفقته التي أنفقها على الصرح باطلا ولم ينل بما أنفق شيئا مما أراده، فذلك هو الخسار والتباب".

قال الزمخشري:"التباب: الخسران والهلاك".

قال الزجاج:"إلا في خسرانٍ، يقال: تبَّتْ يداه أي خسِرتا".

عن ابن عباس، قوله: " {وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلا فِي تَبَابٍ}، يقول: في خُسران".

عن مجاهد، قوله: " {فِي تَبَابٍ}، قال: خسار".

قال قتادة:"أي: في ضلال وخسار".

قال ابن زيد:"التَّباب والضَّلال واحد".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب} فرعون هو ملك مصر؛ قيل: إنه اسم شخص، أو إنه علم شخص، وقيل: إنه علم جنس، فإذا قلنا: إنه علم شخص صار اسما لشخص معين، وإذا قلنا: إنه علم جنس صار اسما لكل من ملك مصر كافرا.

وهذا هو الذي عليه الأكثر؛ لكن فرعون موسى علم شخص وعلم جنس أيضا: {وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا} هامان وزيره، وقوله: {ابن لي صرحا} يعني: مر من يبني لي ذلك؛ لأنه من المعلوم أن الوزير لن يباشر بناء الصرح، {صرحا} قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [بناء عاليا] يعني: رفيعا.

وقوله: {لعلي أبلغ الأسباب} (لعل) هنا للتعليل، وهي تأتي للتعليل تارة وللإشفاق تارة، وللترجي تارة؛ فمن مجيئها للتعليل هذه الآية، وقوله تعالى: {إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون} [يوسف: ٢] هذه للتعليل، وكلما جاءت (لعل) في حق الله عَزَّ وَجَلَّ فإنها للتعليل؛ لأن الرب عَزَّ وَجَلَّ لا يترجى إذ إن كل شيء عليه هين، وتأتي للإشفاق؛ مثل: أن تقول: لعل الحبيب هالك. يعني: أخشى أن يكون هالكا.

=

وتأتي للترجي: مثل: حضرت إلى الدرس فلعلي أفهم، لو قلت: لعلي أفهم؛ احتمل أن تكون للتعليل، فإذا قلت: فـ(لعلي) صارت للترجي، وتكون أيضا للتوقع، كما لو قلت لشخص تخاطبه: لعلك فاهم.

وهذه المعاني التي تأتي للحروف بل وللأسماء أيضا وللأفعال، إذا كانت متعددة فالذي يعينها السياق وقرائن الأحوال.

قال: {لعلي أبلغ الأسباب (٣٦) أسباب السماوات} الأسباب جمع سبب، وهو كل ما يوصل إلى المقصود، فالسبب وسيلة والمسبب غاية، والأسباب هنا بينها بقوله: {أسباب السماوات} فـ {أسباب السماوات} محلها مما قبلها عطف بيان، تبين الإبهام الموجود في الأسباب.

فإن قال قائل: لماذا لم يقع الكلام مبينا من أول الخطاب، فيقال: لعلي أبلغ {أسباب السماوات}؟

قلنا: إن الإبهام أولا، ثم التفصيل والبيان ثانيا؛ أوقع في النفس؛ لأن الشيء إذا جاء مبهما ثم بين صار للبيان وقع عند تشوف النفس لمعرفة هذا المبهم؛ يعني: لو جاء الكلام مبينا من أول الأمر لكان سهلا على النفوس، لكن إذا جاء أولا مبهما تشوفت النفس لمعرفة هذا المبهم، ثم جاء البيان والنفس مستعدة لقبوله متشوفة إلى الوصول إليه.

قوله: {أسباب السماوات} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [طرقها الموصلة إليها {فأطلع} بالرفع عطفا على (أبلغ) وبالنصب جوابا لـ(ابن)]، يعني: أن فيها قراءتين سبعيتين "فأطلع"، {فأطلع}، أما على قراءة الرفع؛ فإنها معطوفة على (أبلغ) يعني: لعلي أبلغ الأسباب، فلعلي أطلع. وأما على قراءة النصب؛ فإنها وقعت جوابا لـ(ابن) و (ابن) فعل أمر، وفعل الأمر يقع جوابه إذا كان مقرونا بالفاء بالنصب (فأطلع) فتكون الفاء هنا للسببية.

=

=

واعلم أن القراءتين الواردتين في القرآن الكريم هما أحد الحروف السبعة التي نزل القرآن عليها؛ فإن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ولما كان في زمن عثمان رضي الله عنه أمر أن يجعل القرآن على حرف واحد هو حرف قريش؛ يعني: لغتها؛ فهذه القراءات الموجودة ليست هي الأحرف السبعة، بل هي على حرف واحد. هذا واحد.

الثاني: اعلم أن القراءتين كلتاهما صحت عن النبي ﷺ؛ لأنها نقلت بالتواتر.

الثالث: اعلم أنه لا ينبغي للإنسان أن يقرأ بين العامة بقراءة تخالف ما في أيديهم من المصاحف؛ لأن ذلك يوجب التشويش والارتباك، واتهام القارئ، وربما تهبط عظمة القرآن في نفوسهم بسبب هذا الاختلاف. أما فيما بينك وبين نفسك فالأفضل أن تقرأ بهذا تارة، وبهذا تارة؛ بشرط أن تكون عالما غير متخبط، وإنما قلنا: هذا هو الأفضل لأن كلا من القراءتين قد قرأ به النبي- ﷺ وعلى آله وسلم- ، فيكون هذا مثل العبادات الواردة على وجوه متنوعة؛ كالاستفتاحات والتشهد وما أشبه ذلك؛ لكن هذا بينك وبين نفسك، أو في مقام التعليم إذا كنت تعلم طلبة.

قوله: {فأطلع إلى إله موسى} يعني: أصل إليه وأنظر هل هذا حق أو غير حق؛ ثم استدرك خوفا من أن يقول أحد من جنوده: إنه حق. فقال: {وإني لأظنه كاذبا}.

قال المفسر رحمه الله: [{لأظنه} أي: موسى {كاذبا} في أن له إلها غيري]؛ قال هذا تمويها على أصحابه، وخوفا من أن يقع في نفوسهم شيء حين أمر وزيره أن يبني له صرحا، قال: {وإني لأظنه كاذبا}.

وفرعون في هذه المقالة كاذب، هو لا يظن أن موسى كاذب، بل يعلم أنه صادق، لقول الله تبارك وتعالى عن موسى أنه قال له -أي: لفرعون-: {قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر} [الإسراء: ١٠٢]، قال هذا الكلام: {لقد علمت} مؤكدا إياه بالقسم واللام و (قد)، ويخاطب هذا الرجل

=

=

القادر على إنكار ما قاله موسى لو كان كذبا قال له: {قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يافرعون مثبورا} فرعون ليس له مانع يمنعه أن يقول: لم أعلم. هو قادر، لكنه إن قال ذلك يعلم أنه {ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر}، وقال الله تعالى: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما} هذه مفعول من أجله لـ {وجحدوا} بها ظلما.

المهم: أن قوله: {وإني لأظنه كاذبا} هذه الجملة كذب، هو يعلم أن موسى صادق، لكنه قال ذلك تمويها لقومه، وخوفا من أن يقع في قلوبهم شيء من الشك، قال عن فرعون: {وإني لأظنه كاذبا} يقول المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [قال فرعون ذلك تمويها].

(منبهة): فرعون عدو الله لم يثبت صفة العلو حين قال (ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع الى اله موسى وإني لأظنه كاذبا) ولكنه كان يكذب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في أن الله علي أعلى سبحانه له العلو والفوقية، فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو من أثبت صفة العلو وهذا هو سبيل المؤمنين من أهل السنة ورثة الأنبياء والمرسلين.

قال عثمان بن سعيد الدارمي فى الرد على الجهمية (ص ٦٦): لقد علم فرعون في كفره وعتوه على الله أن الله عَزَّ وَجَلَّ فوق السماء، فقال (يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب. أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا) ففي هذه الآية بيان بين، ودلالة ظاهرة أن موسى كان يدعو فرعون إلي معرفة الله بأنه فوق السماء، فمن أجل ذلك أمر ببناء الصرح ورام الاطلاع إليه ا. هـ

وقال أبو الحسن الأشعري في الإبانة (ص ١٠٥): فإن قال قائل ما تقولون في الإستواء؟ قيل: نقول إن الله مستو على عرشه كما قال (الرحمن على العرش استوى) وقال: (إليه يصعد الكلم الطيب) وقال: (بل رفعه الله إليه)، وقال حكاية

=

=

عن فرعون (وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا) كذب موسى في قوله إن الله فوق السموات ، وقال عزوجل: (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض) فالسموات فوقها العرش فلما كان العرش فوق السموات وكل ما علا فهو سماء وليس إذا قال (أأمنتم من في السماء) يعني جميع السموات وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السموات ألا ترى أنه ذكر السموات فقال وجعل القمر فيهن نورا ولم يرد أنه يملأهن جميعا ا. هـ

وقال ابن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٢٦٣- ٢٦٤): فاسمعوا ياذوى الحجا دليلا آخر من كتاب الله: أن الله جلا وعلا في السماء مع الدليل على أن فرعون مع كفره وطغيانه قد أعلمه موسى بذلك، وكأنه قد علم أن خالق البشر في السماء ألا تسمع قول الله يحكي عن فرعون قوله: {يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى} ففرعون -عليه لعنة الله- يأمر ببناء صرح، فحسب أنه يطلع إلى إله موسى، وفي قوله: {وإني لأظنه كاذبا}، دلالة على أن موسى قد كان أعلمه أن ربه -جل وعلا- أعلى وفوق، وأحسب أن فرعون إنما قال لقومه {وإني لأظنه كاذبا} استدراجا منه لهم، كما خبرنا جل وعلا في قوله {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا}، فأخبر الله تعالى: أن هذه الفرقة جحدت -يريد بألسنتهم- لما استيقنتها قلوبهم، فشبه أن يكون فرعون إنما قال لقومه {وإني لأظنه كاذبا}، وقلبه: أن كليم الله من الصادقين، لا من الكاذبين. والله أعلم أكان فرعون مستيقنا بقلبه -على ما أولت؟ أم مكذبا بقلبه ظانا أنه غير صادق ا. هـ

وقال ابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص ٦٣): إن الله تعالى وصف نفسه بالعلو في السماء، ووصفه بذلك محمد خاتم الأنبياء، وأجمع على ذلك جميع العلماء من

=

=

الصحابة الأتقياء والأئمة من الفقهاء، وتوارترت الأخبار بذلك على وجه حصل به اليقين، وجمع الله تعالى عليه قلوب المسلمين، وجعله مغروزا في طباع الخلق أجمعين، فتراهم عند نزول الكرب بهم يلحظون السماء بأعينهم، ويرفعون نحوها للدعاء أيديهم، وينتظرون مجيء الفرج من ربهم، وينطقون بذلك بألسنتهم لا ينكر ذلك إلا مبتدع غال في بدعته، أم مفتون (بتقليده) واتباعه على ضلالته، وأنا ذاكر في الجزء بعض بلغني من الأخبار في ذلك عن رسول الله ﷺ، وصحابته والأئمة (المقتدين) بسنته على وجه يحصل القطع واليقين بصحة ذلك عنهم، ويعلم تواتر الرواية بوجوده منهم، ليزداد من وقف عليه من المؤمنين إيمانا وينتبه من خفي عليه ذلك، حتى يصير كالمشاهد له عيانا، ويصير للمتمسك بالسنة حجة وبرهانا.

واعلم -رحمك الله- أنه ليس من شرط صحة التواتر الذي يحصل به اليقين أن يوجد عدد التواتر في خبر واحد، بل متى نقلت أخبار كثيرة في معنى واحد من طرق يصدق بعضها بعضا، ولم يأت ما يكذبها ويقدح فيها، حتى استقر ذلك في القلوب (واستيقنته)، فقد حصل التواتر، وثبت القطع واليقين، (فإننا) نتيقن جود حاتم، وإن كان لم يرد بذلك خبر واحد مرضي الإسناد، لوجود ما ذكرنا، وكذلك عدل عمر، وشجاعة علي وعلمه، وعلم عائشة وأنها زوج رسول الله ﷺ وابنة أبي بكر، وأشباه هذا، لا يشك في شيء من ذلك، ولا يكاد يوجد تواتر إلا على هذا الوجه، فحصول التواتر واليقين في مسألتنا مع صحة الأسانيد، ونقل العدول المرضيين، وكثرة الأخبار وتخريجها (فيما) لا يحصى عدده، ولا يمكن حصره من دواوين الأئمة والحفاظ، وتلقي الأمة لها بالقبول (وروايتهم لها) من غير معارض يعارضها، ولا منكر (ممن يسمع) منه لشيء منها أولى، سيما وقد جاءت على وفق ما جاء في القرآن العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،

=

=

تنزيل من حكيم حميد.

قال الله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} في مواضع من كتابه، وقال تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} في موضعين، وقال تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}، وقال سبحانه: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ}، وقال تعالى: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ}، وقال لعيسى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}، وقال تعالى: {بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ}، وقال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}، وقال سبحانه وتعالى: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ}، وأخبر عن فرعون أنه قال: {يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا}، يعني أظن موسى كاذبا (في أن الله إلهه في السماء)، والمخالف في هذه المسألة (قد أنكر هذا) يزعم أن موسى كاذب في هذا بطريق (القطع) واليقين، مع مخالفته لرب العالمين، وتخطئته لنبيه الصادق الأمين، وتركه منهج الصحابة والتابعين، والأئمة السابقين، وسائر الخلق أجمعين. نسأل الله تعالى أن يعصمنا من البدع برحمته، ويوفقنا لاتباع سنته ا. هـ

وقال شيخ الإسلام في در تعارض العقل (٦/ ١٩٨): وقال حكاية عن فرعون (يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى أله موسى وإني لأظنه كاذبا) كذب موسى في قوله أن الله ﷻ فوق السماوات. اهـ

وقال رَحِمَهُ اللهُ في الصفدية: وقال تعالى حكاية عن فرعون أنه قال (يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب. أسباب السموات فاطلع الى اله موسى) فوقع قصد الكافر إلى الجهة التي أخبره موسى عنها ﷺ، لذلك لم يطلبه في طول الأرض وعرضها، ولم ينزل إلى طبقات الأرض السفلى، فدل ما تلوناه من هذه الآيات على أن الله في السماء، ومستو على العرش ا. هـ

وقال ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية (ص

=

=

١٠٨): وأخبر تعالى عن فرعون أنه قال (يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب. أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى)، فكأن فرعون قد فهم من موسى ﷺ أنه يثبت إلها فوق السماء، حتى رام بصرحه أن يطلع إليه، واتهم موسى ﷺ بالكذب في ذلك، والجهمية لا تعلم أن الله فوقها بوجود ذاته، فهم أعجز فهما من فرعون، بل وأضل).

ثم أعاده (ص ١١٩) بقوله: وأخبر تعالى عن فرعون أنه قال (يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب. أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا، وكأن فرعون قد فهم عن موسى ﷺ أنه يثبت إلها فوق السماء، حتى رام بصرحه أن يطلع إليه، واتهم موسى ﷺ بالكذب في ذلك، ومخالفنا ليس يعلم أن الله فوقه بوجود ذاته، فهو أعجز فهما من فرعون ا. هـ

وقال الحكمي في معارج القبول (١/ ١٧٢): ففرعون لعنه الله تعالى كذب موسى في أن رب السماوات والأرض ورب المشرق والمغرب وما بينهما هو الله، الذي في السماء فوق جميع خلقه مباين لهم لا تخفى عليه منهم خافية فكل جهمي ناف لعلو الله ﷻ فهو فرعوني وعن فرعون أخذ دينه. وكل سني يصف الله تعالى بما وصف به نفسه أنه استوى على عرشه بائن من خلقه فهو موسوي محمدي متبع لرسل الله وكتبه. انتهى.

قوله: {وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل} {وكذلك} أي: مثل هذا الفعل، أو مثل هذا التزيين أيهما الذي على القاعدة؟

الجواب: الثاني. لأننا قلنا: إن (كذلك) تكون مفعولا مطلقا للفعل الذي بعدها؛ أي: مثل هذا التزيين الذي زين لفرعون، وهذا التمويه والترويج لقومه زين لفرعون سوء عمله، والذي زينه الشيطان والنفس الأمارة بالسوء.

وقد يقال: والله ﷻ؛ لأن الله يضل من يشاء، كما قال الله تعالى: {كذلك زينا لكل

=

=

أمة عملهم} [الأنعام: ١٠٨]، فالله تعالى زينه قدرا، بمعنى أنه حجب عنه الهدى، ثم زين له الشيطان والنفس الأمارة بالسوء أن يعمل هذا العمل.

وقوله: {سوء عمله وصد عن السبيل} السبيل هنا فيها (أل) التي للعهد الذهني، عن السبيل الذي هو سبيل الهدى؛ ولهذا قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [طريق الهدى] وفيها قراءتان "صد" [بفتح الصاد وضمها] {وصد} هذه بضم الصاد على أنها مبنية لما لم يسم فاعله، أما "صد" بفتح الصاد على أنها مبنية على ما سمي فاعله، ولكن هل هي متعدية أو لازمة، هل معناه أنه صد بنفسه أو صد غيره؟ تشمل المعنيين؛ لأنها لفظ مشترك صالح للمعنيين جميعا، والقاعدة في التفسير أن كل لفظ يصلح لمعنيين لا يتنافيان، فإنه يحمل عليهما جميعا، إلا إذا كان في أحدهما ما يرجحه فيرجح، فيعمل بما يترجح.

ثم قال الله تبارك وتعالى: {وما كيد فرعون إلا في تباب} ما كيده إلا في تباب، والكيد والمكر والخداع وما أشبهها كلها كلمات متقاربة، ومعناها: أن يتوصل الإنسان بالأسباب الخفية إلى مقصوده بخصمه، كل إنسان يقصد من خصمه أن يكون مغلوبا، فيتوصل إلى هذا بأسباب خفية لا يعلم بها الخصم للوصول إلى هذا.

فرعون كاد كيدا في أن يقول لهامان: ابن لي صرحا من أجل أن يرقى على هذا الصرح، فإذا وصل غايته نظر أمام الناس ثم نزل، وقال: لم أجد رب موسى. وهذا تمويه، لا سيما على عامة كآل فرعون الذين قد بهرهم هذا الظالم الطاغية، فكل شيء يكون عندهم حقيقة، لكن هل هذا الكيد ينفعه؟

قال الله تعالى: {وما كيد فرعون إلا في تباب} أي: إلا في خسارة، و (ما) هنا حجازية مهملة، يعني: أنها لا تعمل، والذي أبطل عملها الإثبات، وابن مالك يقول:

=

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨).

{وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني} بِإِثْبَاتِ الْيَاء وَحَذْفهَا {أَهْدِكُمْ سَبِيل الرَّشَاد} تَقَدَّمَ.

يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩).

{يَا قَوْم إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاة الدُّنْيَا مَتَاع} تمتع يزول {وإن الآخرة هي دار القرار}(١).

=

إعمال ليس أعملت ما دون إن ... مع بقا النفي............

والنفي هنا لم يبق؛ ولهذا نقول: هي مهملة لبطلان النفي وانتفائه بـ (إلا).

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨)} [غافر: ٣٨]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن المؤمن بالله من آل فرعون {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ} من قوم فرعون لقومه: {يَا قَوْمِ} إن اتبعتموني فقبلتم مني ما أقول لكم، بينت لكم طريق الصواب الذي ترشدون إذا أخذتم فيه وسلكتموه وذلك هو دين الله الذي ابتعث به موسى".

قال ابن كثير:"يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسي الجبار الأعلى، فقال لهم: {يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ} لا كما كذب فرعون في قوله: {وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ}".

قال السمعاني:"{أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ}، أي: سبيل الرشد".

قال مقاتل:"يعني: طريق الهدى".

قال الزجاج:"يعني: سبيل القصد إلى الله ﷻ، وأخرجكم عَنْ سَبِيل فرعونَ. فـ {أهدكم} جزم جواب للأمر، المعنى: إن تتبعوني أهدِكُمْ".

=

=

القرآن

{يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩)} [غافر: ٣٩]

التفسير:

يا قوم إن هذه الحياة الدنيا حياة يتنعَّم الناس فيها قليلا ثم تنقطع وتزول، فينبغي ألا تَرْكَنوا إليها، وإن الدار الآخرة بما فيها من النعيم المقيم هي محل الإقامة التي تستقرون فيها، فينبغي لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها العمل الصالح الذي يُسعِدكم فيها.

قوله تعالى: {يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ} [غافر: ٣٩]، أي:"يا قوم إن هذه الحياة الدنيا حياة يتنعَّم الناس فيها قليلا ثم تنقطع وتزول، فينبغي ألا تَرْكَنوا إليها".

قال الطبري:"يقول لقومه: ما هذه الحياة الدنيا العاجلة التي عجلت لكم في هذه الدار إلا متاع تستمتعون بها إلى أجل أنتم بالغوه، ثم تموتون وتزول عنكم".

قال ابن كثير:"ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى ﷺ، فقال: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ} أي: قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتزول وتضمحل".

قال السمعاني:"أي: سريع فناؤه، والتمتع به قليل".

قال الشوكاني:"يتمتع بها أياما، ثم تنقطع وتزول".

عن الأعمش:"{فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل}، قال: كزاد الراعي".

قوله تعالى: {وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} [غافر: ٣٩]، أي:"وإن الدار الآخرة بما فيها من النعيم المقيم هي محل الإقامة التي تستقرون فيها، فينبغي لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها العمل الصالح الذي يُسعِدكم فيها".

قال الطبري:"يقول: وإن الدار الآخرة، وهي دار القرار التي تستقرّون فيها فلا

=

=

تموتون ولا تزول عنكم، يقول: فلها فاعملوا، وإياها فاطلبوا".

قال ابن كثير:"أي: الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم".

قال الشوكاني: {دَارُ الْقَرَارِ} " أي: الاستقرار لكونها دائمة لا تنقطع ومستمرة لا تزول".

عن قتادة:"{وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ}، استقرت الجنة بأهلها، واستقرّت النار بأهلها".

قال ابن عباس:"الدنيا جمعة من جمع الآخرة. سبعة آلاف سنة".

قال الزمخشري:"قال: {أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ}، فأجمل لهم، ثم فسر فافتتح بذم لدنيا وتصغير شأنها، لأنّ الإخلاد إليها هو أصل الشر كله، ومنه يتشعب جميع ما يؤدى إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في العاقبة. وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها، وأنها هي الوطن والمستقر، وذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما، ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف، ثم وازن بين الدعوتين: دعوة إلى دين الله الذي ثمرته النجاة، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار، وحذر، وأنذر، واجتهد في ذلك واحتشد، لا جرم أن الله استثناه من آل فرعون، وجعله حجة عليهم وعبرة للمعتبرين، وهو قوله تعالى: {فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} [غافر: ٤٥]، وفي هذا أيضا دليل بين على أنّ الرجل كان من آل فرعون. والرشاد نقيض الغى، وفيه تعريض شبيه بالتصريح أنّ ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغى".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وقال الذي آمن} تحقيقا لإيمانه وأنه مؤمن حقا {وقال الذي آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد}.

قوله: {ياقوم} سبق الكلام على إعرابها، وبينا أنها منادى منصوبة مقدرة على ما

=

=

قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة.

وقوله: {وقال الذي آمن ياقوم اتبعون أهدكم} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: ["اتبعوني" بإثبات الياء وحذفها] يعني أنها قراءتان؛ "اتبعوني" و {اتبعون} أما على وجود الياء فالأمر ظاهر؛ لأنها ياء المتكلم، وأما على حذفها فهي محذوفة للتخفيف، وقوله: {اتبعون} فعل أمر، و {أهدكم} جواب فعل الأمر؛ ولهذا وقع مجزوما بحذف الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، وأصل {أهدكم}: أهديكم، لكن الفعل المضارع إذا وقع جوابا للأمر فإنه يكون مجزوما، قيل: إنه مجزوم به. وقيل: إنه مجزوم بشرط مقدر، والتقدير: إن تتبعوني أهدكم. وهكذا يقال في كل ما جاء على هذا التركيب {أهدكم سبيل الرشاد} أي: طريقه، والهداية هنا هداية الدلالة؛ لأنه لا يمكن أن يراد بها هداية التوفيق، إذ إن هداية التوفيق تكون بيد الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لقوله تبارك وتعالى لرسوله محمد- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله وسلم-: {إنك لا تهدي من أحببت} [القصص: ٥٦]؛ أي: لا تهدي هداية التوفيق، فقوله: {أهدكم سبيل الرشاد} يعني: أدلكم على سبيل الرشاد، وسبيل الرشاد ضد سبيل الغي، والرشاد هو حسن التصرف، والغي هو الضلال أو ارتكاب الخطأ عن عمد.

قوله: {ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار} لما رغبهم باتباعه زهدهم بالدنيا؛ لأن أصل ضلال بني آدم هو الطمع في الدنيا والتنافس إنما يكون عليها؛ ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "والله ما الفقر أخشى عليكم، وإنما أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسوها -أي: من قبلنا- فتهلككم كما أهلكتهم" فهو لما طلب أن يتبعوه بين لهم حال الدنيا التي يتنافسون فيها والتي صدوا عن سبيل الله بها.

فقال: {ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع} {إنما} أداة حصر، و {هذه الحياة}

=

=

مبتدأ، و {متاع} خبره؛ أي: ما هذه الدنيا إلا متاع يتمتع به الإنسان قليلا ثم يزول؛ ولهذا قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ في التفسير: {متاع} تمتع يزول].

قوله: {وإن الآخرة هي دار القرار} {الآخرة} ما بعد الدنيا هي دار القرار، (هي) ضمير فصل، و {دار القرار} خبر (إن)، واعلم أن ضمير الفصل ضمير لا محل له من الإعراب لا يعرب مبتدأ ولا خبرا، ولا أي شيء، لا محل له من الإعراب، واعلم أيضا أن له ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: التوكيد.

والفائدة الثانية: الحصر.

والفائدة الثالثة: تمييز الخبر من الصفة.

ويظهر هذا بالمثال، فإذا قلت: زيد هو الفاضل. فهو ضمير فصل استفدنا منه ثلاث فوائد: أولا: التوكيد حيث أكدنا أن زيدا هو الفاضل، بل حيث أكدنا أن زيدا فاضل، ثم الحصر؛ لأنك قلت: زيد هو. أي: لا غير زيد هو الفاضل، الفائدة الثالثة: التمييز بين الصفة والخبر، فإنك لو قلت: زيد الفاضل. لاحتمل أن يكون (الفاضل) صفة لـ (زيد) وأن الخبر لم يأت بعد، فإذا قلت: هو الفاضل. تعين أن تكون الفاضل خبرا، فبذلك يحصل التمييز بين الخبر وبين الصفة.

وضمير الفصل لا محل له من الإعراب، ودليل ذلك قوله تعالى: {لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين (٤٠)} [الشعراء: ٤٠]، فهنا جاءت {الغالبين} خبرا لـ (كان)، ولو كان له محل من الإعراب لكانت: إن كانوا هم الغالبون. لكنه ليس له محل من الإعراب، إذن ما هي دار القرار؟

هي الدار الآخرة، وأكد ذلك بالإتيان بضمير الفصل، وأن الدار الآخرة هي دار القرار؛ أي: دار المستقر؛ ولهذا يؤتى بالموت على صورة كبش فيوقف بين الجنة والنار، ويقال: "يا أهل النار! فيشرئبون ويطلعون، وكذلك يقال: يا أهل الجنة

=

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠).

{مَنْ عَمِلَ سَيِّئَة فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَر أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِن فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّة} بِضَمِّ الْيَاء وَفَتْح الْخَاء وَبِالْعَكْسِ {يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَاب} رزقا واسعا بلا تبعة[1].

=

فيشرئبون ويطلعون، فيقال لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، فيذبح أمامهم، ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت".

إذن: هذا القرار ما دام ليس فيه انتقال عن هذه الدار فهي دار القرار.

إذا كان هي دار القرار والدنيا متاع، فالأولى أن يعمل له هي الآخرة، لأنها دار القرار، أما هذه فهي دار عبور دار متاع "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل".

(١) قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا} [غافر: ٤٠].

قال الطبري:"يقول: من عمل بمعصية الله في هذه الحياة الدنيا، فلا يجزيه الله في الآخرة إلا سيئة مثلها، وذلك أن يعاقبه بها".

قال ابن كثير: {فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا} " أي: واحدة مثلها".

عن قتادة: " {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا}، أي: شركا".

قال مقاتل:"{منْ عَمِلَ سَيِّئَةً}، يعني: الشرك، {فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها} فجزاء الشرك النار".

قال الشوكاني: أي: من عمل في دار الدنيا معصية من المعاصي كائنة ما كانت فلا يجزى إلا مثلها ولا يعذب إلا بقدرها، والظاهر شمول الآية لكل ما يطلق عليه اسم السيئة، وقيل: هي خاصة بالشرك، ولا وجه لذلك".

=

قوله تعالى: {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [غافر: ٤٠]، أي:"ومَن أطاع الله وعمل صالحًا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ذكرًا كان أو أنثى، وهو مؤمن بالله موحد له".

قال الطبري:"يقول: ومن عمل بطاعة الله فى الدنيا، وائتمر لأمره، وانتهى فيها عما نهاه عنه من رجل أو امرأة، وهو مؤمن بالله".

قال الشوكاني: أي: من عمل صالحا مع كونه مؤمنا بالله، وبما جاءت به رسله".

عن قتادة: " {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا}، أي: خيرا".

قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ} [غافر: ٤٠]، أي:"فأولئك يدخلون الجنة، يرزقهم الله فيها من ثمارها ونعيمها ولذاتها بغير حساب".

قال الطبري:"يقول: فالذين يعملون ذلك من عباد الله يدخلون في الآخرة الجنة، يرزقهم الله في الجنة من ثمارها، وما فيها من نعيمها ولذاتها بغير حساب".

قال قتادة:"لا والله ما هناكم مكيال ولا ميزان".

قال ابن كثير:"أي: لا يتقدر بجزاء بل يثيبه الله، ثوابا كثيرا لا انقضاء له ولا نفاد".

وقال مقاتل:"يقول: بلا تبعة في الجنة فيما يعطون فيها من الخير".

قال الزمخشري في الآية:"لأنّ الزيادة على مقدار جزاء السيئة قبيحة، لأنها ظلم. وأما الزيادة على مقدار جزاء الحسنة فحسنة، لأنها فضل".

قال العثيمين: هذا كالبيان لحال الآخرة، وكيف يجازى الناس فيها، فقال: {من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها} {من} شرطية، و {عمل} فعل الشرط، وجملة: {فلا يجزى إلا مثلها} هذه جواب الشرط، وقوله: {فلا يجزى إلا مثلها} (مثل) مفعول {يجزى} الثاني، والمفعول الأول هو نائب الفاعل المستتر.

قوله: {من عمل سيئة} السيئة ما يسوء حالا أو مآلا، فما أصاب الإنسان من

=

مرض أو فقر أو عاهة أو ما أشبه ذلك هذا سوء، لكنه في الحال، وما أصاب الإنسان من عقوبة على أعماله فهذا سوء، ولكنه في المآل، وقد يكون في الحال قد يعاجل الإنسان بالعقوبة، فالسيئة كل ما يسوء حالا أو مآلا {فلا يجزى إلا مثلها} السيئة بواحدة مهما كان، حتى وإن كان الإنسان في مكة، أو في المدينة، أو في المسجد، أو في أي مكان، أو في أي زمان أيضا، حتى ولو كان في الأشهر الحرم التي نص الله تعالى على النهي عن الظلم فيها، فقال: {منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم} [التوبة: ٣٦]، فإن السيئة لا تزال.

ولكن اعلموا أنها قد تكون أشد من حيث الكيفية لا من حيث الكمية. يعني: أننا نرى أن ضربة واحدة قد تكون أشد على الإنسان من عشر ضربات بشدتها وشدة وقعها؛ ولهذا قال الله تعالى في الحرم المكي: {ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم} [الحج: ٢٥]، وبهذا التقرير الذي دل عليه الكتاب والسنة تبين أن ما يذكر عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه خرج من مكة وقال: لا أبقى في بلد سيئاته وحسناته سواء. فإن هذا لا يصح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابن عباس أفقه وأعلم من أن يلتبس عليه هذا الأمر، مع أن الله قال في سورة الأنعام وهي مكية: {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون (١٦٠)} [الأنعام: ١٦٠].

قوله: {ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى} {ومن} هذه شرطية، و {صحيحا} يجوز أن نعربها صفة لموصوف محذوف، والتقدير: عملا صالحا، ويجوز أن نجعلها مفعولا مطلقا؛ لأن وصف المصدر المحذوف يصح أن يقع الإعراب عليه على أنه مفعول مطلق، أو على أنه صفة لموصوف محذوف، والتقدير: عملا صالحا.

والعمل الصالح ما توافرت فيه شروط القبول، وذلك بأن يكون خالصا لله على

=

=

شريعة الله، بأن يجمع بين أمرين: الإخلاص لله، والمتابعة لرسله عليهم الصلاة والسلام، هذا العمل الصالح.

إذن هو ما توافرت فيه شروط القبول وهما:

الأول: الإخلاص لله ﷻ.

والثاني: المتابعة لرسل الله سواء محمد أو غيره، لكن من المعلوم أنه بعد بعثة محمد ﷺ لا يصح اتباع غيره.

إذا فقد الإخلاص فليس العمل صالحا، بل هو مردود على صاحبه؛ لقوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه"، وإذا فقدت المتابعة لم يكن العمل صالحا وكان مردودا؛ لقول النبي- ﷺ وعلى آله وسلم-: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد".

وقوله: {من ذكر أو أنثى} بيان لـ (من) فـ (من) هنا بيانية بيان لـ (من)؛ لأن (من) اسم موصول، واسم الموصول الأصل فيه الإبهام، فإذا وجد بعده بيان فإنه يكون مبينا لإبهامه {من ذكر أو أنثى وهو مؤمن} هذا الشرط لا بد أن يكون مؤمنا، فإن لم يكن مؤمنا فإن عمله الصالح لا ينفعه، حتى وإن كان العمل مما يتعدى نفعه، فإنه لا ينفعه؛ لقوله تعالى: {وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله} [التوبة: ٥٤].

فغير المؤمن لا ينفعه عمله، لو أن رجلا كافرا أصلح الطرق، ومد أنابيب الماء يسقي الناس، وبنى المساجد وطبع الكتب، وكسا العريان، وأطعم الجائع فلا ينفعه هذا؛ ولهذا فلا ينفع المنافقين عملهم؛ لأنهم ليسوا مؤمنين، وبه نعرف أن الإيمان هو الأصل، آمن ثم اعمل، أما العمل بدون إيمان هباء، نسأل الله ألا يخلع عنا وعنكم الإيمان {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (٢٣)}

=

وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١).

{ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار}.

=

[الفرقان: ٢٣]، لا بد من الإيمان أولا، ثم إذا آمنت فاعمل، وإذا عملت فأخلص واتبع.

قوله: {فأولئك يدخلون الجنة} جملة {فأولئك} جواب الشرط، وهو {ومن عمل صالحا} {فأولئك يدخلون الجنة} وهنا قال: {فأولئك} باسم الإشارة الموضوع للبعيد، إشارة إلى علو مرتبتهم، كأنك تشير إليهم وهم فوق {فأولئك يدخلون الجنة}، قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بضم الياء وفتح الخاء "يدخلون"، وبالعكس] أي: {يدخلون} فيجوز "يدخلون" أي: يدخلهم الله، ويجوز {يدخلون} أي: هم بأنفسهم لكن بإذن الله.

ومن المعلوم أن أهل الجنة لا يدخلون الجنة إلا بعد الشفاعة، بعد شفاعة محمد- ﷺ وعلى آله وسلم- في فتح الجنة؛ لأنهم يصلون إليها وبابها مغلق فيطلبون من يشفع لهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن يفتح لهم الباب، فيشفع لهم النبي ﷺ وحده في أن يفتح لهم الباب فيفتح.

قوله: {يرزقون فيها بغير حساب} {يرزقون} الرزق بمعنى: العطاء، ومنه قوله تعالى: {وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه}؛ أي: أعطوهم، فمعنى {يرزقون} إذن: يعطون، وقوله: {بغير حساب}؛ أي: بغير تبعة، يعني: لا يحاسبون عليه، ولا ينقدون له ثمنا، في الدنيا لا تملك رزقا إلا بثمن، لكن في الآخرة تعطى الرزق بغير ثمن وبغير تبعة، لا تحاسب عليه؛ لأن الثمن كان مقدما سلما وهو نقد الثمن وتأخير المثمن، فهنا الثمن مقدم، الثمن كان في الدنيا حين عملوا بطاعة الله، فكان هذا هو العوض، فالقوم قد أسلموا في هذا المبيع وقدموا ثمنه؛ ولهذا قال: {يرزقون فيها بغير حساب}.

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢).

{تَدْعُونَنِي لِأَكْفُر بِاَللهِ وَأُشْرِك بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْم وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيز} الْغَالِب عَلَى أَمْره {الْغَفَّار} لِمَنْ تَابَ.

لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣).

{لَا جَرَم} حَقًّا {أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} لِأَعْبُدهُ {لَيْسَ لَهُ دَعْوَة} أَيْ اسْتِجَابَة دَعْوَة {فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَة وَأَنَّ مَرَدّنَا} مَرْجِعنَا {إلى الله وأن المسرفين} الكافرين {هم أصحاب النار[1].

(١) قوله تعالى: {وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١)} [غافر: ٤١].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل هذا المؤمن لقومه من الكفرة: {مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ} من عذاب الله وعقوبته بالإيمان به، واتباع رسوله موسى، وتصديقه فيما جاءكم به من عند ربه، وتدعونني إلى عمل أهل النار".

قال ابن كثير:"يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه {وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ.. }.

قال ابن عطية:"الدعاء إلى طاعة الله وعبادته وتوحيده هو الدعاء إلى سبب النجاة فجعله دعاء إلى النجاة اختصارا واقتضابا، وكذلك دعاؤهم إياه إلى الكفر واتباع دينهم: هو دعاء إلى سبب دخول النار، فجعله دعاء إلى النار اختصارا".

عن مجاهد، قوله: " {مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ}، قال: الإيمان بالله".

قال ابن زيد:"هذا مومن آل فرعون، قال: يدعونه إلى دينهم والإقامة معهم".

=

=

قال الزمخشري:"فإن قلت: لم كرر نداء قومه؟ ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؟

قلت: أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة. وفيه: أنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم، وهو يعلم وجه خلاصهم، ونصيحتهم عليه واجبة، فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم، ويستدعى بذلك أن لا

يتهموه، فإنّ سرورهم سروره، وغمهم غمه، وينزلوا على تنصيحه لهم، كما كرر إبراهيم عليه السلام في نصيحة أبيه: {يَا أَبَتِ}".

قوله تعالى: {تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ} [غافر: ٤٢]، أي:"تدعونني لأكفر بالله، وأشرك به ما ليس لي به علم أنه يستحق العبادة من دونه".

قال الطبري:"يقول: وأشرك بالله في عبادته أوثانا، لست أعلم أنه يصلح لي عبادتها وإشراكها فى عبادة الله، لأن الله لم يأذن لي في ذلك بخبر ولا عقل".

قال ابن كثير:"{تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ} أي: جهل بلا دليل".

قال ابن عطية:"قوله: {ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ}، ليس معناه أني جاهل به، بل معناه: العلم بأن الأوثان وفرعون وغيره ليس لهم مدخل في الألوهية، وليس لأحد من البشر علم بوجه من وجوه النظر بأن لهم في الألوهية مدخلا، بل العلم اليقين بغير ذلك من حدوثهم متحصل".

قوله تعالى: {وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ} [غافر: ٤٢]، أي:"وأنا أدعوكم إلى الطريق الموصل إلى الله العزيز في انتقامه، الغفار لمن تاب إليه بعد معصيته".

قال الطبري:"يقول: وأنا أدعوكم إلى عبادة العزيز في انتقامه ممن كفر به، الذي لا يمنعه إذا انتقم من عدوّ له شيء، الغفار لمن تاب إليه بعد معصيته إياه، لعفوه عنه،

=

=

فلا يضرّه شيء مع عفوه عنه، يقول: فهذا الذي هذه الصفة صفته فاعبدوا، لا ما لا ضرّ عنده ولا نفع".

قال ابن كثير:"أي: هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه".

قوله تعالى: {لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ} [غافر: ٤٣]، أي:"حقًا أن ما تدعونني إلى الاعتقاد به لا يستحق الدعوة إليه، ولا يُلجأ إليه في الدنيا ولا في الآخرة لعجزه ونقصه".

قال الطبري:"يقول: حقا أن الذي تدعونني إليه من الأوثان، ليس له دعاء في الدنيا ولا في الآخرة، لأنه جماد لا ينطق، ولا يفهم شيئا".

قال الزجاج:"يعني: أنه ليس له استجابة دعوة في الدنيا ولا في الآخرة".

عن قتادة، قوله: " {لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ}، أي: لا ينفع ولا يضرّ".

عن مجاهد، قوله: " {لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا}، قال: الوثن ليس بشيء".

عن ابن عباس، قوله: " {لَا جَرَمَ}، يقول: بلى".

عن أبي مالك، قوله: " {لَا جَرَمَ}، يعني: بالحق".

عن الضحاك، قوله: " {لَا جَرَمَ}، قال: لا كذب".

قال الزمخشري:"يجوز أن يقال: أن «لا جرم»، نظير: لا بدّ، فعل من الجرم، وهو القطع، كما أن بدّا فعل من التبديد وهو التفريق، فكما أن معنى: لا بد أنك تفعل كذا، بمعنى: لا بعد لك من فعله، فكذلك لا جرم أن لهم النار، أى: لا قطع لذلك، بمعنى أنهم أبدا يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ولا قطع، لبطلان دعوة الأصنام، أى لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب حقا".

قوله تعالى: {وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ} [غافر: ٤٣]، أي:"واعلموا أن مصير الخلائق كلها إلى الله سبحانه، وهو يجازي كل عامل بعمله".

=

=

قال الطبري:"يقول: وأن مرجعنا ومنقلبنا بعد مماتنا إلى الله".

قال ابن كثير:"أي: في الدار الآخرة، فيجازي كلا بعمله".

قوله تعالى: {وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ} [غافر: ٤٣]، أي:"وأن الذين تعدَّوا حدوده بالمعاصي وسفك الدماء والكفر هم أهل النار".

قال الطبري:"يقول: وإن المشركين بالله المتعدّين حدوده، القتلة النفوس التي حرم الله قتلها، هم أصحاب نار جهنم عند مرجعنا إلى الله".

قال ابن كثير:"أي: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله".

عن مجاهد، قوله: " {وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}، قال: هم السفَّاكون الدماء بغير حقها".

قال ابن زيد:"سماهم الله مسرفين، فرعون ومن معه".

وعن قتادة:"{وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}، أي: المشركون".

قال ابن عطية:"أهل الإسراف والشرك: هم أصحاب النار بالخلود فيها والملازمة، أي: فكيف أطيعكم مع هذه الأمور الحقائق، في طاعتكم رفض العمل بحسبها والخوف".

قال العثيمين: قوله تعالى: ثم قال هذا الرجل الذي آمن: {وياقوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار (٤١)}.

هذا استفهام تعجب وإنكار، كأنه يقول: عجبا لكم أدعوكم إلى الجنة وتدعونني إلى النار! وهذا والله محل عجب، محل العجب أن تدعو رجلا إلى الجنة وهو يدعوك إلى النار، فتأتي إلى رجل تقول: يا فلان اترك شرب الخمر، شرب الخمر حرام، ولا يجوز، من شربه في الدنيا لم يشربه في الآخرة، هو أم الخبائث مفتاح كل شر، فيقول لك: يا ولد لذة وطرب وأنس وسرور، اشرب حتى ترى، إذا شربت كأنك ملك الملوك، ثم يرغبك، ثم يقول له أيضا يمنيه يقول: اشرب. وإذا شربت

=

=

وحصلت لك اللذة والطرب، فاستغفر الله، الباب مفتوح، فالأحق بالإجابة الأول دون الثاني.

فهذا يقول: {ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار} وهذا الاستفهام -كما قلت لكم- استفهام تعجب وإنكار، وهو محل التعجب ومحل الإنكار أيضا، والله أعلم.

وجملة {وتدعونني إلى النار} معطوفة على الجملة التي قبلها، وليست استئنافية ولا حالية كما قيل به، بل هي معطوفة على ما سبق؛ لأن التعجب إنما يكون من اجتماع الأمرين أنه يدعوهم إلى النجاة، وهم يدعونه إلى النار.

وقوله: {إلى النجاة} يعني: النجاة إلى النار ولم يقل: إلى الجنة مع أنه قال: {وإن الآخرة هي دار القرار}؛ لأنهم هم يدعونه إلى الهلاك، يدعونه إلى النار، فقابل دعوته بدعوتهم، فكأنه يقول: أنا أدعوكم إلى النجاة من النار وأنتم تدعونني إلى النار، والدعوة إلى النار ليس أن يقول القائل: هلموا إلى النار أيها الناس. لكنها الدعوة إلى عمل أهل النار، وليعلم أن النار حفت بالشهوات، وأن الجنة حفت بالمكارم، وعمل أهل النار مبني على الشهوات أو على الشبهات يعني: إما جهالات وضلالات كعمل النصارى، وإما شهوات كعمل اليهود، وعلى هذين يدور عمل أهل النار الشبهات والشهوات، والشبهات دواؤها العلم، والشهوات دواؤها الحزم والإرادة التامة لما يحبه الله ويرضاه.

{ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار} ثم بين بعد أن أجمل في قوله: {وتدعونني إلى النار} بين الأعمال التي يدعونه إليها:

وقوله: {تدعونني لأكفر} اللام هنا لبيان المدعو إليه. يعني: تدعونني لهذا، وعلى هذا فـ {لأكفر} منصوبة بـ (أن) مضمرة بعد اللام على مذهب البصريين، أو باللام على مذهب الكوفيين، {لأكفر بالله} أي: أجحده وأنكره، والمراد إنكار وحدانيته

=

=

بدليل قوله: {وأشرك به} وقد يقال: إن المراد إنكار وجوده بالكلية، أو الإشراك به مع الإقرار به، فيكونون يدعونه إلى شيئين إما إنكار الخالق ﷻ، وهذا مستفاد من قوله: {وأشرك به}؛ أي: أجحده، أو إثباته مع وجود شريك له، وهذا مستفاد من قوله: {وأشرك به}.

وقوله: {ما ليس لي به علم} هذا قيد مبين للواقع، وأن كل من أشرك بالله فإنه مشرك بلا علم، بل بما يعلم بالفطرة خلافه، ولكن من المعلوم أن الشيء إذا كان بلا علم فإنه لا ثبوت له ولا أصل له.

فالصلة في قوله: {ما ليس لي به علم}؛ لبيان الواقع، وقد بينا أن كل قيد لبيان الواقع أو الغالب أو المبالغة؛ فإنه لا مفهوم له.

وقوله: {وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار} بدأ هنا باسم العزيز؛ لأن المقام يقتضيه؛ إذ إن هؤلاء أقباط من آل فرعون يظنون أن العزة لهم، فقال: {أدعوكم إلى العزيز} ولم يقل: إلى الغفور الرحيم. بل قال: {إلى العزيز الغفار} يعني: {العزيز} الغالب، فيهلككم إذا أنتم أشركتم به أو كفرتم به {الغفار} يغفر لكم ما سبق إن أنتم آمنتم به، وهذا من تمام فقه هذا الرجل المؤمن، فإنه قد يقول قائل: إن المقام يقتضي: وأنا أدعوكم إلى الغفور الرحيم. لكن الأمر بالعكس المقام يقتضي ذكر اسمه العزيز؛ لأن هؤلاء يدعون أنهم فوق الناس، وأن ربهم فرعون، وأنه لا غالب لهم.

وقوله: {العزيز} اسم من أسماء الله، و {الغفار} اسم من أسماء الله، والغفور اسم من أسماء الله.

وليعلم أن أسماء الله سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين: الأول ما كان مشتقا من وصف متعدد، فهذا لا يتم الإيمان به إلا بأمور ثلاثة:

الأول: إثباته اسما لله، والثاني: إثبات الصفة التي دل عليها، والثالث: إثبات

=

=

الحكم المترتب على هذه الصفة.

والقسم الثاني غير متعد، لا يتم الإيمان به إلا بإثبات اثنين، إثباته اسما من أسماء الله، وإثبات الصفة التي دل عليها؛ لأن كل اسم من أسماء الله يدل على صفة ليس لله اسم يكون جامدا، خلافا لمن قال: إن كلمة (الله) اسم جامد غير مشتق، وهذا ليس بصحيح، ما من اسم من أسماء الله إلا وهو مشتق؛ لأن الله وصف أسماءه بأنها حسنى، وما لا يتضمن من وصف ليس بحسن فضلا عن أن يكون أحسن.

نضرب أمثلة لهذا: (الحي) من اللازم تؤمن به اسما من أسماء الله، وبالحياة التي دل عليها الاسم، و (السميع) متعد تؤمن بالسميع اسما لله، وبالسمع صفة لله، وبأنه يسمع إثباتا للحكم، وهو الأثر المترتب على هذه الصفة.

ثم اعلم أن الاسم يتضمن أحيانا صفة وأحيانا صفتين، وأحيانا أكثر؛ لأن أنواع الدلالة ثلاثة: مطابقة، وتضمن، والتزام.

فمثلا من أسماء الله تعالى الخلاق {إن ربك هو الخلاق العليم (٨٦)} [الحجر: ٨٦] والخلاق والخالق من أسماء الله، مثل الغفور وغافر الذنب والغفار؛ فتؤمن بالخلاق اسما من أسماء الله، وتؤمن بصفة الخلق التي تضمنها اسم الخلاق، وإيمانك بالاسم والصفة هذا إيمان بدلالة المطابقة، وإيمانك بالاسم وحده أو بالصفة وحدها إيمان بدلالة التضمن، ثم إيمانك بأنه عليم قدير، إيمان بدلالة الالتزام؛ لأنه ما من خلاق إلا وهو عليم، وما من خلاق إلا وهو قادر، لأنه إن كان جاهلا فكيف يخلق، وإن كان عاجزا فكيف يخلق؟ ! فدلالة الخلاق على العلم والقدرة دلالة التزام.

وهذه الدلالة -أعني: دلالة الالتزام- يتفاوت فيها الناس تفاوتا كثيرا، فمن الناس من يعطيه الله تعالى فهما يدرك به اللوازم التي تلزم على هذا الاسم، ومن الناس من هو دون ذلك، فتجد بعض الناس يستنبط فوائد عدة بدلالة النزول، وآخر لا

=

=

يقدر، وفضل الله تعالى يؤتيه من يشاء.

والعزيز بمعني: ذي العزة {سبحان ربك رب العزة} [الصافات: ١٨٠]، والعزة قالوا: إنها ثلاثة أنواع: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع، عزة القدر بمعنى أنه سبحانه وتعالى عزيز قدرا؛ بحيث لا يكون مماثل له، وعزة الامتناع يعني: أنه ﷻ عزيز، أي: يمتنع أن يناله السوء، والعزيز يأتي بمعنى الامتناع في قوله تعالى: {وما ذلك على الله بعزيز (٢٠)} [إبراهيم: ٢٠]؛ أي: بممتنع، والثالث: عزة القهر بمعنى: أنه الغالب، ومنه قوله تعالى: {يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل} [المنافقون: ٨]، فقال الله تعالى: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} [المنافقون: ٨] العزة يعني: الغلبة، إذا كان العزيز بمعنى: الغالب فهو من الأسماء، عز أي: غلب فهو غالب، ومقابله مغلوب، وإذا كانت عز بمعنى: امتنع أو بمعنى: كان ذا قدر عظيم فهو لازم.

إذن نقول: العزيز من جهة تكون من الأسماء المتعدية إذا كانت بمعنى: الغالب، ومن جهة أخرى تكون غير متعدية إذا كانت بمعنى: الامتناع أو بمعنى: القدر.

وهنا جملة معترضة؛ قال الله تعالى: {يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله} هل الجواب مطابق لقولهم، أو غير مطابق؟ الجواب: {ليخرجن الأعز منها الأذل} قال: {ولله العزة} المطابق أن يقول: والله أعز، والله أعز والمؤمنون، لكن لم يذكر هذا، بل قال: {ولله العزة} إشارة إلى أن المنافقين لا عزة لهم أصلا؛ لأنه لو قال: الله أعز. لأثبت للمنافقين عزة، ولكنه ليس لهم عزة، حصر العزة لله ورسوله والمؤمنين {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} وهذه من بلاغة القرآن، وإذا تأملت القرآن -سبحان الله- تبين لك أمور تبهرك في دلالاته وإشاراته وإيماءاته، فسبحان الله الذي أنزله ﷻ.

قوله: {الغفار} اسم من أسماء الله المتعدية؛ لأن الله قال: {يغفر لمن يشاء

=

=

ويعذب من يشاء}.

إذن: لا بد أن نثبت الغفار اسما من أسماء الله، ولا بد أن نثبت الصفة وهي المغفرة {وربك الغفور ذو الرحمة} {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم} [الرعد: ٦]، ونثبت أنه يغفر ويوصل المغفرة من شاء.

قوله: {لا جرم أنما تدعونني إليه} وهو الكفر بالله، والإشراك به {ليس له دعوة}، أي: ليس له استجابة دعوة {في الدنيا ولا في الآخرة} ولا جرم أيضا أن مردنا إلى الله، وأن المسرفين هم أصحاب النار.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لا جرم} حقا]؛ يعني: أن معنى لا جرم حق، وعلى هذا فتكون (لا) زائدة، و (جرم) بمعنى: حقا، وهذا ما ذهب إليه المفسر، والمعربون اختلفوا فيها، والصواب في إعرابها أن (لا) نافية للجنس، و (جرم) اسمها، ومعنى (لا جرم): أي لا شك، أو لا بد، هذا هو الصواب والتركيب واضح، ولا يحتاج أن يقدر أن (لا) زائدة و (جرم) بمعنى: قطع، وأن مصير الجملة إلى أن تكون مصدرا لعامل محذوف يعني: أحق حقا أن ما تدعونني إليه، لا حاجة إلى هذا، إذا قلنا: لا شك أن ما تدعونني إليه إلى آخره، ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة زال الإشكال، وعلى هذا تكون (جرم) اسم (لا)، وإنما دخل في تأويل المصدر خبر (لا)، والمعنى يقول: لا شك ولا ارتياب أن الذي تدعونني إليه ليس له دعوة.

وقوله: {أنما تدعونني إليه} (ما) مربوطة بـ (أن)، والظاهر وحسب القواعد المعروفة أن تكون مفصولة، لأن المعنى: لا جرم أن الذي تدعونني إليه، وإذا كانت (ما) موصولة فإنها تفصل عن (أن) كتابة، لكن رسم المصحف تمشى فيه العلماء على الرسم العثماني؛ احتراما للقرآن أن يغير؛ ولهذا تجدون الصلاة في المصحف مكتوبة بالواو، والزكاة بالواو، والربا بالواو، {إن رحمت الله قريب من المحسنين} [الأعراف: ٥٦] بالتاء المفتوحة، كل هذا اتباعا للرسم العثماني؛

=

=

احتراما لكتاب الله أن يدخله التغيير.

وقد اختلف العلماء: هل يكتب القرآن حسب القواعد وفي كل وقت بحسبه، أو على الرسم العثماني؛ فقيل: إنه يجوز أن يكتب على القواعد في كل وقت بحسبه؛ لأن المقصود أن يتلى كتاب الله على حسب ما نزل لا على حسب ما كتب، والقرآن نزل مقروءا؛ إذن الكتابة ما هي إلا اصطلاحات تخضع لأعراف الناس.

والقول الثاني: إنه لا يجوز أن يغير أبدا؛ سدا للباب، ومنعا للتغيير؛ حتى لا يجرؤ أحد أن يغير في كتاب الله ﷻ، وهذا لا شك أنه يرمي إلى قوة احترامنا للقرآن الكريم، والأول يرمي إلى قوة إيصال القرآن إلى الناس على وجه لا إشكال فيه.

والقول الثالث: إنك إن كتبته للدارسين المبتدئين، فلا بأس أن تكتبه حسب القواعد المعروفة؛ لأن الدارسين المبتدئين لا يعرفونه، وأما إذا كنت تريد أن تكتبه ليقرأ فهذا يكتب على حسب الرسم العثماني.

والظاهر أن هذا القول المفصل أرجح الأقوال الثلاثة.

قوله: {لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة} (أن) حرف توكيد ينصب المبتدأ ويرفع الخبر، و (ما) اسمها، و {ليس له دعوة} خبرها الجملة.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{أنما تدعونني إليه} لأعبده]، ولكن هذا التفسير قاصر، فالذي دعوه إليه أن يكفر بالله ويشرك به، فهم دعوه إلى أمرين، والمفسر قصره على أمر واحد، وهو عبادة غير الله، وهذا إشراك.

وقوله: {ليس له دعوة} أي: ليس له استجابة دعوة، والصواب أنه ليس له دعوة يدعى بها، ولا دعوة يجيبها، فمعنى {ليس له دعوة}: لا يستحق أن يدعى، وهو أيضا لا يستجيب إذا دعي، كما قال الله تعالى: {إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير (١٤)} [فاطر: ١٤].

=

زد على ذلك أنكم تريدون أن ينفعوكم في الآخرة، والأمر ليس كذلك؛ قال تعالى: {ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير}، وهذه الآية كقوله تعالى: {ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة} [الأحقاف: ٥]، هذا الذي تدعوه لا يمكن أن يستجيب لك إلى يوم القيامة أبدا، {وهم عن دعائهم غافلون} (هم) يجوز أن يكون المدعوون، ويجوز أن يكون الداعون، والهاء في {دعائهم} يجوز عودها لهذا، وهذا حسب الضمير السابق.

ثم قال تعالى: {وإذا حشر الناس} وهو الوقت الذي يريد الداعون أن ينتفعوا بالمدعوين {وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٦)} [الأحقاف: ٦]؛ لأن الله يقول: {إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب (١٦٦)} [البقرة: ١٦٦] أي: المودة والمحبة التي كانوا يضمرونها لهم في الدنيا {وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا} [البقرة: ١٦٧].

فقوله تعالى: {ليس له دعوة} يقول المفسر: [ليس له دعوة مستجابة] يعني: لا يستجيب الدعوة، والصواب أن لها معنيين: لا يستجيب، ولا يستحق، فهو لا يستحق أن يدعى، ولو دعي لم يستجب.

وقوله: {ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة} لا يستطيع هذا لا في الدنيا ولا في الآخرة، فالأصنام لا تنفع عابديها لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقوله: {وأن مردنا إلى الله} ذكرهم بالحساب رَحِمَهُ اللَّهُ وجزاه الله خيرا، قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وأن مردنا}؛ أي: مرجعنا] إلى الله عَزَّ وَجَلَّ في الدنيا والآخرة {فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول} [النساء: ٥٩]، فالمرد هو الله في الدنيا والآخرة.

وقوله: {وأن المسرفين هم أصحاب النار} يعني: ولا جرم أيضا أن المسرفين هم أصحاب النار. يعني: هذه ثلاثة أشياء كلها جزم بها جزما.

فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤).

{فَسَتَذْكُرُونَ} إذَا عَايَنْتُمْ الْعَذَاب {مَا أَقُول لَكُمْ وَأُفَوِّض أَمْرِي إلَى الله إنَّ الله بَصِير بِالْعِبَادِ} قَالَ ذَلِكَ لَمَّا تَوَعَّدُوهُ بِمُخَالَفَةِ دِينهمْ(١).

=

أولا: {أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة}.

والثاني: {وأن مردنا إلى الله}.

والثالث: {وأن المسرفين هم أصحاب النار}.

والمسرف اسم فاعل من الإسراف، وهو تجاوز الحد ويكون كفرا، ويكون دون الكفر، فالإنسان الذي يملأ بطنه من الطعام والشراب مسرف، لكنه ليس بكافر؛ لأن الله ﷻ قال: {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا}، وكذلك الإسراف في اللباس وغيره لا يؤدي إلى الكفر، لكن الإسراف في عبادة الله بأن تتجاوز عبادة الله إلى عبادة غيره، هذا هو الكفر، وهذا هو مراد هذا الرجل المؤمن.

وقوله: {وأن المسرفين هم أصحاب النار} (هم) ضمير فصل وقد سبق لنا أن ضمير الفصل من حيث الإعراب لا محل له من الإعراب، فلا يؤثر فيما بعده ولا يؤثر فيه ما قبله، هذه واحدة.

وسبق لنا أن لضمير الفصل فوائد: التوكيد والحصر وتمييز الخبر عن الصفة، وضربنا لذلك مثلا لا حاجة للإعادة.

(١) قوله تعالى: {فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ} [غافر: ٤٤].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل المؤمن من آل فرعون لفرعون وقومه: فستذكرون أيها القوم إذا عاينتم عقاب الله قد حل بكم، ولقيتم ما لقيتموه صدق ما أقول، وحقيقة ما أخبركم به من أن المسرفين هم أصحاب النار".

قال ابن كثير:"أي: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم".

=

=

قال البغوي:"إذا عاينتم العذاب حين لا ينفعكم الذكر".

عن ابن وهب، قال: "قال ابن زيد، في قوله: {فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ}، فقلت له: أو ذلك في الأخرة؟ قال: نعم".

قوله تعالى: {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ} [غافر: ٤٤]، أي:"وألجأ إلى الله، وأعتصم به، وأتوكل عليه".

قال الطبري:"يقول: وأسلم أمري إلى الله، وأجعله إليه وأتوكل عليه، فإنه الكافي من توكل عليه".

قال ابن كثير:"أي: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم".

عن السديّ: " {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ}، قال: أجعل أمري إلى الله".

قال الزمخشري: قال:"{وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ}، لأنهم توعدوه".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [غافر: ٤٤]، أي:"إن الله سبحانه وتعالى بصير بأحوال العباد، وما يستحقونه من جزاء، لا يخفى عليه شيء منها".

قال الطبري:"يقول: إن الله عالم بأمور عباده، ومن المطيع منهم، والعاصي له، والمستحق جميل الثواب، والمستوجب سيئ العقاب".

قال ابن كثير:"أي: هو بصير بهم، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ".

قال البغوي: أي:"يعلم المحق من المبطل، ثم خرج المؤمن من بينهم، فطلبوه فلم يقدروا عليه".

قال ابن عباس:"لم يكن في آل فرعون مؤمن غيره، وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذي أنذر موسى عليه السلام الذي قال: {إِنَّ الْمَلا يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوك}.

قال العثيمين: ثم قال الله تبارك وتعالى في بقية كلام هذا الرجل المؤمن: {فستذكرون ما أقول لكم} [غافر: ٤٤].

=

=

السين وسوف كلاهما يختصان بالفعل المضارع ومن علاماته، وإذا رأيت كلمة تقبل السين وسوف فهي فعل مضارع، لكنهما يفترقان، السين تدل على القرب، وسوف تدل على المهلة، فقوله: {فستذكرون}؛ أي: عن قريب، وهي مع إفادتها القرب تفيد التحقق؛ يعني: أن هذا أمر لا بد أن يحصل.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فستذكرون ما أقول لكم} إذا عاينتم العذاب]، وهذا ليس ببعيد؛ لأن غاية ما بينهم وبينه أن تنتهي آجالهم، وكل آت قريب، {فستذكرون ما أقول لكم}، وحينئذ لا ينفعهم ذلك، كما لو نصحك ناصح عن فعل شيء، ثم لم تقبل نصيحته، وبعد ذلك رأيت عاقبته وخيمة، فإنك ستذكر قول الناصح، تذكره ندما وحزنا.

قال: {وأفوض أمري إلى الله} الواو هنا للاستئناف، ولا يصح أن تكون عاطفة؛ لأنها لو كانت عاطفة لكان المعنى: وسأفوض أمري إلى الله، ولكن هذا ليس المعنى، بل المعنى: وأنا أفوض أمري إلى الله، فالواو هنا للاستئناف، أفوضه إلى الله؛ أي: أكله إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: {أمري} هذا مفرد مضاف يعم والمراد به الشأن، أي: شأني كله، {إلى الله}، وهذا غاية ما يكون من التوكل، وسيأتي -إن شاء الله- في الفوائد.

وقوله: {إن الله بصير بالعباد} هذه الجملة التعليلية للحكم السابق، وهو قوله: {وأفوض أمري إلى الله} كأن قائلا يقول: لماذا فوض أمره إلى الله؟ فأجاب بأن الله تعالى بصير بالعباد.

وقوله: {بصير بالعباد}؛ أي: بأحوالهم، وحاضرهم ومستقبلهم، وجميع شؤونهم، فهو جل وعلا يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، يعلم كل أحوالهم.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [قال ذلك لما توعدوه بمخالفة دينه] يعني: كأنهم توعدوه، فقال: أفوض أمري إلى الله. ولكن التوعد ليس في الآية دليل عليه، والظاهر -والله

=

فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥).

{فَوَقَاهُ الله سَيِّئَات مَا مَكَرُوا} بِهِ مِنْ الْقَتْل {وَحَاقَ} نَزَلَ {بِآل فِرْعَوْن} قَوْمه مَعَهُ {سُوء الْعَذَاب} الْغَرَق.

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦).

ثُمَّ {النَّار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا} يُحْرَقُونَ بِهَا {غُدُوًّا وَعَشِيًّا} صَبَاحًا وَمَسَاء {وَيَوْم تَقُوم السَّاعَة} يُقَال {ادخلوا} يا {آل فرعون} وفي قراءة بفتح الهمزة وكسر الخاء أمر للملائكة {أشد العذاب} عذاب جهنم[1].

=

أعلم- أنه لم يقل ذلك حين توعدوه، ولكنه قال ذلك حين أيس من أن يمتثلوا لنصيحته، فقال كالمودع لهم: {فستذكرون ما أقول لكم}، وأما أنا فأفوض أمري إلى الله؛ لأني قمت بما يلزمني من نصيحة، وهذا أكثر ما يجب علي.

(١) قوله تعالى: {فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا} [غافر: ٤٥].

قال الطبري: يقول:"فدفع الله عن هذا المؤمن من آل فرعون بإيمانه وتصديق رسوله موسى، مكروه ما كان فرعون ينال به أهل الخلاف عليه من العذاب والبلاء، فنجاه منه".

قال الزمخشري: أي:"شدائد مكرهم وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم. وقيل: نجا مع موسى".

قال ابن كثير:"أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله مع موسى، عليه السلام، وأما في الآخرة فبالجنة".

قال ابن عطية:"{فَوَقَاهُ}، يحتمل أن يعود على موسى، ويحتمل أن يعود على مؤمن آل فرعون، وقال قائلو ذلك: إن ذلك المؤمن نجا مع موسى عليه السلام في البحر،

=

=

وفر في جملة من فر معه من المتبعين".

عن قتادة، قوله: " {سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا}، قال: وكان قبطيا من قوم فرعون، فنجا مع موسى، قال: وذكر لنا أنه بين يدي موسى يومئذ يسير ويقول: أين أمرت يا نبيّ الله؟ فيقول: أمامك، فيقول له المؤمن: وهل أمامي إلا البحر؟ فيقول موسى: لا والله ما كَذبتُ ولا كُذبتُ، ثم يسير ساعة ويقول: أين أمرت يا نبيّ الله؟ فيقول: أمامك، فيقول: وهل أمامي إلا البحر، فيقول: لا والله ما كذبت، ولا كذبت، حتى أتى على البحر فضربه بعصاه، فانفلق اثني عشر طريقا، لكل سبط طريق".

قوله تعالى: {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} [غافر: ٤٥]، أي:"وحلَّ بفرعن وجماعته سوء العذاب حيث أغرقهم الله عن آخرهم".

قال الطبري:"يقول: وحل باتباع فرعون وأهل طاعته من قومه ووجب عليهم ما ساءهم من عذاب الله، وذلك نار جهنم".

قال البغوي: أي:"الغرق في الدنيا، والنار في الآخرة".

قال ابن كثير:"{وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} وهو: الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم. فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار".

قال ابن عطية:"{وَحاقَ}، معناه: نزل، وهي مستعملة في المكروه. و: {سُوءُ الْعَذابِ}: الغرق وما بعده من النار وعذابها".

عن السديّ في قول الله: " {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ}، قال: قوم فرعون".

قال الزمخشري: " معناه: أنه رجع عليهم ما هموا به من المكر بالمسلمين، كقول العرب: من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبا، فإذا فسر سوء العذاب بنار جهنم: لم يكن مكرهم راجعا عليهم، لأنهم لا يعذبون بجهنم. قلت: يجوز أن يهم الإنسان بأن يغرق قوما فيحرق بالنار، ويسمى ذلك حيقا لأنه همّ بسوء فأصابه ما يقع عليه

=

=

اسم السوء. ولا يشترط في الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه، ويجوز أن يهمّ فرعون- لما سمع إنذار المسلمين بالنار، وقول المؤمن: {وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ} - فيفعل نحو ما فعل نمروذ ويعذبهم بالنار، فحاق به مثل ما أضمره وهمّ بفعله".

قوله تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا} [غافر: ٤٦].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مبيِّنا عن سوء العذاب الذي حلّ بهؤلاء الأشقياء من قوم فرعون ذلك الذي حاق بهم من سوء عذاب الله {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا} إنهم لما هلكوا وغرقهم الله، جعلت أرواحهم في أجواف طير سود، فهي تعرض على النار كلّ يوم مرتين {غُدُوًّا وَعَشِيًّا} إلى أن تقوم الساعة".

قال الزمخشري: " «النَّارُ» بدل من «سوء العذاب». أو خبر مبتدإ محذوف، كأن قائلا قال: ما سوء العذاب؟ فقيل: هو النار. أو مبتدأ خبره: «يُعْرَضُونَ عَلَيْها»، وفي هذا الوجه تعظيم للنار وتهويل من عذابها، وعرضهم عليها: إحراقهم بها. يقال: عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به، «غُدُوًّا وَعَشِيًّا»، أي: في هذين الوقتين يعذبون بالنار، وفيما بين ذلك الله أعلم بحالهم، فإمّا أن يعذبوا بجنس آخر من العذاب، أو ينفس عنهم، ويجوز أن يكون «غُدُوًّا وَعَشِيًّا»: عبارة عن الدوام. هذا ما دامت الدنيا".

وفي قوله تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا} [غافر: ٤٦]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: أن أرواحهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح فذلك عرضها. قاله ابن مسعود ، والهذيل بن شرحبيل ، والسدي ، والاوزاعي.

قال ابن مسعود:"إن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تسرح بهم في الجنة حيث شاءوا. وإن أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصافير تسرح في الجنة حيث

=

=

شاءت، فتأوي إلى قناديل معلقة في العرش، وإن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود تغدوا على جهنم وتروح عليها فذلك عرضها".

قال الهذيل بن شرحبيل: "أرواح آل فرعون في أجواف طير سود تغدو وتروح على النار، وذلك عرضها".

قال السدي:"بلغني أن أرواح قوم فرعون في أجواف طير سود تعرض على النار غدوّا وعشيًّا، حتى تقوم الساعة".

قال حماد بن محمد الفزاري البلخي: "سمعت الأوزاعيّ وسأله رجل فقال: رحمك الله، رأينا طيورا تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب بيضا، فوجا فوجا، لا يعلم عددها إلا الله، فإذا كان العشيّ رجع مثلُها سُودا، قال: وفطنتم إلى ذلك؟ قالوا: نعم، قال: إن تلك الطيور في حواصلها أرواح آل فرعون يُعرضون على النار غدوّا وعشيًّا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت رياشها، وصارت سوداء، فتنبت عليها من الليل رياض بيض، وتتناثر السود، ثم تغدو، ويُعرضون على النار غدوّا وعشيا، ثم ترجع إلى وكورها، فذلك دَأْبُها في الدنيا؛ فإذا كان يوم القيامة، قال الله: {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}، قالوا: وكانوا يقولون: إنهم ستّ مئة ألف مقاتل".

قال محمد بن كعب القرظي: "ليس في الآخرة ليل ولا نصف نهار، وإنما هو بُكرة وعشيّ، وذلك في القرآن في آل فرعون: {يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}، وكذلك قال لأهل الجنة: {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}".

الثاني: أنه يعرض عليهم مقاعدهم من النار غدوة وعشية، فيقال: لآلِ فرعون هذه منازلكم، توبيخًا ونقمة وصغارا لهم. وهذا قول قتادة.

الثالث: أنهم يعذبون بالنار في قبرهم غدوًا وعشيًا، وهذا لآل فرعون خصوصًا.

عن مجاهد، قوله: " {غُدُوًّا وَعَشِيًّا}، قال: ما كانت الدنيا".

=

=

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أن آل فرعون يعرضون على النار غدوّا وعشيّا. وجائز أن يكون ذلك العرض على النار على نحو ما ذكرناه عن الهذيل ومن قال مثل قوله، وأن يكون كما قال قتادة، ولا خبر يوجب الحجة بأن ذلك المعني به، فلا في ذلك إلا ما دل عليه ظاهر القرآن، وهم أنهم يعرضون على النار غدوا وعشيا، وأصل الغدو والعشي مصادر جعلت أوقاتا".

قوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر: ٤٦]، أي:"ويوم تقوم الساعة يقال: أدخلوا آل فرعون النار؛ جزاء ما اقترفوه من أعمال السوء".

قال ابن كثير:"أي: أشده ألما وأعظمه نكالا".

قال الأوزاعي:"فإذا كان يوم القيامة، قال الله: {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}، قالوا: وكانوا يقولون: إنهم ستّ مئة ألف مقاتل".

عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله» قال: قلنا: يا رسول الله ما إثابة الكافر؟ فقال: «إن كان قد وصل رحما أو تصدق بصدقة، أو عمل حسنة، أثابه الله المال والولد والصحة وأشباه ذلك» قلنا فما إثابته في الآخرة؟ قال: «عذابا دون العذاب» وقرأ: {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}".

قال ابن كثير:"وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}.. ولكن هاهنا سؤال، وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية، وقد استدلوا بها على عذاب القبر في البرزخ، وقد روي الإمام أحمد... عن عائشة: «أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة إليها شيئا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر. قالت:

=

=

فدخل رسول الله ﷺ عليّ فقلت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال: "لا وعم ذلك؟ " قالت: هذه اليهودية، لا نصنع إليها شيئا من المعروف إلا قالت: وقاك الله عذاب القبر. قال: "كذبت يهود. وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة". ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملا بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادي بأعلى صوته: "القبر كقطع الليل المظلم أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا وضحكتم قليلا. أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق».

وروى أحمد... عن عائشة- قال: «سألتها امرأة يهودية فأعطتها، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر. فأنكرت عائشة ذلك، فلما رأت رسول الله ﷺ قالت له، فقال: "لا". قالت عائشة: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: "وإنه أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم».

فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية، وفيها الدليل على عذاب البرزخ؟ والجواب: أن الآية دلت على عرض الأرواح إلى النار غدوا وعشيا في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصا بالروح، فأما حصول ذلك للجسد وتألمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها.

وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب.

ومما يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد.. عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهي تقول: أشعرت أنكم تفتنون في قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: "إنما يفتن يهود" قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول الله ﷺ: "أشعرت أنه أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور؟ " وقالت

=

=

عائشة: سمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيذ من عذاب القبر».

وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل بالأجساد في قبورها، فلما أوحي إليه في ذلك بخصوصيّته استعاذ منه، والله، سبحانه وتعالى، أعلم.

وقد روى البخاري من حديث شعبة.. عن عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن يهودية دخلت عليها فقالت: أعاذك الله من عذاب القبر. فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر؟ فقال: "نعم عذاب القبر حق". قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلى صلاة إلا تعوّذ من عذاب القبر».

فهذا يدل على أنه بادر إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر، وقرر عليه. وفي الأخبار المتقدمة: أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحي، فلعلهما قضيتان، والله أعلم، وأحاديث عذاب القبر متواترة، وعلى إثباته أهل السنة.

قال العثيمين: قوله تعالى: {فوقاه الله سيئات ما مكروا} هذا أيضا يدل على رد كلام المفسر؛ لأنهم لو توعدوه بالقتل لم يكن هذا مكرا، إذ إن المكر هو الإيقاع بالغير من حيث لا يشعر، أما لو توعدوه بالقتل لم يكن هذا مكرا، بل كان هذا صريحا واضحا.

وقوله: {فوقاه الله سيئات ما مكروا} أي: نجاه من مكرهم السيئ، فـ {سيئات} هنا من باب إضافة الصفة إلى موصوفها؛ أي: المكر السيئ، وقد قال الله تعالى: {ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله} [فاطر: ٤٣]، وقوله: {ما مكروا} المكر والخداع والغدر، وما أشبه ذلك؛ كلها ألفاظ متقاربة تدور حول شيء واحد، وهو أن توقع بغيرك من حيث لا يشعر، فالكيد والمكر والخداع والغدر والمحال، وما أشبهها؛ كل هذه ألفاظ متقاربة.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ما مكروا} به من القتل] بين في هذا أن العائد على الصلة في

=

=

قوله: {ما} محذوف، والتقدير: ما مكروا به.

قال المفسر رَحَمَهُ ٱللَّهُ: [{وحاق} هو نزل {بآل فرعون} قومه معه {سوء العذاب} الغرق] (حاق) بمعنى: نزل، لكن تشعر بأنها ليست بمعنى: نزل من كل وجه، وأن تفسيرها بالنزول تفسير تقريبي، (حاق): القاف قريبة من الطاء فكأن المعنى: حاط بهم، وهذا أشد من نزل، فالظاهر أن (حاق) بمعنى: نزل محيطا بهم، وليست بمعنى: نزل على وجه مجرد بدون إضافة معنى.

وقوله: {بآل فرعون} قال المفسر رَحَمَهُ ٱللَّهُ: [قومه]، وقال غيره: أتباعه، والظاهر أن المعنى متقارب؛ لأن الذين اتبعوه إنما هم قومه، وأما بنو إسرائيل فإنهم لم يتبعوه، بل كان يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم.

وقول المفسر رَحَمَهُ ٱللَّهُ: [معه] ذكرها لئلا يظن الظان أن العذاب نزل بآل فرعون دونه، ولكن هذا لا يمكن أبدا، إذا كان آل فرعون إنما نزل بهم العذاب؛ لأنهم كفروا بالله، ففرعون أكفر بالله من هؤلاء، ثم إن الظاهر أن الإنسان إذا قال: أكرم آل فلان. فإن فلانا هو مقدمهم، ولا بد أن يدخل فيهم لغة.

وقوله: {سوء العذاب} هذا أيضا من باب إضافة الصفة إلى موصوفها. أي المعنى: العذاب السيئ، وفسره المفسر بأنه الغرق، وهذا لا شك أنه من سوء العذاب، لكن هناك عذابات أخرى أصيب بها آل فرعون: {ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون (١٣٠)} [الأعراف: ١٣٠]، وقال تعالى: {(١٣٢) فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم} [الأعراف: ١٣٢، ١٣٣]، كل هذا من سوء العذاب؛ الطوفان ليغرق ما بذر من نباتهم، والقمل لأجل أن يفسد ما ظهر، والضفادع لتفسد الماء؛ لأنهم صاروا كلما أخذوا إناء يشربونه وجدوا هذه الضفادع قد ملأته، والدم هو نزيف الدم إما من الأنف أو من غيره، فعوقبوا من كل وجه، ففي الزروع: غرق، وفيما ما ادخروه:

=

=

قمل، وفي الماء: ضفادع، وبعد أن يصل إلى الجسم ويتغذى به الجسم: يخرج ينزف دما، فهلكوا.

وهذا فيه الترتيب والدرجات: الطوفان غرق الزروع، والجراد تأكل الزرع، الطوفان يغرق ما بذر، والجراد يأكل ما ظهر، والقمل يفسد ما ادخر، والضفادع تفسد الماء، والدم وهو النزيف تذهب ما حصل من الغذاء بالطعام الذي يقدر أنه سلم من هذه الآفات، فهذا من سوء العذاب، والنهاية هي الغرق: أن الله أغرق آل فرعون بالبحر.

وقوله: {النار يعرضون عليها غدوا وعشيا} هذه الجملة مستأنفة، فـ {النار} مبتدأ، و {يعرضون} الجملة خبرها.

وقوله: {يعرضون عليها غدوا وعشيا}، ليس معناها أنها تحرقهم؛ لأن الله لو أراد ذلك لقال: النار يصلونها غدوا وعشيا، لكنهم يعرضون عليها، فيأتيهم من سمومها وعذابها ما لا يطيقون -والعياذ بالله- يعرضون عليها غدوا في الصباح، وعشيا في المساء، والظاهر أن المراد الدوام، ويحتمل أن المراد هذان الوقتان فقط.

فأما الأول: فقد يستدل له بقول الله تبارك وتعالى: {ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا} [مريم: ٦٢] يعني في كل الزمن.

وأما الثاني: فيمكن أن يقال: إن هذا ظاهر اللفظ؛ أي: في أول النهار وآخره، وأنهم يعرضون على النار أول النهار، ثم إذا صرفوا عنها أملوا أنها لا تعود إليهم فتعود إليهم، فيكون هذا أشد من الاستمرار؛ لأن كون الإنسان يؤمل ارتفاع العذاب عنه ثم يعود أشد من كونه مستمرا آيسا من زواله؛ ولهذا قال الله تعالى في أصحاب النار: {كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها} [السجدة: ٢٠].

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: {ويوم تقوم الساعة} يقال: "ادخلوا" يا {آل فرعون أشد

=

=

العذاب} هذه قراءة] {أدخلوا} أمر والمقصود به الإهانة والإذلال، بخلاف قوله تعالى لأهل الجنة: {ادخلوها بسلام آمنين (٤٦)} [الحجر: ٤٦] هذه للإكرام، أما هذه: "ادخلوا آل فرعون" هذه للإهانة، والعياذ بالله.

وقوله: {آل} فسرها المفسر بقوله: [يا آل] إشارة إلى أنها منصوبة بـ (يا) النداء المحذوفة، ادخلوا يا آل فرعون، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [وفي قراءة بفتح الهمزة وكسر الخاء، أمر للملائكة]: {أدخلوا آل فرعون}، يعني: ويوم القيامة يقال للملائكة: {أدخلوا آل فرعون أشد العذاب}.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أشد العذاب} عذاب جهنم] نسأل الله العافية.

(منبهة) قال الله تعالى: (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب (٤٦)) [غافر: ٤٦].

وفي الحديث عن مسروق قال: سمعت عبد الله بن مسعود- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يقول: قال رسول الله ﷺ: "إن أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون". أخرجه البخاري في صحيحه- واللفظ له- في كتاب اللباس، حديث (٥٩٥٠)، ومسلم في صحيحه، في كتاب اللباس والزينة، حديث (٢١٠٩)، ورواه مسلم من وجه آخر بلفظ: "إن من أشد أهل النار يوم القيامة عذابا المصورون"، بزيادة "من".

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: "إن من أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور". أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأدب، حديث (٦١٠٩).

* ظاهر الآية الكريمة أن آل فرعون هم أشد الناس عذابا يوم القيامة، وأنه لا يعذب أحد مثل عذابهم؛ لأن صيغة "أفعل" في قوله: "أشد" تفيد الاختصاص وعدم المشاركة ، وأما الأحاديث فظاهرها أن ثمة آخرين يشاركون آل فرعون في العذاب الأشد، وأن آل فرعون غير مختصين بهذا العذاب، وهذا يوهم التعارض

=

=
بين الآية والأحاديث.

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الآية والأحاديث:

لم يتجاوز العلماء في هذه المسألة مسلك الجمع بين الآية والأحاديث، ولهم في الجمع مذاهب:

الأول: أن الأشدية في الآية والأحاديث إنما هي باعتبار جنس المعذبين، لا باعتبار جنس العذاب، ففرعون أشد الناس عذابا باعتبار المدعين للإلهية، والمصورون أشد الناس عذابا بالنسبة إلى غيرهم ممن لا يصور، أو يصور ولكن لغير العبادة، وهكذا.

وهذا مذهب: أبي العباس القرطبي، وأبي المحاسن الحنفي، والمناوي، وابن عثيمين.

قال أبو العباس القرطبي: "قوله: "أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون" يقتضي أن لا يكون في النار أحد يزيد عذابه على عذاب المصورين، وهذا يعارضه قوله تعالى: (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)، وقوله- ﷺ -: "أشد الناس عذابا يوم القيامة إمام ضلالة"، وأشباه ذلك، ووجه التوفيق: أن الناس الذين أضيف إليهم أشد لا يراد بهم كل نوع الناس، بل بعضهم المشاركون في ذلك المعنى المتوعد عليه بالعذاب؛ ففرعون أشد المدعين للإلهية عذابا، ومن يقتدى به في ضلالة كفر أشد ممن يقتدى به في ضلالة بدعة، والمصورون الذين يصورون الأصنام للعبادة- كما كانت الجاهلية تفعل، وكما يفعل النصارى- أشد عذابا ممن يصورها لا للعبادة، وهكذا يعتبر هذا الباب". اهـ

وقال أبو المحاسن الحنفي: "الصواب أن لا تعارض بين الأحاديث والآية، بل بعضها مخصص للبعض؛ لأن التعارض إنما يكون في النصوص التي لا يمكن الجمع بينها، ولو جاءت هذه الأحاديث في نسق واحد لما تناقض الكلام، ويكون
=

=

معنى الآية والأحاديث: أشد الناس عذابا من الكفار: آل فرعون، أو من قتل نبيا أو قتله نبي، وأشد الناس عذابا من المسلمين إمام ضلالة، أو مشبه بخلق الله...". اهـ

وقال ابن عثيمين: "الأشدية نسبية، يعني أن المصورين أشد الناس عذابا بالنسبة للعصاة الذين لم تبلغ معصيتهم الكفر، لا بالنسبة لجميع الناس". اهـ

المذهب الثاني: أن الأشدية في الآية إنما هي باعتبار جنس العذاب، والمعنى: أن آل فرعون هم أشد الناس عذابا بالنسبة لنوع العذاب الذي هم فيه.

وهذا مذهب الإمام أحمد.

المذهب الثالث: أن الآية ليس فيها ما يقتضي اختصاص آل فرعون بأشد العذاب، بل هم في العذاب الأشد، وغيرهم- ممن يستحق مثل هذا العذاب- مشارك لهم في العذاب الأشد.

ذكر هذا الجواب الحافظ ابن حجر.

والتحقيق في هذه المسألة أن لفظ: "أشد الناس عذابا"، لا يثبت إلا في حديثي عائشة وابن مسعود، الواردين في المصورين، وأما بقية الأحاديث فلا يثبت فيها هذا اللفظ:

أما حديث خالد بن الوليد، وهشام بن حكيم، فقد اضطرب الرواة في لفظه، وأصح رواياته ما جاء بلفظ: "إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا"، وليس في هذا اللفظ ما يوهم معارضة الآية.

وأما حديث ابن مسعود الآخر فقد اختلف في وقفه ورفعه، وهذا الاختلاف يدل على عدم ضبط الرواة له، وهو موجب للتوقف في قبوله بهذا اللفظ.

وأما حديث أبي سعيد الخدري، فضعيف.

والذي يظهر لي أن لا تعارض بين كون آل فرعون في أشد العذاب، وكون المصورين أشد الناس عذابا يوم القيامة؛ ذلك أن الأحاديث ذكرت بعض أوصاف

=

=

المستحقين للعذاب الأشد، وهم المصورون، والآية ذكرت أشخاصا بعينهم، وهم آل فرعون، والعلة الموجبة لعذاب هؤلاء وهؤلاء هي مضاهاة الله، وهي التي استحقوا بها العذاب الأشد.

وقد أشارت بعض روايات أحاديث التصوير لهذه العلة؛ فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي- ﷺ- قال: "أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله". ، وجاء في حديث آخر التنصيص على هذه العلة في قوله- ﷺ -: "قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة أو شعيرة". ، وهذه العلة- أعني المضاهاة- موجودة في كل من نازع الله في شيء من خصائصه؛ كمنازعته تعالى في ربوبيته، أو ألوهيته، أو في شيء من صفاته أو أفعاله، والعذاب الأشد عام لكل من وجد فيه شيء من هذه المنازعة، وفرعون داخل في هذا الوعيد قطعا، لادعائه الألوهية، والتي هي من أعظم خصائص الله تعالى، فهو مضاه لله تعالى في هذه الدعوى، وكذا قوم فرعون فإنهم لما أطاعوه، واتخذوه إلها من دون الله، استحقوا العذاب الأشد.

وثمة أمر آخر استحقوا به هذا الوعيد، وهو ما اشتهروا به من نحت التماثيل، وادعائهم القدرة على مضاهاة الله في صنعها؛ فإن هذا موجب لكونهم في العذاب الأشد، كما جاء في أحاديث التصوير.

ومما يؤكد أن العلة في الأحاديث هي المضاهاة: أن الوعيد الوارد في أحاديث التصوير يمتنع حمله على ظاهره في عموم المسلمين ؛ لأن من فعل التصوير من المسلمين- مع علمه بتحريمه- إنما يكون فاعل كبيرة فقط، فكيف يكون عذابه أشد من عذاب الكفار والمنافقين، ومعه أصل التوحيد؟ فدل على أن هذا الوعيد الأشد إنما هو في حق من ادعى القدرة على مضاهاة الله في خلقه، فإنه يكفر بذلك، ويكون مستحقا للعذاب الأشد، وقد أشار إلى ذلك الإمام الطبري، فقال: "المراد

=

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧).

{و} اذكر {إِذْ يَتَحَاجُّونَ} يَتَخَاصَم الْكُفَّار {فِي النَّار فَيَقُول الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا} جَمْع تَابِع {فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ} دَافِعُونَ {عَنَّا نصيبا} جزاء {من النار}.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨).

{قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلّ فِيهَا إِنَّ الله قَدْ حَكَمَ بَيْن الْعِبَاد} فَأَدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّة وَالْكَافِرِينَ النَّار[1].

=

بالحديث من يصور ما يعبد من دون الله وهو عارف بذلك، قاصدا له؛ فإنه يكفر بذلك، فلا يبعد أن يدخل مدخل آل فرعون، وأما من لا يقصد ذلك فإنه يكون عاصيا بتصويره فقط". اهـ نقله عنه: الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ٣٩٧)، وبنحوه قال القاضي عياض في إكمال المعلم (٦/ ٦٣٨)، والنووي في شرح مسلم (١٤/ ١٣٢).

(١) قوله تعالى: {وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ} [غافر: ٤٧].

قال مقاتل:"يعني: يتخاصمون".

قال الطبري:"يقول: وإذ يتخاصمون في النار. وعنى بذلك: إذ يتخاصم الذين أمر رسول الله ﷺ بإنذارهم من مشركي قومه في النار".

قوله تعالى: {فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا} [غافر: ٤٧]، أي:"فيقول الأتباع الضفعاء للرؤساء المستكبرين عن الإيمان واتباع الرسل، إنا كنا لكم في الدنيا أتباعًا كالخدم ننقاد لأوامركم، ونطيعكم فيما تدعوننا إليه من الكفر والضلال".

=

=

قال الطبري:"فيقول الضعفاء منهم وهم المتبعون على الشرك بالله لرؤسائهم الذين اتبعوهم على الضلالة: إنا كنا لكم في الدنيا تبعا على الكفر بالله".

قال مقاتل:"{فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ}، وهم الأتباع {لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} عن الإيمان، وهم القادة، {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا}، في دينكم".

قال ابن أبي زمنين:"{الضعفاء} يعني: السفلة، {للذين استكبروا} يعني: الرؤساء في الضلالة، {إنا كنا لكم تبعا} أي: دعوتمونا إلى الضلالة فأطعناكم".

قال ابن كثير:"أي: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال".

قوله تعالى: {فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ} [غافر: ٤٧]، أي:"هل أنتم مغنون عنا نصيبًا من النار بتحملكم قسطًا من عذابنا؟".

قال ابن كثير:"أي: قسطا تتحملونه عنا".

قال مقاتل:"{فَهَلْ أَنْتُمْ} يا معشر القادة، {مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ} باتباعنا إياكم".

قال الطبري:"يعنون: حظا فتخففوه عنا، فقد كنا نسارع في محبتكم في الدنيا، ومن قبلكم أتينا، لولا أنتم لكنا في الدنيا مؤمنين، فلم يصبنا اليوم هذا البلاء".

عن ابن وهب، قال: "بلغني: أنّ أبا هُريرة قال: إذا أَذِن اللهُ -تبارك وتعالى- نادى منادٍ في أصلِ الجحيم سمع صوتَه أعلاهم وأسفلُهم وأقصاهم بصوتٍ له جهير، فيقول: يا أهل النار، اجتمعوا. قال: فيجتمعون أجمعين في أصل الجحيم، معهم الزبانية، فيتنادون بينهم {فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا} في الدنيا؛ {فهل أنتم مغنون عنا}؟ قال: {فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين} [الأعراف: ٤٤]. قال: فلَعن عند ذلك الضعفاء للذين استكبرو، ولعن الذين استكبرو للذين استُضعفوا، ولعنوا قرناءَهم من الشياطين".

قوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا} [غافر: ٤٨].

=

=

قال الطبري:"فأجابهم المتبوعون بما أخبر الله عنهم؛ قال الذين استكبروا، وهم الرؤساء المتبوعون على الضلالة في الدنيا: إنا أيها القوم وأنتم كلنا في هذه النار مخلدون، لا خلاص لنا منها".

قال مقاتل:"{قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} وهم القادة للضعفاء: {إِنَّا كُلٌّ فِيهَا}، نحن وأنتم".

قال ابن كثير:"أي: لا نتحمل عنكم شيئا، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ} [غافر: ٤٨]، أي:"إن الله قد قسم بيننا العذاب بقَدْر ما يستحق كلٌّ منا بقضائه العادل".

قال مقاتل:"قد أنزلنا منازلنا في النار وأنزلكم منازلكم فيها".

قال الطبري:"بفصل قضائه، فأسكن أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فلا نحن مما نحن فيه من البلاء خارجون، ولا هم مما فيه من النعيم منتقلون".

قال ابن كثير:"أي: يقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: {قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ} [الاعراف: ٣٨]".

قال السعدي: أي:"جعل لكل قسطه من العذاب، فلا يزاد في ذلك ولا ينقص منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وإذ يتحاجون} يعني: يذكر إذ يتحاجون في النار؛ أي: يدلي كل واحد منهم بحجته، و (إذ) ظرف عامله محذوف قدره المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [اذكر إذ يتحاجون].

وحذف ما يعلم كثير في القرآن وفي اللغة العربية، لكن الترتيب والزحلقة هذا قليل، إلا أني قلت: إن الإخلال بالترتيب هنا أيسر للإنسان؛ لأنه أحيانا حقيقة ترد عليك آيات لا تدري بما تقدر، إلا أن تقول: إن عرفت التقدير فاسلك الأقعد، وإن لم

=

=

تعرف فاسلك الأسهل؛ لتكون متتبعا للرخص -يعني: رخص النحويين- فلا مانع في هذا، نحن قلنا قاعدة مفيدة فيما إذا اختلف النحويون في شيء فالصواب الأسهل.

والمحاجة هي المخاصمة وإدلاء كل بحجته على الآخر، وقوله: {في النار} يفيد أن هؤلاء المتخاصمين هم أهل النار، وهي متعلقة بـ {يتحاجون}.

ثم بين هذه المحاجة فقال: {فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا} الضعفاء إما في المال، وإما في الشرف والسيادة، وإما في غير ذلك، مما يعد ضعفا، والغالب أن الضعيف يتبع القوي وقوله: {للذين استكبروا}؛ أي: تكبروا من الكبرياء والعظمة، والسين والتاء فيها للمبالغة {إنا كنا} يعني: في الدنيا {لكم تبعا} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [جمع تابع] أي: متبعين {فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار} يعني: هل تجازوننا على متابعتنا إياكم بأن تتحملوا عنا شيئا من النار؟ وقولهم: {فهل أنتم مغنون} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [دافعون {عنا نصيبا من النار} جزءا من النار].

انظر كيف يتوسل هؤلاء الضعفاء إلى الذين استكبروا، كيف يتوسلون إليهم بما قدموا من متابعتهم، ليتحملوا عنهم نصيبا من النار، فكان جواب الذين استكبروا: وقوله: {إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد} وإذا كنا كلا فيها فكيف نغنيكم نصيبا من النار؟! وهذه حجة ببيان الواقع.

وقولهم: {إن الله قد حكم بين العباد} حكم بينهم بحكمه الجزائي؛ لأن أحكام الله عَزَّ وَجَلَّ ثلاثة: قدري، وشرعي، وجزائي. والجزائي من القدري في الواقع، لكن بعض العلماء يجعله منفصلا لأهميته؛ لأنه هو الغاية، وقوله: {حكم بين العباد} يعني: بين الناس عموما، يعني: بين أهل النار وأهل الجنة فالعبودية هنا بمعنى العبودية العامة الشاملة؛ لأن العبودية عامة وخاصة.

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩).

{وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّار لِخَزَنَةِ جَهَنَّم أُدْعُوا رَبّكُمْ يُخَفِّف عَنَّا يَوْمًا} أَيْ قَدْر يَوْم {من العذاب}.

قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠).

{قالوا} أي الخزنة تهكما {أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات} بالمعجزات الظاهرات {قالوا بلى} أي فكفروا بهم {قالوا فادعوا} أنتم فإنا لا نشفع للكافرين قال تعالى {وما دعاء الكافرين إلا في ضلال} انعدام(١).

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ} [غافر: ٤٩].

قال الطبري: يقول:"وقال أهل جهنم لخزنتها وقوّامها، استغاثة بهم من عظيم ما هم فيه من البلاء، ورجاء أن يجدوا من عندهم فرجا".

قال ابن كثير:"لما علموا أن الله، سبحانه، لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: {اخْسَؤُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ} [المؤمنون: ١٠٨] سألوا الخزنة- وهم كالبوابين لأهل النار -".

قال الصابوني:"لما ئيس أهل النار بعضهم من بعض التجأوا إلى حراس جنهم يطلبون منهم التخفيف".

قال الزمخشري:"{لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ}: للقوّام بتعذيب أهلها، فإن قلت: هلا قيل: الذين في النار لخزنتها؟ قلت: لأن في ذكر جهنم تهويلا وتفظيعا".

قال إبراهيم التيمي:"إن أهل النار يدْعون خَزنة النار، فلا يجيبونهم مقدار أربعين سنة".

=

=

قوله تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ} [غافر: ٤٩]، أي:"أدعوا لنا الله أن يخفف عنا ولو مقدار يوم واحد من هذا العذاب".

قال الطبري: أي:"{ادْعُوا رَبَّكُمْ} لنا {يُخَفِّفْ عَنَّا} قدر يوم واحد من أيام الدنيا {مِنَ الْعَذَابِ} الذي نحن فيه، وإنما قلنا: معنى ذلك: قدر يوم من أيام الدنيا، لأن الآخرة يوم لا ليل فيه، فيقال: خفف عنهم يوما واحدا".

قال مقاتل:"يعني: سلوا لنا ربكم، {يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا} من أيام الدنيا".

قال ابن كثير: أي:"أن يدعوا لهم الله أن يخفف عن الكافرين ولو يوما واحدا من العذاب".

قال الزمخشري:"لعل الملائكة الموكلين بعذاب أولئك أجوب دعوة، لزيادة قربهم من الله تعالى، فلهذا تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم".

قال إبراهيم التيمي:"إن أهل النار يدْعون خَزنة النار، فلا يجيبونهم مقدار أربعين سنة".

قال ابن جريج: "بلغنا أن أهل النار نادوا خَزَنة جهنم: أنْ {ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ}، فلم يجيبوهم ما شاء الله فلما أجابوهم بعد حين قالوا: {فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ}".

عن عمرو بن مرة -من طريق هارون بن عنترة- قال: "يرى أهلُ النار في كل سبعين عامًا ساقَ مالك خازن النار، فيقولون: {يا مالك ليقض علينا ربك} [الزخرف: ٧٧]. فيجيبهم بكلمة، ثم لا يرونه سبعين عامًا، فيستغيثون بالخزنة، فيقولون لهم {ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب} [غافر: ٤٩]. فيجيبونهم: {أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات} [غافر: ٥٠]. فيقولون: ادعوا ربّكم، فليس أحدٌ أرحمَ مِن ربكم. فيقولون: {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون}. قال: فيجيبهم: {اخسئوا فيها ولا تكلمون}. فعند ذلك ييأسون مِن كل خير، ويأخذون

=

=

في الشهيق والويل والثبور".

قوله تعالى: {قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} [غافر: ٥٠]، أي:"قال خزنة جهنم لهم توبيخًا: ألم تأتكم الرسل بالمعجزات الظاهرات فكفرتم بهم وكذبتموهم؟".

قال الطبري:"قالت خزنة جهنم لهم: أو لم تك تأتيكم في الدنيا رسلكم بالبيّنات من الحجج على توحيد الله، فتوحدوه وتؤمنوا به، وتتبرّءوا مما دونه من الآلهة؟".

قال ابن كثير:"أي: أوما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل؟".

قال السعدي: " {قَالُوا} لهم موبخين ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم، ودعاءهم لا يفيدهم شيئًا: {أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} التي تبينتم بها الحق والصراط المستقيم، وما يقرب من الله وما يبعد منه؟".

قال الزمخشري:"{أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ}: إلزام للحجة وتوبيخ، وأنهم خلفوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرع، وعطلوا الأسباب التي يستجيب الله لها الدعوات".

قوله تعالى: {قَالُوا بَلَى} [غافر: ٥٠]، أي:"قال الكفار: بلى جاءونا".

قال مقاتل:"قد جاءتنا الرسل".

قال الطبري:"قالوا: بلى، قد أتتنا رسلنا بذلك".

قال السعدي: أي:"قد جاءونا بالبينات، وقامت علينا حجة الله البالغة فظلمنا وعاندنا الحق بعد ما تبين".

قوله تعالى: {قَالُوا فَادْعُوا} [غافر: ٥٠]، أي:"قالت لهم الملائكة: فادعوا اللهَ أنتم فإنا لا نجترئ على ذلك.

قال الطبري:"قالت الخزنة لهم: فادعوا إذن ربكم الذي أتتكم الرسل بالدعاء إلى الإيمان به".

قال ابن كثير:"أي: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود

=

=

خلاصكم، ونحن منكم برآء".

قال الزمخشري:"{قالُوا فَادْعُوا} أنتم، فإنا لا نجترئ على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين: كون المشفوع له غير ظالم، والإذن في الشفاعة مع مراعاة وقتها، وذلك قبل الحكم الفاصل بين الفريقين، وليس قولهم فَادْعُوا لرجاء المنفعة، ولكن للدلالة على الخيبة، فإنّ الملك المقرّب إذا لم يسمع دعاؤه، فكيف يسمع دعاء الكافر".

قوله تعالى: {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [غافر: ٥٠]، أي:"ولكن هذا الدعاء لا يغني شيئًا؛ لأنكم كافرون، وما دعاء الكافرين إلا في ضياع لا يُقبل، ولا يُستجاب".

قال الطبري:"يقول: قد دعوا وما دعاؤهم إلا في ضلال، لأنه دعاء لا ينفعهم، ولا يستجاب لهم، بل يقال لهم: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون} [المؤمنون: ١٠٨]".

قال السعدي:"أي: باطل لاغ، لأن الكفر محبط لجميع الأعمال صادّ لإجابة الدعاء".

قال ابن كثير:"أي: سواء دعوتم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم؛ ولهذا قالوا: {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ} أي: إلا من ذهاب، لا يتقبل ولا يستجاب".

قال سلميان التيمي: " إن أهل النار يدعون خزنة النار ، فلا يجيبونهم مقدار أربعين سنة ، ثم يكون جوابهم إياهم: {أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَات} [غافر: ٥٠] الآية ، ثم ينادون مالكا فلا يجيبهم مقدار ثمانين سنة ، ثم يكون جواب مالك إياهم: {إِنَّكُمْ مَاكِثُون} [الزخرف: ٧٧]، ثم يدعون ربهم فلا يجيبهم مقدار الدنيا مرتين ثم يكون جوابه إياهم: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون} [المؤمنون: ١٠٨]".

قال ابن ابي زمنين:"كل كلام ذكر في القرآن من كلامهم كله فهو قبل أن يقول:

=

=

{اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [المؤمنون: ١٠٨]".

قال العثيمين: قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: قدر يوم {من العذاب}]، استمع إلى هذا النداء الدال على البؤس واليأس: {وقال الذين في النار لخزنة جهنم} جمع خازن، وهم الذين قاموا على خزانتها وحمايتها وحفظها؛ لأن النار لها خزنة، وكذلك الجنة لها خزنة، وكل أمر محكم، ويؤتى بجهنم يوم القيامة تقاد بسبعين ألف زمام، كل زمام يقوده سبعون ألف ملك، وما أدراك ما الملائكة وما قوتهم، فهذه النار محكمة لها خزنة، ولها قواد يقودونها يوم القيامة.

وقوله: {وقال الذين في النار لخزنة جهنم} وجهنم اسم من أسماء النار، قيل: إنها عربية. وقيل: إنها عجمية. فعلى القول بأنها عربية تكون مأخوذة من الجهمة وهي الظلمة؛ لأن النار سوداء مظلمة- أعاذنا الله وإياكم منها- وعلى القول بأنها أعجمية يقال بأن أصلها: كهنام، ولكنها عربت حتى صارت: جهنم، وهي من أسماء النار.

يقول: {ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب} ويقولون هذا- والله أعلم - حين يقولون لربهم ﷻ: {ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون (١٠٧) قال اخسئوا فيها ولا تكلمون} [المؤمنون: ١٠٧ - ١٠٨] حينئذ يتوسلون بغيرهم أن يكلموا الله، يقولون: {ادعوا ربكم} ولم يقولوا: ادعوا ربنا؛ لأنهم قد كسروا من جهة ربهم، قال لهم: {اخسئوا فيها ولا تكلمون} لكن توسلوا بعد ذلك بدعاء بطلب من الملائكة أن يدعوا الله لهم {ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب}.

قوله: {يخفف} بالجزم جوابا للأمر وهو قوله: {ادعوا} وأقول: للأمر باعتبار صيغته، وإلا فهو في الحقيقة دعاء وسؤال {ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب} طلبوا تخفيفا لا رفعا، وطلبوا يوما لا دواما؛ لأنهم آيسون، لكن قال: لعل المسألة تنفع ولو بتخفيف يوم من العذاب، نسأل الله العافية.

=

=

ومقتضى هذا أنهم في أشد ما يكون من العذاب، وأنهم طلبوا أن يستريحوا ولو يوما.

قوله: {يخفف عنا يوما} قال: المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: قدر يوم] وإنما قال [قدر يوم من العذاب]؛ لأنه في يوم القيامة ليس هناك يوم ولا ليل، الشمس والقمر مكوران في نار جهنم وكل شيء من أمور الدنيا منته ليس هناك إلا أمر الآخرة، سبحان الله!.

{قالوا} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: الخزنة تهكما] هكذا قال المفسر [تهكما] ويحتمل أنهم قالوا ذلك تقريعا وتوبيخا وتنديما، ليس تهكما؛ لأن الأمر واقع فهم يقررونهم بشيء حاصل تنديما لهم؛ ليزدادوا حزنا.

فإن قال قائل: ما الفرق بين التوبيخ والتقريع؟

فالجواب: لا أعرف بينهما فرقا، اللهم إلا أن يكون فرقا قليلا، أو يقال: التوبيخ على أمر مضى، والتقريع هو التنديم هو على أمر حاضر.

{أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات} [غافر: ٥٠] قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالمعجزات الظاهرات] ليته قال: "بالآيات الظاهرات"؛ لأن الرسل جاؤوا بالآيات لا بالمعجزات، لكن الآيات أمر خارق للعادة، فهي معجزة، وقد بينا في كرامات الأولياء في التوحيد أن الأولى أن يسمى ما جاءت به الرسل من الدلالة على وصف رسالتهم آيات.

قوله: {بالبينات قالوا بلى} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: فكفروا بهم] {قالوا فادعوا} هذا التهكم.

قوله: {قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات} مثل هذا التعبير يقع كثيرا في القرآن؛ أي أن الهمزة تأتي ثم يأتي بعدها حرف عطف، مثل {أولم يسيروا}، {أفلم يسيروا} {أثم إذا ما وقع آمنتم به} وما أشبه ذلك، فكيف نقول: في إعرابها؟

=

=

نقول: في إعرابها وجهان للنحويين:

الوجه الأول: أن الجملة معطوفة على ما سبق، وأن الواو مقدمة على محلها، وأن التقدير في {أولم تك}: وألم تك، وهذا الوجه ليس فيه إلا دعوى التقديم والتأخير، لكنه سهل يعني: يسهل أن تقول: هذا معطوف على ما سبق.

وقال بعضهم: إن الهمزة داخلة على جملة محذوفة، فالجملة مستأنفة هذه الجملة يكون تقديرها بحسب السياق، ففي قوله تعالى: {أولم يسيروا} [الروم: ٩]، التقدير: أغفلوا ولم يسيروا، وهذا من حيث القواعد أقعد، ولكن تواجهك أحيانا آيات لا تستطيع أن تعرف ما هو المقدر، فصار هذا أقعد، وذاك أسهل.

وقوله: {أولم تك تأتيكم} الاستفهام هنا للتقرير، ويقال: كلما دخل الاستفهام على نفي فهو للتقرير، كقوله تعالى: {ألم نشرح لك صدرك} [الشرح: ١]، {ألم يك نطفة من مني يمنى} [القيامة: ٣٧]، {أليس الله بعزيز ذي انتقام} [الزمر: ٣٧] وما أشبه ذلك، يقولون: كلما دخل الاستفهام على النفي فهو للتقرير، إذن نحن نقول: للتقرير، لكن هل يخرج عن معنى التقرير، أو يضم إلى معنى التقرير معنى آخر بحسب السياق؟

الجواب: نعم، ففي قوله: {ألم نشرح لك صدرك} هو للتقرير؛ إظهارا لمنة الله عليه، وقوله: {قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم} [غافر: ٥٠] للتقرير توبيخا وتنديما. قوله: {قالوا بلى} جواب الاستفهام المقرون بالنفي، الإثبات بـ (بلى) وجواب الاستفهام غير المقرون بالنفي الإثبات بنعم، وجواب الاستفهام المقرون بالنفي في حال النفي نعم، وجواب الاستفهام المقرون بالإثبات في حال النفي لا، اعرفوا الفرق يقال: إن ابن عباس ﷺ وعن أبيه قال في قول الله تبارك وتعالى: {ألست بربكم قالوا بلى} [الأعراف: ١٧٢] قال: لو قالوا: نعم. لكفروا.

قال الفقهاء: لو قيل للرجل: ألست قد طلقت امرأتك؟ قال: نعم. لم تطلق، وإن

=

=

قال: بلى. طلقت.

فقول ابن عباس: لو قالوا: نعم. لكفروا، وهذا مسلم فيما إذا كان الإنسان يعرف اللغة العربية جيدا، وأما العامي فعنده (نعم) و (بلى) سواء؛ ولهذا لو قيل للعامي: ألست طلقت امرأتك؟ قال: نعم. فعلى القول الصحيح تطلق، فالعبرة بالمعاني على أنه جاء في اللغة العربية جواب هذا بـ (نعم)، ومنه قول العاشق:

أليس الليل يجمع أم عمرو ... وإيانا فذاك لنا تداني

نعم وترى الهلال كما أراه ... ويعلوها النهار كما علاني

فقال: نعم، لكن هذا الرجل قنوع، اكتفى أن يجمعه الليل مع معشوقته ولو كانت في المشرق وهو بالمغرب، وكذلك النهار، وترى الهلال كما يراه، هي في المشرق ترى الهلال، وهو في المغرب يرى الهلال.

فجواب الاستفهام المقرون بالنفي إثباتا (بلى) ونفيا (نعم)، والاستفهام مقرون بالإثبات إثباتا (نعم) ونفيا (لا)، بارك الله فيكم.

فإن قال قائل: هل يوجد حديث يدل على ما جاء به البيت هذا من الشعر على أن (نعم) تكون في مكان (بلى)؟

فالجواب: هل يطلب الحديث دليلا على إثبات مسألة لغوية؟ فإن قيل: نعم؛ لأن خير من تكلم بالفصحى الرسول ﷺ.

قيل: إذا جاء عن العرب فلا يحتاج دليلا؛ لأن قول العرب هو الدليل، ألم تعلم أن بعض النحويين يقول: لا نستدل بالحديث على اللغة العربية.

إذن: قال بعض النحويين: إنه لا يستدل بالحديث النبوي على اللغة العربية؛ لأن الرواة يجوزون رواية الحديث بالمعنى، ومن المعلوم أن من بين الرواة من تغيرت لغته، الإمام أحمد قديم ومن أئمة الحديث وسمعتموه- وفي قواعد اللغة العربية- يقول في أي شيء: نعم. وهكذا الرواة ربما نقلوا بالمعنى على لغتهم التي

=

=

يتكلمون بها، فحصل خطأ، أما القرآن فنعم؛ لأنه متواتر منقول بالتواتر، لكن كثيرا من علماء النحو يقولون: إنه يحتج بالأحاديث على اللغة العربية؛ لأن الأصل عدم التغيير.

وقوله: {قالوا بلى} بلى يعني: قد آتنا، ولكنهم -والعياذ بالله- كفروا {قالوا فادعوا} هذا الأمر للتهكم؛ لأن الملائكة تعلم أنه لا يقبل منهم، فقوله: ادعوا تهكم بهم، والتهكم هو الذي يسمى عندنا في العامية "الهك"، "هككت عليه" يعني: لعبت بعقله.

فهنا {قالوا فادعوا} تهكما بهم؛ لأن الملائكة تعلم أنهم لن يجابوا {قالوا فادعوا} أنتم فإنا لا نشفع للكافرين؛ لأن الشفاعة للكافرين مضيعة وقت، إذ إن الكافر لا تنفع فيه الشفاعة، إلا كافرا واحدا نفعت فيه الشفاعة بالتخفيف عنه، وهو أبو طالب نفعت شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام فيه فقط، لو جاء أبو بكر أو عمر يشفع في أبي طالب رد، لكن النبي ﷺ قبلت شفاعته في عمه أبي طالب فخفف عنه العذاب؛ لأن أبا طالب حصل منه خير كثير للرسول ﷺ، وحصل منه ما يسمى بالدعاية العظيمة له حتى قال:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

هذا قاله في الدين. وقال في الرسول ﷺ: لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

ودافع عنه، وحوصر معه في الشعب؛ فلذلك قبل الله سبحانه وتعالى شفاعة الرسول ﷺ فيه أن يخفف عنه.

أما شفاعة الرسول ﷺ في أمه فمنعه الله في أمه، وهي أقرب من عمه، لما استأذن الله أن يستغفر لها قال: لا. ولما استأذنه أن يزور قبرها أذن له فزار النبي ﷺ قبر أمه، ووقف عليه وجعل يبكي، لكن لا يدعو لها، وأبكى من معه.

=

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١).

{إِنَّا لَنَنْصُر رُسُلنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا وَيَوْم يَقُوم الْأَشْهَاد} جَمْع شَاهِد وَهُمْ الْمَلَائِكَة يَشْهَدُونَ لِلرُّسُلِ بِالْبَلَاغِ وَعَلَى الْكُفَّار بِالتَّكْذِيبِ[1].

=

فالكفار لا تنفع فيهم الشفاعة؛ لأن الشفاعة مضيعة بلا فائدة، ثم هي لم يؤذن فيها من قبل الله، ولا يمكن أبدا شفاعة بدون إذن الله.

قال تعالى: {وما دعاء الكافرين إلا في ضلال} [الرعد: ١٤] {وما دعاء} (ما) نافية، و {دعاء} اسمها، و (ما) هنا ليست حجازية؛ لاتفاق اللغتين لغة التميميين ولغة الحجازيين فيها، وأنها لا تعمل في هذا الحال.

قوله: {وما دعاء الكافرين}؛ أي: وما طلب الكافرين {إلا في ضلال}؛ أي: في ضياع، وقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [انعدام] فيه نظر، فالضلال الضياع وعدم الاهتداء، فـ {ما دعاء الكافرين إلا في ضلال}، فلا تقبل دعوة الكافر أبدا إلا في حالين:

الحال الأولى: إذا كان مضطرا؛ لقوله تعالى: {أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء} [النمل: ٦٢]، ولقوله تعالى: {وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر} [لقمان: ٣٢]، وإنما أجيبت دعوة المضطر لصدق لجوئه إلى الله، لأن المضطر صادق اللجوء إلى الله.

الحال الثانية: إذا كان مظلوما فإنها تقبل دعوته على ظالمه، لقول الرسول ﷺ: "اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب"، وهذا وإن كان يخاطبه في قوم أسلموا لكنها عامة، وإنما أجيبت دعوة الكافر إذا كان مظلوما؛ إقامة للعدل؛ لأن الله لم يجب الكافر محبة له، ولكن إقامة للعدل؛ لأنه الآن هناك خصمان مظلوم وظالم، فلإقامة العدل يستجيب الله تعالى لدعوة الكافر.

(١) قوله تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [غافر: ٥١].

قال مقاتل: "يعني: بالنصر في الدنيا الحجة التي معهم إلى العباد".

=

=

وفي قوله تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [غافر: ٥١]، وجهان من التفسير:

أحدهما: أن ذلك في الحجة، يفتح الله حجتهم في الدنيا. قاله أبو العالية.

الثاني: بالانتقام من أعدائهم. قاله السدي.

قال السدي: "قد كانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون، وذلك أن تلك الأمة التي تفعل ذلك بالأنبياء والمؤمنين لا تذهب حتى يبعث الله قوما فينتصر بهم لأولئك الذين قتلوا منهم".

وقال السدي:"لم يبعث الله إليهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا وهم منصورون فيها".

قال ابن كثير:"كما فُعِلَ بقتلة يحيى وزكريا وشعياء، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح، عليه السلام، من اليهود، فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم، وأظهرهم الله عليهم. ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم إماما عادلا وحكما مقسطا، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام. وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله في خلقه في قديم الدهر وحديثه: أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن آذاهم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: "يقول الله تعالى: «من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب» ، وفي الحديث الآخر: «إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب» ؛ ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل مدين، وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق. وأنجى الله من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحدًا وعذب الكافرين، فلم يفلت منهم أحدا.

=

=

وهكذا نصر الله سبحانه نبيه محمدا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان. وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارا وأعوانا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها، ودخل الناس في دين الله أفواجا. ثم قبضه الله، تعالى، إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله إلى الله. وفتحوا البلاد والرّساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام الساعة".

قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: ٥١]، أي:"وفي الآخرة يوم يحضر الأشهاد الذين يشهدون بأعمال العباد، من مَلك ونبيٍ ومؤمن".

قال ابن كثير:"أي: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل".

وفي «الْأَشْهَاد»، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم الملائكة شهدوا للأنبياء بالإبلاغ، وعلى الأمم بالتكذيب، قاله مجاهد ، وقتادة-في رواية- ، والأعمش.

الثاني: أنهم الملائكة والأنبياء، والمؤمنون. قاله قتادة.

الثالث: أنهم أربعة: الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد، قاله زيد بن أسلم.

قال الزمخشري في الآية:"يعنى: أنه يغلبهم في الدارين جميعا بالحجة والظفر على مخالفيهم، وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحانا من الله، فالعاقبة لهم،

=

=

ويتيح الله من يقتص من أعدائهم ولو بعد حين: والأشهاد. جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، يريد: الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين من أمّة محمد ﷺ: {لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إنا لننصر رسلنا} إلى آخره الجملة هذه مؤكدة بمؤكدين أحدهما (إن) والثاني اللام، وقوله: {إنا لننصر} أتى بصيغة التعظيم؛ لأن المقام يقتضيه إذ إن النصر لا بد أن يكون من قوي، ولم يقل جلا وعلا: أنا أنصر. قال: {إنا لننصر}؛ لأن المقام يقتضي العظمة والقدرة والقوة {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا} [غافر: ٥١] رسلنا جمع رسول، وهم كل الرسل؛ لأن (رسل) جمع مضاف، وجمع المضاف يكون للعموم.

وقوله: {والذين آمنوا} معطوف على {رسلنا} أي: وننصر الذين آمنوا بما يجب الإيمان به، والإيمان هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان.

فمن أنكر فليس بمؤمن، ومن أقر ولم يقبل فليس بمؤمن، ومن أقر ولم يذعن فليس بمؤمن، فأبو طالب مثلا مقر برسالة الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكنه لم يقبل ولم يذعن فلا يكون مؤمنا، فالذين آمنوا هم الذين أقروا بقلوبهم وأذعنوا واستسلموا بجوارحهم وقبلوا ما أخبرت به الرسل، هؤلاء هم المؤمنون.

وقوله: {في الحياة الدنيا} متعلق بـ (ننصر) أي: ننصرهم في الحياة الدنيا.

{ويوم يقوم الأشهاد} {ويوم} هذه معطوفة على ما سبق وهي متعلقة بـ (ننصر) أي: وننصرهم يوم يقوم الأشهاد وذلك يوم القيامة.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{الأشهاد} جمع شاهد، وهم الملائكة يشهدون للرسل بالبلاع وعلى الكفار بالتكذيب]، هكذا قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصها بالملائكة، والصحيح أنها أعم من الملائكة، فالملائكة يشهدون وهذه الأمة تشهد على من سبق، كما قال تعالى: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس}

=

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢).

{يَوْم لَا يَنْفَع} بِالْيَاءِ وَالتَّاء {الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتهمْ} عُذْرهمْ لَوْ اعْتَذَرُوا {وَلَهُمْ اللَّعْنَة} أَيْ الْبُعْد مِنْ الرَّحْمَة {وَلَهُمْ سُوء الدَّار} الْآخِرَة أَيْ شدة عذابها(١).

=

[البقرة: ١٤٣]، والجلود تشهد، والجوارح تشهد، فكل ما ثبتت شهادته فإنه داخل في قوله: {ويوم يقوم الأشهاد} وذلك يوم القيامة.

(١) قوله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ} [غافر: ٥٢].

قال الطبري: يقول:"ذلك يوم لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم لأنهم لا يعتذرون إن اعتذروا إلا بباطل، وذلك أن الله قد أعذر إليهم في الدنيا، وتابع عليهم الحجج فيها فلا حجة لهم في الآخرة إلا الاعتصام بالكذب بأن يقولوا: {وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}".

قال ابن كثير:"أي: لا يقبل منهم عذر ولا فدية".

قال الزمخشري:"يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة ولكنها لا تنفع لأنها باطلة، وأنهم لو جاءوا بمعذرة لم تكن مقبولة لقوله تعالى: {وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُون}".

قال الشوكاني:"وإنما لم تنفعهم المعذرة لأنها معذرة باطلة، وتعلة داحضة وشبهة زائغة".

قوله تعالى: {وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ} [غافر: ٥٢]، أي:"ولهم الطرد من رحمة الله".

قال الطبري: " يقول: وللظالمين اللعنة، وهي البعد من رحمة الله".

قال الزمخشري:"البعد من رحمة الله".

قال ابن كثير:"أي: الإبعاد والطرد من الرحمة".

عن حرملة، قال: "سمعت الشافعي يقول في حديث عائشة: «واشترطي لهم الولاء»: معناه: اشترطي عليهم الولاء، قال الله تعالى: {أولئك لهم اللعنة} بمعنى: عليهم".

=

=

قوله تعالى: {وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [غافر: ٥٢]، أي:"ولهم الدار السيئة في الآخرة، وهي النار".

قال الطبري: " يقول: ولهم مع اللعنة من الله شرّ ما في الدار الآخرة، وهو العذاب الأليم".

قال الزمخشري:"أى: سوء دار الآخرة، وهو عذابها".

قال السعدي:"أي: الدار السيئة التي تسوء نازليها".

قال ابن كثير:"وهي النار".

عن ابن عباس:"{ولهُم سوءُ الدّار}، قال: سُوءُ العاقبة".

عن ابن عباس:"أكبرُ الكبائر الإشراك بالله؛ لأنّ الله يقول: {ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير} [الحج: ٣١]، ونقض العهد، وقطيعة الرحم؛ لأن الله تعالى يقول: {أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار}. يعني: سوء العاقبة".

قال العثيمين: قوله تعالى: {يوم لا ينفع} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالياء والتاء] بالياء {ينفع} بالتاء "تنفع"، إذن هما قراءتان سبعيتان؛ لأن المفسر إذا أتى بصيغة القراءة على هذا الوجه فمعناه أنهما قراءتان سبعيتان، أما إذا قال: وقرئ. فهو للشاذ قراءة شاذة، بالتاء لأن (معذرة) مؤنث، فالفعل يكون معها مؤنثا، لكن بالياء نقول أولا: إنه فصل بين الفعل والفاعل، وثانيا أن التأنيث هنا ليس حقيقيا. وابن مالك يقول:

وإنما تلزم فعل مضمر ... متصل أو مفهم ذات حر

قوله: {يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم} المراد بالظالمين هنا الكافرون، قال الله تعالى: {والكافرون هم الظالمون}.

وقوله: {معذرتهم} يعني: عذرهم، قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [عذرهم لو اعتذروا] يعني: عذرهم فيما سبق، أو اعتذارهم فيما لحق في ذلك اليوم، هم يعتذرون لكن لا

=

=

يقبل، لا يؤذن لهم فيعتذرون.

وقوله: {ولهم اللعنة} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: البعد من الرحمة] ولهم سوء الدار، لهم اللعنة، كيف قال: لهم اللعنة. هل اللعنة مطلوبة حتى تأتي باللام؟

قيل: إن اللام هنا بمعنى (على) كقوله تعالى: {أولئك عليهم لعنة الله} [البقرة: ١٦١] عليهم فاللام هنا بمعنى (على)، والصواب أن اللام على بابها، وأنها ليست بمعنى (على)، بل هي بمعنى الاستحقاق، يعني: أنهم يلعنون لعنا يستحقونه، فهي أبلغ من قوله: عليهم. من وجه، وتلك أبلغ من وجه آخر.

المهم: أن اللام هنا بمعنى (على) معناها الأصل الاستحقاق.

وهنا نقول لكم: إذا ورد تفسيران في كتاب الله العزيز أحدهما يؤيده اللفظ والثاني لا يؤيده اللفظ فنأخذ بالأول، وإن كان كل من المعنيين مكتملا، ولكن ما يوافق ظاهر اللفظ هو الأولى.

قوله: {ولهم اللعنة ولهم سوء الدار} أي: البعد عن الرحمة، وقوله: اللعنة. لم يبين ممن فتعم {أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين} [البقرة: ١٦١]، وفي آية أخرى: {ويلعنهم اللاعنون} [البقرة: ١٥٩]، فكل شيء يلعنهم نسأل الله العافية.

قوله: {ولهم سوء الدار} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الآخرة؛ أي: شدة عذابها] {ولهم سوء الدار} يحتمل أن تكون من باب إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: الدار السوء، ويحتمل أن يكون على بابها، والمعنى: لهم سوء الدار؛ أي: السيئ في الدار.

وعلى كل حال: المراد بسوء الدار؛ يقول المفسر: شدة عذابها، ولكن لو قيل: إن سوء الدار ما يسوء من العذاب الشديد وغير الشديد لكان أعم.

ثم {يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار} [غافر: ٥٢] إلى

=

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣).

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى} التَّوْرَاة وَالْمُعْجِزَات {وَأَوْرَثْنَا بَنِي إسْرَائِيل} مِنْ بَعْد مُوسَى {الْكِتَاب} التَّوْرَاة.

هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤).

{هُدًى} هَادِيًا {وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَاب} تَذْكِرَة لِأَصْحَابِ العقول[1].

=

آخره، موضع {يوم لا ينفع الظالمين} مما قبل نقول: هي بيان يعني: عطف بيان من قوله: {ويوم يقوم الأشهاد}.

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى} [غافر: ٥٤].

قال السمعاني:"أي: النبوة".

قال ابن كثير:"وهو ما بعثه الله به من الهدى والنور".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى} البيان للحقّ الذي بعثناه به كما آتينا ذلك محمدا فكذّب به فرعون وقومه، كما كذّبت قريش محمدا".

قوله تعالى: {وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ} [غافر: ٥٤]، أي:"وجعلنا بني إسرائيل يتوارثون التوراة خلفًا عن سلف".

قال السمعاني:"أي: التوراة".

قال ابن كثير:"أي: جعلنا لهم العاقبة، وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه، بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي الكتاب الذي أورثوه- وهو التوراة".

قال الطبري:"يقول: وأورثنا بني إسرائيل التوراة، فعلَّمناهموها".

قوله تعالى: {هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [غافر: ٥٤]، أي:"، هادية إلى سبيل الرشاد، وموعظة لأصحاب العقول السليمة".

=

قال الطبري: يقول: " وأنزلنا اليهم بيانا لأمر دينهم، وما ألزمناهم من فرائضها، وتذكيرا منا لأهل الحجا والعقول منهم بها".

قال ابن كثير:"{لأولِي الألْبَابِ} وهي: العقول الصحيحة السليمة".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب}؛ هذه الجملة {ولقد آتينا} مؤكدة بثلاثة مؤكدات: الأول: القسم الذي دلت عليه اللام. والثاني: اللام. والثالث: قد. وهذه الصيغة تأتي في القرآن كثيرا.

وقوله: {آتينا} بمعنى: أعطينا، يقال: أتينا. ويقال: آتينا. أتينا بمعنى: جئنا، وآتينا بمعنى: أعطينا، وهي تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، المفعول الأول هنا موسى، والثاني الهدى، موسى هو ابن عمران أحد أولى العزم الخمسة، وهم: محمد، وإبراهيم، وموسى، ونوح، وعيسى.

وقوله: {الهدى}؛ أي: ما به الهدى، وهذا يشمل الهدى الذي أوتيه حتى اهتدى، والهدى الذي يهتدي به الناس فيكون موسى عليه الصلاة والسلام هاديا مهديا.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [التوراة والمعجزات]، أما التوراة فظاهر أنه هدى؛ لأنها كتاب شرعي فيه الهدى، وأما المعجزات- والصواب أن يقال: البينات أو الآيات- فإنها هدى؛ لأنه يهتدي به الناس، إذ إن الناس إذا رأوا الآيات اهتدوا.

وقوله: {وأورثنا بني إسرائيل} أي: جعلناهم وارثين. ويقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: من بعد موسى] ويمكن أن نقول: أورثناه من بعد موسى ومن بعد فرعون، فيكون الله تعالى أورث بني إسرائيل الكتاب من بعد نبيهم ومن بعد فرعون، كما قال الله تعالى: {كذلك وأورثناها بني إسرائيل} [الشعراء: ٥٩].

{الكتاب} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [التوراة] وسميت كتابا؛ لأنها مكتوبة، وعلى هذا يكون كتاب بمعنى: مكتوب، وهذه الصيغة -أعني: فعالا- تأتي في اللغة العربية بمعنى: مفعول في مواضع كثيرة، مثل بناء بمعنى: مبني، وغراس بمعنى: مغروس،

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥).

{فَاصْبِرْ} يَا مُحَمَّد {إِنَّ وَعْد الله} بِنَصْرِ أَوْلِيَائِهِ {حَقّ} وَأَنْتَ وَمَنْ تَبِعَك مِنْهُمْ {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِك} لِيُسْتَنَّ بِك {وَسَبِّحْ} صَلِّ مُتَلَبِّسًا {بِحَمْدِ رَبّك بِالْعَشِيِّ} وَهُوَ مِنْ بَعْد الزَّوَال {وَالْإِبْكَار} الصلوات الخمس[1].

=

وفراش بمعنى: مفروش، وهلم جرا.

{هدى} يحتمل أن تكون كما قال المفسر مصدرا بمعنى اسم فاعل منصوبا على الحال؛ حيث قدرها بقوله: [هاديا]، ويحتمل أن تكون مفعولا من أجله، أي: من أجل {هدى} أي: من أجل اهتداء الناس.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [{هدى وذكرى لأولي الألباب} تذكرة لأصحاب العقول] فهي هدى، وهي تذكرة، هدى يهتدي بها الناس، وتذكرة يتذكر بها، ولكن لا يتذكر بها إلا أولو الألباب، فأولو الألباب، يعني: أصحاب العقول، وسمي العقل لبا بمنزلة اللب من الحب؛ لأنه هو المقصود، وهو روح الإنسان.

وقوله: {وذكرى لأولي الألباب} اجمعها إلى قوله تعالى: {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب} [آل عمران: ١٩٠] يتبين لك أن الذين ينتفعون بالآيات الكونية كخلق السموات والأرض والآيات الشرعية هم أصحاب العقول؛ لأنهم ينظرون، ويتفكرون، ويقيسون الأشياء حتى يهتدوا.

(١) قوله تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ} [غافر: ٥٥].

قال ابن كثير: "{فَاصْبِرْ} أي: يا محمد، {إِنَّ وَعْدَ اللهِ} أي: وعدناك أنا سنعلي كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد. وهذا الذي

=

=

أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فاصبر يا محمد لأمر ربك، وانفذ لما أرسلك به من الرسالة، وبلِّغ قومك ومن أمرت بإبلاغه ما أنزل إليك، وأيقن بحقيقة وعد الله الذي وعدك من نصرتك، ونصرة من صدّقك وآمن بك، على من كذّبك، وأنكر ما جئته به من عند ربك، وإن وعد الله حقّ لا خلف له وهو منجز له".

قال مقاتل:"{اصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ} في العذاب أنه نازل بهم القتل ببدر، وضرب الملائكة الوجوه والأدبار، وتعجيل أرواحهم إلى النار، فهذا العذاب".

قوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} [غافر: ٥٥]، أي:"واطلب المغفرة من ربك".

قال الطبري: " يقول: وسله غفران ذنوبك وعفوه لك عنه".

قال ابن كثير:"قوله: {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} هذا تهييج للأمة على الاستغفار".

قال السمعاني:"تمسّك من جوّز الصغائر على الأنبياء بهذه الآية، فأمرهم بالاستغفار عن الصغائر. ومن لم يجوز الصغائر على الأنبياء قال: إنه أمر بالاستغفار تعبدا؛ لينال بذلك رضا الله تعالى، ويقتدي به من يأتي بعده".

قوله تعالى: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} [غافر: ٥٥]، أي:"ودُمْ على تنزيه ربك عمَّا لا يليق به، في آخر النهار وأوله".

قال الطبري: "يقول: وصلّ بالشكر منك لربك {بِالْعَشِيِّ} وذلك من زوال الشمس إلى الليل، {وَالإِبْكَارِ} وذلك من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس. وقد وجه قوم الإبكار إلى أنه من طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى، وخروج وقت الضحى، والمعروف عند العرب القول الأوّل".

قال السمعاني:"أي: صل شاكرا لربك بالعشي والإبكار، والعشي من وقت زوال الشمس إلى الغروب، والإبكار ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس".

=

=

قال ابن كثير: "{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ}، أي: في أواخر النهار وأوائل الليل، {وَالإِبْكَارِ} وهي أوائل النهار وأواخر الليل".

عن قتادة، في قوله تعالى: " {بالعشي والإبكار} [آل عمران: ٤١] قال: «صلاة الفجر وصلاة العصر، وكل شيء في القرآن من ذكر التسبيح فهي الصلاة»".

عن مجاهد:"{سبح بالعشي والإبكار} الإبكار أوّل الفجر، والعشيّ مَيْل الشمس حتى تغيب".

عن الضحاك:"{بالعَشِيِّ والإبْكارِ}، قال: الصلوات المكتوبات".

قال الحسن: " {بالعَشِيِّ والإبْكارِ}، يعني: صلاة العصر، وصلاة الفجر".

قال العثيمين: قوله تعالى: {فاصبر إن وعد الله حق} (اصبر) الخطاب للرسول ﷺ وعلى آله وسلم اصبر على أي شيء، اصبر على حكم الله الكوني والشرعي؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: {إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا (٢٣) فاصبر لحكم ربك} [الإنسان: ٢٣- ٢٤] وتأملوا لما من الله عليه بأنه نزل عليه الكتاب تنزيلا هل قال: فاشكر نعمة ربك؟ بل قال: {فاصبر لحكم ربك}.

ومعناه أنك كلفت أمرا عظيما يحتاج إلى صبر، اصبر لحكم ربك الشرعي، والثاني الكوني، وقد لقي النبي ﷺ العناء الكبير من الصبر على أذى قومه.

وقوله: {فاصبر إن وعد الله حق} هنا في الآية حذف. والمحذوف تفسره الآيات الأخرى {فاصبر لحكم ربك} الكوني والشرعي، ولا نجد أحدا أصبر من رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم على حكم الله، يوعك- يعني: يمرض- كما يمرض الرجلان منا، يشدد عليه، شدد عليه عند الموت وهو يحتضر، شدد عليه، كما قالت ذلك عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: لم يشدد على أحد أوذي في الله عز وجل فصبر واحتسب، وقصة إيذاء المشركين له في مكة وغير مكة أمر مشهور عندكم ومعلوم {فاصبر إن وعد الله حق} [الروم: ٦٠] أي: والله {إن وعد الله حق} هذه الجملة

=

=

خبرية مؤكدة بـ (أن) وعد الله حق، وعد الله بنصر أوليائه وخذل أعدائه.

فإن قال قائل: قول الله تعالى: {فاصبر إن وعد الله حق} [الروم: ٦٠] بعضهم يقولون: إن الإيذاء والبلاء في دين الله دلالة على أن هذا الدين باطل. كيف نرد عليهم؟

فالجواب: لا، فهذه غير، فالرسول لولا أن دينه حق ما أوذي عليه، لولا أن دينه حق ما أوذي عليه، لو تبع ما عليه قومه ما أوذي؛ ولهذا كان من حكمة الله أن أعمام الرسول عليه الصلاة والسلام أربعة الذين أدركوا زمانه أربعة: اثنان كافران أحدهما أذاه والثاني ساعده وآواه، واثنان أسلما أحدهما تقدم إسلامه وله مقام صدق، وكان شهيدا، والثاني بالعكس تأخر إسلامه، لكن لا شك أن له مقام صدق. الذي كفر وآذاه أبو لهب، والذي كفر وآواه أبو طالب، والذي له مقام صدق وسبق حمزة، والرابع العباس بن عبد المطلب، فالله حكيم ﷻ.

وقوله: {حق} والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{إن وعد الله} بنصر أوليائه {حق}، وأنت ومن تبعك منهم] نعم هم على قمة الأولياء، محمد رسول الله والذين معه قمة الأولياء وصفهم الله بأنهم {أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا} انظر كيف معاملة بعضهم مع بعض، ومعاملتهم مع الله ﷻ.

وقوله: {واستغفر لذنبك} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ليستن بك] "استغفر لذنبك" أي: اطلب من الله المغفرة للذنب وهو الإثم أو المعصية، استغفر: اطلب المغفرة.

والمغفرة مشتقة من المغفر، وهو الذي يوضع على الرأس أثناء القتال، ليتقي به المقاتل سهام المقاتلين، هذا هو المغفر.

إذن: فالمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه، ليس مجرد الستر، ويدل لهذا قوله سبحانه وتعالى إذا حاسب عبده المؤمن: "قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها

=

=

لك اليوم".

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [ليستن بك] إشارة إلى أنه لا ذنب للرسول، لكن أمر بالاستغفار لتستن به الأمة فتستغفر لذنوبها، وهذا بناء على أن الرسول ﷺ وعلى آله وسلم لا يذنب وكذلك الرسل، ولكن في هذا نظر، هذا من الغلو بالنسبة للرسول عليه الصلاة والسلام ورب مذنب تاب من ذنبه فكان خيرا منه قبل الذنب.

آدم عليه الصلاة والسلام عصى ربه وغوى، {ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى} [طه: ١٢٢]، قبل ذلك هل حصل له الاجتباء؟ لا، فصار بعد التوبة من الذنب خيرا منه قبل الذنب، والذنب لا يخدش في الإنسان، الذنب إذا عرف الإنسان نفسه وعرف قدر ربه سبحانه وتعالى ثم رجع إلى الله وتاب وندم يجد في قلبه إيمانا لم يكن من قبل، يكون عنده حياء من الله وخجل، ولهذا جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم: "لولا أن تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون ويستغفرون الله ويغفر لهم".

وعلى هذا فنقول للمؤلف: عفا الله عنك؛ حيث ادعيت ما ليس بصحيح إذا كان الله يقول للرسول ﷺ: {إنا فتحنا لك فتحا مبينا (١) ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر} [الفتح: ١ - ٢] كيف نقول: إنه أمره بالاستغفار من أجل أن يستن به، لا من أجل أن له ذنبا والله يقول صراحة: {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر} ويقول سبحانه وتعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات} [محمد: ١٩]؟ !

ليس له ذنب، لكن استغفر؛ ليستن به، كيف يقول: الله ﷻ: {ياأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم (١) قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم} [التحريم: ١ - ٢] {تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم} غفر الله لك ذلك، كيف يقول الله ﷻ: {عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك

=

=

الذين صدقوا وتعلم الكاذبين} [التوبة: ٤٣]؟ !

كل هذا يدل على أن مثل هذه الأمور تقع على الرسول ﷺ وعلى آله وسلم، لكن لا شك أن ما يخل بالأخلاق أو يخل بالرسالة لا يمكن أن يقع منه، هذا شيء معلوم، لا يمكن أن يقع منه فاحشة، ولا يقع منه خيانة، ولا يقع منه كذب، هذا مستحيل؛ لأن هذا يخل بالشرف ويخل بمقام النبوة، أما المعاصي البعيدة عن هذا فتقع، أليس موسى ﷺ قتل نفسا لم يؤمر بقتلها وهو من أولي العزم؟

فالحاصل: أن قول المفسر: [ليستن بك] خطأ، ولكن "استغفر لذنبك" لأن لك ذنبا لكنه مغفور، ومن أسباب مغفرة ذنبك أن تستغفر، فالاستغفار من أسباب المغفرة، والطاعات من أسباب المغفرة، تغلب الطاعات على المعاصي وغير ذلك.

قوله: {وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار} {وسبح} يقول: المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [صل] ولا شك أن الصلاة تسمى تسبيحا، ومنه حديث: صلى النبي ﷺ في بيته سبحة الضحى. ومنه قول ابن عمر: "لو كنت مسبحا لأتممت" يعني: مصليا نافلا لأتممت. فلا شك أن الصلاة تسمى تسبيحا.

ومن الأدلة على ذلك سابقا ما ذكر - لكن أخرناه ترتيبا أو نسيانا - قوله ﷻ: {فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون (١٧) وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون} [الروم: ١٧ - ١٨] حيث قال بعض العلماء: إن هذه إشارة إلى أوقات الصلوات الخمس. لكن هل يتعين أن يكون التسبيح في كل مكان بمعنى الصلاة؟ لا؛ ولهذا نرى أن قوله تعالى هنا: {وسبح بحمد ربك} أشمل وأعم من إرادة الصلاة، يقول: {وسبح بحمد ربك} أي: تسبيحا مقرونا بالحمد، فالتسبيح زوال الصفات التي لا تليق بالله، وفي الحمد إثبات صفات الكمال لله، فيكون {وسبح بحمد ربك} جامعا بين التنزيه والإثبات، تنزيه الله عما

=

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦).

{إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَات الله} الْقُرْآن {بِغَيْرِ سُلْطَان} بُرْهَان {أَتَاهُمْ إِنْ} مَا {فِي صُدُورهمْ إِلَّا كِبْر} تَكَبُّر وَطَمَع أَنْ يَعْلُوا عَلَيْك {مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ} مِنْ شَرّهمْ {بِاَللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيع} لِأَقْوَالِهِمْ {الْبَصِير} بِأَحْوَالِهِمْ وَنَزَلَ فِي مُنْكِرِي الْبَعْث[1].

=

لا يليق به، وإثبات ما هو أهله سبحانه وتعالى من الكمال في صفاته وأفعاله {وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار} العشي ما بعد الزوال، ومنه حديث أبي هريرة في قصة ذي اليدين: "صلى بنا رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم إحدى صلاتي العشي"؛ فالعشي ما بعد الزوال، والإبكار ما قبل الزوال.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الصلوات الخمس]؛ لأن العشي يشمل الظهر والعصر والمغرب والعشاء، والإبكار الفجر {وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار} والصواب ما قلنا: أن المراد بالتسبيح هنا ما هو أعم من الصلوات.

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي العالية؛ قال: إن اليهود أتوا النبي ﷺ، فقالوا: إن الدجال يكون منا في آخر الزمان، ويكون من أمره؛ فعظموا أمره، وقالوا: يصنع كذا...؛ فأنزل الله -تعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ} قال: لا يبلغ الذي يقول: {فَاسْتَعِذْ بِاللهِ}؛ فأمر نبيه ﷺ أن يتعوذ من فتنة الدجال، {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} الدجال.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢٩٤)، و"لباب النقول" (ص ١٨٦،

=

=

١٨٧) وقال: أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم بسند صحيح عن أبي العالية به.
وهو ضعيف؛ لإرساله.
وعن ابن جريج في قوله: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)}؛ قال: زعموا أن اليهود قالوا: يكون منا ملك في آخر الزمان البحر إلى ركبتيه، والسحاب دون رأسه، يأخذ الطير بين السماء والأرض، معه جبل خبز ونهر؛ فنزلت: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)}.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢٩٤) ونسبه لابن المنذر.
وسنده ضعيف؛ لإعضاله.
* قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ} [غافر: ٥٦].
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الذين يخاصمونك يا محمد فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات بغير حجة جاءتهم من عند الله بمخاصمتك فيها".
عن قتاد، قوله:"{إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ}، لم يأتهم بذاك سلطان".
قوله تعالى: {إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ} [غافر: ٥٦]، أي:"ليس في صدور هؤلاء إلا تكبر عن الحق؛ حسدًا منهم على الفضل الذي آتاه الله نبيه، وكرامة النبوة التي أكرمه بها، وهو أمر ليسوا بمدركيه ولا نائليه".
قال الطبري:"يقول: ما في صدورهم إلا كبر يتكبرون من أجله عن اتباعك، وقبول الحق الذي أتيتهم به حسدا منهم على الفضل الذي آتاك الله، والكرامة التي أكرمك بها من النبوّة {مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ} يقول: الذي حسدوك عليه أمر ليسوا بُمدركيه ولا نائليه، لأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وليس بالأمر الذي يدرك بالأمانيّ".

=

=

قال ابن كثير:"أي: ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخمال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع".

وفي قوله تعالى: {إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ} [غافر: ٥٦]، قولان:

أحدهما: أن الكبر: العظمة التي في كفار قريش، ما هم ببالغيها، لأن الله مذلُّهم. قاله مجاهد.

الثاني: ما يستكبر من الإعتقاد، وفيه قولان:

أحدهما: هو ما أمله كفار قريش في النبي ﷺوفي أصحابه أن يهلك ويهلكوا، قاله الحسن.

الثاني: هو أن اليهود قالوا إن الدجال منا وعظموا أمره، واعتقدوا أنهم يملكون، وينتقمون، قاله أبو العالية ، وكعب الاحبار.

قال ابن كثير:"وهذا قول غريب، وفيه تعسف بعيد".

قال السمعاني:"ومعنى قوله: {ما هم ببالغيه} على هذا القول أن الغلبة لا تكون للدجال على المسلمين، بل تكون للمسلمين على الدجال، فإن عيسى عليه السلام ينزل ويقتل الدجال نصرة للمسلمين، وقوله: {فاستعذ بالله} أي: من شرك الدجال على هذا القول".

قوله تعالى: {فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [غافر: ٥٦]، أي:"فاعتصم بالله من شرهم إنه هو السميع لأقوالهم، البصير بأفعالهم، وسيجازيهم عليها".

قال الطبري: يقول: " فاستجر بالله يا محمد من شرّ هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان، ومن الكبر أن يعرض فى قلبك منه شيء، إن الله هو السميع لما يقول هؤلاء المجادلون في آيات الله وغيرهم من قول البصير بما تمله جوارحهم، لا يخفى عليه شيء من ذلك".

=

=

قال ابن كثير: "{فَاسْتَعِذْ بِاللهِ}، أي: من حال مثل هؤلاء، {إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إن الذين يجادلون} هذه (إن) واسمها وخبرها قوله: {إن في صدورهم إلا كبر}؛ أي: ما في صدورهم إلا كبر.

قوله: {إن الذين يجادلون في آيات الله} المجادلة: المخاصمة، وسميت المخاصمة مجادلة؛ لأن كل خصم يجدل الحجة؛ ليغلب صاحبه كجدل الحبل وهو شده، كل واحد من الخصمين يجدل الحجة لنفسه ليفحم خصمه.

وقوله: {يجادلون} المفاعلة تأتي في الغالب بين اثنين، وقد تأتي (فاعل) بدون مشارك مثل سافر، سافر على وزن فاعل، على وزن جادل، لكنها ليست بين اثنين، لكن الغالب أن (فاعل) يعني: المفاعلة تأتي من اثنين {يجادلون في آيات الله} يجادلون أهل الحق ويناظرونهم، ولقد علمتم المناظرة التي وقعت بين إبراهيم وقومه ووقعت بين إبراهيم والذي حاجه في ربه، ومجادلات كثيرة في القرآن وفي السنة، وإلى يومنا هذا.

قوله: {في آيات الله} قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [القرآن]، وهذا التفسير قاصر؛ لأن آيات الله تشمل الكونية والشرعية، ثم تشمل أيضا من يجادل في هذه الأمة، ومن يجادل فيمن سبق، والذين يجادلون فيمن سبق لا يجادلون في القرآن، فالأولى أن نجعل الآية على العموم، يجادلون في آيات الله الكونية والشرعية إن كانوا في هذه الأمة، فالشرعية هي القرآن والسنة أيضا، وإن كانوا من قبل الأمة فالمجادلة في التوراة من قوم موسى، وهكذا.

إذن: تفسير المفسر رَحِمَهُ اللهُ قاصر؛ لأنه لم يحط بالمعنى، بل قصره على بعضه، لكن لو ادعى مدع أن المفسر ذكر القرآن من باب التمثيل، لو ادعى مدع ذلك لقلنا: هذا ممكن محتمل، لكنه أخطأ في التعبير، إذ إن المراد يقال: آياته الشرعية

=

=

كالقرآن، حتى يكون الأمر واضحا.

وقوله: {يجادلون في آيات الله}، المجادلة في الآيات الشرعية، منها اتباع المتشابه، فيأتي مثلا بآية من القرآن فيها اشتباه تحتمل معنى حقا، ومعنى باطلا، وهي في الحق أظهر كما هو معلوم، فيريد أن يحملها على المعنى الباطل المرجوح، يأتي بآيات من القرآن ظاهرها التعارض يقول: القرآن متناقض كيف يقول: كذا، ثم يقول: كذا.

فمثلا يقول: إن الله تعالى قال: {يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا} [النساء: ٤٢] يودن {ولا يكتمون الله حديثا} وفي آية أخرى: {ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين} [الأنعام: ٢٣] فكتموا، قالوا: {والله ربنا ما كنا مشركين} كانوا في الأول مقرين تماما، فيأتي يقول: هذا القرآن متناقض، كيف يثبت في مكان أنهم لا يكتمون الله حديثا وفي مكان أنهم ينكرون؟

فيجادل بمثل هذا، إذا لم يكن لدى الإنسان سيف يقطع حجة هذا، بقي الإنسان مرتبكا، فما هو السيف الذي يقطع حجته؟ أن نقول: إن يوم القيامة ليس ساعة من زمن مقداره خمسون ألف سنة، فأقروا بالأول، ولما رأوا أن المؤمنين ينجون قالوا: نكتم لعلنا ننتفع. أو أنهم كتموا في الأول، ثم لما رأوا جوارحهم تشهد عليهم أقروا واعترفوا.

وأنا أقول: المجادلة في الآيات في القرآن منها اتباع المتشابه، هذه المجادلة لا شك.

وكذلك أيضا المجادلة في الآيات الكونية، يأتي مثلا بأشياء من مخلوقات الله سبحانه وتعالى فتقول: لماذا خلق الله هذا الشيء؟ لماذا خلق الله العقرب؟ لماذا خلق الله الحية؟ لماذا خلق الله الأسد؟ وما أشبه ذلك، إذن ما أراد الله إلا إضرار

=

الخلق وإيذاء الخلق، انتبه عندما يورد هذا السؤال على عامي ماذا يقول؟ يقول: والله ما يدري يمكن، فيجادل مع أننا نعلم أن خلق هذه المخلوقات من مصلحة العباد، وقد ذكرنا في مجالس سبقت أن في خلق هذه المؤذيات ثمان فوائد تظهر للمتأمل، وبذلك نعرف المجادلة في الآيات تكون في الآيات الكونية والآيات الشرعية وذكرنا مثالين على ذلك.

يقول الله ﷻ: {بغير سلطان} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [برهان] {أتاهم} هذه صفة لـ {سلطان} والسلطان يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو البرهان.

وذكرنا فيما سبق أن السلطان ما يكون به سلطة، سواء كان دليلا إذا كانت المسألة تحتاج إلى دليل، أو سلطة تدبير كالسلطان الأعظم، وما أشبه ذلك، أو قوة وقدرة، كما في قوله تعالى: {لا تنفذون إلا بسلطان} [الرحمن: ٣٣].

المهم: أن السلطان ما يكون به السلطة للإنسان، وفسره في كل مكان بحسبه.

وقوله: {بغير سلطان} هل يعني: أنه لا يمكن أن نجادل الإنسان بالباطل بسلطان.

إذن: هذا القيد بيان للواقع، وليس قيدا احترازيا، بل هو قيد مبين للواقع أن كل من جادل في آيات الله، فإنه مجادل بغير سلطان ولا يمكن أن يأتيه سلطان بذلك.

وقوله: {إن في صدورهم إلا كبر} (إن) يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما] يعني: أنها نافية، وذلك أن (إن) في اللغة العربية مشتركة بين عدة معان، وما أكثر الكلمات التي يكون لها عدة معان، ولكن الذي يعين المعنى السياق وقرائن الأحوال، ومن ذلك: أنك متى وجدت إثباتا بعد (إن) فهي نافية {إن نحن إلا بشر مثلكم}، {إن أنتم إلا مفترون} ، {إن في صدورهم إلا كبر} وهلم جرا، فمتى وجدت الإثبات في سياق (إن) فاعلم أنها نافية، ويأتي- إن شاء الله- الكلام على بقية معانيها، لكن هنا يقول: {إن في صدورهم إلا كبر} قال: {في صدورهم}، والذي في الصدور هو القلب، قال الله تعالى: {فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في

=

الصدور} [الحج: ٤٦].

وإذا تكبر القلب -والعياذ بالله- تكبر البدن، وإذا ذل القلب لله ذل البدن، قال النبي ﷺ: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب" وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام، ومثل أبو هريرة ذلك بالملك له جنود يأمر الجنود فيأتمرون، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية قال: إن تمثيل الرسول ﷺ أبلغ؛ لأن الملك قد يتمرد عليه الجنود؛ لكن القلب هل يمكن تتمرد عليه الجوارح، أبدا لا يمكن، فجعل الكبر في الصدور؛ أي: في القلوب؛ لأن الصدور محلها.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{إلا كبر} تكبر وطمع أن يعلوا عليك].

{ما هم ببالغيه} جملة {ما هم ببالغيه} الظاهر أنها مستأنفة، وليست صفة لـ {كبر} {إن في صدورهم إلا كبر}؛ ولهذا نقول: إذا قرأت فقل: {إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر} هذا الموقف الصحيح، ولا تقف على قوله: {بغير سلطان أتاهم} لا تقف عليه؛ لأنك إذا وقفت على {بغير سلطان أتاهم} فمعناه أنك وقفت على الكلام قبل التمام، ولكن قل: {إن في صدورهم إلا كبر}، ثم قف وقل: {ما هم ببالغيه}؛ لأنك إذا وصلت {إلا كبر ما هم ببالغيه} صارت جملة {ما هم ببالغيه} حسب القراءة صفة لكبر، وليس الأمر كذلك، بل هي جملة مستأنفة من الله ﷻ يقول: إنهم لن يبلغوا ما في صدورهم من التكبر عليك والعلو عليك، وقوله: {ما هم ببالغيه} أصله ببالغينه، لكن أين ذهبت النون؟

حذفت النون للإضافة؛ لأن النون والتنوين لا يجتمعان مع الإضافة؛ ولهذا قال أحد الناس يصف تباعده مع صاحبه:

كأني تنوين وأنت إضافة ... فأين تراني لا تحل مكاني

=

والنون كالتنوين تحذف مع الإضافة {ما هم ببالغيه}.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{فاستعذ} من شرهم {بالله إنه هو السميع} لأقوالهم {البصير} لأحوالهم]، {فاستعذ بالله} (استعذ) بمعنى: استجر به واعتصم به فإنه جل وعلا نعم المعاذ؛ ولهذا لما دخل النبي ﷺ على امرأة تزوجها فقالت: أعوذ بالله منك. قال: "لقد عذت بمعاذ الحقي بأهلك" وتركها مع أنه تزوجها راغبا فيها، لكنها استعاذت بمن لا يمكن أن يخفر جواره أبدا، قال: "الحقي بأهلك".

فاستعذ بالله؛ من أي شيء؟ يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من شرهم] والأولى أن يكون الأمر أعم. أي: استعذ بالله من كل مكروه، فلا ملجأ للإنسان إلا إلى الله عَزَّوَجَلَّ ولا عياذ إلا به، ولا لياذ إلا به أيضا، فهو عَزَّوَجَلَّ نفر منه إليه.

وقوله: {فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير} ختم الآية بالسمع والبصر؛ لأن ما يؤذون به النبي ﷺ إما قول فيدرك بالسمع، أو فعل فيدرك بالبصر. يعني: آذوك بالقول فنحن نسمع، بالفعل فنحن نبصر، وهذا فيه من تطمين الرسول ﷺ ما يعلم- إن شاء الله- في ذكر الفوائد والله أعلم.

فإن قال قائل: صحيح ما ذهب إليه بعض المفسرين في قوله تعالى: {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر} ما تقدم قبل الرسالة، وأما المتأخر هو ترك الأولى من الرسول؟

فالجواب: هذا غير صحيح، الرسول عليه الصلاة والسلام فعل أشياء عاتبه الله فيها بعد الرسالة {وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه} [الأحزاب: ٣٧].

فلا ننزه الرسول إلا عما نزهه الله عنه، ثم قلت قبل قليل: قد يكون الإنسان بعد التوبة من المعصية خيرا منه قبلها وضربنا لكم مثلا بقصة آدم، فدعوا النصوص

=

على ما هي عليه، والله ﷻ لا يظلم أحدا أبدا.

فلما قالوا: إن قول الله تعالى: {هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين (١٨٩) فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما} [الأعراف: ١٨٩- ١٩٠] قالوا: إن هذه الآية نزلت في آدم وحواء أنها حملت فجاءها الشيطان فقال: سميا ولدكما عبد الحارث. فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا، ثم حملت ثانية فجاءهما وقال: لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيل- والأيل نوع من الغزلان قرنه قوي كالحربة- فيخرج من بطنك فيشقك، فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث عبداه لغير الله، لا يمكن أن يقع هذا من آدم ﷺ.

ثم لو فرض أنه وقع هل يمكن أن يذكر الله السوء ولا يذكر التوبة منه؛ لأنا نقول: إذا وقع فإما أن يكون قد تاب منه أو لم يتب، فإن لم يتب فقد مات على الشرك، فإن تاب فليس من عدل الله ﷻ أن يذكر السوء ولا يذكر الخلاص منه.

فنحن نقول: بعض العلماء- عفا الله عنا وعنهم- يتحايلون أو يتمحلون على العبارة الصحيحة، يتمحلون في تنزيه الرسل عما وصفهم الله به، لكن نحن نؤمن بأن الرسول يختلف مع غيره في مسألتين:

المسألة الأولى: أنه لا يمكن أن يفعل ما يخل بالرسالة أو بالشرف.

المسألة الثانية: إذا فعل معصية فلا يمكن إلا أن يتوب منها، لا يقره الله على معصية، نحن الآن جائز على بني آدم أن يفعلوا ما يخل بالشرف، يأتون الفاحشة، يزنون، جائز عليهم أيضا إذا فعلوا أن لا يتوب، فالرسل يختلفون عن غيرهم بهذين الأمرين.

فالخلاصة: أن بعض العلماء رحمهم الله يتمحلون بالنسبة للرسل عليهم الصلاة

=

لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧).

{لَخَلْق السَّمَاوَات وَالْأَرْض} ابْتِدَاء {أَكْبَر مِنْ خَلْق النَّاس} مَرَّة ثَانِيَة وَهِيَ الْإِعَادَة {وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاس} أَيْ كُفَّار مَكَّة {لَا يَعْلَمُونَ} ذَلِكَ فَهُمْ كَالْأَعْمَى وَمَنْ يَعْلَمهُ كَالْبَصِيرِ(١).

=

والسلام ونحن نقول: لا نتعدى القرآن والحديث أبدا: "نبي من الأنبياء قرصته نملة- النملة معروف- فأحرق قرية النمل كلها- شب عليها نارا- فأوحى الله إليه هلا نملة واحدة، تقرصك نملة وتروح إلى كل القرية فتحرقها بسبب ذنب واحد"؟

وهذا إشارة إلى أن الإنسان يجب عليه أن يتحرى، ثم هذا النمل لا يمكن أن يتأدب، هل تظنون أن إذا سمعت النملة الأخرى بهذه القصة أن تتوب عن قرص الناس؟ لا، وأقول لكم هذا، لئلا توردوا على أن الله تعالى قد يهلك الطائعين بذنب العصاة {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة} [الأنفال: ٢٥]؛ لأن هؤلاء الطائعين مكلفون بإنكار المنكر، ثم إذا أهلكوا تأدب بهم من سواهم بخلاف مسألة قرية النمل.

(١) قوله تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [غافر: ٥٧].

عن ابي العالية:" {لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس} الدجال".

قال الطبري: يقول:"لابتداع السموات والأرض وإنشاؤها من غير شيء أعظم أيها الناس عندكم إن كنتم مستعظمي خلق الناس، وإنشائهم من غير شيء من خلق الناس".

قال السمعاني:"أي: رفع السموات بغير عمد، وإجراء الكواكب والشمس والقمر

=

=

في مجاريها، وبسط الأرض، ونصب الجبال أهول في قلوب الناس من خلق الآدميين".

قال ابن كثير:"يقول تعالى منبها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه، يسير لديه- بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الاحقاف: ٣٣]".

قال ابن أبي زمنين: {أكبر}، "أي: أشد، يعني: شدة خلقها وكثافتها وعرضها وطولها؛ أي: فأنتم أيها المشركون تقرون بأن الله هو الذي خلقها، وتجحدون بالبعث".

وقال مقاتل ويحيى بن سلام:"بالناس في هذا الموضع:"الدَّجَّال وحده".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [غافر: ٥٧]، أي:"ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن خلق جميع ذلك هيِّن على الله".

قال الطبري: يقول:"ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن خلق جميع ذلك هين على الله".

قال ابن أبي زمنين: " {ولكن أكثر الناس لا يعلمون} أنهم مبعوثون".

قال السمعاني:"أي: لا يعلمون حقيقة الأمور".

قال ابن كثير:"فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد، استبعادا وكفرا وعنادا، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا".

وقال مقاتل:"يعنى: اليهود".

=

=

قال البغوي:"{ولكن أكثر الناس} يعني الكفار، {لا يعلمون} حيث لا يستدلون بذلك على توحيد خالقها، وقال قوم: {أكبر} أي: أعظم من خلق الدجال، {ولكن أكثر الناس لا يعلمون} يعني اليهود الذين يخاصمون في أمر الدجال".

قال العثيمين: قوله تعالى: {لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس} اللام هنا لام الابتداء، وتفيد التوكيد، و {لخلق} مبتدأ، و {أكبر} خبر المبتدأ، {السماوات} هي السبع الطباق {والأرض} هي الأرض التي نحن عليها، وقد جاءت السنة بأنها سبع تصريحا، كما في قول النبي ﷺ: "من اقتطع شبرا من الأرض ظلما طوقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين" وأومأ القرآن إلى ذلك في قوله: {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن} [الطلاق: ١٢]؛ لأن المماثلة هنا لا يمكن أن تكون في الصفة؛ لظهور المماثلة في السموات والأرض، لكنها مثلها في العدد.

وقوله: {أكبر} خبر المبتدأ؛ أي: {أكبر من خلق الناس} يعني: من إيجاد الناس ابتداء، أو إعادة ابتداء، وإعادة إيجاد السموات والأرض أكبر من إيجاد الناس ابتداء وإعادة.

يقول: {ولكن أكثر الناس لا يعلمون} يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ونزل في منكري البعث: {لخلق السماوات والأرض} ابتداء {أكبر} من خلق الناس مرة ثانية] فقيد خلق الناس بالمرة الثانية [وهي الإعادة] بناء على أن الآية نزلت في منكري البعث، والصواب أن الآية نزلت فيما هو أعم، نزلت في منكري البعث وفي بيان قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ.

وعلى هذا فنقول: {لخلق السماوات والأرض} ابتداء {أكبر} من خلق الناس ابتداء وإعادة {ولكن أكثر الناس لا يعلمون} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: كفار مكة، {لا يعلمون} وفي هذا التفسير قصور؛ لأن أكثر الناس أعم من كونهم من مكة أو

=

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨).

{وما يستوي الأعمى والبصير و} لا {الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات} وَهُوَ الْمُحْسِن {وَلَا الْمُسِيء} فيه زيادة لا {قليلا ما يتذكرون} يَتَّعِظُونَ بِالْيَاءِ وَالتَّاء أَيْ تَذَكُّرهمْ قَلِيل جِدًّا[1].

=

غيرهم {ولكن أكثر الناس لا يعلمون}، لأنهم لا يتفكرون في خلق السموات والأرض فهم جاهلون لا يعلمون.

(١) قوله تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} [غافر: ٥٨].

عن قتادة:"{وما يَسْتَوِي الأَعْمى والبَصِيرُ} قال: {الأَعْمى} الكافر، {والبَصِيرُ} المؤمن".

قال السدي: "يعني: بصر القلب بالإيمان وهو المؤمن".

قال الفراء:"فالأعمى -هاهنا-: الكافر، والبصير: المؤمن".

قال الطبري: يقول:"وما يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئا، وهو مثل الكافر الذي لا يتأمل حجج الله بعينيه، فيتدبرها ويعتبر بها، فيعلم وحدانيته وقُدرته على خلق ما شاء من شيء، ويؤمن به ويصدّق. والبصير الذي يرى بعينيه ما شخص لهما ويبصره، وذلك مثل للمؤمن الذي يرى بعينيه حجج الله، فيتفكَّر فيها ويتعظ، ويعلم ما دلت عليه من توحيد صانعه، وعظيم سلطانه وقُدرته على خلق ما يشاء؛ يقول جلّ ثناؤه: كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن".

قال الفخر الرازي:"يعني: وما يستوي المستدل والجاهل المقلد، والمراد: التفاوت بين العالم والجاهل".

قلت هذا التفسير من الرازي مبني على مذهبه الأشعري في وجوب النظر

=

=

والإستدلال فتنبه.

قولـه تعـالى: {وَالَّـذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الـصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُـسِيءُ} [غـافر: ٥٨]، أي:"وكذلك لا يستوي المؤمنون الذين يُقِرُّون بأن الله هو الإله الحق لا شريك له، ويستجيبون لرسله ويعملون بشرعه، والجاحدون الذين ينكرون أن الله هو الإله الحق، ويكذبون رسله ولا يعملون بشرعه".

قال الطبري: يقول:"ولا يستوي أيضا كذلك المؤمنون بالله ورسوله، المطيعون لربهم، ولا المسيء، وهو الكافر بربه، العاصي له، المخالف أمره".

قال مقاتل:"يعني: وما يستوي في الفضل المؤمن المحسن ولا الكافر المسيء".

قال الطنطاوي: أي:"لا تصح المساواة بين المؤمنين الذين قدموا في دنياهم العمل الصالح، وبين الكافرين والفاسقين الذين لطخوا حياتهم بالعمل السيئ، والفعل القبيح".

قال الفخر الرازي:"المراد التفاوت بين الآتي بالأعمال الصالحة وبين الآتي بالأعمال الفاسدة الباطلة".

عن قتادة:"{وَالَّذين آمنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَات وَلَا الْمُسِيء قَلِيلا مَا تتذكرون} قَالَ: هو في نعْتهم بعدُ".

قوله تعالى: {قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ} [غافر: ٥٨]، أي:"قليلا ما تتذكرون -أيها الناس- حجج الله، فتعتبرون، وتتعظون بها".

قال ابن كثير:"أي: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس".

قال ابن ابي زمنين:"أي: أقلهم المتذكر؛ يعني: من يؤمن".

قال الطبري: يقول:"قليلا ما تتذكرون أيها الناس حجج الله، فتعتبرون وتتعظون؛ يقول: لو تذكرتم آياته واعتبرتم، لعرفتم خطأ ما أنتم عليه مقيمون من إنكاركم قدرة الله على إحيائه من فني من خلقه من بعد الفناء، وإعادتهم لحياتهم من بعد

=

=

وفاتهم، وعلمتم قبح شرككم من تشركون في عبادة ربكم".

قال السعدي:"أي: تذكركم قليل وإلا فلو تذكرتم مراتب الأمور، ومنازل الخير والشر، والفرق بين الأبرار والفجار، وكانت لكم همة عليه، لآثرتم النافع على الضار، والهدى على الضلال، والسعادة الدائمة، على الدنيا الفانية".

قال العثيمين: هذان المثلان بينهما الله ﷻ: الأول: الأعمى والبصير لا يستويان، ولا أحد من الناس يقول: إنهما يستويان، ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء. يعني: إذا تقرر أنه لا يستوي الأعمى والبصير، فكذلك لا يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء، لا يمكن.

تنبيه: ليس المراد ذم الأعمى والبصير حتى يقال: إنهما ليس لهما إرادة، المراد بيان حالهم أنهما لا يستويان بالاتفاق.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فهم] أي: الذين لا يهتدون [كالأعمى ومن يعلمه كالبصير] جاء بذلك المفسر توطئة لبيان مناسبة الآية لما قبلها، ولكن قد يقال: إنها استئناف، بين الله بها أنه لا يستوي هؤلاء وهؤلاء {وما يستوي الأعمى}؛ أي: لا يتساويان {الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهو المحسن {ولا المسيء} فيه زيادة اللام]، وكأن التقدير على كلام المفسر: ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء، وهذا المعنى واضح، لكن قوله: [وهو المحسن] يعني: أن الذي آمن وعمل الصالحات محسن؛ لقوله ﷺ: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

وقوله ﷻ: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات} {آمنوا} بالقلب {وعملوا الصالحات} بالجوارح، وذلك أن الإيمان متى وقر في القلب صدقته الأعمال، وقوله: {الصالحات} وصف لموصوف محذوف، والتقدير: الأعمال الصالحات، والعمل الصالح ما اجتمع فيه أمران:

=

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩).

=

الأول: الإخلاص لله ﷻ.

والثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ.

فبفقد الأول يكون الشرك، وبفقد الثاني تكون البدعة، والله ﷻ لا يقبل عملا أشرك فيه معه غيره، ولا يقبل بدعة ابتدعها أحد في دينه.

قال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه" وقال النبي ﷺ: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد".

إذن: فلا بد من إخلاص لا شرك معه، ومتابعة لا ابتداع معها، وبذلك يكون العمل صالحا.

وقوله: {ولا المسيء} يعني: فاعل السيئات، والسيئات هي إما تفريط أو إفراط؛ أي: إما تفريط بالنقص والقصور وإما إفراط بالزيادة، وكلاهما إساءة.

ثم قال ﷻ: {قليلا ما تتذكرون} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يتعظون؛ بالياء والتاء؛ أي: تذكرهم قليل جدا] قوله: {تتذكرون}؛ أي: يتعظون وفيها قراءتان: "يتذكرون" و {تتذكرون}، وكلاهما صحيحتان سبعيتان.

ثم أشار المفسر إلى إعراب هذا التركيب، وهو كثير في القرآن، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: تذكرهم قليل جدا] وعلى هذا تكون (ما) مصدرية، أي: تذكرهم تذكر قليل، ولكن الذي يظهر أن {قليلا} صفة لموصوف محذوف مفعول مطلق؛ أي: يتذكرون تذكرا قليلا و {ما} هذه زائدة للتوكيد، توكيد القلة؛ يعني: قليلا قليلا، وعلى هذا فتكون الجملة مركبة من فعل وفاعل ومن مفعول مطلق الذي هو (قليلا)؛ لأنه صفة لمصدر محذوف، ومن (ما) الزائدة للتوكيد.

{إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَة لَا رَيْب} شَكّ {فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاس لَا يُؤْمِنُونَ} بِهَا[1].

---

(١) قوله تعالى: {إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا} [غافر: ٥٩].

قال مقاتل:"يعني: كائنة لا شك فيها".

قال ابن كثير:"أي: لكائنة وواقعة".

قال الطبري: يقول:"إن الساعة التي يحيي الله فيها الموتى للثواب والعقاب لجائية أيها الناس لا شكّ في مجيئها؛ فأيقنوا بمجيئها، وأنكم مبعوثون من بعد مماتكم، ومجازون بأعمالكم، فتوبوا إلى ربكم".

قال ابن عطية:"المعنى: قل لهم يا محمد. ثم جزم الإخبار بأن الساعة آتية، وهي القيامة المتضمنة للبعث من القبور والحساب بين يدي الله تعالى، واقتران الجمع إلى الجنة وإلى النار، وقوله تعالى: {لا رَيْبَ فِيها}، أي: في نفسها وذاتها، وإن وجد من العالم من يرتاب فيها فليست فيها في نفسها ريبة".

قال الزمخشري:"{لا رَيْبَ فِيها}: لا بد من مجيئها ولا محالة، وليس بمرتاب فيها، لأنه لا بد من جزاء".

قال القشيري:"إنّ ميقات الحساب لكائن وإن وقعت المدة في أوانه".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} [غافر: ٥٩]، أي:"ولكن أكثر الناس لا يُصَدِّقون بمجيئها، ولا يعملون لها".

قال الطبري: " يقول: ولكن أكثر قريش لا يصدّقون بمجيئها".

قال ابن كثير:"أي: لا يصدقون بها، بل يكذبون بوجودها".

قال القرطبي:"أي: لا يصدقون بها، وعندها يبين فرق ما بين الطائع والعاصي".

قال مقاتل:"يعني: كفار مكة أكثرهم لا يصدقون بالبعث".

قال الفخر الرازي:"المراد بـ «أكثر الناس»: الكفار الذين ينكرون البعث والقيامة".

=

وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠).

=

أخرج ابن ابي حاتم بسنده عن مالك، عن شيخ قديم من أهل اليمن -قدم من- ثم قال: سمعت أن الساعة إذا دنت اشتد البلاء على الناس، واشتد حر الشمس".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إن الساعة لآتية لا ريب فيها} هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين هما: (إن) واللام، ثم أكد هذا التأكيد وهو تأكيد معنوي، والأول تأكيد لفظي {لا ريب} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [شك] {فيها} أي: في إتيانها ووقوعها، والمراد بالساعة اليوم الذي يبعث فيه الناس، وسمي ساعة، لأن الناس يطلقون الساعة على الأمر الذي يدهى الناس ويفجعهم حتى لا يشعرون به.

والريب فسره المفسر بالشك، وهو تفسير قريب، لكن تجد فرقا يسيرا لطيفا بينهما؛ أي: بين الريب والشك، وهو أن الريب شك بافتراض وتردد، فقول القائل: ارتاب ليس بالتحديد كقوله: شك، بل الارتياب يحمل قلقا واضطرابا، فهو إذن أخص من الشك، فكل ريب شك، وليس كل شك ريبا، لكن العلماء رحمهم الله يفسرون الشيء بمقاربه.

وقوله: {ولكن أكثر الناس لا يؤمنون} لا يؤمن بإتيان الساعة؛ ولهذا أكد لهم إتيانها، ولما كان أكثر الناس لا يؤمنون بها كان أكثر الناس كافرين، لأن الإيمان بالساعة له أثر عظيم في تحقيق الإيمان، فإن من لا يؤمن بالساعة لا يعمل، لأي شيء يعمل وهو لا يؤمن بيوم الحساب؟ ومن آمن بيوم الحساب كان حريصا على أن ينجو من وبال هذا اليوم {ولكن أكثر الناس لا يؤمنون}.

{وَقَالَ رَبّكُمْ أُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} أَيْ اُعْبُدُونِي أُثِبْكُمْ بِقَرِينَةِ مَا بَعْده {إنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ} بِفَتْحِ الْيَاء وَضَمّ الْخَاء وَبِالْعَكْسِ {جَهَنَّم دَاخِرِينَ} صَاغِرِينَ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠].

قال ابن عباس:"يقول: وحَّدوني أغفر لكم".

عن جرير بن عبد الله البجلي -من طريق عمرو- في قوله: " {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}: اعبدوني".

قال ابن عباس:"أفضل العبادة الدعاء. وقرأ: {وقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}".

قال البغوي:"أي: اعبدوني دون غيري أجبكم وأثبكم وأغفر لكم، فلما عبر عن العبادة بالدعاء جعل الإنابة استجابة".

قال الطبري: " ويقول ربكم أيها الناس لكم ادعوني: يقول: اعبدوني وأخلصوا لي العبادة دون من تعبدون من دوني من الأوثان والأصنام وغير ذلك، أُجِبْ دعاءكم فأعفو عنكم وأرحمكم".

قال ابن عطية:"آية تفضل ونعمة ووعد لأمة محمد ﷺ بالإجابة عند الدعاء، وهذا الوعد مقيد بشرط المشيئة لمن شاء تعالى، لا أن الاستجابة عليه حتم لكل داع، لا سيما لمن تعدى في دعائه".

قال ابن كثير:"هذا من فضله، تبارك وتعالى، وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: «يا مَنْ أحبُّ عباده إليه مَنْ سأله فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله، وليس كذلك غيرك يا رب»

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

=

=

اللهُ يَغْضبُ إن تركْتَ سُؤَالهُ... وَبُنيُّ آدمَ حين يُسألُ يَغْضَبُ".

قال القشيري:"يقال: كلّ من دعاه استجاب له إمّا بما يشاء له، أو بشئ آخر هو خير له منه".

عن الحسن البصري -من طريق الربيع بن أنس- في قوله: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}، قال: "اعملوا وأبشِروا؛ فإنّه حقٌّ على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويزيدهم من فضله".

عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: قال رسول الله ﷺ: "من لم يدع الله، عَزَّ وَجَلَّ، غضب عليه".

عن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ: «الدّعاء هو العبادة»، وقرأ رسول الله ﷺ: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي}".

قال ثابت:"قالت لأنس: يا أبا حمزة أبلغك أن الدعاء نصف العبادة؟ قال: لا بل هو العبادة كلها".

قال الأشجعي:"قيل لسفيان: ادع الله، قال: إن ترك الذنوب هو الدعاء".

قال كعب الأحبار: "أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم تعطهن أمة قبلهم إلا نبي: كان إذا أرسل الله نبيا قيل له: «أنت شاهد على أمتك» وجعلكم شهداء على الناس. وكان يقال له: «ليس عليك في الدين من حرج»

وقال لهذه الأمة: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨]، وكان يقال له: «ادعوني أستجب لك»، وقال لهذه الأمة: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠]".

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠]، أي:"إن الذين يتكبرون عن إفرادي بالعبودية والألوهية، سيدخلون جهنم صاغرين حقيرين".

=

=

قال الطبري:"يقول: إن الذين يتعظمون عن إفرادي بالعبادة، وإفراد الألوهة لي {سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ} صاغرين".

قال ابن كثير: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي}، " أي: عن دعائي وتوحيدي، {سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}، أي: صاغرين حقيرين".

عن السديّ: " {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي}، قال: عن دعائي".

عن السديّ: " {دَاخِرِينَ}، قال: صاغرين".

قال الشوكاني:"أي: ذليلين صاغرين وهذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله، وفيه لطف بعباده عظيم وإحسان إليهم جليل حيث توعد من ترك طلب الخير منه، واستدفاع الشر به بهذا الوعيد البالغ، وعاقبه بهذه العقوبة العظيمة. فيا عباد الله وجهوا رغباتكم وعولوا في كل طلباتكم على من أمركم بتوجيهها إليه، وأرشدكم إلى التعويل عليه، وكفل لكم الإجابة به بإعطاء الطلبة، فهو الكريم المطلق الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم، وملكه الواسع ما يحتاجه من أمور الدنيا والدين، قيل: وهذا الوعد بالإجابة مقيد بالمشيئة أي: أستجب لكم إن شئت كقوله سبحانه: {فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء} [الأنعام: ٤١]".

وفي الحديث: «يُحْشَر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذّرّ، في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجنا في جهنم- يقال له: بولس- تعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال: عصارة أهل النار».

عن أبي بكر بن محمد بن يزيد بن خُنَيْس، قال: "سمعت أبي يحدث عن وُهَيب بن الورد: حدثني رجل، قال: "كنت أسير ذات يوم في أرض الروم، فسمعت هاتفا من فوق رأس جبل وهو يقول: يا رب، عجبت لمن عرفك كيف يرجو أحدا غيرك! يا رب، عجبت لمن عرفك كيف يطلب حوائجه إلى أحد غيرك- قال: ثم

=

=

ذهبت، ثم جاءت الطامة الكبرى- قال: ثم عاد الثانية فقال: يا رب، عجبت لمن عرفك كيف يتعرض لشيء من سخطك يُرضي غيرك. قال وهيب: وهذه الطامة الكبرى. قال: فناديته: أجني أنت أم إنسي؟ قال: بل إنسي، أشغل نفسك بما يَعْنيك عما لا يعنيك".

عن عطاء -من طريق ابن جُريج- قال: "لَمّا نزلت: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ} فقالوا: لو علمنا أيَّ ساعة هي؟ فنزلت: {وإذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إذا دَعانِ} [البقرة: ١٨٦]".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم} لما ذكر الساعة ذكر ما يكون به الوقاية من وبالها، وهو دعاء الله، فقال: {وقال ربكم ادعوني} وأتى بجملة بصيغة الغيبة تعظيما له ﷻ {وقال ربكم} ولم يقل: أقول، أو قلنا. أو ما أشبه ذلك تعظيما لله.

وقوله: {ادعوني أستجب لكم} {ادعوني} أمر، و {أستجب} جوابه جواب الطلب، والدعوة هنا تشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، فدعاء المسألة أن يقول الإنسان: يا رب اغفر لي. ودعاء العبادة أن يتعبد لله سبحانه وتعالى بما شرع، وإنما كانت العبادة دعاء؛ لأنها متضمنة لطلب الإنسان النجاة من النار ودخول الجنة، لو سألت كل عابد: لم تدعو الله؟ قال: أريد أن أنجو من النار وأدخل في رحمة الله، إذن فهو متضمن للدعاء بلسان الحال.

وقوله: {أستجب لكم} نفسرها في مقابل دعاء المسألة بإعطائكم ما سألتم، ونفسرها بدعاء العبادة بالقبول. يعني: أتقبل منكم. فاستجابة الله تعالى لدعاء المسألة أن يعطي السائل ما سأل، واستجابته لدعاء العبادة أن يتقبل من العابد.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: ادعوني أثبكم بقرينة ما بعده، وهذا التفسير بناء على تقدم يعتبر تفسيرا قاصرا، وأما ما بعده فليس قرينة لتخصيص هذا، بل نقول: {إن الذين

=

اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١).

{الله الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْل لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَار مُبْصِرًا} إسْنَاد الْإِبْصَار إلَيْهِ مَجَازِيّ لِأَنَّهُ يُبْصِر فِيهِ {إنَّ الله لَذُو فَضْل عَلَى النَّاس وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاس لَا يَشْكُرُونَ} اللهَ فلا يؤمنون[1].

=

يستكبرون عن عبادتي} تدل على أن الدعاء عبادة؛ لأنه قال: {ادعوني}، ثم قال: {إن الذين يستكبرون عن عبادتي} ولا شك أن الذي يستكبر عن دعاء الله ويرى أنه غني عن الله وليس محتاجا إليه لا شك أنه مستحق لهذا الوعيد، وهو أنه سيدخل جهنم صاغرا.

قوله: {إن الذين يستكبرون عن عبادتي} هذا من جملة المقول {سيدخلون} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بفتح الياء وضم الخاء وبالعكس] "يدخلون" وهما قراءتان سبعيتان صحيحتان.

{جهنم} اسم للنار، وهو اسم معرب وأصله -على ما قيل- كهنام، وقيل: بل هو عربي، والنون فيه زائدة وأصله من الجهمة يعني: الظلمة، وأيا كان فهو علم على النار، أجارنا الله وإياكم منها.

وقوله: {داخرين} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [صاغرين] الداخر: الصاغر.

(١) قوله تعالى: {اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} [غافر: ٦١].

قال الطبري: يقول: " الله الذي لا تصلح الألوهة إلا له، ولا تنبغي العبادة لغيره، الذي صفته أنه جعل لكم أيها الناس الليل سكنا لتسكنوا فيه، فتهدءوا من التصرّف والاضطراب للمعاش، والأسباب التي كنتم تتصرفون فيها في نهاركم، =

=

وجعل النهار مبصرا من اضطرب فيه لمعاشه، وطلب حاجاته، نعمة منه بذلك عليكم".

قال ابن كثير:"يقول تعالى ممتنا على خلقه، بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم في المعايش بالنهار، وجعل النهار مبصرا، أي: مضيئا، ليتصرفوا فيه بالأسفار، وقطع الأقطار، والتمكن من الصناعات".

قال السمعاني:"أي: لتسترخوا فيه من الأعمال، وقيل: لتناموا، وقوله: {والنهار مبصرا} أي: مبصرا فيه، ومعناه: أن الناس يبصرون فيه الأشياء".

قال الشوكاني:"{جعل لكم الليل لتسكنوا فيه} من الحركات في طلب الكسب لكونه جعله مظلما باردا تناسبه الراحة بالسكون والنوم. {والنهار مبصرا}، أي: مضيئا لتبصروا في حوائجكم وتتصرفوا في طلب معايشكم".

عن قتادة:"الليل سكنا: يسكن فيه كل طائر ودابة، {النهار مبصرا}، أي: منيرا".

قال مجاهد:"الشمس آية النهار".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ} [غافر: ٦١]، أي:"إن الله لذو فضل عظيم على الناس".

قال الطبري: " يقول: إن الله لمتفضل عليكم أيها الناس بما لا كفء له من الفضل".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} [غافر: ٦١]، أي:"ولكن أكثرهم لا يشكرون له بالطاعة وإخلاص العبادة".

قال الطبري:"يقول: ولكن أكثرهم لا يشكرونه بالطاعة له، وإخلاص الألوهة والعبادة له، ولا يد تقدمت له عنده استوجب بها منه الشكر عليها".

قال ابن كثير:"أي: لا يقومون بشكر نعم الله عليهم".

قال الشوكاني:"{ولكن أكثر الناس لا يشكرون} النعم، ولا يعترفون بها، إما

=

=

لجحودهم لها، وكفرهم بها كما هو شأن الكفار، أو لإغفالهم للنظر، وإهمالهم لما يجب من شكر المنعم، وهم الجاهلون".

قال العثيمين: ثم قال الله تعالى مبينا نعمته على عباده: {الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه} {الله} مبتدأ، و {الذي} خبره، و {جعل} بمعنى: صير، ونصبت مفعولين الأول: {الليل}، والثاني: {لكم}، والجعل هنا جعل قدري وليس جعلا شرعيا {جعل لكم} اللام هنا للتعدية مع التعليل، وقوله: {لتسكنوا فيه} اللام للتعليل والسكون ضد الحركة وضد العمل، وهو شامل لسكون الجوارح، وسكون القلب، وسكون النفس؛ ولهذا يجد الإنسان إذا تعب ثم نام يجد أن نشاطه يستجد ويزداد.

وقوله: {والنهار مبصرا} يعني: وجعل النهار مبصرا، هذه معطوفة على {الليل}؛ أي: جعل النهار مبصرا، وإسناد الإبصار إلى النهار؛ لأنه موضعه؛ أي: موضع إبصار الناس؛ ولهذا قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [إسناد الإبصار إليه مجازي؛ لأنه يبصر فيه] فهو زمن الإبصار {والنهار} محل عمل وبصرها.

ثم قال تعالى: {إن الله لذو فضل على الناس} أكد الله سبحانه وتعالى كونه ذا فضل على الناس بـ {إن} واللام، و (ذو) بمعنى: صاحب، {لذو فضل على الناس} {فضل} بمعنى: إفضال، فالله سبحانه وتعالى هو المتفضل على العباد، ومنه أي: من فضله جعل الليل سكنا والنهار مبصرا.

وقوله: {على الناس} عامة تشمل المؤمن والكافر، وهذا هو الواقع؛ لأن الليل سكن للمؤمنين والكافرين، والنهار مبصر للمؤمنين والكافرين {ولكن أكثر الناس لا يشكرون} يعني: مع كون الله ذا فضل على الناس أكثرهم لا يشكر -والعياذ بالله- أكثرهم كافر.

ولهذه الآية نظائر منها قوله تعالى: {وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين}

=

ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢).

=

[يوسف: ١٠٣]، وجاءت السنة بمثل ذلك؛ حيث أخبر النبي ﷺ أن الله ينادي يوم القيامة: "يا آدم أخرج من ذريتك بعثا إلى النار. فيخرج من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين كلهم في النار" من الألف واحد ينجو.

والشكر هو الاعتراف للمنعم بالنعمة بالقلب واللسان والجوارح، الاعتراف بالشكر، والاعتراف للمنعم بالنعمة بالقلب واللسان والجوارح، قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

"أفادتكم النعماء مني ثلاثة"؛ يعني: أنكم ملكتم مني ثلاثة بسبب نعمائكم، يدي ولساني والضمير المحجب.

أما الشكر بالقلب فهو أن تعترف بقلبك أن كل نعمة بك فإنها من الله، كما قال تعالى: {وما بكم من نعمة} [النحل: ٥٣]، وأكبر النعم نعم الدين، ثم العقل، ثم تتلوها النعم شيئا فشيئا بحسب حاجتها والضرورة إليها. وأما باليد يعني: بالجوارح اليد أو الرجل أو السمع أو البصر، فاستعمال هذه في طاعة الله، شكر الجوارح أن تستعملها لطاعة الله، اللسان كذلك، شكر الله باللسان أن تعترف بلسانك بأن ما بك من نعمة فمن الله، وأن تحدث بنعمته عليك، لا فخرا واختيالا، ولكن افتقارا إلى الله ﷻ واعترافا بفضله سبحانه وتعالى، لقوله: {وأما بنعمة ربك فحدث} [الضحى: ١١]، ثم تستعمل هذا اللسان لطاعة المنعم.

إذن: صار الشكر حقيقة هو الدين كله: القلب، واللسان، والجوارح، {ولكن أكثر الناس لا يشكرون} ثم إن الشكر يتبعض، قد يشكر الإنسان ربه على نعمة من النعم دون نعمة أخرى، قد ينعم الله عليه بالمال فيشكر، وينفق في سبيل الله، وينعم الله عليه بالعلم فيكتم، وقد ينعم الله عليه بالعلم فينشر العلم، وبالمال فيبخل، فالشكر يتنوع كما أن الكفر يتنوع.

{ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ الْإِيمَان مَعَ قِيَام الْبُرْهَان.

كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٦٣).

{كَذَلِكَ يُؤْفَك} أَيْ مِثْل إفْك هَؤُلَاءِ إفْك {الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ الله} مُعْجِزَاته {يَجْحَدُونَ}(١).

---

(١) قوله تعالى: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [غافر: ٦٢].

قال الطبري: يقول:"الذي فعل هذه الأفعال، وأنعم عليكم هذه النعم أيها الناس، الله مالككم ومصلح أموركم، وهو خالقكم وخالق كلّ شيء".

قال ابن كثير:"أي: الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد، خالق الأشياء".

قال الزمخشري:"{ذَلِكُمُ} المعلوم المتميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو {اللهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}".

قال ابن بطة:"فمن الأدلة الدالة على شمول القدر الإلهي بأفعال العباد وغيرها من المخلوقات قوله تعالى:: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}، فدخل فيه الأعيان والأفعال من الخير والشر".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها مع إيمانهم بالقضاء والقدر وأن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يضل من يشاء، ويهدي من يشاء...".

قوله تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [غافر: ٦٢]، أي:"لا إله يستحق العبادة غيره".

قال الطبري: " يقول: لا معبود تصلح له العبادة غيره".

قال ابن كثير:"أي: " الذي لا إله غيره، ولا رب سواه".

قال الشوكاني:"بيّن سبحانه في هذا كمال قدرته المقتضية لوجوب توحيده".

عن محمد بن إسحاق:"{لا إله إلا هو}، قال: ليس معه غيره شريكا في أمره".

=

=

عن كعب، قال: " {لا إله إلا الله}: كلمة الإخلاص".

قوله تعالى: {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} [غافر: ٦٢]، أي:"فكيف تعدلون عن الإيمان به، وتعبدون غيره من الأوثان، بعد أن تبينت لكم دلائله؟".

قال الطبري: " يقول: فأي وجه تأخذون، وإلى أين تذهبون عنه، فتعبدون سواه؟".

قال ابن كثير:"أي: فكيف تعبدون غيره من الأصنام، التي لا تخلق شيئا، بل هي مخلوقة منحوتة".

قال الزمخشري:"فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان".

قال القرطبي:"أي: كيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان بعد أن تبينت لكم دلائله".

قال ابن عطية:"{تُؤْفَكُونَ}، معناه: تصرفون على طريق النظر والهدى، وهذا تقرير بمعنى التوبيخ والتقريع".

عن ابن عباس: " {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}، «أنى»، قال: كيف".

عن الحسن: " {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}، قال: أنى تصرفون".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٦٣)} [غافر: ٦٣].

قال الطبري: " يقول: كذهابكم عنه أيها القوم، وانصرافكم عن الحقّ إلى الباطل، والرشد إلى الضلال، ذهب عنه الذين كانوا من قبلكم من الأمم بحجج الله وأدلته يكذّبون فلا يؤمنون؛ يقول: فسلكتم أنتم معشر قريش مسلكهم، وركبتم محجتهم في الضلال".

قال ابن كثير:"أي: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين من قبلهم، فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته".

=

=

قال القرطبي:"أي: كما صرفتم عن الحق مع قيام الدليل عليه فـ {كذلك} يصرف عن الحق {الذين كانوا بآيات الله يجحدون}".

قال الشوكاني:"أي: مثل الإفك يؤفك الجاحدون لآيات الله المنكرون لتوحيده".

قال السمعاني:"أي: يصرف عن الحق من كان مشركا بالله جاحدا لآياته".

قال ابن عطية:"قال لنبيه: {كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ}، أي: على هذه الهيئة وبهذه الصفة صرف الله تعالى الكفار الجاحدين بآيات الله من الأمم المتقدمة على طريق الهدى".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ذلكم الله ربكم خالق كل شيء} هذه الجملة نريد أن نعربها أولا (ذا) لا شك أنها مبتدأ، واللام للبعد، والكاف للخطاب، والميم للجمع. {الله} هل نقول: إنها بدل، أو عطف بيان من اسم إشارة، أو أنها خبر؟ الظاهر أنها الأول {ربكم} خبر المبتدأ، و {خالق كل شيء} خبر آخر؛ لأن الخبر يتعدد؛ إذ إن الخبر وصف للمخبر عنه، وإذا كان وصفا له فالأوصاف يجوز أن تتعدد، قال الله سبحانه وتعالى: {وهو الغفور الودود (١٤) ذو العرش المجيد (١٥) فعال لما يريد} [البروج: ١٤- ١٦] خمسة أخبار، فالخبر يتعدد؛ لأن الخبر وصف للمخبر عنه، فإذا قلت: زيد قائم. معناه وصف القيام، والأوصاف يجوز أن تتعدد على موصوف واحد.

إذن نقول: {خالق كل شيء} خبر ثان {خالق كل شيء} لا يشذ عن هذه الجملة شيء أبدا، كلية عامة خالق كل شيء من العيان والأوصاف والأحوال، كل شيء فالله خالقه من الأعيان والأوصاف والأحوال، العبد مخلوق، أحوال العبد من مرض وصحة ومرض وجنون، وما أشبه ذلك مخلوقة، أفعاله مخلوقة، كل شيء فإنه مخلوق لله ﷻ لا يشذ عنه -عن هذه الجملة- شيء أبدا حتى العجز والكيس، وهو من الأوصاف، العجز يعني: أن الإنسان يكون غير حازم، والكيس أن يكون

=

=

حازما.

وقوله: {لا إله إلا هو} لما بين أنه خالق كل شيء، وأنه لا خالق معه بناء على هذه الجملة الكلية بين أنه {لا إله إلا هو}؛ أي: لا معبود حق إلا الله ﷻ كما أنه منفرد في الخلق، فيجب أن يفرد بالعبادة.

"إله" بمعنى: مألوه، وفعال تأتي بمعنى: مفعول في اللغة العربية كثيرا، ومنه غراس بناء فراش كتاب لباس، وعد {لا إله إلا هو}.

إذا قال قائل: كيف تصح هذه الجملة مع قوله تعالى: {لا تجعل مع الله إلها آخر} [الإسراء: ٢٢]، وقوله: {فما أغنت عنهم آلهتهم} [هود: ١٠١]، فأثبت آلهة دون الله؟

الجواب: تصح هذه العبارة إذا عرفنا الخبر المقدر، وهو: لا إله حق إلا الله، دليل هذا {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير} [الحج: ٦٢]، {فأنى تؤفكون} [غافر: ٦٢] الاستفهام هنا للتعجب والإنكار.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {فأنى تؤفكون} فكيف تصرفون عن الإيمان مع قيام البرهان].

ثم قال تعالى: {كذلك يؤفك} هذا التكييف يأتي كثيرا في القرآن الكريم، وقد تقدم كيف نعربه، وقلنا: إن الكاف اسم بمعنى: مثل، وهو مفعول مطلق للعامل بعده؛ أي: مثل ذلك الإثم يؤفك، والإفك بمعنى: الصرف، كذلك، أي: مثل ذلك الإفك -وهو الإشراك بالله وعدم شكر النعم- يؤفك.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: مثل إفك هؤلاء إفك].

وقوله: {الذين كانوا بآيات الله يجحدون} وقوله: {الذين} إعرابها على أنها نائب فاعل {الذين كانوا بآيات الله يجحدون}؛ أي: كانوا يكفرون بآيات الله. أي: يكفرون. والجحد هنا بمعنى الكفر، بدليل أنه تعدى بالباء، وقول المفسر:

=

اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤).

{الله الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْض قَرَارًا وَالسَّمَاء بناء} سقفا {وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين}[1].

=

[{بآيات الله} معجزاته] هذا لا شك أنه خطأ، بل نقول: {بآيات الله} دلالاته التي تدل على كماله سبحانه وتعالى واستحقاقه للعبودية، فهي آيات وليست معجزات {بآيات الله}؛ أي: بالدلالات التي تدل على كماله وعلى استحقاقه للعبودية وحده، وآيات الله سبحانه وتعالى نوعان: كونية وشرعية، فالمخلوقات كلها كونية آيات تدل على كماله:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

فكل ما في الكون فإنه شاهد بكمال الله ﷻ وقدرته وعزته وسلطانه وغير ذلك.

المهم: أن جميع المخلوقات آيات كونية تدل على خالقها وحكمته ورحمته، وغير ذلك من كمال الصفات.

وآيات شرعية وهي ما جاءت به الرسل من أحكام عادلة، وأخبار صادقة وقصص نادرة. هذه آيات شرعية التكليفات والأوامر والنواهي كلها عادلة، الأخبار كلها صادقة ليس فيها شيء كذب، القصص كلها نافعة {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك} [يوسف: ٣].

(١) قوله تعالى: {اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا} [غافر: ٦٤].

قال الطبري: يقول:"{اللهُ} الذي له الألوهة خالصة أيها الناس {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ} التي أنتم على ظهرها سكان {قَرَارًا} تستقرون عليها، وتسكنون فوقها".

قال ابن كثير:"أي: جعلها مستقرا لكم، بساطا مهادا تعيشون عليها، وتتصرفون

=

=

فيها، وتمشون في مناكبها، وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم".

عن الربيع في قوله:"{ولكم في الأرض مستقرٌّ}، قال: هو قوله: {جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا}".

قوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بِنَاءً} [غافر: ٦٤]، أي:"وجعل السماء سقفًا للأرض، وبثَّ فيها من العلامات الهادية".

قال ابن كثير:"أي: سقفا للعالم محفوظا".

قال الطبري:"بناها فرفعها فوقكم بغير عمد ترونها لمصالحكم، وقوام دنياكم إلى بلوغ آجالكم".

عن قتادة في قول الله:"{والسماءَ بناءً}، قال: جعل السماء سَقفًا لكَ".

قوله تعالى: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ} [غافر: ٦٤]، أي:"وخلقكم في أكمل هيئة وأحسن تقويم".

قال ابن عباس:"يعني: آدم خلقه بيده".

وقال ابن عباس:"خُلِق ابن آدم قائمًا معتدلًا، يأكل ويتناول بيده، وغير ابن آدم يتناول بِفِيه".

قال الطبري:"يقول: وخلقكم فأحسن خلقكم".

قال ابن كثير:"أي: فخلقكم في أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم".

قال ابن ابي زمنين:"أي: جعل صوركم أحسن من صور البهائم والطير".

قال الزجاج:"خلقكم أحسن الحَيَوَانِ كلِّه، والدليل على ذلك أن الإنسان لا يُسَرُّ بأن يكون صورته على غير صورة الآدميين، فالإنسان أحسن الحيوان.

وقيل أيضًا فأحسن صوركم من أَرَادَ الله أَن يكون أبيض كان أبيض، ومن أراد أنْ يكون أسودَ كان أَسْوَدَ ومن أراد أن يكون دَمِيمًا كان دَمِيمًا أَو تامًا كان تامًّا،

=

=

فأحسن ذلك- ﷻ- وأتى من كل صورةٍ بكل صنف على إرادته".

قال القشيري: "خلق العرش والكرسيّ والسماوات والأرضين وجميع المخلوقات ولم يقل هذا الخطاب، وإنما قال لنا: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}، وليس الحسن ما يستحسنه الناس بل الحسن ما يستحسنه الحبيب".

عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مكث المني في الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس فعرج به إلى الرب فيقول: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضي الله ما هو قاض فيقول أشقي أم سعيد؟ فيكتب ما هو لاق»، وقرأ أبو ذر من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}".

وتروى عن ابن رزين: «فأحسن صورِكم»، بكسر الصاد، وهي لغة.

قوله تعالى: {وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} [غافر: ٦٤]، أي:"وأنعم عليكم بحلال الرزق ولذيذ المطاعم والمشارب".

قال الطبري: "يقول: ورزقكم من حلال الرزق، ولذيذات المطاعم والمشارب".

قال ابن كثير: "أي: من المآكل والمشارب في الدنيا. فذكر أنه خلق الدار، والسكان، والأرزاق- فهو الخالق الرازق، كما قال في سورة البقرة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١، ٢٠]".

قال مقاتل بن حيان: "{مِنَ الطَّيِّبَاتِ}، يعني: الحلال من الرزق".

قال السدي: "يقول جعل رزقكم أطيب من رزق الدواب والطير والجن".

قال الواحدي: "يعني: من غير رزق الدواب".

قوله تعالى: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ} [غافر: ٦٤]، أي:"ذلكم الذي أنعم عليكم بهذه النعم هو ربكم".

=

=

قال الطبري: يقول: " فالذي فعل هذه الأفعال، وأنعم عليكم أيها الناس هذه النعم، هو الله الذي لا تنبغي الألوهة إلا له، وربكم الذي لا تصلح الربوبية لغيره، لا الذي لا ينفع ولا يضر، ولا يخلق ولا يرزق".

قوله تعالى: {فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [غافر: ٦٤]، أي:"فتكاثر خيره وفضله وبركته، وتنزَّه عمَّا لا يليق به، وهو ربُّ الخلائق أجمعين".

قال الطبري: " يقول: فتبارك الله مالك جميع الخلق جنهم وإنسهم، وسائر أجناس الخلق غيرهم".

قال ابن كثير:"أي: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم".

قال ابن ابي زمنين:"تبارك: من البركة".

وفي قوله تعالى: {رَبِّ الْعَالَمِينَ}، وجوه:

أحدها: أن «العالمين»: ألف أمة، فستمائة في البحر وأربعمائة في البر. رواه مغيث بن شمس عن تبيع.

الثاني: أن «رب العالمين»: ما وصف من خلقه. قاله قتادة.

الثالث: أن «رب العالمين»: الجن والإنس، وهذا قول مجاهد.

قال العثيمين: قوله تعالى: {الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء} الجملة {الله} مبتدأ، و {الذي} خبره يعني: الله هو الذي {جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء} إلى آخره {جعل لكم} هذه من أفعال التصيير؛ أي: صير لكم، و {قرارا} بمعنى: ذات قرار؛ أي: مستقر و {والسماء بناء}؛ أي: فوق، وقد بين الله تعالى في آية أخرى أنه سقف، فالله جعل الأرض قرارا، أي: مستقرة.

وهل معنى هذا القرار أنها لا تتحرك أو أنها لا تميد بنا؟

يقال: القرآن يفسر بعضه بعضا فقد قال الله سبحانه وتعالى: {وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا} [النحل: ١٥]، فبين أن المراد بالقرار أنها لا

=

=

تميد بساكينها؛ أي: لا تضطرب، وليس المعنى أنها قارة لا تتحرك، كما سيأتي -إن شاء الله- في الفوائد.

وقوله ﷻ: {والسماء بناء}؛ أي: سقفا عاليا، والمراد بالسماء هنا أي: السموات ذات الأجرام، وذلك؛ لأن السماء يطلق على معنيين، المعنى الأول العلو، والمعنى الثاني السماء السقف، والذي يعين أحد المعنيين هو السياق.

فقول الله تعالى: {أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها} [الرعد: ١٧] المراد بالسماء هنا العلو، لأن المطر ليس ينزل من ذات السماء السقف، بل ينزل من العلو، ويدل لذلك قوله سبحانه وتعالى: {والسحاب المسخر بين السماء والأرض} [البقرة: ١٦٤]، فالسماء هنا بمعنى ذات السقف، والمطر ينزل من السحاب، فإذا كان مسخرا بين السماء والأرض اقتضى ذلك ألا يكون المطر ينزل من السماء ذات السقف، ولكنه ينزل من السماء التي بمعنى العلو، والذي معنا هنا {والسماء بناء} المراد به السماء ذات السقف {وصوركم فأحسن صوركم}؛ أي: جعلكم على صورة معينة، والصورة هي الشكل، فشكل الآدمي هو أحسن شكل في المخلوقات، وأحسنه وأقومه {لقد خلقنا الإنسان في كبد} [البلد: ٤]، {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم} [التين: ٤]، فلا صورة أحسن من صورة الآدمي، ولا شكل أحسن من شكله؛ ولهذا قال: {فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات} فبين الله في هذه الآية أربعة أشياء، الأرض التي هي محل السكنى، والسماء التي هي محل الظل، والتصوير الذي هو الهيكل الإنساني، والإمداد لهذا الهيكل وهو قوله: {ورزقكم من الطيبات}.

وقوله: {ورزقكم}؛ أي: أعطاكم و {الطيبات} هنا ما طاب ولذ، واعلم أن الطيب تارة يراد به الحلال، وتارة يراد به الحسن، وتارة يراد به اللذيذ، ويعين ذلك السياق، فقول الله تعالى: {ليميز الله الخبيث من الطيب} المراد بـ {الطيب} هنا

=

هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

=

الحسن، والمراد بـ {الخبيث} الرديء، والمراد بقوله تعالى: {كلوا من طيبات ما رزقناكم} المراد بها الحلال؛ لقوله: {واشكروا لله}؛ لأنه لو قيل: المراد اللذيذ لكان قوله: {واشكروا لله} لا معنى له، ولا يمكن إقامة الشكر إلا إذا تناول الإنسان الشيء الحلال، والمراد بقوله هنا: {من طيبات} المراد بها ما طاب ولذ، وإنما قلنا بذلك؛ لأن رزق الله ﷻ بالمعنى العام يشمل الحلال والحرام؛ ولهذا نقول: إن الإنسان إذا اكتسب مالا محرما عن طريق الربا مثلا فإنه مرزوق لا شك، لكنه رزق فيه التبعة.

وقوله: {ذلكم الله ربكم} {ذلكم الله} اسم الإشارة مبتدأ، وما بعده عطف بيان أو نعت، و (رب) خبر المبتدأ يعني: هذا الذي أمدكم بهذه الأشياء الأربع هو الله لا أحد غيره، وقوله: {ربكم} يعني: جل وعلا رب عباده الذي هو الخالق المالك المدبر؛ لأن الرب يجمع ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير.

وقوله: {فتبارك الله رب العالمين} {فتبارك} قيل: معناه:

تعالى وتعاظم، وهذا المعنى قريب، ولكن فيه أن (تبارك) أخص من ذلك، ومعنى (تبارك)؛ أي: أنه ذو البركة العظيمة الثابتة؛ ولهذا لا يطلق على غير الله بهذا المعنى أي: بمعنى أنه ذو البركة العظيمة الثابتة؛ لأن هذا الوصف لا يليق إلا بالله ﷻ، وأما ما يقوله بعض الناس -كما سيأتي إن شاء الله في الفوائد- فسنتكلم عليه.

وقوله: {رب العالمين} {رب} هذه عطف بيان أو صفة للفظ الجلالة، والعالمون كل من سوى الله، كل الخلق عالمون، وسموا بذلك؛ لأنهم عالم على خالقهم، ففي كل الخلق آية من آيات الله، كما قيل:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

والربوبية هنا الربوبية العامة؛ لأنه أضافها إلى العالمين، فهي عامة شاملة.

(٦٥).

{هُوَ الْحَيّ لَا إِلَه إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ} اعبدوه {مخلصين له الدين} من الشرك {الحمد لله رب العالمين[١]}.

---

(١) قوله تعالى: {هُوَ الْحَيُّ} [غافر: ٦٥].

قال الطبري: "يقول: هو الحي الذي لا يموت، الدائم الحياة، وكل شيء سواه فمنقطع الحياة غير دائمها".

قال ابن كثير:"أي: هو الحي أزلا وأبدًا، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن".

قوله تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [غافر: ٦٥]، أي:"لا إله غيره".

قال الطبري:"يقول: لا معبود بحق تجوز عبادته، وتصلح الألوهة له إلا الله الذي هذه الصفات صفاته".

قال ابن كثير:"أي: لا نظير له ولا عديل له".

قال محمد بن إسحاق:"لا إله إلا هو، أي: ليس معه غيره شريك في أمره".

عن ابن عباس قوله: " {لا إله إلا هو} ، قال: توحيد".

عن كعب، قال:"لا إله إلا الله: كلمة الإخلاص".

قوله تعالى: {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [غافر: ٦٥]، أي:"فاسألوه واصرفوا عبادتكم له وحده، مخلصين له دينكم وطاعتكم".

قال الطبري: يقول:"فادعوه أيها الناس مخلصين له الدين، مخلصين له الطاعة، مفردين له الألوهة، لا تشركوا في عبادته شيئا سواه، من وثن وصنم، ولا تجعلوا له ندا ولا عدلا".

قال ابن كثير:"أي: موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو".

قال أبو العالية:"أسس الدين على الإخلاص لله وحده لا شريك له".

=

=

قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [غافر: ٦٥]، أي:"فالحمد لله والثناء الكامل له رب الخلائق أجمعين".

قال الطبري:"يقول: الشعر لله الذي هو مالك جميع أجناس الخلق، من ملك وجن وإنس وغيرهم، لا للآلهة والأوثان التي لا تملك شيئا، ولا تقدر على ضرّ ولا نفع، بل هو مملوك، إن ناله نائل بسوء لم يقدر له عن نفسه دفعًا".

قال كعب:"«الحمد لله»: ثناء على الله".

قال الضحاك:"«الحمد لله»: رداء الرحمن".

قال ابن عباس:"من قال لا إله إلا الله، فليقل على إثرها: الحمد لله ربّ العالمين، فذلك قوله: {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين}".

قال سعيد بن جبير:"إذا قال أحدكم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فليقل: الحمد لله ربّ العالمين، ثم قال: {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}".

قال العثيمين: قوله تعالى: {هو الحي لا إله إلا هو} {هو الحي} جملة خبرية تفيد الحصر وهذا الحصر حصر إضافي؛ لأن المراد بـ {الحي} هنا الحي حياة كاملة، أما مطلق الحياة فيكون فيه وفي غيره؛ كما قال تعالى: {الذي خلق الموت والحياة} [الملك: ٢] أما الحياة الكاملة فهي لله ﷻ.

وقوله: {لا إله إلا هو} (لا) نافية للجنس، و (لا) النافية للجنس نص في العموم، و {إله} بمعنى: مألوه؛ لأن فعالا يأتي بمعنى: مفعول في اللغة العربية، وله شواهد كثيرة: مثل: غراس، وبناء، وفراش، وما أشبهها.

إذن: {إله} بمعنى: مألوه، والمألوه معناه: الذي تألهه القلوب محبة وتعظيما؛ أي: تهواه وتميل إليه؛ محبة له وتعظيما له، فبالمحبة يكون فعل المأمور، وبالتعظيم يكون ترك المحظور.

=

=

وقوله ﷻ: {إلا هو} (إلا) أداة حصر، والحصر إثبات الحكم في المحصور فيه، ونفيه عما سواه، وإذا كان الأمر كذلك بقي فيه إشكال؛ أنك إذا قلت: {لا إله إلا هو} وقلت: إن ذلك للحصر، ورد على قلبك، أو أورد عليه أن هناك آلهة دون الله بنص القرآن، كما قال تعالى: {فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله} [هود: ١٠١]، وقال تعالى: {ولا تدع مع الله إلها آخر} [القصص: ٨٨].

والجواب عن ذلك أن يقال: إن خبر (لا) محذوف، وتقديره (حق)، أي: لا إله حق إلا الله، وإذا كان هذا هو التقدير لم يرد الإشكال الذي ذكرنا؛ لأن الآلهة التي سوى الله كلها باطلة، كما قال تعالى: {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير} [الحج: ٦٢].

وما قررناه هنا في هذه الكلمة -كلمة الإخلاص- هو الذي تطمئن إليه النفس، وإلا قد اختلف فيه العلماء -علماء العربية، وعلماء التوحيد- على أقوال متعددة تبلغ نحو ستة أقوال، ومما ذكر أن الخبر محذوف تقديره موجود، لا إله موجود، وهذا لا شك أنه باطل؛ لأنك إذا قلت: لا إله موجود إلا الله. لزم من ذلك أن تكون الآلهة التي تعبد من دون الله هي الله، وأن تكون عبادتها حقا، وألوهيتها حقا. إذن: المتعين ما دل عليه القرآن أن الخبر محذوف تقديره (حق)؛ لقوله تعالى: {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل}.

قال سبحانه وتعالى: {فادعوه مخلصين له الدين} [غافر: ٦٥].

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فادعوه} اعبدوه {مخلصين له الدين}]، وهذا التفسير يعتبر قاصرا؛ لأن المراد بالدعاء هنا دعاء العبادة ودعاء المسألة، فالذي يدعى دعاء مسألة هو الله، والذي يدعى دعاء عبادة هو الله.

كأن المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ اقتصر على العبادة، لقوله: {مخلصين له الدين}؛ لأن الدين هو العمل، ولكن يقال: إن الدعاء من العمل، ولا بد فيه من إخلاص، فالصواب أن

=

=

قوله: {فادعوه}؛ أي: اعبدوه واسألوه، فهو دعاء عبادة ودعاء مسألة.

إذا قال قائل: دعاء المسألة واضح أنه دعاء، تقول مثلا: يا رب اغفر لي، يا رب يسر أمري وإخواني المسلمين؛ لكن كيف كانت العبادة دعاء؟.

فالجواب: العابد يدعو الله بلسان الحال؛ لأنك لو سألته لماذا عبدت الله لقال: أرجو ثوابه، وأخشى عقابه. إذن فهو داع بلسان الحال، {فادعوه مخلصين له الدين} {مخلصين} اسم فاعل، وفعله: أخلص، ومعنى أخلص، أي: نقى الشيء من غيره، أخلصه يعني: جعله خالصا لا شائبة فيه، إذن فمعنى مخلصين؛ أي: منقين العبادة والدعوة له وحده.

فإن قال قائل: التفريق بين دعاء المسألة ودعاء العبادة، أليس جميع الدعاء يعتبر من العبادة؟

فالجواب: بلى، لكن فرق بين أن أقوم أصلي، أو أقول: يا رب اغفر لي، الثاني سؤال صريح.

والعبادة سميت دعاء؛ لأن العابد يريد الثواب والنجاة من العقاب، فهو داع بلسان الحال. أما الدعاء الصريح فهو بلسان المقال: اللهم اغفر لي وارحمني، وما أشبه ذلك.

والكل يطلق على العبادة، لكن هذا عبادة، والدعاء عبادة؛ لأنك تتعبد لله، وتتذلل له بالسؤال، والعبادة معروفة، وكلها أيضا يسمى مسألة؛ لأن العابد سائل.

قوله: {له الدين}، الدين يطلق في القرآن الكريم على معنيين: المعنى الأول العمل، والمعنى الثاني الجزاء، فمن الأول قوله سبحانه وتعالى: {لكم دينكم ولي دين} [الكافرون: ٦]، ومن الثاني قوله تعالى: {مالك يوم الدين} [الفاتحة: ٤]؛ لأن يوم القيامة لا عمل فيه، فيوم الدين يعني: يوم الجزاء، والمراد به هنا {مخلصين له الدين} العمل {مخلصين له الدين}؛ أي: مخلصين له عملكم،

=

=

وهو الدعاء.

وقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [من الشرك] متعلق بـ {مخلصين}؛ أي: منقين له من الشرك؛ بحيث لا يكون في عملكم إشراك.

وقوله سبحانه وتعالى: {الحمد لله رب العالمين} هذه جملة تتضمن الثناء على الله عَزَّوَجَلَّ بعموم ربوبيته، والحمد مصدر حمد يحمد حمدا، وهو -أعني: الحمد- وصف المحمود بالكمال على وجه المحبة والتعظيم.

فقولنا: "وصف المحمود بالكمال" خرج به القدح؛ لأن القدح وصف الموصوف بالنقص.

وقولنا: "على وجه المحبة والتعظيم خرج به المدح"؛ لأن المدح المجرد قد لا يكون للمحبة ولا للتعظيم، قد يكون للخوف، فربما يمدح الرجل سلطانا جائرا لا لمحبته ولا لتعظيمه، ولكن للخوف منه، أما الحمد فلا يصدر إلا عن محبة وتعظيم.

وقوله ﷺ: "ليس أحد أحب إليه المدح من الله" المراد بالمدح هنا الحمد.

وقوله: {لله} اللام هنا للاختصاص والاستحقاق، للاختصاص لأن الحمد المطلق لا يصح إلا لله وحده، والاستحقاق لأن المستحق للحمد حقيقة هو الله عَزَّوَجَلَّ، المخلوق وإن استحق الحمد لكنه ليس استحقاقا حقيقيا؛ لأن كل شيء يأتيك من المخلوق، أو كل كمال في المخلوق فمن الله، فأنا أحمد المخلوق عندما يحسن إلي، أو عندما أرى فيه صفات كمال أحمده، لا لأنه هو المستقل بذلك ولكن لأنه السبب.

إذن: اللام هنا {لله} للاستحقاق والاختصاص.

وقوله: {رب العالمين} الرب هو الخالق المالك المدبر، يعني: كلمة (رب) المضافة إلى الله عَزَّوَجَلَّ أو التي وصف بها الله تتضمن ثلاثة معان: الخلق، والملك،

=

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦).

{قُلْ إِنِّي نُهِيت أَنْ أَعْبُد الَّذِينَ تَدْعُونَ} تَعْبُدُونَ {مِنْ دُون الله لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَات} دلائل التوحيد {من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين}(١).

=

والتدبير، فالله ﷻ هو الخالق لكل شيء، وهو المالك لكل شيء، وهو المدبر لكل شيء، حتى المشركون يقرون بهذا {قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل} [يونس: ٣١].

وقوله: {العالمين} قال العلماء: العالم كل من سوى الله، وسموا عالما؛ لأنهم علم على خالقهم جل وعلا، إذ إن في كل شيء من هذه المخلوقات آية تدل على عظمة الرب وقدرته، وغير ذلك مما تقتضيه معاني الربوبية.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة قا لا: يا محمد! ارجع عما تقول، وعليك بدين آبائك وأجدادك؛ فأنزل الله -تعالى-: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٠٤)، و"لباب النقول" (ص ١٨٧).

وسنده ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: جويبر؛ متروك الحديث.

الثانية: الانقطاع؛ جويبر روى التفسير عن ابن عباس من طريق الضحاك، وهو لم يسمع من ابن عباس.

* قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جَاءَنِيَ

=

=

الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي} [غافر: ٦٦].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك من قريش {إِنِّي نُهِيتُ} أيها القوم {أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} من الآلهة والأوثان لما جاءني الآيات الواضحات من عند ربي، وذلك آيات كتاب الله الذي أنزله".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: نهاني ربي أن أعبد الذين تعبدون من دون الله من الأصنام، حين جاءني الواضحات، وهو القرآن".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ينهى أن يُعْبَد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان".

قال البغوي:"وذلك حين دعي إلى الكفر".

قال الزجاج:"كانوا يعبدون الأصنام، وقالوا: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}، فأعلم الله ﷻ أنه لا يُعبَدُ غَيرُه".

قال الماتريدي:"كان الكفرة دعوا رسول الله- ﷺ- إلى عبادة ما عبدوا هم من الأصنام، فقال: إني نهيت عن ذلك".

قوله تعالى: {وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [غافر: ٦٦]، أي:"وأمرني أن أخضع وأنقاد بالطاعة التامة له، سبحانه رب العالمين".

قال الطبري: " يقول: وأمرني ربي أن أذلّ لربّ كلّ شيء، ومالك كلّ خلق بالخضوع، وأخضع له بالطاعة دون غيره من الأشياء".

قال الماتريدي:"أي: أمرت أن أجعل الخلق وكل شيء لله سالمًا خالصًا لا أشرك فيه غيره".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: أستقيم على التوحيد".

قال السمعاني:"أي: أستسلم وأنقاد لحكمه".

=

=

قال العثيمين: قوله تعالى: {قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله} [غافر: ٦٦] إلى آخره.

{قل} الخطاب للنبي ﷺ وعلى آله وسلم، يخاطب المشركين، أمر أن يخاطب المشركين فتقول: {إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله}، وقوله: {إني نهيت} الجملة هنا مؤكدة بـ (إن)، و {نهيت} فعل ماض مبني لما لم يسم فاعله، وحذف الفاعل للعلم به، كما قال تعالى: {وخلق الإنسان ضعيفا} [النساء: ٢٨]، حذف الفاعل للعلم به، لأنه لا أحد ينازع في أن الخالق هو الله.

وهنا المسألة مسألة شرعية نهي، فلا نزاع في أن الذي له الأمر والنهي هو الله، كما أنه الذي له الخلق. إذن يكون الناهي هو الله ﷻ، والنهي: طلب الكف على وجه الاستعلاء بصيغة المضارع المقرون بـ (لا) الناهية، هذا تعريف النهي في أصول الفقه.

فقولنا: "طلب الكف" خرج به الأمر، وخرج به المباح.

وقولنا: "على وجه الاستعلاء" خرج به الدعاء، مثل: {ربنا لا تؤاخذنا}، لأننا لا ندعو الله على وجه الاستعلاء، بل على وجه الاستضعاف، نستضعف أنفسنا أمام الله ﷻ.

وخرج بقولنا: "بصيغة المضارع المقرون بـ (لا) الناهية" خرج به نحو قولك: انته عن كذا، اجتنب كذا، هذا نهي لكنه ليس نهيا اصطلاحيا، بل هو أمر بالاجتناب.

فلو قال لك قائل: اجتنب الرجس من الأوثان. فهذا أمر باجتنابه الرجس من الأوثان، لكن إذا قلت: لا تقرب الرجس من الأوثان. صار نهيا.

فائدة: النهي المعنوي غير النهي الاصطلاحي، {فاجتنبوا الرجس من الأوثان} [الحج: ٣٠] هذا ليس نهيا اصطلاحيا، فالنهي في الاصطلاح هو طلب الكف على

=

=

وجه الاستعلاء بصيغة المضارع المقرون بـ (لا) الناهية، هذا تعريفه عند العلماء، أما النهي بمعنى العام فهو ما دل على نهي، حتى الاستفهام بمعنى الإنكار يدل على النهي، حتى لو قلت لواحد فعل شيئا غير مرغوب فيه: أتفعل هذا؟ مع أنك مستفهم الآن، لكنه متضمن للنهي، نحن لا نتكلم عن الاصطلاح، تعريفه اصطلاحا وارد، ولسنا نتكلم عما يفيد النهي، {فاجتنبوا الرجس} لو قلت: إن هذا نهي. قلنا: غلط، بل نقول: هذا أمر بالاجتناب.

فقوله: {نهيت} هذه صيغة فعل ماض، لكن ليست صيغة نهي، إخبار بأنه نهي، فما صيغة النهي؟ ! فالنهي بالصيغة المصطلح عليه هو طلب الكف على وجه الاستعلاء بصيغة المضارع المقرون بـ (لا) الناهية، هذا النهي، وأما ما دل على النهي بغير هذه الصيغة فهو لا يسمى نهيا اصطلاحا، وإن كان نهيا بالمعنى، ولكن ليس نهيا بالاصطلاح.

وقوله ﷻ: {نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله} {أن أعبد} العبادة هي التذلل للمعبود محبة وتعظيما.

وقوله: {الذين تدعون من دون الله}.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [تعبدون {من دون الله}]، وهذا أيضا فيه شيء من القصور، والصواب أن المراد تدعون؛ أي: تعبدون وتسألون؛ لأن من المشركين من يسألون أصنامهم، ويتذللون لها بالسؤال، فهي أعم مما ذكره المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: {نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله}.

وقوله: {من دون الله}؛ أي: من سوى الله.

وقوله: {لما جاءني البينات من ربي} {لما} ظرف زمان بمعنى: حين، و (لما) تأتي في اللغة العربية على أربعة أوجه:

الوجه الأول: أن تكون بمعنى (حين) كما في هذه الآية.

=

=

والوجه الثاني: أن تكون بمعنى (إلا) كما في قوله تعالى: {إن كل نفس لما عليها حافظ} [الطارق: ٤]، معنى {لما عليها حافظ}: إلا عليها حافظ.

الوجه الثالث: أن تكون أداة جزم كقوله تعالى: {بل لما يذوقوا عذاب} [ص: ٨] أي: بل لم يذوقوا عذابي، ولكنه قريب.

الوجه الرابع: أن تكون حرف وجود لوجود؛ كقولك: لما جاء زيد جاء عمرو.

وقوله ﷻ: {لما جاءني البينات من ربي} أي: حين جاءني، والبينات صفة لموصوف محذوف للعلم به، والتقدير: الآيات البينات.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دلائل التوحيد] والمعنى أعم مما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بل هي دلائل التوحيد، ودلائل القدرة، ودلائل السمع والبصر، وغير ذلك.

المهم: أنه جاءه البينات من الله سبحانه وتعالى وأنتم ترون في القرآن العزيز كلمة البينات دائما محذوف موصوفها، وذلك للعلم به، والشيء المعلوم يجوز حذفه كما قال ابن مالك في الألفية:

وحذف ما يعلم جائز.............

وهذه قاعدة عامة في كل شيء، ليس في المبتدأ والخبر فقط، بل في كل شيء.

وقوله: {من ربي} متعلق بـ (جاء) أي: جاءني من الله ﷻ، ولكنه ذكره باسم ربوبية؛ لأن هذه ربوبية خاصة يربي بها الله ﷻ أنبياءه ورسله.

{وأمرت} مقابل: {نهيت}، {نهيت أن أعبد} {وأمرت أن أسلم لرب العالمين} الآمر الله، والأمر طلب الفعل على وجه الاستعلاء بصيغة الأمر، أو غيرها مما يدل على الأمر.

وقوله: {أن أسلم} {وأن} مصدرية، و {أسلم} فعل مضارع منصوب بها، ومعنى {أن أسلم}: أستسلم لرب العالمين، والمراد بالإسلام هنا الإسلام الشرعي؛ لأنه هو الذي بطاقتنا، وهو الذي يمكن أن نفعله أو لا نفعله، وهو الذي لا يكون إلا

=

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧).

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَاب} بِخَلْقِ أَبِيكُمْ آدَم مِنْهُ {ثُمَّ مِنْ نُطْفَة} مَنِيّ {ثُمَّ مِنْ عَلَقَة} دَم غَلِيظ {ثُمَّ يُخْرِجكُمْ طِفْلًا} بِمَعْنَى أَطْفَالًا {ثُمَّ} يُبْقِيكُمْ {لِتَبْلُغُوا

=

من المؤمن.

أما الإسلام الكوني فليس بطاقتنا ولا يمكننا أن ندافعه، ويكون من المؤمن والكافر.

إذن: يتبين لنا أن الإسلام يأتي على وجهين أو له معنيان:

المعنى الأول: الإسلام الكوني.

والثاني: الإسلام الشرعي، فالإسلام الكوني القدري، والثاني الإسلام الشرعي الديني.

فمن الأول قوله سبحانه وتعالى: {أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون} [آل عمران: ٨٣] الإسلام هنا كوني؛ لأنه قال: {طوعا وكرها} والإسلام الشرعي لا يكون بالإكراه، والإسلام الشرعي لا يكون عاما لكل شيء، فالإسلام هنا كوني قدري، وهنا قوله: {أن أسلم} المراد به الإسلام الشرعي الديني، يعني: {أن أسلم}؛ أي: أستسلم تعبدا وتذللا لله ﷻ.

وقوله: {لرب العالمين} نقول فيها ما قلنا في مثل الآيات السابقة، لكن لو قال قائل: لماذا لم يقل: أن أسلم لله؟ قلنا: ليكون ذلك دليلا على وجه الإسلام يعني: لماذا أسلمت؟ لأن الله رب العالمين، ورب العالمين أحق أن يسلم له، وأن يتعبد له ﷻ، فهو كالدليل للحكم السابق الذي هو الإسلام.

أَشُدّكُمْ} تَكَامُل قُوَّتكُمْ مِنْ الثَّلَاثِينَ سَنَة إلَى الْأَرْبَعِينَ {ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا} بِضَمِّ الشِّين وَكَسْرهَا {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْل} أَيْ قَبْل الْأَشُدّ وَالشَّيْخُوخَة فَعَلَ ذَلِكَ بِكُمْ لِتَعِيشُوا {وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى} وَقْتًا مَحْدُودًا {وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} دَلَائِل التَّوْحِيد فَتُؤْمِنُونَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ} [غافر: ٦٧].

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره آمرًا نبيه محمدا ﷺ بتنبيه مشركي قومه على حججه عليهم في وحدانيته: قل يا محمد لقومك: أمرت أن أسلم لرب العالمين الذي صفته هذه الصفات. وهي أنه خلق أباكم آدم {مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ} خلقكم {مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ} بعد أن كنتم نطفا".

قال السعدي:"قرر هذا التوحيد، بأنه الخالق لكم والمطور لخلقتكم، فكما خلقكم وحده، فاعبدوه وحده فقال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ} وذلك بخلقه لأصلكم وأبيكم آدم عليه السلام. {ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ} وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنساني، ما دام في بطن أمه، فنبه بالابتداء، على بقية الأطوار، من العلقة، فالمضغة، فالعظام، فنفخ الروح".

قوله تعالى: {ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} [غافر: ٦٧]، أي:"ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا".

قال الطبري: " من بطون أمهاتكم صغارا".

قوله تعالى: {ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ} [غافر: ٦٧]، أي:"ثم ينشأ أعماركم ويؤخرها لتبلغوا أشدكم من الكمال والقوة".

قال الطبري: " فتتكامل قواكم".

قال السعدي:"ثم هكذا تنتقلون في الخلقة الإلهية حتى تبلغوا أشدكم من قوة العقل والبدن، وجميع قواه الظاهرة والباطنة".

=

=

قال ابن أبي زمنين: "{ثم لتبلغوا أشدكم}: الاحتلام".

قوله تعالى: {ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا} [غافر: ٦٧]، أي: "ثم يمد في آجالكم لتكونوا شيوخا".

قال ابن كثير: "أي: هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها، وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله".

قال ابن أبي زمنين: "يعني: من يبلغ حتى يكون شيخا".

قال قتادة: "يثغر الْغُلَام لسبع ويحتلم لأربعة عشر وَيَنْتَهِي طوله لإحدى وَعشْرين وَيَنْتَهِي عقله لثمان وَعشْرين ويبلغ أشده لثلاث وَثَلَاثِينَ".

قوله تعالى: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ} [غافر: ٦٧]، أي: "ومنكم من يموت قبل ذلك".

قال الطبري: " {مِنْ قَبْلُ} أن يبلغ الشيخوخة".

قال مقاتل: "{مِنْ قَبْلُ} أن يكون شيخا".

قال يحيى: "{مِنْ قَبْلُ} أن يبلغ أرذل العمر".

قال السعدي: "{مِنْ قَبْلُ} بلوغ الأشد".

قال ابن كثير: "أي: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطا، ومنهم من يتوفى صغيرا، وشابا، وكهلا قبل الشيخوخة، كقوله: {لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [الحج: ٥]".

قوله تعالى: {وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى} [غافر: ٦٧]، أي: "ولتصلوا إلى الزمان الذي حُدِّد لكل شخصٍ وهو الموتَ".

قال مقاتل: "يعني: الشيخ والشاب جميعا".

قال الطبري: "يقول: ولتبلغوا ميقاتا مؤقتا لحياتكم، وأجلا محدودا لا تجاوزونه، ولا تتقدمون قبله".

=

=

قال السعدي:" {وَلِتَبْلُغُوا} بهذه الأطوار المقدرة {أَجَلا مُسَمًّى} تنتهي عنده أعماركم".

قوله تعالى: {وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [غافر: ٦٧]، أي:"ولعلكم تعقلون حجج الله عليكم بذلك، وتتدبرون آياته، فتعرفون أنه لا إله غيره يفعل ذلك، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له".

قال الطبري: " يقول: وكي تعقلوا حجج الله عليكما بذلك، وتتدبروا آياته فتعرفوا بها أنه لا إله غيره فعل ذلك".

قال مقاتل:"يقول: لكي تعقلوا آثار ربكم في خلقكم بأنه قادر على أن يبعثكم كما خلقكم".

قال السعدي:" {وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} أحوالكم، فتعلمون أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأنكم ناقصون من كل وجه".

قال البغوي:"أي: لكي تعقلوا توحيد ربكم وقدرته".

عن ابن جريج: {وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، قال: " تتذكرون البعث".

قال مقاتل في الآية:"وذلك أن كفار مكة كذبوا بالبعث فأخبرهم الله عن بدء خلقهم ليعتبروا في البعث".

قال العثيمين: قوله تعالى: {هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة} إلى آخره {خلقكم} أي: ابتدأ خلقكم، والخلق بمعنى: الإيجاد مع التقدير، قال الشاعر:

فلأنت تخلق ما تقول وبعض ... الناس يخلق ثم لا يفري

فهو إيجاد بتقدير.

{من تراب} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بخلق أبيكم آدم منه]، فالأصل أننا من تراب من هذه الأرض {منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى} [طه:

=

٥٥]، فالأرض هي الأول والآخر بالنسبة لبني آدم إلى يوم البعث.
{ثم من نطفة} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مني]، وهذا باعتبار نسل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ {ثم من علقة} هذا الطور الثالث، والثاني باعتبار نسل آدم، والعلقة قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [دم غليظ]، مثل الخيط {ثم يخرجكم طفلا}، وطوى الله تعالى ذكر المضغة، وإنشاء الخلق الآخر إلى قوله: {ثم يخرجكم طفلا}؛ قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بمعنى: أطفالا]، وإنما قال: [بمعنى: أطفالا]؛ لأنها حال من الكاف في {يخرجكم} وهي جمع، وطفل مفرد، وعلى هذا فيتعين أن يكون (طفل) بمعنى: (أطفالا)، وقيل: إن {طفلا} بمعنى المفرد، وأن المعنى: ثم يخرج كل واحد منكم طفلا. فيكون {يخرجكم} جمعا باعتبار المجموع؛ أي: أن كل واحد منا يخرج طفلا، وعلى هذا فلا حاجة إلى تأويل طفل بمعنى: أطفال.
{ثم لتبلغوا أشدكم} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ثم يبقيكم لتبلغوا] وإنما قدر ذلك؛ لأن اللام تحتاج إلى متعلق، وعلى هذا فمتعلقها محذوف، والتقدير: ثم يبقيكم {لتبلغوا أشدكم} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [تتكامل قوتكم من الثلاثين سنة إلى الأربعين]، هذا بلوغ الأشد، أقوى ما يكون الإنسان من ثلاثين سنة إلى أربعين، ثم يبدأ بالانحدار شيئا فشيئا، ولكن قد يكون هناك عوامل توجب أن تبقى قوته مدة من الزمن أكثر، وقد تكون هناك عوامل توجب أن تنهدم قوته قبل تمام الأربعين، لكن في الأصل أنه إذا تم الإنسان أربعين سنة بدأ بالضعف.
{ثم لتبلغوا أشدكم} أي: كامل قوتكم، {ثم لتكونوا شيوخا} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بضم الشين وكسرها] يعني: {شيوخا} و"شيوخا" والقراءتان سبعيتان. وهذه طريق المفسر إذا ذكر الوجهين جميعا فمعناه أن القراءتين سبعيتان.
{ثم لتكونوا شيوخا} يعني: كبارا. يعني: تبلغوا سن الشيخوخة، {ومنكم من يتوفى من قبل}. قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: قبل الأشد والشيخوخة، فعل ذلك بكم

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨).

{هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت فَإِذَا قَضَى أَمْرًا} أَرَادَ إِيجَاد شَيْء {فَإِنَّمَا يَقُول لَهُ كُنْ فَيَكُون} بِضَمِّ النُّون وَفَتْحهَا بِتَقْدِيرِ أَنْ أَيْ يُوجَد عَقِب الْإِرَادَة الَّتِي هِيَ مَعْنَى الْقَوْل المذكور[1].

=

لتعيشوا {ولتبلغوا أجلا مسمى}]. والمفسر رَحِمَهُ اللهُ يقدر ذلك لوجود حرف العطف، وهو قوله: {ولتبلغوا أجلا مسمى}، ولعل {أجلا مسمى} قال المفسر: [وقتا محدودا]، والمسمى بمعنى: المعين، وهو بمعنى: المحدود {ولعلكم تعقلون}؛ أي: تكونوا من ذوي العقول، وتفهموا حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ في تقديره وتشريعه.

فأنتم ترون الآن أن القدر يكون فيه المقدر شيئا فشيئا حتى يكمل، وهكذا الشرع تكون فيه الشرائع شيئا فشيئا حتى تكمل، وهذه من سنة الله تعالى الكونية وسنته الشرعية؛ أن الأمور لا تأتي دفعة واحدة، بل تتطور حتى تبلغ الكمال، وهذا من حكمته البالغة.

وقوله: {ولعلكم تعقلون} ليس المراد بذلك عقل الإدراك، بل المراد بذلك عقل التدبير والرشد، لأن العقل عقلان: عقل إدراك تتوقف عليه التكاليف الشرعية؛ ولهذا يقال: من شروط صحة الصلاة العقل، والمراد به عقل الإدراك، وعقل التدبير والرشد، وهو حسن التصرف؛ ولهذا نقول: إن الكفار لا يعقلون، مع أنهم بالنسبة لعقل الإدراك أقوياء أشداء أذكياء، لكن عقل التدبير والتصرف هم خالون منه.

قوله: {ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون} في هذه الآيات بين الله سبحانه وتعالى منشأ بني آدم، وغاية بني آدم.

(١) قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} [غافر: ٦٨].

=

=

قال الطبري: " يقول قل لهم: ومن صفته جلّ ثناؤه أنه هو الذي يحيي من يشاء بعد مماته، ويميت من يشاء من الأحياء بعد حياته".

قال ابن كثير:"أي: هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه".

قال محمد بن إسحاق: {يحيي ويميت}، أي: يعجل ما يشاء ويؤخر ما يشاء، من ذلك بآجالهم بقدرته".

قوله تعالى: {فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [غافر: ٦٨]، أي:"فإذا قضى أمرًا فإنما يقول له: «كن»، فيكون، لا رادَّ لقضائه".

قال الطبري: " يقول: وإذا قضى كون أمر من الأمور التي يريد تكوينها {فَإِنَّمَا يَقُولُ} للذي يريد تكوينه كن، فيكون ما أراد تكوينه موجودا بغير معاناة، ولا كلفة مؤنة".

قال ابن كثير:"أي: لا يخالف ولا يمانع، بل ما شاء كان لا محالة".

قال أبو عبيدة: {وَإِذا قَضى أَمْرًا}، "أي: أحكم أمرا، قال أبو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما... داود أو صنع السّوابغ تبّع

أي: أحكم عملهما".

قال محمد بن إسحاق: " {إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون}، مما يشاء وكيف يشاء فيكون كما أراد".

عن الضحاك، قال: " {فإنما يقول له كن فيكون}، وهذا من لغة الأعاجم. وهي بالعبرية: أصنع".

عن ابن عباس: " {يقول له كن فيكون}، قال: فهو خلق الإنسان".

قال العثيمين: قوله تعالى: {هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} هذا كالأول جملة استئنافية تبين كمال قدرة الله ﷻ {هو الذي يحيي ويميت}؛ أي: يجعل الحياة في الميت، والموت في الحي، هو الذي يحيي ويميت

=

وحده، لا أحد يحيى ويميت؛ ولهذا قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام للذي حاجه في ربه: {قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب} [البقرة: ٢٥٨].

فلا يمكن أن يحيي أحد ميتا، ولا أن يميت حيا، فإن قيل: أليس عيسى ابن مريم يحيي الموتى؟ قلنا: بلى، ولكن بإذن الله بنفس الآية يحيي الموتى بإذن الله، فإن قيل: أليس الرجل يقتل الآخر وهو حي فيموت؟ قلنا: بلى، لكن ما فعله فهو سبب الموت، وليس هو الإماتة، وكثيرا ما تقطع أوداج الإنسان ويشق بطنه ثم يبقى حيا ويحيا.

فالحاصل: أن الإحياء والإماتة بيد الله سبحانه وتعالى، فإذا قضى أمرا أراد إيجاد شيء فيقول له: كن. فيكون، أمرا هنا بمعنى: شأن؛ أي: فهو واحد الأمور، وليس واحد الأوامر أي: إذا قضى شأنا من الشؤون فقدره فإنه لا يعجزه أن يوجده.

ونجيبه بالكلمة: {كن فيكون} {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون}؛ ولهذا فعيسى يوصف بأنه كلمة الله؛ أي: كان بكلمته.

فالحاصل: أنه إذا أراد شيئا، إذا قضى أمرا وقدره قال له: {كن فيكون}، وهل المراد الموجودات أو المعدومات أو الكل؟

الجواب: الكل حتى لو أراد إعدام شيء قال له: {كن} فينعدم، فقول المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [إيجاد شيء] لو زادها: "أو إعدامه" لكان خيرا؛ لأنه إذا قضى أمرا من إيجاد أو إعدام قال له: {كن فيكون}.

أما غير الله عَزَّ وَجَلَّ فلو أردت أن تهدم بيتا تبقى أياما وأنت تهدمه، لكن الله إذا أراد أن يهدم هذا البيت أو القرية كلها بكاملها ماذا يقول: كن. فيكون تنهدم، تكون هباء.

فإذن نقول: إذا قضى أمرا بإيجاد شيء أو إعدامه، {فإنما يقول له كن فيكون}، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {إنا كل شيء خلقناه بقدر} [القمر: ٤٩] كل شيء بقدر، الصغير

=

والكبير، المتعلق بأفعاله وأفعال عباده، كل شيء خلقه فهو بقدر {وما أمرنا إلا واحدة} ويتأخر المأمور؟

الجواب: {كلمح بالبصر} لمح البصر ليس شيء أسرع منه واحدة بدون تكرار.

{كن فيكون} الفاء للتعقيب، وقال تعالى في بعث الناس: {فإنما هي زجرة واحدة (١٣) فإذا هم بالساهرة} [النازعات: ١٣- ١٤] سبحان الله! ما أعظم قدرة الله! كلمة واحدة بها تكون الأشياء كلها، كما أراد الله ﷻ تكون كما أراد الله، ولينتبه للنقطة الأخيرة: "تكون كما أراد الله" وإن كان هذا المأمور لا يعلم به لكن لا بد أن يكون كما أراد الله؛ فلما قال القلم: ربي ماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، وماذا فعل؟ كتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، لأنه لا يعلم، لكن أمر فلا بد أن يمتثل، قال تعالى: {ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين} [فصلت: ١١]، لا إكراه، بل طوع.

إذن نقول: {وإذا قضى أمرا} أي: بإيجاد شيء، أو إعدام شيء {فإنما يقول له كن فيكون} الفاء في قول: {فإنما} رابطة للجواب -جواب إذا- وهي تدل على التعقيب، وقوله: {كن فيكون} بدون تأخير؛ لأن الفاء هنا للتعقيب، قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بضم النون وفتحها بتقدير (أن)].

إذن فيها قراءتان: {كن فيكون} "كن فيكون" فعلى القراءة الأولى تكون الفاء للاستئناف، وعلى الثاني تكون الفاء فاء السببية التي ينتصب بعدها الفعل، وهي معروفة في علم النحو، قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بتقدير (أن) أي: يوجد عقب الإرادة التي هي معنى القول المذكور]، اللهم اعف عن هذا المفسر، يقول: عقب الإرادة التي هي بمعنى القول المذكور، يريد أن ينفي بذلك القول يعني: أن قوله: {فإنما يقول له كن فيكون} إنما يريد أن يقول؛ لأنه عفا الله عنه. يريد أن ينفي قول الله ﷻ فإن مذهبه مذهب الأشاعرة الذين يقولون: إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس،

=

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩).

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَات الله} الْقُرْآن {أَنَّى} كَيْفَ {يُصْرَفُونَ} عَنْ الْإِيمَان(١).

=

وليس شيئا يسمع، وليس توجيها يصدر إلى الموجه إليه، مع أن الآية صريحة {فإنما يقول له} قول صريح مصدر، نعم {كن فيكون} نقول: معنى {يقول له} على كلامه. أي: يريد أن يكون فكان، ولا شك أن هذا تحريف للكلم عن مواضعه، نسأل الله تعالى أن يعفو عمن حرفه بحسن نية، والمفسر لا نعتقد فيه - إن شاء الله- إلا الخير، لكنه أخطأ في هذا، والصواب أنه يقول قولا مسموعا يسمعه الموجه إليه، فيمتثل أمر الله ﷻ.

فإن قال قائل: البعض يقول: سبحان من أمره بين الكاف والنون، فهل هذا صحيح؟.

فالجواب: ليس بصحيح، فأمره بعد الكاف والنون {كن} فهو يكون بعد الكاف والنون. يعني: أمره هنا بمعنى: مأمور، فإن كان الأمر هو الفعل فهو قبل الكاف والنون، وإن كان الأمر هو مأموره فهو بعد الكاف والنون.

(١) قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ} [غافر: ٦٩].

قال الطبري:"يقول لنبيه محمد ﷺ ألم تر يا محمد هؤلاء المشركين من قومك، الذين يخاصمونك في حجج الله وآياته".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحق والباطل".

قال الواحدي:"يعني: القرآن أنه ليس من عند الله، وهم المشركون".

قال مقاتل:"يعنى: آيات القرآن أنه ليس من الله- ﷻ-".

قوله تعالى: {أَنَّى يُصْرَفُونَ} [غافر: ٦٩]، أي:"كيف يعدلون عنها مع صحتها؟

=

=

وإلى أيِّ شيء يذهبون بعد البيان التام؟".

قال الطبري:"يقول: أيّ وجه يصرفون عن الحق، ويعدلون عن الرشد".

قال ابن كثير:"كيف تُصرّف عقولهم عن الهدى إلى الضلال".

قال مقاتل:"يقول: من أين يعدلون عنه إلى غيره، يعنى: كفار مكة".

قال الواحدي:"كيف صرفوا عن دين الله، الذي هو الحق إلى الباطل؟".

قال السعدي:"أي: كيف ينعدلون عنها؟ وإلى أي شيء يذهبون بعد البيان التام؟ هل يجدون آيات بينات تعارض آيات الله؟ لا والله. أم يجدون شبهًا توافق أهواءهم، ويصولون بها لأجل باطلهم؟ فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم، بتكذيبهم بالكتاب، الذي جاءهم من الله، وبما أرسل الله به رسله، الذين هم خير الخلق وأصدقهم، وأعظمهم عقولا".

عن قتادة:"{أَنَّى يُصْرَفُونَ}: أنى يكذبون ويعدلون".

قال ابن زيد:"يُصْرَفون عن الحقّ".

واختلف أهل التأويل في الذين عنوا بهذه الآية، على قولين:

أحدهما: عنى بها أهل القدر. قاله محمد بن سيرين.

قال محمد بن سيرين:"إن لم يكن أهل القدر الذين يخوضون في آيات الله فلا علم لنا به".

عن عقبة بن عامر الجهني، أن رسول الله ﷺ قال:"سَيَهْلِكُ مِنْ أُمَّتِي أَهْلُ الكِتَابِ، وأَهْلُ اللِّينِ" فقال عقبة: يا رسول الله، وما أهل الكتاب؟ قال:"قَوْمٌ يَتَعَلَّمُونَ كِتابَ الله يُجادلُونَ الَّذينَ آمَنُوا"، فقال عقبة: يا رسول الله، وما أهل اللين؟ قال:"قَوْمٌ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ، ويُضَيِّعُونَ الصَّلَوَاتِ". قال أبو قبيل: لا أحسب المكذّبين بالقدر إلا الذين يجادلون الذين آمنوا، وأما أهل اللين، فلا أحسبهم إلا أهل العمود ليس عليهم إمام جماعة، ولا يعرفون شهر رمضان".

=

=

الثاني: عنى به أهل الشرك. قاله ابن زيد.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك ما قاله ابن زيد؛ وقد بين الله حقيقة ذلك بقوله: {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا}".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ألم تر} هذا الاستفهام للتقرير؛ لأن همزة الاستفهام إذا دخلت على النفي صارت مقررة له، فمعنى {ألم تر} أي: رأيت، والخطاب إما للرسول ﷺ وعلى آله وسلم، أو لكل من يصح أن يتوجه إليه الخطاب، وهذا الخطاب يرد كثيرا في القرآن.

وقد بينا أن الخطاب الموجه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أو الذي ظاهره أنه موجه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما هو مختص به قطعا.

القسم الثاني: ما هو عام له وللأمة قطعا.

والقسم الثالث: ما لا يتبين فيه هذا ولا هذا.

أما الأول: وهو الخاص بالرسول قطعا، فهو خاص به، ولا إشكال في ذلك مثل قوله تعالى: {ألم نشرح لك صدرك (١) ووضعنا عنك وزرك} [الشرح: ١- ٢]، {ألم يجدك يتيما فآوى (٦) ووجدك ضالا فهدى} [الضحى: ٦- ٧]، وما أشبهها، الخطاب هنا للرسول عليه الصلاة والسلام خاصة ولا يشمل الأمة.

وأما الذي له ولغيره قطعا، فمثل قوله تعالى: {ياأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن} [الطلاق: ١]، {ياأيها النبي إذا طلقتم النساء} لم يقل: إذا طلقت النساء. فدل هذا على أن الخطاب الخاص به له وللأمة؛ لأنه خاطبه أولا بالنداء، ثم وجه الخطاب إلى الأمة عموما فقال: {إذا طلقتم} فدل هذا على أن الخطاب الخاص به بالنداء ليس خاصا به، بل هو له وللأمة.

وأما ما ليس كذلك -يعني: ما ليس هذا ولا هذا- فقد اختلف فيه العلماء رحمهم

=

=

الله هل هو خطاب خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يشمل الأمة إلا حكما على سبيل التأسي به، أو أنه عام للرسول ﷺ ولغيره، ويكون الخطاب فيه لمن يصح خطابه، والخلاف في مثل هذا يكاد يكون لفظيا؛ لأن الجميع متفقون على أن هذا الحكم ثابت للرسول ولغيره، لكن إذا قلنا: إنه خاص. به صار بالنسبة لغيره عاما على وجه التأسي والقدوة، لكن الحكم لا يختلف في الواقع؛ لأنه إن لم يشمل الأمة لفظا فقد شملها حكما؛ للأمر بالتأسي به ﷺ وعلى آله وسلم، فهنا: {ألم تر إلى الذين يجادلون} مما يدخله الاحتمال أنه خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام، أو عام لكل من يتوجه إليه الخطاب.

{ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [القرآن] وهذا التفسير يعتبر قاصرا؛ لأن آيات الله أعظم من كونها كونية أو شرعية، وأعظم من كونها في القرآن، أو التوراة، أو الإنجيل، أو غيرها من الكتب المنزلة على الرسل، فالصواب أن نقول: في آيات الله الكونية والشرعية، وأولى ما يدخل فيها القرآن.

والمجادلة هي المنازعة مع الخصم من أجل صرفه عما كان عليه من المجادلة، مأخوذة من الجدل، وهو فتل الحبل حتى يحتكم ويكون قويا، هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله يجادلون الرسل وأتباعهم، فالمجادلة بين الرسل وأتباعهم كانت منذ أن أرسل الرسل إلى يومنا هذا، ولا تستغرب أن يوجد من يجادل في آيات الله عَزَّ وَجَلَّ في هذا الزمن؛ لأن هذا سنة الله عَزَّ وَجَلَّ منذ أرسل الرسل؛ قال الله تعالى: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين} [الفرقان: ٣١]، {لكل نبي عدوا من المجرمين}، وإذا كان له عدو من المجرمين فلا بد أن يجادل، وبالتالي أن يجالد بالسيوف، المجادلة في آيات الله الكونية أن ينكر أن يقول: الله هو الخالق. وقد وجد هذا فعلا، وجد من ينسب ما يحدث للكون إلى الأمور الطبيعية دون أن يكون لها مدبر وقال: هذه طبيعة تتفاعل وينتج منها ما يشاهد.

=

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠).

{الذين كذبوا بالكتاب} بالقرآن {وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا} مِنْ التَّوْحِيد وَالْبَعْث وهم كفار مكة {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} عُقُوبَة تَكْذِيبهمْ.

إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١).

=

ويوجد من يجادل في آيات الله الكونية بالأمور التي دون ذلك مثل أن يثبت شيئا من الأسباب لم يجعله الله سببا؛ كما يحدث لأهل الجاهلية من التشاؤم بالطيور والأماكن والأزمان، وما أشبه ذلك، فهم يتشاءمون في الأزمان بشهر صفر، يقولون: إن هذا الشهر شهر شر. يتشاءمون أيضا بالطير: بنوع الطير، أو بكيفية طيرانه، أو باتجاهه، أو ما أشبه ذلك، يتشاءمون أيضا بالأشخاص، يرى الإنسان الرجل أول ما يرى فيتشاءم به؛ حتى كان هذا موجودا إلى قريب عصرنا فيما يظهر؛ بعض الناس في جهة ما من المملكة إذا أتى ليفتح دكانه ثم قابله شخص قبيح المنظر مثلا قال: اليوم شؤم ليس هناك بيع ولا شراء، هذا تشاؤم بالأشخاص. هذا أيضا من المجادلة في آيات الله الكونية.

أما المجادلة في آيات الشرعية فحدث ولا حرج، يكذبون بآيات الله الشرعية، ينكرونها، يجادلون في بعض الأمور فيها يقولون: فيها تناقض، وفيها كذا، وفيها كذا. وأنواع الجدل كثيرة.

يقول: {أنى يصرفون} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{أنى} كيف {يصرفون} عن الإيمان] يعني: كأن هذا استفهام تعجب وإنكار، كيف يصرفون عن الإيمان مع أنه واضح بين، فهم يصرفون عنه، ويجادلون فيه.

{إِذِ الْأَغْلَال فِي أَعْنَاقهمْ} إذْ بِمَعْنَى إذَا {وَالسَّلَاسِل} عُطِفَ عَلَى الْأَغْلَال فَتكُون فِي الْأَعْنَاق أَوْ مُبْتَدَأ خَبَره مَحْذُوف أَيْ فِي أَرْجُلهمْ أَوْ خَبَره {يُسْحَبُونَ} أَيْ يُجَرُّونَ بِهَا.

فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢).

{فِي الْحَمِيم} أَيْ جَهَنَّم {ثُمَّ فِي النَّار يسجرون} يوقدون[١].

---

(١) قوله تعالى: {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا} [غافر: ٧٠].

قال الطبري:"ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون الذين كذّبوا بكتاب الله، وهو هذا القرآن، وكذّبوا أيضا مع تكذيبهم بكتاب الله بما أرسلنا به رسلنا من إخلاص العبادة لله، والبراءة مما يعبد دونه من الآلهة والأنداد، والإقرار بالبعث بعد الممات للثواب والعقاب".

قال الواحدي:"ثم وصفهم، فقال: {الذين كذبوا بالكتاب} بالقرآن، {وبما أرسلنا به رسلنا} من التوحيد".

قال ابن كثير:"أي: من الهدى والبيان".

قوله تعالى: {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [غافر: ٧٠]، أي:"فسوف يعلم هؤلاء المكذبون عاقبة تكذيبهم".

قال الواحدي: أي:"فسوف يعلمون عاقبة أمرهم".

قال الطبري:"وهذا تهديد من الله المشركين به؛ يقول جلّ ثناؤه: فسوف يعلم هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله، المكذبون بالكتاب حقيقة ما تخبرهم به يا محمد، وصحة ما هم به اليوم مكذّبون من هذا الكتاب".

قال ابن كثير:"هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب، جل جلاله، لهؤلاء، كما قال تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [المرسلات: ١٥]".

عن الحسن: " {فسوف يعلمون}، قال: وعيد".

=

=

قوله تعالى: {إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ} [غافر: ٧١]، أي:"حين تُجعل الأغلال في أعناقهم، والسلاسل في أرجلهم".

قال الطبري: أي:"حين تجعل الأغلال والسلاسل في أعناقهم في جهنم".

قال ابن كثير:"أي: متصلة بالأغلال، بأيدي الزبانية".

عن التيمي -من طريق ابنه- قال: "لو أنّ غُلًّا مِن أغلال جهنم وُضِع على جبلٍ لَوَهَصَهُ حتى يبلغ الماء الأسود".

قوله تعالى: {يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢)} [غافر: ٧٠- ٧٢]، أي:"وتسحبهم زبانية العذاب في الماء الحار الذي اشتدَّ غليانه وحرُّه، ثم في نار جهنم يوقد بهم".

قال الطبري:"يقول: يسحب هؤلاء الذين كذّبوا في الدنيا بالكتاب زبانية العذاب يوم القيامة في الحميم، وهو ما قد انتهى حَرُّه، وبلغ غايته، ثم في نار جهنم يحرقون، يقول: تسجر بها جهنم: أي: توقد بهم".

قال القشيري:"يسحبون في النار والأغلال في أعناقهم، ثم يذاقون ألوان العذاب".

قال ابن كثير:"يسحبونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم؛ ولهذا قال: {يُسْحَبُونَ. فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ}، كما قال: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [الرحمن: ٤٣، ٤٤]. وقال بعد ذكْره أكلهم الزقوم وشربهم الحميم: {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ} [الصافات: ٦٨] وقال {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ. فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ. لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ} إلى أن قال: {ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ. فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ. هَذَا نزلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ} [الواقعة: ٤١- ٥٦]. وقال {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ. طَعَامُ الأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ. خُذُوهُ

=

=
فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ. إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ} [الدخان: ٤٣- ٥٠]، أي: يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتحقير والتصغير، والتهكم والاستهزاء بهم".

عن مجاهد، قوله: " {يُسْجَرُونَ}، قال: يوقد بهم النار". " {تمرحون} قَالَ: تبطرون وتاشرون".

وعن السدي:" {ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُون}، قال: يحرقون في النار".

قال ابن زيد:"يسجرون في النار: يوقد عليهم فيها".

عن ابن عباس:" {يسْحَبُونَ فِي الْحَمِيم} فيسلخ كل شَيْء عَلَيْهِم من جلد وَلحم وعرق حَتَّى يصير فِي عقبه حَتَّى ان لَحْمه قدر طوله سِتُّونَ ذِرَاعا، ثمَّ يكسى جلدا آخر ثمَّ يسجر فِي الْحَمِيم فيسلخ كل شَيْء عَلَيْهِم من جلد وَلحم وعرق".

قال الزمخشري:"يُسْجَرُونَ من سجر التنور إذا ملأه بالوقود. ومنه: السجير، كأنه سجر بالحب، أى: مليء. ومعناه: أنهم في النار فهي محيطة بهم، وهم مسجورون بالنار مملوءة بها أجوافهم. ومنه قوله تعالى: {نارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ}، اللهم أجرنا من نارك فإنا عائذون بجوارك".

عن سعيد بن عبيد، قال: "كان سعيد بن جُبير إذا أتى على هذه الآية: {فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون} رجّع فيها، وردّدها مرتين أو ثلاثًا".

قال العثيمين: قوله تعالى: {الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا} هذا بدل من قوله: {الذين يجادلون} أو عطف بيان، والفرق بينهما أن عطف البيان يشبه الصفة في بيان المبدل منه، وأما البدل فقد يكون بدلا مجردا عن الصفة، فمثلا إذا قلت: جاء زيد أخوك. أخوك هنا بدل لم يستفد منها شيئا كثيرا، لكن إذا جاء عطف البيان مثل هذه الآية: {الذين كذبوا بالكتاب} فقد استفدنا منها معنى هو
=

=

إلى الصفة أقرب منه إلى البدلية؛ فلهذا يسمونه عطف بيان {الذين كذبوا بالكتاب}؛ أي: قالوا إنه كذب. والكتاب هنا محلى بـ (أل)، فهل هي للعهد، أو للاستقرار، أو للجنس؟ أقرب شيء أنها للجنس، والمفسر رَحِمَهُ اللَّهُ جعلها للعهد فقال: [القرآن] ولا شك أنه لا يجوز العدول عن الجنس أو بيان الحقيقة، لا يجوز العدول عن ذلك إلا بدليل.

فما هو الأصل في (أل) أن تكون لبيان الحقيقة أو لبيان الجنس أو للعهد؟

الجواب: لبيان الجنس؛ لأن بيان الجنس يعني: الاستغراق، وهذا هو الأصل، فإذا جعلتها للعهد فقد عدلت بمعناها العام إلى معنى خاص، وكذلك إذا جعلتها للحقيقة، ونحن نضرب ثلاثة أمثلة؛ ليتبين الأمر، إذا قلت: الرجل خير من المرأة. فهي ليست للعموم؛ لأن من النساء من هو خير من الرجال؛ إذن: هذا لبيان الحقيقة.

فإذا أورد عليك مورد {وخلق الإنسان ضعيفا} أي شيء هذا؟ للجنس -يعني: للعموم، يعني: خلق كل إنسان ضعيفا-.

وإذا أورد عليك قول الله تعالى: {كما أرسلنا إلى فرعون رسولا (١٥) فعصى فرعون الرسول} [المزمل: ١٥- ١٦] فهي للعهد الذكري.

قوله: {ياأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم} هذا أيضا للعهد؛ أي: العهد الذهني.

هنا قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: حمل قوله: "الكتاب" على العهد الذهني، وقال: إنه [القرآن]، والصواب أنه عام، وأن المراد به جنس الكتاب، وذلك لأن التوراة كذبت بها أناس، والإنجيل كذب به أناس، وكذلك الزبور وبقية الكتب، وآخرها القرآن.

{الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا} قل المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [من التوحيد

=

=

والبعث وهم كفار مكة {فسوف يعلمون}].

قوله ﷻ: {وبما أرسلنا به رسلنا} عطفها على قوله: {بالكتاب} بإعادة العامل؛ لأن العطف يكون بإعادة العامل وبغير إعادة العامل، فتقول: مررت بزيد وعمرو. هذا عطف بدون إعادة العامل، مررت بزيد وبعمرو هذا عطف بإعادة العامل، ويفيد إعادة العامل استقلال المعطوف عن المعطوف عليه؛ لأنه ليس تابعا له من كل وجه بدليل إعادة العامل، فقوله: {وبما أرسلنا به رسلنا} يدل على أن ما أرسلت به الرسل كأنه مستقل عن الكتاب؛ ولهذا كانت السنة بمثابة الكتاب في الدلالة بوجوب العمل بها.

وقوله: {وبما أرسلنا به رسلنا} قال المفسر رحمه الله: [من التوحيد والبعث وهم كفار مكة] التوحيد يعني: توحيد الله ﷻ بما يستحق من الأسماء والصفات والعبادة والربوبية، وأما البعث فهو إخراج الناس من قبورهم يوم القيامة.

وقوله: [وهم كفار مكة] هذا لا وجه له؛ لأن هذا الوصف التكذيب بالكتاب، وبما أرسل به الرسل لا يختص بأهل مكة هم وغيرهم، فالأولى أن يجعل هذا عاما في كل من كذب بمحمد ﷺ، بل قل: عاما لكل من كذب الرسل انتبه.

لكن إذا قال قائل: {فسوف يعلمون} ألا تدل بذلك على أن المراد بذلك الكفار الذين كذبوا محمدا ﷺ؟

الجواب: لا؛ لأن قوله: {فسوف يعلمون} تهديد بما سيكون في الدنيا، وما سيكون في الآخرة بدليل قوله: {إذ الأغلال في أعناقهم} والأغلال لا تكون في الأعناق إلا يوم القيامة.

قال المفسر: [{فسوف يعلمون} عقوبة تكذيبهم {إذ الأغلال في أعناقهم} {إذ} بمعنى: إذا، {والسلاسل} عطف على {الأغلال} فتكون في الأعناق، أو مبتدأ خبره محذوف؛ أي: في أرجلهم، أو خبره {يسحبون} أي: يجرون بها].

=

=

قوله: {فسوف يعلمون} هو تهديد بلا شك؛ كقوله سبحانه وتعالى: {كلا سوف تعلمون (٣) ثم كلا سوف تعلمون}، فقوله: {فسوف يعلمون (٧٠) إذ الأغلال أعناقهم} فيقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: إن [{إذ} بمعنى: إذا]، ومن المعلوم أن (إذ) تأتي للحاضر وتأتي للماضي، و (إذا) تكون للمستقبل، فما الذي جعل المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ يصرف معناها إلى المستقبل؟

الذي جعله يصرف ذلك إلى المستقبل أن الأغلال لا تكون إلا يوم القيامة، وهو مستقبل.

ولكننا نقول: لا حاجة إلى ذلك، بل هي (إذ) على بابها، ولكنها حكاية حال، وحكاية الحال هي التي تجعل المستقبل كأنه حاضر، وهذا أبلغ في التهديد. يعني: كأن الأغلال الآن حاضرة؛ لأنها أمر مؤكد، ولا بد أن تكون الأغلال في الأيدي، كما قال الله تعالى: {غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا} [المائدة: ٦٤]، والسلاسل تكون في الأرجل، كما قال الله تبارك وتعالى: {مقرنين في الأصفاد (٤٩) سرابيلهم من قطران} [إبراهيم: ٤٩- ٥٠]، لكن هنا يقول: {إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل} تقتضي أن يكون {والسلاسل} في الأعناق في محل الأغلال، ولكن في احتمال آخر بينه رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: [عطف على {الأغلال} تكون في الأعناق] أي: مبتدأ خبره محذوف؛ أي: في أرجلهم، وإذا كانت مبتدأ نقول: الواو للاستئناف، و (السلاسل): مبتدأ وخبره محذوف؛ أي: في أرجلهم، أو خبره {يسحبون} ويكون العائد محذوفا، والتقدير: يسحبون بها {والسلاسل يسحبون} بها، فهنا صار في إعراب (السلاسل) ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أنها معطوفة على {الأغلال} فتكون والسلاسل في الأعناق يعني: معناه: تغل أيديهم إلى أعناقهم بسلاسل.

والثاني: أن تكون السلاسل بالأرجل، والخبر محذوف؛ أي: في أرجلهم.

=

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣).

{ثم قيل لهم} تبكيتا {أين ما كنتم تشركون.

مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ (٧٤).

{مِنْ دُون الله} مَعَهُ وَهِيَ الْأَصْنَام {قَالُوا ضَلُّوا} غَابُوا {عَنَّا} فلا نراهم {بل لم نكن ندعوا مِنْ قَبْل شَيْئًا} أَنْكَرُوا عِبَادَتهمْ إيَّاهَا ثُمَّ أُحْضِرَتْ قَالَ تَعَالَى {إنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله حَصَب جَهَنَّم} أَيْ وَقُودهَا {كَذَلِكَ} أي مثل إضلال هؤلاء المكذبين {يضل الله الكافرين}[1].

=

والثالث: أن تكون السلاسل في الأرجل، والخبر قوله: {يسحبون}، والمعنى: أنهم يسحبون بهذه السلاسل، وهذا المعنى هو أقربها لظاهر القرآن كما قال تعالى: {يوم يسحبون في النار على وجوههم} [القمر: ٤٨]، فهم إذا سحبوا على وجوههم فتكون السلاسل في الأرجل، فهذا أقرب الاحتمالات التي ذكرها المفسر رَحِمَهُ اللهُ.

وقال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [{في الحميم}؛ أي: جهنم] ووصفت بذلك لأنها شديدة الحرارة، [{ثم في النار يسجرون} يوقدون]؛ لأن النار وقودها الناس والحجارة.

(١) قوله تعالى: {ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللهِ} [غافر: ٧٣-٧٤].

قال الطبري: "يقول: ثم قيل: أين الذين كنتم تشركون بعبادتكم إياها من دون الله من آلهتكم وأوثانكم حتى يغيثوكم فينقذوكم مما أنتم فيه من البلاء والعذاب، فإن المعبود يغيث من عبد وخدمه؛ وإنما يقال لهم هذا لهم توبيخا وتقريعا على ما كان منهم في الدنيا من الكفر بالله وطاعة الشيطان".

=

=

قال ابن كثير:"أي: قيل لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرونكم اليوم؟".

قوله تعالى: {قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا} [غافر: ٧٤]، أي:"قال المكذبون: غابوا عن عيوننا، فلم ينفعونا بشيء".

قال الطبري:"فأجاب المساكين عند ذلك فقالوا: عدلوا عنا، فأخذوا غير طريقنا، وتركونا في هذا البلاء".

قال الواحدي: أي:"فقدناهم فلا نراهم".

قال ابن كثير:"أي: ذهبوا فلم ينفعونا".

قال الزمخشري:"غابوا عن عيوننا، فلا نراهم ولا ننتفع بهم. فإن قلت: أما ذكرت في تفسير قوله تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ}، أنهم مقرونون بآلهتهم، فكيف يكونون معهم وقد ضلوا عنهم؟

قلت: يجوز أن يضلوا عنهم إذا وبخوا وقيل لهم: أينما كنتم تشركون من دون الله فيغيثوكم ويشفعوا لكم، وأن يكونوا معهم في سائر الأوقات، وأن يكونوا معهم في جميع أوقاتهم، إلا أنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم ضالون عنهم".

قال السعدي:"يحتمل أن مرادهم بذلك، الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم، ويحتمل -وهو الأظهر- أن مرادهم بذلك، الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون، بعبادة معدوم الإلهية، ويدل على هذا قوله تعالى: {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ}".

قوله تعالى: {بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا} [غافر: ٧٤]، أي:"قال الكافرون: بل تبين لنا اليوم أنا لم نكن نعبد في الدنيا شيئًا يعتد به".

قال الطبري: أي: " بل ما ضلوا عنا، ولكنا لم نكن ندعو من قبل في الدنيا شيئا، أي: لم نكن نعبد شيئا".

=

=

قال السمعاني:"أي: لـم نكـن نـدعو مـن قبـل شـيئا يـدفع عنـا ضـرا، أو يجلـب إلينـا نفعا".

قال الواحدي:"أي: شيئا ينفع ويضر، كما يقول من ضاع عمله: ما كنت أعمل شيئا".

قال الزمخشري:"أي: تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئا، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئا كما تقول: حسبت أنّ فلانا شيء فإذا هو ليس بشيء إذا خبرته فلم تر عنده خيرا".

قال ابن كثير:"أي: جحدوا عبادتهم، كقوله تعالى: {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الانعام: ٢٣]؛ ولهذا قال: {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ}".

قال أهل العلم:"وهو إضراب منهم عن كون الآلهة الباطلة ليست بموجودة عندهم، أو ليست بنافعة، إلى أنها ليست شيئًا يعتد به، وفي ذلك اعتراف بخطئهم وندم على قبح فعلهم حيث لا ينفع ذلك".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ} [غافر: ٧٤]، أي:"كما أضل الله هؤلاء الذين ضلَّ عنهم في جهنم ما كانوا يعبدون في الدنيا من دون الله، يضل الله الكافرين به".

قال الطبري:"يقول: كما أضل هؤلاء الذين ضل عنهم في جهنم ما كانوا يعبدون في الدنيا من دون الله من الآلهة والأوثان آلهتهم وأوثانهم، كذلك يضل الله أهل الكفر به عنه، وعن رحمته وعبادته، فلا يرحمهم فينجيهم من النار، ولا يغيثهم فيخفف عنهم ما هم فيه من البلاء".

قال الزمخشري: أي:"مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم، حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا".

قال الحسن: "كذلك يضل الله أعمالهم بإبطالها".

=

=

قال العثيمين: قوله تعالى: {ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين} غافر: ٧٣- ٧٤].

هناك عذاب قلبي بينه في قوله رَحِمَهُ اللهُ: [{ثم قيل لهم} تبكيتا {أين ما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله} معه وهي الأصنام]، والاستفهام هنا لا شك أنه للتوبيخ والتنديم والتعجيز، كلها يتضمنها هذا الاستفهام وهذا ألم قلبي؛ لأن الإنسان يندم أشد الندم إذا كانت هذه الأصنام التي كان يعبدها لتقربه إلى الله عَزَّوَجَلَّ كما يدعي، ثم تضل عنها الآن ولا توجد، كما لو أمسكت عبدا الآن وعذبته وقلت: أين سيدك الذي تدعي أنه يحميك؟ هذا يكون أشد ندما له.

إذن: هؤلاء يندمون هذا التنديم فيقال: {أين ما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله} أي: مع الله وهي الأصنام، وحينئذ يتحسرون حسرة ليس فوقها حسرة؛ ولهذا يقولون إقرارا، إقرار المكره في الواقع: [{قالوا ضلوا} غابوا {عنا} فلا نراهم]، إذن عرفوا أنها لن تنفعهم وأنها غابت عنهم في أشد ما يحتاجون إليها فيه، بل قالوا: {بل لم نكن ندعو من قبل شيئا} سبحان الله! يعني: أنكروا أن يكونوا أشركوا؛ كما قال تعالى في آية أخرى: {ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين (٢٣) انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون} [الأنعام: ٢٣- ٢٤].

فالحاصل: أنهم يندمون هذا الندم العظيم ثم ينكرون يقول عَزَّوَجَلَّ: {بل لم نكن ندعو من قبل شيئا} {ندعو} بمعنى نعبد؛ لأن الدعاء ينقسم إلى قسمين: دعاء مسألة، ودعاء عبادة، وكلاهما متلازمان فدعاء المسألة عبادة، كما جاء في الحديث: "الدعاء عبادة" ودعاء العبادة دعاء مسألة؛ لأنك لو سألت العابد لماذا عبدت الله؟ لقال: رجاء ثوابه وخوف عقابه. فهو داع بلسان الحال؛ ولذلك صار الدعاء بمعنى

=

=

العبادة، والعبادة بمعنى الدعاء، وانظر إلى ذلك في قوله سبحانه وتعالى: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} [غافر: ٦٠].

لكن دعاء المسألة دعاء صريح في السؤال يقول القائل: رب اغفر لي وارحمني.. إلى آخره، ودعاء العبادة دعاء باللازم؛ لأن الإنسان إنما يعبد الله خوفا من عقابه ورجاء لثوابه.

ودعاء المسألة عبادة باللازم؛ لأن السائل متذلل للمسؤول، فهو متعبد له.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{بل لم نكن ندعو من قبل شيئا} أنكروا عبادتهم إياها ثم أحضرت، فقال الله سبحانه وتعالى: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم}؛ أي: وقودها].

وتمام الآية: {أنتم لها واردون (٩٨) لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون} [الأنبياء: ٩٩]، فهؤلاء أنكروا، كذبوا على أنفسهم، ظنوا أن هذا سينفعهم، كما لو أن الجاني في الدنيا أنكر جنايته ربما ينفعه ذلك، لكن في الآخرة لا ينفع، حتى إنهم إذا أنكروا ختم على أفواههم، فتتكلم الأيدي والأرجل والجلود والألسن بما تعمل، وحينئذ {لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا}.

قال سبحانه وتعالى: {كذلك يضل الله الكافرين}، {كذلك} الكاف حرف، لكنها اسم في الواقع، فهي مفعول مطلق، وتقدير الكلام: مثل ذلك الإضلال يضل الله الكافرين، فهي حرف صورة، لكنها بالمعنى اسم، هذا الاسم محله من الإعراب مفعول مطلق للفعل الآتي بعده، ومثل هذا التعبير يأتي كثيرا في القرآن، وإعرابه كما سمعتم أن الكاف حرف بمعنى (مثل)، وأن إعرابها مفعول مطلق للفعل الذي بعدها، والتقدير في كل سياق بحسبه، لكن في الآية التي معنا: مثل ذلك الإضلال يضل الله الكافرين.

=

ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥).

وَيُقَال لَهُمْ أَيْضًا {ذَلِكُمْ} الْعَذَاب {بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْض بِغَيْرِ الْحَقّ} مِنْ الْإِشْرَاك وَإِنْكَار الْبَعْث {وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ} تَتَوَسَّعُونَ فِي الفرح[1].

=

وقوله: [{كذلك يضل الله الكافرين}؛ أي: يجعلهم في ضلال يقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{كذلك}؛ أي: مثل إضلال هؤلاء المكذبين {يضل الله الكافرين}].

(١) قوله تعالى: {ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [غافر: ٧٥].

قال الطبري: يقول:"هذا الذي فعلنا اليوم بكم أيها القوم من تعذيبنا كم العذاب الذي أنتم فيه، بفرحكم الذي كنتم تفرحونه في الدنيا، بغير ما أذن لكم به من الباطل والمعاصي".

قال ابن كثير:"أي: تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق".

قال الواحدي:"أي: الباطل الذي كنتم تشتغلون به".

قال الزمخشري:"وهو الشرك وعبادة الأوثان".

قال السعدي:"أي: تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه، وبالعلوم التي خالفتم بها علوم الرسل... كما قال تعالى في آخر هذه السورة: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ}، وكما قال قوم قارون له: {لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}، وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب، بخلاف الفرح الممدوح الذي قال الله فيه: {قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا} وهو الفرح بالعلم النافع، والعمل الصالح".

قال ابن فورك:"الفرح، والمرح، والبطر، والأشر: نظائر في اللغة".

قال السمعاني:"الفرح: السرور، وقوله تعالى: {ذَلِكُم بِمَا كُنْتُم تفرحون فِي

=

=

الأَرْض بِغَيْر الْحق} هذا دليل على أَنه قد يكون فرح بحق".

عن مجاهد:"{بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ}، قال: تبْطَرُون، وتأْشَرون".

قوله تعالى: {وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ} [غافر: ٧٥]، أي:"وبما أنتم عليه من الأشَر والبَطَر والبغي على عباد الله".

قال الطبري: يقول:"وبمرحكم فيها، والمرح: هو الأشر والبطر".

قال ابن كثير: أي:"ومرحكم وأشركم وبطرك".

قال السعدي:"وتمرحون على عباد الله، بغيًا وعدوانًا، وظلمًا، وعصيانًا".

قال يحيى:"يعني: بما كنتم مرِحين، بطرين بالخيلاء والكِبْر".

قال السمعاني:"المرح: البطر والأشر".

عن مجاهد، قوله:"{وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ}، يقول: تبطرون وتأشرون".

وقال السدي:"تبطرون".

قال ابن عباس:"الفرح والمرح: الفخر والخُيَلاء، والعمل في الأرض بالخطيئة، وكان ذلك في الشرك، وهو مثل قوله لقارون: {إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} وذلك في الشرك".

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا} [القصص: ٥٨] قال:"البطر: الأشر، عصوا وخالفوا أمر الله وبطروا، وقرأ قول الله: {ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} [غافر: ٧٥- ٧٦]، وقال: هذا البطر".

روى خالد عن ثور عن معاذ قال: "قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يبغض البذخين الفرحين المرحين ، ويحب كل قلب حزين ويبغض أهل بيت لحمين ،

=

ويبغض كل حبر سمين» ، فأما أهل بيت
قال المناوي:"علاج من استخفه الفرح إكثار ذكر الموت واستحضار قبح الدنيا وسرعة زوالها وكدحها".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ويقال لهم أيضا: {ذلكم} العذاب {ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون}] {ذلكم} المشار إليه العذاب، والمخاطب أولئك الكافرون؛ ولهذا جاءت الكاف بضمير للجماعة، وجاءت اسم إشارة بالإشارة لمفرد مذكر؛ لأن العذاب مفرد مذكر، واعلم أن اسم الإشارة وكاف الخطاب تارة يتفقان وتارة يختلفان، فاسم الإشارة يكون بحسب المشار إليه، وكاف الخطاب بحسب المخاطب، ولينتبه للقاعدة.

فإذا قيل لك: أشر إلى مفرد مذكر مخاطبا جماعة نساء. تقول: {فذلكن الذي لمتنني فيه} ، وإذا قيل: أشر إلى مثنى مذكر مخاطبا مثنى مؤنثا تقول: ذانكما. وإذا قيل: أشر إلى مفردة مؤنثة مخاطبا جماعة ذكور. تقول كما في القرآن: {تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون} [الأعراف: ٤٣].

المهم هذه القاعدة: اسم الإشارة بحسب المشار إليه وكاف الخطاب بحسب المخاطب قد يتفقان وقد يختلفان.

وقوله: {ذلكم بما كنتم} الباء للسببية، و (ما) مصدرية، وعلامة (ما) المصدرية أن يصح تحويل ما بعدها إلى مصدر، فمثلا قوله: {ذلكم بما كنتم} إذا حولنا ما بعدها إلى مصدر يكون التقدير: ذلكم بكونكم تفرحون في الأرض بغير الحق.

وقوله: {بما كنتم} معلوم أن (كان) هذه للماضي أي: قبل الموت {كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق} أي: تفرحون بالباطل؛ وذلك لأنهم يفرحون بالشرك والكفر، وكل من شاركهم في إثمهم فإنهم يفرحون به.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{بغير الحق} من الإشراك وإنكار البعث]، وهذا في الواقع قصور،

ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦).

{أُدْخُلُوا أَبْوَاب جَهَنَّم خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى} مأوى {المتكبرين}(١).

=

إلا إذا كان يريد به التمثيل، وإلا فإن قوله: {بغير الحق} أعم من الشرك وإنكار البعث، فهم يفرحون في الأرض بغير الحق من الشرك وإنكار البعث، والعدوان، وتحليل الحرام، وتحريم الحلال، كالسائبة، والوصيلة، والحامي، وما أشبه ذلك.

المهم: أن قول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالإشراك وإنكار البعث] هذا قصور ما لم يرد التمثيل، فإن أراد التمثيل فإن التمثيل لا يفيد الحصر.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وبما كنتم تمرحون} تتوسعون في الفرح]، الواو حرف عطف والباء للسببية، وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها بإعادة العامل الذي هو الباء، والعطف بإعادة العامل يعني: أن الثاني مستقل عن الأول، فهم يعذبون بالأمرين جميعا: يعذبون عذابا خاصا بالفرح، وعذابا خاصا بالمرح، والباء للسببية {وبما كنتم تمرحون} تتوسعون في الفرح.

(١) قوله تعالى: {ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا} [غافر: ٧٦].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لهم: ادخلوا أبواب جهنم السبعة من كل باب منها جزء مقسوم منكم".

قال الزمخشري: أي:"{أَبْوابَ جَهَنَّمَ} السبعة المقسومة لكم، قال الله تعالى: {لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ}، مقدّرين الخلود".

قال السعدي:"كل بطبقة من طبقاتها، على قدر عمله. {خَالِدِينَ فِيهَا} لا يخرجون منها أبدًا".

قال القشيري:"فإذا أقرّوا بكفرهم وذنوبهم يقال لهم: {أدخلوا أبواب جهم خالدين فيها}".

قال ابن فورك:"وجه جعل الأبواب لجهنم الرد إلى ما يتصور من حال الدار

=

=

العظيمة مع الإسراع بدخولهم إليها".

عن سعيد بن جبير، قوله:"{خالدين فيها}، يعني: لا يموتون".

قوله تعالى: {فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} [غافر: ٧٦]، أي:"فبئست جهنم نزلا للمتكبرين في الدنيا على الله".

قال الطبري:"يقول: فبئس منزل المتكبرين في الدنيا على الله أن يوحدوه، ويؤمنوا برسله اليوم جهنم".

قال ابن كثير: " أي: فبئس الْمَنزلُ والمَقِيلُ الذي فيه الهوان والعذاب الشديد، لمن استكبر عن آيات الله، واتباع دلائله وحُجَجِه".

قال القشيري:"فبئس مثواهم ومصيرهم، وساء ذهابهم ومسيرهم".

قال ابن فورك:"قيل في صفة العقاب «بئس» ليعلم أن الذم قد يكون على فعل المذموم، ويكون على غير فعل إذا أريد به نقصه".

قال السعدي:"مثوى يخزون فيه، ويهانون، ويحبسون، ويعذبون، ويترددون بين حرها وزمهريرها".

قال الراغب:"الثواء: الإقامة مع الاستقرار، وقيل: من أم مثواك؟ كناية عمن نزل به ضيف، والثوية: مأوى الغنم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها} {ادخلوا} فعل أمر، والآمر هم الملائكة، والأمر يراد به لإهانة، ليس أمر إكرام، ولكنه أمر إهانة وإلزام؛ لأنه لا بد أن يدخل. وقوله: {أبواب جهنم} جمع، وعدد أبواب جهنم سبعة كما قال الله تعالى: {لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم} [الحجر: ٤٤]، {جهنم} اسم من أسماء النار، وسميت بذلك لأنها ذات جهمة، إذا قلنا: إن جهنم اسم عربي زيدت فيه النون. وإن قلنا: إنه اسم غير عربي ولكنه عرب، فلا حاجة أن نقول: إنه مشتق من الجهمة التي هي الظلمة أو القعر، وأيا كان فهو اسم

=

=

من أسماء النار، أعاذنا الله وإياكم منها.

فإن قال قائل: قلتم: إن العدد لا مفهوم له في قوله ﷺ: "إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة" قلتم: هذا العدد لا يدل على الحصر، وإن لله أسماء أخرى فلماذا نقول بالحصر، أو بإفادة العدد الحصر في أبواب جهنم وأبواب الجنة؟

فالجواب: نقول: أما الأول وهو قوله: "إن لله تسعة وتسعين اسما" فإنما قلنا: إنها ليست للحصر بدليل وهو حديث عبد الله بن مسعود في حديث الهم والغم، قال: "أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك"، وإذا كان الله مستأثرا به في علم الغيب عنده، فإنه لا يمكن للإنسان أن يدركه؛ لأن الله استأثر به، فمن ثم قلنا: إن العدد لا مفهوم له في قوله: "إن لله تسعة وتسعين اسما" وأن المعنى أن من أسماء الله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة.

فإن قال قائل: إذا قلنا: {ادخلوا} تأتي للإهانة وتأتي للإكرام أفلا يكون فيها رد على من قال: إن القرآن فيه مجاز، وذلك لأننا نقول: كل كلمة في موضعها فهي حقيقة فيها.

فالجواب: نعم، ربما يكون في ذلك دلالة على نفي المجاز؛ ولهذا كان الصواب ما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ "أنه لا مجاز في اللغة ولا في القرآن".

والعلماء اختلفوا على هذا في أقوال: فمنهم من قال: لا مجاز لا في القرآن ولا في غيره. ومنهم من قال: لا مجاز في القرآن ويجوز في اللغة. ومنهم من قال: المجاز في القرآن واللغة. ومنهم من قال: كل الكلام مجاز. وأظن هذا رأي ابن جني، أن جميع الكلام كله مجاز، حتى إذا قال: ضربت زيدا. قال: هذا مجاز. قلت: خيرا. قال: هذا مجاز. وهكذا، لكن الراجح أن لا مجاز؛ وذلك لأن الذي يعين معنى

=

=
الكلمة هو السياق والقرائن؛ ولهذا {ادخلوا أبواب جهنم خالدين} القرينة تدل على أن الأمر للإهانة {ادخلوها بسلام آمنين} القرينة تدل على أنه للإكرام.

فائدة: قول الله تبارك وتعالى في أهل النار يقال لهم: {فادخلوا أبواب جهنم} الأمر بدخول النار أمر الله ﷻ، والمراد به يوم القيامة هو الإهانة، وقوله تعالى في أهل الجنة: {ادخلوها بسلام آمنين} المراد بالأمر الإكرام؛ إذن نأخذ من هذا أن الكلمات يختلف معناها باختلاف السياق، وهذه فائدة عظيمة لطالب العلم أن الكلمات يختلف معناها باختلاف السياق، فكم كلمة كان لها معنى في سياق ولها معنى آخر في سياق آخر.

وقوله: {خالدين} هذه حال من الفاعل في قوله: {ادخلوا} والخلود هل هو طول المكث أو هو التأبيد؟

نقول: اللغة العربية يأتي فيها الخلود مرادا به طول المكث، ويأتي مرادا به التأبيد، والمراد به هنا الثاني يعني: أنهم خالدون فيها أبدا.

ودليل ذلك أن الله تعالى صرح في القرآن الكريم بأن أهل النار خالدين فيها أبدا في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: قول الله تبارك وتعالى: {إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا (١٦٨) إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا} [النساء: ١٦٨- ١٦٩].

والآية الثانية: قوله تعالى: {إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا (٦٤) خالدين فيها أبدا} [الأحزاب: ٦٤- ٦٥].

والآية الثالثة: قول الله سبحانه وتعالى: {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا} [الجن: ٢٣].

وبهذه الآيات الثلاث يتبين ضعف- بل بطلان- قول من يقول: إن النار ليست
=

=

مؤبدة، وإنها تفنى. فإن هذا القول منكر؛ لأنه مخالف لصريح القرآن، ولا يمكن لإنسان يخالف صريح القرآن لمجرد تعليلات يعللها، مثل أن يقول: إن رحمة الله تعالى سبقت غضبه، وإن هؤلاء مآلهم إلى أن يفنوا هم والنار. يقال: نعم رحمة الله سبقت غضبه، لكن وعد الله حق، وإذا كان وعد الله حقا، فإنهم يخلدون فيها أبدا.

فإن قال قائل: نحن قلنا بأن القول: إن النار ليست مؤبدة مخالف لصريح القرآن، فإن قيل: هذا وعيد، وإخلاف الوعيد جائز!.

فالجواب: نقول: هذا لا يمكن؛ لأننا لا نقول: إخلاف الوعيد جائز، إلا في أمر ضروري لا بد منه مثل: {ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه} [النساء: ٩٣].

وهذه بعض الأجوبة التي أجيب عن هذه الآية بها، أن هذا الوعيد، وإخلاف الوعيد كرم، وهو ثناء ومدح للمخلف، لكن هذا الجواب في الواقع جواب يهز ليس جوابا راسخا؛ لأننا نقول: {إن الله لا يخلف الميعاد} [الرعد: ٣١] أي: ما وعد به من عقوبة أو كرامة، وأما الآية: {خالدين فيها} في آية القتل فيحمل الخلود على المعنى الثاني وهو المكث الطويل، وبهذا ليس هناك تناقض.

فإن قال قائل: التخليد الأبدي في هذا العذاب الأليم كيف يكون جزاء لإنسان لم يبق في الدنيا إلا مئة سنة، أو مئتي سنة، أو ألف سنة، فيكون هنا العذاب أكثر من زمن العمل؛ لأنه لا أحد بقي في الدنيا أبد الآبدين فيقتضي هذا أن يكون فيه ظلم؛ لأن الجزاء صار أكثر من العمل بكثير، ولا ينسب له، كما قلت لكم يعني: لنفرض أن أحدا من الناس عاش ألف سنة، أو ألفي سنة، أو عشرة آلاف سنة، لكنه عاش إلى أمد ثم نقول: عذابه مؤبد. يكون هذا ظلما؟

فيقال: إن هذا أمضى حياته الدنيا كلها في محادة الله ورسله فيمضي حياته الأخرى كلها في العذاب، وهذا عدل، ثم إن هذا الذي عذب أبدا قد قيل له في الدنيا وبين له

=

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)

{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْد الله} بِعَذَابِهِمْ {حَقّ فَإِمَّا نُرِيَنك} فِيهِ إِنْ الشَّرْطِيَّة مُدْغَمَة وَمَا زَائِدَة تُؤَكِّد مَعْنَى الشَّرْط أَوَّل الْفِعْل وَالنُّون تُؤَكِّد آخِره {بَعْض الَّذِي نَعِدهُمْ} بِهِ مِنْ الْعَذَاب فِي حَيَاتك وَجَوَاب الشَّرْط مَحْذُوف أَيْ فَذَاكَ {أَوْ

=

أن جزاءه العذاب الأبدي، فلماذا يقدم على شيء يعرف أن هذا جزاءه، وحينئذ لا ظلم، ولا عذر للكافرين.

فالمهم: أن قوله تعالى: {خالدين فيها} يراد به الخلود الأبدي.

فإن قال قائل: ما قولكم في ما ورد: "يبلغ المرء بنيته ما لا يبلغ بعمله"؟

فالجواب: أولا هذا ليس حديثا صحيحا عن الرسول ﷺ، وثانيا مراد قائله أن الإنسان يدرك بنيه ما لا يدرك بعمله، هذا المعنى، فالإنسان المريض الذي يتمني أنه صحيح يقوم بما أوجب الله عليه، هذا أدرك بالنية ما لم يدرك بالعمل، وكذلك أيضا بالنسبة للشر، الإنسان إذا نوى الشر وهو عاجز عنه يعاقب معاقبة الفاعل لكن بالنية، دليل ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام في الرجل الفقير الذي ليس عنده مال، وكان هناك رجل آخر ينفق المال في غير مرضاة الله فقال الرجل: "لو أن لي مال فلان لعملت فيه عمل فلان" قال النبي ﷺ: "فهو بنيته فهما في الوزر سواء".

وقوله: {فبئس مثوى المتكبرين} هذه الجملة جملة إنشائية يراد بها الذم، ويقابل هذا في المدح: {ولنعم دار المتقين} {فبئس} هنا فعل إنشائي يراد به الذم، والمعنى: أن هذه الدار كلها ذم كلها بلاء؛ ولهذا وصفت بأنها {فبئس مثوى المتكبرين}.

نَتَوَفَّيَنك} أَيْ قَبْل تَعْذِيبهمْ {فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} فَنُعَذِّبهُمْ أَشَدّ الْعَذَاب فَالْجَوَاب الْمَذْكُور لِلْمَعْطُوفِ فَقَطْ(١).

---

(١) قوله تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ} [غافر: ٧٧].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فاصبر يا محمد على ما يجادلك به هؤلاء المشركون في آيات الله التي أنزلناها عليك، وعلى تكذيبهم إياك، فإن الله منجِز لك فيهم ما وعدك من الظفر عليهم، والعلو عليهم، وإحلال العقاب بهم، كسنتنا في موسى بن عمران ومن كذّبه".

قال ابن كثير:"يقول تعالى آمرا رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه؛ فإن الله سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك، وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة".

قال القشيري: أي:"كن بقلبك فارغا عنهم، وانظر من بعد إلى ما يفعل بهم، واستيقن بأنه لا بقاء لجولة باطلهم".

قوله تعالى: {فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ} [غافر: ٧٧]، أي:"فإما نرينَّك في حياتك بعض الذي نعد هؤلاء المشركين من العذاب، أو نتوفينَّك قبل أن يحلَّ ذلك بهم".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: فإما نرينك يا محمد في حياتك بعض الذي نعد هؤلاء المشركين من العذاب والنقمة أن يحل بهم {أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ} قبل أن يَحِلَّ ذلك بهم".

قال ابن كثير:"{فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ} أي: في الدنيا. وكذلك وقع، فإن الله أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم، أبيدوا في يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في أيام حياته ﷺ".

قال يحيى:"{أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ}، يعني: نميتك".

=

=

قال الزمخشري:"جزاء {نُرِيَنَّكَ}، محذوف، تقديره: فإما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب وهو القتل والأسر يوم بدر فذاك، أو إن نتوفينك قبل يوم بدر".

قوله تعالى: {فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} [غافر: ٧٧]، أي:"فإلينا مصيرهم يوم القيامة، وسنذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون".

قال الطبري:"يقول: فإلينا مصيرك ومصيرهم، فنحكم عند ذلك بينك وبينهم بالحقّ بتخليدناهم في النار، وإكرامناك بجوارنا في جنات النعيم".

قال ابن كثير:"أي: فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة".

قال هبة الله بن سلامة:"قوله تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} [غافر: ٧٧]، نسخ اولها وآخرها بأية السيف".

قال العثيمين: قوله تعالى: {فاصبر إن وعد الله حق} {فاصبر} الخطاب هنا للرسول- ﷺ وعلى آله وسلم -، وهو فعل أمر، والأمر الأصل فيه الوجوب كما سيأتي، أما معنى الصبر لغة فهو الحبس، ومنه قولهم: قتل فلان صبرا. أي: حبسا؛ أي: أمسك ثم قتل، لكنه في الاصطلاح الشرعي أخص مطلق الحبس، فهو حبس النفس عما يسخط الله تعالى فيما يرضي الله.

ومن ثم قال العلماء: إن الصبر ينقسم إلى ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله وهو أعلى الأقسام، وصبر عن معصية الله وهو الثاني في المرتبة، وصبر على أقدار الله المؤلمة وهو الثالث في المرتبة أيضا.

الأول: صبر على طاعة الله، بأن يصبر الإنسان نفسه على طاعة الله بأن يقوم بالواجب، وأن يكمل ذلك بالمستحب، وهذا يحتاج إلى صبر وإلى عناء، ولا سيما مع ضعف الإيمان، فإن ضعيف الإيمان يشق عليه فعل الطاعات، فيحتاج إلى أن يصبر وأن يحبس نفسه على فعل الطاعة، ويعدها بالخير والثواب، ويقول:

=

=

إن الوقت ماض وذاهب، فإما أن يكون في طاعة الله، وإما أن يكون في معصية الله، وإما أن يكون لغوا فيحملها ذلك على القيام بطاعة الله.

والصبر على طاعة الله شاق من وجهين: من وجه إلزام النفس بالقيام به، ومن وجه تعب البدن بالقيام به، فهنا عناءان: الآن الأول مع النفس، والثاني مع الجوارح؛ ولهذا كان هو أعلى أقسام الصبر، مثال ذلك الصبر في الجهاد، هذا صبر على طاعة الله، وهو أشق أنواع الطاعة التي يصبر عليها؛ ولهذا جعلها النبي ﷺ ذروة سنام الإسلام؛ لأنه أشق ما يكون.

الثاني: صبر عن معصية الله؛ يعني: أن الإنسان قد يهوى المعصية، ولكن يحبس نفسه عنها، فهذا صبر عن معصية الله ﷻ ويتضمن هذا الصبر حبس النفس مع الكف، ففيه عناء واحد، وهو حبس النفس عن المعصية، لكن ليس فيه تعب بدني؛ إذ إنه كف بلا فعل، والكف بلا فعل أهون من الفعل؛ يعني: ليس فيه مشقة بدنية، غاية ما فيه أن معاناة قلبية للصبر عن هذه المعصية.

والقسم الثالث: الصبر على أقدار الله ﷻ المؤلمة، هي التي لا تلائم النفس إما بوفاة محبوب، وإما بحصول مكروه فيحبس الإنسان نفسه في هذا الأمر، وهو أقل أقسام الصبر رتبة؛ لأنه يأتي بغير اختيار الإنسان. انتبه الصبر على الطاعة باختيار الإنسان، وعن المعصية باختياره، لكن على الأقدار لا، ليس بملكك أن تمنع ما قدر الله عليك من وفاة محبوب، أو حصول مكروه؛ ولهذا قال بعض السلف: عند حلول المصائب إما أن تصبر صبر الكرام، وإما أن تسلو سلو البهائم. وقس نفسك إذ تأتيك المصيبة اليوم أكبر من الجبال وأحر من النيران، ثم تخف شيئا فشيئا حتى لا تكاد تذكرها.

إذن: إما أن تصبر وتحتسب، وإما أن تسكت حتى لو تسخطت، فالمال إلى نسيانها، وإما أن يسلو الإنسان سلو البهائم.

=

=

فإن قال قائل: قوله ﷺ: "إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها" ما يقع في القلب أثناء المصائب، وما أشبه ذلك هل هذا ينافي الصبر؟

فالجواب: لا، الحزن على الشيء لا ينافي الصبر، الذي ينافيه أن يقع في قلبه التسخط على الله، وما يقع فتجب مدافعته، وأن يعلم أن الله ﷻ حكيم، وقد يريد الله بالإنسان خيرا إذا ابتلاه، فإذا كان هجم على قلبه فالواجب أن يدافع، لكن لا أعتقد أن مؤمنا يتسخط على ربه، نعم يكره ما حصل، صحيح كل إنسان يكره ما يحصل له من البلاء، لكن كونه يعتقد أن الله ظلمه، وأن هذا عدوان من الله عليه، وما أشبه هذا لا أظن أحدا يفعله.

فإن قال قائل: ما علامة الإنسان الذي لم يبلغ الصبر؟.

فالجواب: إذا وجد في نفسه التسخط، وفي قلبه التسخط.

وهذا القسم الثالث من أقسام الصبر: الصبر على أقدار الله ﷻ المؤلمة؛ يكون بالأمور الآتية: حبس اللسان عن التسخط، لا تسخط تقول: أصابني الله بكذا، ولم يصب فلانا، أصابني بالفقر والناس أغنياء، أصابني بالمرض والناس أصحاء. وما أشبه ذلك ما يقول هذا، لا يقول: واويلاه واثبوراه وانقطاع ظهراه. وما أشبه ذلك لا يقول هذا؛ لأن هذا مناف للصبر، الإخبار بما أصاب الإنسان من مصيبة دون التشكي، وقع هذا من النبي ﷺ؛ حيث قال: "بل أنا وارأساه" ولا حرج، يعني هناك فرق بين شخص يتكلم بما أصابه تسخطا أو شكاية لمخلوق، وبين شخص يخبر عما أصابه، فقط مجرد خبر، والأعمال بالنيات.

الثاني: حبس الجوارح عند المصيبة عن فعل ما لا يجوز وما ينبئ عن الغضب؛ مثل: شق الجيوب، لطم الخدود، نتف الشعور، وما أشبه ذلك. هذا أيضا مناف للصبر، ولهذا تبرأ النبي ﷺ من فاعله فقال: "ليس منا من شق الجيوب، ولطم الخدود، ودعا بدعوى الجاهلية".

=

=

الثالث: وهو حبس القلب عن كراهة ما قدر الله سبحانه وتعالى وهذا أعظمها وأدقها، قد يرى الإنسان الضعيف المخلوق المملوك المدبر، قد يرى أن ربه ظلمه- والعياذ بالله- دون أن يتكلم ودون أن يفعل، لكن قلبه مملوء على الله سخطا، من السخط ورؤية أن الله تعالى ظلمه، أو ما أشبه ذلك. هذا يجب أيضا أن يتخلى القلب عنه، وهذا أخطر ما يكون بالنسبة للصبر على الأقدار، اتل قول الله ﷻ: {ومن الناس من يعبد الله على حرف} [الحج: ١١] {حرف} يعني: طرف، ليست عبادة راسخة {فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين} [الحج: ١١].

وهذا يشمل فتنة المصائب وفتنة الشبهات، من الناس من يؤمن بالله واليوم الآخر، لكنه على طرف إن أصابه خير ولم يناقشه أحد أو يجادله أحد مشى، وإن جاء أحد يشككه في هذا الأمر شك، فانقلب على وجهه؛ خسر الدنيا والآخرة.

ومن الناس أيضا من يكون في نعمة، قد أنعم الله عليه بالأموال والأولاد وما يحتاج إليه من الدنيا أو يكملها، فأصيب بحادث فقد أهله به كلهم.

فمن الناس من إذا كان يعبد الله على حرف يسخط على الله، ويكره قضاء الله، كراهة سخط، ليس كراهة أنه يتمنى ما لم يصبه، لا، إنما يتسخط على ربه، وهذا من جهل الإنسان، أنت ملك لله ﷻ هذا الرب الكريم الذي إذا أصابك بسراء فشكرت أثابك، وإن أصابك بضراء فصبرت أثابك. كيف تسخط على هذا الرب الكريم وأنت ملكه وعبده، يتصرف فيك بما شاء، وله الحكمة فيما فعل؟ !

وظيفتك الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء.

فالمهم: أن الصبر الآن تبين أنه ثلاثة أقسام:

الأول- أعلاها وأتمها -: وهو الصبر على طاعة الله.

الثاني: الصبر عن معصية الله.

=

=

الثالث: الصبر على أقدار الله.

فأفضلها الأول، ثم الثاني، ثم الثالث.

يوسف عليه الصلاة والسلام أصيب ببلاء في خلقه وبلاء في جسده، صبر على هذا وهذا، دعته امرأة العزيز في مكان مغلق، وهي امرأة العزيز عندها من الحلي والزينة- وربما من الجمال- ما ليس عند غيرها، وهو فتاها أيضا، ليس هو أكبر منها شرفا عندها، دعته إلى نفسها في مكان خال وهم أن يفعل؛ لأن النفس البشرية قد يغيب عنها ملاحظة أمر الربوبية، فهم بها لكن هي السابقة: همت به وهم بها، لكن بعد أن هم رأى برهان الله ﷻ، أراه الله البرهان الآية، كأنها رؤية عين، فامتنع وقال: {رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه} هذا صبر عن المعصية، وصبر عظيم، فتى شاب مع سيدته الجميلة، في مكان لا يطلع عليه أحد، ومع هذا كف عنها.

وأوذي في جسده، فحبس، سجن ولبث في السجن بضع سنين، ومع ذلك صبر؛ حتى إن الملك لما قال: {ائتوني به} أبى أن يخرج حتى تسأل النسوة ماذا حصل؛ ليتبين براءته قبل أن يخرج، وهذا لا شك صبر عظيم، لكن أي الصبرين أعظم؟

الجواب: الأول الصبر عن المعصية؛ لأن السجن حاصل حاصل، صبر أو لم يصبر، وليس باختياره.

فإن قال قائل: ما هو الفرق إذا أصاب الإنسان شيء من الجوف قال: قدر الله ما شاء فعل. وبعضهم يقول: قدر الله وما شاء فعل؟

فالجواب: يجوز هذا وهذا، قدر الله. هذا فعل ماض، وقدر الله. خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هذا قدر الله.

فقول الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام: {فاصبر} يتضمن كل الأقسام، ولهذا كان نبينا ﷺ أصبر الناس في أحكام الله، وأصبر الناس على أحكام الله.

=

=

فإن قال قائل: بعض العلماء، قال: إن ما أصاب الرسل من التكذيب والتعذيب أشد مما أصاب يوسف من اتهامه بما اتهم به؟

فالجواب: لكل شيء حكم، فيوسف عليه الصلاة والسلام اتهم بما اتهم به، وعذب عليه، وسجن مع براءته وظهور براءته في النهاية، وهؤلاء المكذبين بعضهم فعل به أكثر مما فعل بيوسف، من التعذيب، بل بعضهم قتل، فلكل شيء وجه، ولا يمكن المقارنة بين هذا وهذا.

فإن قال قائل: علمنا أن فرعون وهامان وقارون قد أهلكهم الله ﷻ هل هلكوا كلهم مرة واحدة، أم كل واحد على حدة؟

فالجواب: أما قارون فالله ﷻ بين أنه خسف به وبداره الأرض، فليس ممن هلك بالغرق، وأما هامان فالظاهر أنه هلك مع فرعون.

فإن قال قائل: هل سبب هلك قارون أنه أتى بامرأة غانية فافترت على موسى عليه السلام أنه زنى بها؟

فالجواب: افتخاره بماله هو الذي خسف به الأرض.

وقوله: {إن وعد الله حق} هذه جملة مؤدة بـ(إن) وعد الله حق. ويقول المفسر رحمه الله: [إن وعد الله بعذابهم حق] وهذا قصور من المفسر رحمه الله، بل إن وعد الله بعذابهم ونصرك حق، بل لو قلنا بأنه أعم من ذلك أيضا، لولا أنه في سياق المحاجة مع الكفار لقلنا: إنه أعم. إن وعد الله حق في كل شيء؛ في عذاب هؤلاء، ونصره، وفي الجنة، وفي كل شيء.

وقوله: {حق}؛ أي: أمر ثابت واقع، فكل ما وعد الله به فهو حق ثابت واقع؛ لكمال صدقه وكمال قدرته؛ لأن إخلاف الوعد يأتي من أحد أمرين: إما كذب الواعد، وإما عجزه عن تنفيذ ما وعد به، والله ﷻ لا يخلف الميعاد؛ لكمال صدقه وكمال قدرته تبارك وتعالى.

=

=

{فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون (٧٧)} {فإما نرينك} يقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ في إعرابها: [فيه (إن) الشرطية مدغمة و (ما) زائدة تؤكد معنى الشرط أول الفعل والنون تؤكد آخره ...] إلى آخره.

{فإما نرينك} الفاء هذه عاطفة، و (إن) شرطية، و (ما) زائدة للتوكيد، وهي كزيادتها في قوله تعالى: {أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى} [الإسراء: ١١٠]، {أيا ما} (ما) زائدة، لو حذفت: وقيل: أيا تدعو. استقام الكلام، لكن يؤتى بحروف الزيادة للتوكيد. {فإما نرينك} لو حذفت (ما) وقال: إن نرينك. استقام، لكنها تأتي للتوكيد.

{فإما نرينك} (نري) فعل مضارع، لكنه بني على فتح آخره، وهي الياء؛ لاتصاله بنون التوكيد، والنون للتوكيد، والكاف مفعول به. التوكيد هنا في آخر الفعل، و (ما) في أوله، فصار هذا الفعل- الذي هو الإراءة- مؤكدا بمؤكدين: (ما) الزائدة في أوله، ونون التوكيد في آخره، والكاف هذه مفعول أول، و {بعض} مفعول ثان، و (نري) الرؤية هنا بصرية، لكن لما دخلت عليها همزة التعدية صارت ناصبة مفعولين، تقول: فلان رأى النجمة. نصبت مفعولا واحدا. فلان أريته النجمة. مفعولين. من أجل دخول الهمزة، على (رأى). هذه مثلها؛ لأن (نري) رباعي أصلها أرى يري ونري.

{فإما نرينك بعض الذي نعدهم} يعني: فأنت تراه. قال المفسر: [{فإما نرينك بعض الذي نعدهم} به من العذاب في حياتك، وجواب الشرط محذوف أي: فذاك]، أين جواب الشرط (إن) في قوله: {فإما نرينك}؟ يعني: إن أريناك بعض الذي نعدهم فقد رأيته بعينك وأقر الله عينك به، وهذا هو المطلوب.

{أو نتوفينك} يعني: قبل أن نرينك {فإلينا يرجعون} وسنريك بهم، هذا تهديد عظيم. وقوله: {أو نتوفينك} هذه معطوفة {نرينك} وهي قسيم قوله: {فإما

=

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨).

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلك مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْك وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْك} رُوِيَ أَنَّهُ تَعَالَى بَعَثَ ثَمَانِيَة آلَاف نَبِيّ أَرْبَعَة آلَاف نَبِيّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل وَأَرْبَعَة آلَاف مِنْ سَائِر النَّاس {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ} مِنْهُمْ {أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله} لِأَنَّهُمْ عَبِيد مَرْبُوبُونَ {فَإِذَا جَاءَ أَمْر الله} بِنُزُولِ الْعَذَاب عَلَى الْكُفَّار {قُضِيَ} بَيْن الرُّسُل وَمُكَذِّبِيهَا {بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ} أَيْ ظَهَرَ الْقَضَاء وَالْخُسْرَان لِلنَّاسِ وَهُمْ خَاسِرُونَ فِي كُلّ وَقْت قَبْل ذَلِكَ[1].

=

نرينك} يعني: إما أن ترى العذاب قبل موتك، وإما أن نتوفاك ثم نعذبهم بعد الرجوع إلينا، وهذا أشد، فإن عذاب الآخرة أشد وأبقى، ولهذا جاء في الحديث: "إن الله سبحانه وتعالى إذا أحب شخصا عجل له بالعقوبة في الدنيا" عوقب في الدنيا بماله أو بدنه أو أهله أو مجتمعه، وإلا تركه حتى يوافى به يوم القيامة، نسأل الله أن يقينا وإياكم عذاب الدنيا والآخرة، ويرزقنا العافية.

قال المفسر: [{أو نتوفينك فإلينا يرجعون} فنعذبهم أشد العذاب، فالجواب المذكور للمحذوف فقط]، أين المحذوف {أو نتوفينك} يعني: إذا توفيناك فإلينا يرجعون.

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ} [غافر: ٧٨].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا} يا محمد {رُسُلا مِنْ قَبْلِكَ} إلى أممها".

قوله تعالى: {مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ} [غافر: ٧٨]،
=

=

أي:"من هؤلاء الرسل من أخبرناك عن قصصهم مع قومهم، ومنهم من لم نخبرك عن قصصهم وأخبارهم".

قال الطبري:"يقول: من أولئك الذين أرسلنا إلى أممهم من قصصنا عليك نبأهم {وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ} نبأهم".

قال ابن كثير:"أي: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة، {وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ} وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف".

عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، في قوله: " {مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ}، قال: بعث الله عبدا حبشيا نبيا، فهو الذي لم نقصص عليك".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ} [غافر: ٧٨]، أي:"وما صحَّ ولا استقام لرسولٍ من الرسل أن يأتي قومه بشيء من المعجزات إلا بأمر الله".

عن عطاء: " {إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ} بمشيئة الله".

قال الطبري: يقول:"وما جعلنا لرسول ممن أرسلناه من قبلك الذين قصصناهم عليك، والذين لم نقصصهم عليك إلى أممها أن يأتي قومه بآية فاصلة بينه وبينهم، إلا بإذن الله له بذلك، فيأتيهم بها؛ يقول جلّ ثناؤه لنبيه: فلذلك لم يجعل لك أن تأتي قومك بما يسألونك من الآيات دون إذننا لك بذلك، كما لم نجعل لمن قبلك من رسلنا إلا أن نأذن له به".

قال ابن كثير:"أي: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات، إلا أن يأذن الله له في ذلك، فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به".

قال الزمخشري:"وهذا في اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وسلم عنادا، يعنى: إنا قد أرسلنا كثيرا من الرسل وما كان لواحد منهم {أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ

=

=

اللهِ﴾، فمن لي بأن آتي بآية مما تقترحونه إلا أن يشاء الله ويأذن في الإتيان بها".

قال القشيري:"ولم يكن في وسع أحد الإتيان بمعجزة إلا إذا أظهرنا نحن عليه ما أردنا إذا ما أردنا. فكذلك إن طالبوك بآية فقد أظهرنا عليك من الآيات ما أزحنا به العذر، وأوضحنا صحّة الأمر، وما اقترحوه... فإن شئنا أظهرنا، وإن شئنا تركنا".

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ [غافر: ٧٨]، أي:"فإذا جاء أمر الله بعذاب المكذبين قُضِي بالعدل بين الرسل ومكذبيهم".

قال الطبري: " ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: بالعدل، وهو أن ينجي رسله والذين آمنوا معهم".

قال ابن كثير:"﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ فينجو المؤمنون، ويهلك الكافرون".

قال الزمخشري:"﴿فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللهِ﴾: وعيد وردّ عقيب اقتراح الآيات. و ﴿أمر الله﴾: القيامة".

قوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨]، أي:"وخسر هنالك المبطلون؛ لافترائهم على الله الكذب، وعبادتهم غيره".

قال الطبري: " يقول: وهلك هنالك الذين أبطلوا في قيلهم الكذب، وافترائهم على الله وادعائهم له شريكا".

قال الصابوني:"خسر في ذلك الحين المعاندون الذين يجادلون في آيات الله، ويقترحون المعجزات على سبيل التعنت".

قال الزمخشري:"﴿الْمُبْطِلُونَ﴾: هم المعاندون الذين اقترحوا الآيات وقد أتتهم الآيات فأنكروها وسموها سحرا".

قال الفخر الرازي:"﴿المبطلون﴾: هم المعاندون الذين يجادلون في آيات الله، ويقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل التعنت".

=

=

قال يحيى:"الباطل، يعني: الكذب، والعني: خسر المكذِّبون بالعذاب".
قال الراغب:"{المبطلون}، أي: الذين يبطلون الحق".
عن السُّدِّيّ: " {المبطلون} يقول: المكذبون".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك} إلى آخره. الجملة هذه مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، و (قد)، والقسم المحذوف، والتقدير: والله لقد أرسلنا رسلا من قبلك، والرسول هو بشر، يوحى إليه بشرع، ويؤمر بتبليغه؛ ولهذا سمي رسولا؛ أي: مدفوعا من قبل الله ﷻ ليبلغ، وأما النبي فإنه بشر أوحي إليه بشرع، ولكنه لم يكلف بتبليغه، بمعنى: أنه يجدد شرع من قبله إن كان قبله رسول حتى يحيي همم الناس فيقتدوا به، وإذا لم يحتج الناس إلى رسول لم يرسل إليهم أحدا، فإن آدم عليه الصلاة والسلام كان نبيا ولم يكن رسولا، هو نبي يتعبد لله تعالى بما أوحاه الله إليه، ولكن لم يرسل؛ لأن الناس لم يختلفوا بعد، كما قال الله تعالى: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه} [البقرة: ٢١٣]، فالرسل إنما أرسلوا بعد الاختلاف؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: إن تقدير الآية الكريمة: كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين. وقال: إن في الآية إيجاز حذف؛ أي: حذف منها ما دل السياق على حذفه.

فالرسول بشر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

فإن قال قائل: في تعريف النبي أنه الذي أمر بوحي ولم يبلغه؛ فكيف نوفق بينه وبين قول النبي ﷺ: "ما من نبي بعثه الله إلا كان حقا عليه أن يبين لأمته خير ما يعرفه ويحذرهم شر ما يعرفه"؟

فالجواب: هذا المراد بالنبي الرسول، المراد به الرسول؛ ولهذا تجد الآن في القرآن الكريم أنبياء هم رسل، لكن تذكر بلفظ الأنبياء {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى

=

=

نوح والنبيين من بعده} [النساء: ١٦٣]، ثم قال في الأخير: {رسلا مبشرين ومنذرين} وقال: {إنه كان صديقا نبيا}.

وقوله: {ولقد أرسلنا رسلا من قبلك} وهؤلاء الرسل كان يرسلون إلى أممهم فقط، كما ثبت ذلك في الصحيحين من حديث جابر: "وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة" {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} كما قال الله ﷻ كل أمة أرسل الله إليها رسولا لتقوم الحجة.

قوله: {منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك} (من) هذه تبعيضية؛ أي: بعضهم قصصناهم عليك وأخبرناك بهم، وبعضهم لم نقصصهم عليك. قال أهل العلم: وإنما قص الله على رسوله ﷺ من كانوا من الجزيرة العربية وما حولها؛ لأن أخبار هؤلاء له بقية في العرب؛ فلهذا قصه الله، أما من كانوا في أمريكا، أو في شرق آسيا، أو ما أشبه ذلك من الأماكن البعيدة فهؤلاء لم يقص علينا من نبئهم شيئا.

قال المفسر رحمه الله: [{منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك} روي أنه تعالى بعث ثمانية آلاف نبي؛ أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس، وجدير بالمفسر رحمه الله أن يقول: [روي] بصيغة التمريض؛ لأن هذا لا يصح، كيف يكون من بني إسرائيل وهم متأخرون عن أمم كثيرة أربعة آلاف، ومن سائر الناس أربعة آلاف؟ ! هذا بعيد، بل إن الله أرسل في كل وقت وحين ما تقوم به الحجة، وليس لنا أن نبحث عن عدد هؤلاء، وإن قلنا: لنا فإنه ليس علينا، يعني: لو قيل لنا أن نبحث للاطلاع لم يكن سائغا أن نقول: علينا أن نبحث. بل نقول: آمنا بالله وبرسله، من علمنا منهم ومن لم نعلم.

قال المفسر رحمه الله: [{وما كان لرسول} منهم {أن يأتي بآية إلا بإذن الله} ؛ لأنهم عبيد مربوبون]. قوله: {وما كان} {وما} نافية، {كان} فعل ماض ناقص، و

=

{لرسول} خبره، {أن يأتي بآية} اسم (كان)؛ أي: وما كان إتيان أحدهم بآية إلا بإذن الله، {وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله} يعني: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام آتاهم آيات، لكن هل هم الذين يملكون هذا؟ الجواب: لا، هذا من عند الله، ولكن الله تعالى بين أنه ما من رسول إلا وأوتي آية.

وقوله: {بالبينات} يعني: بالآيات البينات، حتى يؤمن البشر، وحتى لا يكون لهم حجة عند الله؛ لأن الله لو بعث رسولا هكذا إلى الناس وقال: إني رسول الله، ولم يأت بآية، فإن الناس لن يقبلوا منه، وإلا لأمكن كل كاذب أن يدعي الرسالة، لكن لا بد من آيات، آيات بينات واضحة على أنه رسول، ومع هذا لا يمكن لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله.

وقوله: {إلا بإذن الله} الإذن الكوني، فإذا أذن الله كونا أن يأتي الرسول بآية أتى بآية، والرسول قد يأتي بآية ابتداء وقد يأتي بآية بطلب من المرسل إليهم، كما قيل: بل قد جاء في الحديث الصحيح: إن قريشا قالوا للرسول- ﷺ وعلى آله وسلم -: أرنا آية. فأشار إلى القمر، فانفلق فلقتين، إحداهما على الصفا، والثانية على المروة، وشاهد الناس ذلك، ولكن مع ذلك {وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر} [القمر: ٢] قالوا: إن محمدا سحرنا، والقمر لم يتصدع، ولكن لما لم يعينوا الآية التي طلبوها لم يؤاخذوا بالعقاب؛ لأن الأمم إذا عينوا الآية التي طلبوها ثم لم يؤمنوا عاجلهم الله بالعقوبة.

وقوله: {وما كان لرسول أن يأتي بآية} {بآية} أي: علامة على صدقه {إلا بإذن الله} وهنا قال: (آية) ولم يقل: بمعجزة، وقد جرى على ألسنة كثير من العلماء رحمهم الله تسمية آيات الأنبياء بالمعجزات، ولكن هذه التسمية غير سديدة، بل الأولى أن نعبر بآية، نقول: آية النبي، ولا نقول: معجزة؛ أولا لأن هذا هو التعبير القرآني، وثانيا لأن المعجزة تأتي من الرسول، وتأتي من الساحر، وتأتي من

=

الشياطين، يأتي من هؤلاء ما يعجز عنه البشر.

فالتعبير السليم أن نعبر بآية:

الأول: لموافقة القرآن.

والثاني: لأن المعجزة تكون من الرسول وغيره.

والثالث: أن كلمة (آية) فيها إشارة إلى أن ما جاء به هذا الرسول مما يعجز البشر آية، علامة.

فهذه ثلاثة أشياء تبين رجحان التعبير بآية على التعبير بمعجزة.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{فإذا جاء أمر الله} بنزول العذاب على الكفار {قضي} بين الرسل ومكذبيها {بالحق وخسر هنالك المبطلون} [غافر: ٧٨] أي: ظهر القضاء والخسران للناس، وهم خاسرون في كل وقت قبل ذلك].

قوله: {فإذا جاء أمر الله} أمر الله تعالى الكوني، لأن أمر الله ينقسم إلى قسمين: كوني، وشرعي، كما سنذكره إن شاء الله.

قوله: {فإذا جاء أمر الله} بنزول العذاب على الكافرين، ونزول النصر للرسل وأتباعهم.

وقوله: {قضي بالحق} والقاضي هو الله ﷻ، وحذف الفاعل هنا للعلم به، لأن الله تعالى هنا هو الذي يقضي بالحق؛ كما قال تعالى: {والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء} [غافر: ٢٠]، ويحذف الفاعل أحيانا للعلم به، كما في قوله: {وخلق الإنسان ضعيفا}، وكما في هذه الآية، وقد يقال: إنه حذف الفاعل هنا للتعميم؛ ليكون القاضي هو الله، وكذلك القاضي بالحق هم الرسل وأتباعهم، لأنهم قضوا بالحق بالانتصار على عدوهم، لكن الأول أولى، أن يكون الفاعل واحدا، ولكن حذف للعلم به: {قضي بالحق}.

{وخسر هنالك المبطلون} هنا الخسران: فوات الربح، و (هنا) اسم إشارة

=

اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩).

=

للمكان، والمراد به الزمان؛ ولهذا قال المفسر: [في كل وقت] المعنى: خسر في ذلك الوقت المبطلون.

فإذا قال قائل: ألستم تقولون: إن (هنا) إشارة إلى المكان؟

قلنا: بلى، لكن قد تستعار إشارة للزمان. واللام في قوله: {هنالك} للبعد، والكاف حرف خطاب {المبطلون} أي: الذين وقعوا في الباطل؛ لأن القضاء بالحق يقتضي زوال الباطل، وإذا زال الباطل خسر أهله، والباطل ضد الحق، ويفسر في كل موضع بحسبه، فالباطل في الكلام الخبري هو الكذب، والباطل في الحكم الجور، والباطل في المعاملة الغش، وما أشبه ذلك.

المهم: أن الباطل يفسر في كل موضع بحسبه.

وقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهم خاسرون في كل وقت] احترازا من الإشارة في قوله: {هنالك}؛ لئلا يظن ظان أنهم خاسرون حين نزول العذاب فقط، مع أنهم خاسرون كل وقت، وقد يقال: لا حاجة إلى ذلك- يعني: لا حاجة إلى ما قال المفسر- لأن المقصود: وخسر هنالك، أي: ظهرت خسارتهم وبانت؛ لأنه قبل أن يؤتوا بالعذاب ربما يقول القائل: إنهم ربحوا، كما قال أبو سفيان في يوم أحد، قال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال. فظن أنه ربح في ذلك اليوم، فالأولى أن تبقى الآية على ظاهرها، وألا يستدرك القرآن، فيقال: {وخسر هنالك} أي: ظهر خسرانهم وبان.

أما خسرانهم قبل نزول العذاب فهو ليس ببين، إذ قد يقول القائل: إنهم يربحون فيما إذا أدال لهم الله تعالى على الإسلام إدالة غير مستقرة، لأنه لا يجوز أن نعتقد أن الله يديل الكفر على الإسلام إدالة مستقرة، بل من ظن بالله هذا فقد ظن به ظن السوء، لكن الله تعالى يقول: {وتلك الأيام نداولها بين الناس}.

{الله الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَام} قِيلَ الْإِبِل خاصة هنا والظاهر والبقر والغنم {لتركبوا منها ومنها تأكلون}.

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠).

{وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِع} مِنْ الدَّرّ وَالنَّسْل وَالْوَبَر وَالصُّوف {وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَة فِي صُدُوركُمْ} هِيَ حَمْل الْأَثْقَال إلَى الْبِلَاد {وَعَلَيْهَا} فِي الْبَرّ {وعلى الفلك} السفن في البحر {تحملون}[1].

---

(١) قوله تعالى: {اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} [غافر: ٨٠].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {اللهُ} الذي لا تصلح الألوهة إلا له أيها المشركون به من قريش {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأنْعَامَ} من الإبل والبقر والغنم والخيل، وغير ذلك من البهائم التي يقتنيها أهل الإسلام لمركب أو لمطعم، {لِتَرْكَبُوا مِنْهَا}، يعني: الخيل والحمير، {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}، يعني: الإبل والبقر والغنم".

قال ابن كثير:"يقول تعالى ممتنا على عباده، بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم {فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} [يس: ٧٢]، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة. والبقر تؤكل، ويشرب لبنها، وتحرث عليها الأرض. والغنم تؤكل، ويشرب لبنها، والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة كما فَصَّل وبَيَّنَ في أماكن تقدم ذكرها في "سورة الأنعام» ، و "سورة النحل» ، وغير ذلك؛ ولهذا قال هاهنا: {لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ}".

=

قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ} [غافر: ٨٠]، أي:"ولكم في هذه الأنعام منافع عديدة".

قال الطبري:"وذلك أن جعل لكم من جلودها بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم، ويوم إقامتكم، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين".

قوله تعالى: {وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ} [غافر: ٨٠]، أي:"ولتبلغوا بالحمولة على بعضها حاجةً في صدوركم من الوصول إلى الأقطار البعيدة".

قال الطبري:"يقول: ولتبلغوا بالحمولة على بعضها، وذلك الإبل حاجة في صدروكم لم تكونوا بالغيها لولا هي، إلا بشق أنفسكم، كما قال جلّ ثناؤه: {وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ}".

عن قتادة، قوله: {وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ}، يعني: الإبل تحمل أثقالكم إلى بلد".

عن قتادة، قوله: {وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ}، يعني: الإبل تحمل أثقالكم إلى بلد". وفي رواية:"مِن بلد إلى بلد".

عن مجاهد: " {وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ}، يعني: «حاجاتكم في الأسفار ما كانت» ، وفي رواية: "لحاجتكم ما كانت".

قال الزمخشري:"{منها تركبون}: الركوب في الحج والغزو، وفي بلوغ الحاجة: الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم، وهذه أغراض دينية إمّا واجبة أو مندوب إليها".

قوله تعالى: {وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ} [غافر: ٨٠]، أي:"وعلى هذه الأنعام تُحْمَلون في البرية، وعلى السفن في البحر تُحْمَلون كذلك".

قال الطبري:"يعني: وعلى هذه الإبل، وما جانسها من الأنعام المركوبة، وعلى السفن نحملكم على هذه في البر، وعلى هذه في البحر".

=

عن مجاهد: " {الفلك}: السفينة".

قال العثيمين: قوله تعالى: {الله الذي جعل لكم الأنعام} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [قيل: الإبل خاصة هنا، والظاهر: والبقر والغنم].

قوله: {الله الذي جعل لكم الأنعام}، {جعل}، أي: سيرها مسخرة لكم، والجعل هنا جعل كوني، لأن الجعل المضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ يكون كونا ويكون قدرا، يعني: يكون جعلا كونيا ويكون جعلا قدريا شرعيا، ففي قوله تعالى: {ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام} [المائدة: ١٠٣]، هذا الجعل شرعي، وفي قوله تعالى: {وجعلناكم أكثر نفيرا} هذا جعل كوني. وفي قوله تعالى هنا: {الله الذي جعل لكم الأنعام} جعل كوني.

والأنعام جمع نعم. قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [قيل: الإبل خاصة. والظاهر والبقر والغنم]، بل والظاهر ما هو أعم من ذلك، وهو ما أنعم الله به علينا من الحيوان الذي سخره لنا من إبل وبقر وغنم وفيلة وغيرها، وكل شيء.

وقوله: {لتركبوا منها ومنها تأكلون} قسم الله سبحانه وتعالى هذه الأنعام إلى قسمين: قسم تركب، وقسم تؤكل ولا تركب. وعلى هذا تكون {من} في الموضعين للتبعيض، وعلامة (من) التي للتبعيض أن محل محلها كلمة (بعض)، فهنا احذف {من} وقل: "لتركبوا بعضها، وبعضها تأكلون" يستقيم الكلام، فهذه علامة (من) التبعيضية، أن يحل محلها كلمة (بعض).

وقوله: {منها ومنها تأكلون} هذا التقسيم لا يعني الانقسام، بمعنى أنه يمكن أن يوجد من الأنعام ما يؤكل وما يركب؛ مثل: الإبل؛ فإنها تؤكل وتركب.

وقوله: {ولكم فيها منافع} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [من الدر والنسل والوبر والصوف]، يعني: والشعر، وغير ذلك من المنافع، كنقل البضائع وغيرها؛ ولهذا جاءت كلمة {منافع} جمع (منفعة) بصيغة منتهى الجموع، وصيغة منتهى

=

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ (٨١).

{ويريكم آياته فأي آيات الله} أي الدالة على وحدانيته {تُنْكِرُونَ} اسْتِفْهَام تَوْبِيخ وَتَذْكِير أَيْ أَشْهَر مِنْ تأنيثه[1].

=

الجموع ما كانت على وزن (مفاعل) أو (مفاعيل).

قوله: {ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [هي حمل الأثقال إلى البلاد] {وعليها وعلى الفلك تحملون}.

قوله: {ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم} فسرها المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ بأنها حمل الأثقال، ولكن الذي يظهر أنها غير ذلك، وأنها قوله تعالى: {ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦) وتحمل أثقالكم إلى بلد} يعني: ما يكون في قلب الإنسان من محبة الفخر والخيلاء وغيرها، وإن كانت هذه الحاجات قد يكون ممنوعة كالفخر والخيلاء، لكن لا شك أن هذه حاجة لكل إنسان، أنه يجد فرحا وسرورا إذا غنم كثيرا من المواشي، من الإبل والبقر والغنم والظباء والأرانب، وغيرها، يجد الإنسان لهذا طعما في نفسه، ويمكن أن يقال أيضا: ومن الحاجات في النفس الاتجار بها، فإن بعض الناس يتجر بهذه الأنعام، والله سبحانه وتعالى لم يذكر نوع الحاجة، فيشمل كل ما يقع في القلب من مثل هذه الأمور.

وقوله: {وعليها وعلى الفلك تحملون} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وعليها} في البر، {وعلى الفلك} السفن في البحر: {تحملون}]. بين الله عَزَّ وَجَلَّ أن هذه الأنعام نحمل عليها، وكذلك السفن كما في قوله تعالى: {وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون (١٢) لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين} [الزخرف: ١٢- ١٤].

(١) قوله تعالى: {وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ} [غافر: ٨١].

قال الطبري:"يقول: ويريكم حججه".

=

=

قال ابن كثير:"أي: حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {إن في ذلك لآيات}، قال: هو الرجل يبعث بخاتمه إلى أهله".

عن سعيد بن جبير، في قوله: " {إن في ذلك لآية}، قال:"هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا".

قوله تعالى: {فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ} [غافر: ٨١]، أي:"فأي آية من آياته تنكرونها، ولا تعترفون بها؟".

قال الطبري:"يقول: فأي حجج الله التي يريكم أيها الناس في السماء والأرض تنكرون صحتها، فتكذبون من أجل فسادها بتوحيد الله، وتدعون من دونه إلها".

قال ابن كثير:"أي: لا تقدرون على إنكار شيء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا".

قال ابن جريج: "كل شيء في القرآن آيات، بذلك تعرفون الله إنكم لن تروه فتعرفونه على رؤية ولكن تعرفون بآياته وخلقه".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ويريكم}؛ أي: يظهرها لكم حتى تروها، وعلى هذا فـ (يري) من الرباعي لا من الثلاثي؛ لأنها من (أرى) (يري)؛ أي: أظهر الشيء حتى يراه الإنسان. وقوله: {آياته} جمع (آية)، والآية هي العلامة على الشيء، كما قال تعالى: {وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون} [يس: ٤١]، قال تعالى: {أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل} [الشعراء: ١٩٧]، أي: علامة. فما هي العلامة؟ الآية علامة على ما يختص بها من صفة؛ فمثلا: إذا نزل الغيث وأنبتت الأرض فهو آية على رحمة الله ﷻ، إذا اهتزت الأرض بأهلها، أو خسفت بأهلها فهو آية على سخط الله وعقابه وعلى قدرته؛ حيث يزلزل هذه الأرض الكبيرة العظيمة فيكون هذا آية على ما يختص به.

=

=

فالآيات إذن آيات على ما تختص به من صفة، لا نقول: إنها كلها آية على شيء واحد، بل نقول: منها ما يكون آية على الرحمة، وآية على العزة، وآية على الحكمة، وآية على القدرة، وهلم جرا.

إذن: {آيات} نقول: جمع (آية) وهي العلامة، وهذه الآيات لا تدل كلها على شيء معين، بل لكل آية ما يختص بها.

{فأي آيات الله تنكرون} {فأي} هنا استفهامية منصوبة على أنها مفعول مقدم لقوله: {تنكرون}. وأسألكم: لو كانت الآية تنكرونها أو تنكرونه فهل ننصب (أي) أو نرفعها؟

الجواب: نرفعها، ويجوز النصب؛ لأن هذا يكون من باب الاشتغال، وأضرب لكم مثلا من عندي حتى لا نتصرف في كلام الله، لو قلت: (زيدا أكرمت) هنا يتعين النصب على أنه مفعول مقدم، ولو قلت: (زيد أكرمته) فهنا يجوز الوجهان، والرفع أرجح؛ لأنه الأصل، أما النصب فيكون على سبيل الاشتغال، وعليه فإذا جاء معمول مقدم وعامل مؤخر لم يستوف عمله فإنه يجب أن يكون هذا المعمول السابق حسبما يقتضيه هذا العامل.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{فأي آيات الله} الدالة على وحدانيته] يعني: لو قال المفسر: ما هو أعم. لكان أحسن؛ لأنها ليست آيات دالة على وحدانية فقط، بل على الوحدانية وعلى ما يختص بتلك الآية.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{تنكرون} استفهام توبيخ، يعني: قوله: {فأي آيات الله تنكرون} وهو أيضا استفهام تحد، فهو جامع بين التوبيخ والتحدي، يعني: هذه آيات ظاهرة لا يمكنكم أن تنكروها، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وتذكير (أي) أشهر من تأنيثها]؛ لأنه يقال: (أية) ويقال: (أي) وعلى كلام المفسر يكون التذكير أشهر من التأنيث ولو كان المشار إليه مؤنثا؛ ولهذا قال: {فأي آيات الله}، و {آيات} مؤنث، ولم

=

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢).

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْض فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَة الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ كَانُوا أَكْثَر مِنْهُمْ وَأَشَدّ قُوَّة وَآثَارًا فِي الْأَرْض} مِنْ مَصَانِع وقصور {فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون}[1].

=

يقل: (فأية آيات الله) لكن في غير القرآن لو قيل: (فأية آيات الله) لكان هذا سائغا، إلا أنه مرجوح.

(١) قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [غافر: ٨٢].

قال الطبري: يقول: " أفلم يسر يا محمد هؤلاء المجادلون في آيات الله من مشركي قومك في البلاد، فإنهم أهل سفر إلى الشأم واليمن، رحلتهم في الشتاء والصيف، فينظروا فيما وطئوا من البلاد إلى وقائعنا بمن أوقعنا به من الأمم قبلهم، ويروا ما أحللنا بهم من بأسنا بتكذيبهم رسلنا، وجحودهم آياتنا، كيف كان عقبى تكذيبهم".

قوله تعالى: {كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ} [غافر: ٨٢]، أي:"وكانت هذه الأمم السابقة أكثر منهم عددًا وعدة وآثارًا في الأرض من الأبنية والمصانع والغراس وغير ذلك".

قال الطبري:"يقول: كان أولئك الذين من قبل هؤلاء المكذبيك من قريش أكثر عددا من هؤلاء وأشد بطشا، وأقوى قوة، وأبقى في الأرض آثارا، لأنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا ويتخذون مصانع".

عن مجاهد: " {وَآثَارًا فِي الأرْضِ}، المشي بأرجلهم".

=

=

قال مقاتل:"يعني: أعمالا وملكا في الأرض، فكان عاقبتهم العذاب".

قال الزمخشري:" {وَآثَارًا} : قصورهم ومصانعهم. وقيل: مشيهم بأرجلهم لعظم أجرامهم".

قال الراغب:"أثر الشيء: حصول ما يدل على وجوده، يقال: أثر وأثر، والجمع: الآثار.. ومن هذا يقال للطريق المستدل به على من تقدم: آثار".

قوله تعالى: {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [غافر: ٨٢]، أي:"فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبونه حين حلَّ بهم بأس الله".

قال مقاتل:"يقول: ما دفع عنهم العذاب أعمالهم الخبيثة".

قال الطبري:"يقول: فلما جاءهم بأسنا وسطوتنا. لم يغن عنهم ما كانوا يعملون من البيوت في الجبال، ولم يدفع عنهم ذلك شيئا. ولكنهم بادوا جميعا فهلكوا. وقد قيل: إن معنى قوله: {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ} ، فأيّ شيء أغني عنهم؛ وعلى هذا التأويل يجب أن يكون «ما» الأولى في موضع نصب، والثانية في موضع رفع. يقول: فلهؤلاء المجادليك من قومك يا محمد في أولئك معتبر إن اعتبروا، ومتعظ إن اتعظوا، وإن بأسنا إذا حلّ بالقوم المجرمين لم يدفعه دافع، ولم يمنعه مانع، وهو بهم إن لم ينيبوا إلى تصديقك واقع".

قال ابن كثير في الآية:"يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع شدة قواهم، وما أثّروه في الأرض، وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئا، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله".

قال الفخر الراوي في الآية:"اعلم أنه تعالى راعى ترتيبا لطيفا في آخر هذه السورة، وذلك أنه ذكر فصلا في دلائل الإلهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة، ثم أردفه بفصل في التهديد والوعيد وهذا الفصل الذي وقع عليه ختم هذه السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد، والمقصود أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون في

=

=

آيات الله وحصل الكبر العظيم في صدورهم بهذا، والسبب في ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير في المال والجاه، فمن ترك الانقياد للحق لأجل طلب هذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا، فبين تعالى أن هذه الطريقة فاسدة، لأن الدنيا فانية ذاهبة، واحتج عليه بقوله تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم}، يعني: لو ساروا في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين المتمردين، ليست إلا الهلاك والبوار، مع أنهم كانوا أكثر عددا ومالا وجاها من هؤلاء المتأخرين، فلما لم يستفيدوا من تلك المكنة العظيمة والدولة القاهرة إلا الخيبة والخسار، والحسرة والبوار، فكيف يكون حال هؤلاء الفقراء المساكين".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض} هذا الاستفهام يحتمل أن يكون للحث؛ وعليه فيكون بمعنى الأمر؛ أي: سيروا في الأرض، ويؤيد هذا قول الله تعالى: {قل سيروا في الأرض}. ويحتمل أن يكون للتوبيخ؛ أي: توبيخ هؤلاء عن عدم السير في الأرض.

والسير هنا يشمل السير بالقدم، والسير بالقلب، أما السير بالقلب فمرجعه إلى الأخبار الصادقة، بحيث يقرأ الإنسان عن الأمم السابقة ولا شيء أصح من كتاب الله ﷻ في الحديث عن الأمم السابقة؛ بقول الله تبارك وتعالى: {ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله} [إبراهيم: ٩]، فلا شيء أصح في الأخبار مما جاء به الكتاب العزيز وصحت به السنة، نقول: هذا سير بالقلب. والسير بالقدم أن يمشي الإنسان لينظر ما صنع الله تعالى بالمكذبين.

مثال ذلك: أن يسير الإنسان إلى ديار ثمود؛ لينظر ماذا صنع الله بهم، ولكن كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: "لا يجوز أن يدخلها إلا وهو باك" خوف أن

=

=

يصيبه ما أصاب هؤلاء المكذبين.

وأما من ذهب إليها للتنزه والفرجة فإن ذلك لا يجوز، كما يصنع كثير من الناس اليوم، يذهبون إليها لا على سبيل العظة والاعتبار، ولا يدخلونها وهم باكون، بل على سبيل الاطلاع فقط على آثار السابقين، وعلى سبيل النزهة، وهذا حرام ولا يحل.

فإن قال قائل: من ذهب إلى ديار ثمود للعبرة ولكنه لم يستطع أن يبكي فهل يتباكى؟

فالجواب: لا، وفي الحديث: "فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوها"، ورسول الله ﷺ لما مر بها قنع رأسه يعني: غطاه وخفضه وأسرع ناقته.

فإن قال قائل: إذن نقول: ابك أو ارجع.

فالجواب: نعم، نقول: ابك أو ارجع، إما أن تبكي وإما أن ترجع، فإن لم تبك وأنت مررت بالبلد فعجل وقنع رأسك، كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام.

فإن قال قائل: إذن نقول بعدم جواز من يصور هذه الصور ويريها الناس ينشرها؟

فالجواب: أي نعم، الظاهر أنه للمنع أقرب؛ وذلك لأنه إنما يريهم إياها لبيان قوة القوم، لا لبيان أن الله أهلكهم مع قوتهم، هذا هو الظاهر من هؤلاء المصورين.

فإن قال قائل: هل يشمل هذا كل الآثار القديمة أو التي عذبت فقط؟

فالجواب: نحن قرأنا آية تدل على المراد {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها}.

فإن قال قائل: بعض القوم السابقين دمرهم الله سبحانه وتعالى خارج ديارهم، مثل الفراعنة، هل نقول: لا ندخل آثارهم كديار ثمود؟

فالجواب: لا، وعلى هذا نقول: لنا أن ندخل المكان الذي أغرق فيه فرعون، ولنا أن ندخل مصر أيضا؛ لأنه لم يهلك فرعون في مصر.

=

=

وقوله: {أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة} إعراب الجملتين أن نقول: إن (لم) حرف نفي وجزم وقلب، حرف نفي؛ لأنها تنفي، وجزم لأنها تجزم، قلب لأنها تحول المضارع إلى الماضي، والفاء في قوله {أولم يسيروا} عاطفة لا شك، لكن: هل هي عاطفة على مقدر محذوف، أو عاطفة على ما قبلها من الجمل؟

في ذلك قولان:

القول الأول: أنها عاطفة على محذوف مقدر بعد الهمزة، ويقدر بما يناسب المقام، وعلى هذا فترتيبها بعد الهمزة ترتيب طبيعي.

والثاني: أنها عاطفة على الجملة السابقة، وبناء على ذلك تكون الفاء هنا مزحلقة عن موضعها؛ إذ إن موضعها يكون قبل الهمزة.

والقولان معروفان لأهل العلم بالنحو، على التقدير الأول أنها عاطفة على مقدر بعد الهمزة يكون المعنى: أغفلوا فلم يسيروا في الأرض.

وقوله: {أفلم يسيروا في الأرض} أي: على الأرض؛ لأن {فى} للظرفية، ولو جعلنا {فى} للظرفية في هذا السياق لكان معنى الآية: أن يدخلوا في جوف الأرض، وهذا غير مراد قطعا، فتكون {فى} بمعنى (على)؛ كقوله تعالى: {أأمنتم من في السماء} [الملك: ١٦] أي: من على السماء، وليس المراد أن الله في جوف السماء؛ لأن ذلك مستحيل فقد وسع كرسيه السموات والأرض.

وقوله: {فينظروا} الفاء عاطفة على {يسيروا} وعلى هذا يكون المعنى: أفلم يسيروا فلم ينظروا. ويحتمل أن تكون منصوبة بعد فاء السببية؛ أي: انتفى سيرهم {فينظروا}، كما تقول: لم تزرني فأكرمك ... وما أشبه ذلك من الكلام.

وقوله: {كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم} {كيف} هذه اسم استفهام، وهي محل نصب خبر {كان} مقدما، و {عاقبة} اسمها. {عاقبة الذين كانوا من

=

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣).

=

قبلهم}، والعاقبة ذكرها الله تعالى في سورة القتال في قوله: {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها} [محمد: ١٠].

هذا هو فائدة النظر: أن هؤلاء القوم المكذبين كانوا أشد من هؤلاء قوة، ومع ذلك دمرهم الله ﷻ {كانوا أكثر منهم} أي: في العدد. {وأشد قوة} أي: في الكيفية. فصاروا متميزين عنهم في العدد والكيفية.

{وآثارا في الأرض} يعني: من العمران والقصور وغيرها، ومع ذلك لم تنفعهم هذه الكثرة ولا هذه القوة، قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: المصانع والقصور]، {فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون} (ما) نافية، و {أغنى} فعل ماض {ما كانوا يكسبون} (ما) اسم موصول فاعل {كانوا يكسبون} صلة الموصول، ويحتمل أن تكون (ما) استفهامية والمعنى: فما الذي أغنى عنهم ما كسبوا، والاستفهامية أبلغ، لأنها تتضمن النفي مع التحدي؛ أي: أي شيء أغنى عنهم كسبهم حين دمرهم الله؟

إن كانت نافية فالمعنى: ما أغنى عنهم كسبهم شيئا، وإن كانت استفهامية، فالتقدير: ما الذي أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، ونظير ذلك قوله تبارك وتعالى: {أفرأيت إن متعناهم سنين (٢٠٥) ثم جاءهم ما كانوا يوعدون (٢٠٦) ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون} [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧]؛ أي: أي شيء أغنى عنهم، أو أن المعنى نفي الإغناء.

{فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلهمْ بِالْبَيِّنَاتِ} الْمُعْجِزَات الظَّاهِرَات {فَرِحُوا} أي الكفار {بما عندهم} أي الرسل {من العلم} فرح استهزاء وضحك مُنْكِرِينَ لَهُ {وَحَاقَ} نَزَلَ {بِهِمْ مَا كَانُوا به يستهزءون} أي العذاب[1].

---

(١) قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} [غافر: ٨٣].

في الآية وجوه من التفسير:

أحدها: أنهم قالوا: نحن أعلم منهم، لن نُعَذَّبَ، ولن نُبْعَثَ، قاله مجاهد.

قال الطبري: يقول: " فلما جاءت هؤلاء الأمم الذين من قبل قريش المكذّبة رسلها {رُسُلُهُمْ} الذين أرسلهم الله إليهم بالواضحات من حجج ﷻ، فرحوا جهلا منهم بما عندهم من العلم وقالوا: لن نُبْعَثَ، ولن يُعذّبنا الله".

قال ابن كثير:"لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل".

قال الزمخشري:"أراد العلم الوارد على طريق التهكم في قوله تعالى: {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ} [النمل: ٦٦]، وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون: لا نبعث ولا نعذب، {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى} [فصلت: ٥٠]، {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} [الكهف: ٣٦]، وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به البينات وعلم الأنبياء، كما قال ﷻ كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ".

الثاني: فرحوا بما كان عندهم أنه عِلْم، وهو جهل، قاله السدي.

قال السدي:"بجهالتهم".

الثالث: فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به، كأنه قال: =

=

استهزؤا بالبينات وبما جاءوا به من علم الوحى فرحين مرحين. ويدل عليه قوله تعالى وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ} . ذكره الزمخشري.

وحكي الماوردي عن ابن زيد، قال: "رضوا بعلمهم واستهزأوا برسلهم".

الرابع: يريد علم الفلاسفة والدهريين من بنى يونان، وكانوا إذا سمعوا بوحي الله: دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم. ذكره الزمخشري.

وعن سقراط: "أنه سمع بموسى صلوات الله عليه وسلامه، وقيل له: لو هاجرت إليه فقال: نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا".

الخامس: يريد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال تعالى: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: ٧]، {ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} [النجم: ٣٠، فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات- وهي أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف عن الملاذ والشهوات- لم يلتفتوا

إليها وصغروها واستهزؤا بها، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم، ففرحوا به. ذكره الزمخشري.

قال الصابوني: فلما جاءتهم الرسل بالمعجزات الظاهرات، والآيات الواضحات، فرح الكفار بما هم عليه من العلم الدنيوي، الخالي عن نور الهداية والوحي، فرح بطرٍ وأشر، وأغتروا بذلك العلم".

السادس: أن المشار إليهم هم الرسل، والمعنى: فرح الرُّسل لمّا هلك المكذِّبون ونَجَوْا بما عندهم من العِلْم بالله إذ جاء تصديقُه، حكاه ابن عيسى ، وأبو سليمان.

قال الزمخشري:"معناه: أن الرسل لما رأوا جهلهم المتمادى واستهزائهم بالحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واستهزائهم: فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه، وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم".

=

=

قوله تعالى: {وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [غافر: ٨٣]، أي:"وحلَّ بهم من العذاب ما كانوا يستعجلون به رسلَهم على سبيل السخرية والاستهزاء".

قال الطبري:"يقول: وحاق بهم من عذاب الله ما كانوا يستعجلون رسلهم به استهزاء وسخرية".

قال ابن كثير:"أي: أحاط بهم {مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، أي: يكذبون ويستبعدون وقوعه".

عن مجاهد، قوله: " {وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، ما جاءتهم به رسلهم من الحقّ".

عن مجاهد: " {وحاق بهم}، أي: حل بهم، {ما كانوا به يستهزئون}، يعني: " بما جاءتهم به رسلهم من الحق، يقول: استهزءوا به".

قال السدي:"وقع بهم العذاب الذي استهزءوا به".

عن يزيد بن أبي مالك -من طريق ابنه خالد- قال: "كان يُقال: الجنة مائة درجة، في كل درجة مائة درجة، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فيهِنَّ الياقوت والحُلِيِّ، في كل درجة أمير، يرون له الفَضْل والسُّؤْدَد".

عن ابن عمر قال: "إن أسفل أهل الجنة درجة، للذي ينظر في ملكه مسيرة ألف سنة وإن أرفع أهل الجنة درجة للذي ينظر إلى الله غدوة وعشيا".

عن أبي الدرداء، عن النبي- ﷺ -، قال: «ثلاث مَن كُنَّ فيه لم ينل الدرجات العلى: مَن تَكَهَّن، أو اسْتَقْسَم، أو ردَّه مِن سفره طِيَرَةٌ».

قال العثيمين: قوله تعالى: {فلما جاءتهم رسلهم بالبينات} هذا الذي أتى بعد ذكر تدميرهم هو في الحقيقة عود إلى شرح ما حصل، فإن الله أرسل إليهم الرسل بالبينات الواضحة، وأنزل الكتب، ولكن {فلما جاءتهم رسلهم بالبينات} قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [المعجزات الظاهرات]، والصواب أن يقول: الآيات البينات. هو

=

=

رَحِمَهُ اللَّهُ جعل البينات بمعنى: الظاهرات، وهذا حق، وجعل البينات صفة لموصوف محذوف تقديره: المعجزات، وهذا فيه نظر، بل يقدر: الآيات، وذلك لأن المعجزات لم ترد في الكتاب والسنة محل الآيات أبدا.

وأيضا المعجزات تكون من الرسل وغير الرسل، فالسحرة مثلا تأتي لهم الشياطين بالمعجزات، لكن الآيات يعني: العلامات الدالة على صدقهم. هذه أبلغ؛ ولهذا إذا وجدتم في الكتب- وما أكثر ما تجدون المعجزات، أو معجزات الأنبياء، أو ما أشبه ذلك- فاضربوا عنها صفحا وقولوا بدلها: الآيات. كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: الآيات. والآيات -كما قلت- أدق من كلمة المعجزات؛ لأن المعجزات يدخل فيها ما يعجز البشر مما تصنعه الشياطين مع السحرة وغيرهم.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فرحوا} أي: الكفار {بما عندهم} أي: الرسل من العلم فرح استهزاء وضحك منكرين لها].

{فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا} الواو فاعل فمن الفارح؛ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: الكفار]، وهذا صحيح فرح الكفار {بما عندهم من العلم}.

وقوله: {بما عندهم} الضمير يعود على الرسل على حد تفسير المفسر بما عند الرسل من العلم؛ أي: بما جاؤوا به من البينات، لكن هل هذا الفرح فرح استبشار أو فرح استهزاء؟ يقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه فرح استهزاء وضحك وسخرية؛ ولكن هذا التفسير إذا تأملته وجدته تحريفا وليس تفسيرا؛ لما فيه من البعد المعنوي واللفظي.

أما البعد اللفظي فلأن فيه تشتيت الضمائر؛ لأن قوله: {فرحوا} الواو للكفار {بما عندهم} الهاء للرسل، هذا تشتيت للضمائر، والهاء في قوله: {بما عندهم} إذا جعلنا الكلام نسقا واحدا لا شك أنها تعود على الكفار؛ أي: بما عند الكفار من العلم.

=

=

وأما البعد المعنوي؛ فلأن الفرح في الأصل استبشار، فإذا صرفناه عن معناه الظاهر إلى أن يكون فرح استهزاء كان هذا إخراجا للمعنى عما يدل عليه ظاهر اللفظ.

والحاصل: أن هذا التفسير الذي ذكره المفسر تفسير ضعيف جدا، بل هو تحريف، والصواب أن المعنى: فرح الكفار بما عندهم؛ أي: بما عند الكفار من العلم، وقالوا: نحن أعلم بما يصلحنا وما يصلح دنيانا وديننا الذي نحن عليه، فأنتم أيها الرسل سحرة مجانين، كما قال تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} [الذاريات: ٥٢]، وإذا كانوا يعتقدون بقلوبهم، أو يقولون بألسنتهم ما لا يعتقدون من أن الرسل سحرة مجانين فإنهم لا شك سيجعلون ما عندهم من العلم هو العلم الحقيقي فيفرحون به.

وعلى هذا فنقول: الفرح هنا فرح بطر واستبشار فيما يظنون أنهم على علم أعلى من علم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام {فرحوا بما عندهم من العلم}، ويعجب الإنسان أحيانا فيما يذهب إليه بعض العلماء من تفسير الآيات أو الأحاديث، الآن لو قرأت هذه الآية على إنسان عامي {فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم} فعلى أي شيء يتنزل الضمير في قوله: {بما عندهم} عند هذا العامي؟

الجواب: على الكفار {فرحوا بما عندهم} والإنسان يفرح بما عنده لا بما عند غيره.

قوله: {وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون} {وحاق} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [نزل]، لكنها- أعني: {حاق}- ليست كـ(نزل) من كل وجه؛ لأن (نزل) تكون بالخير وبالشر {نزل به الروح الأمين (١٩٣) على قلبك} هذا خير، لكن (حاق) لا تأتي إلا في الشر، فلا يقال: حاق به القرآن، أو حاق عليه القرآن. كما يقال: نزل عليه. فـ(حاق) هنا بمعنى: (نزل)، لكنها لا تستعمل إلا في نزول الشر، وهو شر بالنسبة

=

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤).

{فلما رأوا بأسنا} أي شدة عذابنا {قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين}.

فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥).

{فَلَمْ يَكُ يَنْفَعهُمْ إيمَانهمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسنَا سنت الله} نَصْبه عَلَى الْمَصْدَر بِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ مِنْ لَفْظه {الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَاده} فِي الْأُمَم أَنْ لَا يَنْفَعهُمْ الْإِيمَان وَقْت نُزُول الْعَذَاب {وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} تَبَيَّنَ خُسْرَانهمْ لِكُلِّ أَحَد وَهُمْ خَاسِرُونَ فِي كُلّ وَقْت قَبْل ذلك[1].

=

لمن نزل به، وقد يكون خيرا بالنسبة لغيره.

{وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون} {ما} فاعل {حاق}، و {كانوا به يستهزئون} يعني: فيما سبق؛ أي: أنهم لما جاءهم بأس الله ﷻ ونزل بهم حاق بهم ما كانوا يستهزئون به فيما سبق، حيث كانوا يستهزئون بالرسل، وبما جاؤوا به، وبالشرائع، بل ربما يستهزئون بالله ﷻ.

انظر إلى قول الله تعالى: {قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون} [التوبة: ٦٥]، يتبين لك أن الكفار يستهزئون بالله، ويستهزئون بآيات الله، ويستهزئون بالرسل.

وقوله: {وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون} [أي: العذاب] أي: حاق بهم العذاب الذين كانوا يستهزئون به حين توعدتهم الرسل به، فجعلوا يستهزئون: أين العذاب الذي تقولون؟ أي: كانوا يستفهمون استهزاء.

(١) قوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ} [غافر: ٨٤].

قال الطبري: يقول: " فلما رأت هذه الأمم المكذّبة رسلها عقاب الله الذي

=

=

وعدتهم به رسلُهم قد حلّ بهم، قالوا: أقررنا بتوحيد الله، وصدقنا أنه لا آله غيره".

عن السديّ: " {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا}، قال: النقمات التي نزلت بهم".

قوله تعالى: {وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ} [غافر: ٨٤]، أي:"وكفرنا بما كنا به مشركين في عبادة الله".

قال ابن أبي زمنين:"أي: بما كنا به مصدقين من الشرك".

قال الثعلبي:"أي: تبرأنا مما كنا نعدل بالله".

قال الطبري:"يقول: وجحدنا الآلهة التي كنا قبل وقتنا هذا نشركها في عبادتنا الله ونعبدها معه، ونتخذها آلهة، فبرئنا منها".

قال ابن كثير:"{فَلَمَّا} عاينوا وقوع العذاب بهم، وحدوا الله وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تُقَال العثرات، ولا تنفع المعذرة. وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: {آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس: ٩٠]، قال الله تبارك وتعالى: {آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس: ٩١] أي: فلم يقبل الله منه؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى دعاءه عليه حين قال: {وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [يونس: ٨٨]".

قوله تعالى: {فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} [غافر: ٨٥]، أي:"فلم يك ينفعهم إيمانهم هذا حين رأوا عذابنا؛ وذلك لأنه إيمان قد اضطروا إليه، لا إيمان اختيار ورغبة".

قال الطبري: يقول:"فلم يك ينفعهم تصديقهم في الدنيا بتوحيد الله عند معاينة عقابه قد نزل، وعذابه قد حل، لأنهم صدقوا حين لا ينفع التصديق مصدقا، إذ كان قد مضى حكم الله في السابق من علمه، أن من تاب بعد نزول العذاب من الله على تكذيبه لم تنفعه توبته".

=

=

قال قتادة:"لما رأوا عذاب الله في الدنيا لم ينفعهم الإيمان عند ذلك".
قوله تعالى: {سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ} [غافر: ٨٥]، أي:"سنة الله وطريقته التي سنَّها في الأمم كلها أن لا ينفعها الإيمان إذا رأوا العذاب".
قال قتادة:"يقول: كذلك كانت سنة الله في الذين خلوا من قبل إذا عاينوا عذاب الله لم ينفعهم إيمانهم عند ذلك".
قال ابن أبي زمنين:"المشركين أنهم إذا كذبوا رسلهم أهلكهم بالعذاب ، ولا يقبل إيمانهم عند نزول العذاب، [و] {سنة الله} منصوب على معنى: سن الله هذه السنة في الأمم كلها؛ ألا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب".
قال الطبري: " يقول: ترك الله تبارك وتعالى إقالتهم، وقبول التوبة منهم، ومراجعتهم الإيمان بالله، وتصديق رسلهم بعد معاينتهم بأسه، قد نزل بهم سنته التي قد مضت في خلقه، فلذلك لم يقلهم ولم يقبل توبتهم في تلك الحال".
قال ابن كثير:"أي: هذا حكم الله في جميع مَنْ تاب عند معاينة العذاب: أنه لا يقبل؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» ، أي: فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة، وعاين الملك، فلا توبة حينئذ".
قوله تعالى: {وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [غافر: ٨٥]، أي:"وهلك عند مجيء بأس الله الكافرون بربهم، الجاحدون توحيده وطاعته".
قال الطبري: " يقول: وهلك عند مجيء بأس الله، فغبنت صفقته ووضُع في بيعه الآخرة بالدنيا، والمغفرة بالعذاب، والإيمان بالكفر، الكافرون بربهم الجاحدون توحيد خالقهم، المتخذون من دونه آلهة يعبدونهم من دون بارئهم".
قال مقاتل:"يقول: غبن عند ذلك {الْكَافِرُونَ} بتوحيد الله- ﷻ-، فاحذروا يا أهل مكة سنة الأمم الخالية فلا تكذبوا محمدا ﷺ".
قال الزجاج:"المبطلون والكافرون خاسرون في ذلك الوقت وفي كل وقتٍ

=

=

خاسرون، ولكنه تعالى بيَّن لهم خُسْرانَهُمْ إذا رأوا العذاب".

قال الثعلبي: "{وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُون}، بذهاب الدارين".

قال تاج القراء: "قوله {وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُون} [غافر: ٧٨]، وختم السورة بقوله: {وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُون} [غافر: ٨٥]، لأن الأول متصل بقوله {قضي بالحق} ونقيض الحق الباطل والثاني متصل بإيمان غير مجد ونقيض الإيمان الكفر".

قال العثيمين: قوله تعالى: {فلما رأوا بأسنا} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: شدة عذابنا]. {رأوا} يعني بأبصارهم، يعني: رأوه رؤية العين، والبأس أشد العذاب.

{قالوا آمنا بالله وحده}؛ أي: دون شركائنا ودون ما كنا نعبده، وهذا غاية الإخلاص، ثم أكدوا هذا بقولهم: {وكفرنا بما كنا به مشركين} {بما} الباء حرف جر متعلقة بـ {وكفرنا}، و {به} يحتمل أن تكون للسببية؛ أي: بما كنا بسببه مشركين، وأن تكون متعلقة بـ {مشركين} تعلق الجار بعامله، المعنى: أنهم لما رأوا عذاب الله آمنوا، ولكن هل ينفعهم هذا الإيمان؟ لا، إن فرعون لما غرق وأدركه الغرق قال: {آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل} [يونس: ٩٠]، ولكن قيل له: {آلآن} يعني: أتؤمن الآن؟! {وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين}، فلم ينفعه إيمانه، وقال الله تعالى: {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن} [النساء: ١٨]، هذا لا تنفعه التوبة؛ لأنه رأى وشاهد، شاهد ما كان غيبا يكفر به، والإيمان عن مشاهدة لا يفيد؛ لأن كل إنسان يؤمن بما يشاهد، ولو كان أكفر الناس، وإنما الذي يحمد عليه الإنسان وينجيه من عذاب الله أن يؤمن بالغيب، كما قال تعالى: {الذين يؤمنون بالغيب}.

ثم قال الله تعالى: {فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا} {فلم يك} أصلها: (لم

=

=

يكن)، لكن حذفت النون تخفيفا، وقد جاء الحذف والإبقاء في آيتين من كتاب الله، فقال تعالى في إبراهيم: {ولم يك من المشركين} [النحل: ١٢٠]، وهذا الحذف تخفيف، وله شروط معروفة في كتب النحو.

{فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا} إيمان هل تعربونها على أنها اسم (يكن) مؤخر، أو على أنها فاعل (ينفع) واسمها مستتر؟

الجواب: الثاني، والتقدير على هذا: فلم يك إيمانهم ينفعهم. أما على الأول فيكون (ينفع) {فلم يك ينفعهم إيمانهم}، فيكون اسمها ضمير الشأن اسم {يك} محذوف.

وقوله: {لما رأوا بأسنا} {لما} هنا ظرف بمعنى: حين، واعلم أن (لما) تأتي في اللغة العربية على أوجه:

الأول: أن تكون ظرفا بمعنى (حين) كما في هذه الآية، فإن معنى {فلما رأوا بأسنا} أي: حين رأوا بأسنا. وتأتي جازمة، مثل قوله تعالى: {بل لما يذوقوا عذاب}، وهي للنفي أيضا {لما يذوقوا عذاب} جازمة ونافية، لكن الفرق بينها وبين (لم) أن {لما} تفيد قرب مدخولها {لما يذوقوا عذاب}، ولكن سيذوقونه قريبا، بخلاف (لم) فتأتي للنفي المطلق، وتأتي (لما) شرطية، كقوله تعالى: {فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به}، وتأتي بمعنى: (إلا) كما في قوله تعالى: {إن كل نفس لما عليها حافظ}، وكذلك قوله: {وإن كل لما جميع لدينا محضرون} فهذه أربعة معان في (لما).

قال تعالى: {سنت الله التي قد خلت في عباده} {سنت} يقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [نصبه على المصدر بفعل مقدر من لفظه] {سنت} بمعنى: طريقة؛ أي: هذه طريقة الله، و {سنت} في مثل هذا التركيب يجوز أن تكون مرفوعة؛ أي: "سنة الله" على أنها خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هذه سنة الله، ويجوز أن تكون منصوبة،

=

=

والمفسر رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إنها منصوبة على المصدر بفعل مقدر من لفظه؛ أي: سن الله بهم سنة الله، ويجوز أن تكون مصدرا عامله محذوف، لكنه مقدر من الجملة التي قبله؛ لأن هذه العبارة بمعنى ما قبلها تماما، يعني: سنة الله، بمعنى ما قبلها وهي أخذ المكذبين بالعذاب، فتكون منصوبة بمضمون الجملة لا بفعل مقدر، وما ذكره المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ وجه لا شك، والمهم أن السنة بمعنى: الطريقة، وطريقة الله تعالى إهلاك المكذبين وتعذيبهم، وأنهم لو آمنوا بعد نزول العذاب لم ينفعهم.

فإن قال قائل: في رسم القرآن هنا {سنت} التاء فيها مفتوحة والقاعدة أنها مربوطة؛ لأنها لمفرد.

فالجواب: إن الرسم العثماني ليس على القواعد المعروفة الآن، بل هو توقيف، وقد اختلف العلماء رحمهم الله: هل يجب أن يرسم القرآن بالرسم العثماني أو لا يجب، أو يفصل بين أن يلقن التلاميذ الصغار أو الكبار؟ على ثلاثة أقوال:

القول الأول: إنه لا يجوز أن يرسم القرآن إلا بالرسم العثماني على كل حال، حتى وإن كنت تعلم الصبيان فعلى الرسم العثماني، فتكتب: {إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا} [النساء: ١٠٣] تكتب: {الصلاة} بالواو، حتى وإن كنت تدرس صبيا اتباعا للرسم {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة} فـ {الزكاة} بالواو، و {الصلاة} بالواو؛ لأن هذا هو الرسم العثماني.

وقال بعضهم: بل لا يجب؛ لأن الرسم العثماني حين رسم المصحف صادف أنه على هذا الوجه، ولو كان الرسم العثماني على غير هذه القاعدة لكتب بحسب القاعدة التي كانت في ذلك الوقت، فالمسألة ليست توفيقية، لكن صادف أن الرسم في ذلك الوقت على هذا الوجه فرسم القرآن عليه؛ وذلك لأن القرآن لم ينزل مكتوبا حتى نقول: لا بد أن يكون كما كتب. بل نزل مقروءا، وقاعدة الرسم تختلف من حين لآخر، وهذا القول له وجه قوي؛ لأنا نعلم علم اليقين أنه لو

=

=

كانت قاعدة الرسم على غير هذا الوجه في ذلك العهد؛ لكتب بمقتضى القاعدة المعروفة في ذلك العهد.

والقول الثالث: يقول: إن كان القرآن مكتوبا للصبيان للتعلم فاكتبه على القاعدة المعروفة بينهم، وإن كان للكبار يعني: يكتب الإنسان مصحفا فليكتبه على حسب الرسم العثماني، وهذا فيه جمع بين القولين؛ لأنك لو ترسم القرآن للصبي على حسب الرسم العثماني لحرفه؛ لأن القاعدة التي بين يديه تخالف الرسم فيحرفه، فيقرأ مثلا: {الزكاة} الزكوت، و {الصلاة} الصلوات، و {الربا} الربو، وهلم جرا.

فأنا أميل إلى أنه لا بأس أن يكتب بمقتضى القاعدة الحاضرة بالنسبة للمتعلم، لا شك في ذلك بالنسبة لغيره في احتمال، ولكن القول بالمنع فيه نظر.

{التي قد خلت في عباده} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [في الأمم أن لا ينفعهم الإيمان وقت نزول العذاب]، هذه واحدة، والثانية: أن يعذب المكذبين. فالسنة التي استفدناها من هذه الآية شيئان:

أولا: إهلاك المكذبين، والثاني: أنه لا ينفعهم إيمانهم إذا رأوا العذاب.

قوله: {وخسر هنالك الكافرون} {وخسر} فسرها المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ بمعنى: [تبين خسرانهم لكل أحد، وهم خاسرون في كل وقت قبل ذلك].

{وخسر هنالك الكافرون} معلوم أن {هنالك} ظرف مكان، هذا هو الأصل، فهي اسم إشارة إلى المكان.

وقد تستعار إشارة للزمان، فتقول هنالك؛ أي: في ذلك الوقت، ومنه هذه الآية انتبه، الآن إذا قلت: فلان هناك. هذا ظرف مكان، وهذا هو الأصل، ولو قلت مثلا: قدم فلان هناك. تشير إلى الوقت صارت إشارة للزمان، لكن هذا خلاف الأصل، بقي علينا أن يقال: خسر في ذلك الوقت الكافرون. أليس الكافرون

=

=

خاسرين في كل وقت؟ بلى، لكن تبين خسرانهم وظهر؛ لأنهم كانوا قبل أن ينزل عليهم العذاب يظنون أنهم رابحون؛ ولهذا فرحوا بما عندهم من العلم، لكن إذا نزل بهم العذاب ظهر لهم الخسران.

فإن قال قائل: الله سبحانه وتعالى قال في الآية الأولى: {وخسر هنالك الكافرون} [غافر: ٨٥] وفي آخر السورة قال: {وخسر هنالك الكافرون} فما فائدة التغيير؟

فالجواب: الفائدة من هذا هو بيان أن كل كافر هو مبطل ليس معه حق، وكل مبطل لا يقول إلا الباطل فهو كافر يعني: المبطل في كل أحواله فهو كافر ليس معه شيء من الحق، والكافر مبطل ليس معه شيء من الحق أيضا، فاختلاف التعبير لزيادة المعنى، كما يكون أيضا في اختلاف القراءات أحيانا، كقول الله تبارك وتعالى: {لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا}، وفي قراءة أخرى: "تستأذنوا" {إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا}، وفي قراءة: "فتثبتوا"، فتكون القراءة هذه مفسرة للقراءة الثانية.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها- غ- قوله تعالى: (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ) (غافر: ٧)، وفي سورة الشورى: (وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ) (الشورى: ٥)، للسائل أن يسأل عن الوجه في تخصيص سؤال الاستغفار للمؤمنين في الأولى وتعميمه في الثانية؟

والجواب، والله أعلم: أن ذلك جار بحسب المناسبة، ولما تقدم الآية الأولى فيما ختمت به سورة الزمر من ذكر المتقين في قوله تعالى: (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا) (الزمر: ٧٣)، وقول الداخلين عند دخولهم الجنة: (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) (الزمر٧٣)، وقول الداخلين عند دخولها: (الْحَمْدُ لِلَّهِ

=

=

الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ) (الزمر ٧٤)، إلى ختام السورة، ثم تبع ذلك قوله تعالى في مطلع سورة المؤمن: (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ) (غافر: ٣)، ناسب هذا استغفار الملائكة للمتصفين بصفات المذكورين، ويشهد لهذا ما ورد بعده من قوله تعالى مخبراً عن ملائكته بقولهم داعين: (فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ) (غافر: ٧)، وأما قوله تعالى أثناء هذه الآية: (مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ) (غافر: ٤)، وقوله: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) (غافر: ٥) إلى قوله: (فَأَخَذْتُهُمْ)، فتأنيس للمؤمنين وباعث على شكر النعمة على ما من به عليهم من هدايتهم وسلامتهم من موجب أخذ من كذب وعاند، فبان التناسب في هذا كله.

وأما سورة الشورى فتقدمها قوله تعالى في خاتمة سورة السجدة: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) (فصلت: ٥٢) إلى قوله: (أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ) (فصلت: ٥٤)، (ثم) اتبع هذا في مطلع سورة الشورى بقوله تعالى: (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) (الشورى: ٥)، فناسب هذا استغفارهم لمن في الأرض لعظيم ما تقدم منهم مما أشار إليه قوله: (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ)، فلولا حلمه تعالى لتعجل هلاكهم، فاستغفار الملائكة إبقاء سبحانه عليهم إذ لا يفوتونه، وقد يؤمن من سبقت له السعادة منهم، فقد وضح مناسبة الوارد في الموضعين لما بني عليه، وإن عكس الوارد غير مناسب، والله أعلم بما أراد.

الآية الثانية من سورة المؤمن- قال تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (غافر: ٥٧)، وقال: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) (غافر: ٥٨- ٥٩)،

=

=

ثم قال: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ * اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) (غافر: ٦٠- ٦١)، للسائل أن يسأل عن اختصاص كل آية من هذه الثلاث بما فصلت به؟ فقيل في الأولى: (لَا يَعْلَمُونَ)، وفي الثانية: (لَا يُؤْمِنُونَ)، وفي الثالثة: (لَا يَشْكُرُونَ).

والجواب عن ذلك مجملًا، والله أعلم: أن المخاطبين ممن عقل لو نظروا واعتبروا لعملوا، ولو علموا لآمنوا، ولو آمنوا واستوضحوا النعم لشكروا، وبسط هذا الإجمال أن قوله تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) (غافر: ٥٧) مبسوط الدلالة فى آية البقرة وهى قوله: (نَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...) (البقرة: ١٦٤) ثم ورد فى الكتاب العزيز بيان الدلالة بكل فصل من هذه الآيه فقال تعالى: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) (ق: ٦) وقال تعالى: (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ) (الملك: ٥) وقال تعالى: (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا) (الانبياء: ٣٢) وقال تعالى: (اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) (الرعد: ٢) الى ما جعل تعالى فيها من آيات الشمس والقمر والنجوم والكواكب السيارة وجريها فى بروجها: (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس: ٤٠) إلى إدخال الليل على النهار والنهار على الليل بتدرج لا يخل الابصار، إلى إنزال القطر من السماء إلى الأرض عند حاجتها فتنبت من كل زوج بهيج وتخرج من أنواع الثمرات مختلفات الألوان والطعوم: (يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ) (الرعد: ٤) الى جعل الأرض مهادا، وإرسائها بالجبال، وجرى الأنهار بالمنافع، وتهيئة البحار لرجوع ما يفضل عن حاجة الأرض وعمارها من الحيوان

=

=

العاقل وغير العاقل إليها، وتسنيد الأرض لجرى المياه لئلا تقف فتضر معالمها ولا يتم لهم النفع بها، وهذا مع دحوها دحوا يتهيأ به التصرف والمشى فى مناكبها لمصالح الخليقه ومنافعهم، وجعل ماء البحر مالحا لئلا تتغير رائحته لطول مكثه، وتسخير الحيوان لتحريك مياه البحار من اسفلها، وتسخير الرياح المختلفه لتحريكها من اعلاها، فيحرز ذلك بقاء مياهها سالمه من النتن والجمود على مرور الايام وليصل العباد إلى منافعهم بالتصرف فيها إلى حيث شاؤوا باختلاف الرياح الحاملة (فيها) والمبددة لما يتصاعدمن أبخرة الخلق وانفاسهم، إذ لولا تبديدها لركدت فى الجو واضرت العالم، إلى تقلب فصول السنة بتصاعد الشمس من برج الجدى إلى سرطانها ثم انحدارها الى الجدى جريا محكم الترتيب لانتقال النبات بإذن الله، وإصلاح ابدان الحيوان، وإنضاج الفواكه وتهيئتها بالانتفاع بها. وتلوينها وترطيبها بحركة الشمس والقمر، إلى ما يقصر عن استيعابه الذكر، ذلك تقدير العزيز العليم، أفيتكون شئ من هذا بنفسه، أو يوجده نظيره ومماثله فى الافتقار والاضطرار؟ لقد شهدت الجمله ودلت أجزاؤها على الخالق المنزه عن سماتها، المتعالى عن شبهها، المتقدس عن الند والمثل والشريك والنظير، المنفرد بالخلق والتدبير، (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا) (الانبياء: ٢٢) فحق اللآيه الكريمه المشيرة إلى ما وقع الإيماء إلى بعضه أن يكون ختامها: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (غافر: ٥٧).

ثم قال تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) (غافر: ٥٨) فضرب سبحانه المثل بذكر الاعمى والبصير، وهما حالا المعتبر بخلق السماوات والأرض وغير المعتبر، وحالا المؤمن الموفق للاعتبار والمسيئ بتركه، ثم أعقب بذكر الساعة التى لا يعلم كنهها إلا من الخبر الصدق، فحق لهذه الآيه أن يكون ختامها: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) (غافر ٥٩). لو اعتبروا أولا ونظروا فى معجزات الرسل

=

سورة السجدة(١)

=

لوضح لهم صحة ما جاؤوا به وصدقوا بالساعة.

ثم أعقب من ذكر نعمه بجعل الليل سكنا لراحة الحيوان وسكونه والنهار مبصرا- أى يبصر فيه- لتصرف الخلق فى معائشهم، إلى ما ينجر فى الليل والنهار مما لا يحصى، وأوضحها ما نصت عليه الآيه، فحق لهذه أن يكون ختامها: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) (غافر: ٦١)، فقد تبين مناسبة هذه الخواتم لما ختم به، والله سبحانه أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٣١-٤٣٣).

(١) السورة مكِّيّة بالاتِّفاق. قال ابن الجوزي:"مكية كلها بإجماعهم".

وقال أبو حيان: " هذه السورة مكية بلا خلاف".

* عدد آياتها أَربع وخمسون فى عدّ الكوفة، وثلاث فى عدّ الحجاز، واثنتان فى عَدّ البصرة، والشَّأْم. وكلماتها سبعمائة وست وتسعون. وحروفها ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسون. المختلف فيها آيتان: حم {عَادٍ وَثَمُوْدٍ} مجموع فواصل آياتها (ظن طب حرم صد)

* وللسّورة اسماء:

الإسم الأول: «سورة فصلت» لوقوع كلمة: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ} [فصلت: ٣] في أولها، فعُرفت بها.

الإسم الثاني: «حم السجدة»: تسمى «حم السجدة» بإضافة «حم» إلى «السجدة»، وبذلك ترجمت في «صحيح البخاري»، لأنها تميزت عن السور المفتتحة بحروف «حم» بأن فيها سجدة من سجود القرآن.

قال المهايمي:"سميت بها لاشتمالها على آية سجدة. تدل على بطلان عبادة المظاهر بالكلية. وأن الله يستحق بذاته أجل العبادات، وهذا من أعظم مقاصد

=

=

القرآن".

• الإسم الثالث: «سورة السجدة»: وسميت في معظم مصاحف المشرق والتفاسير: «سورة السجدة»، وهو اختصار قولهم: «حم السجدة»، وليس تمييزا لها بذات السجدة.

• الإسم الرابع: «سورة المصابيح»: وتسمى: «سورة المصابيح»، لقوله تعالى فيها: {وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ} [فصلت: ١٢]. ذكره الكواشي.

• الإسم الخامس: «سورة الأقوات»: سميت بذلك لقوله تعالى: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} [فصلت: ١٠]. ذكره الكواشي.

• الإسم السادس: «سجدة المؤمن»: تسمى: «سجدة المؤمن»، ووجه هذه التسمية قصد تمييزها عن سورة: «الم السجدة»، المسماة: «سورة المضاجع»، فأضافوا هذه إلى السورة التي قبلها وهي «سورة المؤمن»، كما ميزوا: «سورة المضاجع» باسم: «سجدة لقمان»، لأنها واقعة بعد سورة لقمان. ذكره الكواشي في «التبصرة».

* معظم مقصود السّورة: بيان شرف القرآن، وإِعراض الكفَّار من قبوله، وكيفيّة تخليق الأَرض والسّماءِ، والإِشارة إِلى إِهلاك عاد وثمود، وشهادة الجوارح على العاصين فى القيامة، وعجز الكفَّار فى سجن جهنَّم، وبشارة المؤمنين بالخلود فى الجِنان، وشرف المؤذِّنين بالأَذان، والاحتراز من نزغات الشيطان، والحُجّة والبرهان على وحدانيّة الرّحمن، وبيان شرف القرآن، والنفع والضرّ، والإِساءَة، والإِحسان، وجزع الكفَّار عند الابتلاءِ والامتحان، وإِظهار الآيات الدَّالة على الذَّات والصّفات الحسان، وإِحاطة علم الله بكلّ شئ من الإِسرار والإِعلان، بقوله: {أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ}.

* المتشابهات: قوله تعالى: {فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ} أَى مع اليومين اللَّذين تقدّما فى قوله:

=

=

{خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ} كيلا يزيد العدد على ستَّة أَيّام، فيتطرّق إِليه كلام المعترض. وإنما جَمَع بينهما ولم يذكر اليومين على الانفراد بعدهما؛ لدقيقة لا يهتدى إِليها إِلا كلّ فطن خِرِّيت وهى أَنَّ قوله: {خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ} صلة {الذي} و {وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا} عطف على {لَتَكْفُرُونَ} و {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ} عطف على قوله: {خَلَقَ الأرض} وهذا ممتنع فى الإِعراب لا يجوز فى الكلام، وهو فى الشعر من أَقبح الضرورات، لا يجوز أَن يقال: جاءَنى الذى يكتب وجلس ويقرأُ: لأَنَّه لا يحال بين صلة الموصول وما يُعطف عليه بأَجنبىّ من الصّلة؛ فإِذا امتنع هذا لم يكن بُدّ من إِضمار فعل يصحّ الكلام به ومعه، فيضمر {خَلَقَ الأرض} بعد قوله {ذَلِكَ رَبُّ العالمين} فيصير التقدير: ذلك ربّ العالمين، خَلَق الأَرض وجعل فيها رواسى من فوقها، وبارك فيها، وقدّر فيها أَقواتها، فى أَربعة أَيّام؛ ليقع هذا كلَّه فى أَربعة أَيام. فسقط الاعتراض والسّؤال. وفيه معجزة وبرهان.

قوله: {حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ}، وفى الزخرف وغيره {حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا} بغير (ما)؛ لأَنَّ (حتى) هاهنا الَّتى تجرى مجرى واو العطف فى نحو قولك: أَكلت السّمكة حتى رأْسَها أَى ورأْسها. وتقدير الآية: فهم يوزعون، وإِذا ما جاءُوها و (ما) هى الَّتى تزاد مع الشَّرط، نحو أَينما، وحيثما. وحتى فى غيرها من السّوره للغاية.

قوله: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ هُوَ السميع العليم} ومثله فى الأَعراف، لكنه ختم بقوله {سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ}؛ الآية فى هذه السّورة متَّصلة بقوله: {وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} وكان مؤكَّدًا بالتكرار، وبالنفى والإِثبات، فبالغ فى قوله: {إِنَّهُ هُوَ السميع العليم} بزيادة (هو) وبالأَلف واللام، ولم يكن فى الأَعراف هذا النَّوع من الاتِّصال، فأَتى على القياس: المخبرُ عنه معرفة، والخبر نكرة.

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

حم (١).

{حم} الله أعلم بمراده به(٢).

تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢).

{تنزيل من الرحمن الرحيم} مبتدأ.

كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣).

{كتاب} خبره {فصلت آياته} بينت بالأحكام والقصص والمواعظ {قرآنا عربيا} حال من كتاب بصفته {لقوم} متعلق بفصلت {يعلمون} يفهمون ذلك وهم العرب(٣).

=

قوله: {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} وفى عسق بزيادة قوله: {إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى} وزاد فيها أيضا: {بَغْيًا بَيْنَهُمْ}؛ لأَنَّ المعنى: تفرق قول اليهود فى التَّوراة، وتفرّق قولُ الكافرين فى القرآن، ولولا كلمة سبَقَت من ربِّك بتأْخير العذاب إِلى يوم الجزاءِ، لقُضى بينهم بإِنزال العذاب عليهم، وخُصّت عسق بزيادة قوله تعالى: {إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى} عطف عليه {وَشَهِدَ شَاهِدٌ}؛ فلم يكن عاقبة أَمرهم. (وكان) من مواضع الواو. ا. هـ من بصائر ذوي التميز (١/ ٤١٣ - ٤١٧).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

(٣) قال الطبري: يقول:"هذا القرآن تنزيل من عند الرحمن الرحيم نزله على نبيه محمد ﷺ".

قال ابن كثير: " يعني: القرآن منزل من الرحمن الرحيم، كقوله تعالى: {قُلْ نزلَهُ

=

=
رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} [النحل: ١٠٢]، وقوله: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} [الشعراء: ١٩٢- ١٩٤]".

قال السعدي:"يخبر تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل {تَنزِيلُ} صادر {مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته وأجلها، إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به، من العلم والهدى، والنور، والشفاء، والرحمة، والخير الكثير، ما هو من أجل نعمه على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين".

قال الشنقيطي: "هما وصفان لله- تعالى- واسمان من أسمائه الحسنى، مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، والرحمن أشدُّ مبالغة من الرحيم، لأن الرحمن هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا، وللمؤمنين في الآخرة، والرحيم ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة، وعلى هذا أكثر العلماء".

قال الليث: " {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} اسمان، اشتقاقهما من (الرحمة)".

وقال أبو عبيدة: "هما صفتان لله تعالى، معناهما ذو الرحمة".

وقال العثيمين: قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{تَنْزِيلٌ} مُبتدأٌ، و {كِتَابٌ} خبرُهُ]، وَلَوْ قِيلَ بِالْعكسِ -في غَيرِ القُرآن- لَكانَ أوضحَ، لو قِيلَ: كِتابٌ فُصِّلتْ آياتُهُ تنْزيلٌ مِنَ الرَّحمنِ الرَّحيمِ؛ لأنهُ يُخبرُ بالمعنى عنِ الذَّاتِ، ولا يُخبرُ بالذاتِ عنِ المعنَى؛ وهذا هو الأصلُ، فتقولُ: زيدٌ قائمٌ، قائمٌ خبرٌ، ولا تَقُلْ: زيدٌ خبَرٌ، لكنْ ما ذهبَ إلَيهِ المُفسِّر من الإعْراب له وجْهٌ، فليسَ باطِلًا، لكنْ لو قِيلَ: إنَّ {تَنْزِيلٌ} هوَ خبرُ مقدَّمٌ و {كِتَابٌ} مُبتَدأٌ مُؤخرٌ لكانَ أوْضحَ وأبْينَ.

وقوله: {تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} يَعني به الرَّبَّ عَجَّلَ أيْ تنزيلٌ منَ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، لكنَّه أَتى بهذَيْنِ الِاسمَينِ الكَريمَينِ إشارةً إلى أنَّ القُرآنَ رحمةٌ؛ لأنَّ إنزالَه منْ مُقتَضى رحمةِ اللهِ عَجَّلَ أليسَ منَ الممكنِ أنْ يُقالَ: تنزيلٌ منَ اللهِ؟ بلَى، كما جاءَ
=

=

في آياتٍ أخرى، لكنَّه قالَ: {مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، إشارةً إلى أنَّ هذا القرآنَ نزلَ بمُقتَضى رَحمةِ اللهِ ﷻ وأنَّ اللهَ رحِمَ بِهِ العِبادَ.

والرَّحمنُ الرَّحيمُ: اسمانِ منْ أسْماءِ اللهِ، منْ أشرفِ أسماءِ اللهِ ﷻ ويأتيانِ مُقترِنينِ، ويأتِيانِ مُنفَصلَيْنِ بعضُهما عنْ بعضٍ؛ فإنِ انفَصلَا فكلُّ واحدٍ مُتضمِّنٌ معنَى الآخَرِ.

فقولُه: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]، هذا مُنفَرِدٌ عنِ الرَّحيمِ، فيتَضمَّن الصِّفَةَ والفِعلَ؛ أيْ: أنَّ اللهَ تَعالى مَوصوفٌ بِالرَّحمةِ الواسِعةِ، وهوَ سبحانه وتعالى يَرحَم -بهذِه الرَّحمةِ- مَنْ شاءَ مِن عِبادِه.

وفي قَولِه: {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [يونس: ١٠٧]، أيضًا نَقولُ: الرَّحيمُ هُنا تشْملُ الوَصفَ والفِعلَ، لِأنَّها انفردتْ عنِ الرّحمنِ.

أمَّا إذا اجْتَمعَ (الرَّحمنُ والرَّحيمُ) كانتِ الرَّحمنُ للصِّفةِ والرَّحيمُ للفِعلِ، ولهذا جاءتِ الرَّحمُن على وزنِ "فَعلان"، وهذا الوزنُ في اللُّغةِ العَربيَّةِ يَقتَضي الِامتِلاءَ وكَمالَ وتمَامَ الوصفِ الَّذي كانَ مُرادًا؛ فَمثلًا يُقالُ: غضبانُ لمَنِ امْتلأَ غضَبًا، ويُقالُ: غاضِبٌ لمَنْ كانَ غضَبُه خفِيفًا، وكذَلِك سكْران للمُمتَلِئ سُكْرًا، فكلُّ هذا الوَزنِ يُفيدُ الِامْتِلاءَ والسَّعَةَ.

أمَّا الرَّحيمُ فغُلِّبَ فيها جانبُ الفِعلِ؛ أيْ: إيْصالُ الرَّحمةِ إلى المَرحومِ، ولهذا جاءتْ في القُرآنِ الكَريمِ: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤٣]؛ أي: قدْ وَصلَت رحْمتُه إلى المؤمِنين على وجْهٍ مُطلقٍ، أمَّا غيرُ المؤمنينَ فإنَّهُ يَرحمُهُم بالمعنَى العامّ.

وقد ذَكَر بعضُ المُفسِّرينَ: أنَّ الرَّحمنَ أعمُّ منَ الرَّحيمِ، فتَشملُ الكُفَّارَ، أمَّا الرَّحيمُ فهيَ خاصَّةٌ بِالمؤمنينَ، لكنَّ ما ذَكَرتُه أحسن، وقدْ نبَّهَ عليهِ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ.

وخُلاصةُ ما قُلنا في "الرَّحمَنِ الرَّحيمِ": إمَّا أنْ يُذكَرَ الرَّحمنُ مَع الرَّحيمِ، أو يُفردُ

=

=
أحدُهُما عنِ الآخَرِ، فإنْ أُفرِدَ أحدُهما عنِ الآخَرِ تضمَّنَ الثَّاني، وإنْ ذُكِرَا جميعًا غُلِّبَ في الرَّحمَنِ جانبِ الصِّفَةِ، وفي الرَّحيمِ جانِبُ الفِعْلِ.

واعلَمْ أنَّ هذَينِ الِاسمَينِ الكَريمَينِ يدلَّانِ على أنَّ اللهَ تعالَى مَوصوفٌ بالرَّحمةِ، كما قالَ تَعالى: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ} [الكهف: ٥٨] {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ} [الأنعام: ١٣٣]، فالرَّحمةُ صِفتُهُ والرَّحيمُ اسمُهُ، وهل هذا الاسمُ ممَّا يتَعدَّى أو منَ المَصادِرِ اللَّازِمةِ؟

الجَوابُ: يَتعَدَّى؛ لقولِه تَعالى: {وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ} [العنكبوت: ٢١]، والقاعِدةُ في العَقيدَةِ: أنه إذا كانَ الِاسمُ لازِمًا لا يَتعدَّى، فإنَّهُ يتَضمَّنُ أمرَيْنِ: إثْباتَ الِاسمِ، وإثْباتَ الصِّفَةِ، وإذا كانَ يَتعدَّى فإنَّه يَتضمَّنُ ثلاثةَ أشياءَ: إثْباتَ الِاسمِ، وإثْباتَ الصِّفَةِ، وإثْباتَ الفِعْلِ.

فكلِمةُ العَظيمِ اسمٌ مِنْ أسْماءِ اللهِ لازِمٌ؛ ولهذا يُقالُ: عَظُمَ؛ أي: صارَ عَظيمًا؛ والإيمانُ بهِ يَتَضمَّنُ الإيمانَ بالعَظيمِ، على أنه اسمٌ مِنْ أسْماءِ اللهِ، ويتَضمَّنُ أيضًا ثُبوتَ العظَمةِ للهِ ﷻ.

وكلِمة الرَّحمنِ تَتضمَّنُ ثلاثةَ أشياءَ: تَتضمَّنُ "الرَّحمنَ"، اسمٌ من أسماءِ اللهِ، والثاني: الرَّحْمةُ؛ صِفةٌ مِن صِفاتِهِ، والثالثَ: الفِعلُ؛ أيْ: أنهُ يَرحمُ مَن يَشاءُ، وعلى هذا فَقِسْ.

فالإيْمانُ بالأسْماءِ: إنْ كانتْ مُتعدِّيةً لزِمَ أنْ تُؤمِنَ بالاسمِ والصِّفةِ والفِعلِ، وإنْ كانتْ لازِمةً وجَبَ أنْ تُؤمنَ بالِاسم والصِّفَةِ.

قوله تعالى: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}.

أي: كتاب بُيِّنت آياته تمام البيان، وَوُضِّحت معانيه وأحكامه، قرآنًا عربيًا ميسَّرًا فهمه لقوم يعلمون اللسان العربي.

قوله تعالى: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ} [فصلت: ٣]، أي:"كتاب بُيِّنت آياته تمام
=

=

البيان، وَوُضِّحت معانيه وأحكامه".

قال الطبري: يقول: كتاب بينت آياته".

قال ابن كثير: " أي: بُينت معانيه وأحكمت أحكامه.

قال الشوكاني: أي:"بينت أو جعلت أساليب مختلفة".

قال السعدي:"أي: فصل كل شيء من أنواعه على حدته، وهذا يستلزم البيان التام، والتفريق بين كل شيء، وتمييز الحقائق".

وفي تفصيل آياته وجوه من التفسير:

أحدها: فسّرت، قاله مجاهد.

الثاني: بينت آياته. قاله السدي.

وقال القشيري:"بينّت آياته ودلالاته".

الثالث: فصلت بالوعد والوعيد، قاله الحسن.

الرابع: فصلت بالثواب والعقاب، قاله سفيان.

الخامس: فصلت ببيان حلاله من حرامه وطاعته من معصيته، قاله قتادة.

السادس: فصلت من ذكر محمد ﷺ، فحكم فيما بينه وبين من خالفه، قال عبد الرحمن بن زيد.

قال الزمخشري: أي:"ميزت [آياته] وجعلت تفاصيل في معان مختلفة: من أحكام وأمثال ومواعظ، ووعد ووعيد، وغير ذلك".

وقرئ: «فصلت»، أى: فرقت بين الحق والباطل. أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها، من قولك: فصل من البلد.

وقال العثيمين: وقولُه: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ} كِتابٌ فِعالٌ بمعْنَى مَفعُولٍ؛ أي: مَكتوبٌ، وهو مَكتوب في اللَّوْحِ المَحفوظِ، ومَكتوب بالصُّحُفِ الَّتي بأيدِي الملائكَةِ، ومَكتوب بِالصُّحُفِ الَّتي بأيْدِينا.

=

=

أمَّـا الأوَّلُ فدَليلُـه قولُـه تَعـالَى: {بَـلْ هُـوَ قُـرْآنٌ مَجِيـدٌ (٢١) فِـي لَـوْحٍ مَحْفُـوظٍ} [البروج: ٢١- ٢٢] وأمَّـا الثانى دَليلُـه قولُـه تَعـالى: {فَمَـنْ شَـاءَ ذَكَـرَهُ (١٢) فِـي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١٢- ١٦].

وأمَّا الثَّالثُ فواضِح، فكلُّ ما جاءَ من كِتابٍ فهوَ يتَضمَّنُ هذه المعاني الثَّلاثةِ.

قَولُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فُصِّلَتْ آيَاتُهُ} بُيِّنت بالأحْكامِ والقصَصِ والمَواعِظِ] التَّفْصيلُ ضدُّ الإجْمالِ، يَعنِي: أنَّ آياتِ القُرآنِ مُفصَّلة، لكِنَّها تأتي أحْيانًا مجُملةً، وتأتي أحْيانًا مُفصَّلةً، وإذا فُصِّلَ المُجملُ صارَ الجَميعُ مُفصَّلًا.

وقولُه: {آيَاتُهُ} جَمعُ آيةٍ، والآيةُ في القرآنِ هي كلُّ ما فُصِلَ بينها وبين ما سبَقها ولحِقَها بفاصلٍ؛ ولهذا تَسمَعون في كلامِ العُلَماءِ: "فَواصِلُ الآياتِ"، يعنِي الأماكنَ الَّتي تُفصِّلُ فيها الآيةُ عمَّا قبلَها وعمَّا بعدَها.

والآياتُ الكَريمةُ مِنها ما هو طَويل، ومنها ما هو قَصير، ومنها ما هو مُتوسِّط؛ فأطوَلُ آيةٍ في كِتابِ اللهِ آيةُ الدَّينِ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ} [البقرة: ٢٨٢]، وأقْصَرُ آيةٍ: {طه} [طه: ١]، لكنَّ هذه منَ الحُروفِ الَّتي ليسَ لها معنًى، كما قرَّرْنا.

فقولُه: {ثُمَّ نَظَرَ} [المدثر: ٢١] أقصرُ آيةٍ في كِتابِ اللهِ، والباقي مُتوسِّطٌ منهُ ما يَميلُ إلى الطُّولِ، ومنهُ ما يَميلُ إلى القِصَرِ.

والسُّنّة في الآياتِ: أنْ تَقرَأها حسْبَ ما فُصِّلَتْ؛ فتُقرَأ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)} [الفاتحة: ١- ٧].

فهذه سبعُ آياتٍ، تَقرَؤها هَكَذا مُفصَّلَةً، وإنْ أُدرِجَتْ فلا بأسَ؛ لأنَّه لم يرِدِ النَّهْيُ

=

=

عن ذلك، إلَّا أنه لا يَنْبغِي للإنسانِ أنْ يَهُذَّ القُرآنَ هَذًّا، تخْفَى معه الحُروفُ، بل قد يَحرُمُ عليهِ إذا لَزِمَ أن تَخفى بعضُ الحُروفِ. أمَّا الهذُّ الذي يَستكمِلُ فيهِ الإنسانُ الحُروفَ فلا بأسَ، لكنَّ الأفْضلَ الوقوفُ على كلِّ آيةٍ.

فإنْ قالَ قائل: هل تقِف على قولِه تَعالى: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ} [الماعون: ٤]؟

فالجَوابُ: يقفُ؛ لأنَّها آيةٌ؛ لأنَّ اللهَ ﷻ هو الَّذي أنزلَها، وجعَلَ هذه آيةً مُنفصِلةً عنِ الأُخرى، وربَّما يَكونُ في الوُقوفِ على الآيةِ هكذا حتَّى يَندهِشَ القلبُ، فيترَقَّبَ بشغَفٍ المعنى المُبيِّنَ لهذا، فتَقولُ: {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} [الماعون: ٥]، فكأنَّها مطَرٌ على أرْضٍ قاحِلةٍ، إذَنْ: نقِفُ على هذا ولا مانِعَ.

أمَّا قولُه: {لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ} فهذِهِ لا نقِفُ عليها، لأنَّها ليستْ رأسَ آيةٍ بَلْ نَقولُ: {لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى} [النساء: ٤٣].

إذَنْ: فقَوله تَعالى: {فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}، يَشْملُ التَّفصيلَ اللَّفْظِيَّ والمعنَوِيَّ؛ فالتَّفْصيلُ اللَّفْظيُّ: أنَّ اللهَ جعلَ كلَّ آيةٍ مُستقلَّةً عنِ الأُخرَى، مَفصولًا بعضُها عن بعضٍ، والمَعنَوِيُّ: التَّبْيينُ والإيضاحُ لِما كانَ مُجْملًا، ولهذا أَشارَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ إلى التَّفْصيلِ المْعنَويِّ فقطْ؛ فقالَ: [بُيِّنَتْ بالأحْكامِ والقَصَصِ والمَواعِظِ]، ولكنْ ينْبَغِي أنْ يُقالَ: إنَّها فُصِّلَتْ مِن وَجْهَينِ: لفظِيٍّ ومَعنوِيٍّ. فاللَّفظِيُّ: أنَّ كلَّ آيةٍ فُصِلَتْ عنِ الأُخرَى، والمعنَوِيّ: أنَّها بُيِّنَتْ وبُيِّنَ ما أُجمِلَ منها، سَواءٌ مِنَ الأحكامِ أو غيرِها.

فقوله تَعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ} [الانفطار: ١٧ - ١٨]، هذا مجُمَلٌ فصَّلَهُ بِقَولِه: {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} [الانفطار: ١٩].

وقَوله تَعالى: {الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ} [القارعة: ١ - ٣] مجُمَلٌ فصَّلَه بِقولِه: {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ}. فالتَّفْصيلُ هُنا -

=

=

أي: التَّفْصيلُ المعنويُّ -يعني بيانَ القرآنِ أنَّه بيَّنَ ووضَّحَ، حتَّى لو جاءَ مُجملًا فلا بدَّ أنْ يُبيَّن.

فإذا قالَ قائلٌ: قالَ اللهُ تَعالى: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}، وفي آية أُخرى قالَ: {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ} [الزمر: ٢٣]، فأين الجَمعُ بينَ هذِه الآياتِ؟

الجَوابُ: لا تَعارُضَ؛ لأنَّ قولَه: "مَثانيَ" بمعنى "فُصِّلَتْ"، حيثُ إنَّ معناها تُثنَّى فيه المَعاني، فيَذكُرُ الخَيرَ ثمَّ الشَّرَّ، يَذكُرُ أهلَ الخيرِ وأهلَ الشَّرِّ، والجنّةَ والنَّارَ وما أشبَهَ ذلِكَ؛ هذا هوَ المُرادُ بِقولِه: "مَثانيَ".

أمَّا قوله: "مُتَشابِهًا"، فمَعناه: أنَّه يُشبِهُ بعضُهُ بعضًا في الكَمالِ والحُسْنِ والجَودَةِ.

فإنْ قِيلَ: ما الجَمعُ بينَ ثَناءِ اللهِ على القُرآنِ بأنَّه مُتَشابِهٌ وبيْنَ قولِه تَعالى: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} [آل عمران: ٧]؟

قُلْنا: الجَمعُ بينهما أنَّه مُتشابِهٌ في الحُسْنِ، يُشبِهُ بَعضُه بَعضًا، وأمَّا محُكَماتٌ ومُتَشابهاتٌ، فالمُحكَماتُ هي: ما اتَّضحَ مَعناها، والمتشَابهاتُ هي: ما خفِيَ مَعناها.

قوله تعالى: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [فصلت: ٣]، أي:"قرآنًا عربيًا ميسَّرًا فهمه لقوم يعلمون اللسان العربي".

قال الطبري:"يقول: فصلت آيات هذا الكتاب قرآنا عربيا لقوم يعلمون اللسان العربي".

قال الماتريدي:"أي: أنزله بلسان يعلمونه ويفهمونه لا بلسان لا يعلمونه ولا يفهمونه، أي: أنزله بلسانهم".

قال ابن كثير: " أي: في حال كونه لفظا عربيا، بينا واضحا، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشكلة، كقوله: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ

=

=
حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود: ١] أي: هو معجز من حيث لفظه ومعناه، {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ٤٢]".

قال السعدي:"أي: باللغة الفصحى أكمل اللغات، فصلت آياته وجعل عربيًا، لأجل أن يتبين لهم معناه، كما تبين لفظه، ويتضح لهم الهدى من الضلال، والْغَيِّ من الرشاد، وأما الجاهلون، الذين لا يزيدهم الهدى إلا ضلالا ولا البيان إلا عَمًى فهؤلاء لم يُسَقِ الكلام لأجلهم، {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ}".

قال الزجاج:"نصب {قُرْآنًا} على الحال، المعنى: بينت آياته قرآنًا، أي: بينت آياته في حال جمعه عربيًا، {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، أي: بيَّنا لمن يعلم".

قال الفراء: " تنصب {قرآنا} على الفعل، أي: فصلت آياته كذلك، ويكون نصبا على القطع، لأن الكلام تام عند قوله: {آياته}".

وفي قوله تعالى: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [فصلت: ٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعلمون انه إله واحد في التوراة والإنجيل، قاله مجاهد.

الثاني: أن القرآن من عند الله نزل، قاله الضحاك.

الثالث: يعلمون العربية فيعجزون عن مثله. حكاه الماوردي.

الرابع: أي: حصل إنزاله لقوم ينتفعون بعلمهم. أفاده الماتريدي.

قال ابن كثير:"أي: إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماءُ الراسخون".

وفي حرف ابن مسعود- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «قرآنا عربيا لقوم يعقلون».

وقال العثيمين: وقولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قُرْآنًا عَرَبِيًّا} حالٌ مِنْ "كتابٌ" بصفَتِه]. مفسِّرُ الجلالَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ جيد جدًّا، حيث قالَ: إنَّ {قُرْآنًا} [حالٌ]، فكأنَّ إنسانًا أورَدَ عليهِ كيفَ تَقولُ: إنَّه قُرآنٌ، والحالُ وصفٌ، والقرآنُ ليسَ وصفًا، فقالَ: بصِفتِه، وصفْتُه: {عَرَبِيًّا}؛ يَعني: لو كانتْ في الآيةِ الكريمةِ قُرآنًا فقطْ، لمَا صحَّ أنْ تكونَ
=

=

حالًا؛ لأنَّ الحالَ لا بُدَّ أنْ تَكونَ مُشتقَّةً: اسمَ فاعلٍ، أوِ اسمَ مَفعولٍ، أو ما أشبهَ ذلكَ، وقرآنٌ غيرُ مشتقٍّ؛ فلهذا قالَ: إنَّها [حالٌ مِن "كتابٌ" بصِفتِه].

إذَن: [بصِفَته] عائِدٌ على "قرآنٍ"، كأنه قالَ: صحَّ أن يَكونَ حالًا لأنه مَوصوف.

فإذا قالَ قائِلٌ: كيفَ تجعَلونَهُ حالًا مِنْ كتابٍ وكتابٌ نكرةٌ وصاحبُ الحال لا بُدَّ أنْ يكونَ مَعرِفةً؟

قُلنا: إنَّ هذهِ النَّكرةَ خُصِّصَتْ في قولِه: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ} ، خُصِّصتْ بالصِّفةِ، والنَّكرَةُ إذا خُصِّصتْ صارتْ قريبةً منَ المَعرِفةِ؛ فلِذلك جازَ وقوعُ الحالِ منها.

فلدَينا الآنَ إشْكالانِ:

الإشْكالُ الأوَّلُ: كيفَ جاءتِ الحالُ مِن كِتابٍ وهوَ نكِرةٌ؟

وجَوابُه: أنَّ كِتابًا الَّذي هو النَّكِرةُ وُصِفَ بقولِه: {فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}، وإذا وُصِفتِ النَّكرة جازتِ الحالُ منها.

الإشْكالُ الثَّاني: الحالُ {قُرْآنًا عَرَبِيًّا} إذا أعرَبْنا قُرآنا حالًا، فكيفَ صحَّ أنْ يكونَ حالًا وليسَ بمُشْتقٍّ؟

فالجوابُ: أنه مَوصوفٌ مُشتقٌّ فلذلكَ جازتِ الحالُ منه.

وقولُه: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا} معنَى كونِه عربيًّا: أوَّلًا: كلِمةُ "قُرآن" على وزنِ فُعْلانٍ، كشُكرانٍ وغُفرانٍ وما أشبهَ ذلكَ. فهلْ هو بمعنى قارِئٍ أو بمعنى مَقروءٍ؟ قِيلَ: إنَّه بمعنى مَقروءٍ، ومَقروءٌ هلْ هو منَ الجَمْع أو منَ التِّلاوَةِ؟ قِيلَ: إنَّه مِنْ قَرى يَقري بمعنى جمَع، ومنه اسمُ القريةِ؛ لأنَّها جامعةٌ للناسِ، وقِيل: مِن قرَأ بمعنى تَلا.

والصَّوابُ: أنه جائزٌ أنْ يَكونَ مِنْ هذا ومن هذا؛ لأنه ما دامَ اللَّفظُ صالحًا للمعنيِّينَ ولا مُنافاةَ بينَهما، فإنَّه يُحمَلُ عليهما جَميعًا؛ وهذا إذا قُلنا: إنَّ {قُرْآنًا} بمعنى مَقرُوءٍ.

ويَجوزُ أنْ تكونَ بمعنى اسمِ الفاعِلِ "قارِئ"؛ فَقُرآنٌ بمَعنى قارِئ؛ أي: جامِعٌ،

=

=

جامِع للأحكام والتَّوْحيد وغير ذلك.

أمَّا "عرَبِيًّا" فهو نِسبة للعَرَب؛ لأنَّه جاءَ بلُغَتِهم.

وقولُه تعالى: [{لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} يَفهَمون ذلك، وهم العرَب]، يعنِي: أنَّ الله جعلَه قرآنا عرَبيًّا لقَوْم يعلَمونَه ويفهَمُونه، ولا حُجَّة لهم في مُعارَضَته والكُفرِ به، لأنَّهم يَعلَمُونه، كما قالَ تعالى في آية أُخْرى: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الزخرف: ٣]؛ أي: تَفهَمون معناه، حيثُ جاء بلِسان العَرَب.

فائِدة: ورَدت في القرآنِ آيات تَجرِي على سبيل المَثَل، مِثل: {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران: ١٤٠] فهل صحيحٌ أنَّه وردَ النَّهي عن استِعمالها في غير مَكانها؟

الجَواب: للاستِشهاد بها لا بأسَ به؛ أمَّا أنْ تَجعَل القرآنَ بدلًا عن الكلامِ فهذا حرام.

وقد ذَكَر صاحبُ (جواهِرِ الأدَب) قِصَّة عَنوَنها بقولِه: "المُتكلِّمةُ بالقرآنِ الكريمِ بدَلًا عن الكَلام"، وجاءَ بقِصَّة امْرأةٍ تُخاطِب أولادَها بالقُرآن، إذا قالَت: تَغدُّوا، قالَت: {آتِنَا غَدَاءَنَا} ولو أمَرْتَهم يَشتَرون حاجَة منَ السُّوق قالَت: {فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ} [الكهف: ١٩]، وما أشْبه ذلك.

ثُمَّ قالَ في آخر القِصَّة: هذه امْرَأة لها كذا من السِّنين تَتكلَّم بالقرآن مخافَة أنْ تَزِلَّ، فيغضَب عليها الرَّحمَن. والواقِع أنَّها زَلَّت تمامًا، فقد جعلَت تُنزِّل آيات القرآن الكريمِ على أغراضِها الخاصَّة، وهذا لا يَجوز.

أمَّا الاسْتِشهاد بالقُرآن مِثلَ أنْ ترى رَجُلًا مَفْتُونًا بالدُّنيا، تَقُول: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} [الكهف: ٤٦] هَذا لا بأْس به، وقَد جاء في الحديثِ أنَّ الرَّسُول عليه الصلاة والسلام لمَّا رَأى الحسنَ والحُسَينَ وهُما يَعثُران بثَوبٍ جديدٍ نَزَل وأخذَهُما وقالَ: صدَق اللهُ: "

=

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤).

{بشيرا} صفة قرآنا {ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون} سماع قبول[1].

=

{إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} [التغابن: ١٥]".

(١) بشيرًا بالثواب العاجل والآجل لمن آمن به وعمل بمقتضاه، ونذيرًا بالعقاب العاجل والآجل لمن كفر به، فأعرض عنه أكثر الناس، فهم لا يسمعون له سماع قَبول وإجابة.

قوله تعالى: {بَشِيرًا وَنَذِيرًا}، أي:"بشيرًا بالثواب العاجل والآجل لمن آمن به وعمل بمقتضاه، ونذيرًا بالعقاب العاجل والآجل لمن كفر به".

قال الطبري: يقول:"بشيرا لهم يبشرهم إن هم آمنوا به، وعملوا بما أنزل فيه من حدود الله وفرائضه بالجنة، ومنذرا من كذب به ولم يعمل بما فيه بأمر الله في عاجل الدنيا، وخلود الأبد في نار جهنم في آجل الآخرة".

قال ابن كثير:"أي: تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين".

قال السعدي:"أي: بشيرًا بالثواب العاجل والآجل، ونذيرًا بالعقاب العاجل والآجل".

وقال العثيمين قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{بَشِيرًا} صِفة "قرآنا"]، يعني: جعَلْناه قرآنا عرَبيًّا؛ بَشِيرًا لمِن آمَن به، كما قالَ تعالى: {وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [البقرة: ٩٧]، ونذِيرًا لمَن كَفر به، وإن شِئْتَ فقُل: إنَّه نذِير لجَميع العالَمين، كما قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١].

المُهِمُّ: أنَّ البِشارة خاصَّة والإنْذار عامٌّ، ورُبَّما يَكون خاصًّا كما قال تعالى: {وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} [مريم: ٩٧] يعني: الَّذين كَفروا به، فصارَت (البَشيرُ) خاصَّة بمَن آمنَ، و (النَّذيرُ) تكونُ عامَّة، وتكونُ خاصَّة.

=

والبَشيرُ هو المُخبِرُ بِما يسُرُّ، وسُمِّي خَبَرُه بِشارَة؛ لأنَّ أثَرَه يَظْهر على بَشرَة الإنْسان؛ ولهذا تَبْرُق أسارِيرُ وجْهِه منَ الفرَحِ.
وقوْلُه: {وَنَذِيرًا} الإنْذار: هو الإعْلام المَقْرون بالتَّخوِيف.
قوله تعالى: {فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ} [فصلت: ٤]، أي:"فأعرض عنه أكثر الناس".
قال الطبري: يقول:"فاستكبر عن الإصغاء له وتدبر ما فيه من حجج الله، وأعرض عنه أكثر هؤلاء القوم الذين أنزل هذا القرآن بشيرا لهم ونذيرا، وهم قوم رسول الله ﷺ".
قال ابن كثير:"أي: أكثر قريش".
قال الشوكاني:"المراد بأكثر هنا: الكفار، أي: فأعرض الكفار عما اشتمل عليه من النذارة".
قوله تعالى: {فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} [فصلت: ٤]، أي:"فهم لا يسمعون له سماع قَبول وإجابة".
قال الطبري:"يقول: فهم لا يصغون له فيسمعوه إعراضا عنه واستكبارا".
قال ابن كثير: أي:"فهم لا يفهمون منه شيئا مع بيانه ووضوحه".
قال الشوكاني: أي:"فهم لا يسمعون سماعا ينتفعون به لإعراضهم عنه".
قال السعدي:"{فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ} له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعًا، تقوم عليهم به الحجة الشرعية".
وقال العثيمين: قولُه: {فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} الفاءُ عاطِفَة، و"أعرَضَ" مَعْطوفة على "فُصِّلت" يَعنِي: كتابٌ فُصِّلت آياتُه، ومعَ ذلِك أعرَضَ أكثرُهم، ويَحتَمل أن تَكون الفاء للاستِئناف؛ يَعنِي: أنَّها جُملة مُستأنفة لا تُعطَف على ما قبْلَها: {فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ} أي: أكثَرُ الَّذين بَلَغَهم.
وقولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} سَماعَ قَبُولٍ]، وهذا نَتيجةُ الإعْراضِ: أنَّهم

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥).

{وقالوا} للنبي {قلوبنا في أكنة} أغطية {مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر} ثقل {ومن بيننا وبينك حجاب} خلاف في الدين {فاعمل} على دينك {إننا عاملون} على ديننا(١).

=

صارُوا لا يَسْمَعون، ونَفْي السَّماع عنْهم؛ لانتِفاءِ فائِدتِه، وهي الاتِّعاظُ والقَبولُ.

واعْلَم أنَّ السَّمعَ يُنفَى تارَةً لِعدَم أَصْلِه، وتارَة لعدَمِ ثمرَتِه؛ فقولُه تَعالى: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} هذا نَفيٌ لأصل، فالميْتُ لا يَسمَعُ، وقولُه تَعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} [الأنفال: ٢١] لانتِفاءِ ثمَرتِه، لأنَّ السَّمعَ الَّذي لا ثمرَة له كالمَعدُومِ.

(١) وقال هؤلاء المعرضون الكافرون للنبي محمد ﷺ: قلوبنا في أغطية مانعة لنا من فهم ما تدعونا إليه، وفي آذاننا صمم فلا نسمع، ومن بيننا وبينك -يا محمد- ساتر يحجبنا عن إجابة دعوتك، فاعمل على وَفْق دينك، كما أننا عاملون على وَفْق ديننا.

قوله تعالى: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} [فصلت: ٥]، أي:"وقال هؤلاء المعرضون الكافرون للنبي محمد ﷺ: قلوبنا في أغطية مانعة لنا من فهم ما تدعونا إليه".

قال ابن كثير: "أي: في غلف مغطاة {مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ}".

قال الشوكاني:"أي: في أغطية مثل الكنانة التي فيها السهام، فهي لا تفقه ما تقول، ولا يصل إليها قولك".

قال الطبري:"وقال هؤلاء المشركون المعرضون عن آيات الله من مشركي قريش

=

=

إذ دعاهم محمد نبيّ الله إلى الإقرار بتوحيد الله وتصديق ما في هذا القرآن من أمر الله ونهيه، وسائر ما أنزل فيه {قُلُوبُنَا فِي} في أغطية {مِمَّا تَدْعُونَا} يا محمد {إِلَيْهِ} من توحيد الله، وتصديقك فيما جئتنا به، لا نفقه ما تقول" (٨).

عن مجاهد، قوله: " {قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ}، قال: عليها أغطية كالجَعْبة للنَّبْل".

عن السديّ، قوله: " {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ}، قال: عليها أغطية".

قوله تعالى: {وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ} [فصلت: ٥]، أي:"وفي آذاننا صمم فلا نسمع".

قال ابن كثير: " أي: صمم عما جئتنا به".

قال الطبري: أي: " {وَفِي آذَانِنَا} الثقل، لا نسمع ما تدعونا إليه استثقالا لما يدعو إليه وكراهة له".

عن السديّ، قوله:"{وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ}، قال: صمم".

قوله تعالى: {وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}، أي:"ومن بيننا وبينك -يا محمد- ساتر يحجبنا عن إجابة دعوتك".

قال الفراء:"يقول: بيننا وبينك فرقة في ديننا".

قال ابن كثير: " أي: اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا لا نتابعك".

قال الطبري:"يقولون: ومن بيننا وبينك يا محمد ساتر لا نجتمع من أجله نحن وأنت، فيرى بعضنا بعضا، وذلك الحجاب هو اختلافهم في الدين، لأن دينهم كان عبادة الأوثان، ودين محمد ﷺ عبادة الله وحده لا شريك له، فذلك هو الحجاب الذي زعموا أنه بينهم وبين نبيّ الله، وذلك هو خلاف بعضهم بعضا في الدين".

قوله تعالى: {فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} [فصلت: ٥]، أي:"فاعمل على وَفْق دينك، كما أننا عاملون على وَفْق ديننا".

قال الفراء: يقول: "فاعمل في هلاكنا إننا عاملون في ذلك منك، ويقال: فاعمل بما تعلم من دينك فإننا عاملون بديننا".

=

=

قال السعدي:"القصد من ذلك، أنهم أظهروا الإعراض عنه، من كل وجه، وأظهروا بغضه، والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: {فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} أي: كما رضيت بالعمل بدينك، فإننا راضون كل الرضا، بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا.

وقال العثيمين: قوله تعالى: {وَقَالُوا}: مَعطوفةٌ على {فَأَعْرَضَ}، قالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَقَالُوا} للنَّبيِّ ﷺ {قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ} أغطيةٌ] {مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} هذا -والعِياذُ باللهِ- من شِدَّة عِنادِهم وكُفرِهم؛ فقالوا للنَّبيِّ عليه الصلاة والسلام وهو يَدعُوهم: {قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} كقولِهم: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ} يعني: الأكنَّة جمْع كنٍّ، وهو ما يُستَتَرُ به.

وقولُه: {مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} أي: مِن التَّوحِيد والطَّاعة، والشَّهادةِ لله تعالى بالوحدانيَّةِ وللنَّبيِّ بالرِّسالةِ، وإنَّما ذَكَروا القُلوبَ وبدؤُوا بِها، لأنَّها محَلُّ الوعْي.

وقولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ} ثِقَل] يعنِي فلا نَسمَع، يَعني أننا نستَمِع إليكَ على كَراهَةٍ وبُغضٍ، فكأنَّ في آذاننا ثِقَلَ سمْعٍ.

وقولُه تَعالى: {وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ} أي: حائِل يحُول بيننا وبينك فلا نَراك، فأتَوْا على كلِّ مَدارِك الإحاطَةِ؛ فالمُدرِك الأوَّل: القلْبُ، والثَّاني: السَّمْعُ، والثَّالِثُ: البَصَرُ، وانتِفاء البصَرِ عنهم؛ لقَوْله: {وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}.

وقدْ جمَع اللهُ تَعالى بَين هَذه الثَّلاثَةِ في قولِه: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٦]، وتَأمَّل قولَهم: {وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ} لم يَقولوا: "وبينَنا وبينَك حِجاب" إشارَة إلى أنَّ هذا الحِجابَ مُمتدٌّ من عِندِنا إلَيك، وعلَى هَذا فكُلَّما تَباعَدنا عَنك غَلُظَ هذا الحِجابُ؛ لأنَّه إذا كان

=

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦).

{قل إنما أنا بشر مِثْلكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهكُمْ إِلَه وَاحِد فاستقيموا إليه} بالإيمان والطاعة {واستغفروه وويل} كلمة عذاب {للمشركين}.

الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧).

{الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم} تأكيد {كافرون}[1].

=

ابتِداؤه مِن عِنْدهم إِلَى الرَّسول، صار كلَّما زادَت المَسافَةُ ازدادَ غِلَظُه؛ لأنَّ (مِنْ) هُنا للابتِداء، فتُفِيد أنَّ هذا الحِجاب مُباشِرٌ منهم إلى الرَّسول ﷺ لكنْ لو قالوا: "وبينَنا وبيْنَك حِجاب" لأمكَن أن يَكونَ الحِجاب في الوَسَط، ولو كان بينَه وبينَهم مَسافَة، وهَذا يدلُّ على غِلَظ ما بينَهم وبينَ الرَّسول عليه الصلاة والسلام وبُعدِه.

وقولُه: {فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} هذا -والعِياذُ بالله- التَّحدِّي للرَّسول ﷺ فيما يَظْهرُ، وليس من بابِ الإباحَةِ، بل من بابِ التَّحدِّي، قال المُفسِّرُ: [{فَاعْمَلْ} على دِينِك {إِنَّنَا عَامِلُونَ} على ديننا]، ويَحتَمِل: اعمَل لمُجاهدَتِنا فإنَّنا عامِلون لمُجاهدتِك، وهذا القَول ممَّا ذَهبَ إليه المُفسِّر؛ فكأنَّهم يَقولون: اعمَلْ ونَحن سنَعْملُ.

(١) أي: قل لهم -أيها الرسول-: إنما أنا بشر مثلكم يوحي الله إليَّ أنما إلهكم الذي يستحق العبادة، إله واحد لا شريك له، فاسلكوا الطريق الموصل إليه، واطلبوا مغفرته. وعذاب للمشركين الذين عبدوا من دون الله أوثانًا لا تنفع ولا تضر، والذين لم يطهروا أنفسهم بتوحيد ربهم، والإخلاص له، ولا يؤدون الصدقة إلى مستحقيها، فلا إخلاص منهم للخالق ولا نفع فيهم للخلق، وهم لا يؤمنون بالبعث، ولا بالجنة والنار.

=

=

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ}.

قال الطبري:"قل يا محمد لهؤلاء المعرضين عن آيات الله من قومك: أيها القوم، ما أنا إلا بشر من بني آدم مثلكم في الجنس والصورة والهيئة لست بمَلك، يوحي الله إلى أن لا معبود لكم تصلح عبادته إلا معبود واحد".

وقال ابن كثير:"يقول تعالى: {قُلْ} يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: {إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد".

قوله تعالى: {فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ} [فصلت: ٦]، أي:"فاسلكوا الطريق الموصل إليه، واطلبوا مغفرته".

قال الطبري:"يقول: فاستقيموا إليه بالطاعة، ووجهوا إليه وجوهكم بالرغبة والعبادة دون الآلهة والأوثان، وسلوه العفو لكم عن ذنوبكم التي سلفت منكم بالتوبة من شرككم، يتب عليكم ويغفر لكم".

قال ابن كثير:"أي: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل، {وَاسْتَغْفِرُوهُ}، أي: لسالف الذنوب".

قوله تعالى: {وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [فصلت: ٦– ٧]، أي:"وعذاب للمشركين الذين لا يفعلون الخير، ولا يتصدقون ولا ينفقون في طاعة الله".

قال الطبري: يقول: " وصديد أهل النار، وما يسيل منهم للمدعين لله شريكا العابدين الأوثان دونه الذين لا يؤتون الزكاة".

قال ابن كثير:"أي: دمار لهم وهلاك عليهم.

قوله {الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}.. وهذا كقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: ٩، ١٠]، وكقوله: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ

=

=
فَصَلَّى} [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقوله {فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى} [النازعات: ١٨]، والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سببا لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقا إلى استعماله في الطاعات".

قال قتادة:"«الزكاة قنطرة الإسلام فمن قطعها برئ، ونجا، ومن لم يقطعها هلك».

وفي قوله تعالى: {وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [فصلت: ٦ - ٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: أحدها: لا يشهدون أن «لا إله إلّا الله»، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة.

قال ابن الجوزي:"والمعنى-على هذا القول-: لا يطهِّرون أنفُسَهم من الشرك بالتوحيد".

وقال ابن عطية: (قال ابن عباس والجمهور: الزكاة في هذه الآية، لا إله إلا الله التوحيد، كما قال موسى لفرعون: {هل لك إلى أن تزكى (١٨)} [النازعات:١٨]، ويرجح هذا التأويل: أن الآية من أول المكي وزكاة المال إنما نزلت بالمدينة، وإنما هذه زكاة القلب والبدن، أي: تطهيره من الشرك والمعاصي).

الثاني: لا يؤمِنون بالزكاة ولا يُقِرُّون بها، قاله الحسن ، وقتادة.

قال السمعاني: وقوله: {وويل للمشركين (٦) الذين لا يؤتون الزكاة}، أي: لا يرون الزكاة واجبة عليهم كما يراه المسلمون، ويقال معنى الإيتاء هو على ظاهره والكافر يعاقب في الآخرة بترك إيتاء الزكاة لأنهم مخاطبون بالشرائع، ذكره جماعة من أهل العلم).

وقال القرطبي: (وفيه دلالة على أن الكافر يعذب بكفره، مع منع وجوب الزكاة
=

=

عليه).

وقال الطبري:"وكان يقال: إن الزكاة قنطرة الإسلام، فمن قطعها نجا، ومن تخلف عنها هلك؛ وقد كان أهل الردّة بعد نبيّ الله قالوا: أما الصلاة فنصلِّي، وأما الزكاة فوالله لا تغصب أموالنا؛ قال: فقال أبو بكر: والله لا أفرق بين شيء جمع الله بينه؛ والله لو منعوني عقالا مما فرض الله ورسوله لقاتلناهم عليه".

قال ابن كثير:"وقال قتادة: «يمنعون زكاة أموالهم». وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، على ما ذكره غير واحد وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به في ابتداء البعثة، كقوله تعالى: {وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [الأنعام: ١٤١]، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بَيَّن أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعا بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله على رسوله ﷺ الصلوات الخمس، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك، شيئا فشيئا، والله أعلم".

قال السدي:"لو زَكَّوا وهم مشركون لم ينفعهم".

الثالث: لا يزكُّون أعمالهم، قاله مجاهد ، والربيع.

الرابع: لا يتصدَّقون، ولا يُنفِقون في الطاعات، قاله الضحاك ، ومقاتل.

السادس: معناه: انهم لا يزكون أعمالهم، قاله ابن عمر.

السابع: أنه قرعهم بالشح الذي يأنف منه الفضلاء، وفيه دلالة على أن الكافر يعذب بكفره، مع وجوب الزكاة عليه، أكثر مما يعذب من لم تكن الزكاة واجبة عليه، قاله ابن عيسى.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا: معناه: لا يؤدّون

=

=

زكاة أموالهم؛ وذلك أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة، وأن في قوله: {وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} دليلا على أن ذلك كذلك، لأن الكفار الذين عنوا بهذه الآية كانوا لا يشهدون أن لا إله إلا الله، فلو كان قوله: {الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} مرادا به الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله لم يكن لقوله: {وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} معنى، لأنه معلوم أن من لا يشهد أن لا إله إلا الله لا يؤمن بالآخرة، وفي إتباع الله قوله: {وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} قوله: {الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} ما ينبئ عن أن الزكاة في هذا الموضع معنيّ بها زكاة الأموال".

قال الزمخشري:"فإن قلت: لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة؟

قلت: لأن أحب شيء إلى الإنسان ما له وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته. ألا ترى إلى قوله ﷻ: {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ}، أى: يثبتون أنفسهم ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال، و بلمظة من الدنيا قرّت عصبية المؤلفة قلوبهم ولانت شكيمتهم، وأهل الردّة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة، فنصبت لهم الحرب وجوهدوا، فيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة، وتخويف شديد من منعها، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين، وقرن بالكفر بالآخرة".

قوله تعالى: {وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} [فصلت: ٧]، أي:"وهم لا يؤمنون بالبعث، ولا بالجنة والنار".

قال الطبري:"يقول: وهم بقيام الساعة، وبعث الله خلقه أحياء من قبورهم، من بعد بلائهم وفنائهم منكرون".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} [فصلت: ٦]؛ يَعني: فلَسْتُ

=

=
غَريبًا علَيكُم؛ لِماذا تَكفُرون بِي؟ ! أنا بَشَر مِثْلُكم لسْتُ جِنِّيًا فتَنفِروا مِنْه، وَلا مَلِكًا فتَنفِروا مِنه، وإنَّما أنا بَشرٌ مِثلُكم.

والبَشَر هُم بَنُو آدَم، وسُمُّوا بَشَرًا؛ لِظُهورِ بَشرَتهم؛ حيثُ بدَتْ أجْسامُهم عارِيةً غيرَ مَكسُوَّة، وهَذا مِن نِعمَة اللهِ ﷻ علَينا، ومِنْ رَحمَتِه جَعَلَ اللهُ الإنْسانَ عاريًا إلَّا بِكُسْوَة؛ حتَّى يتَذكَّر أنه عارٍ مِنَ الإيمان إلَّا بِكُسْوَة، وكُسْوَة الإيمان هيَ التَّقوى؛ لِقوْل اللهِ تَعالَى: {وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ} [الأعراف: ٢٦]؛ فإنَّ الله جَعَلنا نفتَقِر إلى السِّتْرِ الحسِّيِّ حتَّى نعْلَم أننا أيضًا مُفتَقِرون إلى السِّتْر المعنَوِيِّ، فأنتَ عارٍ مِنَ الإيمان إلَّا بِلِباسِ التَّقوى.

إذَن: البَشَر هُم بَنُو آدَمَ، سُمُّوا بذلِك لِظُهور بَشْرَتِهم عارِيةً لا غِطاءَ عليها، بِخِلافِ الحَيَواناتِ الأُخرى، فإنَّه مُغطًّى إمَّا بالوَبَر أو بِالصُّوفِ أو بالشَّعْرِ أو بالرِّيشِ أو بغَيْرِ ذلك.

وقَوْله: {مِثْلُكُمْ} هذِه تَوكِيدٌ لمِعْنى البَشَريَّة، وإلَّا لَوِ اقتَصَر على إنَّما أنا بشَرٌ لكانَ مُقتَضى ذلِك أنْ يَكونَ مِثْلَنا ولا مخُالِفَ، لكِنَّه أكَّدَ هذا المَعنَى بِقوْلِه: {مِثْلُكُمْ} لَكِنَّه يَمتازُ بأنه: {يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} ... إلخ، هذا هُو المَيْزَة، والفرْقُ أنَّ محُمَّدًا ﷺ بشَرٌ يُوحَى إلَيْهِ.

وقَوْلُه: {يُوحَى} المُوحِي هُو الله، لِقولِ اللهِ تَعالَى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [الشورى: ٧]، فالمُوحِي هُو اللهُ، وحُذِفَ لِلْعِلْم به، ورُبَّما يُقالُ: حُذِفَ لِلْعِلم به وَلِلتَّعْميم؛ لِأنَّ الله تَعالَى قدْ يُوحِي لنَبِيِّه ﷺ بواسِطَةِ جِبريلَ، وقدْ يُوحِي إلَيْه بِدُونِ واسِطةٍ.

والإيحاءُ هُو الإعْلامُ بسُرعةٍ وخَفاءٍ، يُسمَّى إيحاءً؛ ولِذلِك إذا كان إلى جَنْبك واحِدٌ، وأرَدْتَ أنْ تَسْألَه والدَّرْسُ مكْتَظٌّ بالطلَبَةِ -وخِفْتَ أنْ يُسْمعَ إليكَ- فتكلِّمه ببطء وخُفْية؛ لِئَلَّا يُتَفَطَّنَ لَكَ؛ فكُلُّ إعْلام بسُرْعة وخُفيَة يُسَمَّى وَحْيًا، وإنَّما كان
=

=

كـذَلِك؛ لأنَّ النَّبـيَّ ﷺ يُـوحَى إِلَيْـه وعِنْـدَه النَّـاسُ جالِـسُون لا يَـدْرون مـاذا قـالَ الرَّسولُ.

وقَوْله: {يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} هَذه الجُملَة في محَلِّ رفْع نائِبِ فاعِلٍ؛ أي يُوحَى إِلَيَّ هذا الخَبَر.

وقَولُـه: {أَنَّمَـا إِلَهُكُـمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ} {أَنَّمَـا} أداةُ حَـصْرٍ، وعلَـى هَـذا تَكـون الجُمْلـةُ مُتَضَمِّنةٌ لنَفْـي وإثْباتٍ؛ لأنَّ الحَـصْرَ هُـو إثْباتُ الحُكْـمِ في المَـذْكورِ ونَفْيُـه عَـن مـا سِواه. ومنْ طُرُقِ الحَصْرِ:

الأَوَّلُ: الحَصْرُ بـ"إنَّما".

الثَّاني: النَّفيُ والإثْباتُ، مِثْلَ: لا قائِمَ إلَّا مُحمَّدٌ.

الثَّالِـثُ: تَقْـديمُ مـا حقُّه التَّأخيرُ، مِثْلَ: {لِلَّـهِ مَـا فِـي الـسَّمَاوَاتِ وَمَـا فِـي الْأَرْضِ} [البقرة: ٢٨٤].

الرَّابع: دُخُولُ ضَمِيرِ الفَصْلِ، مِثْلَ أنْ تَقولَ: زَيْـدٌ هُـوَ الفاضِـلُ، فـإنَّ ضَـميرَ الفَـصْلِ يُفيدُ الحَصْرَ.

هَذِه أَرْبعَةُ طُرُقٍ، وهِي الأكْثَرُ دَوَرانًا.

وقَوْلُه: {فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ} {فَاسْـتَقِيمُوا إِلَيْـهِ} الظَّـاهِرُ أنَّها مِنْ تَتِمَّـةِ قَـوْلِ الرَّسـولِ -ﷺ وعلَـى آلِـهِ وسـلَّمَ- الَّـذي أمَـرَ أنْ يَقولَـه، ومَعْنـى "استَقِيموا إلَيْـهِ": أيِ اسْـتَقِيمُوا على دِينِه قاصِـدين إلَيْـه؛ فهِـي تُفِيـدُ الإِخْـلاصَ في الْعَمل.

فقَوْلُه: "استَقِيموا إلَيْه"، أي: اقْصُدُوا، ولِهذا لمْ يَقُلْ: استَقِيموا لَه، بلْ قالَ: "إلَيْه"، فـضَمَّنَ "اسـتَقِيموا" مَعْنـى اقْـصُدوا إلَيْـه، فتكـونُ أَبْلَـغ مِـن "اسـتَقِيموا لَـه"، لأنَّ المُـستَقيمَ لِلـشَّيءِ قـدْ يَـستقيمُ لَـه وهُـوَ في مَكانِـه دُونَ أنْ يَـسْعى إلَيْـه، أمَّـا إذا قِيـلَ: "اسْتَقيموا إلَيْه" فتُفيدُ السَّعْيَ إلى اللهِ ﷻ وقَصْدِه؛ فلِهذا عُدِّيَت بـ"إلـى"؛ فهَـل هُنـا

=

=

نابَ حَرْفٌ عَن حَرْفٍ، أو إنَّ الحَرْفَ على مَعْناه، ولكنْ ضُمِّنَ الفِعلُ ما يُناسِبُ الحرفَ؟

الجَوابُ: فيها قَولان:

أحدُهما: أنَّ الِاستِعارَةَ في الحرْفِ، يَعنِي: أنَّ الباءَ بِمعْنى "مِن" أي: يَشْرَبُ مِنها عِبادُ اللهِ، والعَينُ يُشرَبُ مِنها باليَدِ، أو بالإناءِ، أو بأيِ وسيلةٍ.

القوْل الثَّاني: أنَّ الاستِعارَة في الفِعلِ؛ أي: أنَّ "يشْرَبُ" ضُمِّنَ فِعلًا يُناسبُ الباءَ، والَّذي يُناسبُ الباءَ هُنا: يَرْوَى بِها عِبادُ اللهِ، يَعنِي: أنَّها عَينٌ تَروِي.

وأيُّهما أحسَنُ وأسهَلُ؟

الجَوابُ: أمَّا إذا قُلْنا إنَّ الباءَ بِمَعنى (مِن) فَهي سَهْلةٌ؛ لأنكَ تقَدِّرُ أيَّ حرْفٍ مُناسبٍ وَينْتَهي المَوضُوعُ، لكِنَّا إذا قُلنا إنَّ الباءَ على بابِها، وإنَّ الفِعْلَ ضُمِّنَ مَعْنًى يَتَناسَبُ مَعها، فحِينئذٍ قد يَصْعُبُ على الإنسانِ أنْ يُقدِّرَ الفِعْلَ المُناسبَ، لكنْ نَقولُ: إنَّ تَضْمينَ الفِعلِ مَعنًى مُناسِبًا للْحَرفِ أوْلَى.

وبَيانُ ذلِك: إذا قُلْنا: يَشْرَبُ بها عِبادُ اللهِ، فإنَّ الباءَ بِمعنى (مِن)، لم نستفِدْ فائِدة لاستِعارةِ الباءِ بدَلَ "مِن"، إذَنْ: فإتيانُنا بهذا الحرْفِ يُوجبُ بعْضَ الإشْكالِ، فنكُونُ قدْ تضرَّرْنا، فضْلًا عن كَونِنا لم نسْتَفِد؛ لأنَّ كَوْنكَ تضَعُ حرْفا بدلَ حرْفٍ بِدُونِ مُوجِبٍ، فإنَّ هذا يُوجِبُ التَّشْويشَ والإيْهامَ، لكنْ إذا ضَمَّنَّا الفِعْلَ معْنًى يتَناسَبُ مَع الحرْفِ ازدَدْنا فائِدةً، فإنَّ قولَك: إنَّ التَّقديرَ "يَرْوَى" بِها، يتَضمَّنُ الشُّربَ الَّذي ذُكِرَ، ويتضَمَّنُ الرِّيَّ، فاسْتَفَدنا فائِدَةً.

وهَذا الرَّأيُ -أعنِي: أنَّ الفِعْل يتَضَمَّن معنًى يُناسبُ الحرْفَ- هُو الَّذي ذهَبَ إلَيْهِ البَصْرِيُّون، وهو اختِيارَ شيْخ الإسْلام ابنِ تيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ لهِذه الفائِدة الَّتي ذَكَرنا.

وأرْجُو دائمًا منَ الطّلابِ أنْ يَفهَموا هذِه الفُروقَ الدَّقيقةَ؛ لأنَّها تَشْحَذُ الذِّهنَ مِن وَجْهٍ، وتَفْتحُ آفاقًا بَعيدَةً لِفَهمِ المَعاني، وزِيادَةِ الِاستِفادةِ مِن وَجهٍ آخَرَ.

=

=

وقَوله: {وَاسْتَغْفِرُوهُ} اطْلُبوا مِنه المَغْفِرةَ، والمَغفِرةُ تَتضَمَّنُ شيئَيْن؛ سَتْرَ الذَّنْبِ، والعَفوَ عَنه؛ لأنَّها مَأخُوذَةٌ منَ المِغْفَرِ وهُو ما يَلبَسُه المُقاتِلُ على رأسِه يتَّقي به السِّلاحَ، وأنَّ يَغفِرَ مُتضمِّن لِلوِقايةِ والسَّتر.

وعلَى هذا فكُلَّما طَلَبتَ المَغفِرةَ استَحضِرْ أنكَ تُريدُ مِنَ اللهِ ﷻ أنْ يَتجاوزَ عَنك فَلا يُعاقِبكَ، وأنْ يسترُ ذَنْبكَ؛ إذنْ: قوْله: {وَاسْتَغْفِرُوهُ} أيِ اطْلُبوا مِنه المَغْفِرةَ، وهِي سَتْرُ الذَّنبِ والتَّجاوزُ عنه.

وقولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَوَيْلٌ} كلمةُ عذابِ {لِلْمُشْرِكِينَ}] "ويلٌ" هذِه مُبتَدأٌ، وسوَّغَ الابْتِداءَ بِها وهِي نكِرة أنَّها للتَّهدِيدِ، فهِي كلِمةُ وعيدٍ وتهديدٍ، وقِيلَ: إنَّها وادٍ في جَهنَّمَ، ولكنَّ الأصحَّ الأوَّلُ: أنَّها كلِمةُ تَهديدٍ ووعيدٍ لكلِّ مَن خالَفَ.

وقولُه: {لِلْمُشْرِكِينَ}؛ أي: المُشرِكين باللهِ ﷻ سَواءٌ كانَ إشراكُهم في العُبُوديَّة أو في الألوهيَّةِ، أو في الأسْماءِ والصِّفاتِ؛ فمَنِ ادَّعى أنَّ مَع اللهِ خالقًا أو مُعيَّنًا أو مُستَقِلًّا بِخلْقِ بعضِ الأشياءِ فَهُو مُشرِكٌ، ومَنْ عَبَدَ مَع اللهِ غَيرَه أو راءَى بِعبادتِه غيرَه فهُو مُشرِكٌ، ومَن زَعَمَ أنَّ صِفاتِ اللهِ ﷻ مُماثِلةٌ لِصفاتِ المَخْلُوقين فهُو مُشرِكٌ.

واعْلَمْ أنَّ الشِّركَ يَنْقسِمُ إلى قِسْمين: أصْغَرَ وأكْبَرَ. ومِن وجْهٍ آخرَ إلَى: خفِيٍّ وجليٍّ، وكلُّ هذا مَعلُومٌ في كُتُبِ التَّوحِيدِ والعَقائدِ.

وقولُه تَعالَى: {الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [فصلت: ٧]. هذه صِفةٌ للمُشرِكين، وقولُه: {الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ}؛ أيْ: لا يُعطُون الزَّكاةَ، والزَّكاةُ هنا يَحتَمِلُ أنْ تكونَ زَكاةَ النَّفْسِ، ويحتَمَلُ أنْ تكونَ زَكاةَ المالِ، فإنْ كانتْ زكاةَ المالِ فِفيه إشْكالٌ؛ لأنَّ ظاهِرَها يَقْتَضي أنَّ الكُفَّار يلزَمُهم إخْراجُ الزَّكاةِ، ومَعْلُومٌ أنَّ إخْراجَ الزَّكاةِ لا يُطالَبُ به العَبْدُ حتَّى يُسلِمَ؛ لِقَوْل النَّبي ﷺ لمُعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إنَّكَ تَأتِي قومًا أهلَ كِتابٍ، فَليَكُن أوَّلَ ما تَدْعُوهم إلَيْه تَوحيدُ اللهِ، ثمَّ ادْعُهم إلى الصَّلاةِ، ثمَّ ادْعُهم

=

=

إلى الزَّكاةِ ... "، وهَذا يدُلُّ على أنَّ الزَّكاةَ لا يُخاطَبُ بِأدائِها الإنسانُ إلَّا بعْدَ أنْ يُسلِمَ.

أمَّا إذا قُلنا: إنَّ المُرادَ بالزَّكاةِ زكاةُ النَّفسِ، فإنَّه لا يَرِدُ على هذا إشْكالٌ، لكنْ يَرِدُ على هذا إشكالٌ مِن جِهةِ اللَّفْظِ، وهُو قولُه: {لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} فهَلْ زكاةُ النَّفسِ شيْءٌ يُعطَى؟ هذا محَلُّ نظَرٍ؛ ولذَلك الآيةُ فِيها إشْكالٌ، سَواءٌ فسَّرْتها على هَذا أو على هذا، وإذا كانَ فيها إشْكالٌ بيْن معنيَيْن، فإنَّنا نَطْلُبُ المُرجِّحَ. والرَّاجِحُ: أنَّ المُرادَ بها زَكاةُ النَّفسِ، والمَعْنَى: لا يُؤْتُون أنفُسَهم زَكاتَها، وفِي الحَدِيثِ: "آتِ نفسِي تقْواها، وزَكِّها أنت خيرُ مَن زَكَّاها"؛ فعلى هذا نرجِّحُ أنَّ المُرادَ بالزَّكاةِ زكاةُ النَّفْسِ، وَيكونُ المَعْنى: لا يُؤتُون أنْفُسَهم زَكاتَها، بلْ يُهمِلُونها ويَغفُلون عنْها.

وقولُه: {وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} "هُم بالآخِرَة": "بالآخِرَةِ" جارٌّ ومجرُورٌ مُتعلِّقٌ بـ"كافِرُون"، و"هُم": مُبتَدأٌ؛ و"هُمْ" هي الثَّانيةُ، ويقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [تَأكيدٌ]؛ أي تَأكِيدٌ لفظِيٌّ لـ"هم" الأولَى، والتَّأكِيدُ اللَّفْظيُّ أنْ تُعادَ الكَلِمةُ بِلفْظِها، كما قالَ ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومَا مِنَ التَّوكيدِ لفظِيٌّ يَجِي ... مُكَرَّرًا كقَوْلِكَ ادْرُجي ادْرُجي

وقولُه: {وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} أي: جاحِدُون لها غيرُ مُؤمِنين بِها، يَقولُون: {مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} [الجاثية: ٢٤] يَعنِي: يَمُوتُ قَومٌ ويَحيا آخرُون وما يُهلِكنا إلَّا الدَّهرُ ولا بَعْثَ ولا حِسابَ.

فإنْ قالَ قائِلٌ: إنَّ هُناك أُناسًا مِنَ المُسلمين يُصَلُّون ويُزَكُّون، لكنْ إذا ذَكَّرْتَهم مَثلًا بِعَذابِ القَبْرِ وبِأهوالِ يوم القِيامَةِ يَقولُون: هلْ رأيتَ عذابَ القَبْر؟ وهلْ رأيتَ أهوالَ يوم القِيامةِ؟ وهلْ رأيْتَ الجَنَّة؟ فما حُكْمُ هَؤُلاءِ؟

فالجَوابُ: إذا قُلْتَ لَهم هَكذا قالَ اللهُ ورَسُولُه؛ فَإن قالُوا: لا نُصَدِّق إلَّا ما نَرى فهَؤلاء كُفَّار، ولو يَرْكَعون باللَّيلِ والنَّهارِ، ويُخْرِجون جمِيعَ ما في صَنادِيقهم مِن

=

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨).

{إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون} مقطوع[1].

=

النَّفقةِ فهُم كفَّارٌ؛ لأنَّهم يُكذِّبون، فهذا كُفر تَكذِيبٍ.

(١) عن سعيد بن جبير:"قوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا }، يعني: بتوحيد الله".

عن سعيد قوله: " {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا }، يعني: بتوحيد الله، {ورسوله}، يعني: يصدقون بمحمد ﷺ أنه نبي ورسول".

عن زيد بن أسلم:"{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قال: رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم".

عن ابن عباس: "الأعمال الصالحة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر".

قوله تعالى: {لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [فصلت: ٨]، أي:"لهم ثواب عظيم غير مقطوع ولا ممنوع".

قال الطبري:"يقول: لمن فعل ذلك أجر غير منقوص عما وعدهم أن يأجرهم عليه".

وفي تفسير قوله تعالى: {لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [فصلت: ٨]، وجوه:

أحدها: غير محسوب، قاله مجاهد ،وقتادة ، وابن أبي نجيح.

وقال الضحاك:"وهو أجر بغير عمل".

الثاني: غير منقوص، قاله ابن عباس ، وقطرب ، وأنشد قول زهير :

فضل الجياد على الخيل البطاء فلا... يعطي بذلك ممنونا ولا ترقا

الثالث: غير مقطوع، قاله ابن عيسى ، مأخوذ من مننت الحبل إذا قطعته، قال ذو الأصبع العدواني :

إِنِّي لَعَمْرُكَ مَا بَابِي بِذِي غَلَقٍ... عَلَى الصَّدِيقِ وَلَا خَيْرِي بِمَمْنُونِ

=

=

الرابع: غير ممنون عليهم، قاله السدي.

قال ابن كثير:"وقال السدي: غير ممنون عليهم. وقد رد عليه بعض الأئمة هذا التفسير، فإن المنة لله على أهل الجنة؛ قال الله تعالى: {بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ} [الحجرات: ١٧]، وقال أهل الجنة: {فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ} [الطور: ٢٧]، وقال رسول الله ﷺ: «إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»".

وأخرج ابن ابي حاتم بسنده عن عكرمة، في قوله تعالى:"{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [التين: ٦]، قال: «يوفيه الله أجره وعمله فلا يؤاخذه إذا رد إلى أرذل العمر»، وفي لفظ، قال: «من رد منهم إلى أرذل العمر جرى له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته وشبابه فذلك الأجر غير ممنون»، قال: «ولا يمن به عليهم»".

قال الزمخشري:"قيل: نزلت في المرضى والزمنى والهرمى: إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر، كأصح ما كانوا يعملون".

وقال العثيمين: لَمَّا ذَكَرَ عُقُوبَةَ المُشْرِكين بَيَّن ثَوابَ المُؤمِنين؛ لأنَّ اللهَ تَعالى أَنْزَل هَذا الكِتابَ مَثانِيَ، وإنَّما كان الأَمْرُ كذَلِك؛ لِيَكونَ الإنْسانُ سائِرًا إِلَى ربِّه بين الخوفِ والرَّجاءِ، فإنَّه إذا سمِعَ عُقوبَةَ المُكذِّبين خاف، وإذا سمِعَ ثوابَ المُؤمنين رجَعَ، وهكذا يَنْبَغي للإنْسانِ أنْ يَكونَ سائِرًا إِلَى الله ﷻ بيْن الخَوفِ والرَّجاءِ، كما قال تَعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا} [الأنبياء: ٩٠].

ولكِن في بعضِ الأحيانِ، قد يَكونُ مِن المَصلَحةِ تغْليبُ الرَّجاءِ، أو مِن المصلَحةِ تغليبُ الخوْفِ، فإذا اشتَدَّتْ رَغْبةُ الإنْسانِ في المَعْصيةِ فلْيُغلِّبْ جانِبَ الخوفِ حتَّى يرتَدِعَ عنها، وإذا فعَل الإنسانُ عِبادةً فلْيغلِّبْ جانِبَ الرَّجاءِ، وهو قَبُولُ اللهِ

=

=

تبارك وتعالى إياها، وكذَلِك أيضًا يَنْبَغي له في حالِ المَرَضِ أنْ يَرجِعَ إلى اللهِ سبحانه وتعالى وأنْ يُحسِنَ الظَّنَّ به، كما جاء في الحَديثِ: "لا يمُوتنَّ أحدُكم إلَّا وهُو يُحسِنُ الظَّنَّ بربِّه تبارك وتعالى".

قولُه تَعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} جَمَعَ اللهُ تَعالى بيْن العَقِيدةِ والعَمَلِ، بيْن الإيمانِ والإِسْلامِ، فـ {آمَنُوا}: العَقِيدَةُ، و"عمِلوا الصَّالحاتِ": الإسْلامُ. وهَذا يقَعُ في القُرآنِ كثِيرًا؛ فالإيمانُ وحدَه لا يَكفِي، بل لا بُدَّ مِن عمَلٍ صالِحٍ حتَّى يَحصُلَ الثَّوابُ، وكلَّما جاءَت "آمَنُوا" فالمُرادُ: آمَنُوا بما يَجِبُ الإيمانُ به منَ الأصُولِ السِّتَّةِ الَّتي بيَّنها الرَّسولُ -ﷺ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- لجِبريلَ عليه السلام حِينَ قال: "الإيمانُ أنْ تُؤمِنَ باللهِ وبمَلائِكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خيرِه وشرِّه"؛ وذلك لأنَّ الإيمانَ المُجمَلَ في القُرآن يُفسِّرُه تَفْصيلُ السُّنَّة؛ لأنَّه لا أحدَ أعْلمُ بكِتابِ الله مِن رسُولِ اللهِ ﷺ.

أمَّا قوْلُه: {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فمَعلومٌ أنَّ "الصَّالحاتِ" وَصْفٌ لمَوصُوفٍ مَحذُوف، والتَّقدير: الأعْمال الصَّالحات؛ فما هي الأعْمالُ الصَّالحاتُ؟

الجَوابُ: الأعْمالُ الصَّالحاتُ هي ما جَمعَتْ شرطَين:

الأوَّلُ: الإخْلاصُ لله عز وجل.

والثَّاني: المُتابعةُ لرسُولِ اللهِ -ﷺ وعلى آلِهِ وسلَّمَ-.

فكُلُّ عمَل فيه شِرْكٌ، فإنَّه ليْس بصالحٍ، وهُو مردُودٌ على صاحِبِه؛ لقَولِ الله تَعالى في الحديثِ القُدسيِّ: "أنا أغنَى الشُّركاءِ عنِ الشِّركِ، مَن عمِلَ عمَلًا أشرَكَ فيه معِي غيرِي ترَكتُه وشِركَه".

وكذَلِك أيضًا فلا بُدَّ مِن اتِّباع الرَّسولِ، فالعَملُ البِدعيُّ غيرُ مقبُولٍ وإنْ أخلَصَ الإنسانُ فِيه؛ لِقوْلِ النَّبيِّ -ﷺ وعلى آلِهِ وسلَّمَ-: "مَن عمِلَ عمَلًا ليْس علَيه أمرُنا فهُو ردٌّ".

=

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩).

{قل أئنكم} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَة الثَّانِيَة وَتَسْهِيلهَا وَإِدْخَال أَلِف بَيْنهَا بوجهيها وبين الأولى {لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين} الأحد والاثنين

=

إذنْ: الأعمالُ الصَّالحاتُ لا بُدَّ أنْ تتَضمَّن شيئين، وهُما: الإخْلاصُ للهِ، والمُتابَعةُ لرَسولِ الله -ﷺ وعلى آلِهِ وسلَّمَ-.

وقولُه تعالى: {لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} هذِه الجُملَةُ خبَرُ إنَّ؛ وقدْ نقولُ: إنَّ تقدِيمَ الجارِّ يدُلُّ على الحَصْرِ؛ أيْ: لهُم لا لِغيرهم مِن المُكذِّبين أو الفاسقين أجْرٌ؛ أي: ثوابٌ. {غَيْرُ مَمْنُونٍ} يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [غيرَ مَقطُوعٍ] بلْ هُو دائِمٌ كَما قال تَعالى: {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [مريم: ٦٢] وقِيلَ: {غَيْرُ مَمْنُونٍ} غير مَمنُونٍ بِه؛ أي: يُعطُونه بلا مِنَّةٍ، وهَذا محُتَملٌ.

وإذا كان محُتَملًا ولا يُنافِي المَعنَى الأوَّلَ كان المُرادُ بالآيَةِ المَعنيَيْن جمِيعًا؛ إذْ لديْنا قاعِدةٌ في التَّفسيرِ -وكذَلِك في الحدِيثِ- مُهِمَّةٌ، وهِي إذا كان النَّصُّ يحتَمِلُ معنيَين لا يُنافي أحدُهُما الآخَرُ فإنَّ النَّصَّ يُحمَلُ عليهما جميعًا؛ وذلِك لأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يَعْلَم ما يَحتَمِلُه كلامُه، وكذَلِك الرَّسولُ -ﷺ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- فَلَمَّا لم يُعيَّن أحدُ الاحتِمالَين وجَبَ أنْ يكُونَ شامِلًا لهُما، لكِن إذا كان أحدُهما أرجَحَ منَ الآخَرَ فإنَّه يتبَعُ الأرْجَحَ؛ ولهذا نقُولُ: يُقدَّمُ ظاهِرُ النَّصِّ على تأويلِ النَّصِّ، والتَّأويلُ هو اتِّباعُ المَعنَى المَرجُوحِ.

إذنْ: قَولُه تَعالى: {لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}؛ أي: ثَوابٌ غيرُ مقْطُوعٍ، وثوابٌ غيرُ ممْنُونٍ به.

{وتجعلون له أندادا} شركاء {ذلك رب} أي مالك {العالمين} جمع عالم وهو ما سوى الله وجمع لاختلاف أنواعه بالياء والنون تغليبا للعقلاء[١].

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} [فصلت: ٩]، أي:"قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين موبخًا لهم ومتعجبًا من فعلهم: أإنكم لتكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومين اثنين".

قال الطبري:"وذلك يوم الأحد ويوم الاثنين؛ وبذلك جاءت الأخبار عن رسول الله ﷺ وقالته العلماء،".

عن السديّ: " {خَلَقَ الأرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}، في الأحد والإثنين".

قال ابن جريج:"بدأ خلق الأرض في يومين، وقدّر فيها أقواتها في يومين".

عن كعب، قال: "بدأ الله خلق السموات والأرض يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وفرغ منها يوم الجمعة".

قال السمعاني:"فإن قال قائل: ما الحكمة في خلقها في يومين، وقد كان قادرا على خلقها في ساعة وأقل من ذلك؟

قلنا: خلق في يومين ليرشد خلقه إلى الإناة في الأفعال؛ وليكون أبعد من توهم اتفاق أو فعل طبع، ولأنه لا سؤال عليه في خلقه فكيفما شاء خلق".

قوله تعالى: {وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا} [فصلت: ٩]، أي:"وتجعلون له نظراء وشركاء تعبدونهم معه؟".

قال الطبري:"يقول: وتجعلون لمن خلق ذلك كذلك أندادا، وهم الأكفاء من الرجال تطيعونهم في معاصي الله، وقد بيَّنا معنى الندّ بشواهده فيما مضى قبل".

قال السمعاني:"{أندادا}، أي: أشباها وأمثالا وشركاء".

قال الطبري:"«الأنداد»: جمع «نِدّ»، و «النِّدّ»: العِدْلُ والمِثل، كما قال حسان بن ثابت:

=

=

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ؟... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

يعني:"لست له بمثْلٍ ولا عِدْلٍ. وكل شيء كان نظيرًا لشيء وله شبيهًا فهو له ند".

عن قتادة:"{فلا تجعلوا لله أندادًا}، أي: عُدَلاء".

قال السمعاني:"{أندادا}، أي: أشباها وأمثالا وشركاء، قال أهل المعاني: قوله {وتجعلون له أندادا} أي: تطيعون غيره في معاصيه. وقال بعضهم: من ذلك أن يقول الرجل: لولا كلبة فلان لدخل اللصوص داري، ولولا إرشاد فلان لهلكت، وما أشبه ذلك".

قوله تعالى: {ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [فصلت: ٩]، أي:"ذلك الخالق هو رب العالمين كلهم".

قال السمعاني:"أي: الذي فعل ذلك الفعل هو رب العالمين".

قال الطبري:"يقول: الذي فعل هذا الفعل، وخلق الأرض في يومين، مالك جميع الجن والإنس، وسائر أجناس الخلق، وكل ما دونه مملوك له، فكيف يجوز أن يكون له ندّ؟! هل يكون المملوك العاجز الذي لا يقدر على شيء ندّا لمالكه القادر عليه؟".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ} الجُملَةُ هذِه استِفْهامٌ، بِمعنَى التَّقريرِ، يَعني: إنَّكم لتكفُرون، و"إنَّ" للتَّوكِيدِ، و {لَتَكْفُرُونَ} للتَّوكِيدِ أيضًا؛ وذلِك لأنَّ اللَّامَ الواقِعَةَ في خبَرِ "إنَّ" أو اسْمَها المُؤخَّرَ تكُون للتَّوكِيدِ؛ ف "إنَّ" تنْصِبُ المُبتَدأَ وتَرْفَعُ الْخبَرَ، والكافُ اسْمُها، وجُملَةُ {لَتَكْفُرُونَ} خبَرُها.

أمَّا مِن حَيثُ الْقِراءاتِ فتقولُ المُفَسِّر: [بتَحقِيقِ الهَمْزةِ الثَّانيَةِ وتسهِيلِها] تَحقِيقُها أنْ تقولَ: "أَإِنَّكُمْ"، وتَسهيلُها أنْ تقُولَ: "أإنَّكم" فتمُرَّ بها بسُرعَةٍ، [وإدْخال ألِف بينَهما بوَجهَيها وبيْن الأُولى]، والوجْهان هُما التَّحقِيق والتَّسهِيل، فأدْخَل أَلِفَيْنِ بينَهُما على القِراءتَين، فتكونُ القِراءاتُ أرْبَعًا: إدْخال الألِفِ تَقُول: "آإنَّكم" هذا

=

=

في التَّحقيقِ، "آانكم" هذا بالتسهيل.

إذَن: تَحقيقٌ وتَسهِيلٌ بألِف، وبدُونِها: اثْنتان في اثنَتيْن: بأرْبَع قِراءاتٍ.

مَسْألةٌ: قِيلَ في قَولِه تَعالى: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ}: إنَّهم يَقرَؤُونها: "أهِنَّكُم"؛ فَإذا ثَبتتِ القِراءةُ بالهاءِ، فَهذا يُعتَبرُ إبْدالًا ولَيس بِتَسهِيل، إبْدال الهَمزَةِ هاءً.

فإنْ قِيلَ: بعضُ النَّاسِ يَنطِقون التَّسْهيلَ كأنَّه هاءٌ!

فالجَوابُ: بعضُ النَّاسِ يتَشدَّدُ في التَّسهيلِ حتَّى تَكونَ هاءً، وربَّما يتَشدَّدُ آخَرُ حتَّى تَكونَ حاءً حقِيقةً؛ لأنَّ بعضَ النَّاس -الله يهدِينا وإيَّاهم- يَفعَلُ هذا عِندَ القِراءَةِ وقَد أنكَر هَذا شَيخُ الإسْلام رَحِمَهُ اللهُ في (فتاواه) وغيْرِها هَذا التَّشدُّدَ في تَحقِيقِ بعْضِ القِراءاتِ، فبَعْضُ النَّاسِ -مثَلًا في القَلقَلةِ-: يُقلْقِلُ كأنَّه يُقلْقِلُ حصاةً أو حَجرًا؛ يَعني يُؤكِّدُ على الحَرفِ كَثيرًا.

والحَقيقَةُ: أنَّ التَّنطُّعَ ليسَ بحَسَنٍ، والإهْمال ليس بحَسَنٍ، وخَيرُ الأمُورِ الوَسَطُ.

وقولُه تَعالى: {لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} تَكفُرون به؛ أي: تَجحَدونَه وتَستكبِرون عن عِبادَتِه؛ لأنَّ الكُفرَ كلَّه يدُورُ على شَيئَينِ: إمَّا جَحدٌ، وإمَّا استِكبارٌ، فمَثلًا الشَّيطانُ إنَّما كفَرَ بالاستِكبارِ، وإلَّا فهُو مُقِرٌّ باللهِ وبعِزَّةِ الله وبقُدرَةِ اللهِ، لكِنه استكبَرَ، وآلُ فِرعَونَ ومَن شابَهَهم كَفروا بالجُحودِ، فمَدارُ الكُفرِ كلِّه على هَذين الأمْرَين: الجَحدِ أو الاسْتِكبارِ، فقَولُه: {لَتَكْفُرُونَ} يَشمَلُ المعنيَيْن؛ لأنَّهم جَحدوا تَوحِيدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ واستكبَروا عَن عِبادَتِه.

وقال تَعالى: {بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} ولم يَقُلْ: بالله، بلْ أَتَى بفِعلٍ مِن أفعالِه جَلَّ وَعَلَا بفِعْل لا تَقدِرُ علَيه هَذه الأصْنامُ، والإتْيانُ بالفِعلِ الَّذي لا تَقدِرُ علَيه الأصْنامُ.

هُو إقامةٌ للحُجَّةِ في نفْسِ الوَقتِ؛ أي: تَكفُرون بِهذا مَع أنَّ أصْنامَكم لا تَفْعَلُه.

وقولُه: {لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} قال المُفسِّرُ: [الأحَد

=

=

والاثنين]؛ لأنَّ أوَّلَ يوم ابتَدأ فيه اللهُ الخَلْقَ الأحَدُ.

وقولُه: {وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا} الواوُ حرْفُ عطْفٍ، و"تَجعَلُون" مَعطُوفةٌ على "تكفُرون"، لا على الصِّلةِ يَعني: لا على "خَلَقَ".

وقولُه: [{وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا} شركاء]، أنْدادًا جَمْع نِدٍّ، والنِدُّ في الأصْلِ هُو المُساوي والمُماثِلُ، يُقالُ: هَذا نِدُّ هَذا؛ أيْ: مُماثِلٌ له ونَظِيرٌ له، والمُرادُ بِهم هُنا: الشُّركاءُ الَّذِين يعبُدُونهم كما يَعبُدون اللهَ، والعَجَبُ أنَّ هؤُلاء المُشرِكين مِن سَفَهِهم يَقولون: إنَّما نعْبُدُهم لِيُقرِّبونا إلَى اللهِ، تَعْبدُونهم مَع اللهِ وتَقُولون: يُقرِّبونا إلَى الله؟ ! إنَّ الله غنِيٌّ عنْ هذا، وهَذا لا يَزيدُكم مِن الله إلَّا بُعدًا.

وقولُه تَعالَى: {ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، ذلِك، أَتَى باسِم الإشارة دُون الضَّمِير، ثمَّ جعَلَها إشارةَ بُعدٍ للتَّعْظيمِ والتَّفخيمِ والتَّعلِيةِ، لأنَّ البُعدَ هُنا إشارةٌ إلَى المَكانِ العالي {ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، ولَو قال: "هُو ربُّ العالَمين" استَقام الكَلامُ، لكِن لمْ يَحصُل ما تدلُّ علَيْه الإشارةُ مِنَ التَّعظيمِ، ثمَّ ما يدُلُّ علَيْه صِيغَةُ البُعدِ منَ العُلُوِّ. ونظِيرُ ذلِك: {الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ} [البقرة: ١ - ٢]، ولَمْ يَقُلْ: "هوَ الكِتابُ"، ولا: "هَذا الكِتابُ"، إشارةً إلَى ما ذكَرنا.

قولُه: {ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ} قال المُفسِّرُ: [مالِك] وفِي هَذا التَّفسير قُصورٌ، بلْ نقُولُ: خالِقٌ ومالِكٌ ومدبِّر؛ لأنَّ الرُّبوبيَّةَ هِي الخلْقُ والمُلكُ والتَّدبيرُ، فإذا قُلنا: مالِكٌ، صار في هذا قُصُورٌ، فقَولُه: {ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ} أي: خالِقُهم ومالِكُهم ومدبِّرُ أمُورِهم.

وقولُه: [{رَبُّ الْعَالَمِينَ} جمع عالَم وهُو ما سِوى اللهِ] ﷻ فكلُّ ما سِوى اللهِ فهُو عالَم، وسمِّي عالمًا، لأنَّه عَلَم على خالِقِه جَلَّ وَعَلَا، فإنَّ كلَّ شيْء فِيه آيَةٌ تدلُّ على وَحْدانيَّة الله وقُدرَتِه وحِكمَتِه وعِزَّته، وغيرِ ذلِك.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [وجمَعَ لاختِلافِ أنْواعِه] يَعنِي: لمْ يَقُلْ: العالَم، بلِ أتَى بالعالَمين

=

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠).

{وجعل} مستأنف ولا يجوز عطفه على صلة الذي للفاصل الأجنبي {فيها رواسي} جبالا ثوابت {من فوقها وبارك فيها} بكثرة المياه والزروع والضروع {وقدر} قسم {فيها أقواتها} للناس والبهائم {في} تمام {أربعة أيام} أي الجعل وما ذكر معه في يوم الثلاثاء والأربعاء {سواء} منصوب على المصدر أي استوت الأربعة استواء لا تزيد ولا تنقص {للسائلين} عن خلق الأرض بما فيها[1].

=

[بالياءِ والنُّونِ تغْلِيبًا لِلعُقلاءِ]، فإنْ قال قائِلٌ: هلِ العُقَلاءُ أكثَرُ أو غيرُ العُقلاءِ؟ **فالجَوابُ**: إنْ قِيلَ: إنَّ العُقَلاءَ أكثَر، فيُحتاجُ إلَى دلِيلٍ، ورُبَّما يَكونُ دلِيلُه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: "أطَّتِ السَّماءُ وحُقَّ لَها أنْ تَئِطَّ، ما مِن مَوضِعِ أربَعِ أصابعَ مِنها إلَّا وفِيه مَلَكٌ قائِمٌ للهِ أو راكعٌ أو ساجِدٌ"، والسَّماءُ واسِعةٌ عظِيمةٌ، كلّ سماءٍ أوسَعُ ممَّا تحْتَها، فمَن يُحصي هؤُلاء! هَذا شيْءٌ عظِيم، والبَيْت المَعمُور في السَّماء السَّابعةِ يدْخُلُه كلُّ يوم منَ المَلائِكةِ سبعُون ألْف مَلكٍ لا يعُودُون إلَيه، فمَن يُحصِي الأَيَّامَ، كُلُّ يَومٍ يُضرَبُ في سَبعِين ألفِ مَلَكٍ! فإذا رأَينا هَذا قُلْنا: العُقلاءُ أكثَرُ.

وإنْ نظَرْنا إلى ما في الأرْضِ قُلنا: غيرُ العُقَلاءِ أكثر، فعلى هَذا التَّقدِيرِ- أنَّ المرادَ مثلًا من في الأرضِ- نقولُ: إنه غلَّبَ العُقلاءَ لشرَفِهم، والحاصِلُ: أنَّ تغلِيبَ العُقلاءِ إنْ كانَ العُقلاءُ أكثَرُ فغُلِّبوا لِكَثرَتِهم، وإنْ قُلنا: غيرُ العُقلاءِ أكثرُ، فغُلِّبَ العُقلاءُ، يُغلَّبُ مَن لَيْس بمُمَيِّزٍ لِشرَفِهم.

(١) قوله تعالى: {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا} [فصلت: ١٠]، أي:"وجعل سبحانه في الأرض جبالا ثوابت من فوقها".

=

=

قال الطبري: يقول:"وجعل في الأرض التي خلق في يومين جبالا رواسي، وهي الثوابت من فوق الأرض على ظهرها".

قال السمعاني:"وسماها رواسي لثبوتها. وفي القصة: أن الله تعالى لما خلق الأرض جعلت تميد ولا تستقر، فخلق الله الجبال عليها فاستقرت، فهو معنى قوله: {وجعل فيها رواسي من فوقها}".

عن الحسن:"{وألقى في الأرض رواسي} [النحل: ١٥]، قال: "الجبال".

عن قتادة، قوله:"{رواسي}، أي: جبال".

قال قتادة:"أثبتها بالجبال، ولولا ذلك ما أقرّت عليها خلقا".

قوله تعالى: {وَبَارَكَ فِيهَا} [فصلت: ١٠]، أي:"وبارك فيها فجعلها دائمة الخير لأهلها".

قال الطبري: " يقول: وبارك في الأرض فجعلها دائمة الخير لأهلها".

وعن السديّ: " {وَبَارَكَ فِيهَا}، قال: أنبت شجرها".

قال السمعاني:"أي: أكثر فيها البركة. والبركة: المنافع، ومن بركاتها الأشجار التي تنبت بغير غرس، والحبوب التي تنبت بغير بذر، وكل ما لم يعمله بنو آدم. وفي بعض الآثار: أن الله تعالى جمع في الخبز بركات السماء والأرض".

قوله تعالى: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا}، أي:"وقدّر فيها أرزاق أهلها من الغذاء، وما يصلحهم من المعاش".

وفي قوله تعالى: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} [فصلت: ١٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: قدر أرزاق أهلها، قاله الحسن ، وابن زيد ، والسدي.

قال ابن زيد:"قدر فيها أرزاق العباد، ذلك الأقوات".

الثاني: قدر فيها ما يصلحها. قاله قتادة.

الثالث: خلق فيها جبالها وأنهارها وبحارها وشجرها، وساكنها من الدواب كلها.

=

=

قاله قتادة أيضا.

الرابع: قدر فيها أقواتها من المطر، قاله مجاهد.

الخامس: قدر في كل بلدة منها ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد، قاله الضحاك، ومجاهد-في رواية-، وعكرمة.

قال عكرمة:"اليمانية باليمن، والسابرية بسابور، وأشباه هذا".

وقال عكرمة:"البلد يكون فيه القوت أو الشيء لا يكون لغيره، ألا ترى أن السابري إنما يكون بسابور، وأن العصب إنما يكون باليمن ونحو ذلك".

قال مجاهد والضحاك:"السابريّ بسابور، والطيالسة من الريّ".

قال السمعاني:"في التفسير أن معناه: الحنطة لقوم، والشعير لقوم، والذرة لقوم، والتمر لقوم، والسمك لقوم، واللحم لقوم. ويقال: المصري لمصر، والسابري لسابر، والعربي للعرب، وكل طعام في موضعه".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى أخبر أنه قدّر في الأرض أقوات أهلها، وذلك ما يقوتهم من الغذاء، ويصلحهم من المعاش، ولم يخصص جلّ ثناؤه بقوله: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} أنه قَدّر فيها قوتا دون قوت، بل عم الخبر عن تقديره فيها جميع الأقوات، ومما يقوت أهلها ما لا يصلحهم غيره من الغذاء، وذلك لا يكون إلا بالمطر والتصرّف في البلاد لما خصّ به بعضا دون بعض، ومما أخرج من الجبال من الجواهر، ومن البحر من المآكل والحليّ، ولا قول في ذلك أصح مما قال جلّ ثناؤه: قدّر في الأرض أقوات أهلها، لما وصفنا من العلة".

عن ابن مسعود أنه كان يقرأ «وَقَسَّمَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا».

قوله تعالى: {فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ} [فصلت: ١٠]، أي:"في تمام أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان، للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها".

=

=

قال الماوردي:"يعني: تتمة أربعة أيام، ومنه قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يومًا، أي: في تتمة خمسة عشريومًا".

قال السمعاني:"فإن قال قائل: قد قال هاهنا خلق الأرض في يومين فذكر أنه بدأ بخلق الأرض وقال في موضع آخر: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} [النازعات: ٣٠، فكيف وجه الجمع بين الآيتين؟

والجواب: أن معنى قوله: {والأرض بعد ذلك دحاها} أي: مع ذلك، وهذا ضعيف في اللغة، والأصح أن معنى قوله: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} [النازعات: ٣٠]، أي: بسطها، وكان الله تعالى خلق الأرض قبل السموات في يومين، وخلق الأرزاق والأقوات فيها، وأجرى الأنهار، وأظهر الأشجار، وخلق البحار في يومين آخرين، فذلك تمام أربعة أيام، ولم يكن بسط الأرض وجعلها بحيث يسكن فيها، فلما خلق السموات بسط الأرض وجعلها بحيث يسكنها الناس".

وفي قوله تعالى: {سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ} [فصلت: ١٠]، وجهان:

أحدهما: معناه: سواء للسائلين عن مبلغ الأجل في خلق الله الأرض، قاله قتادة ، والسدي.

قال قتادة:"من سأل عن ذلك وجده، كما قال الله".

قال السدي:"يقول: من سأل فهكذا الأمر".

قال السمعاني:"أي: عدلا للسائلين، ومعناه: من سألك عن هذا فأجبه بهذا، فإنه الحق والعدل".

الثاني: سواء للسائلين في أقواتهم وأرزاقهم، يعني: سواء لمن سأل ربه شيئا مما به الحاجة إليه من الرزق، فإن الله قد قدّر له من الأقوات في الأرض، على قدر مسألة

=

كل سائل منهم لو سأله لما نفذ من علمه فيهم قبل أن يخلقهم. وهو معنى قول ابن زيد.

قال ابن زيد:"قدّر ذلك على قدر مسائلهم، يعلم ذلك أنه لا يكون من مسائلهم شيء إلا شيء قد علمه قبل أن يكون".

وقال العثيمين: قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَجَعَلَ} مُستَأنفٌ] يعنِي: ولَيْس معطُوفًا على خَلَقَ، والعَجَبُ أنَّه يقُولُ: [ولا يجُوزُ عطْفُه على صِلَةِ "الَّذي" لِلفاصلِ الأجنَبِيِّ]، هَذا ما ذهَب إلَيْه المُفسِّرُ: أنَّ قوْلَه: {وَجَعَلَ} مُستأَنَفٌ، ولا شكَّ أنَّنا إذا جعَلْناه مُستَأنفًا لَم يَكُن الكَلامُ مُنتَظِمًا.

والصَّوابُ: أنَّه على خِلافِ ما قال المُفسِّرُ: أنَّ "جَعَل" مَعطُوفةٌ على {خَلَقَ}، يعنِي: بالَّذي خلَق الأرْضَ في يومَيْن وجعَل فِيها رواسيَ. والفاصِلُ الأجنَبيُّ هُنا لا يضُرُّ، إمَّا أنَّه لا يضُرُّ مُطلَقًا، كما قِيل به، وإمَّا أنَّه لا يضُرُّ، لأنَّه في مَضمُونِ الكَلامِ والكَلامُ واحِدٌ.

فالصَّوابُ: أنَّ قولَه: {وَجَعَلَ} مَعطُوف على {خَلَقَ}، أي: بالَّذي خلَق الأرْضَ في يومَيْن، وجعَلَ فيها رواسِي.

وقولُه: {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ} قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [جِبالًا ثوابِت] أوَّلًا: "جعَل" هُنا هلْ هِي مِن أفعالِ التَّصيير، أو مِن أفعالِ الإيْجادِ؟

يَحتَملُ المعنَى: وأوجَد فِيها رواسيَ، ويَحتَملُ أنْ تكُونَ مِن أفعالِ التَّصيير، أي: صَيَّر فِيها رواسيَ. والمَعنَى لا يختَلِفُ، لكنَّ الإعْرابَ يَختلِفُ، إذا قُلنا "مِن أفعالِ التَّصيير" صارَتْ تنصِبَ مفعُولَين، وإذا قُلنا "مِن أفعالِ الإيجادِ" صارَتْ تنْصِبَ مَفعُولًا واحِدًا.

وقولُ المُفسِّرِ: [جِبالًا ثوابِتَ] أفادَنا رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ {رَوَاسِيَ} صِفةٌ لمَوصُوفٍ محذُوفٍ، والتَّقدِيرُ: جِبالًا رواسيَ، و {رَوَاسِيَ} بمَعنَى ثوابِتَ، وهلْ يجُوزُ أنْ

=

يُحذَفَ المنعُوتُ؟ الجَوابُ: نعَم، وهُو كثِيرٌ، كثِيرٌ جِدًّا.

ومامِنَ المنْعوتِ والنَّعْتِ عُقِل ... يَجوزُ حَذْفُه وفِي النَّعْتِ يَقِلّ

أي: فِي المَنعُوتِ يَكثُرُ؛ قال تَعالَى: {أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ} [سبأ: ١١]؛ أي: دُرُوعًا سابِغاتٍ، وقولُه: {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}؛ المُهِمُّ أنَّها كثِيرةٌ كما تَقدَّم، فإنَّ المَقصُودَ الصِّفةُ، والصِّفةُ تكونُ بالنَّعْتِ وهُو موجُودٌ.

وقولُه: {مِنْ فَوْقِهَا} أي: هذِه الرَّواسي مِن فوْق؛ يعنِي: صيَّرَ فِيها رواسيَ، فالمَفعُولُ الأوَّلُ هُو {رَوَاسِيَ}، والثَّاني الجارُّ والمَجرُورُ.

وقولُه: {مِنْ فَوْقِهَا} انتبِه لهذِه الكَلِمةِ، فلَها فائِدةٌ عظِيمةٌ! إذِ الرَّواسِي قد تكُونُ مِن أسفَلَ، وقدْ تَكونُ مِن فوْق؛ فقَد تكُونُ مِن أسفَلَ، يعنِي يكُونُ مَثلًا يَحفِرُ فِي الأرْضِ قواعِدَ تُرسِي، وتَكونُ راسِيةً، لكِن هُنا قال: {مِنْ فَوْقِهَا}؛ وذلِك لفَوائِدَ:

الفائِدةُ الأُولى: ظُهورُ هذِه الرَّواسي وبيانُها للنَّاسِ؛ حتَّى يعرِفوا بذلِك حِكْمةَ اللهِ ﷻ ورُبَّما لا تَكونُ رواسِيَ إلَّا إذا كانَتْ مِن فوْق؛ بِناءً على أنَّ الأرْضَ تدُور حتَّى تحفَظَ توازُنَها.

الفائِدةُ الثَّانيةُ: هذِه الرَّواسِي إذا كانَت مِن فوْق حصَل فِيها مِن المَنافِعِ فِي درْءِ العَواصِفِ وفِي الملاجِئِ شَيْءٌ كثِيرٌ، كما هُو معْرُوفٌ فِي المَغاراتِ، وكما يُعرَفُ مِن سُفوحِ الجِبالِ وخُدودِ الجِبالِ ورُؤوس الجِبالِ، مِن نَوابِتَ لا تُوجَدُ لولا هذِه المُرتَفَعاتُ.

الفائِدةُ الثَّالِثةُ: أنَّها تُوجِبُ أنْ تنْدَفعَ مِياهُ الأمْطارِ بشِدَّةٍ حتَّى تصِلَ إلَى أراضٍ صالحِةٍ للنَّباتِ؛ لأنَّكم تعْرفون أنَّ بعضَ الأرضِ سبَخاتٌ ليْس فيها خَيْرٌ وبعضُها رِياضٌ تُنبِتُ، فإذا نَزَل الماءُ على هذِه الجِبالِ على قِمَمِها وعلَى خُدودِها نزَلَ إلَى الأرْضِ بشِدَّةٍ عظِيمَةٍ حتَّى يصِلَ إلَى ما أرادَ اللهُ إيْصالَه.

الفائِدةُ الرَّابِعةُ: أنَّ فِي قِمَمِ الجِبالِ مِن المَعادنِ الجيِّدةِ أكثَرُ مِمَّا فِي الأرْضِ السُّفلَى؛

=

=

ولهذا قال تَعالَى: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} [الحديد: ٢٥]، أنْزَلْناه مِن قِمَمِ الجِبالِ؛ ولهذا يَقولُ العُلَماءُ رحمهم الله: "إنَّ الحدِيدَ الَّذي يَكونُ مِن قِممِ الجِبالِ أعلَى وأقوَى مِن الَّذي يَكونُ مِن الأسْفَلِ".

هَذا ما نَعْلَمُه، وما لا نعْلَمُه أكْثَرُ.

المُهِمُّ: أنَّ كلِمةَ {مِنْ فَوْقِهَا} لَها فائِدةٌ عظِيمَةٌ ذكَرْنا مِنها أربَعَ فوائِدَ.

وقولُه: {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا}، قال المُفسِّرُ: [بِكثْرةِ المِياهِ والزُّرُوعِ والضُّروعِ] "بارَكَ فِيها" أي في الأرْضِ، وما أعظَمِ برَكاتِ الأرْضِ مِنَ الزُّروعِ والأشْجارِ والأنْهارِ والمَعادِنِ، وغيرِها مِن برَكاتِ الأرْضِ!

وقوْلُ المُفسِّرِ: [الضُّرُوع] يعنِي ضُروعَ البَهائِمِ؛ لأنَّ البَهائِمَ كلَّما شبِعتْ مِن الرَّبِيعِ ازدادَ دَرُّها، ومَن يتَأمَّلْ يجِدْ أنَّ في الأرْضِ برَكاتٍ عظِيمَةٍ؛ فقَد حمَلتِ الأحْياءَ والأمْواتَ والوُحوشَ والسِّباعَ والبَهائِمَ والحشَراتِ والآدمِيِّين، وكانَت واسِعةً أيْضًا مَع كَثرَةِ ما فِيها؛ فلَو أنَّ هؤُلاء الأحْياءَ الَّذِين على ظهْرِ الأرْضِ يَحيَون إلَى الآنَ، لرَأيْتَ أمْرًا بَشِعًا وصَعبًا، لكِنْ جعَلَ اللهُ الأرْضَ كِفاتًا أحياءً وأمْواتًا، وهَذِه مِن برَكاتِها.

وقوْلُه: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} "قدَّر" قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [قَسَّم {فِيهَا أَقْوَاتَهَا} للنَّاس والبَهائِم ...] إلخ، قدَّر فِيها الأقْواتَ؛ يَقولُ: إنَّ "قدَّر" مِن التَّقدِيرِ وهُو التَّقسِيمُ، قدَّر الأقواتَ ولَم يجْعَل القُوتَ في جانِبٍ واحِدٍ مِنَ الأرْضِ، إذْ لو كان في جانِبٍ واحِدٍ مِن الأرْضِ لشقَّ هَذا على النَّاسِ كَثِيرًا؛ لَو قُدِّر مَثلًا أنَّ الأقْواتَ لا تَكونُ إلَّا في غرْبِ الكُرَةِ الأرْضِيَّةِ، فكَيْف يعِيشُ أهْلُ الشَّرقِ، أو بالعَكْسِ: كيْف يعِيشُ أهلُ الغرْبِ؟ لكنَّه مُقدَّر.

ثمَّ قدَّره مِن ناحِيةٍ أُخرَى: جعَل في هذِه الأراضِي ما لا يصْلُحُ في الأراضِي الأُخرَى والعَكْسَ.

=

=

والحِكْمَةُ: مِن أجْلِ أنْ يتَبادَلَ النَّاسُ الأقْواتَ، فيَأتِي النَّاسُ الَّذِينَ ليْس عِندَهم هَذا النَّوْعُ مِن القُوتِ يَذهَبُون إلَى الأراضِي الَّتي فِيها هَذا القُوتُ فيَجلِبونه إلَى الأرْضِ الخالِيةِ مِنْه، وكذَلِك العَكْسُ، ففِي بعْضِ الجِهاتِ مِن الأرْضِ يَكْثُر فِيها النَّخِيلُ والعِنَبُ، لكِن تقِلُّ فِيها الحمْضِيَّاتُ وأشباهُها، وفِيه أيْضًا أشْياءُ كثِيرَةٌ- وأنا لسْتُ مِن أهْلِ الزِّراعَةِ- تصْلُحُ في مكانٍ دُون مكانٍ مِن أجْلِ أنْ يقَعَ التَّبادُلُ بيْن النَّاسِ والضَّرْبُ في الأرْضِ ابْتِغاءَ الرِّزْقِ، وهَذا مِن الحِكمَةِ في قوْلِه: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا}.

وقولُه: {فِي أَرْبَعَةِ أَيَّام} قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فِي} تمام {أَرْبَعَةِ أَيَّام} هو أيِ الجَعْلُ، وما ذُكِرَ معَه في يوْمِ الثُّلاثاءِ والْأرْبعاءِ] إذا كانَ خلْقُ الأرْضِ أوَّلُه الأحَدُ والاثْنَينُ، ثُمَّ قال: {فِي أَرْبَعَةِ أَيَّام} فيَكونُ الباقِي؛ الثُّلاثاء والأرْبعاء، فتكونُ الأرْضُ خُلِقتْ وقُدِّر فِيها الأقْواتُ في أرْبَعَةِ أيَّام.

قال الله تَعالى: {سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ} [مَنْصُوبَةٌ على المَصدَرِ؛ أي: اسْتوَتِ الأربَعَةُ اسْتِواءً لا تَزِيدُ ولا تنْقُصُ]، فأفادَنا بقَوْلِه: "استَوَتِ استِواءً"؛ أنَّ سواءً مَنصُوبةٌ على المَصدَرِ؛ وفِيه تجَوُّزٌ لأنَّنا إذا قُلنا "سَواءً" مَصْدرُ "اسْتَوى"، فإنَّه لا يَستَقِيمُ مَع القاعِدةِ؛ لأنَّ القاعِدةَ: أنَّ المَصدَرَ ما وافَقَ الفِعْلَ في حروفِه، وهنا "استوى" لا توافقها "سواء"، بَلِ الَّذي يُوافِقُها "اسْتِواء".

إذَنْ "فسَواء" تكونُ اسْمَ مَصْدرٍ، مِثْل: (كَلَّم)، والمَصدَرُ (تَكلِيم)، واسْمُ المَصدَر (كَلام)؛ فَهُنا (اسْتَوَى)، والمَصدَر (اسْتِواءٌ)، واسْم المَصدَر (سَواءٌ).

المُهمُّ أنَّ قوْلَه: "سواء" يَعنِي: أنَّ هَذا الخَلْقَ استَوْعَب الأرْبَعةَ كلَّها، فلَم يَكُن في يوْمَين أو ثلاثَةٍ، بلْ في الأيَّام الأرْبَعةِ كلِّها، فعلى هَذا يَكونُ قوْلُه: [مَنصُوبٌ على المَصدرِ] الصَّوابُ: أنْ يُقالَ على أنَّه مَفعُولٌ مُطلَق؛ أي: استَوَتِ الأرْبَعُةُ استِواءً لا تَزِيدُ ولا تنْقُصُ.

=

ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١).

{ثم استوى} قصد {إلى السماء وهي دخان} بخار مرتفع {فقال لها وللأرض ائتيا} إلى مرادي منكما {طوعا أو كرها} في موضع الحال أي طائعتين أو مكرهتين {قالتا أتينا} بمن فينا {طائعين} فيه تغليب المذكر العاقل أو نزلتا لخطابهما منزلته(١).

=

وقَولُه: [{لِلسَّائِلِينَ} عَن خَلْقِ الأرْضِ بما فِيها]. قوْلُه: [{لِلسَّائِلِينَ} هذِه لا تظُنَّ أنَّها مُتعلّقةً بسَواءٍ، بَلْ هِي جوابٌ لخبرٍ مَحذُوفٍ؛ أيْ: هَذا جوابٌ للسَّائِلِين، أوْ نحْوٍ مِن هذِه الكَلِمةِ.

المُهمُّ أنَّ قوْلَه: {لِلسَّائِلِينَ} يُفيدُ أنَّ ما ذُكِر جواب لمِن سَأَل عَن خلْقِ الأرْضِ وتَقْدِيرِ أقواتِها: بأنَّها في أرْبَعَةِ أيَّامٍ سواءً.

مَسْأَلَة: ما الحِكْمَةُ فِي: أنَّ اللهَ ﷻ ذَكَرَ السَّماءَ والأرْضَ وقَدَّمَ السَّماءَ على الأرْضِ؟

الجَوابُ: الحِكْمةُ في أنَّ اللهَ تَعالَى يَذْكُرُ الأعْلَى قَبلَ الأسْفَلِ، أمَّا التَّحدُّثُ عنِ خلْقِ السَّماءِ فقَدْ بيَّن اللهُ تَعالَى أنَّ الأسْفَلَ يُخْلَقُ قبْل الأعلَى كالبِناءِ، فعِندَما تُريدُ أنْ تبْنِيَ شَيئًا فلَن تبْنِيَ السَّقْفَ قبْل أنْ تبْنِيَ العمُودَ، فعِنْدَ الذِّكْرِ والتَّحَدُّثِ يَبِينُ الأشْرَفُ والأعْلَى؛ يُقدَّمُ، وعِنْد التَّكوين والبِناءِ يُبْدأُ بالأسْفَلِ؛ لأنَّه هُو الأصْلُ.

(١) قال السمعاني:"أي: قصد إلى خلق السماء وهي دخان، وفي القصة ان الله تعالى خلق أول ما خلق ماء يضطرب، فأزبد الماء زبدا، وارتفع من الزبد دخان، فخلق الأرض من الزبد، وخلق السماء من الدخان".

قال الحسن: " {وهِيَ دُخانٌ} ملتصقة بالأرض".

=

=

واختلف في قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} [فصلت: ١١]، على أقوال:
القول الأول: أن «الإستواء»، بمعنى: العلو والارتفاع: أي: علا إلى السماء، فسرها به أبو العالية، والحسن، والربيع، وهو قول ابن عباس، وأكثر مفسري السلف.
قال الربيع بن انس: "يقول: ارتفع إلى السماء".
قال ابن العثيمين: "وذلك تمسكا بظاهر لفظ: «استوى»، وتفويضا لعلم كيفية هذا الارتفاع إلى الله ﷻ".
واختاره الطبري، قائلا: يعني تعالى ذكره: ثم استوى إلى السماء، ثم ارتفع إلى السماء".
وقال الطبري: أي: "علا عليهن وارتفع، فدبرهنّ بقدرته، وخلقهنّ سبع سموات".
قال شيخ الاسلام: "وهو قول إجماع السلف".
القول الثاني: أن «الإستواء» بمعنى: قصد إليها وأقبل عليهما؛ وهذا ما اختاره ابن كثير، والفراء، والسعدي، والبغوي، فكما تقول: كان فلان مقبلا على فلان، ثم استوَى عليّ يشاتمني- واستوَى إليّ يشاتمني، بمعنى: أقبل عليّ وإليّ يشاتمني، واستُشْهِد على أنّ «الاستواء» بمعنى «الإقبال»، بقول الشاعر:
أَقُولُ وَقَدْ قَطَعْنَ بِنَا شَرَوْرَى... سَوَامِدَ، وَاسْتَوَيْنَ مِنَ الضَّجُوعِ
فزعم أنه عنى به أنهن خرجن من الضّجوع، وكان ذلك عنده بمعنى: أقبلن، وهذا من التأويل في هذا البيت خطأ، وإنما معنى قوله: "واستوين من الضجوع": استوين على الطريق من الضجوع خارجات، بمعنى استقمن عليه.
قال ابن عثيمين: "وهذا القول ليس صرفا للكلام عن ظاهره، وذلك لأن الفعل استوى اقترن بحرف يدل على الغاية والانتهاء، فانتقل إلى معنى يناسب الحرف المقترن به، ألا ترى إلى قوله تعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ} [الإنسان: ٦]،
=

=

حيث كان معناها يروى بها عباد الله، لأن الفعل يشرب اقترن بالباء فانتقل إلى معنى يناسبها وهو يروى، فالفعل يضمن معنى يناسب معنى الحرف المتعلق به ليلتئم الكلام".

القول الثالث: أنه لم يكن ذلك من الله جل ذكره بتحوّل، ولكنه بمعنى فعله، كما تقول: كان الخليفة في أهل العراق يواليهم ثم تحوّل إلى الشام، إنما يريد تحوّل فعله. قاله الاخفش.

القول الخامس: أن معنى قوله: {ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّماءِ}: عمد إليها، وقال: بل كل تارك عملًا كان فيه إلى آخره فهو مستو لما عمد ومستو إليه. حكاه الطبري.

وأقرب الأقوال الى الصواب هو أن {اسْتَوَى} معناه: قصد إلى خلقها، إذ ترد كلمة: «استوى» في القرآن على ثلاثة معاني:

أحدها: لا تعدى بالحرف، فيكون معناها: «الكمال والتمام»، كما في قوله عن موسى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [القصص: ١٤].

الثاني: أن تكون بمعنى: «علا» و «ارتفع»، وذلك إذا عديت بـ «على»، كما في قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٥٤]، وقوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]، وقوله تعالى: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} [الزخرف: ١٣].

الثالث: أن تكون بمعنى: «قصد» كما إذا عديت بـ «إلى»، كما في هذه الآية: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ

=

=

سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٩]، أي: لما خلق تعالى الأرض، قصد إلى خلق السماوات {فسواهن سبع سماوات} فخلقها وأحكمها، وأتقنها.

وقال ابن كثير قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ.} الآية ٥٤]:"وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله لا يشبهه شيء من خلقه وليس كمثله شيء وهو السميع البصير بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى".

وقال شيخ الإسلام- بعد أن ذكر قول السلف- «أمروها كما جاءت»، قال: "فقولهم: «أمروها كما جاءت»: رد على المعطلة، وقولهم: «بلا كيف»: رد على الممثلة".

قال سفيان بن عيينة: "كل شيء وصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره لا كيف ولا مثل".

قوله تعالى: {فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا} [فصلت: ١١]، أي:"فقال للسماء وللأرض: انقادا لأمري مختارتين أو مجبرتين"

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: فقال الله للسماء والأرض: جيئا بما خلقت فيكما، أما أنت يا سماء فأطلعي ما خلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم، وأما أنت يا أرض فأخرجي ما خلقت فيك من الأشجار والثمار والنبات، وتشقّقِي عن

=

=

الأنهار".

عن ابن عباس، قوله: " {اِئْتِيَا} : أعطيا".

قال السمعاني:"قال بعضهم: معنى قوله: {ائتيا} ، أي: كونا كما قدرتكما طوعا أو كرها، وعلى هذا يكون هذا القول قبل الخلق، والقول الثاني -هو قول الأكثرين-: أن هذا القول من الله تعالى بعد أن خلقهما".

قوله تعالى: {قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: ١١]، أي:"قالتا: أتينا مذعنين لك، ليس لنا إرادة تخالف إرادتك".

قال الطبري: أي:"جئنا بما أحدثت فينا من خلقك، مستجيبين لأمرك لا نعصي أمرك".

قال ابن كثير:"أي: بل نستجيب لك مطيعين بما فينا، مما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعا مطيعين لك".

قال السمعاني: فإن قيل: كيف قال: {طائعين} وكان من حق اللغة أن يقول: طائعات قلنا: إنما قال: {طائعين} لأنه لما جعلها بمنزلة من يعقل في الخطاب معها وجوابها ذكر الكلام على نعت العقلاء".

وفي قوله تعالى: {قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: ١١]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: أعطينا الطاعة، رواه طاووس عن ابن عباس.

عن ابن عباس، قوله: " {قَالَتَا أَتَيْنَا} ، قالتا: أعطينا".

الثاني: أتينا بما فينا. رواه مجاهد عن ابن عباس.

قال ابن عباس:"قال الله للسموات: أطلعي شمسي وقمري، وأطلعي نجومي، وقال للأرض: شققي أنهارك وأخرجي ثمارك، فقالتا: أعطينا طائعين".

الثالث: معناه: كما أراد الله أن نكون، حكاه الماوردي عن ابن بحر.

وفي قولهما وجهان:

=

=

أحدهما: أنه ظهور الطاعة منهما قائم مقام قولهما.

الثاني: أنهما تكلمتا بذلك، وهو الصواب.

قال أبو النصر السكسكي: "فنطق من الأرض موضع الكعبة ونطق من السماء ما بحيالها فوضع الله فيها حرمه".

قال الحسن البصري: "لو أبيا عليه أمره لعذبهما عذابا يجدان ألمه".

قال السمعاني:"منهم من قال: هذا كله على طريق المجاز، وليس على طريق الحقيقة، وكأن الله تعالى لما أجرى أمرهما على مراده وتقديره جعل ذلك بمنزلة قول منه وإجابة منهما بالطواعية، والعرب قد تذكر القول في مثل هذا الموضع، قال الشاعر:

امْتَلأ الحوضُ وقال قَطْني... مهلًا رويدًا قد ملأت بطني

وقال بعضهم: إن القول والإجابة على طريق الحقيقة، وركب في السموات والأرض ما عقلا به خطابه وأجاباه بالطواعية. وهذا هو الأولى".

قال الحسن البصري: "لو أبيا عليه أمره لعذبهما عذابا يجدان ألمه".

عن ابن وهب:"قال لي يعقوب: وسألت زيد بن أسلم عن قول الله: {وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها}، قال: أطاعوه فيما أحبوا أو كرهوا كما قال للسماء والأرض: {ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين}".

وعن ابن السماك في موعظه: "سل الأرض: من غرس أشجارك؟ وأجرى أنهارك؟ وأخرج ثمارك؟ فإن لم تجبك اختيارا أجابتك اعتبارا".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {ثُمَّ} أيْ: بعْد خلْقِ الأرْضِ وتقْدِيرِ أقواتِها، اسْتَوى إلَى السَّماءِ.

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [قصَد {إلَى السَّمَاءِ}]، وهَذا أحَدُ القَوْلَيْن في هَذه الجُملَةِ: أنَّها بِمعنَى قصَد، لكِن قصْدًا كامِلًا؛ وذلِك لأنَّ "استَوى" تدُلُّ على الكَمالِ، كما قال

=

=

تَعالَى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى} [القصص: ١٤].

والقَوْلُ الثَّاني: أنَّ "استَوَى إلَى السَّماء" بمَعنَى "استَوى على السَّماء"؛ أيْ عَلا علَيها، ولكِنَّ المَعنَى الَّذي سلَكَه المُفسِّرُ أرْجَحُ، أنَّه قصَد إلَى السَّماءِ بإرادةٍ تامَّةٍ مُستَوِيَةٍ؛ لأنَّ "إلَى" تُفِيدُ الغايَةَ، و"على" تُفِيدُ الِاسْتِعلاءَ.

ومَعلُومٌ أنَّ السَّمواتِ لَم تَكُنْ خُلِقتْ في تِلك السَّاعَةِ، ثمَّ إنَّنا لو قُلْنا: إنَّ اسْتَوى بِمَعنَى عَلا: "ثُمَّ اسْتَوى على السَّماء"، كان قَبْل ذلِك حِينَ خلَق الأرْضَ ليْس عالِيًا على السَّماءِ، مَع أنَّ عُلُوَّ اللهِ تَعالَى وَصْفٌ لازمٌ لِذاتِه.

وقَولُه: [{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} بُخار مُرتَفِعٌ]؛ جُمْلَةُ {وَهِيَ دُخَانٌ} حالِيَّةٌ، والسَّماءُ هُنا بمَعنَى العُلُوِّ؛ لأنَّها لَم تَكُنْ خُلِقتْ بعْدُ، لَكنَّها كالدُّخانِ، أي: البُخارُ المُرتَفعُ؛ قِيل: إنَّ هَذا البُخارَ المُرتَفِعَ تَصاعَدَ مِن الماءِ الَّذي كان قَبلَ أنْ تُخلَقَ الأرْضُ؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى قال: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [هود: ٧] فكَان قَبْل خلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ ماءٌ فوْقه عرْشُ الرَّحمَنِ ﷻ ثمَّ خُلِقتِ الأرْضُ، وقدِ انْدَفعَ مِن هَذا الماءِ بُخارٌ مُتصاعِدٌ كَثِيفٌ صار مِثلَ الدُّخانِ.

وقولُه: [{فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا} إلَى مُرادي مِنكُما {طَوْعًا أَوْ كَرْهًا} في مَوضِعِ الحالِ أيْ: طائِعتَيْن أو مُكرَهتيْن {قَالَتَا أَتَيْنَا} بمَن فِينا {طَائِعِينَ}، إلَى آخِره. قوْله: {فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا} هَذا الأمْرُ هَل هُو أمْرُ تكوِينٍ أو أمْرُ تَكليفٍ؟

الجَوابُ: إنْ قُلْنا: إنَّه تكلِيفٌ، لَم يَكُن هُناكَ فرْق بيْن أنْ يكُونا طائِعتَيْنِ أو مُكرهتَيْن؛ وظاهِرٌ أنَّه أمْرُ تكليفٍ؛ ولِهَذا قال: {طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}.

وإنْ قُلنا: إنَّه أمْرُ تَكوِينٍ فإنَّه لا يسْتَقيمُ أنْ يكُونَ طوْعًا أو كرْهًا؛ لأنَّ أمْرَ التكوينِ كائِن لا مَحالةَ.

فالظاهرُ- واللهُ أعلم- أنَّه أمْرُ تكلِيفٍ، وللهِ تَعالَى أنْ يُكلِّفَ ما شاء مِن خلْقِه.

=

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢).

{فقضاهن} الضَّمِير يَرْجِع إِلَى السَّمَاء لِأَنَّهَا فِي مَعْنَى الجمع الآيلة إليه أي صيرها {سبع سماوات في يومين} الخميس والجمعة فرغ منها في آخر ساعة منه وفيها خلق آدم ولذلك لم يقل هنا سواء ووافق ما هنا آيات خلق السماوات والأرض في ستة أيام {وأوحى في كل سماء أمرها} الذي أمر به من فيها من الطاعة والعبادة {وزينا السماء الدنيا بمصابيح} بنجوم {وحفظا} منصوب بفعله المقدر أي حفظناها من استراق الشياطين السمع بالشهب {ذلك تقدير العزيز} في ملكه {العليم} بخلقه[1].

=

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قَالَتَا أَتَيْنَا} بمَن فِينا {طَائِعِينَ}]، احْتاجَ المُفسِّرُ إِلَى أَنْ يُقدِّرَ "بمَن فِينا" لِوَجْهيْن:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أَنَّ {طَائِعِينَ} جمْعٌ، {قَالَتَا} مُثنًى، ولا مُطابَقةَ بيْن المُثنَّى والجَمْعِ، ولَو أرادَ المُطابَقةَ لقال: "قالَتا أتيْنا طائِعتيْن".

الوَجْهُ الثَّاني: أَنَّه جمَعَه بالمُذكَّرِ العاقِلِ، فكان لا بُدَّ أنْ يُقدَّرَ بـ "مَن فِينا" لِيَدخُلَ فِيهِ العُقَلاءُ، وَيكونُ هَذا مِن بابِ التَّغليبِ.

وقولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [فِيه تَغليبُ المُذكَّرِ العاقِلِ] ذَكَرْنا فِيما سبَقَ أنَّه غلَّبَ المُذكَّرَ لشَرَفِه، أو لكَثْرَتِه إذا قُلْنا: إنَّ العاقِلَ أكْثر.

وقَولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَوْ أنزَلَتا لخِطابهما مَنْزِلَتَه] يَعنِي: أن المَسْألةَ فِيها إمَّا تَغلِيبُ، وإِمَّا أنَّ الأرْضَ والسَّماءَ أُنْزِلَتا مَنزِلةَ العاقِلِ لخِطابِهما؛ أي: لِكَونِهما خُوطِبا، ولا يُخاطَبُ غالِبًا إلا العاقِلُ.

(١) قوله تعالى: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ} [فصلت: ١٢]، أي:"فقضى

=

=

الله خلق السماوات السبع وتسويتهن في يومين".

قال الطبري:"ففرغ من خلقهنّ سبع سموات في يومين، وذلك يوم الخميس ويوم الجمعة".

قال ابن كثير:"أي: ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين، أي: آخرين، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة".

قال السدي: "استوى إلى السماء وهي دخان من تنفس الماء حين تنفس، فجعلها سماء واحدة، ففتقها، فجعلها سبع سموات في يومين، في الخميس والجمعة. وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض".

قوله تعالى: {وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا} [فصلت: ١٢]، أي:"وأوحى في كل سماء ما أراده وما أمر به فيها".

قال الطبري:"يقول: وألقى في كل سماء من السموات السبع ما أراد من الخلق".

قال ابن كثير:"أي: ورتب مقررا في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو".

وفي قوله تعالى: {وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا} [فصلت: ١٢]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: ما أمر الله به وأراده. قاله مجاهد.

الثاني: خلق في كلّ سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار وجبال البرد، وما لا يعلم. قاله السدي.

الثالث: خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وصلاحها. قاله قتادة.

الرابع: معناه: أسكن في كل سماء ملائكتها، قاله الكلبي.

الخامس: أوحى إلى أهل كل سماء من الملائكة ما أمرهم به من العبادة، حكاه ابن عيسى.

=

=

قوله تعالى: {وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا} [فصلت: ١٢]، أي:"وزيَّنا السماء الدنيا بالنجوم المضيئة، وحفظًا لها من الشياطين الذين يسترقون السمع".

قال الطبري: يقول:"وزيَّنا السماء الدنيا إليكم أيها الناس بالكواكب وهي المصابيح".

قال ابن كثير:"{وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ} وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، {وَحِفْظًا}، أي: حرسا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى".

قال السدي:"ثم زين السماء بالكواكب، فجعلها زينة {وَحِفْظًا} من الشياطين".

قوله تعالى: {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [فصلت: ١٢]، أي:"ذلك الخلق البديع تقدير العزيز في ملكه، العليم الذي أحاط علمه بكل شيء".

قال الطبري: يقول:"هذا الذي وصفت لكم من خلقي السماء والأرض وما فيهما، وتزييني السماء الدنيا بزينة الكواكب، على ما بينت تقدير العزيز في نقمته من أعدائه، العليم بسرائر عباده وعلانيتهم، وتدبيرهم على ما فيه صلاحهم".

قال ابن كثير:"أي: العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم".

قال محمد بن إسحاق: "العزيز في نصرته ممن كفر إذا شاء".

قال محمد بن إسحاق: " {عليم}، أي: عليم بما يخفون".

قال ابن كثير:"ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولا ثم خلق السموات سبعا، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {فَقَضَاهُنَّ} يقول المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [الضَّميرُ يَرجِعُ إلَى السَّماءِ؛ لأنَّها في معنَى الجمعِ الآيلَةِ إلَيْه؛ أي صيَّرَها {سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}]؛ قولُه: [{فَقَضَاهُنَّ}، الضَّمير يَرجِع إلَى السَّماءِ، حِينَئذٍ يرِدُ إشْكالٌ، فإنَّ السَّماءَ مُفرَدٌ

=

=

و"قَضاهُنَّ"، الضَّميرُ جمْعٌ، فكيْف كان الأمْرُ كذَلِك؟
يَقولُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَرجِعُ إِلَى السَّماءِ؛ لأنَّها في معنَى الجمْعِ الآيلِةِ إِلَيه]؛ لأنَّ هَذه السَّماءَ المُفرَدَ يَؤُولُ إِلَى جمْعٍ، ومِقدارُه: سبْعُ سَمواتٍ، فكأنَّه عبَّرَ عَنِ السَّماءِ بِاعْتِبارِ مَآلِها أنَّها سَتكونُ سبع سَمواتٍ.
وقوْلُه: {فَقَضَاهُنَّ} أيْ صيَّرهُنَّ، وعلَى هَذا فيَكونُ الضَّمِيرُ في "قَضاهُنَّ" المَفْعُولُ الأوَّلُ، و {سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} المَفْعُولُ الثَّاني، ويَحتَمِلُ أنْ تَكونَ "قَضاهُنَّ" بمَعنَى: فَرَغَ مِنْهُنَّ، وعلَى هَذا فيَكونُ الضَّمِيرُ الأوَّلُ مَفعُولًا بِه و {سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} حالًا؛ أيْ: حالَ كَونِها سبع سَمواتٍ.
وعلَى كلٍّ: فَإنَّ السَّمواتِ كانتْ سَبْعًا.
وقَولُه: {فِي يَوْمَيْنِ} قال المُفسِّرُ: [الخميسُ والجُمُعةُ فُرغَ مِنها في آخِرِ ساعةٍ مِنه، وفِيها خُلِقَ آدَمُ؛ ولذلِك لمْ يَقُلْ هُنا: "سَواءً"، ووافَقَ ما هُنا آياتُ خَلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ في سِتَّةِ أَيَّامٍ]؛ أيْ: قَضاهُنَّ سَبْع سَمواتٍ في يَومَيْنِ، و"فِي" للظَّرفِيَّةِ، والظَّرْفُ يَكونُ أوْسَعَ مِنَ المَظْرُوفِ، فيَحتَمِلُ أنَّه قَضاهُنَّ في يَومَيْن مِن أوَّلِ اليَومَيْنِ إِلَى آخِرِهِما، ويَحتَمِلُ أنَّه قَضاهُنَّ في يَومَيْن؛ أي: في هَذا الظَّرْفِ، وإنْ كانَ القَضاءُ لَم يَستوعِبْ هَذا الظَّرْفَ، وهَذا هُو الَّذي مَشى علَيه المُفسِّرُ، وسيَتَبيَن ما فِيه إنْ شاءَ اللهُ.
وقَولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [فُرِغَ مِنها في آخِرِ ساعَةٍ مِنه، وفِيها- أيْ في آخِرِ ساعَةٍ خُلِق آدَمُ- ولذلِك لمْ يَقُلْ سَواءً"، بَينَما قال في خَلْقِ الأرْضِ: {فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً}، وهُنا لَمْ يَقُلْ: "في يَومَيْن سَواءً"؛ لِأنَّ بَعْضَ اليَومَيْنِ خُلِقَ فِيه آدَمُ، هَذا ما ذَهَب إلَيْه المُفسِّرُ، وفِيه نَظَر ظاهِر؛ لِأنَّ هَذا يَقتَضِي أنَّ آدَمَ خُلِقَ حِينَ خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ، يَعنِي في الأيَّام السَّتَّة الَّتي خُلِقتْ فِيها السَّمواتُ والأرْضُ، وهَذا لا شكَّ أنَّه خَطَأٌ، بلْ إنَّه خُلِقَ بَعد ذلِك، لا أقُول: بمَلايِينَ، بَلْ بِمِئاتِ السِّنِين؛ لأنَّ آدَمَ

=

=

عَلَيْهِ السَّلَامُ كَما هُو مَعلُومٌ- جَعلَه اللهُ تَعالَى خَلِيفَةً لأُناسٍ قَبْلَه أَو لِلجِنِّ الَّذِين سَكَنُوا الأَرْضَ قَبْلَه، ولِهَذا لَمَّا قال: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: ٣٠]، قالَتِ المَلائِكَةُ: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} [البقرة: ٣٠] إِلَى آخِرِه.

فدَعْوَى المُفسِّرِ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ آدَمَ خُلِقَ في آخِرِ ساعَةٍ مِن يَوْمِ الجُمُعةِ الَّتي تَمَّ فِيها خَلْقُ السَّمواتِ والأَرْضِ غيْرُ صَحِيحٍ.

نَعم؛ خُلِقَ آدَمُ يوْمَ الجُمُعةِ لا شكَّ في هَذا، كَما ثبُتَ عَنِ النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام لكِنَّها ليْسَتِ الجُمُعة الَّتي تمَّ بها خلْقُ السَّمواتِ والأَرْضِ؛ إِذَنْ: خلَقَهنَّ في يومَيْن؛ يقُولُ المُفسِّرُ: [وَوافَقَ هُنا آياتُ خلْقِ السَّمواتِ والأَرْضِ في ستَّةِ أَيَّام] لأنَّ أرْبَعةَ أَيَّامٍ كانَتْ لخِلْقِ الأَرْضِ، ويَومَيْن كانَتْ لخَلْقِ السَّماء، فيَكونُ المَجمُوعُ ستَّةَ أيَّامٍ، وهَذا أمْرٌ مُتَّفقٌ عليه بيْن المُسلِمين أنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأَرْضِ في ستَّةِ أَيَّامٍ.

وفِي بعْضِ الآياتِ يَقولُ: {وَمَا بَيْنَهُمَا}؛ لِأنَّ بيْن السَّمواتِ والأَرْضِ مِنَ الآياتِ العَظِيمةِ ما اسْتَحقَّ أنْ يَكونَ قَسِيما لِخَلْقِ السَّمواتِ والأَرْضِ، قال تَعالى: {خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا}؛ وقَد كُنَّا نَقولُ: كَيْف يَكونُ خَلْقُ ما بيْن السَّماءِ والأَرْضِ قَسِيمًا لخَلْقِ السَّمواتِ والأَرْضِ مَع أَنَّه في نَظَرِنا لا يُساوي شَيئًا بالنِّسبَةِ إِلَى خلْقِ السَّمواتِ والأَرْضِ، إِذْ كُنَّا لا نَعْلَمُ إِلَّا أنَّ الَّذي بيْن السَّماءِ والأَرْضِ هُو الغُيُومُ والهَواءُ فقَطْ، وكُنَّا نَقولُ: إنَّ القَمَرَ والنُّجُومَ والشَّمسَ كانَت في السَّماءِ.

وكُنَّا نَقولُ: القَمَرُ في السَّماءِ الدُّنيا، والشَّمْسُ في السَّماءِ الرَّابعةِ وزُحَلُ في السَّماءِ السَّابعةِ، وكُنَّا نُنْشِدُ قوْلَ الشَّاعِرِ:

زُحلُ شَرَى مِرِّيخَه مِن شَمْسِه ... فَتَزاهَرَت بِعُطارِد الأَقْمارُ

هَذه الكَواكِبُ السَّبْعةُ؛ والمَعنَى: مِن أعْلى إِلَى أسْفَل، فـ "زُحَل" هَذا أعْلاها، "شَرى" المُشْتَرى، "مِرِّيخَه" المِرِّيخ، "مِن شَمسِه" الشَّمسُ، "فتَزاهَرت" الزّهرة،

=

=

"بِعُطارد" عُطارد، "الأقْمار" القَمَر هُو الأخِيرُ، وعَلى هذا فتكونُ الشَّمْسُ في السَّماءِ الرَّابعةِ، وكُنَّا نَظُنُّ أنَّ هَذه مُرَصَّعةٌ بالسَّماءِ كَما يُرصَّعُ المِسْمارُ على الخَشَبةِ!

لكِن تَبيَّنَ الآنَ أنَّ هَذه في أجْواءٍ بيْن السَّماءِ والأرْضِ ولَيْست مُرَصَّعةً في السَّمواتِ والأرْضِ، وأنَّ السَّماءَ مِن فَوقِها بأمَدٍ بَعِيدٍ، وحِينَئِذٍ تَبين الحِكْمَةُ مِن كَوْنِ اللهِ ﷻ يَجْعَلُ خَلْقَ ما بيْنَ السَّماءِ والأرْضِ عَدِيلًا لِخَلْقِ السَّماءِ والأرْضِ.

ثمَّ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا} الَّذي أمَر به مَن فِيها مِن الطَّاعةِ والعِبادةِ] "أوْحَى في كلِّ سَماءٍ أمْرَها"، يَعنِي: قدَّرَ بِما أوحاه في كلِّ سماءٍ أمْرَها، فكُلُّ سَماء لَها مَلائِكةٌ خاصَّةٌ، وعِباداتٌ خاصَّةٌ، وأجْواءٌ خاصَّةٌ، وكُلُّ سَماءٍ تَختَلِفُ عَنِ السَّماءِ الأُخْرَى، حتَّى إنَّ بَعْضَهم يَقولُ- وَهُو مِن الإسْرائيلِيَّاتِ الَّتي لا تُصَدَّقُ وَلا تُكَذَّبُ -: إنَّ جِرْمَ السَّماءِ الدَّنيا يَخْتَلِفُ عَن جِرْمِ السَّماءِ الثَّانيَةِ، والثَّانيةُ عَنِ الثَّالِثةِ، كُلُّ واحِدةٍ مِن مادَّةٍ أُخرَى غَيرِ مادَّةِ السَّماءِ الأُخْرَى، والله أعْلَمُ.

وقَولُه: {أَمْرَهَا} مُفْرَدٌ مُضافٌ فيَعُمُّ جَمِيعَ الأُمُورِ، فجمِيعُ ما يَتعلَّق بكُلِّ سماءٍ قَد أوْحاه اللهُ بِها.

وَقَولُه رَحِمَهُ اللَّهُ [{وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا} الَّذي أَمَرَ به مَن فِيها مِنَ الطَّاعَةِ والعِبادَةِ، صَرَفَ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ الأمْرَ هُنا إلَى الأمْرِ الشَّرْعيِّ لا الأمْرَ الكَوْنيَّ؛ ولذلِكَ قال: [{أَمْرَهَا} الَّذي أمَرَ به مَن فِيها مِنَ الطَّاعَةِ والعِبادَةِ] ويَحتَمِلُ أنْ يَكونَ المُرادُ بالأمْرِ هُنا الشَّأنُ، أيْ أوْحَى في كُلِّ سماءٍ شَأنَها، فيَشْمَلُ أحْوالَ السَّماءِ وأحْوالَ مَن فِيها، وهَذا أعَمُّ مِمَّا ذَكَرَه المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ وإنَّنا نُقرِّرُ قاعِدة في التَّفسِيرِ: إذا ورَدَ تَفْسِيرانِ في الآيَةِ أحَدُهما أعمُّ أخَذْنا بالأعمِّ، لأنَّ الأعمَّ يدْخُلُ فِيه الأخصُّ ولَا عَكْسَ، فَإذا قُلْنا: "شَأنُها" صارَ أعمَّ مِن أنْ نَقُولَ: "إنَّه أمْرُها

=

=

الشَّرْعيُّ"، لأنَّ هَذا أخصُّ، فالحَمْلُ على الأعمِّ أوْلَى.

وقَولُه: {وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا} انظُرْ إلَى خَصائِصِ السَّماءِ الدَّنْيا {وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ} [بنُجُوم] {وَحِفْظًا} أمَنْصُوبٌ بِفِعلِه المُقدَّرِ، أي: حَفِظْناها مِن استِراقِ الشَّياطِين السَّمْعَ بالشُّهُبِ، "زيَّنَّا السَّماءَ الدَّنيا"، "الدُّنيا" يَعنِي: القُربَى، وسُمِّيَتْ دُنيا لأنَّها قَريبَةٌ مِنَ الأرْضِ، فهِي أقْرَبُ السَّمواتِ، زَّينَها بمَصابِيحَ، والمَصابِيحُ هِي النَّجُومُ، وسُمِّيتْ مَصابِيحَ؛ لأنَّها بمَنزِلةِ القَنادِيلِ المُعلَّقةِ بالسَّقْفِ، فإنْ قال قائِلٌ: ظاهِرُ الآيَةِ أنَّ هَذه المَصابِيحَ مُرصَّعةٌ بالسَّماءِ!

قُلْنا: إنْ كان هَذا ظاهِرُها فالواقِعُ خِلافُ ذلِك؛ ولا مانِعَ مِن أنْ تُزيَّنَ بمَصابِيحَ وإنْ لمْ تكُنْ مُلتَصِقةً بها، أرَأيْتَ لَو أنَّك دَلَّيْتَ مَصابِيحَ مِن سَقْفٍ عالٍ، ثُمَّ كُنْت تَحْت هَذه المَصابِيحِ، أفَلا تَكونُ هَذه المَصابِيحُ زِينَةً لِلسَّقْفِ، وإنْ كانتْ غيْرَ لاصِقَةٍ به، بَل جِهتَها- أي جِهةَ هَذا السَّقف- مُزيَّنةً بِهَذه المَصابِيحِ، فلا يَلزَمُ مِن قوْلِه: "زَّينَّا السَّماءَ الدَّنْيا بمَصابِيحَ" أنْ تكونَ مُرصَّعةً بالسَّماءِ، بلْ نَقولُ: هِي مُزيَّنةٌ بِها وإنْ كان بَينَها وبيْن السَّماءِ مَسافةٌ.

وقَولُه: {وَحِفْظًا} أي: حَفِظْناها حِفْظًا، فالسَّماءُ مَحفُوظَةٌ، كما قال تَعالَى: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا} [الأنبياء: ٣٢]، ولِهَذا لمْ يَستَطِعْ جِبريلُ أنْ يَدْخُلَ مِن السَّمواتِ مَع أنَّه نازِلٌ مِنها حِين كان مَعه محُمَّدٌ ﷺ حتَّى استَأذَن له، ففي حدِيثِ المِعْراج: "إنَّ جِبريلَ لمَّا وصَل بالنَّبيِّ ﷺ إلَى السَّماءِ الدُّنيا اسْتَفتَح؛ فقِيل: مَن هذا؟ قال: جِبريلُ، قِيل ومَن مَعَك؟ قال: مُحمَّد، فقِيل لَه: هَل أُوحِي إلَيْه؟ قال: نَعَم، ففُتِح لَه"؛ لِأنَّ السَّماءَ محَفُوظةٌ، لا يُمكِن أنْ يَدخُل أحَدٌ فيها إلَّا بإذْنِ الله؛ فإنَّ جِبْريلَ قال: "مَعِي مُحمَّدٌ، فقِيلَ: له: وقَد أُرسِلَ إلَيه؟ قال: نعَم، قالوا: مَرْحبًا بِه؛ فنِعْم المَجِيءُ جاء"، ثمَّ فتحوا لَه، فدَخَل السَّماءَ الدُّنيا ثمَّ الثَّانيَةَ والثَّالِثةَ ... ، وهكَذا، ممَّا يدُلُّ على إتْقانِ حِفْظِ اللهِ سبحانه وتعالى للسَّمواتِ،

=

=

وأنَّها مُتقَنةٌ، علَيْها مَلائِكةٌ لا يُمكِنُ أنْ يَتَجاوَزها أحَدٌ.
وقَولُه رَحِمَهُ اللهُ: {وَحِفْظًا} مَنْصُوبٌ بفِعلِه المُقدَّرِ؛ أي: حَفِظناها حِفْظًا مِن اسْتِراقِ الشَّياطِين السَّمْعَ بالشُّهُبِ ...] إلَى آخِرِه؛ فقَوْلُه: {وَحِفْظًا} مَصْدرٌ عامِلُه محَذُوفٌ، والتَّقدِيرُ: حَفِظْناها حِفْظًا؛ ومن أيِّ شَيْءٍ حَفِظْناها؛ قال الله تبارك وتعالى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} [الحجر: ١٦، ١٧]، فَيَكونُ المُرادُ بالحِفْظِ حَفِظُها مِنَ الشَّياطِين؛ لِأنَّ القُرْآنَ يُفسِّرُ بَعضُه بَعضًا.
وأمَّا شَأنُ الشَّياطِين بالنِّسْبةِ للسَّمْعِ فإنَّها تَصْعَدُ فيَرْكَبُ بعضُها بعْضًا، إلَى أنْ تَصِلَ إلَى السَّماءِ، فتَستَمِعُ إلَى أخْبارِ السَّماءِ، وما تَتحدَّثُ به المَلائِكةُ، ثمَّ تنْزِلُ به إلَى الأرْضِ، وتُلقِيه إلَى الكُهَّانِ الَّذين لكُلِّ واحِدٌ مِنهُم رُئِيَّ مِن الجِنِّ، والكاهِنُ يأخُذُ هَذا الجبرَ ويُضِيفُ إلَيهِ أخْبارًا أُخرَى، ثمَّ يحدِّثُ النَّاسَ بذلِك؛ ومن المَعلُومِ أنَّ ما سُمِعَ في السَّماءِ لا بُدَّ أنْ يَكونَ، فتكونُ هَذه الكَلِمةُ الواحِدةُ -التي هي صدق- مَثارًا لإعْجابِ النَّاسِ بالكُهَّانِ والرُّجوعِ إليهم؛ ولهذا كانُوا بالجاهلِيَّةِ يَتَحاكَمُون إلَى الكُهَّان؛ فهَذه هِي قَضِيَّةُ استِراقِ السَّمْعِ.
ثمَّ إنَّ اللهَ تَعالَى حَفِظ السَّماءَ وقْتَ بَعثَةِ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم وعلى آلِهِ وسلَّمَ- وصارَتِ الشَّياطِينُ إذا حاولَت الاستِماعَ أرْسَلَ اللهُ تعالى عليها شهابًا يحرقُها وتهلِكُ.
وهَل بَقِي هَذا الحِفْظُ بعْد موْتِ الرَّسُولِ -صلى الله عليه وسلم وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أو لا؟
الجَوابُ أنْ يُقالَ: اللهُ أعْلَمُ، وَلا نَدرِي، لكِنَّها حُفِظتْ في عَهْدِ النُّبوَّةِ مِن اسْتِراقِ السَّمْعِ، أمَّا الآنَ فاللهُ أعْلَمُ فقَدْ يَكونُ ذلِك وقَد لا يَكونُ؛ لأنَّه ليْس هُناك نبيٌّ حتَّى يَختَلِطَ المَسمُوعُ المُستَرَقُ بالوَحْي الصَّحِيح.
وقَولُه تَعالَى: {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} {ذَلِكَ} المُشارُ إلَيْه ما سَبَق مِن قَولِه: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ} إلى آخره؛ قَولُه: {تَقْدِيرُ} أيْ مُقدَّرٌ

=

=

{الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}، أو {تَقْدِيرُ} مَصدَرٌ على بابِه، وَيكونُ المُشارُ إلَيْه فِعْلُ اللهِ لهَذا الشَّيْءِ، فعِندَنا الآن كَلِمةُ {تَقْدِيرُ} مَصْدَرٌ، يَجُوزُ أنْ تَكونَ بمَعنَى اسْمِ المَفعُولِ، ويَكونُ المَعنَى: ذلِك مُقدَّرُ العَزِيزِ، ويجوزُ أنْ تَكونَ مَصْدرًا وهُو فِعْلُ اللهِ ﷻ ويَكونُ هَذا أيْضًا مَعنًى صَحيحًا وكِلاهما مُتلازِمان؛ لِأنَّه إذا كان هَذا الشَّيْءَ مُقدَّرُ اللهِ فَهُو مِن تَقدِيرِه يَعنِي ناتِجٌ عَن تَقدِيرِه.

فقَولُه: {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} أي: الَّذي قَدَّره {الْعَزِيزِ} ﷻ {الْعَلِيمِ}، و {الْعَزِيزِ} هُنا مُناسَبَتُها، أنَّ المَسْأَلَةَ تَحتاجُ إلَى عِزَّةٍ وقُوَّةٍ.

والعِزَّةُ؛ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{الْعَزِيزِ} في مُلْكه] يَعنِي الَّذي لَه العِزَّةُ التَّامَّةُ في مُلْكه، وفِيه شَيْء مِن القُصُورِ، فلَم يُبيِّن لنا ما هِي العِزَّةُ، والعِزَّةُ قال العُلَماءُ رحمهم الله: إنَّها تَنْقسِمُ إلَى ثَلاثَةٍ أقْسامٍ: عِزَّةُ القَدْرِ، وعِزَّةُ القَهْرِ، وعِزَّة الِامْتِناعِ؛ ثَلاثَة مَعانٍ.

١- أمَّا عِزَّةُ القَدْرِ فمَعناها الشَّرفُ، يَعنِي: أنَّه ذُو قَدْرٍ عَظيمٍ بالِغِ العِظَمِ.

٢- وعِزّةُ القَهْرِ يَعنِي: أنَّه قاهِرٌ ولا يُغلَبُ.

٣- وعِزَّةُ الِامْتِناعِ؛ أيْ يَمتَنِعَ أنْ ينالَه سُوءٌ جَلَّ وعَلَا بأيِّ حالٍ مِن الأحْوالِ.

ولِمُلاحَظةِ هَذا المَعنَى الثَّالِثِ نَقولُ: إنَّه مُشتَقٌّ مِن قَولِه: أرْضٌ عَزازٌ، عَزازٌ يَعنِي: قَوِيَّةٌ صُلْبَةٌ، ونَحْن نُسمِّيها باللُّغَةِ العامِّيَّةِ: "الأرْض عزا"، يَعنِي: صُلْبَةٌ لَيْسَت لَيِّنةً كالرَّمْلِ والرَّوْضِ، ولكِنَّها صُلْبةٌ.

أمَّا {الْعَلِيمِ} فهِي صِفَةٌ مُشَبَّهةٌ، ويجوزُ أنْ تَكونَ مِن بابِ المُبالَغةِ؛ لِأنَّ فَعِيلٌ يَصِحُّ أنْ تَكونَ صِفَةً مُشبَّهةً، ويَصِحُّ أنْ تَكونَ صِيغَةَ مُبالَغةٍ، ومَعناها ذُو العِلْمِ، فهُو ذُو العِلمِ، وعِلْمُ اللهِ تبارك وتعالى واسِعٌ؛ قال اللهُ تَعالَى: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)} [الطلاق: ١٢]، فعِلْمُه تَعالَى واسِعٌ شامِلٌ لكُلِّ شَيْءٍ، يَعلَمُ ما كان فَلا يَنْساهُ، وَيعلَمُ ما يَكون فَلا يَجْهلُه، وَيعْلَم

=

=

مَا لم يَكُن لو كانَ كيفَ كانَ يكُونُ، يَعنِي لَيس يَعلَمُ أنَّ هَذا الشَّيءَ يَقَعُ فقَطْ، بَلْ يَعلَمُ أَنَّه يَقَعُ ومَتَى يَقَعُ وكَيف يَقَعُ وأينَ يَقَعُ، مِن كلِّ جِهَةٍ.

وقَد فصَّل اللهُ تَعالَى دَقائِقَ العِلْمِ في قَولِه تَعالَى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)} [الأنعام: ٥٩].

وعِلْمُنا بأَنَّه عَلِيمٌ يَستَوجِبُ مِنَ النَّاحِيةِ المَسلَكِيَّةِ بالنِّسبَةِ للْعَبدِ: أَنَّه إذا علِم أنَّ اللهَ بكُلِّ شَيْءٍ عليم: أنْ يَخافَ اللهَ ﷻ وأنْ يَقومَ بطاعَتِه وأنْ يَدَعَ مَعصِيَتَه؛ لأنَّه يعْلَمُ أنَّ اللهَ تَعالَى عالِمٌ به، حتَّى وإنْ خَفِيتَ على النَّاسِ؛ فإنَّك لَن تَخفَى على اللهِ، بَلْ إنَّ اللهَ يَعلَمُ مِنْ نَفْسِك ما لا تَعْلمُه أنْت، فأَنْت تَعْلَم مِن نَفسِك ما يُمكِنُ أنْ تُحِيطَ به، لكِنَّ اللهَ يَعلَمُ مِن نَفسِك ما لا تُحِيط بِه، فيَعلَم مُستَقبَلَك ومَآلَك وحالَك وأنْت لا تَعلَمُ، وهَذا يُوجِبُ لِلعَبدِ المُؤمِنِ بذلِك: أنْ يَخافَ ربَّه في السِّرِّ والعَلَنِ، حتَّى لَو كُنْت بِحُجرَةٍ مُظلِمةٍ لَيس عِندَك أَحَدٌ، وأَرَدْتَ أنْ تُغضِبَ اللهَ، فاعلَم أنَّ اللهَ تَعالَى يَراك.

(منبهة): قال الله تعالى: (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام) [الأعراف: ٥٤].

وقال تعالى: (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين (١١) فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم (١٢)) [فصلت: ٩- ١٢].

وفي الحديث عن أبي هريرة- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: أخذ رسول الله- ﷺ- بيدي فقال:

=

=

"خلق الله ﷻ التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم- عليه السلام- بعد العصر، من يوم الجمعة، في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل". أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٢٧)، ومسلم في صحيحه، في كتاب القيامة والجنة والنار، حديث (٢٧٨٩)، وأبو الشيخ، في العظمة (٤/ ١٣٥٨)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٧/ ٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٧٤)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٣٠)، وابن خزيمة في صحيحه (٣/ ١١٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٢٩٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣)، جميعهم من طريق حجاج بن محمد، عن ابن جريج، قال: أخبرني إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، مولى أم سلمة، عن أبي هريرة، به. وأخرجه ابن معين في تاريخه (رواية الدوري) (٣/ ٥٢)، من طريق هشام بن يوسف، عن ابن جريج، به.

وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٣٦٠)، من طريق محمد بن ثور، عن ابن جريج، به.

وقد خولف هؤلاء الثلاثة- أعني: حجاج بن محمد، وهشام بن يوسف، ومحمد بن ثور- في إسناد هذا الحديث، خالفهم الأخضر بن عجلان؛ فرواه عن ابن جريج، عن عطاء، عن أبي هريرة- رضي الله عنه -، به. أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٦/ ٤٢٧) قال: أنا إبراهيم بن يعقوب، قال: حدثني محمد بن الصباح، قال: حدثنا أبو عبيدة الحداد، قال: نا الأخضر بن عجلان، عن ابن جريج، عن عطاء، عن أبي هريرة- رضي الله عنه -، أن النبي- ﷺ- أخذ بيده فقال: "يا أبا هريرة، إن الله خلق السماوات والأرضين وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش يوم السابع، وخلق التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الاثنين،

=

=

والتقن يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء، والدواب يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة، في آخر ساعة من النهار، بعد العصر، وخلق أديم الأرض أحمرها وأسودها وطيبها وخبيثها، من أجل ذلك جعل الله ﷻ من آدم الطيب والخبيث".

قلت: وهذه الرواية معلولة من أوجه:

الأول: أن الأخضر بن عجلان خالف ثلاث ثقات، في إسناد هذا الحديث، وحسبك مخالفته لحجاج بن محمد؛ فإنه من أثبت الناس في ابن جريج.

قال الذهبي في كتاب "العلو"، ص (٩٤): "الأخضر بن عجلان: وثقه ابن معين، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه. ولينه الأزدي، وحديثه في السنن الأربعة، وهذا الحديث غريب من أفراده". اهـ

وتعقبه الألباني فقال: "تليين الأزدي إياه لا تأثير له، لأن الأزدي نفسه متكلم فيه، كما هو معلوم، لا سيما وقد وثقه ابن معين كما ترى، وكذا الإمام البخاري، والنسائي، وابن حبان، وابن شاهين- كما في التهذيب (١/ ١٦٩)- فهو متفق على توثيقه، لولا قول أبي حاتم: يكتب حديثه. لكن هذا القول إن اعتبرناه صريحا في التجريح فمثله لا يقبل؛ لأنه جرح غير مفسر، لا سيما وقد خالف قول الأئمة الذين وثقوه، على أنه من الممكن التوفيق بينه وبين التوثيق، بحمله على أنه وسط عند أبي حاتم، فمثله حسن الحديث قطعا، على أقل الدرجات، وكأنه أشار الحافظ إلى ذلك بقوله فيه في التقريب (١/ ٦٣): "صدوق"، وبقية رجال الإسناد كلهم ثقات، فالحديث جيد الإسناد". اهـ من مختصر العلو، ص (١١٢).

قلت: قول الألباني: "إن الأزدي نفسه متكلم فيه". لا يمنع من الأخذ بقوله في أحوال الرواة، فضعفه في الحفظ لا يوجب طرح حكمه على الرجال.

الوجه الثاني: عنعنة ابن جريج، قال الإمام أحمد: "كل شيء قال فيه ابن جريج:

=

=

قال عطاء، أو عن عطاء؛ فإنه لم يسمعه من عطاء". اهـ من شرح علل الترمذي، لابن رجب (٢/ ٦٠٠).

هذا وقد تكلم النقاد في حديث أبي هريرة، وذكروا عللا في إسناده ومتنه، وسأتكلم هنا عن العلل الواردة في إسناده، وأما العلل الواردة في متنه فسأذكرها في أصل المسألة، عند ذكر مذاهب العلماء تجاه التعارض بين الآيات والحديث.

العلل الواردة في إسناد الحديث:

العلة الأولى: أن هذا الحديث إنما أخذه إسماعيل بن أمية، عن إبراهيم بن أبي يحيى، وإبراهيم متروك.

قال البيهقي، في "الأسماء والصفات" (٢/ ٢٥١، ٢٥٥- ٢٥٦): "هذا حديث قد أخرجه مسلم في كتابه... ، وزعم بعض أهل العلم بالحديث أنه غير محفوظ؛ لمخالفته ما عليه أهل التفسير، وأهل التواريخ، وزعم بعضهم أن إسماعيل بن أمية إنما أخذه عن إبراهيم بن أبي يحيى، عن أيوب بن خالد، وإبراهيم غير محتج به". اهـ

ثم روى بإسناده عن محمد بن يحيى، قال: "سألت علي بن المديني، عن حديث أبي هريرة- رضي الله عنه -: "خلق الله التربة يوم السبت... "، فقال علي: "هذا حديث مدني رواه هشام بن يوسف، عن ابن جريج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن أبي رافع، مولى أم سلمة، عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال:... "، ثم ذكر الحديث، وقال: "وما أرى إسماعيل بن أمية أخذ هذا إلا من إبراهيم بن أبي يحيى". اهـ

قلت: رواية إبراهيم بن أبي يحيى، أخرجها الحاكم في "معرفة علوم الحديث" (١/ ٣٣) قال: شبك بيدي أحمد بن الحسين المقرىء، وقال: شبك بيدي أبو عمر عبد العزيز بن عمر بن الحسن بن بكر بن الشرود الصنعاني، وقال: شبك

=

=

بيدي أبي، وقال: شبك بيدي أبي، وقال: شبك بيدي إبراهيم بن أبي يحيى، وقال: شبك بيدي صفوان بن سليم، وقال: شبك بيدي أيوب بن خالد، وقال: شبك بيدي عبدالله بن رافع، وقال: شبك بيدي أبو هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وقال: شبك بيدي أبو القاسم- ﷺ -، وقال:.... ، ثم ذكر الحديث.

وقد توبع إبراهيم بن أبي يحيى، قال البيهقي، ص (٢٥٦): "تابعه على ذلك: موسى بن عبيدة الربذي، عن أيوب بن خالد؛ إلا أن موسى بن عبيدة ضعيف". اهـ

وقد اعترض المعلمي، والألباني، وتلميذه أبو إسحاق الحويني، على قول ابن المديني بأن لا دليل عليه، وبأن إسماعيل بن أمية ثقة ثبت، وسماعه من أيوب بن خالد ثابت لا شك فيه.

قال أبو إسحاق الحويني: "لو سلمنا أن إسماعيل دلس إبراهيم بن أبي يحيى؛ فكان ينبغي أن يكون السند: إسماعيل، عن صفوان، عن أيوب بن خالد، ولا ذكر لـ (صفوان) أصلا". اهـ من تعليقه على تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٠).

وقال الألباني: "وهذه دعوى عارية عن الدليل؛ إلا مجرد الرأي، وبمثله لا ترد رواية إسماعيل بن أمية؛ فإنه ثقة ثبت، لا سيما وقد توبع، فقد رواه أبو يعلى في مسنده (١٠/ ٥١٣)، من طريق حجاج بن محمد، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، لكن لعله سقط شيء من إسناده". اهـ من سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٤٤٩). وانظر: الأنوار الكاشفة، للمعلمي، ص (١٨٩).

قلت: هذه المتابعة ليست بشيء؛ وهي كما ظن الألباني- رَحِمَهُ اللَّهُ- فإن فيها سقطا في الإسناد، فقد رواه أبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٣٥٨)، عن أبي يعلى قال: حدثنا سريج بن يونس، حدثنا حجاج بن محمد، عن ابن جريج قال: أخبرني إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، مولى أم سلمة، عن أبي هريرة، به.

=

=

وبهذا تعلم أن حجاج بن محمد لم يروه عن أيوب، وإنما رواه عن ابن جريج، عن إسماعيل بن أمية، فرجع أصل الحديث إلى رواية إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، وعليه فلا متابعة.

العلة الثانية: قال البخاري، في التاريخ الكبير (١/ ٤١٣)- بعد أن ساق الحديث من طريق إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، مرفوعا- قال: "وقال بعضهم: عن أبي هريرة، عن كعب، وهو أصح". اهـ

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٢): "هذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم عليه علي بن المديني، والبخاري، وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعا". اهـ

واعترض على هذه العلة، فقال المعلمي- بعد أن ساق كلام البخاري -: "ومؤدى صنيعه أنه يحدس أن أيوب أخطأ، وهذا الحدس مبني على ثلاثة أمور:

الأول: استنكار الخبر. الثاني: أن أيوب ليس بالقوي، وهو مقل لم يخرج له مسلم إلا هذا الحديث، لما يعلم من الجمع بين رجال الصحيحين، وتكلم فيه الأزدي، ولم ينقل توثيقه عن أحد من الأئمة؛ إلا أن ابن حبان ذكره في ثقاته، وشرط ابن حبان في التوثيق فيه تسامح معروف. الثالث: الرواية التي أشار إليها بقوله: "وقال بعضهم"، وليته ذكر سندها ومتنها؛ فقد تكون ضعيفة في نفسها، وإنما قويت عنده للأمرين الآخرين. ويدل على ضعفها أن المحفوظ عن كعب، وعبد الله بن سلام، ووهب بن منبه، ومن يأخذ عنهم: أن ابتداء الخلق كان يوم الأحد، وهو قول أهل الكتاب المذكور في كتبهم، وعليه بنوا قولهم في السبت... ، فهذا يدفع أن يكون ما في الحديث من قول كعب.

قال: وأيوب لا بأس به، وصنيع ابن المديني يدل على قوته عنده، وقد أخرج له

=

مسلم في صحيحه، كما علمت، وإن لم يكن حده أن يحتج به في الصحيح". اهـ من الأنوار الكاشفة، ص (١٨٩).

قلت: أيوب: هو ابن خالد بن صفوان، الأنصاري الحجازي، ذكره ابن حبان في الثقات (٤/ ٢٥)، ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا، وقال الأزدي: ليس حديثه بذاك، تكلم فيه أهل العلم بالحديث، وكان يحيى بن سعيد ونظراؤه لا يكتبون حديثه". اهـ من تهذيب التهذيب (١/ ٣٥١). وأما البخاري فظاهر صنيعه إعلال الحديث به؛ لأنه ساق الحديث من روايته- بعد ذكره لترجمته- ثم بين أن رفعه خطأ، وأن الصواب وقفه على كعب.

وأما الحافظ ابن حجر؛ فقد لينه في التقريب (١/ ٩٩) بناء على كلام الأزدي المتقدم.

لكن اعترض الألباني على تليين الحافظ ابن حجر فقال: "إن تليينه ليس بشيء؛ فإنه لم يضعفه أحد سوى الأزدي، وهو نفسه لين عند المحدثين". اهـ من سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٤٥٠).

كما اعترض الألباني على البخاري، فقال: "وهذا كسابقه، فمن هذا البعض؟ وما حاله في الضبط والحفظ حتى يرجح على رواية عبد الله بن رافع، وقد وثقه النسائي وابن حبان، واحتج به مسلم، وروى عنه جمع، ويكفي في صحة الحديث أن ابن معين رواه ولم يعله بشيء". اهـ من سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٤٤٩- ٤٥٠).

قلت: ذكر الألباني لعبد الله بن رافع، وهم منه رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فإن أحدا لم يعل الحديث به.

* ظاهر الحديث الشريف أن خلق الأرض وما فيها استغرق سبعة أيام، وهذا يوهم خلاف الآيات، والتي فيها أن الله عَزَّ وَجَلَّ خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وفيه أيضا مخالفة لآية فصلت؛ إذ الحديث ظاهره أن خلق الأرض
=

=

استغرق الأيام الستة كلها، وأما الآية فظاهرها أن مدة خلق الأرض استغرق أربعة أيام، ثم خلقت السماء بعد ذلك في يومين.

* للعلماء في دفع التعارض بين الآيات والحديث مسلكان:

الأول: مسلك تضعيف رفع الحديث، وترجيح وقفه على أبي هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -.

ويرى أصحاب هذا المسلك: أن أبا هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- إنما أخذه عن كعب الأحبار، وأن رفعه خطأ من بعض رواة الحديث؛ وأن أصله من الإسرائيليات المتلقفة عن مسلمة أهل الكتاب.

وهذا رأي الأكثر من المفسرين والمحدثين.

وممن قال به: البخاري ، وعلي بن المديني ، وابن جرير الطبري ، والبيهقي ، وأبو العباس القرطبي ، وأبو عبد الله القرطبي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم ، والحافظ ابن كثير ، والزركشي ، والمناوي ، والآلوسي ، وأبو شهبة.

وقد ذكرت في التخريج تعليل البخاري، وابن المديني، لإسناد الحديث، وسأذكر هاهنا ما أورده أصحاب هذا المسلك من علل في متنه:

العلة الأولى: أنه جعل أيام التخليق في سبعة أيام، وهذا خلاف ما جاء به القرآن، حيث ذكر الله تعالى أن خلق السماوات والأرض وما بينهما كان في ستة أيام، أربعة منها للأرض، ويومان للسماء.

العلة الثانية: أنه لم يذكر في الحديث خلق السماء، وجعل خلق الأرض مستوعبا للأيام الستة.

العلة الثالثة: أنه مخالف للأحاديث والآثار، والتي فيها أن الله تعالى ابتدأ الخلق يوم الأحد، لا السبت.

وقد حكى ابن جرير الطبري الإجماع على أن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد، فقال: "اليوم الذي ابتدأ الله فيه خلق السماوات والأرض: يوم الأحد؛ لإجماع السلف

=

=

من أهل العلم على ذلك.... ، وذلك أن الله تعالى أخبر عباده في غير موضع من محكم تنزيله أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام... ، ولا خلاف بين جميع أهل العلم أن اليومين اللذين ذكرهما الله تبارك وتعالى في قوله: (فقضاهن سبع سماوات في يومين) [فصلت: ١٢] داخلان في الأيام الستة اللاتي ذكرهن قبل ذلك، فمعلوم إذ كان الله ﷻ إنما خلق السماوات والأرضين وما فيهن في ستة أيام، وكانت الأخبار مع ذلك متظاهرة عن رسول الله بأن آخر ما خلق الله من خلقه آدم، وأن خلقه إياه كان في يوم الجمعة، أن يوم الجمعة الذي فرغ فيه من خلق خلقه داخل في الأيام الستة التي أخبر الله تعالى ذكره أنه خلق خلقه فيهن؛ لأن ذلك لو لم يكن داخلا في الأيام الستة كان إنما خلق خلقه في سبعة أيام لا في ستة، وذلك خلاف ما جاء به التنزيل". اهـ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- مبينا علل الحديث -: "هذا الحديث طعن فيه من هو أعلم من مسلم، مثل يحيى بن معين، ومثل البخاري، وغيرهما، وذكر البخاري أن هذا من كلام كعب الأحبار، وطائفة اعتبرت صحته مثل أبي بكر ابن الأنباري ، وأبي الفرج ابن الجوزي، وغيرهما، والبيهقي وغيره وافقوا الذين ضعفوه، وهذا هو الصواب؛ لأنه قد ثبت بالتواتر أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وثبت أن آخر الخلق كان يوم الجمعة؛ فيلزم أن يكون أول الخلق يوم الأحد، وهكذا هو عند أهل الكتاب، وعلى ذلك تدل أسماء الأيام، وهذا هو المنقول الثابت في أحاديث وآثار أخر؛ ولو كان أول الخلق يوم السبت، وآخره يوم الجمعة؛ لكان قد خلق في الأيام السبعة، وهو خلاف ما أخبر به القرآن.... ، والبخاري أحذق وأخبر بهذا الفن من مسلم؛ ولهذا لا يتفقان على حديث إلا يكون صحيحا لا ريب فيه، قد اتفق أهل العلم على صحته، ثم ينفرد مسلم فيه بألفاظ يعرض عنها البخاري، ويقول بعض أهل الحديث إنها ضعيفة، ثم

=

=

قد يكون الصواب مع من ضعفها". اهـ

وقال ابن القيم: "هذا الحديث وقع غلط في رفعه؛ وإنما هو من قول كعب الأحبار، كذلك قال إمام أهل الحديث، محمد بن إسماعيل البخاري، في تاريخه الكبير، وقاله غيره من علماء المسلمين أيضا، وهو كما قالوا؛ لأن الله أخبر أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وهذا الحديث يتضمن أن مدة التخليق سبعة أيام، والله أعلم". اهـ

المسلك الثاني: مسلك قبول الحديث، ونفي التعارض بينه وبين الآيات.

وهذا رأي: أبي بكر ابن الأنباري ، وابن الجوزي ، وأبي حيان ، والمعلمي ، والألباني ، وأبي إسحاق الحويني .

ولأصحاب هذا المسلك عدة أجوبة في دفع العلل الواردة في الحديث، وقد ذكرت أجوبتهم فيما يتعلق بعلل إسناده، وسأذكر هاهنا ما أوردوه من أجوبة عن العلل الواردة في متنه:

أولا: أجوبتهم عن العلة الأولى، وهي: أنه جعل أيام التخليق في سبعة أيام، وهذا خلاف ما جاء به القرآن، حيث ذكر الله تعالى أن خلق السماوات والأرض وما بينهما كان في ستة أيام، أربعة منها للأرض، ويومان للسماء.

قال المعلمي: "يجاب عنها: بأنه ليس في هذا الحديث أنه خلق في اليوم السابع غير آدم، وليس في القرآن ما يدل على أن خلق آدم كان في الأيام الستة، بل هذا معلوم البطلان، وفي آيات خلق آدم أوائل البقرة، وبعض الآثار، ما يؤخذ منه أنه قد كان في الأرض عمار قبل آدم، عاشوا فيها دهرا، فهذا يساعد القول بأن خلق آدم متأخر بمدة عن خلق السماوات والأرض". اهـ

واختار هذا الجواب أبو إسحاق الحويني، واستدل له بحديث عطاء، عن أبي هريرة- رضي الله عنه -، أن النبي- صلى الله عليه وسلم- أخذ بيده فقال: "يا أبا هريرة، إن الله خلق

=

=

السماوات والأرضين وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش يوم السابع، وخلق التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الاثنين، والتقن يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء، والدواب يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة، في آخر ساعة من النهار، بعد العصر، وخلق أديم الأرض أحمرها وأسودها وطيبها وخبيثها، من أجل ذلك جعل الله ﷻ من آدم الطيب والخبيث".

قال أبو إسحاق: "فقد صرح في هذا الحديث أن الله ﷻ خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وهو موافق لآيات التنزيل، ثم قال: وخلق آدم يوم الجمعة، وهو اليوم السابع، ولم يذكر في القرآن، ولا في السنة أن خلق آدم كان من جملة الأيام الستة، ولا دليل على أن يوم الجمعة المذكور كان عقب يوم الخميس الذي قبله، حتى يعد هذا يوما سابعا مع سابقه، ويدل على هذا أن خلق آدم تأخر عن خلق الملائكة والجن والسماوات، كما هو واضح من آيات خلق آدم في سورة البقرة وغيرها، ومما يستدل به على هذا: ما أخرجه الحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لقد أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يدخلها أحد، قال الله تعالى: (إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) [البقرة: ٣٠]، وقد كان فيها قبل أن يخلق بألفي عام الجن بنو الجان...". اهـ

وللألباني جواب آخر، حيث يرى: "أن الحديث ليس بمخالف للقرآن بوجه من الوجوه، خلافا لما توهمه بعضهم؛ فإن الحديث يفصل كيفية الخلق على وجه الأرض، وأن ذلك كان في سبعة أيام، ونص القرآن على أن خلق السماوات والأرض كان في ستة أيام، والأرض في يومين، لا يعارض ذلك، لاحتمال أن هذه الأيام الستة غير الأيام السبعة، المذكورة في الحديث، وأنه- أعني الحديث- تحدث عن مرحلة من مراحل تطور الخلق على وجه الأرض، حتى صارت

=

=

صالحة للسكنى، ويؤيده أن القرآن يذكر أن بعض الأيام عند الله تعالى كألف سنة، وبعضها مقداره خمسون ألف سنة، فما المانع أن تكون الأيام الستة من هذا القبيل؟ والأيام السبعة من أيامنا هذه، كما هو صريح الحديث، وحينئذ فلا تعارض بينه وبين القرآن". اهـ

قال الألباني: "وكان هذا الجمع قبل أن أقف على حديث الأخضر بن عجلان؛ فإذا هو صريح فيما كنت ذهبت إليه من الجمع". اهـ

قلت: حديث الأخضر بن عجلان هو حديث عطاء المتقدم، وفيه زيادة تؤيد ما ذهب إليه الألباني من أن الأيام السبعة المذكورة في الحديث، هي غير الستة المذكورة في الآيات، فعن أبي هريرة- ﷺ- قال: "أخذ بيدي رسول الله- ﷺ- فقال: يا أبا هريرة، إن الله خلق السماوات والأرضين وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش يوم السابع، وخلق التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد.... " ثم ذكر بقية الحديث.

لكن هذا الحديث لا يصح، وقد تقدم بيان ما فيه من علل.

ثانيا: أجوبتهم عن العلة الثانية، وهي: أنه لم يذكر في الحديث خلق السماء، وجعل خلق الأرض مستوعبا للأيام الستة.

قال المعلمي: "يجاب عنها: بأن الحديث، وإن لم ينص على خلق السماء، فقد أشار إليه بذكره في اليوم الخامس (النور)، وفي السادس (الدواب)، وحياة الدواب محتاجة إلى الحرارة، والنور والحرارة مصدرهما الأجرام السماوية، والذي فيه أن خلق الأرض نفسها كان في أربعة أيام، كما في القرآن، والقرآن إذ ذكر خلق الأرض في أربعة أيام، لم يذكر ما يدل على أن من جملة ذلك خلق النور والدواب، وإذ ذكر خلق السماء في يومين، لم يذكر ما يدل على أنه في أثناء ذلك لم يحدث في الأرض شيئا، والمعقول أنها بعد تمام خلقها أخذت في التطور بما

=

=

أودعه الله تعالى فيها، والله سبحانه لا يشغله شأن عن شأن". اهـ

ثالثا: أجوبتهم عن العلة الثالثة، وهي: أن الحديث مخالف للأحاديث والآثار، والتي فيها أن الله تعالى ابتدأ الخلق يوم الأحد، لا السبت.

قال المعلمي: "وأما الآثار القائلة أن ابتداء الخلق يوم الأحد فما كان منها مرفوعا فهو أضعف من هذا الحديث بكثير ، وأما غير المرفوع فعامته من قول عبد الله بن سلام ، وكعب ، ووهب، ومن يأخذ عن الاسرائيليات". اهـ

وأما دعوى الإجماع من ابن جرير على أن ابتداء الخلق كان في يوم الأحد، فقد عارضه أبو إسحاق الحويني بأن أبا بكر ابن الأنباري قد ادعى الإجماع على أن بدأ الخلق كان في يوم السبت.

ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية لم يرتض دعوى الإجماع من أبي بكر ابن الأنباري، وعد ذلك من الغلط.

ولأبي حيان الأندلسي مذهب غريب في الجمع بين الآيات والحديث، حيث يرى أن قوله تعالى: (في ستة أيام) [الأعراف: ٥٤] هو ظرف لخلق الأرض وحدها، دون خلق السماوات والأرض معا؛ فيكون قوله: (في ستة أيام) متعلق بخلق الأرض، بتربتها وجبالها وشجرها ومكروهها ونورها ودوابها، وآدم عليه السلام، قال: وهذا يطابق الحديث الثابت في الصحيح.

قلت: وهذا الجمع في غاية الضعف، ويكفي في رده أنه مخالف لآية فصلت؛ فإنها صريحة بأن مدة خلق الأرض استغرق أربعة أيام، ثم يومين للسماء.

والذي يظهر صوابه- والله تعالى أعلم- أن حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- لا يصح رفعه للنبي- صلى الله عليه وسلم -، وأن أبا هريرة إنما أخذه عن أهل الكتاب، لا من النبي- صلى الله عليه وسلم - ، والذي يتقوى لدي أن الخطأ وقع من أيوب بن خالد، أحد رواة الحديث؛ فإنه لم يوثقه أحد سوى ابن حبان، وابن حبان معروف بتساهله في توثيق الرواة، كما نص

=

=

على ذلك الأئمة، وحسبك ما نقله الأزدي عن أهل العلم بالحديث من تضعيفهم لأيوب بن خالد، وقوله: إن يحيى بن سعيد القطان ونظراءه كانوا لا يكتبون حديثه. وهذه الشهادة من الأزدي كافية في رد رواية أيوب، وعدم الاعتماد عليها، كيف وقد تفرد برواية هذا الحديث، ورفعه للنبي- ﷺ -، مع ما في متنه من غرابة، ومعارضة لآيات القرآن الكريم.

هذا وقد أسلفت ما ذكره النقاد من علل هذا الحديث، التي توجب رده وعدم قبوله، وسأزيد عليها هاهنا عللا ظهرت لي، ولم أر أحدا أشار إليها، وهذه العلل مع ما سبق، تبين بجلاء أن هذا الحديث لا يصح رفعه للنبي- ﷺ -:

العلة الأولى: قوله في الحديث: "وخلق فيها الجبال يوم الأحد"، أي أن الجبال خلقت في اليوم الثاني، وهذا مخالف لآية فصلت، والتي نصت على أن الجبال خلقت في اليوم الثالث أو الرابع، حيث قال تعالى: (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين) [فصلت: ٩-١٠].

فقوله: (وجعل فيها رواسي) إلى آخر الآية يدل على أن خلق الجبال كان في اليومين الأخيرين من الأيام الأربعة.

العلة الثانية: قوله في الحديث: "وبث فيها الدواب يوم الخميس"، أي أن الدواب خلقت في اليوم السادس، وهذا فيه مخالفة لآية فصلت؛ فإن الظاهر المتبادر من الآية أن الدواب خلقت وقت تخليق الأرض في الأيام الأربعة الأولى، لا في اليوم السادس، ومما يقوي هذا الظاهر قوله تعالى في سورة البقرة: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم (٢٩)) [البقرة: ٢٩]، وهذا الآية صريحة بأن الله تعالى لم يخلق السماوات

=

=

إلا بعد أن أتم خلق الأرض وما فيها، ومن ذلك الدواب؛ لقوله: (جميعا)، وقد تقدم أن خلق الأرض كان في أربعة أيام، فكيف يكون خلق الدواب في اليوم السادس؟!

وأما ما ذكره أصحاب المذهب الثاني من تأويلات للجمع بين الآيات والحديث؛ فإنها لا تخلو من ضعف، وبعضها يرد عليه إشكالات لا يمكن التخلص منها إلا بتكلف، وهاك تفصيل ذلك:

أولا: قول الألباني: "إن الأيام الستة المذكورة في الآيات، هي غير الأيام السبعة المذكورة في الحديث".

يرد على قوله هذا: أن الحديث نص على أن الجبال خلقت يوم الأحد، وقد جاء في آية فصلت أن الجبال خلقت في مراحل تخليق الأرض الأولى، وهذا يعني أن الأيام المذكورة في الحديث هي نفسها المذكورة في الآيات، لا كما قال الألباني، رَحِمَهُ اللَّهُ.

ويرد عليه أيضا: أن الله تعالى قال: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم (٢٩))؛ فقوله: (جميعا) عموم يشمل جميع الأشياء التي خلقها سبحانه في الأرض، وهذه الآية صريحة بأن الأرض وما فيها خلق قبل تخليق السماوات، وهو يبطل القول بأن ما ذكر في الحديث كان بعد تخليق السماوات والأرض.

ثانيا: قول المعلمي: "إن الحديث، وإن لم ينص على خلق السماء، فقد أشار إليه بذكره في اليوم الخامس (النور)، وفي السادس (الدواب)، وحياة الدواب محتاجة إلى الحرارة، والنور والحرارة مصدرهما الأجرام السماوية...".

يرد على قوله: أن الحديث نص على أن الشجر خلق قبل النور، والذي هو في رأي المعلمي بمعنى الشمس، ومعلوم أن الشجر محتاج للنور كاحتياج الدواب،

=

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣).

{فإن أعرضوا} أي كفار مكة عن الإيمان بعد هذا البيان {فقل أنذرتكم} خوفتكم {صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود} عذابا يهلككم مثل الذي أهلكهم.

إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤).

{إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم} أي مقبلين عليهم ومدبرين عنهم فكفروا كما سيأتي والإهلاك في زمنه فقط {أَ} أَيْ بِأَنْ {لَا تَعْبُدُوا إِلَّا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل} علينا {ملائكة فإنا بما أرسلتم به} على زعمكم {كافرون[1]}.

=

فكيف يكون الشجر خلق قبل الشمس؟! انظر كتاب الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم عرض ودراسة.

(١) قال الطبري:"فإن أعرض هؤلاء المشركون عن هذه الحجة التي بيَّنتها لهم يا محمد، ونبهتهم عليها فلم يؤمنوا بها ولم يقروا أن فاعل ذلك هو الله الذي لا إله غيره".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله".

قوله تعالى: {فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} [فصلت: ١٣]، أي:"فقل لهم: قد أنذرتكم عذابًا يستأصلكم مثل عذاب عاد وثمود حين كفروا بربهم وعصوا رسله".

قال الطبري:"فقل لهم: أنذرتكم أيها الناس صاعقة تهلككم مثل صاعقة عاد وثمود".

=

=

قال ابن كثير:"فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين {صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}، أي: ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما. {إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ} [الأحقاف: ٢١]، كقوله تعالى: {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ} [الأحقاف: ٢١] أي: في القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أولياءه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا".

قال قتادة:"يقول: أنذرتكم وقيعة عاد وثمود، قال: عذاب مثل عذاب عاد وثمود".

قال مقاتل:"يقول: مثل عذاب عاد وثمود، وإنما خص عادا وثمود من بين الأمم لأن كفار مكة قد عاينوا هلاكهم باليمن والحجر".

قال محمد بن يزيد: " «الصاعقة» -معناها في كلام العرب-: المبيدة المهلكة المخمدة، فربما استعملت للإخماد من غير إهلاك، ومنه سمي: الصعق بن حرب، لأنه ضرب ضربة فخمد ثم أفاق".

وقال العثيمين: قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{فَإِنْ أَعْرَضُوا} أيْ كُفَّارُ مَكَّةَ]، ومَعلُومٌ أنَّ الآيَةَ لمْ تَنُصَّ على كُفَّارِ مَكَّةَ، لكِنَّ السِّياقَ يدُلُّ على ذلِك، حيْثُ قال: {فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} [{فَإِنْ أَعْرَضُوا}، أي: كُفَّارُ مَكَّةَ عَنِ الإيْمانِ بعْد هَذا البَيانِ {فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ} خَوَّفْتكم {صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}، أيْ: عَذابًا يُهلِكُكم مِثْلَ الَّذي أهْلَكَهم].

قَولُه تَعالَى: {أَنْذَرْتُكُمْ} الإنْذارُ فَسَّره المُفسِّرُ بأَنَّه [التَّخويفُ]، وهُو كذَلِك، لِأنَّ المُنْذِرَ هُو مَن تَكلَّم بِكلامٍ يُخوِّفُ به غَيْرَه؛ ولِهَذا قِيل: إنَّ الإنْذارَ هُو الإعْلامُ

=

=
المُتضَمِّنُ للتَّخوِيفِ.
وقَولُـه: {صَـاعِقَةً} الـصَّاعِقةُ مـا يَـصْعَقُ المَـرْءَ، أي: يُهلِكُـه {مِثْـلَ صَـاعِقَةِ عَـادٍ وَثَمُودَ} . والمِثْلِيَّةُ هُنا لا تَقتَضي - واللهُ أعْلَمُ - المُماثَلةَ مِن كُلِّ وَجْهٍ، بَلْ مِثْلِيَّة في أَصْلِ الإِهْلاكِ، أو في مَآلِ العَذابِ، ويَحتَمِلُ أنَّ اللهَ تَعالَى أَنْذَرَهم مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وثَمُودَ.
وصـاعِقَةُ عـادٍ وثَمُـودَ نوعـان، الرَّجْفَـةُ، والـرِّيحُ الـشَّدِيدةُ، الَّـذِين أُهلِكـوا بـالرِّيحِ الشَّدِيدَةِ هُم عادٌ، والَّذِين أُهلِكوا بالرَّجْفَةِ والصَّيحَةِ هُم ثَمُودُ، وإنَّما ذَكَرَ اللهُ عـادًا وَثَمُودَ لِأنَّ العَرَبَ يَعرِفُونَهما، فَهُم يَمُرُّون بِدِيارِ ثَمودَ إذا ذَهَبوا إِلَى الشَّامِ، وهُم كـذَلِك يَعرِفـون مَحـلَّ عـادٍ بالأَحْقـافِ، وَيـذْكُرون ويَتَنـاقَلون مـا جَـرى لَهـم مِـن العَـذابِ، وإلَّا فَهُنـاك أُنـاسٌ أيـضًا أهلَكهـم اللهُ ﷻ ولَكِـن لمَّـا كـان هـؤلاءِ القَـومُ - أعْنِي: عادًا وَثَمُودَ - هُم الَّذِين تَعرِفُهم العَرَبُ؛ أي: كُفَّارُ مكَّةَ، نَصَّ علَيْهم.
قَولُـه: {مِثْـلَ صَـاعِقَةِ عَـادٍ وَثَمُـودَ} ، عـادٌ هُـم قَـومُ هُـودٍ، وثَمُـودُ هُـم قَـومُ صـالِحٍ؛ فَأُهلِكتْ عادٌ؛ بـالرِّيحِ. والحِكْمَةُ مِـن ذلِك أنْ يُـرِيَهم اللهُ ﷻ ضَـعْفَهم، وكـانُوا قَـد افْتَخَروا بِقُوَّتِهم فَقـالوا: {مَـنْ أَشَـدُّ مِنَّـا قُـوَّةً} ، فَقـالَ اللهُ تَعـالى: {أَوَلَـمْ يَـرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُـوَ أَشَـدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً} . وَأمَّـا ثَمُـودُ فـأهْلَكَهم اللهُ ﷻ بِرَجْفَـةٍ وصَـيحَةٍ، صِيحَ بِهِم ورَجَفَتْ بِهم الأَرْضُ فهَلَكوا.
قوله تعالى: {إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ وَمِـنْ خَلْفِهِـمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ} [فصلت: ١٤]، أي: "حين جاءت الرسل عادًا وثمود، يتبع بعضهم بعضًا متـوالين، يأمرونهم بعبادة الله وحده لا شريك له".
قال الطبري: "عنى بقوله: {مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ} : الرسـل التي أتـت آبـاء الـذين هلكـوا بالصاعقة مـن هـاتين الأمتين، وعنـى بقولـه: {وَمِـنْ خَلْفِهِـمْ} : مـن خلـف الرسـل الذين بعثوا إلى آبائهم رسلا إليهم، وذلك أن الله بعث إلى عـاد هـودا، فكـذبوه مـن
=

=

بعد رسل قد كانت تقدمته إلى آبائهم أيضا، فكذبوهم، فأهلكوا".

عن ابن عباس، قوله: " {فَإِنْ أَعْرَضُوا} ... إلى قوله: {وَمِنْ خَلْفِهِمْ}، قال: الرسل التي كانت قبل هود، والرسل الذين كانوا بعده، بعث الله قبله رسلا وبعث من بعده رسلا".

عن الضحاك، في قوله:" {وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللهَ}، قال: لن يبعث الله رسولا إلا بأن يعبد الله".

قوله تعالى: {قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً} [فصلت: ١٤]، أي:"قالوا لرسلهم: لو شاء ربنا أن نوحده ولا نعبد من دونه شيئًا غيره، لأنزل إلينا ملائكة من السماء رسلا بما تدعوننا إليه".

قال الطبري:"فقالوا لرسلهم إذ دعوهم إلى الإقرار بتوحيد الله: لو شاء ربنا أن نوحده، ولا نعبد من دونه شيئا غيره، لأنزل إلينا ملائكة من السماء رسلا بما تدعوننا أنتم إليه، ولم يرسلكم وأنتم بشر مثلنا، ولكنه رضي عبادتنا ما نعبد، فلذلك لم يرسل إلينا بالنهي عن ذلك ملائكة".

قال ابن كثير:"أي: لو أرسل الله رسلا لكانوا ملائكة من عنده".

قوله تعالى: {فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [فصلت: ١٤]، أي:"فإنا بما أرسلكم الله به إلينا من الإيمان بالله وحده جاحدون".

قال الطبري:"يقول: قال لرسلهم: فإنا بالذي أرسلكم به ربكم إلينا جاحدون غير مصدّقين به".

قال ابن كثير:"أي: لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا".

وقال العثيمين: قَولُه: {إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ} [فصلت: ١٤]، إِلَى آخِره، {إِذْ} هَذه ظَرْف للتَّعلِيل، يَعنِي أنَّ تَعلِيلَ الصَّاعِقةِ الَّتي، أَهْلَكَتْهم سَببُ ذلِك أنَّ الرُّسُلَ جاءَتْهم مِن بَيْن أَيدِيهِم ومن خَلْفِهم، قال المُفَسِّرُ: [أيْ

=

=

مُقبلين علَيْهم ومُدبِرين عَنْهم فَكَفَروا- كَما سيَأتِي- والإِهْلاكُ في زَمَنِه فَقَط].

وقَولُه: {مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ} يَقولُ المُفسِّرُ: [أيْ مُقبِلين علَيْهم ومُدبِرين عَنْهم، يَعنِي: تارَةً يُقبِلُون فيَدعُون وتارَةً يُدبِرون فيُهدِّدون إذا لَمْ يُؤمِنوا، ويَحتَمِلُ أنْ يَكونَ المُرادُ: {مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ}؛ أي: أتَوْهُم بالآياتِ الماضِيةِ والآياتِ المُستَقبَلةِ، فلمْ يُقَصِّروا في بَيانِ الحَقِّ، بلْ جاؤُوا ببَيانِ الحَقِّ مِن كُلِّ وجْهٍ.

وقَولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [فكَفَروا] هَذا هُو المَقْصُودُ مِنَ الإنْذارِ، أنَّهم كَفَروا فَأُهلِكوا؛ ولِهَذا قال: [والإِهْلاكُ في زَمَنِه فقَط]؛ أيْ: في زَمَنِ الكُفْرِ ولَيْس في زَمَنِ المَجِيءِ، لِأنَّ الرُّسُلَ جاءَتْ أوَّلًا ثُمَّ دَعَتْ ودعَتْ، فلَمّا أصَرُّوا على كُفرِهم أُهلِكُوا.

وقَولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [أيْ بِأنْ لا {تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ قَالُوا}، أفادَنا المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ (أنْ) هُنا مَصْدَريَّة، والتَّقدِيرُ: أنْ لا تَعبُدوا، أي: جاءَتْهم بعَدمِ عِبادةِ غيرِ اللهِ. ويَحتَمِلُ أنْ تَكُونَ (أنْ) تَفسِيريَّةً؛ لأنَّه سَبَقَها مَعنَى القَولِ دُون حُرُوفِه؛ لِأنَّ الرُّسُلَ جاؤُوا بِكَلامٍ وَوَحْيٍ يَتكلَّمون به، ففِيه مَعنَى القَولِ دُون حُرُوفِه، وكُلَّما جاءَتْ (أنْ) بَعْد ما فِيه مَعنَى القَولِ دُون حُرُوفِه، فَإنَّهم يُسمُّونَها تَفسِيريَّةً، مِثْل قَولِه تَعالَى: {فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا} [المؤمنون: ٢٧]، أَوْحَينا أنِ اصْنَعِ الفُلْكَ {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي} [النحل: ٦٨] فـ(أَنْ) هُنا تَفسِيرِيَّة، فكُلَّما جاءَتْ بَعد ما تَضمَّن مَعنَى القَوْلِ دُون حُروفِه؛ فإنَّها تَكونُ تَفسِيريَّةً.

إذَنْ: (أنْ) هُنا يَحتَمِلُ أنْ تَكُونَ مَصدَريَّةً كَما مَشَى عَلَيها المُفسِّرُ، وأنْ تكونَ تَفسِيريَّةً، يَنبَنِي على هَذا الخِلافِ كَيف نُعرِبُ (لا)، إنْ أعْرَبْنا (أن) مَصدَرِّيةً ف (لا) نافِيةٌ والفِعْلُ مَنصُوبٌ بأنْ، وإنْ أعَرَبْناها تَفسِيريَّةً ف (لا) ناهِية، والفِعْلُ مجَزُومٌ ب (لا)، فإِعْرابُ (تَعْبُد) إذَن يَتَنزَّلُ على الخلافِ في (أنْ)، إذا جَعلْناها تَفسِيريَّةً يَكونُ الفِعلُ مجزُومًا ب (لا) النَّاهيَةِ، وإذا أعرَبْنا (أنْ) مَصدرِيَّةً ف (تَعْبُد) مَنصُوبة ب (أنْ)، وتَكونُ على هَذا (لا) نافِيةً بالفِعْلِ، وعلى الأوَّلِ تَكونُ ناهِيةً.

=

=

قال اللهُ تَعالَى: {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ قَالُوا} إلَى آخِرِه، لا تَعبُدوا إلَّا اللهَ هُو مَعنَى قَولِ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ؛ لِأنَّ (لا إلَه) بمَعنَى لا مَعبُودَ حَقّ إلَّا اللهُ، وهَؤُلاء يَقولُونَ: لا تَعبُدوا إلَّا اللهَ فهِي بمَعنَى لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وهِي بمَعنَى قَولِه تَعالَى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥]، ومتَى حقَّقَ الإنْسانُ هَذه الكَلِمةَ؛ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، فلا بُدَّ أنْ يَقومَ بطاعَةِ اللهِ، لا بُدَّ، ما دُمْتَ تَشْهدُ بأَنَّه لا إلَهَ إلَّا اللهُ فَلا بُدَّ أنْ تَتَّخِذَ الوَسائِلَ الَّتي تُوصِلُكَ إلَى هَذا الإلَه الَّذي شَهِدْتَ أَنَّه لا إلَهَ سِواه.

قال اللهُ تَعالَى: {قَالُوْا} الفاعِلُ قَومُ عادٍ وثَمُودَ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ} علَيْنا {مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ} علَى زَعمِكم {كَافِرُونَ} [فُصِّلَت: ١٤]]، هَذا الجَوابُ جَوابٌ غايَةٌ في السُّقُوطِ، لَو شاءَ رَبُّنا أنْ نَهتَدِيَ وألَّا نَعبُدَ إلَّا اللهَ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً، وعلَى هَذا التَّقدِيرِ الَّذي قُلْتُ لكُم يَكونُ مَفعُولُ شاء مَحْذُوفًا؛ أيْ: لَو شاءَ ربُّنا ألَّا نَعْبُدَ إلَّا إيَّاه لَأَنزَلَ مَلائِكَةً. ف {لَوْ} شَرْطِيَّةٌ، و {شَاءَ} فِعْلُ الشَّرْطِ، وجَوابُ الشَّرْطِ {لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً}، ومَفعُولُ شاء مَحذُوفٌ، التَّقْدِيرُ: لَو شاءَ ألَّا نَعبُدَ إلَّا إيَّاهُ لَأنْزَلَ مَلائِكةً، هَذه الحُجَّةُ حُجَّةٌ باطِلةٌ؛ لِأنَّ المُرسَلَ إلَيْهِم بَشَرٌ فكَيف يُنزِلُ اللهُ مَلائِكةً على بَشَرٍ؟ !

ثُمَّ إنَّ اللهَ قالَ في جَوابِ هَذا: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا} [الأنعام: ٩]، يَعنِي بِصُورَة رَجُلٍ، فَلا يُمكِنُ أنْ نُنزِّل مَلَكًا بِصُور المَلَك على بَشَرٍ، ولَو فُرِضَ أنَّ اللهَ أنْزَلَ مَلَكًا لجَعلَه بصُور البَشَر، وحِينَئِذٍ تَعُودُ الشُّبْهةُ {وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ} [الأنعام: ٩]، أرَأيْتُم لَو أَرْسَلَ الله إلَى بَنِي آدَمَ جِبرِيلُ ولَه لِستُّ مِائةِ جَناحٍ قَدْ سدَّ الأفقَ، أَيَتَطابَقُ هَذا مَع النَّاسِ؟ أَبَدًا، بلْ يَهرَبون مِنه ولا يَقِفون أمامَه، فَإذا كان كذَلِك بَطَلَتْ هَذه الحُجَّةُ؛ لأنَّنَا نَقولُ لِهَؤُلاء ولِمن قال مِثلَ قَولِهم: لَو أنْزَل اللهُ مَلَكًا لجَعَلَه رجُلًا، وحِينَئِذٍ تَعودُ الشُّبهَةُ، إذَن الحُجَّةُ باطِلةٌ.

=

=

وقَولُه: {قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} الفاءُ هُنا للتَّفريعِ؛ أيْ: فبِناءً على أنَّه لمْ يُنزِلْ مَلائكةً إنَّا بما أُرسِلْتم به كافِرون- نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ!- أكَّدُوا كُفرَهم وقالُوا: {بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}، فقَدَّم المَفعُولَ؛ لأنَّ {بِمَا أُرْسِلْتُمْ} مُتعلِّقٌ بـ {كَافِرُونَ}، وقُدِّمَ علَيه؛ لِوجهَيْن:

الوَجهُ الأوَّلُ: مُراعاةُ فَواصِلِ الآياتِ؛ فلَو قال: فإنَّا كافِرُون بما أُرسِلْتم بِه لَمْ تَتناسَبِ الفَواصِلَ، ولمَّا قالَ: {بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} تَناسَبتِ الفَواصِلُ، ومُراعاةُ المُناسَبةِ أمْر ثابِتٌ؛ أرَأيتُم مُوسَى وهارُون؟ الأفْضَلُ مُوسَى عليه الصلاة والسلام وهُو الَّذي يُقدَّمُ في القرآن إلَّا في آيَةٍ واحِدةٍ مِن أجْلِ التَّناسُبِ في سُورةِ طه، ذَكَرَ اللهُ عَن السَّحَرةِ أنَّهم قالوا: {آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} [طه: ٧٠]، مَع أنَّهم كَانوا قالوا: "آمَنَّا برَبِّ مُوسى وهارُون"، هَذا قَولُ السَّحَرةِ، لكِن لمَّا نقَلَه اللهُ عَنْهم في سُورَةِ طه، قَدَّم ذِكْرَ هارُون لِتَناسُبِ الآياتِ مَع أنَّ مُوسى أفْضَلُ، ومُوسَى هُو الَّذي نَطَقَ بتَقدِيمِه السَّحَرةُ، كَما في آياتٍ عدَّةٍ، لكِن الله ﷻ نَقَل كَلامَهم في سُور طه مُقدِّمًا هارُون على مُوسى لِتَناسُب الفَواصِلِ هُنا.

الوَجْهُ الثَّاني: الحَصْرُ، كَأنَّ هؤُلاء المُكذِّبين المُعانِدين قالُوا: لَو أنَّا آمنَّا بكُلِّ شَيءٍ لكَفَرنا بما أُرسِلتُم به، فكَأنَّهم يَقولُون: لا نَكفُرُ بأيِّ شَيْءٍ إلَّا بِما أُرسِلتُم به، وتَقدِيمُ ما حقُّه التَّأخِيرُ يُفيدُ الحَصْرَ، انْظُر إلَى العِنادِ، قالُوا: {بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} كَأنَّهم قالُوا: لا نَكفُر إلَّا بما أُرسِلتُم به، هَذا مَعنَى الحَصْر، فيَكونُ هَذا أبْلَغُ في العِنادِ، كأنَّهم يَقولُون: لو آمنَّا بكلِّ شَيْءٍ، فلَن نُؤمِن بِما أُرْسِلتم به.

ثُمَّ إنَّ قَولَه: {بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ}، قالُوه على سَبيل التَّنزُّلِ؛ ولِهَذا قال المُفَسِّرُ: [على زَعمِكُم]، وإنَّما قُلْنا: إنَّهم قالُوه على سَبِيلِ التَّنزُّلِ؛ لأنَّهم لَو قالُوه على سَبيلِ الإقْرارِ لكانُوا مُؤمِنين.

في هَذه الآيَةِ أُمِرَ النَّبيُّ -ﷺ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أنْ يُنذِرَ هَؤلاء المُكذِّبين بِعذابِ مَن

=

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥).

{فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا} لما خوفوا بالعذاب {من أشد منا قوة} أي لا أحد كان واحدهم يقلع الصخرة العظيمة من الجبل يجعلها حيث يشاء {أو لم يروا} يعلموا {أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا} المعجزات {يجحدون}.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦).

{فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا} باردة شديدة الصوت بلا مطر {في أيام نحسات} بكسر الحاء وسكونها مشئومات عليهم {لنذيقهم عذاب الخزي} الذل {في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى} أشد {وهم لا ينصرون} بمنعه عنهم[(١)].

=

قَبْلِهِم لِقَولِه: {فَقُل أَنْذَرْتُكُمْ} [فصلت: ١٣].

فإنْ قالَ قائِلٌ: كَلامُ الله عَنْ قَومِ عادٍ وثَمُودَ {فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}؛ هَل هُو اللَّفْظُ الَّذي قالَه القَومُ أمْ أنَّ هذا لِسانُ حالِهم؟

فالجَوابُ: لا، قالُوه هُم ولُغَتُهم غيرُ عَربيَّةٍ، لكِنَّ اللهَ يَنقُلُ عَنهم بالمَعنَى.

وقَولُهم هَذا كما يُقالُ: تَصوُّرُ هَذا القَولِ كافٍ في ردِّه وإبْطالِه، يَعنِي حتَّى كُفَّارُ قُريشٍ قالُوا هَكذا في سُورةِ الأنْعام: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ} [الأنعام: ٨- ١٠].

(١) قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {فَأَمَّا عَادٌ} قوم هود، {فَاسْتَكْبَرُوا} على ربهم
=

=

وتجبروا {فِي الأَرْضِ} تكبرا وعتوّا بغير ما أذن الله لهم به".

قال ابن كثير:"أي: بغوا وعتوا وعصوا".

قوله تعالى: {وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} [فصلت: ١٥]، أي:"وقالوا في غرور: مَن أشد منا قوة؟".

قال ابن كثير:"أي: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله!".

قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً} [فصلت: ١٥]، أي:"أو لم يروا أن الله تعالى الذي خلقهم هو أشدُّ منهم قوة وبطشًا؟".

قال الطبري:"{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ} وأعطاهم ما أعطاهم من عظم الخلق، وشدة البطش {هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً}، فيحذروا عقابه، ويتقوا سطوته لكفرهم به، وتكذيبهم رسله. يقول: وكانوا بأدلتنا وحججنا عليهم يجحدون".

قال ابن كثير:"أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، كما قال تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} [الذاريات: ٤٧]".

قوله تعالى: {وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [فصلت: ١٥]، أي:"وكانوا بأدلتنا وحججنا يجحدون".

قال ابن كثير:"فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله".

وقال العثيمين: لمَّا ذَكَرَ اللهُ تبارك وتعالى أَمْرَ النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام أَنْ يُنذِرَ قُريشا بِصاعِقةٍ مِثل صاعِقةِ عادٍ وثَمُودَ، بَيَّن ماذا كان مِن عادٍ، وماذا كان مِن ثَمُودَ، قال جَلَّ وَعَلَا: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}.

(أَمَّا) أداةُ شَرْطٍ وتَفصِيل؛ أَمَّا كَونُها أداةَ شَرْطٍ؛ فَلأنَّ لها شَرْطًا وجَزاءً؛ {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا}، وأَمَّا كَونُها أداةَ تَفصِيلٍ؛ فلأنَّها تَأتِي كذَلِك في التَّفصِيلِ؛ {فَأَمَّا مَنْ

=

أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} [الليل: ٥، ٦]، {(٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى} [الليل: ٨، ٩]. فَهِي إذَنْ حَرْفُ شَرْطٍ وتَفصِيلٍ.

قَولُه تَعالَى: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} اسْتكبَروا أيْ أصابَهم الكِبْرُ، وإنَّما أَتَتِ السِّينُ والتَّاءُ لِلمُبالَغةِ؛ أيْ: تَكبَّروا تَكبُّرًا عَظِيمًا.

وقَولُه: {بِغَيْرِ الْحَقِّ} هَذه لَيستْ صِفةً مُقيَّدةً، ولَكِنَّها صِفةٌ كاشِفةٌ؛ لأنَّ كُلَّ استِكْبارٍ في الأرْضِ فإنَّه بغَيْرِ الْحَقَّ، فالِاستِكبارُ لا يَنقَسِمُ إلَى قِسمَين، بل هُو قِسْمٌ واحِدٌ، فكُلُّ استِكبارٍ فإنَّه بغَيْرِ حقٍّ، ويُسمَّى مِثْلُ هَذا القَيْدِ صِفةٌ كاشِفةً؛ أيْ: تَكشِفُ ما سَبَقَ وتُبيِّنُ حقيقَتَه.

فإنْ قالَ قائِلٌ: هَل مِثلُه قَولُه تَعالَى: {وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [الأعراف: ٣٣]؛ فالجَوابُ: نَعَم مِثلُها، فهِي صِفَةٌ كاشِفَةٌ.

إذَن: فحَقِيقَةُ الِاستِكبارِ أَنَّه بغَيْرِ حقٍّ، والحقُّ ضِدُّ الباطِلِ، والباطِلُ إمَّا أنْ يَكونَ في الخَبَرِ، وإمَّا أنْ يَكونَ في الطَّلَبِ. فأمَّا الباطِلُ في الخبرِ فَأَنْ يَكونَ كَذِبًا، وأمَّا الباطِلُ في الحُكم فَأَنْ يَكونَ جَوْرًا، وقَولُه تَعالَى: {وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} [الحج: ٦٢]، يَشمَلُ الأمْرَيْنِ؛ يَشْمَلُ دَعْواهم أنَّ هَذه آلِهةٌ وهَذه دَعوَى كاذِبَةٌ، ويَشمَلُ عَمَلَهم لِهذِه الآلِهَةِ، وهُو جَورٌ وظُلمٌ، حَيثُ يَعدِلون المَخلُوقَ بالخالِقِ.

وقولُه: {وَقَالُواْ} يَعنِي: مِن جُملَةِ ما اسْتكبَروا بِه؛ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَقَالُواْ} لمَّا خُوِّفُوا بالعَذابِ {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}، أي: لا أَحَد]، و {مَنْ} هُنا استِفْهامٌ بمَعنَى النَّفْيِ والإنْكارِ.

وقَدْ كرَّرْنا مِرارًا أنَّ الِاسْتِفهامَ إذا كان بمَعنَى الإنْكارِ والنَّفيِ صارَ أبْلَغَ مِن النَّفيِ المُجرَّدِ؛ لأنَّه يَتَضمَّنُ التَّحدِّيَ.

{مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} {مَنْ} اسْمُ استِفْهامٍ مُبتَدأٌ، و {أَشَدُّ} خَبَرُ مُبتَدإٍ، و {قُوَّةً} تَمييزٌ لـ {أَشَدُّ}، ومِنَ الضَّوابِطِ الغالِبةِ: أَنَّه إذا أَتَى الِاسْمُ مَنصُوبًا بَعْدَ اسْمٍ

=

التَّفضِيلِ كان تمَييزًا.

يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}؛ أي: لا أحَدَ، ، ثُمَّ ذَكَرَ المُفَسِّرُ نَمُوذَجًا مِن قُوَّتِهم، فقال: [كان واحِدُهم يَقلَعُ الصَّخْرَةَ العَظِيمةَ مِن الجَبَلِ يَجعَلُها حَيثُ يَشاءُ]، وهَذا المِثالُ قَد يكونُ حَقًّا وقَد يَكونُ إسرائِيليًّا؛ لأنَّه مِنَ المَعْرُوفِ أنَّ عادًا كانُوا يَعمَلُون بالنَّحت، وإذا ثَبَتَ فيمكِن أنْ يَحمِلُوا الجَبَلَ؛ {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ} [الأحقاف: ٢١]، والمَعرُوف أنَّ الأحْقافَ كُلُّها جِبالٌ رَمليَّةٌ.

لَكِن سَواءٌ صَحَّ هَذا المِثالُ أوْ لَم يَصِحَّ، فإنَّهم كانوا- بلا شكٍّ- أقوِياءَ أشِدَّاءَ.

{وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} قال اللهُ تبارك وتعالى رادًّا عَلَيهم: {أَوَلَمْ يَرَوْا}، يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: أيْ: [يَعلَموا {أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً}]، وَهَذا تَقرِير لِكَونِ اللهِ تَعالَى هُو أشَدَّ مِنهُم قُوَّةً.

قال تَعالَى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ} وَلَمْ يَقُلْ: (إنَّ اللهَ أشَدُّ)، بلْ قالَ: {خَلَقَهُمْ}؛ لِيُبيِّن ضَعفَهم، وأنَّهم مَخلُوقُون، وأنَّ الخالِقَ سَوفَ يَكونُ أقْوى مِنهم، فالَّذِي خَلَقهم أشَدُّ مِنْهُم قُوَّةً؛ لِأَنَّه هُو الَّذي أعْطاهم القُوَّةَ، ومُعْطِي الكَمالَ أوْلَى به، وهَذه هِي الحِكمَةُ مِن كَونِه تَعالَى قال: {أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ}، ولَم يَقُل: أوَلَم يَعلَموا أنَّ الله الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ، أوْ أنَّ الله هُو أشَدُّ مِنْهم قُوَّةً لِيُبيِّن ضَعفَهم وأنَّهم مَخْلُوقُون ضُعفاءُ.

قال اللهُ تَعالَى: {وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ}، قَولُه: {وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} مَعطُوفةٌ على قَولِه: {فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{بِآيَاتِنَا} المُعجِزات {يَجْحَدُونَ}]، يَعنِي يُكذِّبون؛ لأنَّ الجَحْدَ هُو التَّكذِيبُ والإنْكارُ، لا سيَّما وهُو مُعدًّى بالباءِ الدَّالَّةِ على ذلِك. وقَولُ المُفسِّرِ: [{بِآيَاتِنَا} المُعجِزات] فِيه نَظَرٌ؛ لأنَّ الآياتِ هِي العَلاماتُ والدَّلالاتُ

=

على الخالِق ﷻ ولَيْست مُعجِزاتٍ.

وقَد ذَكَرنا أنَّ المُعجِزاتِ تَأتِي آيات، وتَأتِي مِن الشَّياطِينِ بِواسِطةِ السَّحَرةِ وغَيْرِ ذلِك، لكِن إذا قُلْنا: "آياتٍ" صار مَعناها عَلاماتٌ دالَّةٌ على الحَقِّ.

و في قوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا} [فصلت: ١٦]، وجوه:

أحدها: الصرصر: الباردة. قاله قتادة، والضحاك، وأنشد قطرب قول الحطيئة:

الْمُطْعِمُونَ إِذَا هَبَّتْ بِصَرْصَرَةٍ...- وَالْحَامِلُونَ إِذَا اسْتُودُوا عَلَى النَّاسِ

معنى:"استودوا"، أي: سئلوا الدية.

قال قتادة:"الصرصر: الباردة".

قال الضحاك:"ريحا فيها برد شديد".

الثاني: شديدة السَّموم عليهم، قاله مجاهد.

الثالث: باردة ذات الصوت. قاله السدي.

الشديدة الصوت، قاله السدي مأخوذ من: الصرير، وقيل: إنها الدبور.

قال الطبري:"الصواب قول مجاهد، وذلك أن قوله: «صَرْصَرًا» إنما هو صوت الريح إذا هبت بشدة، فسمع لها كقول القائل: صرر، ثم جعل ذلك من أجل التضعيف الذي في الراء، فقال ثم أبدلت إحدى الراءات صادا لكثرة الراءات، كما قيل في ردده: ردرده، وفي نهه: نهنهه، كما قال رؤبة:

فالْيَوْمَ قَدْ نُهْنِهُنِي... وَأَوَّلُ حِلْمٍ لَيْسَ بِالْمُسَفَّهِ

وكما قيل في كففه: كفكفه، كما قال النابغة:

أُكَفكِفُ عَبْرَةً غَلَبَتْ عُدَاتِي... إِذَا نَهْنَهْتُهَا عادَت ذُباحا

وقد قيل: إن النهر الذي يسمى صرصرا، إنما سمي بذلك لصوت الماء الجاري فيه، وإنه"فعلل" من صرر نظير الريح الصرصر".

قال ابن كثير:"قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب. وقيل: الباردة. وقيل: هي التي

=

لها صوت، والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحا شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدا، كقوله تعالى: {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} [الحاقة: ٦]، أي: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق "صرصرا لقوة صوت جريه".

وفي قوله تعالى: {فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ} [فصلت: ١٦]، وجوه:

أحدها: مشئومات، قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدي ، ومنه قول الشاعر :

يَوْمَيْنِ غَيْمَيْنِ ويومًا شَمْسا... نَجْمَيْنِ سَعْدَيْنِ ونجمًا نَحْسا

قال قتادة:"أيام والله كانت مشئومات على القوم".

وقال قتادة:"النحسات: المشئومات النكدات".

قال الماوردي:"كن آخر شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء وذلك سبع ليال وثمانية أيام حسومًا".

قال ابن عباس: "ما عذب قوم إلا في يوم الأربعاء".

الثاني: أيام متتابعات أنزل الله فيهن العذاب، قاله ابن عباس ، وعطية.

قال ابن كثير:"أي: متتابعات، {سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا} [الحاقة: ٧]، كقوله {فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ} [القمر: ١٩]، أي: ابتدئوا بهذا العذاب في يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة".

الثالث: أيام ذات شر. قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"النحس: الشر؛ أرسل عليهم ريح شر ليس فيها من الخير شيء".

الرابع: أيام شداد. قاله الضحاك.

الخامس: باردات، حكاه النقاش.

السادس: ذات غبار، حكاه ابن عيسى. ومنه قول الراجز :

=

=

قد أغتدي قبل طلوع الشمس... للصيد في يوم قليل النحس

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال عنى بها: أيام مشائيم ذات نحوس، لأن ذلك هو المعروف من معنى النحس في كلام العرب".

قرأ أبو عمرو ونافع: «أيام نحسات»، بإسكان الحاء.

قوله تعالى: {لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [فصلت: ١٦]، أي:"لنذيقهم عذاب الذل والهوان في الحياة الدنيا".

قال الطبري: يقول:"ولعذابنا إياهم في الآخرة أخزى لهم وأشد إهانة وإذلالا. يقول: وهم يعني عادا لا ينصرهم من الله يوم القيامة إذا عذبهم ناصر، فينقذهم منه، أو ينتصر لهم".

قوله تعالى: {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ} [فصلت: ١٦]، أي:"ولَعذاب الآخرة أشد ذلا وهوانًا، وهم لا يُنْصَرون بمنع العذاب عنهم".

قال مقاتل:"يعني: أشد وأكثر إهانة من الريح التي أهلكتهم فى الدنيا، [وهم] لا يسمعون من العذاب".

قال ابن كثير:"أيأشد خزيا لهم، {وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ} أي: في الأخرى، كما لم ينصروا في الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال".

وقال العثيمين: يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا}، بارِدةٌ شَديدَةُ الصَّوْتِ بِلا مَطَرٍ].

قَولُه تَعالَى: {رِيحًا صَرْصَرًا}، {رِيحًا} هُنا نَكِرَةٌ يُرادُ بِها التَّعظِيمُ؛ أيْ: رِيحٌ عَظِيمةٌ صَرْصرٌ شَدِيدَةُ الصَّوْتِ، تَسْمَعُ لها صَوتًا كالرَّعدِ مِن شِدَّتِها وشِدَّةِ اضْطِدامِها بالهَواءِ والأشْجارِ والأحْجارِ والبُيوتِ.

وقَولُ المُفَسِّرِ: [بِلا مَطَرٍ] الظَّاهِرُ أنَّها لا يَدُلُّ علَيْها السِّياقُ المَوجُودُ الآنَ، المَوجُودُ في هَذه الآيَةِ لا يدُلُّ على أنَّها بِلا مَطَرٍ - فِيما ظَهَر لِي - لَكِنَّه قَدْ دَلَّ علَيْه

=

=

قَولُه تَعالَى: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} [الذاريات: ٤١]، يَعنِي: الَّتي لَيسَ فيها مَطَرٌ؛ لأنَّ المَطَرَ مِن أسْبابِ الرِّياحِ، يُرسِلُها اللهُ تَعالَى {اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ} [الروم: ٤٨]، لَكِنَّ رِيحَ عادٍ لَيسَ فِيها ذَلِك.

يَقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ} بِكَسر الحاءِ وسُكُونِها، مَشؤُوماتٌ عَلَيهِم].

قَولُه تَعالَى: {فِي أَيَّامٍ} هَذِه الأَيَّامُ بيَّن اللهُ قَدْرَها في آياتٍ أُخرَى في قَولِه: {سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا} [الحاقة: ٧]، ابْتدَأت بِالفَجْرِ، وانْتَهت بِه أو بِالغُرُوبِ. ابْتدَأتْ بِالفَجْرِ، فانْظُرْ: الأوَّلُ والثَّاني والثَّالثُ والرَّابعُ والخامِسُ والسَّادِسُ والسَّابعُ، سَبع لَيالٍ وثَمانيةُ أَيَّامٍ تَنتَهي بالغُرُوبِ، وسَبْعُ لَيالٍ؛ لِأنَّ اللَّيلَةَ الأُولَى حُذِفَتْ.

فإنْ قالَ قائِل: قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: {فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ} فِيه إضافَةُ النَّحْسِ إلَى الأَيَّامِ؟

فالجَوابُ: لا بَأْس بِه، كَما قال لُوطٌ عليه الصلاة والسلام: {هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ} [هود: ٧٧]، وَهَذا إذا كان المُرادُ بِه مجُرَّدُ الخَبَرِ، كَما هُنا، وأمَّا إذا كان المُرادُ بِه العَيْبَ والسَّبَّ فإنَّه لا يجوزُ. فَإِذَن يَكونُ هَذا السَّبُّ أوِ العَيْبُ إمَّا أنْ يَكونَ على سَبِيلِ الإِخْبارِ أو على سَبِيلِ السَّبِّ، على الأوَّلِ جائِزٌ وعلى الثَّاني غَيْرُ جائِزٍ.

نَظِيرُ ذلِك: إخْبارُ المَرِيضِ بما يَجِدُ، فأحْيانًا يَسْألُه الصَّاحِبُ: كَيف أَنْتَ البارِحةَ؟ فَيَتَشكى ويَقولُ: واللهِ ما نِمْتُ البارِحةَ؛ آلامٌ في الرَّأسِ، في الرَّقبةِ، في الظَّهْرِ، في البَطْنِ، في الرِّجلَيْن، هَذا إذا قالَه على سَبِيلِ التَّشَكِّي فَلا يَجُوزُ؛ لأنَّه يُنافِي الصَّبْرَ، وإذا قالَه على سَبيلِ الإخْبارِ فَلا بَأسَ بِه؛ ولِهَذا بَعْضُ المَرضَى يُقدمُ فَتقولُ إخْبارًا لا شَكوى: حَصَل لِي كَذا وكَذا.

يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ} والذُّلُّ {فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}]، اللَّام

=

=

لِلعاقِبةِ، ويَحتَمِلُ أنْ تَكون للتَّعليلِ وكِلاهُما صَحِيح، فإنَّ اللهَ تَعالى أرْسَل علَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ لِهَذا الغَرَضِ، أوْ أرْسَلَ علَيهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ حتَّى كانَتْ عاقِبتُهم أنْ ذاقُوا {عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}؛ يَعنِي: هَذه الحَياةُ الَّتي نَحياها، وسُمِّيَتْ دُنيا لِوَجهَيْن:

الوَجْهُ الأوَّل: لِدَناءَتِها وحَقارَتِها بالنِّسْبَةِ للآخِرَةِ؛ لأنَّ مَوضِعَ سَوْطِ الإنْسانِ في الجنَّةِ خيرٌ مِن الدُّنْيا وما فِيها؛ ولأنَّها أيْضًا دُنْيا مُنَغِّصةٌ لا تَكادُ يَمُرُّ بِكَ الشَّهْرُ إلَّا وقَد وَجَدتَ تَنْغِيصًا، بَلْ أقَلَّ مِن ذَلِك، كَما قال الشَّاعِر:

فَيَومٌ عَلَينا ويَوْمٌ لَنا ... ويَوْم نُساءُ ويَوْم نُسَرُّ

الوَجْهُ الثَّاني: لدُنُوِّها لأنَّها سابِقَة للآخِرَةِ فهِي أدْنَى إلَى المَخْلُوقاتِ مِن الآخِرَةِ، كما قال تَعالَى: {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ} [الحاقة: ٢٣]؛ أي قَرِيبَةٌ.

يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى} أشَدّ {وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ}، بمَنْعه عَنْهم]، اللَّام في قَولِه: {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ} يُسمُّونها لامَ الابْتِداءِ وهِي للتَّوكِيدِ؛ ولِذلِك إذا جاءَتْ (إنَّ) تُزَحْلِقُ اللَّامَ فتُؤَخَّرُ عَن مَكانِها وتَكونُ في المُتَأخِّرِ مِن اسْمِ (إنَّ) أوْ لِخَبَرِها، وإنَّما زَحلَقْناها لِئَلَّا يَجتَمِعَ في أوَّلِ الكَلام مُؤكِّدان مُتَوالِيان؛ ولِهَذا نَقولُ: إنَّ اللامَ في قَولِه: {وَلَعَذَابُ} هِي لامُ الِابْتِداءِ وتُفِيدُ التَّوكِيدَ، ويَدُلُّ هَذا على أنَّها مَع (إنَّ) تُزَحْلَق حتَّى تَبْعُد عَنْها.

قال اللهُ تَعالَى: {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى} يَعنِي: أشَدَّ خِزْيًا والعِياذُ باللهِ؛ لِأنَّ عَذابَ الدُّنْيا لا يَسْمَعُ به مَن سَبَقَ، ولا يَراه مَن لَحِقَ، لا يَسْمَعُ به مَن سَبَقَ؛ لِأنَّه جاء بَعْدَهم، فالقَوْمُ الَّذِين قَبْلَ عادٍ ما عَلِموا بذَلِك، والقَوْم الَّذِين بَعْدَهم ما رَأوْه، سَمِعوا بِه ولَم يَرَوه، لَكِن في الآخِرَةِ سَماعٌ ورُؤيَةٌ والعِياذُ باللهِ، الَّذي يُعَذَّب في الآخِرَةِ سَماعًا ورُؤيَةً يَسمَعُه كُلُّ أحَدٍ؛ السَّابِقُ واللَّاحِقُ، ولِهَذا قال: {أَخْزَى}، ثُمَّ هُو أيْضًا {أَشَدُّ} كَما قال تَعالَى في آيَةٍ أُخْرَى: {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} [طه:

=

{ألا إنهم في مرية} شك {من لقاء ربهم} لإنكارهم البعث {ألا إنه} تعالى {بكل شيء محيط} علما وقدرة فيجازيهم بكفرهم(١).

=

١٢٧] أشَدُّ وأعْظَمُ مِن عَذابِ النَّارِ، أعاذَنا اللهُ وَإيَّاكم مِنْها.

قالَ اللهُ تَعالَى: {وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ}، هَذِه استِئْنافِيَّةٌ يَعنِي: إنَّهم في الآخِرَةِ لا أحَدَ يَنْصُرُهم، ففِي الدُّنيا رُبَّما يُنصَرُ الإنْسانُ مِن العَذابِ بِدَفْعِه قَبْل وُقُوعِه أوْ رَفْعِه بَعْد وُقُوعِه، لَكِن في الآخِرَةِ لا ناصِرَ.

(١) قوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ}، أي:"سَنُري هؤلاء المكذبين آياتنا من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان، وفي أقطار السموات والأرض، وما يحدثه الله فيهما من الحوادث العظيمة، وفي أنفسهم وما اشتملت عليه من بديع آيات الله وعجائب صنعه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: سنري هؤلاء المكذّبين، ما أنزلنا على محمد عبدنا من الذكر، آياتنا في الآفاق {وَفِي أَنْفُسِهِم}".

واختلف أهل العلم في تفسير قوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ}، على أقوال:

أحدها: أن {فِي الْآفَاقِ}: هو ظهور مُحَمَّد ﷺعلى البلاد والقرى النائية وفتحها عليه، {وَفِي أَنْفُسِهِمْ}، أي: فتح مكة وظهوره عليهم، على ما وعد له ربه- جل وعلا- من النصر له وفتح البلاد والقرى. وهذا قول الحسن ، ومجاهد ، والسدي ، والمنهال ، وبه قال الطبري ، والنحاس.

عن السديّ: " {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ}، يقول: ما نفتح لك يا محمد من الآفاق، {وَفِي أَنْفُسِهِمْ}، في أهل مكة، يقول: نفتح لك مكة".

قال مجاهد:"ما يفتح الله عليهم من القرى وفي أنفسهم ، قال: فتح مكة".

وقال المنهال:" {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ}: ظهور محمد ﷺ على الناس".

=

=

قال الحسن: {في الآفاق}، "يعني: ما أهلك به الأمم السالفة في البلدان، فقد رأوا آثار ذلك. {وفي أنفسهم} أخبر بأنهم تصيبهم البلايا، فكان ذلك كما قال فأظهره الله عليهم، وابتلاهم بما ابتلاهم به".

وقال يحيى: يعني: "من الجوع بمكة، والسيف يوم بدر".

واختاره النحاس قائلا: " وأولى هذه الأقوال بالصواب هذا، ونسق الكلام يدلّ عليه".

واختاره ابن عطية، قائلا:"وهذا تأويل حسن ينتظم الإعلام بغيب ظهر وجوده بعد كذلك ويجري معه لفظ الاستئناف الذي في الفعل".

كما اختاره الطبري، وقال: " وذلك أن الله ﷻ وعد نبيّه ﷺ أن يري هؤلاء المشركين الذين كانوا به مكذّبين آيات في الآفاق، وغير معقول أن يكون تهدّدهم بأن يريهم ما هم راءوه، بل الواجب أن يكون ذلك وعدا منه لهم أن يريهم ما لم يكونوا راؤه قبل من ظهور نبيّ الله ﷺ على أطراف بلدهم وعلى بلدهم، فأما النجوم والشمس والقمر، فقد كانوا يرونها كثيرا قبل وبعد ولا وجه لتهددهم بأنه يريهم ذلك".

وقال الزمخشري:"يعنى: ما يسر الله ﷻ لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده ونصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموما وفي باحة العرب، خصوصا: من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة، وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعافهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أمورا خارجة من المعهود خارقة للعادات، ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة، وبسط دولته في أقاصيها، والاستقراء يطلعك في التواريخ والكتب المدوّنة في مشاهد أهله وأيامهم: على عجائب لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علما من أعلام الله وآية من آياته، يقوى معها اليقين، ويزداد بها

=

=

الإيمان، ويتبين أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يحيد عنه إلا مكابر حسه مغالط نفسه، وما الثبات والاستقامة إلا صفة الحق والصدق، كما أن الاضطراب والتزلزل صفة الفرية والزور، وأن للباطل ريحا تخفق ثم تسكن، ودولة تظهر ثم تضمحل".

الثاني: {فِي الآَفَاقِ}، يعني: منازل الأمم الخالية. {وَفِي أَنْفُسِهِمْ}، بالبلاء والأمراض. قاله ابن عباس.

الثالث: {فِي الآَفَاقِ}، يعني: وقائع الله تعالى في الأمم الخالية، {وَفِي أَنْفُسِهِمْ}: يوم بدر. قاله قتادة ، ومقاتل.

قال مقاتل:"{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنا}، يعني: عذابنا فِي الْآفاقِ يعني في البلاد ما بين اليمن والشام، عذاب قوم عاد، وثمود، وقوم لوط كانوا مرون عليهم، ثم قال: {وَنريهم} العذاب فِي {أَنْفُسِهِمْ}، فهو القتل ببدر".

الرابع: {فِي الآَفَاقِ}، يعني: أقطار الأرض والسماء من الشمس والقمر والنجوم والنبات والأشجار والأنهار والبحار والأمطار، {وَفِي أَنْفُسِهِمْ}: حوادث الأرض من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، وسبيل الغائط والبول،

حتى إن الرجل ليأكل ويشرب من مكان واحد، ويخرج ما يأكل ويشرب من مكانين. وفيه عبرة للإنسان بجسمه وحواسه وغريب خلقته وتدريجه في البطن ونحو ذلك. وهذا معنى قول ابن زيد ، وعطاء.

قال ابن زيد:"آفاق السموات: نجومها وشمسها وقمرها اللاتي يجرين، وآيات فى أنفسهم أيضا".

الخامس: أن {فِي الآَفَاقِ}: إمساك القطر عن الأرض كلها، {وَفِي أَنْفُسِهِمْ}: البلايا التي تكون في أجسادهم، قاله ابن جريج.

السادس: أن {فِي الآَفَاقِ}: انشقاق القمر، {وَفِي أَنْفُسِهِمْ}: كيف خلقناهم من

=

=

تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، وكيف إدخال الطعام والشراب من موضع واحدٍ وإخراجه من موضعين آخرين، قاله الضحاك.

السابع: {فِي الآفَاقِ}: آثار مَن مَضَى قبلهم مِمنْ كَذبَ الرسُلَ من الأمم وآثرَ خلقِ الله في كل البلاد، {وَفِي أَنْفُسِهِمْ}: من أنهم كانوا نُطَفًا ثم عَلقَا ثم مُضَغًا ثم عِظامًا كُسِيَتْ لحمًا، ثم نقلوا إلى التمييز والعقل، وذلك كله دَليل على أن الذي فعله واحدٌ ليس كمثلِهِ شيء. قاله الزجاج.

قال ابن كثير: المعنى: "سنظهر لهم دلالاتنا وحُجَجنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله، ﷻ، على رسوله ﷺ بدلائل خارجية {فِي الآفَاقِ}، من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان، {وَفِي أَنْفُسِهِمْ}: يحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى. وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حسن وقبيح وبين ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله، وقوته، وحِيَله، وحذره أن يجوزها، ولا يتعداها، كما أنشده ابن أبي الدنيا في كتابه «التفكر والاعتبار»، عن شيخه أبي جعفر القرشي:

وَإِذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُعْتَبَرا... فَانظُرْ إليْكَ فَفِيكَ مُعْتَبَرُ

أنتَ الذي يُمْسِي وَيُصْبحُ في... الدنيا وكُلّ أمُوره عبَرُ

أنتَ المصرّفُ كانَ في صِغَرٍ... ثُمّ استَقَلَّ بِشَخْصِكَ الكِبَرُ

أنتَ الذي تَنْعَاه خلْقَتُه... يَنْعاه منه الشَّعْرُ والبَشَرُ

أنتَ الذي تُعْطَى وَتُسْلَب لا... يُنْجيه من أنْ يُسْلَبَ الحَذَرُ

أنْتَ الذي لا شَيءَ منْه لَهُ... وَأَحَقُّ منْه بِمَاله القَدَرُ".

قوله تعالى: {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}، أي: "حتى يتبين لهم من تلك الآيات بيان

=

=

لا يقبل الشك أن القرآن الكريم هو الحق الموحَى به من رب العالمين".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: أري هؤلاء المشركين وقائعنا بأطرافهم وبهم حتى يعلموا حقيقة ما أنزلنا إلى محمد، وأوحينا إليه من الوعد له بأنا مظهرو ما بعثناه به من الدين على الأديان كلها، ولو كره المشركون".

قال ابن أبي زمنين: {أَنَّهُ الْحَقُّ}، " يعني: القرآن".

قال ابن عطية:"الضمير في قوله تعالى: {أَنَّهُ الْحَقُّ}، عائد على: الشرع والقرآن، فبإظهار الله إياه وفتح البلاد عليه تبين لهم أنه الحق".

قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}، أي:"أولم يكفهم أو لم يكفهم دليلا على صدقك أن ربك لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء؟ وأنه مطَّلع على كل شيء لا تخفى عليه خافية؟".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أولم يكف بربك يا محمد أنه شاهد على كل شيء مما يفعله خلقه، لا يعزب عنه علم شيء منه، وهو مجازيهم على أعمالهم، المحسن بالإحسان، والمسيء جزاءه".

قال ابن أبي زمنين:"أي: شاهد على كفرهم وأعمالهم، أي: بلى كفى به شهيدا عليهم".

قال ابن كثير:"أي: كفى بالله شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمدًا صادق فيما أخبر به عنه، كما قال: {لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزلَ إِلَيْكَ أَنزلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ} [النساء: ١٦٦]".

قال السمعاني:"يعني: أولم يكفك يا محمد من ربك أنه على كل شيء شهيد، وقيل معناه: أو ليس في شهادة ربك كفاية".

قال أبو الليث السمرقندي:"أولم يكف بربك شاهدا أن القرآن من الله تعالى".

قال الزمخشري:"معناه: أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم

=

=

سيرونه ويشاهدونه، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد، أي: مطلع مهيمن يستوي عنده غيبه وشهادته، فيكفيهم ذلك دليلا على أنه حق وأنه من عنده، ولو لم يكن كذلك لما قوى هذه القوة ولما نصر حاملوه هذه النصرة".

قال ابن الجوزي:"معنى «الكفاية» -هاهنا-: أنه قد بيَّن لهم ما فيه كفاية في الدّلالة على توحيده وتثبيت رسله".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ} السِّينُ لِلتَّنفيسِ، وهي تُفيدُ القُربَ والتَّحقيقَ، و (سوف) لِلتَّسويفِ وَهي تُفيدُ التَّحقيقَ مع البُعدِ؛ ولذلكَ يَجِبُ أن نُفرِّقَ بَينَ سَوفَ والسِّين، إذا كان الشَّيءُ سَيكونُ قَريبًا فَقُل: سَيكونُ، وإذا كانَ بَعيدًا فَقُل: سوفَ يَكونُ، ولِهذا تَجِدونَ قَولَ اللهِ تَعالَى: {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)} [التكاثر: ٣، ٤]؛ لأنَّه لَم يأتِ بَعدُ وهو بَعيدٌ بِالنِّسبةِ لِكونِه في الدُّنيا.

{سَنُرِيهِمْ} يَعني: عَن قُربِ قِراءَةٍ مُتحقِّقةٍ: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ} أي: نُظهِرُها لَهم حتَّى يَرَونَها بِأَعيُنِهم أو حتَّى يَرَونَها بِبَصائرِهم.

{آيَاتِنَا} الآياتُ جَمعُ آيَةٍ وهي في اللُّغةِ العَلامَةُ، والمُرادُ بِآياتِ اللهِ عَلاماتُه الدَّالَّةُ عَلى كمالِ عِلمِهِ وحِكمتِه وقُدرتِه وغَيرِ ذَلكَ مِن مُقتضياتِ رُبوبيَّتِه، واعلَم أَنَّ الآياتِ نَوعانِ:

١- آياتٌ شَرعيةٌ وَهي ما جاءت بِهِ الرُّسلُ ومنها هَذا القُرآنُ الكَريمُ.

٢- وَآياتٌ كَونيَّةٌ: وَهي الدَّالَّةُ عَلي كَمالِ اللهِ تبارك وتعالى في العِلمِ والخَلْقِ وكُلِّ ما يَتعلَّقُ بِرُبوبيَّته، وهي ما يَعجَزُ البَشرُ عَن مثلِه، فالبَشَرُ كُلُّهم عاجزونَ عَن أَن يَخلُقوا أَرضًا أو سَماءً أو نُجوما أو شَمسًا أو قَمرًا؛ ولهذا قال تَعالَى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} [فصلت: ٣٧]، هذه آياتٌ كَونيَّة؛ لأنَّه يَعجَزُ عن

=

=

مِثلِها البَشَرُ.

والآياتُ الشَّرعيةُ مِثلَ قَولِه تَعالَى: {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥)} [القلم: ١٥].

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ} أَقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ مِنَ النَّيِّراتِ والنَّباتِ والأشجارِ].

قَولُهُ تعالى: {فِي الْآفَاقِ} {الْآفَاقِ} جَمعُ أُفُقٍ وَهو النَّاحيةُ، والآفاقُ هُنا جَمعٌ فتَدُلُّ علي أنَّ هذِه الآياتِ سَتكونُ في كُلِّ ناحيةٍ مِنَ السَّماءِ والأرضِ، فَفي السَّماءِ نُجومٌ وَفي السَّماءِ شَمسٌ وَفي السَّماءِ قَمرٌ، وفيها مَشارقُ وفيها مَغارِبُ، كُلُّ هَذه مِن آياتِ اللهِ مَن يَستطيعُ أَن يَخلُقَ مِثلَ الشَّمسِ؟ لا أَحَدَ. مَن يَستطيعُ أَن يُجريَها بِهذا الإنتظامِ البديعِ مُنذُ خَلَقَها اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلي أن يَأذنَ بِخَرابِ العالَمِ؟ لا أَحَدَ يَستَطيعُ، مَن يَستطيعُ أَن يُزحزِحَها مِن مَشارِقِها الشَّرقيَّةِ الشَّماليَّةِ إلي مَشارِقِها الشَّرقيَّةِ الجَنوبيَّةِ؟ لا أَحَدَ، وهَلُمَّ جَرًّا هذا في آفاقِ السَّماءِ.

ومِن آفاقِ السَّماءِ ما يَحصُلُ مِنَ الأمطارِ الغَزيرَةِ أَوِ الخَفيفةِ والرَّعدِ والبرقِ وغَيرِ ذَلكَ، المُهمُّ أنَّ آفاقَ السَّماءِ كُلُّ ما عَلا فَإنَّه داخل في آفاقِ السَّماءِ.

كَذلكَ أيضًا آفاقُ الأرضِ فيها مِن آياتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ما يَدُلُّ على كَمالِ عِلمِه وقُدرتِه وحِكمتِه ورَحمتِه جِبالٌ وأَنهارٌ وبِحارٌ، فَيافي وأَودِيةٌ، هِضابٌ إلي غَيرِ ذَلكَ، نَباتاتٌ مخُتلِفَةٌ تَجِدُ النَّباتَ كَأنَّه رُقعةُ ثَوبٍ موشَّى، هذا أَخضرُ وهذا بَنَفسَجيٌّ وهذا أَبيضُ، وزُهورُها مختَلِفةٌ وثِمارُها مُختَلِفَةٌ تُسقَي بِماءٍ واحدٍ ويُفضِّلُ اللهُ بَعضَها عَلى بَعضٍ في الأُكُلِ.

كَذَلِكَ أَيضًا يَدخُلُ في قولِه: {فِي الْآفَاقِ} ما يَحصُلُ في الآفاقِ مِن حَربٍ وَسِلمٍ وأَمنٍ وخَوفٍ وشِدَّةٍ ورَخاءٍ، كُلُّ هَذهِ مِنَ الآياتِ مِن آياتِ اللهِ في الآفاقِ.

كَذلكَ ما يحصُلُ مِن غَلَبَةٍ وانهِزامٍ وغَيرِ هَذا، فاللهُ تَعالَي وَعَدَ بِأن يُرِيَ العِبادَ آياتِه

=

=

فِي الآفاقِ، فَكلُّ ما فِي الآفاقِ العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ مِمَّا لا يَستطيعُ الخَلقُ أن يَأتوا بِمِثلِه فَهو مِن آياتِ اللهِ.

{وَفِي أَنْفُسِهِمْ} يَعني: ونُريهُم آياتِنا فِي أَنفسِهم وذَلكَ مِن نَواحٍ مُتعدِّدةٍ، أَولًا مِن جِهةِ الخِلقَةِ كَيفَ خَلَقَ اللهُ سبحانه وتعالى الآدميَّ علي هَذهِ الصِّفةِ البَديعَةِ الغَريبَةِ الَّتي لا يوجَدُ مِنَ الحيواناتِ مَن هو مِثلُه فِي حُسنِ القامةِ وحُسنِ التَّدبيرِ والعقلِ وغَيرِ ذَلكَ.

كَذلكَ أَيضًا فِي أَنفُسهم مِن طولٍ وقِصَرٍ وبَياضٍ وسَوادٍ وحُسنِ خُلُقٍ وسوءِ خُلُقٍ.

كَذلكَ فِي أَنفُسِهم مِن تَقلُّباتِ الأحوالِ وكَونِ الإنسانِ أَحيانًا يُريدُ كَذا، وأَحيانًا يُريدُ كَذا وأَحيانًا يُريدُ الشَّيءَ ويُصمِّمُ عَليهِ، وإِذا به مَصروفٌ عنه هَذا مِن آياتِ اللهِ.

ولهِذا قيلَ لِعَرَبيٍّ: بِم عَرفتَ رَبَّك؟ قال: بِصَرفِ الهِمَمِ، يَعني: تَقليبَ القُلوبِ، تَجِدُ الإنسانَ مَثلًا مُتَجِهًا إلي أن يَنصَرِفَ إلى الشَّمالِ، فَإِذا به يَنصرِفُ إلي الجَنوبِ بِدونِ أيِّ سَببٍ لَكن بِتقديرِ اللهِ ﷻ.

كَذلكَ أيضًا مِن آياتِ اللهِ فِي الإِنسانِ تَركيبُ هذا البَدَنِ العَجيبِ البَديعِ، واسأَل أَهلَ التَّشريحِ عَن هَذا تَجِدُ العَجَبَ العُجابَ إِن أَتيتَ إلى الرَّأسِ وَما فيه مِنَ المُخِّ وما فيه مِنَ الأدواتِ، وإِذا أَتيتَ إلي الأَمعاءِ وإلى المَعِدَةِ وإلي الكَبدِ وإلي الغُدَدِ وإلي غَيرِها تَجِدُ العجَبَ العُجابَ، يَعني: أَنَّه دولَةٌ فِي الواقعِ، دولةٌ كُلُّ شَيءٍ مِنهُ لَهُ عَملُه الخاصُّ. مَن يَستَطيعُ أَن يُرَكِّبَ هَذا؟ اللهُ ﷻ.

كَذلِكَ أَيضًا مِنَ الآياتِ فِي الأنفُسِ: ما حَصَلَ لِقُريشٍ فِي بَدرٍ حَيثُ إِنَّ قُريشًا فِي بَدرٍ خَرجت إلي بَدرٍ كَما وَصفَ اللهُ ﷻ: {بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [الأنفال: ٤٧] يَقولُ القائلُ مِنهم: "واللهِ لن نَرجعَ حتَّى نَقدُمُ بَدرًا فنُقيمُ فيها ثَلاثًا نَنحرُ الجَزورَ ونَسقي الخُمورَ وتَعزفُ عَلينا القيانُ وتَسمَعُ بِنا العَربُ، فَلا يَزالونَ يَهابونَنا أَبدًا".

=

=

هَكَذا قالوا، ولَكِنَّ الأمرَ صارَ بِالعَكسِ -والحَمدُ لله-، صار العربُ يَتحدَّثون عَن هَزيمتِهم إلي أن يَشاءَ اللهُ مِن أَمَدِ الدُّنيا، هَذا مِن آياتِ اللهِ.

كَذلِكَ مِن آياتِ اللهِ تَعالَى فِي الإِنسانِ: أَنَّ النَّاسَ يَختَلِفونَ اختلافًا عَظيمًا فِي الفَهمِ والحِفظِ والعملِ، تَجِدُ هَذا يَختارُ هَذا العَمَلَ، والآخرُ يَقولُ: كَيفَ يَصبِرُ هَذا الرَّجلُ عَلي هذا العَمَلِ، وَآخَرُ بِالعَكسِ، هَذا مِن آياتِ اللهِ تبارك وتعالى.

كَذلِكَ أَيضًا النَّاسُ يَختَلِفونَ فِي الفَهمِ: مِنَ النَّاسِ مَن إِذا قَرأتَ عليهِ العبارةَ فَهِمَها من أَوَّل مَرَّةٍ، ومنَ النَّاسِ مَن لا يَفهمُها في أَوَّل مرَّةٍ، مِنَ النَّاسِ مَن إِذا تَلَوتَ عَليهِ العبارَةَ حَفِظَها مِن أَوَّل مَرَّةٍ، ومِنَ النَّاسِ مَن لَيس كَذلك، كُلُّ هَذا مِن آياتِ الله، وإِلَّا فالدَّمُ واحدٌ والعَصَبُ واحدٌ والعِظامُ واحدةٌ والجِلدُ واحدٌ، وكُلُّ شَيءٍ واحدٌ لَكن يَختلِفُ النَّاسُ هَذا الِاختلافَ العَظيمَ.

كُلُّ هَذا داخلٌ فِي قَولِه: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ} يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَفِي أَنْفُسِهِمْ} مِن لَطيفِ الصَّنعةِ وبَديعِ الحِكمةِ]. {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} يَتبَيَّنُ بِمعنًى يَتَّضِحُ لَهُم أي: لِهؤلاءِ المُكذِّبينَ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أَنَّهُ} أَي: القُرآنَ]، ويَحتملُ أَن يُرادَ بِهِ الرَّسولُ عليه الصلاة والسلام، ويَحتَمِلُ أَن يُرادَ المَعنيانِ جَميعًا.

قولُه تَعالَى: {أَنَّهُ الْحَقُّ} يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{الْحَقُّ} المُنزَّلُ مِنَ اللهِ تبارك وتعالى بِالبَعثِ والحِسابِ والعِقابِ فيُعاقَبونَ عَلى كُفرِهم بِهِ وبِالجائي به].

{أَنَّهُ الْحَقُّ} الحقُّ فِي الأَصلِ هو الشَّيءُ الثَّابتُ الواقعُ لا مَحالَةَ، ومنه قَولُه تَعالَى: {الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ} [الحاقة: ١- ٢] يَعني: الشَّيءَ الثَّابتَ، ويُطلَقُ عَلي مَعانٍ مُتعدِّدةٍ مِنها: أَنَّه الصِّدقُ، فالصِّدقُ حَقٌّ وضِدُّهُ الكَذِبُ باطلٌ، ومِنها: العدلُ، فالعَدلُ حَقٌّ وضِدُّه الجَورُ وهو باطلٌ؛ ولِهذا قالَ اللهُ تَعالَى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [الأنعام: ١١٥] ومِنها -أي: مِن مَعاني الحَقِّ- أَنَّه

=

=

الشَّيءُ الثَّابِتُ الَّذي لا يُزَحزِحُه أَحَدٌ، وضِدُّه الشَّيءُ الَّذي لا يَثبُتُ ولا يَستَقِرُّ وكُلُّ إنسانٍ يُبطلُهُ.

فَأنتَ الآنَ تَجِدُ أنَّ القُرآنَ الكَريمَ مَهما جادلَ بِهِ المُجادِلُ ليدفَعَه فَحُجَّتُه باطِلةٌ، ولا يُمكنُ لِأحدٍ أَن يَغلبَ القُرآنَ بل القُرآنُ غالبٌ، لَكنِ اعلَموا أَيُّها الإِخوةُ أَنَّ كَونَ القُرآنِ غالبًا إِنَّما هو بِحَسَبِ حامِلِه؛ ولِذلكَ تَجِدُ السَّيفَ البَتَّارَ بيدِ الجَبانِ لا يُغني شَيئًا، لا بُدَّ أن يَكونَ القُرآنُ بِحَسَبِ حامِلِهِ وإِلَّا فالقُرآنُ نَفسُهُ لا يُمكنُ أَن يُغلبَ أَبدًا إِلَّا أَنَّه قَد يُغلَبُ مِن جِهةِ حامِلِه، وهذا لَيسَ عَيبًا في القُرآنِ ولَكنَّه عَيبٌ في حاملِ القُرآنِ.

قَولُه تَعالَى: {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [المُنزَّلُ مِنَ اللهِ بالبَعثِ والحِسابِ]، وهذا التَّخصيصُ مِنَ المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ علي سَبيلِ المِثالِ، وَإِلَّا فَإِنَّه يَتبيَّنُ أَنَّه الحَقُّ في كُلِّ شَيءٍ في كَونه يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، وفي كَونِ أَحكامِه عَدلًا وأَخبارِه صِدقًا وغَيرِ ذلك.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فيُعاقَبونَ علي كُفرِهِم بِه]، أَفادنا المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ المُرادَ بِالتَّبيُّنِ هُنا لازَمَه وهو المُعاقَبَةُ؛ لِأَنَّه لَو كانَ المُرادُ التَّبَيُّنَ فقط بِدونِ عِقابٍ عَلي مخُالفتِه بَعدَ التَّبيُّنِ لَم يَكنْ هُناكَ فائدةٌ، وَمن ذَلكَ أَيضًا -أَي مِن كَونِه يُطلَقُ البَيانُ أَوِ العِلمُ ويُرادُ بِه اللَّازِمُ- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦)} [الزلزلة: ٦] أَي: ليرَوها ويُجازَوا عَليها، وهذه الآيةُ أَيضًا {يَتبَيَّنَ} فَيُعاقَبونَ علي كُفرِهم به.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وبِالجائي به] الجائي بِهِ الرَّسولُ ﷺ.

قال اللهُ تَعالَى: {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} لمَّا بَيَّنَ اللهُ سبحانه وتعالى أَنَّه سَيُظهرُ الآياتِ حتَّى يَتبَيَّنَ أنَّ هَذا القُرآنَ حَقٌّ وأَنَّ محُمَّدًا حَقٌّ ذَكَرَ شيئًا أَعظمَ دَلالَةً على أَنَّ القُرآنَ حَقٌّ، وعلى أنَّ الرَّسولَ ﷺ حَقٌّ، إِنَّه هو اللهُ عَجَلَّ ولهذا

=

=

قالَ: {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} ؟
والجَوابُ: بَلَي يَكفي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعالَى إِذا رَأَى هذا الرَّجلَ يَدعو النَّاسَ إلي ما يَدعوهم إِلَيه ويُقاتِلُهم بِهِ ويَنصُره اللهُ عَليهِم ويُمكِّنُ له في الأرضِ ويَتَّبِعُهُ النَّاسُ هَل يُمكنُ أن يُقِرَّ اللهُ ذَلِكَ وهو باطلٌ ؟
لا يُمكنُ أَبدًا، لا يُمكنُ إِطلاقًا، فَكَونُ اللهِ تَعالى يُمَكِّنُ لِرسولِه ﷺ في الأرضِ، ويَجلِبُ قُلوبَ النَّاسِ إِليهِ ويَنصرُه عَلي أَعدائِهِ ويَفتَحُ بِدينِه آفاقَ الشَّرقِ والغَربِ، كُلُّ هَذا دَليلٌ عَلي أَنَّه حَقٌّ، وشَهادَةُ اللهِ سبحانه وتعالى لِرسولِه نَوعانِ:
١- شَهادَةٌ قَوليَّةٌ.
٢- وشَهادةٌ فِعليَّةٌ.
أَمَّا الشَّهادَةُ القوليَّةُ فَدَليلُها قَولُه تَعالى: {لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا (١٦٦)} [النساء: ١٦٦] هذه شَهادَةٌ مِنَ اللهِ.
أَمَّا الشَّهادَةُ الفِعليَّةُ فَهي تَمكينُ اللهِ تَعالَى لمُحمَّدٍ ﷺ في الأرضِ ونَصرُه إيَّاه وغَلَبةُ دينِهِ عَلي جَميعِ الأديانِ.
يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ: [{أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ} فاعلُ يَكفي] والباءُ مَزيدَةٌ فيهِ لِتَحسينِ اللَّفظِ ونَظيرُها: {وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا} أي: وَكَفَي اللهُ شَهيدًا، وعلى هَذا فَنَقولُ في إِعرابِها: الباءُ حَرفُ جَرٍّ زائِدٌ إِعرابًا فائدَتُه تَحسينُ اللَّفظِ، ورَبُّ فاعلُ يَكفي مَرفوعٌ بِضَمَّة مُقدَّرةٍ عَلي آخِره مَنَعَ مِن ظُهورِها حَرفُ الجَرِّ الزَّائِدِ.
وقولُه: {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ} أَضافَ الرُّبوبيَّةَ لِلرَّسولِ عليه الصلاة والسلام، وهذا لِلتَّشريفِ والتَّكريمِ؛ لِأَنَّه رَبُّ كُلِّ شَيءٍ.
وانظُر إلي قَولِه تَعالَى: {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ} [النمل: ٩١]؛ لِئَلَّا يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الرُّبوبيَّةَ خاصَّةٌ بِهذه البَلدَةِ، كَذلِكَ أَيضًا

=

=

إِضافَةُ الرُّبوبيَّة إلي الرَّسولِ مِن بابِ التَّشريفِ والتَّكريمِ، والإِشارَةُ إلى أَنَّه سَوفَ يَنصُرهُ على عَدوِّه؛ لِأَنَّ رُبوبيَّةَ اللهِ لِلرَّسولِ عليه الصلاة والسلام رُبوبيَّةٌ خاصَّةٌ.

وقَولُه تَعالَى: {أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} بَدلٌ مِن قَولِه: {بِرَبِّكَ} . والبَدلُ يَقولونَ في تَعريفِه: هو الَّذي إذا أسقطتَ المُبدَلَ مِنه استَقامَ الكلامُ. تَقُول: أعجبَني زَيدٌ خُلُقُه هَذا بَدلٌ، أَسقِط زَيدًا: أَعجَبني خُلُقُ زَيدٍ. أَكَلتُ الرَّغيفَ ثُلُثَهُ: أَسقِطِ الرَّغيفَ، وَيستَقيمُ الكَلامُ، هَذا رابطُ البَدلِ، وهُنا نَقُول: {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ} أَسقِط بِرَبِّكَ تَقولُ: أَوَلَم يَكفِ أَنَّ اللهَ علي كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ، يَستَقيمُ، لَكن لا شَكَّ أَنَّ القُرآنَ الكَريمَ لا يُمكنُ أَن يُوجِدَ بَدلًا ومُبدلًا مِنهُ إلَّا لفائدةٍ عَظيمةٍ، فيَكونُ: {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ} شَهادَةً ونُصرةً وتَثبيتًا وما أَشبهَ ذَلِكَ، ثُمَّ قالَ: {أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} هَذا بَعضٌ مِن مُقتَضَى رُبوبيَّتِه سبحانه وتعالى.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} بَدَلٌ مِنه أي: أَوَلَم يَكفِهِم في صِدقِكَ أَنَّ رَبَّك لا يَغيبُ عَنه شَيءٌ ما؟]، والشَّهادَةُ هُنا نَوعُها فِعليَّةٌ، يَعني: {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} وَقَد مَكَّنَ لَكَ في الأَرضِ وَثَبَّتك ونَصَرَك عَلَيهم وعلى كُلِّ عَدوٍّ لَكَ؟

والجَوابُ: بَلَى، واللهِ إنَّ هَذا لَكافٍ، وهذا كقولِه تَعالَى: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠)} [العنكبوت: ٥٠] بَعدَها: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ} [العنكبوت: ٥١] الكِتابُ أَعظمُ آيةً شَهادَةٌ مِنَ اللهِ عَلي صِدقِ رَسولِه.

ثُمَّ قالَ اللهُ تَعالَى: {أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ} {أَلَا} أَداةُ استِفتاحٍ وتُفيدُ شَيئين:

الشَّيءَ الأَوَّلَ: التَّوكيدَ.

والشَّيءَ الثَّانيَ: التَّنبيهَ {أَلَا} وهي غَيرُ مُركَّبةٍ بَل هي كَلمةٌ واحدَةٌ.

=

=

قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ}، أي:"ألا إن هؤلاء الكافرين في شك عظيم من البعث بعد الممات".

قال الطبري: يقول:"ألا إن هؤلاء المكذّبين بآيات الله في شكّ من لقاء ربهم، يعني أنهم في شك من البعث بعد الممات، ومعادهم إلى ربهم".

قال السمعاني:"أي: في شك من البعث والنشور".

قال ابن كثير:"أي: في شك من قيام الساعة؛ ولهذا لا يتفكرون فيه، ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هَدَرٌ لا يعبئون به وهو واقع لا ريب فيه وكائن لا محالة".

قال ابن أبي زمنين:"يقولون: لا نبعث ولا نلقى الله".

قال ابن عطية:"قوله: «ألا»: استفتاح يقتضي إقبال السامع على ما يقال له، فاستفتح الإخبار على أنهم في شك وريب وضلال أداهم إلى الشك في البعث".

قال الصابوني:"«ألا»: استفتاحٌ لتنبيه السامع إلى ما يقال، أي: ألا فانتبهوا أيها القوم إن هؤلاء المشركين في شكٍ من الحساب والبعث والجزاء، ولهذا لا يتفكرون ولا يمنون".

عن السديّ: " {أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ}، يقول: في شك".

عبد الله بن محمد بن سعيد الأنصاري: أن عمر بن عبد العزيز صَعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإني لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحمق ، والمكذب به هالك ثم نزل".

وقرأ أبو عبد الرحمن والحسن: «في مرية»، بضم الميم، والمعنى واحد.

قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ} [فصلت: ٥٤]، أي:"ألا إن الله -جلَّ وعلا- بكل شيء محيط علمًا وقدرة وعزةً، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في

=

=

السماء".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ألا أن الله بكل شيء مما خلق محيط علما بجميعه، وقدرة عليه، لا يعزب عنه علم شيء منه أراده فيفوته، ولكن المقتدر عليه العالم بمكانه".

قال ابن كثير:"أي: المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته، وتحت طي علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن".

قال ابن أبي زمنين:"أحاط علمه بكل شيء".

قال السمعاني:"أي: محيط علمه بجميع ذلك".

قال الزجاج:"أي: عالم بكل شيء علمًا يحيطُ بما ظَهَر وَخَفِيَ".

قال الزمخشري: أي:"عالم يجمل الأشياء وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها، فلا تخفى عليه خافية منهم، وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم".

قال ابن عطية:"إحاطته تعالى هي بالقدرة والسلطان، لا إله إلا هو، العزيز الحكيم".

قال السدي:"أحاط علمه بكل شيء".

وقال الكلبي:"أحاطت قدرته بكل شيء".

وقال العثيمين: يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ} شكٍّ {مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ} لِإنكارِهِم البَعثَ]، فَهُم والعياذُ بِاللهِ في شَكٍّ مِن لِقاءِ اللهِ ولَو كانوا يَرجونَ للهِ لِقاءً لاستقاموا وخافوا مِنه، كُلُّ إِنسانٍ يُؤمِنُ بِأَنَّه مُلاقٍ رَبَّه، فَإِنَّه سوف يَستقيمُ علي أَمرِ اللهِ؛ لِأَنَّه يَعلمُ أَنَّ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ سوف يُحاسِبُه علي هذا.

{أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا} {أَلَا} أَداةُ استفتاحٍ أُخري تُفيدُ التَّنبيهَ والتَّوكيدَ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أَلَا إِنَّهُ} تعالى {بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ} عِلمًا وقُدرةً فَيُجازيهم

=

=

بِكُفرِهم].

هُم في شَكٍّ مِن لِقاءِ اللهِ لَكِن سوفَ يُنبِّئُهمُ اللهُ ﷻ بِما عَمِلوا؛ لِأنَّه بِكُلِّ شَيءٍ محُيطٌ وعلى هَذا فَصلَةُ قَولِه: {أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ} بما قَبلَها الإِشارةُ إلي أَنَّه سوفَ يُجازيهم.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها- قوله تعالى: (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...) (فصلت: ٩) الآيات، فقد تقدم ذكرها في سورة الأعراف.

الآية الثانية منها- قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (فصلت: ٢٠)، وفي سورة الزخرف: (حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ) (الزخرف: ٣٨)، وقد تقدم في سورة الزمر قوله تعالى في أهل النار: (إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) (الزمر: ٧١)، وفي أهل الجنة: (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) (الزمر: ٧٣)، للسائل أن يسأل عن زيادة (ما) في وقله في سورة السجدة: (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا) وسقوطها في سوى هذه الآية؟

والجواب، والله أعلم: أن (إذا) تزاد بعدها (ما) كثيرًا فصيحًا، وقد لا تزاد، وكلا المرتكبين فصيح. إذا تقرر هذا فمن المعلوم أيضًا أن العرب مع أنهم يؤثرون إيجاز الكلام في الأكثر قد يختارون الطول وإطناب الكلام في بعض المواضع، وذلك بحسب ما تدعو إليه الحال:

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وإذا تأملت آية السجدة وجدتها مبنية على ما يستدعي الإطالة وينافر الإيجاز لقصد استيفاء ما تضمنت من حال أهل النار في امتحانهم، ألا ترى تخصيصها بما ذكر فيها من شهادة الأسماع والأبصار والجلود، وعتبهم جلودهم في الشهادة

=

=

عليهم بقولهم: (لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا) (فصلت: ٢١، ومجاوبة الجلود بقولها: (أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) (فصلت: ٢١)، إلى آخر ما كلمتهم به، ألا ترى أن الوارد هنا من قصصهم قد نيف على عشر آيات، وأن آية الزخرف وهي أطول البواقي ورد مضمونها في أربع آيات، وأما آية الزمر فلم تبلغ واحدة منها صلاص آيات. فزيدت- ما- في آي السجدة مناسبة لما انجر في ذلك المقصود بها من الإطناب والالستيفاء، ولم تزد في البواقي لما بنيت عليه من الإيجاز، فجاء كل منها على ما يلائم ويناسب، ولم يكن ليناسب عكس الوارد على ما تمهد، والله أعلم.

الآية الثالثة من سورة السجدة- قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) (فصلت: ٤٥)، وفي سورة الشورى: (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) (الشورى: ١٤)، للسائل أن يسأل عن خلو آية السجدة من ذكر النهاية المذكورة في (الآية) الأخرى؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آية الشورى تقدم قبلها ذكر تلك الغاية والأجل في قوله: (وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) (الشورى: ٧)، فهذا هو الوقت الموعود والأجل المسمى، فلما تقدم ذمره وقعت الإحالة عليه في قوله: (أَجَلٍ مُسَمًّى)، (وأما) آية السجدة فلم يتقدم (فيها) ذكر هذه الغاية على الوفاء بخ وبما فيه، وأما قوله تعالى فيها: (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ) (فصلت: ١٩) فأشار إلى وقت حشرهم وإدخالهم في النار، وإنما ذلك فعل يقصد هؤلاء في ذلك اليوم وبعض ما فيه، فأوقع اسم اليوم على الوقت الذي يؤمر فيه بهؤلاء إلى النار، كما قال تعالى: (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ) (الأنفال: ١٦) أي قت القتال، فوقع اسم اليوم على الوقت، إذ لا يتقيد لقاء العدو وقتاله بيوم برأسه

=

=

ولا بنهار دون ليل، فإنما وقع اليوم في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ﴾ (فصلت: ١٩) الآية على وقت من اليوم يتقيد به بعض أفعال ذلك اليوم، أما تفصيل ما فيه من استغراق الفريقين والإفصاح باسمه فإنما ذلك يث ذكر، فكان هناك ما يحال عليه، وقد تكرر ذكره في قوله تعالى في سورة التغابن: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ (التغابن: ٩)، فلتدم ذكره موفى التعريف باسمه وقعت الإحالة عليه والإشارة بقوله: ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾، فقد وضح ورود كل من الآيتين على ما يناسب، ولا يناسب عكس الوارد، والله أعلم.

الآية الرابعة من سورة السجدة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت: ٥٢)، وفي سورة الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ (الأحقاف: ١٠)، قد يسأل عن وقوع- ثم- في الأولى ووقوع واو النسق مكانها في الآية الثانية؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن ثم للترتيب الزماني واقتضاء المهلة فيه، وتأتي أيضًا لبيان رتبة ما يعطف بها، وأن له موقعًا وخطرًا وبه اعتناء، وقد مر بيان ذلك. وإن تفاوت الرتب كتفاوت الزمان، ولا توقف في أن كفرهم بالقرآن بعد علمهم أنه من عند الله (أو ثبوت أنه من عند الله كما هو) وكما قد علم من سعد بالإيمان به وإن كذبوه، فلا شك أن ذلك مرتكب شنيع وضلال بعيد، فجيء هنا بثم لتحرز عظيم اجترامهم وشنيع مرتكبه، فجاءت على ما يجب.

ولما قصد في آية الأحقاف زيادة شهادة عليهم بتصديق من تقرر عنده علم الكتاب المنزل قبل كتابنا، ممن يعرف علمه، فشهد بما عنده من العلم، أن هذا الذي جاء به محمد ﷺ إنما هو من عند الله، وكان ذلك أبين في الحجة عليهم فلم يرد بثم لاقتضائها مهلة لم تقصد هنا، وبيان النظم الجليل الوارد في الآية بما تقدره تقريبًا

=

=

لإفهامنا أن كأن قد قيل لهم: يا محمد أرأيتم إن كان القرآن من عند الله وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فكفرتم وآمن ذلك الشاهد واستكبرتم أنتم عن الإيمان فكيف تكون حالكم؟

واقتضى حكم هذا معنى الآية، ففي الكلام تقديم (وتأخير) اقتضاه جليل نظم الكتاب وعلى براعته، وإذا كان المعنى على تشريك ما تأخر في التركيب من قوله: وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله أن كان من عند الله لم يكن ليصبح بين المنسوقين المحمول أحدهما على الآخر بما يقتضي الجمع من غير فتور ولا مهلة الفصل بثم لأنها منافرة لهذا الغرض، فورد هذا بالواو ليحرز ما قررناه من المعنى، ووردت الآية الأولى بثم لتحرز معناها أيضًا، وجاء كل على ما يجب ويناسب، ولا يمكن خلافه، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٣٤-٤٣٦).

الفهرس

